

رَوَائِعُ تِرَاثِ الزَّيْدِيَّةِ

مَجْمُوعُ كُتُبِ وَرَسَائِلِ
الإمام القاسم بن إبراهيم الرسي
(١٦٩ - ٢٤٦هـ)

الجزء الأول

تأليف

الإمام القاسم بن إبراهيم بن اسماعيل بن إبراهيم بن الحسن
ابن الحسن بن علي بن أبي طالب (عليهم السلام)

دراسة وتحقيق

عبد الكريم أحمد جدران



دار الحكمة اليمنية
للتجارة والتوكيلات العامة

جميع حقوق الطبع محفوظة.

الطبعة الأولى

١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م



دار الحكمة للنشر

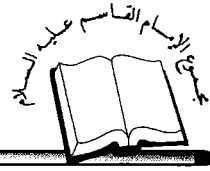
للتجارة والتوكيلات العامة

صنعاء - الجمهورية اليمنية

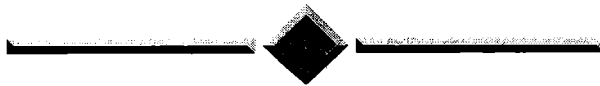
هاتف: ٢٧٢٤٧٤ - ٢٧٥٢١٩

ص.ب: ١١٠٤١ - برقياً حكمة

س.ت: ٨٠٣ / ٢١ فاكس: ٢٧٢٤٣٣



مقدمة التحقيق



بسم الله الرحمن الرحيم

من حق العقيدة على الكتّاب وعلى الناس أن تتناولها الأقلام الجادة، وأن تكثر فيها البحوث القيمة، وأن تلقى من العناية ما يناسب جلال موضوعها.

وفي عصرنا هذا تصدر مطبوعات فوق الحصر لشغل الأعين والأذهان بالمسائل التافهة من لُهو الحياة ولغوها، وترف الحضارة ومجوها.

وهناك لا ريب كتب ضخمة تعالج حقائق العلم ومشكلات الوجود، لكنها — للأسف — قلّما تتعرض بالاهتمام الواجب للإيمان بالله واليوم الآخر، وما يستتبعه هذا الإيمان من تصحيح نظرنا للدنيا وتفهّم رسالتنا فيها.

ولو كان الكلام عن الله وما ينبغي له من وقار، ومن لقائه المنتظر، وما يتطلبه من استعداد، وعن رسله الأكرمين وما يجب لهم من أتباع... لو كان ذلك من النوافل التي يسوغ للمرء أن يتكاسل عنها، ويزهد فيها، لما كان علينا من بأس في غَضِّ النظر عن ((العقيدة)) وبحوثها!!

أما الأمر مقامرة خطيرة النتيجة، قد يربح الإنسان فيها حاضره ومستقبله، وقد يخسرهما جميعاً.. فلا بد من التفكير العميق في هذه المسألة وبذل الجهد في الوصول إلى قرار تستريح إليه النفس.

فلننظر إذن إلى الموضوع نظرة الإنسان العاقل إلى كل مشروع فيه هلاكه أو نجاته، فهو يلتفت إليه بكل ما يملك من قوة وعزم.

وكثيرة هي الكتب التي تدفع بها المطبعة العربية في حقل الدراسات الإسلامية إلى أيدي القراء.. وعظيم ذلك الرواج الذي تلقاه الكتب التي تتصل بمباحث الإسلام بسبب وثيق أو ضعيف!

لكن هذه الظاهرة التي يسعد بها الكثيرون لا تحمل كل الإيجابيات الموضوعية الباعثة على السعادة والسرور؟!

فنحن أمة مستهدفة، تواجه العديد من التحديات التي يفرضها عليها أعداء كثيرون... وهذه التحديات منها ما هو ذاتي وموروث.. ومنها: ما هو خارجي، أعد ليلعب دوره المعوق والمدمر على أرضنا، وضمن المصادر الفكرية الموجهة لأمتنا، وأيضا

ليحرس وينمي قيود «التخلف — الذاتي — الموروث»!.

وإذا كان الإسلام هو الأيديولوجية الطبيعية لأمتنا الإسلامية، والحصن الذي تحصنت به وهي تواجه التحديات التي فرضها عليها الأعداء منذ عصر الفتوحات، وحتى ثوراتها التحررية الحديثة — وعبر تحدياتها مع التتار والصليبيين —... فإن الكثير من المسمى إسلاما مما تحمله المطابع إلى القارئ المعاصر لا يمثل «الفكرية القادرة» على أن تكون البديل للتشوه المعرفي، والمسوخ الحضاري، الذي تمارسه معنا الحضارة الغربية العنصرية الإستعلائية.

والكثير من هذا الذي يسمى «إسلاما» عاجز عن أن يمثل «الحصن» الذي يعين الأمة في موقفها الراهن، على أن تحرز النصر فيما فرض عليها من مواجهات.

إن أمتنا لن تستطيع مواجهة الحضارة الغربية المادية، ذات العقلانية المفرطة، بفكر يُغيب دور العقل.. ويدعي أن هذا هو الإسلام!

ولن تستطيع أن تواجه قوة التقدم العلمي، الذي يتسلح به الغرب، بسيل من الكتب يُغرق العقل في تفاصيل التفاصيل عن القصص الخرافي، أو الإسرائيلي الذي يروجه البعض باسم الإسلام!

فإذا كنا جادين حقا في إعداد القوة المستطاعة، الكافلة لإرهاب أعداء الله، وأعداء الأمة، والضامن حقا استخلاص الحقوق السليبة، فلا بد لنا من الوعي بعوامل التقدم التي صنعت الازدهار الحضاري لأمتنا، وبالعوامل الضعف التي كانت سببا للتراجع والانحطاط.

والوعي كذلك بضرورة التفاعل الحضاري مع الآخرين.. وأهداف هذا التفاعل.. والضوابط والشروط التي تحول بينه وبين التحول إلى التبعية، أو الارتداد إلى العزلة والانغلاق...

وإذا كان صراع أمتنا — بعد ظهور الإسلام — مع التيارات الفكرية، التي مثلت محاولات الاختراق المعادي، قد تمخض عن صياغة عقلانيتها العربية الإسلامية المتميزة، التي تجسدت في علم الكلام، فلسفة مؤسسة على الدين، تفاعل فيها العقل والنقل، وتأخت فيها الحكمة والشرعية... فإن هذه العقلانية المتميزة هي التي صنعت حقبة

الازدهار الحضاري التي أضاءت فيها حضارتنا أرجاء الكوكب الذي نعيش عليه. كذلك كانت النصوصية الجامدة، التي أنحلت بالتوازن وبالوسطية الإسلامية، عندما انحازت لحشو النقل ضد العقل!!! وتعبدت بظواهر النصوص والمأثورات — هي البداية لحقبة الجمود والتراجع، وتوقف الخلق والإبداع والاجتهاد.

ومما لا ريب فيه أن للزيدية الدور الأصيل والبارز في تحرير العقل، من خلال نظريتهم وتصورهم التزهي لتوحيد الخالق — جل وعلا من الخرافة، والشعوذة... ومن العبودية لكل الطواغيت...

وتحرير إرادة الإنسان من الجبرية والتواكل، الذي يشل إرادة الأمة لحساب الأعداء . الذي يفرضون عليها التحديات، من خلال نظريتهم وتصورهم للعدل.

وفي تحرير الأمة من أنظمة الجور، والفسق، والضعف، والفساد، من خلال نظرية الجهاد والثورة — الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر — الأمر الذي يحيي الأمة إحياء حقيقيا ويضمن لها استجابة الدعاء.



ترجمة المؤلف

هو أبو محمد القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام.

أبوه:

إبراهيم طباطبا بن إسماعيل لُقِّبَ (طباطبا) لأن أباه أراد أن يقطع له ثوبا وهو طفل فخيرَه بين قميص وقبا، فقال: طباطبا. يعني: قبا قبا. وقيل: بل السواد لقبوه بذلك. وطباطبا بلسان النبطية: سيد السادات.

أحد العلماء الكبار والفرسان الشجعان، الذين كانت تخافهم الدولة العباسية، كان ذا خطر وتقدم، وهو ممن خرج مع الإمام الحسين الفخري، وظل في حبس المهدي وموسى وهارون بعده حتى مات في الحبس.

قال الإمام القاسم العياشي: كان أبوه إبراهيم بن إسماعيل بوادٍ في شامي ينبع يسمى الغيص^(١) يغمر بعض ضياعه، وكانت قد ظهرت دعوته وشهر استحقاقه للمقام، فكان الخليفة يخافه لذلك، فلم يزل يعمل فيه حتى أرسل من أحاط به في ضيعته، وهو في غفلة من امره فقبض عليه السلام ومضوا به حتى أوصلوه الخليفة، فلما وصلوا جعلوه في السجن — والخليفة يومئذ ببغداد — في سجن العامة وطولوا سجنه، وأتخنوه بالحديد.

وكان أخذه وولده القاسم حَمَلٌ في بطن أمه، فأقام في السجن سبع عشرة سنة، ثم عمل فيه رجل من شيعته من أهل المدينة مع بعض الحباسين، فلما أسعفه واستخرجه في ساعة غفلة من الناس، وكان شيعيُّه هذا حطَّاباً، والخطب هنالك يجمع ويحتكر حتى ربما اجتمع عند صاحبه مثل التل، فعمل وسط ذلك الخطب بيتا من الخطب، وفيه مصالحه ثم أدخله إياه، فلما فقد من الحبس طلب وحُفظت أقطار الدنيا عليه، وقلبت

(١) في المخطوط: الفيض، وهو (الغيص) من أودية المدينة. انظر مطلع البدور، وفاء الوفاء ١٢٧٠/٤.

المدينة كلها خرابها ودهاليزها ومنازلها، فلم يجدوه مع سترِ الله وعونه لوليه.

فأقام في ذلك الخطب سنة، فلما دار عليه الحول اكرى له صاحبه في الموسم مَحْمَلًا، وجعل كراءه لامرأة فكان في ذلك المَحْمَلُ يحجبُ ويصان كما تصان المرأة، حتى وصل مكة ودخل في الناس وتنكر وخرج يتلمس أهله وأولاده، وكان ولده القاسم لما ولد بعده شبَّ ونشأ أديباً لبيباً عالماً جواداً فانتقل بأهله إلى جبال الأشعر^(١) وتحرز فيها من الظالمين، فلم يزل أبوه يسير حتى وصل منازل أهله، فأتى فناء ولده ووجده قاعداً في حلقة في جماعة وهو فيهم منظوراً إليه، مردود مجلس الجماعة عليه، فتوسَّمه فقال: إن كان عاش ولدي فهو هذا، فسَلَّم على الجماعة فردّوا أحسن التحية عليه، وقال من أنت يا غلام؟

فقال: أنا القاسم بن إبراهيم.

قال: فأين أبوك؟

قال: في رحمة الله.

قال: فأنا هو.

قال: غَلَطْتَ!!

قال: ليس كما قلت إن له منذ قبض وقتل ما يداني العشرين السنة.

قال: فأنا هو قد حبست و طال ذلك وسَلَّم الله، ثم أخلاه من الجماعة ثم سأل: أعاد عمك فلانة، وأمك فلانة، وأختك، وسألته عن أهله.

فقال له: دَعُ عنك هذا فإنه ربما يأتي بعض مردة بني آدم بمثل هذا، ولم يقربه إلى معرفة.

قال: امض إلى أهلك فأعلمهم بما ذكرت لك، فمضى إلى أهله فأخبرهم بخبر أبيه ونكرته له، فقالت له أمه: على أبيك عِلْمٌ لا ينكر. قالت: في صدره ضربتان بسيف معترضتان، على ثديه أثرهما لا يغيب، فإن كان ذلك فهو أبوك فعاد إليه.

فقال له: في صدرك ضربتان أثرهما بادٍ. فقال: نعم. فأراه ذلك فلما رآه [عرفه]

(١) الأشعر جبل جهينة ينحدر على ينبع. وفاء الوفاء ٤/ ١١٢٦.

حق معرفته، وتبادرت عيناه لذلك، واعتنقه وقدمه إلى أهله فلم ينكروه حين رأوه^(١). وعن فترة شباب الإمام، قال الشهيد حميد المحلي: أخبرنا الإمام المنصور بالله أمير المؤمنين أبو محمد عبد الله بن حمزة بن سليمان سلام الله عليه وعلى آبائه الأكرمين، قال: روى القاضي العالم ابن عمار، قال: أخبرني فقيه آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في عصرنا الحسين بن حمزة، قال: أخبرني أبي النفس الزكية، والشيبة المرضية، حمزة بن أبي هاشم الإمام الرضى، يرفعه عن آبائه إلى شيخ من شيوخ آل الحسن، كان يدرس عليه فتيان آل الحسن، وكانوا إذا جاءوا قام في وجوههم وعظمتهم، وأقسموا عليه لا فعل.

وكان القاسم عليه السلام من شباب ذلك العصر، وكان إذا أتى قام في وجهه وعظمه، فقالوا له: أيها السيد إنا قد عذرناك وهذا الفتى لك أعذر.

فقال: لو تعلمون من حق هذا ما أعلم، لاستصغرت ما أصنع في حقه!!

فقالوا: وما تعلم؟

قال: هذا الفتى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يخرج من ذريتي رجل مسروق الرباعيتين، لو كان بعدي نبي لكان هو^(٢).

أمه:

هند بنت عبد الملك بن سهل بن مسلم بن عبد الرحمن بن عمرو بن سهيل بن عبد شمس بن عبد ود بن نضر بن مالك بن خسل بن عامر بن لؤي.

ولادته:

ولد سنة ١٦٩هـ = ٧٨٥م).

(١) سيرة الإمام القاسم بن علي العياشي/١٤٣. ورواه ابن أبي الرجال في مطلع البدور في ترجمة الإمام

إبراهيم بن إسماعيل. نقلا عن الإمام القاسم العياشي/٥١ - ٥٢.

(٢) الحدائق الوردية ٢/١.

لم تحدد المصادر التاريخية مكان مولده، ولعله ولد بالمدينة، لأن بعض المصادر تقول: إنه نشأ بالمدينة وسكن جبال (قدس) بأطرافها.

صفته:

كان تام الخلق، أبيض اللون، كث اللحية، وكانت لحيته كالقطنه لشدة البياض. ولم يكن يخلق شاربه^(١).

عاش في عهد الدولة العباسية وعاصر هارون الرشيد، والأمين، والمأمون، والمعتصم، والواثق بن المعتصم، ثم أخاه جعفر المتوكل، لذي قتل سنة/٢٤٧هـ، والإمام القاسم توفي سنة (٢٤٦هـ).

أولاده:

ذكر له المؤرخون أحد عشر ولدا من الذكور^(٢). وذكر له السيد مجد الدين المؤيدي اثني عشر ولدا ذكرا، كما يلي:

١- محمد ٢- الحسن ٣- الحسين ٤- سليمان ٥- عيسى ٦- موسى ٧- علي ٨- إبراهيم ٩- يعقوب ١٠- داوود ١١- إسماعيل ١٢- يحيى^(٣).

وذكر له ابن عتبة سبعة من الذكور الذين أعقب منهم، السالفوا الذكر، عدا عيسى، وعلي، وإبراهيم، ويعقوب، وداوود^(٤).

وذكر له أبو نصر البخاري ستة: الحسن، وإسماعيل، وإبراهيم، ويحيى، وسليمان، والحسين^(٥).

(١) الإفادة/١٢٠.

(٢) هداية الراغبين/٤٣٥، والتحفة العنبرية/٨٢.

(٣) التحف شرح الزلف/٤٩.

(٤) عمدة الطالب/٢٠١.

(٥) سر السلسلة العلوية/٢٨.

وذكر الإمام أبو طالب أربعة: محمد، والحسن، والحسين، وسليمان^(١).

ولم يذكر أي مؤرخ — فيما أعلم — بنتا من بناته.

وقد عمل على تربيتهم وتعليمهم وتفقيهم، في تلك المنطقة البعيدة عن العمران، والحياة الصاخبة، حتى صاروا من أكمل الناس علما ودينا. حتى قال عنهم السيد الهادي بن إبراهيم الوزير: كل واحد منهم يصلح للإمامة^(٢).

وقال ابن عنبه: وله عدة أولاد متقدمون^(٣).

ولعل يحيى أكبرهم ومن أحبهم إليه، توفي يحيى هذا في حياة أبيه. قال الإمام أبو طالب عن الإمام الهادي: ولد بالمدينة سنة خمس وأربعين ومائتين، وكان بين مولده وبين موت جده القاسم عليه السلام سنة واحدة، وأُحْمِلَ حين ولد إليه، فوضعه في حجره المبارك، وعوده وبرك عليه ودعا له، ثم قال لابنه: سم سميت؟ قال: يحيى. وقد كان للحسين أخ لأبيه وأمه، يسمى: يحيى، توفي قبل ذلك، فبكى القاسم عليه السلام حين ذكره، وقال: هو والله يحيى صاحب اليمن. وإنما قال ذلك لأخبار رويت بذكره وظهوره باليمن، وقد ذكرها العباسي المصنف لسيرته عليه السلام^(٤).

قال ابن عنبه: فأعقب من سبعة رجال: يحيى العالم الرئيس،... أما يحيى بن الرسي فكان رئيسا.

وقال: وأما الحسن بن الرسي وكان بالمدينة سيدا رئيسا^(٥).

وقال: والحسين السيد الجواد، وقال: وأما أبو عبد الله الحسين بن القاسم وكان سيدا كريما^(٦).

(١) الإفادة/١١٦.

(٢) هداية الراغبين/٤٣٥.

(٣) عمدة الطالب/٢٠١.

(٤) الإفادة/١٢٨ - ١٢٩.

(٥) عمدة الطالب/٢٠١.

(٦) عمدة الطالب/٢٠٤.

قال: وأما إسماعيل وكان رئيسا متقدما^(١).

وقال الإمام القاسم: صحبت الصوفية أربعين سنة، ودرت المشرق والمغرب، ولم أر رجلا أشد ورعا من ابني محمد^(٢).

مشائخه

أبوه إبراهيم بن إسماعيل.

أبو بكر بن أبي أويس المدني^(٣).

إسماعيل بن أبي أويس^(٤).

أبو سهل سعد بن سعيد المقبري^(٥).

ولا شك أن مشائخه كثر سيما وقد طاف عواصم العلم والمعرفة في زمنه، بيد أني ذكرت مشائخه الذين روى عنهم في الأحكام لحفيده الإمام الهادي.

تلامذته

لقد كان الإمام القاسم مرجعا لسائر الديانات السماوية، والطوائف الإسلامية في عصره، فلقد كان مجلسه دائما عامرا بالعلماء والباحثين، من الملاحدة والمسيحيين، ومن علماء المعتزلة وغيرهم، في مصر والعراق والحجاز وأينما حل، يأتيه المسترشدون من العراق وطبرستان، ومصر والحجاز، كل هذا أثناء دعوته وجهاده.

ثم صار بعد استقراره في بادية الرس بالمدينة، وتفرغه للتعليم والتأليف صار مقصدا للباحثين وقبلة للمسترشدين، قال العلامة أحمد بن موسى الطبري — من أصحاب

(١) عمدة الطالب/٢٠٢.

(٢) التنبيه والدلائل للإمام القاسم العياشي/٢٨٢ (مخطوط).

(٣) الأحكام ٣٤٦/١.

(٤) الأحكام ٣٥٢/١.

(٥) الأحكام ٥٢٩/٢.

حفيده الهادي —: ولحق بالحجاز ولزم جبلاً يقال له: الرس، فأقبل على تعليم الناس، حتى أظهر دين جده، ووفد إليه خلق كثير من آفاق الدنيا^(١).

حدثنا أبو محمد، عبد الله^(٢) بن أحمد، قال: أخبرني أبي رحمه الله أحمد، بن محمد، بن الحسين، بن سلام قال: أنفذ إلينا أبو محمد، القاسم بن إبراهيم، بن إسماعيل، بن إبراهيم، بن الحسن، بن الحسن، بن علي أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى أهله الأئمة الأكرمين، أول ما أنفذ إلينا من كتبه، كتاباً يقال له: سياسة النفس.

قال أبي رحمه الله: فلما قرأنا الكتاب وكنا لا نرحل إليه، ونرحل إلى غيره من أهل البيت عليهم السلام، فأسفنا على ما فاتنا منه، وقلنا ليس من حق علوي يحسن أن يقول مثل هذا، إلا أن نكون جواب كتابه. فزحلنا إليه، فأقمنا عنده في أول رحلتنا إليه سنة، ثم بعد ذلك كنا نرحل إليه في الأوقات، ثم سمعنا منه هذا الكتاب وأوله..^(٣).

ومن حفظ لنا التاريخ ذكرهم ممن أخذوا عليه، أولاده وأهل بيته جميعاً.

ومحمد بن منصور المرادي، والحسن بن يحيى بن الحسين بن زيد بن علي، ويحيى بن الحسن بن جعفر بن عبيد الله العقيقي صاحب (كتاب الأنساب)، وله إليه مسائل، وعبد الله بن يحيى القومسي العلوي الذي أكثر الناصر الأطروش الرواية عنه، ومحمد بن موسى الحواري العابد روى عنه فقها كثيراً، وعلي بن جهشيار، وأبو عبد الله أحمد بن محمد بن الحسن بن سلام الكوفي صاحب فقه كثير ورواية غزيرة، وجعفر بن محمد النيروسي، ومحمد بن موسى الخوارزمي، وعبد الله بن الحسن الإيوازي الكلاري، وأبو عبد الله الفارسي، وغيرهم كثير^(٤).

(١) المنبر/١٠٠ (مخطوط).

(٢) أحمد بن محمد، أحد أعيان الناصر، ثم الداعي، وكان عالماً ديناً ورعاً، توفي بعد العشر والثلاث مائة. وأحمد بن محمد بن سلام الكوفي من ثقة محدثي الشيعة، ومن صحب الإمام القاسم وروى عنه، وعن ابن عينية، ومحمد بن راشد، وعبد بن يعقوب، والحسن بن عبد الواحد القزويني، وغيرهم. وروى عنه ابنه عبد الله، ومحمد بن منصور، وعلي بن أبي سليمان، ومحمد بن بلال.

(٣) المكنون.

(٤) انظر الإفادة/١١٦، ١٢٠، ١٢٥. وهداية الراغبين/٤٣٥.

نشأ نشأة آبائه الأكرمين في أحضان الفضيلة والعلم والزهد والورع والجهاد.

خرج أخوه محمد بن إبراهيم على المأمون العباسي في الكوفة يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الأولى سنة (١٩٩هـ)، وبث الدعاة في سائر النواحي، وأنفذ أخاه القاسم بن إبراهيم إلى مصر للدعاء إليه وأخذ البيعة له، وكان عمر الإمام القاسم يومئذ (٢٧) أو (٢٦) سنة.

وقاتل الإمام محمد بن إبراهيم العباسيين قتالا شديدا وقتل منهم مقتلة عظيمة في وقعات عدة، حتى قيل إنه قتل منهم مائتين ألف جندي (٢٠٠، ٠٠٠). ثم إنه أصيب بسهم وطعن في بعض وقعاته فاعتل، ثم مات عليه السلام يوم السبت لليلة دخلت من رجب سنة (١٩٩هـ) ودفن في الكوفة.

البيعة الأولى سنة (١٩٩هـ):

علم الإمام القاسم باستشهاد أخيه محمد بن إبراهيم وهو بمصر، فدعا إلى نفسه وبث الدعاة وهو على حال الاستتار، فأجابه عالم من الناس من بلدان مختلفة، وجاءته بيعة أهل مكة، والمدينة، والكوفة، وأهل الري (طهران حاليا)، وقزوین، وطبرستان، والديلم، وكتبه أهل العدل من البصرة، والأهواز، وحثوه على الظهور وإظهار الدعوة، فأقام بمصر نحو عشر سنين.

وذاع صيته هنالك وانتشر خبره، وكان بيته ملتقى للعلماء والباحثين والمناظرين، ومناظرة الملحد كانت في مصر، وتناهى إلى سمع المأمون خبره وخافه خوفا شديدا وضيق عليه، وتبع أخباره وبعث الجواسيس عليه وعلى كل من يشك أن له به صلة.

ذكر الطبري: أن رجلا من إخوة المأمون قال له: يا أمير المؤمنين، إن عبد الله بن طاهر — وكان والي مصر يومئذ — يميل إلى ولد علي بن أبي طالب، وكذا كان أبوه من قبله.

قال: فدفع المأمون ذلك وأنكره، ثم عاد بمثل هذا القول، فدرس إليه رجلا ثم قال له: امض في هيئة القراء والنسك إلى مصر فادع جماعة من كبارها إلى القاسم بن إبراهيم بن طباطبا، واذكر مناقبه وعلمه وفضائه، ثم صر بعد ذلك إلى بعض بطانة عبد

الله بن طاهر، ثم اتته فاذعته ورغبه في استجابته له، والبحث عن دفين نيته بحثاً شافياً، وائتني بما تسمع منه.

قال: ففعل الرجل ما قال له، وأمره به، حتى إذا دعا جماعة من الرؤساء والأعلام، قعد يوماً بباب عبد الله بن طاهر، وقد ركب إلى عبيد الله بن السري بعد صلحه وأمانه، فلما انصرف قام إليه الرجل، فأخرج من كمه رقعة فدفعها إليه، فأخذها بيده، فما هو إلا أن دخل فخرج الحاجب إليه، فأدخله عليه وهو قاعد على بساطه، ما بينه وبين الأرض غيره، وقد مدّ رجله، وخفّاه فيهما، فقال له: قد فهمت ما في رقعتك من جملة كلامك، فهات ما عندك، قال: ولي أمانك وذمة الله معك؟ قال: لك ذلك.

قال: فأظهر له ما أراد، ودعاه إلى القاسم، وأخبره بفضائله وعلمه وزهده، فقال له عبد الله: أئنصفي؟ قال: نعم. قال: هل يجب شكر الله على العباد؟ قال: نعم. قال: فهل يجب شكر بعضهم لبعض عند الإحسان والمنة والتفضل؟ قال: نعم. قال: فتحيء إلي وأنا في هذه الحالة التي ترى، لي خاتم في المشرق جائز وفي المغرب كذلك، وفيما بينهما أمرني مطاع، وقولي مقبول، ثم ما التفت يميني ولا شمالي وورائي وقدامي إلا رأيت نعمة رجل أنعمها عليّ، ومنة ختم بها رقبتي، ويدا لائحة بيضاء ابتدأني بها تفضلاً وكرماً، فتدعوني إلى الكفر بهذه النعمة وهذا الإحسان، وتقول: اغدر. من كان أولاً لهذا وآخر، واسع في إزالة خيط عنقه وسفك دمه! تراك لو دعوتني إلى الجنة عياناً من حيث أعلم، أكان الله يجب أن اغدر به، وأكفر إحسانه ومنته، وأنكث بيعته! فسكت الرجل، فقال له عبد الله: أما إنه قد بلغني أمرك، وتالله ما أخاف عليك إلا نفسك، فارحل عن هذا البلد، فإن السلطان الأعظم إن بلغه أمرك — وما آمن ذلك عليك — كنت الجاني على نفسك ونفس غيرك.

فلما أبس الرجل مما عنده جاء إلى المأمون، فأخبره الخبر، فاستبشر وقال: ذلك غرس يدي، وإلف أدبي، وترّب تلقّحي، ولم يظهر من ذلك لأحد شيئاً، ولا علم به عبد الله إلا بعد موت المأمون^(١).

وشدد المأمون على الإمام القاسم وواليه في مصر حتى رصد الجوائز لمن يدل على الإمام القاسم.

قال السيد أبو طالب: عن أبي عبد الله الفارسي — خادم القاسم وملازمه في السفر والحضر — قال: ضاق بالإمام القاسم عليه السلام المسالك واشتد الطلب، ونحن محتفون معه خلف حانوت أسكاف — صانع الأحذية — من خلصان الزيدية، فنودي نداء يبلغنا صوته: برئت الذمة ممن آوى القاسم بن إبراهيم، ومن لا يدل عليه، ومن دل عليه فله ألف دينار، ومن البز كذا وكذا. والإسكافي مطرق يسمع ويعمل ولا يرفع رأسه، فلما جاءنا قلنا له: أما ارتعت؟! قال: من لي بارتياحي منهم! ولو قرضت بالمقاريض بعد إرضاء رسول الله صلى الله عليه وعلى آله عني في وقايي لولده بنفسي^(١).

((واشتد الطلب له هناك من عبد الله بن طاهر فلم يمكنه المقام، فعاد إلى بلاد الحجاز وتهامة، وخرج جماعة من دعائه من بني عمه وغيرهم إلى بلخ، والطارقان، والجوزجان، ومرورؤذ فبايعه كثير من أهلها، وسألوه أن ينفذ إليهم بولده ليظهروا الدعوة، فانتشر خبره قبل المتمكن من ذلك، فتوجهت الجيوش في طلبه نحو اليمن — يعني جهة اليمن — فاستنام — أي انحاز — إلى حي من البدو واستخفى فيهم. وأراد الخروج بالمدينة في وقت من الأوقات، فأشار عليه أصحابه بأن لا يفعل ذلك، وقالوا: المدينة والحجاز تسرع إليهما العساكر، ولا يتمكن فيهما من الميرة.

ولم يزل على هذه الطريقة مثابرا على الدعوة صابرا على التغرب والتردد في النواحي والبلدان، متحملا للشدة، مجتهدا في إظهار دين الله.

ولقد حاول المأمون كثيرا في مصافاة الإمام القاسم ليأمن جانبه، فلم يحصل على طائل.

حكى الإمام الهادي يحيى بن الحسين عن أبيه، أن المأمون كلف بعض العلوية أن يتوسط بينه وبين القاسم عليه السلام ويصل ما بينهما، على أن يبذل له مالا عظيما،

فخطبه في أن يبدأ بكتاب أو يجيب عن كتابه، فقال القاسم: لا يراني الله تعالى أفعل ذلك أبدا!!

وحمل الحروي — وهو حي من جذام — إلى الإمام القاسم سبعة أبغل عليها دنائير فردها، فلامه أهله على ذلك، فقال:

تقول التي أنا رداء لها وقاء الحوادث دون الردى
ألست ترى المال منهلة محارم أفواهاها باللهي
فقلت لها وهي لومة وفي عيشها لو صحت ما كفى
كفاف امرئ قانع قوته ومن يرض بالعيش نال الغنى
فإني وما رمت في نيله وأقبلك حب الغنى ما ازدهي
كذي الداء هاجت له شهوة فخاف عواقبها فاحتمي^(١)

ولما اجتمع أمره وقرب خروجه بعد وفاة المأمون وتولي محمد بن هارون الملقب بالمتصم، تشدد محمد هذا في طلبه، وأنفذ الملقب بيغا الكبير وأشناس في عساكر كثيرة كثيفة في تتبع أثره، وأحوج إلى الانفراد عن أصحابه، وانتقض أمر ظهوره^(٢).

نأسي أهل البيت

روى السيد أبو العباس الحسيني بسنده... قال: حدثنا محمد بن زكريا العلابي، قال: صرت إلى أحمد بن عيسى بن زيد وهو متوارٍ بالبصرة، فسألته أن يحدثني بأحاديث؟ فقال لما طلبنا هارون^(٣) خرجت أنا والقاسم بن إبراهيم، وعبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن، ففترقنا في البلاد فوقعت في ناحية الري، ووقع عبد الله بن موسى بالشام، وخرج القاسم بن إبراهيم إلى اليمن، فلما توفي هارون اجتمعنا بالموسم

(١) الإفادة/ ١٢٦ - ١٢٧.

(٢) الإفادة/ ١٢١ - ١٢٢.

(٣) قال في هامش المخطوط: أراد بهارون هارون الواثق بن المتصم بن الرشيد، والله أعلم.

فتشاكينا ما مر علينا ونالنا.

فقال القاسم: أشد ما مر بي أني لما خرجت من مكة أريد اليمن صرت في مفازة لا ماء فيها، ومعى ابنة عمي وهي زوجتي وبها حمل، فجاءها المخاض في ذلك الموضع، فحفرت لها حفرة لتتولى أمر نفسها، وضربت في الأرض أطلب لها ماء، فرجعت وقد ولدت غلاما وجهدها العطش، فألححت في طلب الماء فرجعت إليها وقد ماتت والصبي حي، فكان بقاء الغلام أشد علي من وفاة أمه، فصليت ركعتين ودعوت الله أن يقبضه، فما فرغت من دعائي حتى مات.

وشكا عبد الله بن موسى أنه خرج في بعض قرى الشام وقد حث عليه الطلب وأنه صار إلى بعض المسالخ، وقد تزيا بزي الأكره والملاحين، فسخره بعض الجند، وحمل على ظهره وأنه كان إذا أعبى فوضع ما على ظهره للاستراحة ضربه ضرباً مبرحاً، وقال لعنك الله ولعن من أنت منه.

وقال أحمد بن عيسى وكان من غليظ ما نالني أني صرت على ورزّين ومعى ابني محمد فتزوجت إلى بعض الحاكة هناك وتكنيت بأبي جعفر الجصاص، فكنت أغدو فأقعد مع بعض من آنس به من الشيعة، ثم أروح إلى منزلي كأني قد عملت يومي، وأولدت المرأة بنتاً، وتزوج ابني محمد إلى بعض موالى عبد القيس هناك، وأظهر مثل الذي أظهرته، فلما صار لابنتي نحو عشر سنين، طالبني أخوالها بتزويجها من رجل من الحاكة له فيهم قدر، فضقت ذرعاً لما دُفعت إليه، وخفت إظهار نسي وألح القوم علي في تزويجها، ففزعت إلى الله تعالى وضرعت إليه في أن يختار لها ويقبضها، ويحسن علي الخلف، فأصبحت والصبية عليلة ثم ماتت من يومها، فخرجت مبادراً إلى ابني محمد أسره، فلقيني في الطريق وأعلمني أنه ولد له ولداً فسميته علياً، فهو بناحية ورزّين لا أعرف له خبراً، للاستتار الذي أنا فيه^(١).

والملاحظ على هذه الرواية ذكر هارون الرشيد مع أنه توفي في جمادى الآخرة سنة (١٩٣هـ)، يعني قبل خروج محمد بن إبراهيم بست سنوات، وأيضاً فإن عبد الله بن

(١) تنمة المصايح/٣٢١. ونحوه في أمالي أبي طالب/٩٩.

طاهر كان واليا على مصر للمأمون وقبله أبوه طاهر بن الحسين، وهو الذي ضيق على الإمام القاسم كما تقول الرواية السابقة، وأنه توجه إلى اليمن.

وأیضا فإن هذه الرواية تفيد أنه تم اللقاء بين أحمد بن عيسى بن زيد، والإمام القاسم بن إبراهيم، وعبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن في الموسم، يعني الحج.

ومثل هذا اللقاء وقع في الكوفة في بيت محمد بن منصور المرادي عندما بايعوا الإمام القاسم البيعة الثانية سنة (٢٢٠هـ)، يعني بعد وفاة المأمون بسنتين، لأنه توفي كما تؤكد المصادر التاريخية سنة (٢١٨هـ)، يعني أنه بويغ في زمن المعتصم محمد بن هارون الرشيد.

كل هذا يؤكد أن ذكر هارون الرشيد في الرواية السابقة سهو، وإنما هو المأمون بن هارون الرشيد.



اللقاء التاريخي لأهل البيت

البيعة الثانية سنة (٢٠٠هـ):

بويح الإمام القاسم البيعة الثانية وعمره (٥١) سنة، روى السيد أبو العباس الحسيني قال: وحدثنا محمد بن منصور بالكوفة سنة تسعين ومائتين، قال: كنت في منزلي بالكوفة سنة عشرين ومائتين كثيراً حزناً، لما فيه آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم وما فيه شيعتهم، حتى استأذن عليّ أبو عبد الله أحمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين صلوات الله عليه، فاستقبلته وأدخلته منزلي، فرحبت به وسرتني سلامته [قادمًا] من البصرة، ثم ما شعرت بشيء وأنا في الحديث معه، والتوجه لما فيه أمة محمد صلى الله عليه وآله، حتى استأذن إليّ أبو محمد القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل الرسي عليه السلام، فاستقبلته وأدخلته ورحبت به، وسررت بسلامته [قادمًا] من الحجاز، وجعلنا نتحدث ونذكر ما فيه الناس من الظلم والتعدي، وما تغلب عليه الجاثرون، حتى استأذن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن عليهم السلام، فغدوت واستقبلته وأدخلته الدار، وهنأت له بسلامته وقدمه من الشام سالماً، لأنه كان يكون يجبل فكام، وأقبل عليه أحمد بن عيسى والقاسم بن إبراهيم يسألانه عن حاله وأمره.

قال: ورأهم أبو محمد الحسن بن يحيى بن الحسين بن زيد عليهم السلام، فجاءنا ودق علينا الباب فقممت ففتحت له، فسلم على القوم ودعا لهم بالسلامة، وقال: الحمد لله الذي جمعنا وإياكم في دار ولي من أوليائنا.

قال محمد بن منصور: وهؤلاء هم الذين كان يشار إليهم، ويفزع السلطان منهم، وقد امتنعوا من الحضور عندهم وفي مجالسهم وأخذ عطاياهم.

قال محمد بن منصور: فورد عليّ من السرور ما لا أحسنُ أصفه، ودهشت وأردت أن أخرج فأخذ ما يأكلون، فقالوا إلى أين تمضي، زرنك وتتركنا وتخرج؟!!

فقلت: يا سادتي آخذ لكم ما يصلح لكم من المأكول. فقالوا: وما عندك شيء؟ قلت: بلى، ولكنني أستزيد.

فقالوا: وما عندك؟ فقلت: عندي خبز وملح ولبن وتمر. فقالوا: أقسمنا عليك لا

تزيد على هذا شيئاً، وأغلق الباب لناًمن، فقممت واستوثقت من الباب وأغلقتته، وقدمت إليهم طبقاً عليه خبز وملح وخل وعمر ولبن، فاجتمعوا وسموا الله عز وجل، وجعلوا يأكلون من غير حشمة حتى استوفوا، وشربوا من ماء الفرات الذي كان عندي. وقاموا فتوضئوا للصلاة، فصلوا صلاة الأولى فرادى ووجدانا، فلما انقلبوا مدوا أرجلهم كل واحد على سجادته، يتحدثون ويغتمون لأمة محمد صلى الله عليه وآله، وما هم فيه من الجور والظلم. وقعدت على عتبة الصُفَّة ليراني جماعتهم وبكيت، وقلت: يا سادة أئمة الأئمة وأنتم أولاد رسول الله، وأولاد فاطمة وعلي صلوات الله عليهم، وأنتم المشار إليكم، وأنتم أهل الحل والعقد، وأنتم العلماء، والأئمة من ذرية النبي صلى الله عليه وآله وولد الوصي عليه السلام، وقد اجتمعتم وجمع الله بينكم، ونحن بلا إمام ولا لنا جماعة، ولا عيد، فارحموا كبر سني، وأعملوا فيما يقربكم إلى الله عز وجل، وبايعوا واحداً منكم أعلمكم وأقواكم، حتى يكون الرضى منكم، ترضون به الإمام لنا، إمام نطيعه ونعرفه، ونموت بإمام للمسلمين، ولا نموت موة جاهلية، ونكون نعرفه.

فقالوا: صدقت أيها الشيخ ما أحسن ما قلت، وإن لك ملتنا ولحمنا ودمنا، وأنت منا أهل البيت، وما نطقت فهو الصواب، ونحن نفعله بإذن الله إن شاء الله تعالى.

قال: فقلت: فرحوني ولا تبحروا حتى تبرموا ولا تؤخروا إلى مجلس آخر، فإننا لا نأمن الحوادث!

فبرز أبو محمد القاسم بن إبراهيم وأقبل على أبي عبد الله أحمد بن عيسى، وقال: إن شيخنا وولينا قد قال قولاً صادقاً متفقاً، وقد اخترتك لأمة محمد صلى الله عليه وآله، وأنت العالم القوي، تقوى على هذا الأمر، فقد رضيتك ورضي أصحابنا، فتول هذا الأمر، ومُد يدك أبايك على كتاب الله وسنة رسوله فأنت الرضا، ما تقولون يا أصحابنا؟ قالوا جميعاً: رضى رضى.

فقال أحمد بن عيسى: لا والله وأنت يا أبا محمد حاضر، إذا حضرت فلا يجب لأحد أن يتقدمك، ويختار عليك، وأنت أولى بالبيعة مني.

فقال القاسم: اللهم غفرا اللهم غفرا، أَرْضَاكَ وَأَسْأَلُكَ أَنْ تقوم بأمة محمد صلى

الله عليه وآله، فتحيله علي؟! فقال: لا يكون ذلك وأنت حاضر.

قال: ثم أقبل القاسم على عبد الله بن موسى، فقال: يا أبا محمد قد سمعت ما جرى، وقد امتنع أبو عبد الله أن يقبل ما أشرت به، وأنت لنا رضى، وقد رضىتك لعلمك وزهدك.

فقال يا أبا محمد: نحن لا نختار عليك أحدا، وقد أصاب أبو عبد الله فيما قال، وأنت الرضى لجميعنا.

فقال: اللهم غفرا، أحلت علي أنت أيضا؟! لما ترهدون في النظر لأمة أبيكم محمد وللناس عامة؟! لا

ثم أقبل على الحسن بن يحيى بن الحسين بن زيد، فقال: فأنت يا أبا محمد إقبل هذا الأمر، فإنك أهل له وأنت قوي على النظر فيه، والبلد بلدك، وتعرف من أمر الناس ما لا نعرف.

فقال: يا أبا محمد والله لا يتقدم بين يديك أحد إلا وهو مخطئ، أنت الإمام وأنت الرضى وقد رضىنا بك جميعاً.

فقال القاسم: اللهم غفراً اللهم غفراً.

قال: ثم إن أحمد بن عيسى أقبل على القوم فقال: إن أبا محمد لنا رضى، وقد رضىت به، قال عبد الله بن موسى، والحسن بن يحيى: صدقت أيها الشيخ.

قال محمد بن منصور: فخفت أن يفوتنا وقت الصلاة للعصر، ولم يرموا حتى انتبز أحمد بن عيسى القاسم بن إبراهيم وأخذ يده، وقال: قد بايعتك على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله، وأنت الرضا. فجعل القاسم يقول: اللهم غفرا اللهم غفراً.

ثم بايعه عبد الله بن موسى، والحسن بن يحيى ورضوا به، وقال لي: بايع، فقمت إليه: وبايعت القاسم بن إبراهيم على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله، ثم قال لي القاسم: قم يا أبا عبد الله وأذن، وقل فيه: حي على خير العمل، فإنه هكذا نزل به جبريل عليه السلام، على جدنا محمد صلى الله عليه وآله.

فقمت وأذنت وركعت وأقمت، فتقدم القاسم بن إبراهيم فصلى بنا جماعة صلاة العصر، وباتوا عندي تلك الليلة، فصلى بنا المغرب والعشاء جماعة، فلما أصبحوا

تفرقوا ومضى القاسم بن إبراهيم إلى الحجاز، وأحمد بن عيسى إلى البصرة، وعبد الله بن موسى إلى الشام، ورجع الحسن بن يحيى إلى منزله، فكانوا على بيعة القاسم عليه السلام^(١).

جهاد الإمام

إن الجهاد الأمر المعروف والنهي عن المنكر، والخروج على الحاكم الظالم، بالثورة المسلحة يعتبر الأصل الخامس من أصول الدين لدى الزيدية، فإذا كان الجهاد يوازي أو يرقى إلى مستوى توحيد الله وعدله، فلا عجب إذاً إن رويت الأرض من دماء شهداء الفضيلة — الزيدية — ولا عجب أيضاً إن ملأت قبورهم ساحات العراق وإيران واليمن والمغرب والمدينة وسائر البقاع، فما ذلك إلا ضريبة لازمة للحق الذي آمنوا به، وثمان مدفوع للشعار الذي رفعوه.

قال الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب: والله لم أخرج أشراً ولا بطراً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي. ألا ترون إلى الحق لا يعمل به، وإلى الباطل لا يتناهى عنه.

وقال الإمام زيد بن علي: والله لوددت أن يدي معلقة بالثريا ثم أقع حيث أقع على أن يصلح الله بي أمر أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وقال وقد خفقت الرايات على رأسه: الحمد لله الذي أكمل لي ديني، والله إني كنت أستحيي من رسول الله صلى الله عليه وآله أن أرد عليه ولم آمر في أمته بمعروف ولم أنه عن منكر.

وقال: والله لوددت أنها تؤجج لي نار ثم أقذف فيها على أن يصلح الله بي أمر أمة جدي.

وقال الإمام زيد في دعوته — البيان والبرنامج السياسي لثورته —: أدعوكم إلى كتاب الله وسنة رسول الله، وإماتة البدع، وإحياء السنن، وإعطاء المحرومين، والدفع

(١) تنمة المصاييح لأبي العباس الحسني/ ٣٢١ - ٣٢٥. (مخطوط).

عن المستضعفين، وقسم الفيء بينكم بالسوية، ونصر الحق وأهله.

وقال الإمام زيد لولده يحيى وهو يجود بنفسه: ما أنت صانع يا بني؟ قال: أقاتلهم وأجاهدهم. قال: نعم، يا بني، جاهدكم فوالله إن قتلاك في الجنة وإن قتلاهم في النار. فإذا كانت هذه وصية الوالد لولده وهو يجود بنفسه فما ظنك بمرتبة الجهاد عند هؤلاء القوم؟!

وقال الإمام يحيى بن زيد:

يا بن زيد أليس قد قال زيد من أحب الحياة عاش ذليلاً
كن كزيد فأنت مهجة زيد تتخذ في الجنان ظلاً ظليلاً
وقال الإمام محمد بن عبد الله النفس الزكية:

منخرق الحفين يشكو الوجى تنكبه أطراف مروٍ حداد
شرده الخوف وأزرى به كذاك من يكره حر الجلال
قد كان في الموت له راحة والموت حتم في رقاب العباد
إن يحدث الله له دولة يترك آثار العدى كالرماد

وقال إبراهيم بن عبد الله يرثي أخاه محمداً:

سأبكيك بالبيض الرقاق وبالقنا فإن بما ما يدرك الطالب الوترا
ولست كمن يكي أخاه بعيرة يعصرها من جفن مقلته عصرا
ولكنني أشفي فؤادي بغارة ألهب في قطري كئيبها جبرا

وقال الإمام الحسين بن علي الفخري وهو على منبر رسول الله صلى الله عليه وآله: أنا ابن رسول الله، على منبر رسول الله، وفي حرم رسول الله، أدعوكم إلى كتاب الله وسنة رسول الله، وإلى أن أستنقذكم مما تعلمون.

وكان يقول عند البيعة: أبايعكم على كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وآله وسلم، وعلى أن يطاع الله ولا يعصى، وأدعوكم إلى الرضا من آل محمد، وعلى

أن نعمل فيكم بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله، والعدل في الرعية، والقسم بالسوية، وعلى أن تقيموا معنا وتجاهدوا عدونا، فإن نحن وفينا لكم وفيتم لنا، وإن لم نف لكم فلا بيعة لنا عليكم.

وقال محمد بن إبراهيم الرسي: وقد رأى امرأة على مزبلة تأخذ دجاجة ميتة! ما تفعلين يا أمة الله؟! فقالت: استرني سترك الله، فإن لي أيتاما لا أجد قوتهم إلا من هذا. فبكى بكاء شديدا، وقال: أنت وأمثالك يضطرونني أن أخرج غدا فأقتل في سبيل الله.

وقال الإمام القاسم بن إبراهيم:

عسى مشرب يصفو فتروى ظمية	أطال صداها المنهل المتكدر
عسى بالجنوب العاريات ستكتسي	وبالمستذل المستضام سينصر
عسى جابر العظم الكسير بلطفه	سيرتاح للعظم الكسير فيجير
عسى بالأسارى سوف تنفك	وثائق أدناها الحديد المسمر
عسى صور أمسى لها الجور دافنا	سينعشها عدل فتحيا وتنشر
عسى الله لا تيأس من الله إنه	يسير عليه ما يعز ويكبر
عسى فرج يأتي به الله عاجلا	بدولة مهدي يقوم فيظهر
يقسم أعشار ويشبع ساغب	وينصف مظلوم ويوسع مقتر
ويظهر حكم الله في كل شارق	وينشر معروف ويقمع منكر

هكذا إذاً نظرة الزيدية إلى الجهاد والثورة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لإحقاق الحق، وإبطال الباطل، ونصرة المظلومين، والدفع عن المحرومين. وهكذا تشرَّب الإمام القاسم حب الجهاد ونشأ عليه منذ نعومة أظفاره، فأباؤه بين قتيل في ساح الوغى، أو قتيل في أعماق السجون، أو مبني عليه وهو حي، فما فت ذلك في عضده، ولا زاده إلا تصميمًا وتشميرًا للجهاد.

فإني من القوم الذين يريدهم قُسُواً وبأساً شدة الحدثان

ظل في مصر يدعو لبيعة أخيه محمد بن إبراهيم فترة من الزمن حتى استشهد أخوه، ثم دعا إلى نفسه، وتغرب عن الأوطان، وتنقل بين البلدان، رافعا راية الجهاد، ومبينا حق الله على العباد، حتى سقط عنه فرض الجهاد بالسيف، لقلة الأنصار، فتوجه إلى جهاد آخر جهاد القلم للدفاع عن مفاهيم الدين الخنيف، ورد شبهات الملحدين، وتأويل الجاهلين، وتحريف الغالين، وانتحال المبطلين.

وتوجه إلى إعداد جيل من المجاهدين، من أبنائه وأحفاده، وأصحابه. ولقد أثمر الشجر الذي غرسه، وأينع الثمر الذي حرسه، وما حفيده الإمام الهادي يحيى بن الحسين بن القاسم إلا دوحة من تلك الشجرة الباسقة، وجذوة من شلال النور الذي ملأ الأفق واستنار.

علم الإمام

مرحلة التلقي:

تربى الإمام القاسم ونشأ في وسط أسرة علمية موصولة برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، زُقت العلم زقا.

ينهل من معين نبعها الصافي، ويرشف من سلسيلها العذب.

تلقى تعليمه على يد أبيه وأعمامه الذين كانوا شامة في جبين الزمن، يشار إليهم بالبنان علما وزهدا وورعا وجهادا.

وكان شغوفاً بالبحث، والتوفر على دقائق علم الكلام، يلتقي بعلماء الطوائف باحثاً ومناظراً، حتى استقام عوده، وقوي زنده، مع فطنة متوقدة، ونظر صائب، وفكر نافذ.

قال الإمام القاسم عن نفسه: والعقول حظوظ متقسمة، والأخلاق غرائز مستحكمة، فالحازم مغتبط بما ألهم، جدل بما قُسم، والمفرط متأس على ما حُرِم، يقرع

سنه من الندم، فإن قهر نفسه على تَعَوُّضٍ ما فرط، أوردته صغرُ الهمم في أعظم الورط، وإن تمادى في التقصير، دحض دحضه الحسير.

وإني لما زailت قلة الآثام، وخضت في أفانين الكلام، وناسيت كثيرا من علماء الأنام، أطللت على مكنون من العلم جسيم، واستدللت على نبأ من ضمائر القلوب عظيم، لأن صحيح الجهر، يدل على كثير من مكنون السر.

واطلعت على ذلك بخصال أوتيتها، وأخر تجنبتها، فأما اللواتي أوتيت فذكاة الفطنة، وقلة المشآحة في الحنة، والاصغاء لأهل الإفتنان، والقبول من ذوي الأسنان، وكثرة الاقتباس من أولي الحكم والأذهان، والزهادة في الزائل الفان، وصحة الناحية، وتكافئ السريزة والعلائية، وسلامة القلب، وحضور اللب، فافهموا يا بني.

وأما اللواتي اجتنبتها، فمهازلة الحمقاء، ومشاحنة الأدباء، وترك ما تشره إليه النفس من عرض الدنيا، والمكاثرة والحقْد، والظغن والحسد، والاسترزاء للحر والعبد، والمماكسة فيما يكسب الحمد.

يا بني فبعض هذه الخصال طُبِعَتْ عليه بالتركيب، وبعضها استعنت عليه بقبول تأديب الأديب، والتمثل بالأريب اللبيب، مع رغبةٍ حداني عليها طلب الازدياد، مما أرجو به النجاة في المعاد، والزلفة يوم التَّناد.

علم الإمام بلغة العرب

لقد هضم الإمام علوم الشريعة الإسلامية واستوعبها استيعابا دقيقا، أصولا وفروعا وآدابا وأخلاقا.

ومما أعانه على ذلك ما ذكر سالفًا من ذكاة الفطنة، والحرص على الاستزادة والإستفادة من كل من له علم أو حكمة، إضافة إلى معرفته الكاملة للغة العربية وآدابها، فهو سليقي كما قيل:

ولست بنحوي يلوك لسانه ولكن سليقي أقول فأعرب

وهذه المعرفة العميقة بدقائق اللغة وأساليبها هو الذي مكّنه من التوفر على ذلك العلم، والوقوف على أسرار القرآن الكريم.

قال في كتاب المسترشد:

كذلك قال في كتابه: ﴿ءَأْمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ [الملك: ١٦]. فأخبر أنه في السماء، وكذلك قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ﴾ [الزحرف: ٨٤]. وكذلك قال: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣].

وفي: لها معان تختلف في اللغة، ليس شيء في شيء إلا وهو لا يخلو من أحد هذه المعاني التي نحن ذاكروها إن شاء الله.

- ١- إما أن تكون فيه، بمعنى قول القائل: الناس في عامهم هذا مخصبون.
- ٢- أو يكون الشيء في الشيء محوياً كاللبن في وعائه.
- ٣- أو يكون الشيء في الشيء كالحي في حياته.
- ٤- ويكون الشيء في الشيء كالأبيض في بياضه.
- ٥- ويكون الشيء في الشيء كالعبد في سلطان مولاه.
- ٦- ويكون الشيء في الشيء كالمرباط في رباطه، والغازي في غزاته، والباقي في بنائه.

فاعرف هذه اللغات، كيف تتصرف في معانيها، وتتوجه في تصاريفها.

٧- وقد يكون أيضاً معنى في: إنما هو مع. وفي القرآن مثل ذلك قول الله سبحانه: ﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ [الأعراف: ٣٨]. فمعنى قوله: ﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ﴾ أي مع أمم. وكذلك قال: ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ﴾ [الأحقاف: ١٨]، يعني: مع أمم. ﴿وَأَدْخَلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩]. أي: مع عبادك الصالحين. وقال سبحانه: ﴿فِي تِسْعٍ آيَاتٍ﴾ [النمل: ١٢] أي: مع تسع آيات. وقال: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح: ١٦] بمعنى: معهن.

٨- ومعني آخر من تأويل في: يكون تفسيره على ما قال الله تبارك: ﴿وَلَأُصْلَبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] يعني: على جذوع النخل. وقال: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا﴾ [الكهف: ٤٢]. يعني: عليها. وقال:

﴿يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ﴾ [السجدة: ٢٦]. يعني: يمرون على قراهم.

٩- ومعنى آخر من معاني في: يكون تفسيره إلى. وذلك قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧]. يعني: إليها.

١٠- وقد يتجه تفسير في: إلى معنى آخر، قال الله سبحانه في كتابه: ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَدِيمَةٍ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الأنعام: ٧٢]. أي: عن هذه النعمة، وعن ذكر آياتي، فهو في الآخرة أعمى.

١١- وقد يتجه على معنى آخر، في قول الله فيما أخبر عن فرعون، وقوله لموسى عليه السلام: ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٨] أي: عندنا، وقال: ﴿وَأَنَّا لَنُرْكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ [هود: ٩١]. بمعنى عندنا.

وقال الإمام القاسم في كتاب المسترشد أيضا: اعلّموا رحمكم الله أن الله تبارك وتعالى أوحى إلى نبيه محمد صلى الله عليه كلامه، لساناً عربياً مبيناً، أوجز البلاغات وأبلغه إيجازاً، وليس للأُميين في اللغة أن يتأولوا في الكتاب ما لا يدركه المتأولون من رباني اللغة والكتاب، وقد علم رباني اللغة أن لها تصارييف المذاهب وفنون الجهات، وأنها ذات قيم وأمواج وأطناب ولطائف ودقائق في بيان.

وإن فرقة من البدعية استعجمت في كتاب الله، وسارعت في تأويله من غير فصاحة بالتأويل، ولا فهم في التزليل، ولا آلة في العلم باللغات.

قال الإمام الحسين بن يحيى بن الحسين بن زيد بن علي عن الإمام القاسم: ولقد سمعته يقول: قرأت القرآن والتوراة والإنجيل والزبور، ما علمي بتأويلها بدون علمي بتزليلها^(١).

وهكذا نجد الإمام عالماً بدقائق اللغة ومعانيها، مكّنه من الإطلاع الكريم على مقاصد القرآن وأسراره:

فصاحة الإمام وبلاغته

لقد ولد الإمام القاسم سنة (١٦٩هـ) وعاش وترى في بيت النبوة والرسالة، يتلقى العلم عن آبائه، أسرة العلم والحلم والحكمة، وترى بعيدا عن تأثير اللغات الدخيلة على العربية الفصحى، من لغات الداخلين في الإسلام من العجم من فرس وروم وخزر وصقالبة وبربر وسائر لغات الأفارقة، فبقي عربيا نقيا سليقيا، وعباراته الجزلة وألفاظه الغربية، وتراكيبه المتينة، وسبك المنظوم، تدل بما لا يدع مجالاً للشك على أصالة لغته، ونقاء ثقافته.

وفوق هذا كله فالإمام شاعر مطبوع عذب المورد، مشرق المعنى، وأديب متضلع في فنون الأدب، متقن لعلوم اللسان، عارف بأخبار العرب، مطلع على لغاتها، راو لأشعارها وأمثالها، كاتب بديع الإنشاء، حسن الترسل، ناصع البيان، وهو ناثر لا يداني من غير تكلف.

فجميع كتبه التي تزيد على الثلاثين، مصوغة بطريقة الشعر المنثور أو النثر المشعور، ما عدى سبعة كتب، هي: المسترشد، والرد على المجبرة، والرد على الملحد، والرد على الرافضة، والعدل والتوحيد، والإمامة كتابان.

ولك أن تتخيل أيها القارئ وعورة هذا المسلك، وصعوبة هذا السبيل، سيما والمواضيع التي تناولتها تلك الكتب أهم وأخطر المواضيع الكلامية والفلسفية والعرفانية والفقهية، فترى الإمام القاسم مع هذا يلتزم بالنثر المشعور دون أن تلحظ في لغته أدنى تكلف أو ضعف، بل يعمضي على سليقته العربية التي خصه الله بها. حتى نصوص التوراة والإنجيل والزبور فإنه يصيغها بلغته الشاعرية الرقيقة، محافظاً على المعنى كله دونما تغيير، وستلاحظ أيها القارئ النصوص الأصلية للتوراة والإنجيل مقارنة بالنصوص المصوغة بلغته الشاعرية، فلا تجد أي اختلاف في المعنى. ولن أضرب لك مثلاً على ذلك، لأن كتبه كلها أمثلة على ما ذكرت.

شاعرية الإمام

لم يبق فن من فنون الأدب إلا وخاضه الإمام القاسم بمهارة وبراعة، وشعره يعد

من قمم الشعر العربي بلاغة وفصاحة، بلغ مقاما رفيعا في جزالته وعذوبته، حتى كان أئمة الزيدية الكبار يجلون شعره أيما إجلال.

قال الإمام الناصر الأطروش: لو جاز أن يقرأ شيء من الشعر في الصلاة لكان شعر القاسم عليه السلام^(١).

ونأسف كثيرا لضياح كثير من شعر الإمام القاسم، فإن التاريخ لم يحفظ لنا إلا التمر اليسير منه، والذي قاله في بعض المناسبات.

روى محمد بن منصور المرادي رحمه الله قال: سمعت القاسم بن إبراهيم، ونحن في منزل للخسينين يقال له: الورينة، يقول: انتهى إليّ نعي أخي محمد وأنا بالمغرب — يقصد بالمغرب مصر — فتنحبت فأرقت من عيني سجلا أو سجليين، ثم رثيته بقصيدة، على أنه كان يقول بشيء من التشبيه^(٢)، ثم قال: ثم قرأها عليّ من رقعة، فكتبتها، وهي هذه:

يا دارُ دارٍ غرورٍ لا وفاء لها	حيثُ الحوادثُ بالمكروه تَسْبِقُ
أبرحتِ أهلكِ من كدٍ ومن أسفٍ	بمشرعٍ شربه التصدير والرنق
فإن يكن فيك للآذان مستمع	يُصبي ومراى تسامى نحوه الحدق
فأيّ عيشك إلا وهو منتقل	وأي شملك إلا وهو مفترق
من سرّه أن يرى الدنيا معطلة	بعين من لم يخنه الخدع والملق
فليأت داراً جفاها الأُنس موحشة	مأهولة حشوها الأشلاء والخرق
قل للقبور إذا ما جئت زائرها	وهل يزار تراب البلقع الخلق؟
ماذا تضمّنت يا ذا اللحد من ملكٍ	لم يحمه منك عقيان ولا ورق
بل أيها النازح المرموس يصحبه	وجد ويصحبه الترجيع والحرق
يُهدى لدار البلى عن غير مقلية	قد خُطَّ في عرصهٍ منها له نفق

(١) الإفادة/١٢٠.

(٢) يعني: التشبيه البلاغي.

وبات فرداً وبطن الأرض مضجعه
 نائي المحل بعيد الأنس أسلمه
 قد أعقب الوصل منك اليأس
 يا شخص من لو تكون الأرض
 بينا أرجيك تأميلاً وأشفق أن
 أصبحت يحثي عليك التربُّ في
 إن فجّعتني بك الأيام مسرعة
 فأَيّما حدث تخشى غوائله
 ومن ثراهاله ثوب ومُرتفق
 برُّ الشفيق فحيل الوصل منخرق
 منك القرائن والأسباب والعلق
 ما ضاق منّي بها ذرع ولا خلق
 يغيرُ منك جبين واضح يقق
 حتى عليك بما يحثي به طبق
 فقلّ منّي عليك الحزن والأرق
 من بعد هُلكك يُغنيني به الشفق^(١)

وقال أبو طالب: أنشدني أبو العباس الحسني رحمه الله، قال: أنشدني عبد الله بن أحمد بن سلام رحمه الله، قال: أنشدني أبي، قال: أنشدني القاسم بن إبراهيم عليه السلام في مرثية أخيه محمد بن إبراهيم عليهما السلام:

صَرَمَ الكرى وصلَ الجفونِ وشجاك فقدانُ الخدين
 مما يَهيجُ لك الأسى خلجاتُ صرفِ نوى شَطُونِ^(٢)
 بَعَثَتْ سواكَبَ عَبرَةٍ غَرِقَتْ لها مُقْلُ العيونِ
 وأخٍ يجيرُ على الحَوَا دِثٍ أَعْتَرِيهِ ويعتريني
 خَتَرَ الزمانُ بعهدِهِ وَسَطَتْ عليه يدُ المنونِ
 فنعى إليّ مصابُهُ نفسي وغيَضَ من شُؤني^(٣)
 عَلَقَ المنونِ تصرمي آنت مفارقة المنونِ

(١) مقاتل الطالبيين/٥٥٣ - ٥٥٥.

(٢) النوى: البعد. وشطون: بعيد.

(٣) الشأن: الخطب، ويجرى الدمع إلى العين، ولعل المراد: ونقص من مجرى الدمع إلى العين كناية عن كثرة البكاء.

عَفْتُ المني وطويت عن عَلَقَ المني كشحا فبيني
 ما فاز بالخفض امرؤ جعل المني أدنى قرين
 لهفان يُتَّبِع نفسه ال آمال حيناً بعد حين
 غمر الرجاء فؤاده ودهته أُنْجِيَةُ الظنون
 يسموا إلى كذب المني وَيَعُوذُ بالعهد الخون
 لم يقض من حاجاته وطراً ولم يَمْهَدَ لدين
 نَصْباً لكل مُهِمَّةَ حَمَّالِ أعباء الحزين ^(١)
 لله دَرُّ عصابة باعوا التَّظَنُّنَ باليقين
 فسمت بهم همم العلا عن صفقة الحظ الغين
 فَتَأْتَلُوا عِزَّ التقى وذخيرة الفضل المبين ^(٢)

وقال الإمام أبو طالب: أنشدني أبو العباس الحسيني رحمه الله، قال: أنشدني عبد الله بن أحمد بن سلام، قال: أنشدني القاسم بن إبراهيم لنفسه:

وئى التهجير والدَّلَجُ وَأَقْصَرَ في المني لَحِجٌ ^(٣)
 وطافَ بِحَالِكي وَضَحَّ عليه من البلى نَهَجٌ ^(٤)
 فقلت لنفسي مكتئبٍ عِلَاةٌ من الردى تَبَجٌ ^(٥)

(١) النصب: العلم المنصوب.

(٢) تأئل: عظم وتأصل. الإفادة/ ١١٨ - ١١٩.

(٣) التهجير: السير في الهاجرة. والدَّلَجُ محرّكة: السير أول الليل. اللحج: بمعنى الضيق.

(٤) الحال: شديد السواد، والمراد به هنا شعر الرأس كناية عن الشباب. ونهج البلا، قال في تاج العروس

٢٥٣/٦: وَأَنْهَجَ البلى الثوب أخلقه كَنَهَجِهِ وَمَنَعَهُ يَنْهَجُهُ نَجَاً وَنَجَّ الثوب بلى ولم يتشقق، وقال ابن

العربي أُنْجَحَ فيه البلى: استطار.

(٥) التبج: العظيم.

قَطِي مَا دَمَتِ فِي مَهْلٍ فَإِنْ الْحَبْلُ مُتَدَمِّجٌ ^(١)
 وَلَا تَسْتَوْقِرِي شُبُهًا فَوْجَهُ الْحَقُّ مُنْبَلِجٌ
 وَزُورُ الْقَوْلِ مُمَحِّقٌ إِذَا طَافَتْ بِهِ الْحَجَجُ
 فَهَبْكَ رَتَعْتَ فِي مَهْلٍ أَلَيْسَ وَرَاءَكَ اللَّجَجُ
 وَعَاذِلَةٌ تُورِّقُنِي وَجَنُحُ اللَّيْلِ مُعْتَلِجٌ
 فَقُلْتُ رُوَيْدَ عَاتِبَةٍ لِكُلِّ مَهْمَةٍ فَرَجٌ
 أَسْرَكُ أَنْ أَكُونَ رَتَعُ سَتْ حَيْثُ الْمَالُ وَالْبَهَجُ ^(٢)
 وَأَبِي بَتْ يَصْهَرُنِي لِحَرِّ فِرَاقِهِ وَهَجٌ
 فَأَسْلَبُ مَا كَلِفْتُ بِهِ وَيَقِي الْوَزْرُ وَالْحَرْجُ
 ذِرِينِي حَلَفَ قَاضِيَةٌ تَضَاقُّ بِي وَتَنْفَرِجُ
 وَلَا تَرْمِينِ بِي غَرَضًا تَطَايِرُ دُونَهُ الْمُهَجُ
 إِذَا أَكْدَى جَنَى وَطَنِ فَلَئِي فِي الْأَرْضِ مُنْفَرَجٌ ^(٣)

وقال الإمام القاسم لما لامه أهله على رد هدية المأمون:

تَقُولُ الَّتِي أَنَا رِدُّهُ لَهَا وَقَاءَ الْحَوَادِثِ دُونَ الرَّدَى
 أَلَسْتُ تَرَى الْمَالَ مِنْهَلَّةً مَخَارِمُ أَفْوَاهِهَا بِاللُّهَى
 فَقُلْتُ لَهَا وَهِيَ لَوَّامَةٌ وَفِي عَيْشِهَا لَوْ صَحَّتْ مَا كَفَى
 كِفَافَ امْرِئٍ قَانِعٍ قُوَّتُهُ وَمَنْ يَرْضُ بِالْعَيْشِ نَالَ الْغِنَى

(١) قطي: حسبك. وأدمج، قال في التاج: أدمج الحبل: أجاد فتله.

(٢) البهج: الارتياح والسعادة.

(٣) كدى الأرض: أبطأ نباتها، وأكدى الزرع سبأً نبتته. والكداء ككسا: المنع. والجنى هو: النبات.

والقصيدة في الإفادة/١١٧ - ١١٨.

فإني وما رمت في نيله وقبلك حب الغنى ما ازدهى
كذي الداء هاجت له شهوة فخاف غواقيها فاحتفى^(١)

وقال ناقدا الوضع السياسي الفاسد، والجيروت الظالم، راجيا الفرج في تغيير ذلك الواقع المتردي، ليتغير حال المستضعفين الجياح العراة، والسجناء المقيدون، منتظرا دولة المهدي عليه السلام، الذي يملأ الأرض عدلا وقسطا كما ملئت جورا وظلما، وهي قصيدة مشهورة يتناقلها الناس، روى الإمام الهادي عليه السلام منها شطرا^(٢)، وتكملتها في آخر أحد مخطوطات المجموع، قال فيها:

زمانك هذا أيها المتجير	وإن قال فيه القائلون فأكثروا
زمان الهوى والحق والحق والهوى	إذا اجتمعا فالحق أعلا وأنور
نسيت أم استوحشت من دار فتنة	رأينا الهوى فيها على الحق يؤثروا
أدليل الهوى فيها على الحق دولة	أحارت ذوي الألباب حتى تحيروا
أسى شبهت والناس يمجزون بالأسى	فلا ينكزون الظلم والظلم منكر
تظالم أهل الأرض حتى كأنما	به أمروا وهو الذي عنه حذروا
يقولون حكم الله بالجور أمره	وحاشا لحكم الله بل عنه يزجر
فيا مستسيغ الظلم يشجيك غبه	ظلمت وحكم الله بالحق أأمر
عسى مشرب يصفو فتروى ظمية	أطال صداها المنهل المتكدر
عسى بالجنوب العاريات ستكتسي	وبالمستدل المستضام سينصر
عسى جابر العظم الكسير بلطفه	سيرتاح للعظم الكسير فيجير
عسى بالأسارى سوف تنفك عنهم	وثائق أدناها الحديد المسمر
عسى صور أمسى لها الجور دافنا	سينعشها عدل فتحيا وتنشر
عسى الله لا تيأس من الله إنه	يسير عليه ما يعز ويكبر
عسى فرج يأتي به الله عاجلا	بدولة مهدي يقوم فيظهر

(١) الإفادة/١٢٧.

(٢) انظر درر الأحاديث النبوية/١٠٩ - ١١٠.

تقسم أعشار ويشبع ساغب
ويظهر حكم الله في كل شارق
ويجلد سكران ويقطع سارق
وينعش من قد كان في الجور خاملا
ويحيا كتاب الله بعد مماته

وقال في العظة:

أترقد والمنايا طارقات
تزود من حياتك للممات
أتضحك أيها العاصي وتلهو
أتضحك يا سفيه ولست تدري
فيا قلبي فلم تزد رجوعا
وقال أيضا:

مضى عمري وقد حصلت ذنوب
نُطهر للجمال لنا ثياباً
وأعربنا الكلام فما لحناً
وقال أيضا:

أعارك ما له لتقوم فيه
فلم تشكر لنعمته ولكن
تبارزه بها يوما وليلا
وقال أيضا:

صنيع مليكنا حسن جميل
فيا هذا سترحل عن قريب
وقال أيضا:

سبحان ذي الملكوت أنت ليلة

وينصف مظلوم ويوسع . مقتر
وينشر معروف ويقمع منكر
وتنفي ظلامات وترجم عُهر
ويستر عدلي ويحمل مجبر
وذاك بمن الله والله أكبر

ولا تغتر في طول الحياة
كأنك قد أمنت من البيات
ونار الله تسعر للعصاة
بأي بشارة يأتيك آت
وتعرض عن عظات ذوي العظاات

وعز عليّ أني لا أتوب
وقد صدت لقسوتها القلوب
ونلحن في الفعال فلا نصيب

بطاعته وتعرف فضل حقه
قويت على معاصيه برزقه
وتستحيي بها من شر خلقه

فما أرزاقنا عنا تفوت
إلى قوم كلامهم السكوت

محضت بوجه صباح يوم الموقف

لو أن عينا أوهمتها نفسها
حتم الفناء على البرية كلهم
وقال أيضاً:

اخضع لربك في الصلاة ذليلاً
واذكر وقوفك في الحساب طويلاً
وقال أيضاً:

أفنييت عمرك إداراً وإقبالاً
فالموت هول فكن ما عشت
فلست ترتاح من موت ومن نصب
أملت بالجهل عمراً لست تدركه
كم من ملوك مضى ريب الزمان
وقال أيضاً:

يا من شكى حافظاه خلوته
لم يهتك الستر إذ خلوت به
وقال أيضاً:

فلا تجزع إذا أعسرت يوماً
ولا تيأس فإن اليأس كفر
ولا تظن بربك ظن سوء
وقال أيضاً:

لقد علمت وما الإشفاق من خلقي
أسعى إليه فيعنيني تطُّبِّه
لا خير في طمع يديني إلى طبع
وقال أيضاً:

أسلفت من عمرك ما قد مضى
حتى إذا القوة زالت وقد
منهمكاً في غمرات الخطل
أقعذك العجز وحلال فشل

تبت إلينا في صدار الحيا مستعجماً فيك فنون الخجل
فأنت عندي بمحل الرضى وقد غفرنا لك كل الزلل
وقال أيضاً:

إذا لم تصن عرضاً ولم تخش خالقاً ولم ترض مخلوقاً فما شئت فاصنع
وقال أيضاً:

إذا أمسى وسادي من تراب وبت مجاور الرب الرحيم
فهنايـ .. أصبحاي وقالوا لك البشرى قدمت على كريم^(١)
وقال أيضاً:

اغتنم ركعتين زلفى إلى الله إذا كنت فارغاً مستريحاً
وإذا هممت بالزور والبا طل فاجعل مكانه تسبيحاً
وقال أيضاً:

اغتنم ركعتين عند فراغ فعسى أن يكون موتك بغتة
كم صحيح رأيت غير سقيم ذهب نفسه الصحيحة فلة
وقال أيضاً:

اخضع لربك في الصلاة ذليلاً واذكر وقوفك في الحساب طويلاً
وقال أيضاً ناهياً من الكذب:

ما لكرم النصاب والكذب ذاك . فعال اللثام في الحسب
لو أعطي الحرُّ أن يفه كذباً مُلك جميع الملوك من عرب
ما رضي الحرُّ أن يميل به لزعمة من زعائم الكذب
والزور أمرٌ قلاه خالقنا وذمُّه في مُنزل الكتب
والعبد إلف له يقلبه يميل منه في كل منقلب

يكذب إما لرغبة طمعاً أو رهبة للمجون واللعب
 أعيد نفسي ومن ولدتُ ومن أحببت من قول كل مكذب^(١)
 وروى الإمام الناصر أحمد بن يحيى بن الحسين عن جده القاسم بن إبراهيم قوله:
 دنيائي ما زال همي فيك متصلاً وإن جنابك كان المزهرة الخضراء
 إذا انقضت حاجة لي منك أعقبها هم بأخرى فما ينفك مفتقراً
 متى أراني إلى الرحمن مبتكراً في ظل رحمي ورزقي قل أم كثر^(٢)
 وروى له الإمام الحسين بن القاسم العياني هذه المقطوعة:

وإني معروف بأسوة صاحبي ودافع ما يؤذيه بالمال والنفس
 أحامي عليه إن تغير حاله وإلا فلست القاسم العالم الرسي
 بذلك وصّاني سلالة أحمد بحفظي لأصحابي على اليسر والتعس
 ومن لم يكن يوسي أخاه بنفسه فذاك من الإملاق أهل الخنا النكس^(٣)
 وروى له أيضاً:

الرزق يبسطه والذنب يغفره والتوب يقبله والوعد يوفيه
 لم يقض جوراً ولا ظلماً ولا عبثاً ولا يشاء قبيحاً من معاصيه^(٤)
 وروى له أيضاً هذا البيت:
 ألم يتدبر آية فتدله على بعض ما يأتي أم القلب مقفل^(٥)

وقال ابن مظفر وله قصائد عظيمة في العدل والتوحيد، ومن قصيدة كبيرة له، في

(١) الهجرة والوصية/١٠٦. (مخطوط)..

(٢) الحدائق الوردية ترجمة الإمام الناصر ٤٨/٢. (مخطوط).

(٣) انظر كتاب العالم والوافد.

(٤) تفسير الغريب عند تفسير سورة (النجم)، (مخطوط).

(٥) تفسير الغريب في تفسير سورة (المؤمن).

(٦) تفسير الغريب في تفسير سورة (محمد) عند قوله تعالى: ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾.

ذلك قوله صلوات الله عليه:

إني امرؤ مذهبي التوحيد أظهره والعدل أبديه تارات وأخفيه
ما كلف الله نفسا فوق طاقتها ولا يعاقب إلا بعد تنبيهه
ولا يعذب طفلا ما جنى أبدا بذنب آبائه في النار يخزيه
وقال صلوات الله عليه:

تدرعت درعا للقنوع حصينة أصون بها عرضي وأجعلها ذخرا
وأعددت للموت الإله وعفوه وأعددت للفقير القناعة والصبرا
وقال صلوات الله عليه:

أنست إلى التَّوَحُّد طول عمري فمالي في البرية من أنيس
وجانبت اللثام فطاب عيشي وجاننني لذلك كل بوس
لأن الحر في الدنيا قليل ونفسي لا تميل إلى خسيس
وأغنائي قنوعي عن لئيم أمد إليه ضري أو رئيس^(١)



(١) الترجمان/١٠٥ (مخطوط).

زهد الإمام

انقطع الإمام القاسم رضوان الله عليه، إلى الله تعالى... وعاش معه يرتل كتابه ويتدبر آياته. يسير أغواره ناظرا فيه بنور الله، عارضا عليه سنة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، معمقا حصيلته من ذلك بالمخزون الشعوري والوجداني الهائل الذي منحه الله إياه.. المتمثل بحمل هم الآخرة والدنيا... هم الوقوف بين يدي الله، وهم المسؤولية عن عباده.

لقد سلك الكثيرون صراط التزكية، العلم، العمل، إلا أن الإمام وفقه الله جل وعلا أن يبلغ في كل ذلك الذرى... لتصبح تجربته خطا وميزانا.

لا التزكية وحدها طريق إلى العلم.. ولا العمل وحده.. بل إنهما معا بمنزل عن العمل، زوبعة سرعان ما تتلاشى.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠].

(العلم يزكو على الانفاق) نهج البلاغة — الحكم — ١٤٧.

ولا انفاق للعلم أفضل من مواجهة سلاطين الجور بكلمة الحق.. ودعوة المستضعفين إلى نصره دين الله وإعلاء كلمته.

وبمقدار البراءة من الطواغيت تكون ولاية الرحمن ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] حتى يدخل الله الولي في درعه الحصينة التي يجعل فيها من يشاء، فيصبح عينه التي بها يبصر، وسمعه الذي به يسمع، ويده التي بها يبطش.

وكما تصبح الرمية رمية الله.. تصبح الكلمة كلمة الله تسديدا من الله لعبده، روفاء بوعده الذكر لمن ذكره، والاستجابة لمن دعاه.

ومعارضة الإمام للسلطة الحاكمة لم تكن طمعا في منصب، أو حرصا على حطام الدنيا، بل كانت أداء للأمانة وأمر بالمعروف، ونهيا عن المنكر، تماما كما قال جده علي بن أبي طالب عليه السلام: والله إن خلافتكم هذا لا تساوي عندي عفتة عتر إلا أن أقيم حقا أو أدحض باطلا.

ورع الإمام

كان الإمام القاسم يمثل سيرة جده علي بن أبي طالب عليه السلام في ورعه وحشيتته لله، فكان في رقابة دائمة لله سبحانه وتعالى، ينحسس مواطن رضاه فيتبعها، ومواطن غضبه فيجتنبها.

قال الإمام أبو طالب: حدثني أبو العباس الحسيني رحمه الله قال: سمعت أبا زيد بن محمد العلوي رحمه الله يقول: قلت لمحمد بن منصور: الناس يقولون: إنك لم تستكثر من القاسم عليه السلام. قال: بلى، صحبتته فيما كنت أقع إليه خمسا وعشرين سنة. فقلنا له: إنك لست تكثر الرواية عنه! قال: كأنكم تظنون أنا كلما أردناه كلمناه! من كان يجسر على ذلك منا؟! ولقد كان له في نفسه شغل، كنت إذا لقيته كأنما ألبس حزنا لتأسفه على الأمة، وما أصيب به من الفتنة من علماء السوء وعتاة الظلمة^(١).

وروى الإمام أبو طالب عن أبي عبد الله الفارسي — وكان خادماً للإمام القاسم عليه السلام وملازمه في السفر والحضر — قال: دخلنا معه عليه السلام حين اشتد به الطلب — أظنه قال: أوائل بلاد مصر — فانتهى إلى خان — يعني فندقاً — فاكترى خمس حجر متلاصقات، فقلت له: يا بن رسول الله نحن في عَوَزٍ من النفقة، وتكفيننا حجرة من هذه الحجر. ففرغ حجرتين عن اليمين وحجرتين عن اليسار، ونزلنا معه الوسطى فيهن. وقال: هو أوقى لنا من مجاورة فاجر، وسماع منكر^(٢).

وروى أبو الفرج الأصبهاني أن الإمام القاسم: أراد الخروج واجتمع له أمره، فسمع في عسكره صوت طنبور، فقال: لا يصلح هؤلاء القوم أبداً، وهرب وتركهم^(٣).

وروى الإمام أبو طالب عن أبي عبد الله الفارسي قال: حججنا مع القاسم بن إبراهيم عليه السلام، فاستيقضت في بعض الليل وافتقدته، فخرجت وأتيت المسجد الحرام، فإذا أنا به وراء المقام لاطناً بالأرض ساجداً، وقد بل الثرى بدموعه، وهو

(١) الإفادة/١٢٥. تمة المصاييح/٣٢٧. الشافي/١/٢٦٥.

(٢) الإفادة/١٢٥.

(٣) مقاتل الطالبين/٥٦٦.

يقول: إلهي من أنا فتعذبني؟! فوالله ما يشين ملكك معصيتي! ولا يزين ملكك طاعتي^(١).

وكان عليه السلام ذا صلة قوية بالله، ويقين عظيم.

قال أبو الفرج الأصبهاني: وأخبرنا أحمد بن سعيد، عن محمد بن منصور، قال: سمعت القاسم بن إبراهيم يقول: أعرف رجلاً دعا الله في ليلة، وهو في بيت فقال: اللهم إني أسألك بالاسم الذي دعاك به صاحب سليمان فجاءه السرير. فتهدل البيت عليه رطباً.

قال: وسمعت القاسم يقول: أعرف رجلاً دعا الله فقال: اللهم إني أسألك بالاسم الذي من دعاك به أجبتة. وهو في ظلمة، فامتأ البيت نوراً.

قال محمد: عني به نفسه^(٢).

كان الإمام القاسم آية في الزهد في الحياة، لا يسترعي انتباهه مال ولا جاه، خَبِرَ الدنيا كما خبرها جده علي بن أبي طالب عليه السلام، فلم يرفع إليها رأساً، ولم يسعَ إليها بقدام.

قال الإمام أبو طالب: وأما زهده عليه السلام فمما اتفق عليه الموافق والمخالف، ومن أحب أن يعرف طريقته فيه، فليُنظر في كتاب (سياسة النفس)، وكان الناصر الأطروش رضي الله عنه إذا ذكره يقول: زاهد خشن^(٣).

ولّد هذا الزهد في مباهج الحياة عند الإمام، إضافة إلى العلم المستبطن لحقائق الأشياء ولّد لديه عرفاناً يلحقه بعرفان جده علي بن أبي طالب عليه السلام، الذي قال: لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً.

روى الإمام أبو طالب عن عبد الله بن أحمد بن سلام رحمه الله أنه قال عن نفسه، أو عن أبيه: لست أحسر على النظر في (كتاب الهجرة) للقاسم عليه السلام، وأومئ

(١) الإفادة/١٢٦.

(٢) مقاتل الطالبين/٥٥٥ - ٥٥٦.

(٣) الإفادة/١١٧.

إلى أن ذلك لما فيه من التحسين والتشديد في الزهد وترك الدنيا، والتباعد من الظالمين^(١).



(١) الإفادة/١٢٦.

مرحلة العطاء

تلك مرحلة تلقيه العلم والمعارف، وهذه مرحلة العطاء، فما موقعه في سلم العطاء؟ وما عطاؤه؟

ما إن كان يتناهى إلى سمعه شبهة تلقى على الإسلام، إلا ويهب هبة الأسد المحصور، ويثب وثبة العالم الخبير، ليبددها ويجليها، بحكمة الحكيم المستبصر، وأناة العالم المتنور.

الفلسفة اليونانية والفلاسفة

فها هو يفند مزاعم فلاسفة اليونان، ويهدم صروحها، فلقد أخذت رسالة الدليل الكبير في الرد على الزنادقة والملحدّين والفلاسفة طابعاً حوارياً، بين الشبهة والدليل، والسؤال والإجابة، والملحد والشيخ، وهو أسلوب فلسفي قديم، أثره الفلاسفة في كتاباتهم سيما إذا كانوا يجادلون وينظرون الآخر، الحجة بالحجة، والدليل بالدليل، بقصد الإقناع والوصول إلى الحقيقة.

إذا فضّل القاسم بن إبراهيم الحوار الجدلي الإقناعي على غيره، فجاء أسلوبه سلساً سهلاً، يتحلّى بالوضوح والبرهان، وكلماته جزلة سهلة معيرة عن دلالاتها، فلم نجد في أسلوبه ولا كلماته غريباً أو وحشياً من القول أو غامضاً من العبارة، وبالجملة كان أسلوبه فلسفياً خالصاً، لم يلجأ فيه للمناورة أو المداورة أو الأساليب المغالطة والسفسطة، بل مال للتبسط، فاعتمد الاستقراء إلى حد كبير، وكانت النتيجة الكلية هي الإجابة عن مغالطات الفلاسفة، وتفنيد دعاوهم الساذجة.

إذا ما تعرضنا إلى ثقافة القاسم بن إبراهيم الفلسفية، نجد على وعي ودراية كاملة بالفلسفة اليونانية القديمة على الرغم من وجوده إبان عصر الترجمة بما يعنى أنه عرفها قبل قيام المأمون بترجمة الفلسفة اليونانية، وهضمها وصار في طور أرقى وهو نقدها والتعرض لها بالفحص الدقيق، خصوصاً في جانبها الميتافيزيقي أو الغيبي الإلهي.

كما كان على دراية ومعرفة أيضاً بالفلسفات الشرقية وتعرض لها بالنقد،

والفحص الدقيق في ضوء المنهج الإسلامي القائم على توحيد الخالق.

وقفه مع العمل والعصر:

ويعد عمل الإمام الإمام القاسم بن إبراهيم من الأعمال الفريدة في عصره، لكثرة الأدباء والمؤرخين واللغويين في عصره، ولم نجد من أرخ للمعارك الفلسفية والجدلية بين المسلمين وغيرهم، وهي من أهم ثقافات ذلك العصر الذي عاش فيه، فمثلاً نجد من يؤرخ للفرق الإسلامية والثورات كتورة الزيدية أو الخوارج أو الزنج، ولا يؤرخ للجدل الذي وقعت بسببه هذه الثورات فلا ندري لِمَ اهتم المؤرخون بتسجيل الحروب والمعارك السياسية ولم يولوا الفكر الباعث على هذه الأحداث قدر هذا الاهتمام؟! وإذا كنا بصدد الحديث عن المناظرات بين الإسلاميين والزنادقة، فإن الأمر يصدق إلى حد بعيد.

فلا نجد في كتب الفرق الإسلامية متى ظهر لفظ الزندقة على وجه اليقين، ولكن نجده بكثرة على ألسنة الشعراء، وبقينا لم يكن اللفظ ولا أصحابه ذا شأن في العصر الأموي عنه في العصر العباسي، ويرجع ذلك لطبيعة العصر العباسي العلمية، ودخول الثقافات الأخرى على الثقافة الإسلامية مما دعا لإعادة النظر في كل شيء، وتأثرت مناهج العلوم الإسلامية بالمناهج الوافدة بما تحمله من شك فلسفي وجدل، كما أن الثقافة الإسلامية في العصر الأموي كانت ذات طابع نقلي نصي، فلم يكن هناك جدال حول النص القرآني، ومع احتكاك المسلمين بغيرهم واختلاطهم بالثقافات الشرقية والغربية، بدأ علم الجدل والدفاع عن العقائد في مقابل الآخر والذي هو صاحب السيادة في هذا المجال.

أيضا مركزية السلطة واستبداد العرب بالحكم في العصر الأموي، ساعد على استقرار أو لِنَقُلْ ركود الثقافة العربية، ومع استيلاء العباسيين على الحكم، وظهور حكومات فارسية أخذت تروج لأديانها ولغاتها، فبدأ المسلمون يدافعون عن دينهم في مواجهة المانوية والزرادشتية والمزدكية، وكذلك الزنادقة والفلاسفة.

ولم تكن المواجهة مع الآخر فكرية فقط، ولكن اتخذت طابعاً سياسياً، فكان للمهدي دور بارز في قمع الزنادقة والتنكيل بهم، واستحدث وظيفة في جهاز الحكم

جديدة، وهي صاحب الزنادقة يتعقبهم في كل مكان.

ويذكر الطبري أن الأمر في العصر العباسي الأول لم يكن هيناً، فقد ظهرت كتب الإلحاد والزندقة من مانوية وديسانية ومرقونية، وظهرت أسماء لامعة ومعروفة من أصحاب هذه المؤلفات كحماد عجرد، ويحيى بن زياد، وابن المقفع، ويعزي للمهدي أيضاً بأنه أول من أمر المتكلمين بالرد على الملاحدة والزنادقة، إذاً لم يقتصر جهد المهدي على إنشاء إدارة للبحث عن الزنادقة ومحاکمتهم، بل أضاف إلى ذلك هيئة علمية لمناظرهم والتأليف والرد عليهم.

وحقيقة الأمر إن طبيعة العصر وانفتاح المسلمين على غيرهم من الأمم اجتماعياً وثقافياً وكذلك اقتصادياً، قد أدى لدخول الناس في دين الله أفواجا، واختلفت مقاصد المسلمين الجدد بين صادق في إيمانه ومدع فيه، وجاء خطأ الجميع في النظر والفهم، ليصب تياراً عاتياً من الأفكار التي تأثر بها الإسلام تأثراً شديداً عقيدة وفكراً وتطبيقاً، ولذلك كان من الطبيعي أن يظهر المتكلمون الكبار لمواجهة هذه التيارات العاتية الطارئة على الدين.

وقد شط بشعراء العصر العباسي، وكثير منهم غير عرب، الهوى والجون، فقد ترندقوا من غير إلحاد، وتناولوا الدين وفرائضه في شعرهم.

ولكن الحق يملئ علينا القول بأن الجون غلب الشعراء، ولم يقصد أكثرهم الإلحاد والكفر، وإن كانت تبدأ بالاستخفاف بالدين في ليالي الجون وحول موائد الخمر وتنتهي بخلع رداء الدين والخروج منه!

أما الزندقة بمفهومها الخاص، فقد ظهر في العصر العباسي مؤمنون في الظاهر كفار في الباطن، فطرق الزنادقة باب الدين والأدب والعلم والفلسفة لينفثوا سمومهم، فعملوا بشتكل جماعي وفردى، ولذلك صعب القضاء عليهم تماماً، وتعددت الأغراض من إيمان الجوس والمانوية، فأمن بعضهم لغرض دنيوي ولتحصيل الغنى، وآمن آخرون لإفساد العقيدة من الداخل، كطابور خامس، بعد عجزهم عن حربها في الميادين العسكرية والمواجهة والقتال.

وبدا واضحاً أثر المواجهة الثقافية في مجال الحديث النبوي، والذي تعرض لهجمات

شرسة من أعداء الإسلام فتناول الزنادقة الحديث بالإفساد والوضع لإفساد العقيدة وزعزعة المسلمين عن دينهم، لأنه يضرب الأساس الثاني من التشريع فلا يستقر للمسلمين أمر، وكيف يطمثون لدين أسسه غير موثوق به؟!

وإذاً قد تجرأ الجحوس والملاحدة على حرب الإسلام ليس في مجال الأدب فقط كما فعل صالح بن عبد القدوس وألف كتاباً يسمى (الشكوك)، ولكن تطرق حربهم إلى علوم الدين، واعتمدوا في أحيان كثيرة أسلوب التقية والمراوغة، وكذلك اتخذوا من سياسة الدولة شركاً للإيقاع بالمسلمين في براثن الزندقة.

وهكذا عني المسلمون في هذا العصر، بالزندقة والزنادقة، وكان أغلب الزنادقة والملحدون من غير العرب لتأثرهم بثقافتهم السابقة على الإسلام، وبيئاتهم التي نشأوا فيها وتربوا عليها.

ولذلك نقول إن رد المسلمين على الزنادقة والملاحدة أمر طبيعي وقد سجلت كتب الفهارس وغيرها أسماء لأمعة في هذا المجال كأمثال واصل بن عطاء (في الرد على المانوية)، وأبي علي الجبائي في (الرد على أهل النجوم)، و(المشبهة)، أما أبو الهذيل العلاف فقد ألف عشرات الكتب في الرد على المخالفين، ومحمد بن شجاع الثلجي المعتزلي المتوفي سنة (٢٦٦هـ) (في الرد على المشبهة).

كما رد المتكلمون على أصحاب الأديان الأخرى كاليهود والنصارى، فنجد لأبي علي الجبائي كتاباً في الرد على اليهود والنصارى.

ومن هنا تتجلى أهمية كتاب الإمام القاسم بن إبراهيم في الرد على الزنادقة والملحدون والفلاسفة، في ثقافة المواجهة والرد على الآخر، ومحاورته دفاعاً عن الدين، وإيضاحاً لحجج المخالفين، وتحقيقاً لمبدأ الجهاد في سبيل الله علمياً، وهو أحد مهام علم أصول الدين.

وهكذا نجد رسالة الإمام القاسم في الدفاع عن الدين في مواجهة المخالفين، اعتمد فيها على المنهج الفكري الإسلامي القائم على الكتاب والسنة، وصريح العقل بعيداً عن المنهج الفلسفي اليوناني، مع علمه به، وآمن بأن صحيح المنقول لا يتعارض مع صريح المعقول إن سلمت العقول من التشويش والخلط، وسلمت النوايا في الاستقبال والفهم.

طريقة الإمام القاسم في تناول قضايا الرسالة:

اعتمد الإمام القاسم على دليل الصنعة والإحكام والإتقان في الخلق في استدلاله على الخالق وجوداً وتوحيداً بالأدلة القرآنية والعقلية، وحقيقة قدم مفهوماً جيداً محصلته أن كل عقلي هو نقلي والعكس صحيح، ولا انفصال عن الدليلين وكلاهما يعاضد الآخر.

ثم نقد المنهج اليوناني في تصويره لإدراك النفس، وبين أن ذات الخالق مفارقة لغيرها من الذوات، وأن ما يعقل أو يدرك بالحس أو البرهان العقلي، كذات، أو بأحدهما فالله خلافة، فيقول: (لا بد من النظر لمن أراد يقين المعرفة بالله، في تصحيح كل ما وصفنا صفة بعد صفة في معرفة الله، ليأتي المعرفة بالله من باهما، وليسلم بذلك من شكوك النفس وارتياهما).

فيرى أن المعرفة بالله تحتاج إلى منهج يفضي إلى اليقين، والإدراك الحسي أو النفسي غير كافيين في هذا الصدد: (ففساد أن يكون الله سبحانه بواحد منهما مدركاً أو معروفاً) والنفوس تتباين، وغير معقول أن يكون الحق إحداها (وكل نفس فذات قوى شتى مختلفة، كل صفة فيها فسوى غيرها من كل صفة، واختلاف قوى كل نفس فمعروف غير منكر، منها التوهم والفكر، وغيرهما من التذكر والخطر).

فيتعرض للإدراك النفسي ويبين حقيقة وماهيته، وكما أنه لا يُدرك تعالى بهذه الطريقة، فإنه لا يدرك بالوهم أو بالتشبه بالأجسام أو الظن، أو بالدلالة على موجود مُشاهد، وكذلك لا يُدرك بحال واحدة مما سبق أو بكلها، كما أنه لا يدرك بكونه خلاف الأشياء كلها، فالله لا يدرك بما يدرك به خلقه.

وينفي أن يكون خلاف المجودات هو العدم لكونه: (وإنما قولنا في العدم، إنه خلاف في الوهم، لا في حقيقة العدم موجودة، ولا عين منه قائمة ولا محدودة، وإنما يطلب خلاف الأشياء كلها في حقائق الأعيان، بما يدرك في العقل والعلم من الاختلاف ببيت الإيقان).

ثم يبين أن الخلاف المتبقي بين ما يحس ويعقل، والقرآن الكريم قدم الأدلة القائمة

والشهادة القاطعة على وجوده، في الأنفس والآفاق، والأرض والسماء وما بينهما، كل شيء شاهد على العلم به، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

واستعرض الإمام القاسم العديد من الشواهد والأدلة القرآنية على وجود الله في الأنفس كدليل الخلق والنطفة، وكذلك خلق الجماد والنبات، واختلاف وتباين المخلوقات النباتية، وخلق الحي من الميت والميت من الحي.

وقدم الإمام القاسم تحليلاً رائعاً للآيات الدالة على وجود الله وعظمة خلقه للأكوان، ويصدق ذلك على تفسيره وتناوله لآيات سورة الواقعة، ولفت الأنظار إلى حجاج القرآن العقلي الجدلي للكفار حين يسألهم: ﴿قُلْ لِّمَنَ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٥]، مبيناً أن الكفار لم يسعهم أمام قدرة وعظمة الخلق إلا أن يشبوا الخالق.

كما أنه وقف مع القرآن الكريم في تطور خلق الإنسان، وكذلك تطور أحواله بعد خروجه إلى الحياة حتى موته، مشيراً إلى أن ذلك كله يدل على الخالق الوهاب للحياة وراعيها، حتى تطرق إلى الأنسجة الحية في نموها وحياتها وموتها.

وآية الله في خلق البحار وما فيها، وكيف هي آية مبهرة معجزة، والفلك التي تجري فيها آية أخرى، وخلق الليل والنهار، والنجوم في السماء، والفلك والمجرات العظيمة: (فصدق الله تبارك وتعالى، ذو الملك والقدرة والأمثال العلى، إنه هو الله ربنا، ومناً منه كان خلقنا وتركيبنا، له الملك ومنه عجيب التدبير...).

ومن أروع ما قدمه تحليله لآيات خلق العالم والكون، وكيف وفق الله السماوات والأرض، وهو بصدد استدلاله على الخالق بشواهد خلقه من الإتيان والحكمة.. ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ

وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٠﴾ [الأنبياء: ٣٠-٣٣].

ثم تعرض لدليل خلق الماء والجبال، وتناول مبحثاً فيزيقياً في خلق الأرض، وهل هي كرة أم لا؟ وفي كونها، هل هي فضاء أو في ماء أو هواء؟ وتعرض لأدلة المخالفين بالتقديس وسخر من التصورات الخرافية والساذجة بما يدل على أن هذا المبحث لو مضى فيه المسلمون لمنتهاه لبلغوا شأواً عظيماً.

وبين منهج القرآن في جذال الكفار والمشركين من الصابئة وعبداء النجوم والكواكب، على لسان إبراهيم عليه السلام، وحججه لهم في منهج استقرائي رائع على وجود الخالق ووحدانيته، وكونه الأحق بالعبادة والخضوع والتسليم: (والحمد لله على ما أبان من برهانه وحجته؛ لإبراهيم صلى الله عليه في محاجته، وفي ذلك ما يقول سبحانه فيه، لإبراهيم صلى الله عليه: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣].

ويتنهي الإمام القاسم إلى أن دليل الصنعة والخلق، والنظر في النفس والأكوان كان منهج الرسل والأنبياء عليهم السلام، فهكذا كان إبراهيم ونوح ويوسف وموسى، وينجح في تحريك الأدلة نحو الوحدانية وعبادة الله الواحد، وأن هذا مما تقبله العقول وترتضيه الفطر السليمة، فالتأمل والنظر مما ميز الله به الإنسان على الحيوان، وجميع رسل الله وفوا بهذا الدور في سبيل تدليلهم على وجود الله ووحدانيته. ثم يورد الآيات: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ...﴾ [إبراهيم: ١٠].

ويعلق على كل هذا الآيات المبهرة فيقول: (فصدق الله لا شريك له، في أن من لم يعرف هذا كله، صنعا له وخلقاً، وحقا يقيناً صدقاً، فهو في أيين الضلال، وأخجل صاغر الخبال، والحمد لله كثيراً رب العالمين، على ما أبان من حججه على الملحددين... وكيف يشك ملحد في صنع الله للأشياء كلها، أو فيما يرى من دق الأشياء أو جلها، وقد يرى كيف أحكمت فاستحكمت، وانقادت للصنعة فتقومت...).

ويتطرق الإمام القاسم بعد ذلك إلى صفات الله تعالى، فهو غني غير محتاج، واحد أحد فرد صمد، وعظيم عليم ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وما ليس كمثله شيء فهو خلاف لكل شيء.

وقد عرّفنا الله عليه بالتوفيق منه لنا والهداية واللفظ. ويَبين أنه متره عن كل تجسيم أو تشبيه، ورد على الحشوية والمشبّهة والمجسّمة في تصوراتهم للألّهيّة الساذجة.. وإذا كان هناك من الفلاسفة من أنكر وجود الله والبعث والنشور، فإن من المسلمين من تشوش مفهومه للعدل الإلهي، وهو مرتبط ارتباطاً وثيقاً بقضية التوحيد، وكما احتاج الأمر في التوحيد إلى تزيه الخالق من تصورات وأوهام باطلة لا تليق إلا بما يدرك أو يتصور من الأجسام والأعراض والأكوان، فإن الإلهية أيضاً تحتاج إلى البراءة من مثل هذه الأوهام في العدل، وقضية العدل عند الإمام القاسم ترتكز على حكمة الله وعدله، وما يليق بحكمه في خلقه.

فالله عز وجل الذي أنزل الحق والميزان، ليكون الحكم بين الناس بالعدل والقسط أحق بهذا التصور، وبكل كمال من خلقه، وهو يمتدح بكَمالات ما يمتدح به خلقه، ولا يتصور أن يكون خلقه عدولاً وهو غير عادل، كما لا يتصور أن يكون الحق والعدل والواجب والخير بمفهومين مختلفين بين الله وخلقته كما يقول البعض، أو أن يظلم عباده ولا يكون ظلمه لهم ظلماً.. وهذا تصور لا يليق بالله، مع أن بعض المسلمين أجاز مثل هذا التصور الموهوم المرفوض في كل العقول على الله، حيث قالوا بأن ما يقبح من الخلق لا يقبح من الله، وما هو ظلم في حق العباد ليس ظلماً في فعل الله وأمره!

وبصدد الأصل الثالث من أصول الزيدية، يبين الإمام القاسم أن الله لا يخلف وعداً أو وعيداً: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧-٨)، وأنه تعالى لا يخلف الميعاد. وهذا الأصل جاء في مواجهة تصور آخر غريب على الإسلام يقول بأن الله أن يدخل العصاة والكفار الجنة، والمؤمنين النار، أو يخرج الأولين ويدخلهم الجنة، كل ذلك بلا جناية من المطيعين أو طاعة من المسيئين.. في كلام باطل، وتصور قبيح لا يليق بذات المخلوقين، فضلاً عن ذات الخالق!

ثم عاد ثانية فتحدث عن قضية الجبر والاختيار في حق الخلق، وأثبت أن الإنسان مخير حر في أفعاله، وهو أصل من أصول التكليف من غيره، يبطل ويصير الوحي والنبوات والزسالة والأوامر والنواهي... باطلة لا معنى لها.

ثم توجه لولده، الذي كتب هذه الرسالة إرشاداً له، في مناظرة الملحدّين والزنادقة والفلاسفة الدّهريّين، ناصحاً له بالتمسك بالتقوى والعمل الصالح، حتى ينال لطف الله وهداياته التي تعينه على قضية الإيمان والعمل بمقتضياتها، فكما أن الفرق يلحق الليل والنهار، والظلمات والنور، والعالم والجاهل، والمهتدي والكافر المعاند، كذلك يلحق من علم فعمل بما علم، ومن علم فعصى واستكبر، وهو أمر لا يتحقق إلا بالتقوى وموالات المؤمنين أهل الطاعة والخشية.

ويستدل على صدق المؤمن بفعله ما أمر به، ويخرج من ذلك لبيان أن القبح والحسن عقليّان، وأن أرباب الحكمة مأمورون شرعاً بالإيمان والإقرار بمعرفة الله بعد النظر والاستدلال عقلاً، وبيان حال وهيئة وصفة من جهل الصانع: (أما رأيت العامة لما هي فيه من الجهل بالله الأعلى، إذ جهلت ما قلنا مما كثر الله على معرفته الأدلاء، كيف قلّت بحقائق الأمور علومها، وضلت بعد جهلها بمعرفته حلومها، فقالت في دينها بكل قول متناقض مذموم..). فمن جهل الله تعالى تحبط في الأوهام الباطلة، والتصورات الخرافية المحيرة.

أما معصية إبليس فقد كانت منه، ولو أطاع وتاب لقبل الله منه توبته وطاعته، ثم تطرق الإمام القاسم لصفات المؤمن، وحقيقة الإيمان، وصفات أهل الجنة وصفات أهل النار.

وعند هذه النقطة الفاصلة تناول الإمام القاسم المرجئة بالنقد، وتعرض لمفهوم الإيمان عندهم: (وزعم أن الله لا يعذب من أقرّ به وبرسله وكتبه بلسانه، وإن ارتكب كل كبيرة من كبائر عصيانه)، وأنه لا تضر مع الإيمان معصية ولا تنفع مع الكفر طاعة!.. وبين أهمية العمل بالنسبة للإيمان، وهو ما اتفق عليه جمهور المسلمين.

وتناول مفهوم الحق والباطل، وأقسامهما والولاء والبراء، وأثر تصور المجرة للعدل الإلهي في إلحاق كل نقيصة بخالقهم، وينتهي إلى أن من كفر وعاند الحقيقة والفطرة والبراهين والاستدلالات العقلية، خسر نفسه ولم يربحها وعاند نفسه لا غيره، حتى إن فرعون نفسه لم يكن كافراً بحقيقة الإلهية، ولم يناد على نفسه بما على وجه الحقيقة، إذ ليس في مخلوق، مهما كان شأنه، جرأة على فعل مثل هذا، إلا أنه قال لقومه أنه إلههم، أي سيدهم وحسب.. ولم يتجاسر على ما يعتقد بعض الناس من أنه نادى على نفسه

بالإلهية، ويُذكر بأدلة الله في كل شيء وآيات صنعه لها، على حقيقة ذاته تعالى.

الملاحدة

وهذا أحد الملاحدة في مصر، يلقي بشبهاته على علماء المسلمين في عصره، فلا يجد من يتصدى لشبهاته بالتفنيد، ويأخذ بيده إلى مرفأ الأمان، بالحجة والبرهان. بل ينتقص علماء الإسلام، ويهزأ بالإسلام، سيما عندما يجابه بالطرد والشتائم من العلماء العاجزين عن رد شبهته، ونزل الإمام القاسم مصر فوجد أهل مصر يحجون آل البيت حباً شديداً، وفتحوا بيوتهم له، وأخفوه عن أنظار السلطة، ومع ذلك لم يكن غائباً عما يحدث في الحياة العامة ولا في مجالس الحكام والعلماء، وما يتزل ويحل في العامة من حوادث، وما يجد في الحياة من حوله.

وكأثر من آثار تسامح المسلمين حكاماً وشعباً مع غيرهم من أهل الذمة والكفار والملحدين والمجوس والمناوية الثنوية وغيرهم، بدأ هؤلاء في غزو الحياة الثقافية الإسلامية، كما أشرنا من قبل، يناظرون العلماء ويتحرشون بالعامة، بغية هزيمة الإسلام فكرياً بعد أن هزمهم عسكرياً واجتماعياً.

وسمع الإمام القاسم بما أنزل أحد الملحدين بجمهور العلماء في مصر من نكبة عرفها العامة والخاصة وسار بذكرها الركبان، وهو في إحدى دور المصريين متخفياً، فلم يطق ما حل بالمسلمين ونزل بالعلماء، واقترح على صاحب الدار أن يرتب له مع هذا الملحد لقاء ومناظرة، ينازله فيها وينتصف للإسلام وأهله منه. فأتاه به، فلما دخل عليه قال له: (إنه بلغني أنك تعرضت لنا، وسألت أهل نخلتنا عن مسائلك، تريد أن تصيد أغمارهم بجائلك، حين رأيت ضعف علمائهم عن القيام بحجج الله، والذب عن دينه، ونطقت على لسان شيطان رجيم، ﴿لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ [النساء: ١١٨]).

فقال الملحد: أما إذا عبت أولئك وغيرهم بالجهل، فإني سائلك وممتحنك، فإن أنت أجبت، وإلا فأنت إذا مثلهم.

فقال الإمام القاسم — واضعاً قواعد فن الحوار —: قل ما بدا لك، وأحسن

الاستماع، وعليك بالنصفة، وإياك والظلم، ومكابرة العيان، ودفع الضرورات والمعقولات، أجبك عنه، وبالله أستعين وعليه أتوكل، وهو حسبي ونعم الوكيل).

فيسأله الملحد عن الأدلة التي يعتمد عليها في إثبات الصانع، فيجيبه الإمام بآيات قرآنية مثيرة لدقائق العقول.

ثم انطلق من قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنٰكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنَبِّئَنَّ لَكُمْ وَنَقَرُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لَتَبَلَّغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُّتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُّرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥٠﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ [الحج: ٥-٦]. إلى مناقشة كَوْنِ النطفة جسماً، والجسم مكوناً من عرض وجوهر، وهو محدث، وكل محدث يحتاج إلى محدث قديم وهو الله، الذي يخالف الأكوان ولا يشبهها في شيء منها، وإلا كان مثلها، ودليل القديم والمحدث مشهور ومعروف عند المتكلمين^(١).

وكذلك تطرق إلى دليل الوجود والمعدوم، أو الممكن والواجب، وهو دليل فلسفي معروف هو الآخر^(٢)، ويقوم على فكرة أن العالم جائز الوجود ولذلك فهو محدث، والله عز وجل واجب الوجود ولذلك فهو قديم.

وهذا يدل على تمكن الإمام القاسم من معرفة الفلسفة القديمة وهضمه لها هضمًا جيداً، وأن كثيراً من أدلتهم في الميتافيزيقا وإثبات الغيبات دخلت العالم الإسلام وعرفها وأعاد صياغتها مرة أخرى في إطار المنهج الإسلامي.

ويعترض عليه الملحد بأن فريقاً من الفلاسفة لا يرى حدوث الأعراض (الأحوال) في اصطلاح الإمام، ويتناول الحجاج عليه وينطلق منه إلى الحديث على الشيء، وكون

(١) انظر إرشاد الحوييني/٢٨.

(٢) انظر مناهج الأدلة لابن رشد/١٤٤.

القديم شيئاً، وشيئة المعدوم، وهي أشياء في صميم الجدل الإسلامي مع الآخر، والخصم في هذه المحاور ملحد عنيد، وغير مسالم بالمرة، ويتطرق الإمام القاسم إلى نفي الأعراض عن القديم، وكذلك نفي التصورات السلبية عن القديم، فهو لا شبه له وليس من عدد، ونقد اليونان في تصورهم للصورة والهيولى، وهو بذلك يسبق كثيرين من مفكري اليونان الذين نقضوا المنطق، وهو من المفكرين الإسلاميين المجددين، والذين أنصفوا التراث الإسلامي وأعادوا له الحياة والحركة والفاعلية وامتد تأثيرهم على القرون التي تلتهم.

أريد أن أقول بلا استطراد إنه ينبغي تلمس الفكر الحر والتجديدي المحافظ على أصالته في تراث فريق من الإسلاميين منهم الإمام القاسم بن إبراهيم، وحفيده الهادي يحيى بن الحسين المتوفي سنة (٢٩٨هـ)، وابنه الناصر أحمد بن يحيى المتوفي سنة (٣٢٥هـ).

ثم ناقش الملحد في فكرة الكمون، وتبعها بنقض مقالة الدهريين القائلين بأن الطبيعة خلقت نفسها بنفسها، وناقشه في الوجود بالقوة والوجود بالفعل عندما قال له: (إن النواة هي ثمرة بالقوة الهيولية..)، وهو كلام ساذج متداعي البناء، وما كان على الإمام القاسم إلا إثبات أن حكم الأصول في الخلق هو حكم الفروع، وقد كان، فاختلط على الملحد.

ثم ذهب الإمام القاسم إلى وضع أسس للمعرفة إذا سار عليها الملحد استطاع الفهم والتمييز: (اعلم أن طرق العلم بالأشياء مختلفة، فمنها ما يعرف بالحس، ومنها ما يعرف بالنفس، ومنها ما يعرف بالعقل، ومنها ما يعرف بالظن والحسبان)، وهكذا يقدم الإمام القاسم بحثاً رائعاً في المعرفة، في أثناء تناوله لقضية الإلهية من حيث الوجود. ثم يتناول قضية علة الكون والفساد، وانتهى ببيان كون الله علة الأشياء وفسادها، أي: كونها وأفسدها من غير ما ضرورة ولا اضطرار.

ويقترّب الملحد من محطة التسليم، وتتكون لديه مُسلمات الفهم وبديهيته على يد الإمام القاسم، ويتزعزع طاغوت الكفر في عقله وقلبه، ويتوقف عنده الأمر على إثبات وحدانية الله الموجود الخالق، ويتناول الإمام القاسم الدليل على الوحدانية من خلال المنهج القرآني، فيستعين بدليل التمانع في استطراد رائع يدل على قدراته الفلسفية

والكلامية في الإقناع البرهاني، ويتخذ من كلام الملحد عن وجود الخير والشر في العالم دليلاً على الوحداية أيضاً.

ويتساءل الملحد عن علة خلق الله للعالم، فيرده الإمام القاسم إلى كون الله الواحد الأحد القديم، غنياً قادراً حكيماً، فلا شك أنه خلق العالم لغاية وعلة وسبب، ولا يسع الإمام القاسم سوى الاستعانة بالنص، في كونه تعالى خلقنا من أجل الابتلاء والامتحان والاختبار الذي تتعدد مراتبه ودرجاته وأنواعه، والله في كل ما خلق حكيماً قادراً، ولم يخلق العالم لحاجة لأنه الغني، والقديم لا يحتاج، ولا يُسأل عن علة خلقه للأشياء، لأن السؤال في حقه ممتنع ومرفوض، وإلا دعا إلى الدور.

ثم فسر — بفكرة الاستحقاق والعوض وإحسان الله لعباده — ما يحدث في هذا العالم من الآلام، فلحكمة رآها البارئ عذب عباده بالموت، وأصاب بعضهم بالأمراض والابتلاء في البدن والمال والأولاد، لداعية الإحسان إليهم بعد ذلك، ولكن ما الذي يبرر أنها إحسان، ولم أرغم عباده على ابتلاءات هو أرادها لهم، وما وجه الإحسان في علمه تعالى بمصائر عباده وجهلهم بها، ولم جعل بعض عباده أغنياء وبعضهم فقراء، بعضهم في نعمة وسرور، وآخرون في شر وغم؟.. كل هذه تساؤلات وجه مثلها وقريباً منها الملحد ليتسنى له فهم ما يفعله الله بعباده.. أي ما الذي يعلل أفعاله.

ثم أعقب ذلك بالحديث عن الرسالة والنبوءات، وهل ما جاء به الأنبياء معقول أم لا، أو هل تعقل الشرائع وتعلل أم لا؟.. وما المعجزات وكيف تكون؟.. لم يهدم الله بنية هو صانعها.. ولماذا خلق البعث والنشور، وما الدليل عليه وكيف يكون؟

وقد رد الإمام القاسم على تساؤلات الملحد بالأدلة الشافية الكافية من المنقول والمعقول، وسار به سيراً حميداً بلا لبس أو غموض، حتى انتهى به الأمر أن يسلم وينطق بالشهادتين على إثر هذه المناظرة، ويقول: (تعست أمة ظلت عن مثلك). وأسلم وحسن إسلامه، وصار من مريدي الإمام ومحبيه، والآخذين عليه، مما يعني أن المناظرة حققت أهدافها كاملة، وتكلل جهد الإمام القاسم بالنجاح، عندما توفر عنده المنهج السليم، والعلم الذي صدق قواعد منهجه، وسبق كل ذلك نية صالحة في هداية الخلق، والدفاع عن الشرع والدين، ونعجب أشد العجب عندما نعلم أنه كان يجادل عن دينه وينصره، وهو مطارّد غريب شريد بعيد عن الأمن بين الأهل والأوطان!

وصدق الله العظيم، إذ يقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، ويقول: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، ويقول: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

ويبدو أن حركة الإسلام وسره الفاعل في أتباعه ما زال يسري روحاً نابضة حية، فنجد المجاهد البوستاوي المعروف (علي عزت بيحوفيتش) يؤلف كتاباً يسميه (الإسلام) يدافع فيه عن عقائد الإسلام في محاوراته مع الملحدين من أبناء الشيوعية في الغرب، ونجد (رجاء جارودي) المسلم الفرنسي والمفكر الإسلامي الكبير الذي أغنى المكتبة الإسلامية بكثير من الأفكار، التي كانت في حاجة إليها في مواجهة القوة العاتية للآخر، الذي لم ير أمامه سوى الإسلام عدواً يحاربه بكل ما أوتي من قوة مادية ومعنوية، نجد هذا المهتدي للإسلام يواجه الشيوعية مرة والصهيونية العالمية مرة أخرى، ثم ينتقل بالمواجهة إلى تحدي النموذج الغربي، مبشراً بيزوغ فجر الإسلام من جديد، واندحار هذه الحضارة المادية الغاشمة وآلاتها بكل ما فيها من غطرسة، وما أريد قوله إن هؤلاء امتداد طبيعي لأمثال الإمام القاسم بن إبراهيم من علماء الأمة الإسلامية.

الزندقة وابن المقفع الزنديق

وهذا ابن المقفع الزنديق، يلقي بشبهاته على المسلمين، فلا يجد من يتصدى له، إلا الإمام القاسم رغم الفارق الزمني بين ابن المقفع وبين الإمام القاسم، إذ قتل ابن المقفع سنة (١٤٢هـ) وولد الإمام القاسم سنة (١٦٩هـ)، فالفارق بينهما (٢٧ سنة)، والاحتمال الأكبر أن الإمام أجاب عليه وعمره (٣٠ سنة)، فيكون الفارق الزمني بين كتابيهما (٥٧ سنة).

والعقائد الشرقية تعد من أطول العقائد عمراً، وأبعدها في التاريخ، وعلى الرغم من احتدام المعركة بين الإسلام والإلحاد والزندقة ومع العقائد الدينية كاليهودية والنصرانية، إلا أن شأن الثنوية والعقائد الشرقية بدا وكأنه قد انتهى، وهو ما لم يعترف به عبدة الأصنام، والسيخ والبرهمية والهندوس وعبدة النار، التي لم تطفأ منذ أوقدوها وعبدوها وصارت رمزاً لحضارتهم.

وإذا كانت الصدامات الحضارية قد أخذت أعلي منحى لها في العصر العباسي مع المجوسية والمناوية وغيرها في الشرق، ثم هدأت تماماً، فلم نجد كتباً ولا مؤلفات بعد ذلك ترد على عقائدهم، إيماناً من غلبة التوحيد وأنصاره عليهم، إلا أن أعداء الإسلام لم يؤمنوا أبداً بهذا السلام، وما حدث ويحدث بين المسلمين والهندوس والسيخ في شبه القارة الهندية يدل على ذلك، وأحداث كشمير التي تعد بؤرة للصراع الحقيقي بين المسلمين، وهذه العقائد تمثل أصدق تمثيل حقيقة الصدام الحضاري بين الإسلام كثافة وحضارة وعقيدة، وغيره من ثقافات الشرق الأقصى.

وكذلك صدام المسلمين الحضاري مع عبدة بوذا وماني في شبه القارة الصينية، وعدم قدرتهم على التعبير عن أنفسهم أو المشاركة في الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية للصين، فضلاً عن هضم الكثير من حقوقهم، وتجاهل جماعات حقوق الإنسان في الغرب لوضع المسلمين هناك، كل ذلك يشهد بأن الصراع لم يمت بين التوحيد والاثنية، وبين من يشعلون النار في المعابد تحت أقدام تماثيل بوذا وماني وأصحاب العقيدة الخالدة.

لقد ظل الإنسان في التاريخ يعبد الله ويوحده ما دامت هدايات السماء ترى وتتابع عليه، إلا في زمن الفترات التي انقطع فيها الوحي، وغابت عنه الرسل، ضل وعبد الأصنام والأوثان، واخترع ديناً أرضياً يرضاه ويشبع هواه وقناعاته الشخصية.

ولذلك تتمثل إشكالية العقيدة الثنوية وغيرها من العقائد الشرقية في عبادتهم لآلهة أرضية أو حتى سماوية محسوسة ملموسة متعددة، أما التوحيد والصمدية وتقديس الذات عن مشابهة المخلوقين فقد غاب عنهم، أو لنقل غابوا عنه.

فإله واحد للخير والشر والنور والظلام، خلق الإنسان والملائكة والشياطين، لا يقبل الهدايا والرشا والفساد، لم يدركوه.

وينقد الإمام القاسم تقسيم الثنوية في عقائدهم الأشياء إلى قسمين، نور وظلمة، خير وشر، أرض وسما، ملائكة وشياطين.

وكل مخلوق نتج عن مزاج النور والظلمة وتزاوجهما، رغم أن كلا منهما يمثل اتجاهاً وهو في نفسه إله، ورغم عداوة كل منهما للآخر، وأكهما متنافران لطبيعة كل

منهما المتغايرة، ويسخر من هذا التناقض، إذ أنهما امتزجا، وهما اللذان ما عرفا هذا الامتزاج من قبل على حد قول الثنوية!

فكيف رضي ممثل الخير، الذي هو الأصل في وجود الأشياء، وقَبِلَ الشر ممثل دولة الشيطان في ملكوته، وكيف اتقى النور بالظلام ولم؟!

كما ينقد مقالتهم بأن النور خير، وهو لا يلزم والعقل يشهد بغير ذلك، وكذلك قولهم بأن الظلام شر خالص، فلا النور خير خالص، ولا الظلام شر خالص، وكلاهما يحمل صفات الخير والشر، ولا حكم لأحدهما على الآخر، ولا حكم لهما على المخلوقين، وهما مخلوقان ككل المخلوقات تنفعل وتتأثر كما ينفعل كل مخلوق ويتأثر، ومنهما علل للأشياء ومعلولات، ويحكمهما قانون الحركة وناموس الخالق في إدارة الكون والحياة.

وما يحدث للإنسان من حياة وموت، وصحة ومرض، وفرح وحزن، ليس من شأن النور أو الظلام أبداً، وهي أفعال للإنسان نفسه خلقها الله فيه خالق كل شيء، كما أن الله جعل في الشمس الحرارة والضياء، وفي الماء الحياة والغرق.

وقد ورث ابن المقفع معتقدات ماني، بحكم البيئة التي ولد فيها، وآمن بها ودافع عنها، وورث حقه على الإسلام ودولته التي قهرت بلاده وكسرت شوكة الكهنة وكسرت الأصنام، ولم يعد لماني وجود إلا في نفوس الحقدة على الإسلام الغالب آن ذاك.

ووضع ابن المقفع كتاباً في نصرة العقائد الثنوية، يدعو فيها المسلمين إلى الإيمان بها، وزاد على ذلك أن وضع لأتباع ماني خطة في تضليل الضعفة والعامة وأصحاب الأهواء من المسلمين عن عقيدة التوحيد!

وكلام ابن المقفع في جملة عبارة عن هرطقات وطقوس وطلاسم، تليق بهذين الكهان في معابدهم تستهوي الجهال وتستميل أصحاب الأهواء، وترضي نفوس الأتباع في ظل الأبحرة المتصاعدة، والأضواء المتناثرة من أرجاء المعابد، وخلف الصور التي يقدسونها.

فالله رحمن رحيم، وعلى الرغم من ذلك يلومه على خلق الشر في العالم متمثلاً في الشيطان، وهو متعال وفي الوقت نفسه هو في المبالور والقدرات والأحوال بحكم

نورانيته المحسوسة في فهمه واعتقاده!

كما أنه يملك الكون، وفي الوقت نفسه معه آخر يملك ويحكم، ينقض أحكامه، بل له أحكام قاهرة عليه..! وكل ذلك غاية التناقض والفساد.

ثم وصف ابن المقفع إله النور بالعظمة، وهي تلك التي اضطرت أعداءه لتعظيمه واحترامه، وفي أثناء ذلك لا يفرق بين العامي والعمي، مما يجعل الإمام القاسم ينتقصه ويصفه بالجهل وعدم معرفة الفروق اللغوية بين الألفاظ، إذ دلالة العامي غير العمي!

ويقف الإمام القاسم عند دلالة التسبيح والتقديس عند الثنوية، والفرق بينهما وبين المقصود منها في الدين الإسلامي، فعندهم ألفاظ جوفاء، يقول الإمام القاسم: نقول في الله الملك القدوس، كما قال، إذ كان كل شيء فبتقديسه نال من قدس البركة ما نال.

ومُسَبِّح فقد نقولها، إذ نجدها له ونعقلها، من كل ما هو سواه مفطوراً، ظلمة كان ذلك أو نوراً..

ويرد زعم ابن المقفع بعد ذلك تمييزه بين الأشياء من حيث كونها محمودة أو مذمومة، فقال: «وإن منها»، وهو اقتطاع لا تقبله العقول، ثم إن التفاضل يقع في محمود الأمور ومذمومها، مما يجعل الأمور لا تبقى خيرة بصفة دائمة، أو شريرة كذلك بصفة دائمة، وربما انقلب النور شراً، أو الظلام خيراً، حسب طبيعة الظروف والأحوال.

ويفضح تناقضه في كون بعض الناس يرجون من الظلمة — التي قال فيها أنها شر — الخير، فيقول له: من الذي رجا منها الخير، أهو النور أم أعوانه، أم اتباع الظلمة على ما فيهم من شر!

وهو من قبيل الجدل اللازم لقضية ودعوى الخصم. والذي انتهى به إلى القول بأن ابن المقفع تخطأ بين إلهين، ووصفهما بأوصاف مقلوقة ومغلوبة تدل على تشوشه الذهني، ويعلق مفسراً ذلك بقوله: «وليس علة فيما أحسب من ضلاله، ولا علة من تبعه عليه من جهالة، إلا قلة علمهم بما شرع الله به دينه ونزل به كتابه من الحكمة؛ لا عن شبهة دخلت عليه — ولا عليهم — فيما وصفوا من النور والظلمة».

ويبدو من كلام الإمام القاسم أنه يوجه حديثه إلى ابن المقفع وحركة كبيرة من جمهور الثنوية من المرتدين عن الإسلام، وجهلة الاتباع والغواة الذين أغراهم ابن المقفع وحركته، التي عملت كطابور خامس بين صفوف المسلمين تعمل على زعزعته.

العقيدة وهدم الإسلام ومبادئه الثابتة

ويقول الإمام القاسم إن عقائد المانوية أهون من أن يرد عليها أمثاله، غير أن تجاهل العلماء لهم، وجهل بعضهم بالرد عليهم، أضخم دعوتهم وشأنهم عند العامة فانقادوا لهم.

ثم يبين سر التوحيد والوحدانية والتفرد والضمندانة وتزيه الخالق من الشريك والند والولد، ويعقب ذلك تفسيره لسبب قذف الله الشياطين زمن نزول الوحي، وكونه أمراً معقولاً ليس لابن المقفع أو غيره عليه مأخذ، ويبين السبب في نزول الوحي منشوراً، وأن للجن مقاعد للتسمع على أهل السماء، وما الذي أدى إليه رجم الشياطين وحراسة الوحي.

ثم تلى ذلك الحديث عن علة خلق الله بعض عباده أطهارا بررة، وبعضهم أرجاسا فجرة، ولم يسمح الله عز وجل، بظفر أعدائه بأوليائه، وأن لله أن ينصر أوليائه بما يشاء.

وغلبة جند الله على حزب الشيطان أمر نافذ وحاصل، وتفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧]، وأن الله هو الرامي، وإثبات قدرة الله وعدله بين خلقه، وكذلك بيان السبب في قتل أعداء الله لأوليائه، وأنه أمرٌ يرجع لأصل الطبيعة الإنسانية، يقول الإمام القاسم: «قاتله الله وقتله، لو لم يقتلوا لم تحب لهم من الكرامة عنده ما أوجبه، ولم يدركوا ثواب ما كان القتل فيه سببه، ولو كان له علينا في قتلهم مطلب لكان في موتهم».

وقد أمهل الله عباده، ليعرف المطيع من العاصي، وأن فساد الأبدان بالعلل المهلكة، والأديان بالعقائد الفاسدة يرجع للإنسان، يقول الإمام القاسم: «لقد وفّاهم سبحانه طبائعهم مفصلة، وسلمها إليهم مكملة، عن هلكات العصيان، وشين معائب النقصان، فما دخلها من سقم بدن، أو فساد متدين، فبعد اعتدال تركيبها، عن كل نقص من معيها، وما فسد لهم من دين بعصيان، فبعد هدى من الله وبيان، وتخير في الطاعة وإمكان».

والله لا يضل عباده ولا يعذبهم بغير ذنب، ولا يجبر أحداً على طاعة أو معصية، ويصف رحمة الله وعدله بقوله: «كيف وهو من عصاه استرضاه، ومن استكبر — وهو القادر عليه — أملاه، ثم كرر عليه في دعواه الهدى نداء، ثم مَن قَبِلَ حظَه فيه جازاه، ومن أبى عطيته من الخيرات حرمه، وهو الذي قبح من كل ظالم ظلمه».

ونعم الله على خلقه كثيرة وعلى وحدانيته شاهدة، فهو الصانع والخالق والمبدع والحكيم، تقدس عن كل نقص، ومدح بكل كمال هو به موصوف.

وشكك ابن المقفع مرة أخرى في الرسالة والرسول، وعمل في القدح في أمانته وصدقه، فينكر عليه الإمام القاسم تسائله، ويرده إلى الجهل، ويبين أن الإسلام دعوة للمعرفة والبحث والنظر: «أهو — وبه — يحمل على خلاف ما يعرف؟! وإنما جاء صلى الله عليه وآله يدعو إلى المعارف، أو يأمر صلى الله عليه وآله بالكف عن الطلب والبحث، وهو الكاشف عن أسرار الغيوب لكل متبحث..؟!».

وعمل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بما أمره الله به، من الدعوة إليه على بصيرة من النظر والتأمل وإعمال الفكر والبحث، ويأتي الإمام القاسم من النص بما يرد دعوى ابن المقفع، فالإسلام هو الدين الوحيد الذي حدث اتباعه بما ركه الله فيهم من العقل، وخطبهم خطاب العاقل إلى العقلاء، وردهم إلى النظر والتأمل والإقناع بكل سبيل، ومدح المعرفة بأنواعها، ومدح العلم والعلماء: «فهل دعا أحدٌ إلى إخلاص الفكر دُعاه، أو حَدَى أحد من الناس على النظر حُداه؟!».

وقد دعا ابن المقفع إلى شقِّ الصف المسلم والإغارة على الدولة والحكم، بدعوته إلى الشعبوية المقيتة التي أمر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بتركها فقال: «دعوها فإنها منتنة»، فالقبليّة دعوة تنته والشعبوية دعوة أتت ولا عصبية في الإسلام، ومن دعا إليها بغيض عند كل موحدٍ، وذم ابن المقفع الإسلام وأهله، بما أوجب قتله فهل أخطأ من قتله؟!.

وبين الإمام القاسم فضائل الإسلام على الناس أجمعين، ودعا كل قاذح أن يفرق بين الإسلام والمسلمين، وبين الشرع وحكام الجور والظلم فليسوا هم الإسلام، وتاريخ الإسلام طفق بأفعال وسيئات هؤلاء الحكام، كغيرهم من حكام الأرض، والإسلام يبرأ

من هؤلاء أجمعين.

يقول الإمام القاسم في خطأ المغرض في فهمه: «ولكني آراه ظن ديننا، وتوهم أحكام ربنا، أحكام معاوية بن أبي سفيان، وما سنَّ بعد معاوية ملوك بني مروان، من تناقض أحكامها، وجورها في أقسامها، أولئك فأعداء ديننا، وحكم أولئك فغير حكم ربنا، وحكم ديننا فالحكم الذي لم يخالطه قط جور، وأموره من الله فالأمور التي لا يشبهها أمور، ويحق بذلك أمرٌ وليه أحكم الحاكمين، وحكم جاء من رب العالمين».

ولم يترك ابن المقفع مجالاً لأحد من القضاة المنصفين في الحكم عليه بالردة والكفر، فسب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وذمه، اتهمه بالسحر، وأشرك من باب المغالطة والتمويه سيدنا موسى عليه السلام، فقدح في إمامين من أئمة الأنبياء، واتهمهما بالجنون.

فبيّن الإمام القاسم وجه الحكمة في معجزة موسى ومحمد عليهما السلام، وعلق على ذلك بأنها عجمة ابن المقفع في فهم النص فجعل ألفاظه، وغابت عنه دلالاته، فوقع في أخطاء شنيعة في فهم النص.

ولا يرى الثنوية لخلق الله للعالم سبباً أو علة!.. كما يعيب على ابن المقفع سقوط لغة الخطاب وتجاوز الأدب مع الله فيقول: «تَحَسَّرَ اللَّهُ.. اغتاظ» وهو ما لا يليق بمقام الألوهية. والله ليس له شبيه أو مثل، وما يحدث من انفعالات للخلق لا يحدث مثلها للرب.

أما لم يخلق الله العباد؟.. فلعبادته وطاعته والتسليم له، ولاختبارهم في هذه الحياة الدنيا وابتلائهم، فَمَنْ أَحْسَنَ فَلنفسه ومن أساء فعليها!

وتساءل ابن المقفع هل أراد من وراء اختبار وابتلاء خلقه الخير أم الشر؟.. «فالخير أراد بهم جميعاً سبحانه معجلاً، وثواب المحسن منهم أراد جل ثناؤه مؤجلاً..» هذا رد الإمام القاسم عليه، ويعلل سبب تأجيل الثواب والعقاب للآخرة، ويرجعه لاختلاف طبيعة الدارين، وكذلك بنية الإنسان، وحكمة الله في أفعاله.

وانتهى التشبيه بابن المقفع إلى القول بالمكانية والعرش والكرسي، وهو مما ينفي عن الله عقلاً ونقلاً: «أما علم إن ما يراد بالاستواء، إلا جلال الله والإعلاء، بملكه لما

فوق العلى، وأن استواءه على ذلك كاستوائه على الأرض السفلى، وأن «استوى» في هذا كلمة من الكلام، جائزٌ معناها بين الخواص من العرب والعوام، تقول العرب إذا ظفرت بأحد، أو غلب على بلد: لقد صرت إليها، واستويت عليها، تريد غلب سلطاني فيها، فهذا وجه قوله جل ثناؤه: استوى، لا ما يذهب إليه من العمى».

وكذلك العرش وحمل الملائكة له، وتصوير حالهم وهم حآفون من حوله، وأول الإمام القاسم العرش بالسقف، وكذلك استتر ابن المقفع خلف بعض صفات الله الفعلية الخيرية كالاستدراج والكيد، ليقدم في ذات الله، والحب والرضا والفرح.. وغير ذلك.

ويرجع بنا الإمام القاسم إلى قضية التأويل في القرآن، وحظ العالم من اللغة، فلها المرجعية الأولى في فهم النص والحكم على المتشابه:

«وإلا فلم لم يفكر؛ إن كان ذا فطنة وينظر، إن كان من أهل النظر فيما استدل به أهل الكتاب والعرب، من هذه الأحرف على ضمائر كل معيَّب، فكانت هي الدليل لهم على الكتاب، والسبب لعلمه دون جميع الأسباب!..».

ثم أنكر ابن المقفع وجود الصانع الأدلة المؤدية إلى معرفته، والأدلة كثيرة ومتواترة في النفس والآفاق، وما أبدع الله في الكون من الإتقان والحكمة وعظيم الصنع، وقد عرفنا الله عليه، والمتأمل واجد ضرورة توحيد الله، فضلاً عن وجوده في قلبه.

والله غيب، ومعرفة الغيب تكون بالنظر والاستدلال، ولا معرفة إلا بعد نظر وهو ما يتقاصر عن إدراكه ابن المقفع واتباعه!

ويبين الإمام القاسم أن ورثة العلم هم أهل بيت النبوة، وهم الذين يعرفون تأويل الكتاب، ويحكمون بين الخلق بالحق والرشاد.

ثم تحدث الإمام القاسم راداً على ابن المقفع، فيبين أن الله خلق العالم من العدم الذي هو في مقابل الوجود، وكذلك أثبت قدم الباري وحدوث العالم بالأدلة الواضحة والبراهين المفحمة للخصوم، وكل ذلك دعاه للحديث عن دليل الممكن والواجب ودليل الحدوث، ودليل الحركة والتغير، وعن الجوهر الفرد، ورد على تصور اليونان للقدم ووجود العالم وبين معنى التناهي وكونه منفياً عن الله تعالى. والحد في المنطق

والحدود، والفرق بين الحد المنطقي والحد الذي يعني حد الشيء ونهايته. والوزن والحجم والمثل، والأعيان والأعراض، في فهم عميق لدلالات المصطلح، ووجوه تعلقه.

ثم نقد ابن المقفع في زعمه كثرة النور وكونه لا يحصى ولا يتناهى، فيرد عليه بأن الليل هو الآخر بظلمته لا يتناهى ولا يحصى!

ثم يحكي ابن المقفع حكاية أقرب للأسطورة والخرافة، عن مملكة الشيطان وجنوده وأعوانه، وعرشه ووكلائه وسجنونه وحصونه.

ويعقب ذلك نقده لفكرة المزاج بين النور والظلمة، وكيف تزاجا ليؤدي إلى وجود العالم بأعيانه وأشياءه.

والنور والظلمة كإلهين للخير والشر والهداية والضلال والله والشيطان، حسيان جسميان، فرد عليهم بأن الإله واحد أحد ولا يكون جسماً ولا عرضاً، كما رد عليه بأن الأشياء لا تتغير، أو لا يكون إلا مثل جوهره.

أما من غرائب الثنوية زعمهم بأن النور، وهو في مملكة العالم العلوي، ترك مملكته وصار إلى الأرض السفلى، وكذلك الظلمة صارت إلى علو.

وللثنوية أسماء أشبه بالتعاون والطقوس، تم — على زعمهم — عن التعظيم كأبي العظمة، وأم الحياة المتنسمة، وحبیب الأنوار، وحراس الخنادق والأسوار، والبشير والمنير والإنسان القديم.. إلخ وما الأراكنة، وعمود الشبح، إلا من خرافاتهم.

ويحذر الإمام القاسم المسلمين من دعوة المانوية وابن المقفع، ويحتم الرسالة برده عليهم في إنكارهم البعث والنشور، وكذا في إنكارهم للألوهية.

وهكذا فند الإمام مزاعم ابن المقفع الثنوية، ورد الاعتبار للإسلام، وانتصر للتوحيد، في كتاب يعد من أكبر كتبه



النصرانية والنصارى

وهاهم النصارى يحرفون الإنجيل، ويشركون بالله سبحانه، ويجعلون معه آلهة من البشر، فيدعون أن عيسى عليه السلام إله، ويضلّهم قساوستهم عن معنى الأب في الإنجيل، ويحرفون الإنجيل، وينكرون نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، التي شهد بها الإنجيل، وحكاها الله في القرآن، إذ قال على لسان عيسى عليه السلام: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الص:٦].

فهب الإمام القاسم لقراءة التوراة والإنجيل والزبور، قراءة مستوعبة فاحصة، وإني لأقف مشدوها هاهنا!! هل كان الإمام القاسم ملماً باللغات التي كتبت بها الكتب السماوية، لأنه قبل عصر الترجمة؟! أم أنه سعى إلى ترجمتها؟! وكلا الأمرين ليسا بعيدين!

وأخذ الإمام ينقض الخرافة النصرانية في العقيدة، معتمداً على نصوص الإنجيل نفسه.

ولا أبعد عن الصواب إذا زعمتُ أن معظم الذين كتبوا في الرد على النصارى، إنما استفادوا من رد الإمام القاسم، كابن حزم الأندلسي في القرن الخامس في كتابه (الفصل في الملل والنحل)، الذي خصص جزءاً كبيراً منه في نقد المسيحية، وكذلك القاضي عبد الجبار المعتزلي في موسوعته (المغني) الجزء الخامس، وكذلك الباقلاني المتوفي سنة (٤٠٣هـ) تأثر به تأثراً واضحاً، خصوصاً عندما تحدث عن الجوهر والعرض والأقانيم، والاتحاد والتجسد في كتابه (التمهيد)، لأن هذه المصطلحات غريبة وجديدة على الفكر الأشعري.

ولتوضيح الصورة عن تحريف اليهود والمسيحيين للكتب السماوية، ولتوضيح دور الإسلام في تصحيح مسار العقيدة، ودور علماء الإسلام في المواجهة الفكرية مع هذا التحريف والتزيف، ودور الإمام القاسم الرائد في ذلك، نقول: أساء اليهود استقبال المسيح عليه السلام، كما أساءوا استقبال أنبياء الله من قبل، ولذلك ظلت العلاقة متوترة وغير سلمية بين اليهود والنصارى طوال تاريخهم، ويرجع ذلك لعدة أسباب، أهمها رفض اليهود للمسيح رفضاً باتاً، منذ البدء الأول وهم يرفضونه، على الرغم من

تبشير التوراة بالمسيح، إلا أن اليهودية تحولت على يد أتباعها إلى دين كهنوتي له طقوسه وظلاله وربابته وعلماءه، ولم يكن من السهل الإيمان والتسليم بالمسيح عيسى بن مريم كني لليهود، فأنكروه نسباً، وأنكروه نبوة، بل بلغ بهم الأمر أن أنكروه وجوداً!

وإذا علمنا أن الأناجيل «الموضوعة»، قد كتبت بعد وفاة عيسى بمدة من الزمان سمحت بأن يخرج كل كاتب بتصور مختلف للعقيدة في عيسى وشريعته، ندرك مدى أهمية الإسلام، ككتاب ورسالة، في وجود المسيحية كدين، فما من شاهد على المسيح وأمه وما جاء به من ربه ولا حياته وتاريخه سوى القرآن الكريم، ذلك المصدر الإلهي المقدس المطهر والموثق، كان بحفظ الله له حفظاً لحقيقة وجود المسيح ورسالته، وحقيقته هو كني لا إله، كما يدعي أتباعه بتصوراتهم الموهومة.

إذا نحن أمام تصورات ثلاثة في إثبات وجود المسيح، الأول ينكره تماماً، وهذا يعني محو الوجود والأثر، والثاني يقدره حتى إنه اتخذ منه إلهاً، والثالث يثبت بشراً رسولاً جاء بهدايات السماء إلى الأرض، لي طرح مادية اليهود جانباً، ويهدي خراف بني إسرائيل الضالة مرة أخرى إلى حظائر الإيمان، ويعيد إلى الشريعة الموسوية احترامها عند اتباعها، الذين حرفوا الكلم عن مواضعه، وأخفوا كثيراً مما جاءهم، وعملوا ببعضه، حسب ما تمليه أهواؤهم عليهم، وحسب مصالحهم.

وهذه التصورات الثلاثة اثنان منها في جانب الإفتراء والإجتراء على الله، والثالث هو الوحيد الذي يحمل روح الاعتدال والعقل والواقعية التي تليق بوحى السماء، وترد الاعتبار للنبوة والرسالة.

لقد أشهر اليهود في وجه الأنبياء سلاحين، سلاح القتل وسلاح التكذيب، ولم يتساعوا أبداً مع أي منهم، ويرجع ذلك لطبيعة فيهم، تتسم بالقسوة والفظاظة والمادية والجرأة والوقاحة، وهذه ليست ألفاظاً للسب، ولكن أوصافاً للنعت، ولذلك كما أنكروا رسالة عيسى أنكروا رسالة محمد صلى الله عليه وآله، ومن العجب أن ينكر النصراني دين محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وهو الذي جاء لإثبات وتصديق رسالة عيسى عليه السلام!

لقد فرض التحريف على الحقيقة نفسه، التوحيد في مقابل التثليث، والصدق التاريخي أمام الوهم، والعقل أمام الخرافة والتزييف، والإنسان مقابل الابن الإله، والإله الابن، ومسئولية الإنسان عن عمله أمام فكرة الخلاص وإلقاء التبعات على السماء والصليب، كل هذا وقف ليواجه عقائد هشة مفككة، لطالما أرقت أصحابها دهماً طويلاً.

جاء الإسلام ليبدد ظلامها، ويقرر الوحي العيسوي كما نزل به عيسى نفسه، بلا تحريف أو خرافة أضافتها إليه التصورات الأرضية من الفلسفات القديمة التي تؤمن بالوسائط والتعددية الإلهية، فهذا إليه للخير وآخر للحب وثالث للجمال ورابع للقوة... وهكذا، مما يعني غزو الفلسفة اليونانية للعقيدة المسيحية، وكذلك الفلسفات الشرقية، واختلطت بنحاسات التصورات الأرضية التي خرجت من المعابد وزوايا الكهوف وبطنون الجبال لتلوث طهر وحي السماء وتفرض نفسها عليه.

المسيح إنسان أوحى إليه، وأمه صديقة، هذه هي صورة القرآن المنزل للمسيح وأمه، الله واحد أحد فرد صمد، والمسيح عبد، وبدأت المواجهة التي انتهت بالمباهلة في المدينة بين الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ووفد نجران، وينهزم الوفد القادم لمعرفة بحقيقة الأمر.

ولم ينته الصراع عند المواجهة الأولى بل تطور وأخذ أشكالاً أخرى من الصراع، كان أوضحها المواجهة العسكرية، وحسمها المسلمون بكسر شوكة الدولة الرومانية، راعية المسيحية العالمية بأشكالها المختلفة — طوعية وقهراً — وأخذت أشكال أخرى في الظهور متمثلة بين المسلمين وفرن النصارى ومدارسهم في العديد من مدن الإسلام وحواضره، فلم يعد الأمر في إطار الفكر العقائدي فقط، بل جاء من ورائه صراع حضاري يمثل الوجود وتقبل الآخر أو نفيه، وفي حين بدا الإسلام ديناً وشعباً متسامحاً مع غيره، لم يكن الأمر كذلك عند الآخرين الذين عدوا الأمر مواجهة لا يحسمها سوى التسليم بقطب واحد فقط لا غير!

جادل الصحابة في الفتوحات الأولى السريانية في الشرق والأحباش في أفريقيا، ووضعوا صوراً للجدل العقلي عند مناقشة هؤلاء لهم، ثم تطور الجدل وتابعت صورته في العصرين الأموي والعباسي، ووضعت المناظرات بين علماء النصارى والمسلمين،

ف نجد أسماء تظهر كيوحنا الدمشقي طبيب خلفاء بني أمية، فيضع الكتب في جدال المسلمين في شكل فلسفي جدلي، ويفعل ذلك قساوسة آخرون في أنحاء مختلفة من العالم الإسلامي، بغرض الحيلولة بين جماهير المسيحيين والإسلام.

وأخذت المواجهة الفكرية طابعاً جدلياً عقلياً، وإن كان في إطار الحوار والمناظرة، فنجد العديد من علماء المسلمين يضعون الكتب في مناقشة مذاهب النصارى، وتحمل كتب الفهارس والفرق أسماء كتب عديدة وضعها علماء المسلمين في عصور مختلفة، فنجد واصل بن عطاء يضع «رسالة في الرد على النصارى»، وكذلك أبا علي الجبائي، والجاحظ، حتى الخليفة المأمون يضع رسالة في الرد على عقائدهم هم واليهود ويسميها (كتاب في الرد على اليهود والنصارى)، ويأتي بعد ذلك في القرن الرابع الهجري القاضي أبو بكر الباقلاني فيضع كتابه «التمهيد»، ثم ابن حزم الأندلسي في القرن الخامس يضع كتابه «الفصل في الملل والنحل» ويخصص جزءاً كبيراً منه في نقد المسيحية كتاباً وعقيدة بطريقة منهجية رائعة، تعد بعد ذلك نموذجاً لكثير من العلماء في الشرق والغرب، فقد بدأ بنقد النص في الأناجيل وأظهر تناقض واضعها تناقضاً فاحشاً مما يدل على تحريفهم لها، كل بحسب هواه، ويسجل بعد ذلك القاضي عبد الجبار المعتزلي فصلاً كبيراً في نقد النصارى والرد عليهم في موسوعته الكلامية «المغني» (انظر الجزء الخامس، ويجمع فيه ردود كثير من علماء المعتزلة، مما يجعله مصدراً أساسياً لهذه الردود التي اختفى أوضاع كثير منها)، وكذلك ناقش الجويني عقائد النصارى وتبعه بعد ذلك تلميذه الغزالي.

ويرد في العصر الحديث رحمة الله هندي على العديد من كتب النصارى في كتابه «إظهار الحق» والذي حلل فيه الأناجيل ونقدها في دراسة علمية ضافية، ولا ننسى كتابات الشيخ أحمد ديدات ومناظرته للعديد من قساوسة الغرب، وكذلك الشيخ محمد الغزالي في كتابيه «قذائق الحق» و «التعصب بين المسيحية والإسلام».

ومن هنا ندرك مدى أهمية رسالة الإمام القاسم في الرد على فرق النصارى في خلافهم حول نزول عيسى واتصاله بأمه، وكذلك اختلافهم في كيفية صعوده وتوحيده بالكلمة، واختلافهم حول حقيقة التجسد والاتحاد، وهل هو بالناسوت أو اللاهوت، أو بهما جميعاً؟!

وفي حين أن الملكية أعلنت التثليث بكل وضوح، وناقضت العقل والنقل والتاريخ ونفسها أيضاً، نجد النسطورية تخوض محاولة للتوحيد وجعل الثلاثة واحداً في شكل ما، ولكن يغلب عليها السذاجة وإن حملت طابعاً فلسفياً خالصاً.

أما اليعقوبية أصحاب القول بأقنوم واحد وطبيعة واحدة، لم يلاقوا ترحيباً أو قبولاً لدى فرق النصارى الأخرى وقد رد القرآن، كما نرى في الرسالة، كل هذه التصورات الموهومة.

لقد تمثلت في الرسالة الصياغة الفلسفية الجدلية الواعية إلى جانب النص القرآني في مناقشة الإمام القاسم للنصارى في عقائدها مع قدم النص، إذ كُتب يقيناً في أوائل القرن الثالث الهجري، قدرة المسلمين في الحوار مع الآخر في عقائده ببصيرة مستنيرة وفهم راشد بعيد عن التعصب الأعمى وفي إطار الدولة الواحدة، والذي لم تستوعبه أوروبا بعد ذلك ولا محاكم التفتيش، وجاء الباقلاني من بعده فتأثر به تأثراً واضحاً، خصوصاً عندما تحدث عن الجوهر والعرض والجوهر والأقانيم، والاتحاد والتجسد، وبذلك جمع بين النسق الفلسفي والقرآني في وحدة واحدة أفاد من جاء بعده منها، وساعدت على التأصيل لعلم الكلام منهجاً وموضوعاً ونقداً.



محتوى الرسالة ومنهج المؤلف

بدأ الإمام القاسم رسالته في نفى كون الله عز وجل من والد أو يكون له ولد، وذلك لأن (الربوبية لا تمكن أبداً إلا لواحد، ليس بأصل لشيء ولا ولد ولا والد).

فالولد يحمل صفات وسمات أبيه، وأبوه كذلك يحمل صفات ابنه فهو له شبيه، ومن كان من والد فآبأؤه أولى منه بالعبودية، وقد نفى النص الإلهية لعيسى ونفى الوالدية، وتعجب من عبادتهم له دون أمه رغم أنها أصل وهو فرعها، وما ثبت للفرع فالأصل أحق منه بذلك، وبنفى الإلهية عنها تنفى النبوة أيضاً!

ومن ناحية المعقول فالأنبياء من البشر يأكلون ويشربون وقد أشار النص لذلك، وشهدوا هم أنفسهم بذلك، والنصارى تشهد على عيسى بأنه كان يألم ويفرح ويأكل، بشر ككل البشر، وهذه آية بينة تبطل دعوى النصارى في إلهيته.

والنصارى عبدت عيسى، عبادة غيرها للنجوم والكواكب وجعلها وسائط وآهة بينها وبين الله، يخلق بهن ويعطي ويمنع ويحيي ويميت بواسطتهم. (وكذلك زعم المشركون من أصحاب النجوم أن الله خلق الحيوان الميت ودبره بالنجوم السبعة، وأن بهن وبما جعل الله من القوة فيهن كانت من ذلك كل بريته وكل صنعة!).

وفي ولادة عيسى ومثاله واشتباؤه مع غيره من البشر دليل على بشريته وإبطال لدعوى الإلهية المزعومة له، ومن صفات الخالق الواحدية والصمدية، ونفى الشبيه والمثل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] ، فالله عز وجل: «ليس له شبيه ولا كفي، ولا مثيل ولا بدي».

والإمام القاسم في إبطاله لدعوى الإلهية يجمع بين النقل والعقل، في أسلوب واضح سلس، بعيد عن الغموض واللبس، وفي أدلة برهانية إقناعية، تلزم الناظر فيها بالتسليم.

ويتتره الله عز وجل أن يكون كصنعتة في شيء، وكل خلقه كان بلا علاج، ولا أعياء خلق شيء منها، وإنما أمره بين الكاف والنون، وكل الدلائل تشهد أن الخالق واحد لم يلد ولم يولد ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُ يُولَدٌ﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿١﴾ [الإخلاص: ٣-٤]، وقد أنكر عز وجل عليهم أن يكون له ولد أو كان هو من والد، إذ أن

ذلك دليل على النقص والحاجة وهو مآثره عنهما، (فمن أين يكون مع هذا القول منهما ولد ووالد، وأمرهما جميعاً في القدم والأزلية واحد؟!).

فدعوى الشريك والولد تناقض معنى الأزلية والقدم، وليس المحدث كالقديم. بمثل أو شبيهه، وقد أنكرت جميع مخلوقات الله، فحش هذه المقالة، وإن كان عيسى ابناً لله فهو مثل لجميع الأبناء في الخلق والجليلة: «ومتى جعلوا المسيح ابناً وولداً، كان مثل الأبناء لله عبداً مخلوقاً متعبداً».

بعد أن يستعرض الإمام القاسم الأدلة العقلية والقرآنية في نفي الشريك والمثل والشبيه والولد، ويثبت لله الفردانية والوحدانية والصمدية، والتترية عما تقول وتدعي النصارى يضع منهجاً في مجادلته.



منهج في مجادلة الخصوم

يقول الإمام القاسم: (.. فلا بد لمن أنصف خصماً في منازعته له ومجادلته، من ذكر ما يرى الخصم أن له فيه حجة من مذهبه ومقالته، فإذا ذكر ذلك كله، بان ما فيه عليه وله، فكان ذلك لباطله أقطع، وفي الجواب له أبلغ وأجمع). إذاً فهو يؤسس لقواعد ثابتة في النظر والجدل على أساس علمي سليم.

فبدأ بعرض مذهب النصارى بفرقها المختلفة في عيسى، ومجادلتهم بعد ذلك، واشترط على نفسه الإحسان والدعوة إلى الله بالحكمة والبيّنة، وقد جاء من كُتِبَ في علم الأديان المقارن من المسلمين، فاستفاد من أسلوب ومنهج الإمام القاسم في مجادلة أهل الكتاب والرد عليهم كالباقلائي في «التمهيد»، أو ابن حزم في «الفصل».

واختلفت النصارى في كون الأب والابن والروح القدس ثلاثة متفرقات أو مجتمعات، واحتاروا بين التوحيد والتثليث وإلى يومنا هذا يمثل التوحيد مشكلة حقيقية عند النصارى، سيما عند عرض عقائدهم والإقناع بها، يأتي بعد ذلك اختلافهم حول حقيقة الاتحاد بين هذه الأقانيم الثلاثة، وكل فرقة لها رأي في هذا الأمر فخالفت اليعقوبية النسطورية، والملكانية خالفت الفرقتين السابقتين، فمن الذي نزل الأب أم الابن، ومن الذي حل في مريم؟ اختلفوا ولهم في ذلك مذاهب مضحكة.. لو حاولت العقول فهمها.

والإمام القاسم تعرض لجميع هذه الآراء وتناولها بالمناقشة والرد، فبدأ بدعوى الأبوة والبنوة، فأبطلها من وجوه كلها صحيحة ومقنعة، ودعاهم للإنصاف فقال: (ولا بد لنا ولكم من الإنصاف، فيما وقع بيننا وبينكم من الاختلاف، فإن نحن تناصفنا إيتلفنا، وإن فارقنا التناصف اختلفنا).

فمعاندة الحقيقة يؤدي إلى مناصرة الباطل ونبد الحق ودفع العدل، ويعود ليؤكد لهم أن الإنصاف فيه خلاصهم من اللبس، والتأويل يدفع بالتأويل، ولا خير فيه عند الاختلاف، ولا يصلح إلا عند الاتفاق، وقد اتفق الجميع على (أن أصدق الشهادات كلها وأعدلها، خمس شهادات يلزمنا وإياكم أن نقبلها:

١- فأولها: زعمنا وزعمتهم، شهادة الله.

٢_ والثانية: شهادة ملائكة الله.

٣_ والثالثة: فقول المسيح وشهادته.

٤_ والرابعة: فما شهدت به أمه ووالدته.

٥_ والخامسة: شهادة الحواريين، وما كانوا يقولون.

وهكذا نجد الإمام القاسم يضع منهجاً في ترتيب الأدلة وتنظيمها، لا يعترض عليه الخصوم، فالإنجيل يشهد بأن عيسى بن داوود، والمسيح يقول لحوارييه إنهم أبناء الرب جميعاً، ويدعوهم في موقف آخر أنهم إخوته، وأمه تشهد بأنه ابن يوسف. ويحيى يُقَوِّل معنى البنوة بالحبّة والولاية، والملائكة تشهد بنسبه إلى أمه، والملك ينسبه إلى يوسف.

وهكذا نجد ما ذكره الإمام القاسم من أدلة تتضافر في نسبته إلى غير الله تعالى، ولم يجرؤ أحد في نسبته إلى الله، حتى الشواهد اللغوية جاء فيها ما يدل على أن نسبته إلى الله على وجه من التأويل يعني: المحبة والولاء والرأفة.

والمسيح نفسه يقول: (جئتمكم من عند أبي، وأما سمعت عنده فهو ما كلمكم به، وأنتم لو كنتم منه، لقبلتم ما جئتمكم به من أمره، ولكنكم من الشيطان وأنتم بنوه..)، وهكذا نسبهم إلى الشيطان مرة، وهم ليسوا أبناء له على وجه الحقيقة، مما يعني أن الأبوة والبنوة في الإنجيل متأولة.

وينقل الإمام القاسم بأمانة نصوصاً مطولة من الإنجيل منها موعظة الجبل، وهي في الشريعة والأخلاق، وتحتاج لمقارنتها بنصوص القرآن، لبيان أن الأخلاق في الشرائع السماوية واحدة، وكذلك الأحكام إلى حد كبير، وهي موعظة جامعة مانعة شاملة، يمكن أن يطلق عليها لقب دستور أو منهج أخلاقي، من سار عليه اهتدى إلى خيري الدنيا والآخرة، وقد أتى به الإمام القاسم ليدلل على نبوة عيسى عليه السلام، كما ذكر الأمثال في الإنجيل، وختم بنصح أحد حوارييه بحسن اتباعه والاقتداء به.

النصارى واليهود أيضا

وهذا نصراني من أقباط مصر يسمى (سلمون) كان يغشى الإمام ويسأله في قضايا التوحيد ويورد عليه إشكالاته ومسائله.

بل إنه كان يورد مسائله وشبهاته في مجلس الإمام الذي كان يجمع المتكلمين من سائر الطوائف فلا يجد لديهم جوابا شافيا، أو ردا كافيا، حتى يتدخل الإمام، ويكشف له الحقيقة بالبرهان، فلا يملك إلا التسليم والإذعان.

قال الإمام في كتاب مسألة الطبرين وهو في سياق الحديث عن (سلمون) القبطي المسيحي: فسأل يوما - وهو عندي - جماعة من الموحدين، وفيهم حفص الفرد البصري وكان من المتكلمين، فقال: يا هؤلاء أخبروني فقد زعمتم أنكم تنصفون، وأنكم لا تقولون إلا بما تعرفون، من أين زعمتم أن من أنكر محمدا أو جحده، ولم يقر بما كان من النبوة عنده، منكر لله جاحد؟ والله فغير محمد معبود ومحمد عابد؟ وإنكار واحد ليس بإنكار اثنين، لأن الشيء الواحد ليس بشيئين! فقد سألت منكم كثيرا عن هذه المسألة، فأجابوا فيها بجوابات مختلفة غير مقنعة، وكيف أكون لك منكرا بإنكارني لغيرك؟ وهل تراه يصح في فكرك؟ أن أكون بإنكارني لمحمد لله منكرا وأنا به مقرر، وله موحّد مُجلّ معظم مكبّر؟

فأجابوه فلم يقنع بجوابهم، ولم يستمع لمقالمهم.

وكان مما أجبته به في مسألته، وما كان فيها من مقالته، أن قلت: أخبرني يا هذا إذ أنكرت محمدا وما جاء به من رسالاته، أليس قد زعمت أن ما كان معه من آيات الله ودلالاته، وما كان يُرى الناس من الأعاجيب، وينبئهم به من السر والغيب، ليس كله من الله، ولا شيء منه ب صنع الله، وأضفت ذلك كله إلى غير الله؟!

فقال: بلى. لاشك ولا امتراء.

فقلت: أفلا ترى أنك لو أنكرت أن تكون السماء والأرض من الله والله خلقا صنعا، مفتطرا بدعا، كنت بإنكار ذلك لله منكرا، وإن كنت بالله عند نفسك مقرا!! فكان في هذا الجواب - بحمد الله - ما حجّه وقطعه، وكفاه في الاحتجاج عليه وكفه عن التشنيع ومنعه، ولم يتكلم بعده - علمتُ - في مسألته بكلمة واحدة، وأمسك في

مسألته عن الاكثار والشغب والملاّدة.

وكما التقى بالنصارى التقى أيضا باليهود.

ففي المسائل: وسألته عن قول اليهود: ﴿عَزِيزُ ابْنِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] ؟

فـ[قال]: قد يكون عني بذلك ماضيهم، وأن يكون أيضا اليوم من يقول من باقيهم، وليس كلهم لقيتُ، وإنما لقيت منهم من شاهدت ورأيت.

قال: وسألته: عن الذبيح أهر إسماعيل أو إسحاق؟

فقال: قد صح أنه إسماعيل، على ما في كتاب الله من الترتيل، لأن الذبيح والقربان بمعنى، وفي ذلك دليل على أنه إسماعيل، لأنه كان بمعنى وإسحاق يومئذ بالشام، إلا أن اليهود تأبى وترغم أن الذبيح إسحاق، وليس قولهم في ذلك محمودا.

المشبهة

وهاهم المشبهة والمجسمة يثيرون البلبلة الفكرية في أوساط العامة، ويشوهون نقاء العقيدة الإسلامية بخرافاتهم وأحاديثهم المستقاة من خرافات أهل الكتاب وأقاصيصهم المفتراة، ذات الصلة الوثيقة بالتصور الوثني الساذج للإله. فلقد نهى عمر بن الخطاب عن جمع الحديث وروايته بلا تحفظ، خوفاً من اختلاطه بكتاب الله من ناحية، وخوفاً من الافتراء على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من جهة أخرى ؛ بأقوال لم يقلها، فيتم تحريف الدين عن مقاصده وأهدافه التي نزل القرآن بها، وانقسم الصحابة بين متحفظ في الرواية، وهؤلاء قل ما نقل عنهم عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولكن كان هناك من الصحابة من توسع في الرواية من أمثال عبد الله بن عمر وأبي هريرة.

ولكن لم يبق الأمر على ما وضعه عمر، فقد جاء من بعده فبدأوا في الرواية والتدوين بشكل ما، حتى جاء الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز، فأمر بتدوين السنة، وانتشر المحدثون في بقاع العالم الإسلامي يجمعون السنة من الحفاظ ومن البدونات والصحائف، وقد كان لبعض الصحابة صحائف خاصة جمعوا فيها قدراً من حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهكذا نجد السنة قد مضى عهد طويل بين زمن

التلقي وزمن الأداء، حدثت أحداث وجدت أمور على المسلمين اختلف فيها حال التابعين وتابعي التابعين عن حال الصحابة وعصرهم، وزالت دولة الخلافة الراشدة، بمقتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وأذنت دولة بني أمية بالزوال، والمسلمون على أبواب خلافة جديدة وهي خلافة بني العباس، وتفرق المسلمون إلى فرق وأحزاب بدأ كل فريق في تكوين مذهبه السياسي والفكري وينصر آراءه بكم هائل من الأحاديث الصحيحة والباطلة، ولا يرى غضاضة في رواية الحديث طالما ينتصر له على خصمه.

ظهرت على يد غلاة الشيعة الكثير من الروايات التي تناولت الذات المقدسة بالتشبيه والتجسيم، ومثل هذا أيضا ظهر في جمهور أهل السنة وعامتهم. يؤيد ذلك ما ذكره الشهرستاني فيقول: (إن جماعة من الشيعة الغالية، وجماعة من أصحاب الحديث الحشوية صرحوا بالتشبيه مثل الهشامين — يقصد هشام بن الحكم وهشام بن سالم الجواليقي — من الشيعة، ومثل مضروكهمس وأحمد الهجيمي، وغيرهم من غير الشيعة، قالوا: معبودهم على صورة ذات أعضاء وأبعاد، إما روحانية وإما جسمانية، يجوز عليه الانتقال والتزول والصعود والاستقرار والتمكن)^(١).

وإذن فقد ظهر الحشو عند الفريقين من غلاة الشيعة وأهل السنة، وكذلك فرق أخرى كالمرجئة الذين قال بعضهم إن الله جسم لا كالأجسام، فمن وراء هذا التيار العاتي في العالم الإسلامي آنذا؟!.. لقد تسرب التشبيه والتجسيم وكذلك مئات الروايات من الاسرائيليات في التفسير على يد المسلمين الجدد، بقصد أو بدون قصد، وانتشر القصاص بهذه الاسرائيليات يروجونها، وكان اليهود وراء هذه الظاهرة.

وقد أرجع العلامة محمد بن زاهد الكوثري نشأة الحشو إلى أن (عدة من أخبار اليهود ورهبان النصارى وموايزة الجوس، أظهروا الإسلام في عهد الراشدين ثم أخذوا بعد ذلك في بث ما عندهم من الأساطير بين من تروج عليهم، ممن لم يتهدب بالعلم من أعراب الرواه وبسطاء مواليتهم، فتلقفوها منهم ورووها لآخرين بسلامة باطن، معتقدين ما في أخبارهم في جانب الله من التجسيم والتشبيه، مستأنسين بما كانوا عليه

(١) انظر كتاب الملل والنحل للشهرستاني ١٤٨/١.

من الاعتقاد في جاهليتهم، وقد يرفعونها - افتراء - إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أو خطأ، فأخذ التشبيه يتسرب إلى معتقد الطوائف ويشيع شيوع الفاحشة^(١).

ولم يهتم بنو أمية بالإسلام ولا برعاية شعوبهم دينياً، بل كان لهم دور في فساد العقائد، خاصة في مسألة الجبر التي تدعم سلطاتهم، فتسرب التشبيه والتجسيم لعقائد المسلمين. ودخل إلى الدين كم هائل من الأحاديث على يد مشبهة الرواة، أجازوا فيها على الله التبعض والجسمية، والرؤية، والمشي والتزول والنجي، واليدين والقدم والنفس والفوقية، وصار دينهم جزءاً أو شبيهاً بجزء كبير بدين اليهود (خلق آدم على صورة الرحمن)، و(يضع الجبار قدمه في النار)، و(قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن)، وانظر في ذلك بحثاً لي بعنوان (الصلة بين عقائد الوهابية والتوراة اليهودية)، وكتاب (قراءة في كتب العقائد) للباحث السعودي حسن فرحان المالكي.

ويعلق الشهرستاني على هذه الظاهرة بقوله: إنهم أجزوا لفظ هذه الأحاديث: (على ما يتعارف من صفات الأجسام، وزادوا في الأحاديث أكاذيب وضعوها ونسبوها إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. وذهب الشهرستاني أن مصدر هذه الأحاديث هم اليهود فإن التشبيه فيهم طباع، وأن التوراة مليئة بهذه التشبيهات الغليظة، ويرد إلى التوراة حديث أطيط العرش: (إن العرش ليضط من تحته كأطيط الرجل الجديد، وأنه ليفضل من كل جانب أربعة أصابع)^(٢). ومن العجيب أن محدثاً مشهوراً كجبر بن مطعم يروي هذا الحديث، ويرد عليه البيهقي^(٣) في (الأسماء والصفات) بأن هذا الكلام، إذا كان جرى على ظاهره فإن فيه نوعاً من الكيفية، والكيفية عن الله تعالى وعن صفاته منفية.

وأفحش الحشوية في مقالاتهم فقالوا بقدوم القرآن حروفه وأصواته ورقومه المكتوبة، وأنها كلها قديمة أزلية، وكان دليلهم على هذا بأنه لا يعقل كلام ليس بحرف ولا كلمة ولا كتابة له، ورتبوا على ذلك نتيجة مشبوهة، ظنوا أنها منطقية، هو ما دام

(١) انظر مقدمة تبين كذب المفترى للكوثري/ ١٠ - ١١.

(٢) انظر الشهرستاني ١٥٣/١ - ١٥٤.

(٣) انظر البيهقي: الأسماء والصفات/ ٣٤١٧.

الكلام قديماً أزلياً فلا بد أن حروفه وكلماته وكتابه أزلية.

وضلع فريق من المفسرين في تفسير القرآن الكريم في ضوء الاسرائيليات والتي حملت ظلالاً كثيفة من التشبيه، ومن هؤلاء (مقاتل بن سليمان المتوفى سنة ١٥٠هـ) والذي أجمع مؤرخوا المقالات على أنه كان من المشبهة والمجسمة^(١)، وكان يكذب ويأخذ من اليهود والنصارى، وربما كانت حركة التأويل العقلي في الإسلام رد فعل لحركة مقاتل بن سليمان، وهكذا أدى تطرف المشبهة إلى ظهور تطرف النفاة من أمثال جهم بن صفوان^(٢)، وما حديث أطيح العرش، وغيره إلا من مرويات مقاتل بن سليمان^(٣)، وكذلك حديث المقام المحمود، وشحن تفسيره بالحشو والتشبيه والأحاديث الواهية والموضوعة^(٤)، ولذلك ليس مستغرباً أن نجد أبا حنيفة المتوفى سنة ١٥٠ هـ^(٥) يلعن مقاتل بن سليمان، والغريب أن نجد مفسراً من التابعين له دور كبير في نشر حديث المقام المحمود، هو مجاهد بن جبر المتوفى ١٠٤ هـ^(٦).

وجمع مقاتل بين مذاهب رديئة ومتطرفة منها الإرجاء الذي أجمع عليه الأشعري والشهرستاني، بل زاد الأمر إلى القول بأن الإيمان قول فقط^(٧)، وتأتي بعد ذلك فتأخذ الكرامية بقوله^(٨).

ويبدو أن مقاتلاً جمع بين الإرجاء والتشبيه والتجسيم، يقول المقدسي: إن مقاتل زعم أن الله جسم من الأجسام — لحم ودم — وأنه سبعة أشبار بشير نفسه.. ويقول أيضاً: إنه على صورة لحم ودم^(٩)، وحكى الأشعري مثل ذلك^(١٠)، وتبعه داود

(١) انظر الشهرستاني في الملل ١٥٤/١ - ١٥٨.

(٢) انظر المقرئ في الخطوط ٣٤٩/٢، ٣٥١.

(٣) انظر الملطي في التنبيه والرد ٥٥٠.

(٤) حقيقه وطبعه د/عبد الله شحاته، إصدار الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٥) انظر ابن خلكان في وفيات الأعيان ١٦٣/٢.

(٦) انظر الذهبي في ميزان الاعتدال ٩/٣، وأبا نعيم في حلية الأولياء ٢٧٩/٣.

(٧) مقاتل بن سليمان في تفسيره ١٣/١، ١٥٠.

(٨) انظر الأشعري في المقالات ٢٠٥/١.

(٩) المقدسي في البدء والتاريخ ١٤١/٥.

الجواري الشيعي وأصحابه في مقالته: (إن الله أجوف من فيه إلى صدره، ومصمت ما سوى ذلك له) ^(١)، وهذا يدل على أن التشبيه تشارك فيه مشبهة الحشوية والشيعية الحشوية المجسمة.

ويقول الأشعري: إن داود الجواري ومقاتل بن سليمان يذهبان إلى أن الله جسم وأنه جثة على صورة الإنسان.. لحم ودم وشعر وعظم، له جوارح وأعضاء من يد ورجل ولسان ورأس وعينين) ^(٢).

وهكذا نجد أن الإمام القاسم الرسي كان يصارع تياراً عاتياً من التشبيه تمكن من العامة وبعض الخاصة في العالم الإسلامي، والمهم أنه يعتبر المقاتلية أسلافاً للكرامية، ويعتبر مشبهة الحشوية كمضر وكهمس والهجمي هم سلف الكرامية.

وموجز القول في مقاتل بن سليمان أنه كان مشبهاً ومجسماً، وقد احتفظ لنا التاريخ بتفسيره الذي يثبت تمام الإثبات تشبيهه وتجسيمه، وقد سبقه مضر وكهمس وأحمد الهجمي بلا شك أو عاصروه في التشبيه.

لقد تطرفت أفكار مقاتل حول الإلهية غاية التطرف، فحولته إلى (صنم) وقابل ذلك تطرف جهم الذي كاد أن يعبد من شدة التثنية عدماً، وهذا بعينه ما جعل التيارات المعتدلة يغيضون الفريقين جميعاً، وفي رسالتنا هذه نجد الإمام القاسم يرد على جهم في الشيء، كما يرد على مقاتل في الرؤية والنفس وغيرهما..

نبيغ في مدسة التشبيه ولمع اسم محدث مشهور عند رواة الحديث وهو خشيش بن أصرم أبو عاصم ^(٣) (إن خشيشاً ممن سطع نجمه بعد رفع المحنة في فتنة القول بخلق القرآن عن تقريب المتوكل العباسي النقلة) ^(٤).

ووصفه الكوثري بقوله: (كان يفوه بما ينبذه البرهان، غير ساكت عما لا

(١) الأشعري في المقالات ١/١٥٣.

(٢) الشهرستاني في الملل ١/٢١٩.

(٣) الأشعري في المقالات ١/٢٠٩.

(٤) انظر الزركلي في الأعلام ٢/٣٠٦.

(٥) الذهبي في تذكرة الحفاظ ٢/١١٩.

يعنيه^(١)، فتورط أمثال هؤلاء في الحشو والتشبيه والتجسيم.

وجاء الملطى^(٢) المتوفى سنة ٣٧٧هـ، وسقط في الحشو والتشبيه والتجسيم في كتابه (التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع)^(٣) شاهد على ذلك، فيروي عن خشيش صاحب كتاب (الاستقامة) والذي سبق الإشارة إليه، ومحمد بن عكاشة^(٤) وهو أحد القصاص ورواة الحشوية، وإن كان للملطى فضل فهو في حفظ وثائق هذا الاتجاه الهام في التراث الفلسفي الإسلامي.

وفي القرن الرابع الهجري ظهرت حركة كبيرة للحشو والتشبيه على يد المحدث المشهور بحر بن محمد بن الحسن بن كوثري بن علي البرهاري، ولذلك نسبت إليها فقيه لها: البرهارية، وهو ممن خلط في سماعه وأدائه فوجد في مروياته الحسن، والردئي وانتهى للتشبيه، يقول المقدسي: (أما البرهارية فإنهم يجهرون بالتشبيه والمكان، ويرون الحكم بالباطل ويكفرون من خالفهم ويتمسكون بحديث المقام المحمود)^(٥).

ومهدت بيئة التشبيه والتجسيم إلى ظهور فكرة الحلول، بل هي تنسب صراحة إلى مضر وكهمس وأحمد الهجيمي، ويحكى الشهرستاني أنهم انتهوا إلى حد الاتحاد، (من المشبهة من مال إلى مذهب الحلولية، وقال يجوز أن يظهر الله تعالى بصورة شخص)^(٦).

وفي مجال البيئة الصوفية ظهرت فكرة الحلول والاتحاد وفرضت نفسها على يد صوفية كبار كأبي حلومان الدمشقي^(٧)، والحسين بن منصور الحلاج^(٨) المتوفى سنة

(١) الكوثري في مقدمة التنبيه والرد/٥، ٦.

(٢) أبو الحسين محمد بن أحمد بن عبد الرحمن الملطى الشافعي المتوفى سنة ٣٧٧هـ، وانظر السبكي في طبقات الشافعية ١١٢/٢.

(٣) حققه الشيخ محمد زاهد الكوثري وطبعته المكتبة الأزهرية عدة طبعات.

(٤) يقول عنه الذهبي وضاع وضع آلاف الأحاديث، انظر لسان الميزان ٢٨٦/٥.

(٥) المقدسي في البدء والتاريخ ١٥٠/٥.

(٦) انظر الشهرستاني في الملل ٢٠٣/١.

(٧) الطوسي في المع ٣٦٢.

(٨) الذهبي في لسان الميزان ٣١٤/٢.

٣٠٩هـ، وأبي عبد الله محمد بن سالم البصري.

فأما أبو حلیمان الدمشقي فكان يعيش في دمشق، وأظهر دعوته فيها ونادى بحلول الله في الأشخاص الحسنة، وكان هو وأصحابه إذا رأوا صورة حسنة، سجدوا لها، متوهمين أن الله حل فيها، وكانوا يستدلون على جواز حلول الله في الأجساد، بقول الله تعالى للملائكة في آدم: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩]. وأن الله إنما أمر الملائكة بالسجود لآدم، لأنه حل فيه، ولذلك كان في أحسن تقويم، والله يقول: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

ولم يكن حظ العراق من الحلولية بأقل حظاً من الشام، فقد ذكر ابن الجوزي أنهم انتشروا في العراق، فيقول (حكى قوم من المشبهة بأنهم يجيزون رؤية الله بالأبصار في الدنيا، وأنهم لا ينكرون أن يكون بعض من يلقيهم في السكك، وأن قوماً يجيزون مع ذلك مصافحته وملازمته وملازمته، أو يدعون أنهم يزورونه ويزورهم، وهم يسمون بالعراق أصحاب الباطن وأصحاب الوسوس وأصحاب الخطرات) ^(١).

أما الحسين بن منصور الحلاج الذي قتل سنة ٣٠٩هـ، فقد اختلف في تكفيره الفقهاء والصوفية، بسبب آرائه في الحلول وقوله على الله، أما المتكلمون فقد أجمعوا على تكفيره ^(٢). أما الحشوية من المنايلة والسالية فقد احتفلوا بآرائه وقبلوها ^(٣)، يقول البغدادي (وقبله قوم من متكلمي السالية بالبصرة ونسبوه إلى حقائق معاني الصوفية) ^(٤).

(١) ابن الجوزي في تلبس إبليس/١٧٣.

(٢) انظر الاسفراييني في التبصير/١٣٠ - ١٣٢.

(٣) المصدر السابق.

(٤) البغدادي في أصول الدين/٣٢٢.

الكرامية

ثم ظهرت الكرامية على يد محمد بن كرام المتوفي سنة ٢٥٥هـ^(١) في بلاد ما وراء النهر، ووجدت لها ناصراً في الدولة الغزنوية ومحمود بن سبكتكين سلطانها^(٢)، وصار لها أتباع وأتباع بالآلاف في عصر مؤسسها، وظل المذهب موجوداً، وله أتباع الآن بالملايين، فلماذا؟..

لما عاش المذهب وناصره العامة، ودافع عنه في عصره وبعده الخنابلة، يبدو أن ما يحمله من عقائد تشبيهية وتجسيمية أقرب إلى قلوب العامة من غيره.

يقول الشهرستاني: (شعب رجل متمسك بالزهد من سجستان، يقال له أبو عبد الله بن كرام، قليل العلم، قد قمش من كل ضغثاً، وأثبتته في كتابه، وروجه على أغنام غزنة وغور وسواد بلاد خراسان، فانتظم ناموسه وصار ذلك مذهباً، وقد نصره سبكتكين السلطان، وصب البلاء على أصحاب الحديث والشيعة من جهتهم وهو أقرب مذهب إلى مذهب الخوارج، وهم مجسمة، حاشا محمد ابن الهيصم، فإنه مقارب)^(٣).

إذاً نحن أمام مذهب تُكوّن من فضلات أفكار كونت ثوباً مرقعاً من التشبيه والتجسيم في التوحيد اقتربوا به من الخوارج وورثوا بها مدرسة مقاتل بن سليمان، وداود الجواربي من المجسمة.

وتتلخص آراء الكرامية في العقيدة في أن الله جسم لا كالأجسام والغلو في إثبات الصفات الخبرية والعقلية، فقالوا بالعرشية والجسمية والتحيز والتزول والمجيء... إلخ^(٤).

ويقول الشهرستاني عنه: (إن الله أحدي الذات، أحدي الجوهر)، والله عز وجل بذلك جسم لا كالأجسام، وله وجود وبقاء وذات لا كغيره، ويتناهى من جميع

(١) انظر الشهرستاني في الملل ٢١/١، ١٠٦، ١٢٤، ١٢٩.

(٢) انظر ابن كثير في البداية والنهاية ٢٧/٢ وما بعدها.

(٣) الشهرستاني السابق ١٠٦/١.

(٤) انظر الأشعري في المقالات ٢٠٥/١ وما بعدها.

جوانبه، وله مكان هو العرش، ويُرى في جهة فوق ^(١)!.. إلى آخر ما ذكره أصحاب الفرق ^(٢).

وانتهى التشبيه والتجسيم بمدرسة تقي الدين ابن تيمية المتوفي ٧٢٨ هـ الحنبلي، وقد نشأ في بيئة يحيط بها التشبيه من جوانبها، ليؤدي هذا الفكر حتى هذا العصر، والذي يؤمن بمذهبه ملايين المسلمين!

هذا هو الفكر الذي كتب الإمام القاسم بن إبراهيم ليرد عليه في كتابه المسترشد، ليعلم مدى أهمية هذه الرسالة في الدفاع عن العقائد الإسلامية صافية خالصة، بعيدة عن التأثيرات الفلسفية الوافدة، أو الأفكار التراثية الساذجة، وحتى لا ينتهي أمر العقيدة إلى بقايا أديان مختلفة لا علاقة للإسلام بها.

وهذا هو الفرق بين منهج ومنهج، وفكر وفكر، من هو الأصيل منهما، ومن هو الدخيل..؟ لقد أصل الإمام القاسم لمنهج إسلامي خالص في الفكر الكلامي.



(١) الشهرستاني مصدر سابق ١/١٢٤.

(٢) الأشعري مصدر سابق ١/٢١٥.

منهج الإمام القاسم في الرد على المشبهة

١- يرد الإمام القاسم في هذه الرسالة على المشبهة والمجسمة، وقد زعموا أن الله في السماء واستدلوا على ذلك بالنص القرآني، فرد عليهم بأن هذه النصوص هناك نصوص مثلها تدل على أنه ليس في السماء، فأيهما أولى بالتصديق وأيهما أولى بالرد، فللصعود معان في اللغة، وللفاء معان أيضاً تحتملها لغة العرب الذي نزل بها القرآن، على غير ما قصد المشبهة من المكانية، والتي هي ممتعة على الله، وعقب على ذلك بقوله: (فالمعنى في ذلك كله المشاهدة والتدبير، لا على أنه في شيء يحويه، ولا على أنه مع شيء ملازق له، ولا على أنه على شيء، كما الإنسان على السرير وعلى السطح، قد خلا منه ما هو أسفل من ذلك!).

٢- وكذلك نفى كونه تعالى على العرش، لأن العرش ليس بأحق من غيره من الأماكن لوجود فيه الله، وهو ما يعلن بالتحيز والجهة، وكل ذلك منفي عن الله عقلاً ونقلاً، وكيف يمكن الجمع بين كونه تعالى في السماء، والعرش نفسه فوق السماوات على حد قولهم؟..

وهناك من المشبهة من قال بأن الله تعالى نفسٌ كنفس الإنسان، فرد عليهم، وبين لهم أن للنفس معان مختلفة في اللغة العربية يليق بعضها بذات الباري. فلم حمل المشبهة معنى النفس في القرآن على أنها نفس كنفس بني آدم؟!

يُرجع الإمام القاسم ذلك إلى جهلهم بالخطاب الإلهي وعدم معرفتهم بحقيقة التوحيد، وجهلهم بلغة العرب الذي نزل القرآن بها.

٣- المسألة الثالثة كانت في رده على من زعم أن الله نور كالأنوار المخلوقة، وهو عين مذهب المجوس والثنوية ومذهب المانوية في كونه تعالى نوراً، والشيطان هو الظلمة، أو أن العالم ما هو إلا النور والظلمة وقد حدث من امتزاجهما، إلى آخر ما قالوا ورد عليهم بتفصيل أكبر في رسالته التي رد فيها على ابن المقفع.

فبين الإمام القاسم أن النور المقصود في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ [النور: ٣٥] ليس ذلك، ولا يمكن أن يكون هو بحال من الأحوال. والله

(استنار لنا بتدبيره من غير مشاهدة مثلاً له، ولا إحاطة به، ولا إدراك من حواسنا له). فمن عرف الله وتعرّف عليه وأدركه، كان ذلك (بتدبيره ونوره وعلاماته، لا بمجاهرة منهم له ولا بالمشاهدة والملاقاة). وللنور تأويلات أخرى مختلفة بحسب معانيها في اللغة العربية، منها ما يليق بذات الباري تعالى، أما ما قصده الملاحدة فلا، وكذلك معنى ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ﴾ [النور: ٣٥] لا ينبغي صرفها إلى ظاهرها الذي يعني التشبيه والتجسيم، وإنما اللائق بذات الله هو أن يكون مثل نور النبي الذي جاء به مثلاً، أو قلب المؤمن في نور إيمانه، أو ما شاء الله من المعاني المصروفة إلى غير معنى التشبيه، ويصدق ذلك أيضاً على قوله تعالى: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ [النور: ٣٥]، وغيرها من المعاني الشريفة.

٤- وكذلك صيّر المشبهة مفهوم الشيء فمالوا إلى التجسيم، أما الجهمية فقد مالوا إلى أقصى التزيه فأنكروا الشيئية في حق الله عز وجل، وهكذا مال قوم إلى التشبيه فأفرطوا، وآخرون إلى التزيه ففرطوا، وكلاهما حاد عن سواء القصد فهو ذميم!..

فالله تعالى، وسم المعاني بأن قال: هي شيء، لإخراجه لها من العدم إلى الوجود، وهذا يعني أن الشيء هو الوجود في مقابل العدم، (والله شيء لا يشبه الأشياء)، وهو خالق الأشياء ومشيعها، ولا يشبه شيئاً من خلقه، وفي غير ما مثلية، فالتشبيه لا يجوز إلا على ضد ومثل.

فـ(الله شيء واحد كريم، والله شيء عزيز، والله شيء ليس كالأشياء، فيكون ذلك مدحاً، ولا يذكر العبد التقي ربه إلا وهو فيما ذكر من أسمائه مادح).

٥- أما المسألة الخامسة فكانت في الرد على من أنكر أن يكون الله واحداً ليس بذئ أبعاض، لقد نقض الإسلام التصور الأرضي للإله، ذي القدرات الخاصة (السُّوَبَر) وأكد على قيوميته تعالى وفردانيته ووحدانيته، فلا ثاني معه، ولا مثل له في صفة ولا في ذات ولا في قول ولا فعل ولا معنى من المعاني... والواحد له معان كثيرة في اللغة منها الأول الفرد، وهو العدد الحسابي، أو بمعنى أنه أول الأشياء، والله واحد لا من عدد وليس له في وحدانيته شبيه ولا نظير في ألوهيته ولا في ربوبيته.

ورفض الإمام القاسم التبعض على الله، فالله ليس بجسم، والأعضاء من خصوصيات الأجسام، فلا يد له كأيدينا ولا رجل له كأرجلنا، ولا على مثالنا، الكون لا يقوم إلا بمكوّن، والطول لا يقوم إلا بمطوّل، والأبعاد لا تكون ولا تقوم إلا باتصال بعضها ببعض، والله على غير هذا، ولا تقوم إلا باتصال بعضها ببعض، والله ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير (ليس يشبه معاني البشر، ولا الحساب، وهو إسقاط الثاني، وليس ثان مع الله ولا واحد غيره في معناه، كهو وإثباته واحداً تعطيل الثاني، وفي تعطيل الثاني توحيد الأول، والواحد الباقي الذي ما سواه ثان).

٦- المسألة السادسة كانت رده على من زعم أن الله وجهاً كوجه الإنسان، وإذا كان الله أنزل القرآن بلغة العرب وهي لغة الإيجاز والبلاغة، فقد جعل الله بيان القرآن في هذه اللغة وفي تصاريفها، وهو مما يعلمه ويدركه العلماء الراسخون، والمشكلة فيمن نحى اللغة جانباً، وبدأ فهم النص من عندياته، فهلك وأهلك وضل وأضل، وقد ذكر الله الوجه في أكثر من موضع، فهل يعني هذا أنه ذكر بعضه على وجه التحقيق؟!

هذا ما نفاه كل بصير، وجاء الإمام القاسم ليرد بشدة على هذا الزعم، وقد ذكر لذلك تأويلاً وتفسيراً مقبولاً على معاني ما جاء في اللغة العربية، لا يحمل معنى التبعض أو التشبيه والمثلية وكذلك يليق بذات الله تعالى، وقد يكون وجه الله هو العمل الصالح والقول الحسن والثواب..

٧- أما المسألة السابعة فكانت في نفي الرؤية، والرد على من زعم أن الله تدركه الأبصار وتحيط به الأعين، تعالى عن ذلك، بما تعنيه من إحاطة وجهة وتحيز، وقدم الإمام القاسم معان كثيرة للرؤية سوى ما يفهم من الجهة والإحاطة وغيرها.

ثم قدم تفسيراً للمعنى الرؤية عن رسولين كريمين هما إبراهيم وموسى عليهما السلام، فيقول الإمام القاسم: (إبراهيم وموسى في سؤالهما وقولهما لم يسألاً ربهما أن يرياه جهرة، بمعنى ما يرى البشر البشر، لأن ذلك شرك..).

فلم يحدث الله في الجبل رؤية، ولا كان للجبل عين ولا عقل يدرك الرؤية، أما معاني التحلي الإلهي على الجبل فقد أفاض فيها الإمام القاسم.

وقدم الإمام القاسم مفهوماً للرؤية في الآخرة، غير مفهوم المشبهة، فقال: (يراه

أولياؤه وينظرون إليه نظر مخلوقين إلى خالق، ينتظرون ثوابه ويرون تدبيره، لا كنظر مخلوقين إلى مخلوق ؛ لأنه ليس كالمخلوقين، ويجوز أن يقال: نظر إلى من ليس كالمخلوق كما ينظر إلى المخلوق..! وفي الخلق ما لا يُرى وهو الروح والعقل وما أشبههما، فلا يقال: إن شيئاً من ذلك يُرى كما ترى الأشخاص!).

وكذلك ينظر أولياؤه إليه لا بمعنى جهةٍ وإحاطةٍ منهم به، ولكن ينظرون إليه على خلاف التحديد والإحاطة.

وكلما كان من ثواب الله في الجنة فلا يعلم كيف هو إلا الله، إلا أنا نعلم أن معنى الدرك له في الجنة ليس بتحديد ولا إحاطة، فاعرف معاني الدرك واعرف فضل الدرك الذي يكون في الآخرة، على فضل الدرك الذي يكون في الدنيا، ولو أمدَّ الله عز وجل الأبصار بالمعونة، حتى تدرك أقل قليل نقطة من القطر في مُدَّهم ليل عاتم تحت الأرض السفلى، من أبعد غايات السماوات العلى، ما أدركت الأبصارُ الله، وكذلك لو أمدَّت الحواس كلها بالمعونات حتى تدرك كل محسوس ما هجم منها شيء على الله سبحانه، تبارك وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

إذاً الخلاف بينه وبين من يثبت الرؤية في الآخرة خلاف جوهري، فهو يصرفها عن معنى الرؤية التي يفهمها بشر من بشر، وهم يثبتون هذه الرؤية الحسية، وقد أفاض الإمام القاسم في نفي الرؤية على معنى ما ذكر قوم موسى عليه السلام، ونفى أيضاً اتهام موسى بأنه طلب الرؤية الحسية ؛ يقول الإمام القاسم: (لو كانت مسألة موسى على ما يتوهم المشبهون، لزلت به من العقوبة مثل ما نزل بغيره، ولغلظ الله عليهم تغليظاً يعلم العباد أنه أكبر من الصغائر، وفي تكفير الله عز وجل الذين قالوا: ﴿أَرْنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣]، إخراج مسألة موسى عليه السلام من معنى رؤية الجهرة، وإخراجه من جهل القوم بالله).

كما رفض الإمام القاسم روايات المشبهة في الرؤية، لأنها تتعارض مع روايات أخرى تنفيها، مع ما تحمله هذه الرويات من إثبات ما لا يليق بمقام الألوهية، من التحيز والجهة والتبعيض والجسمية، والعرض كاللون والهيئة.

وأول الإمام القاسم معنى (لقاء الله)، وكذلك (حجاب الكفار) عنه يوم القيامة،

وفسّر النظر بمعنى الدعاء، ونفى أن يكون النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد رأى ربه في الإسراء والمعراج، وإنما رأى جبريل عليه السلام على حقيقته وهيئته التي خلقه الله عليها، أما الإدراك فهو بمعنى المشاهدة والملاقة جهرة، أو ما يرد على القلب، وهو متفاوت بتفاضل المؤمنين بعضهم عن بعض.

وفي آخر هذا الرد يقدم مفهوماً لإدراك الله في الدنيا، يرد على قلوب العارفين الصالحين من عباد الله، تبدو به سمات شخصيته الروحية والصوفية العارفة، ومعايشته للإيمان تجربة ومنهاجاً.

الرافضة

يرد الإمام القاسم بن إبراهيم على الروافض في زعمهم أنه لم يخل قرن من القرون إلا وفيه له وصي نبي أو وصي من وصي، يقيمه الله تعالى حجة على عبادته، له علم خاص وحال خاصة ومن جهله ضل، وطاعته مفروضة، ومعرفته مفروضة على جميع أهل زمانه.

وبدأ الإمام القاسم في نقض هذه المقالة من وجوه عديدة، منها: أين كان هذا الوصي الحجة في الفترات التي خلت من الرسل، وإن كان موجوداً لم لم يُعرف بنفسه أو يدع قومه إلى الإيمان به وتوحيد الله تعالى، وما الحاجة للرسل إذا كان هؤلاء الأوصياء موجودين في كل زمان؟!

ويرد على الروافض دعواهم بأنها تكذيب للرسل وإلحاد بالكتب، ولا يفوه بمثل هذه الدعوى إلا كافر عنيد وخصم ألد، فلا الله تعالى بث في عبادته حججاً هي أوصياء على خلقه، ولا الأنبياء غابوا عن عبادته برسائلته الهادية إلى توحيده وتفريده. والآيات المحكمات من نص كتاب الله دالة على بعث الله للرسل والكتب، وأنهم سرج هداية للبشر، ولم يقم لغيرهم حجة على خلقه.

ويدعي الروافض أن النبي عليه أن يتعرف على وصي زمانه ويأخذ الإذن منه!.. وأن الوصي خير من النبي.. وغير ذلك من ترهات كفرية أحصاها عليهم الإمام القاسم.

فليس بعد محمد صلى الله عليه وآله وسلم حجة أو حجج على خلقه غيره صلى الله عليه وآله، وغير القرآن المتزل من قبل رب العالمين، وكل رسول هو الله حجة، وكلهم شهداء الله على خلقه وعباده، وأمنائه في أرضه وبلاده، وتهدد الله وتوعد من ينكر رسالة رسله أو يحاربهم، أو يسعى في الأرض فساداً، هاجراً شرعه وتازكاً لتوحيده.

أما لفظ الإمام في القرآن فكان لأتباع الأنبياء وخلفائهم في خلقه، يهدون بهداهم ويدعون بدعوتهم ويحكمون بشريعتهم، ليس لهم علم ظاهر ولا باطن يخالف ما جاءوا به أو يفوق ما جاءوا به.

ويسخر من الروافض إغراقهم في التشبيه والتجسيم وسيرهم وراء زعماء السوء من أمثال هشام بن الحكم بن سالم الجواليقي، وداود الجواربي، وغيرهم، ثم ادعائهم على الله واختلاقهم شخصية الولي الوصي، أو الوصي الولي والحجة على خلقه في كل زمان!

فشبهوا الله بصورة آدم وقالوا منكراً عظيماً، يدل على جهلهم بصفة ربهم وخالفهم، فهو جسم؛ وطوله ستون ذراعاً، وهونور، وهو على العرش، وهو لحم ودم، تعالى الله عن مقالته علواً كبيراً.

ويعذرهم الإمام القاسم في جهلهم في صفة ربهم لعدم قصد أكثرهم التجسيم، ولكنهم تبعوا زعيماً لهم فأضلهم، إلا مقالة الولي الوصي فشدد عليهم النكير لكون مقالته معاندة لحقائق وبدييات العقول، وإنكاراً للرسالة وما فيها، وتهوين شأن الرسل ووحى السماء.

ويرجع كلام الروافض لتأثرهم بالبرهية الهندية في إنكارهم للرسل، وقولهم نكتفي بريالة آدم وهو كذب وزور وضلال، لإنكارهم رسالة الرسل ونبوة الأنبياء، وردهم الكتب ووحى السماء. والغريب أنهم قالوا بوصية آدم لشيث ابنه!

ولو وجد هذا الوصي ما كانت هناك فترات ولا رسل ولا جاهلية أبداً، ورسالة الله منة ورحمة ولطف بعباده، وما زالت الرسل تترى والوحي يتتابع حتى ختمت بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وأرجع الإمام القاسم أمر الهدى والضلال والكفر والإيمان لله وحده، فمن آمن واهتدى خرج من الكفر والضلال وسكن إلى سكينة ربه وطمأنينته، وليس المرجع لإمام وصي معصوم مَنْ عَلَّمَهُ اهتدى، وَمَنْ جَهَلَهُ ضَلَّ كما يزعمون: ((والله سبحانه يخبر أنهم كانوا كلهم في ضلال وعمى، وقد كانوا جميعاً جهلةً بدينه لا علماء، والرافضة تزعم أنه قد كانت فيهم يومئذ الأوصياء، وأنها قد كانت تعلم من الدين حينئذ ما كانت تعلمه الأنبياء...)).

وما تزعمه الروافض هو من القول المتناقض المستحيل (إذ وصفوا بعضهم بالهدى مع وصفهم بالتضليل!).

ثم ذهب إلى الاحتجاج عليهم من باب الإلزام، ليسألهم عن الوصي الذي كان مع سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، لأنه «معلوم عند كل أحد من الأمم غير مجهول، أنه لم يكن في العرب بعد عيسى صلى الله عليه وآله وسلم، رسول ولا مدع يومئذ».

وإن كان هناك وصي فَلَمْ يَعرِفْهُ صلى الله عليه وآله وسلم، أم يا ترى تعرف الروافض ما لا يعرفه النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فهل ضل النبي بجهله إمام زمانه ووصي عصره؟!..

وهذا الوصي أين كان لما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٣]، وكذلك محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

ومسألة وجوب علم الوصي ومعرفة بعينه في كل زمان وفي زمن الإمام القاسم المتوفي سنة (٢٤٦هـ)، والدعاوي التي أطلقها الروافض في أوجها.. وعليه أن يعرف وصي زمانه ويؤمن به ليهديه ويرشده!.. مما رد عليه الإمام القاسم في رسالته.

ويقارن بين النبوة ودعوى الوصاية فيبطلها ويكذبها من وجوه عديدة عقلية ونقلية، ويذهب إلى أبعد المدى فيكفر الروافض بمقاتلهم هذه، ولذلك أرجو أن ينتفع المسلمون بهذه الرسالة، وتسد حاجة في مكتبة العقيدة، وتساعد الدارسين على فهم حقيقة موقف الزيدية من الروافض.

المعتزلة

وهاهم أئمة المعتزلة في عصره، يقدون عليه في مجلسه، محاورين ومستفهمين، فهذا (حفص الفرد) — وهو علم من أعلام المعتزلة في عصره — يحضر مجلسه كما سبق.

وهذا (جعفر بن حرب) — علم من أعلام المعتزلة — يقد عليه مستفهما ومحاورا.

قال الإمام أبو طالب: حدثني أبو العباس الحسيني رحمه الله، قال: سمعت أبا بكر محمد بن إبراهيم المقانعي، يذكر عن أبي القاسم [البلخي] عبد الله بن أحمد بن محمود، عن مشائخه، أن جعفر بن حرب — بغدادى من أئمة المعتزلة توفي سنة (٣٣٦هـ) — دخل على الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام، فجاراه في دقائق الكلام، فلما خرج من عنده قال لأصحابه: أين كنا عن هذا الرجل فوالله ما رأيت مثله ^(١)؟!



الإمامة

يعد مبحث الإمامة نموذجاً صالحاً لمعرفة كيف تعامل المتكلمون مع واحدة من أهم مسائل الإسلام السياسي، وإمكان اتخاذ هذه الآرا كقاعدة لتأسيس منهج جديد لعلم الكلام في تعامله مع القضايا المطروحة الآن في الساحة السياسية، كالإسلام والديمقراطية، والإسلام والثورة، والإسلام والتعددية الحزبية، والإسلام والآخر كأهل الذمة والغرب، والإسلام والمبادئ الأساسية لحقوق الإنسان كالعدل والمساواة والإخاء والحرية، والإسلام وحقوق المرأة، والإسلام والإبداع، والإسلام والمعارضة السياسية، والإسلام والنظم العالمية، إلى آخر هذه القضايا الساخنة في الساحة الفكرية المحلية والعالمية، والتي تمثل تحدياً لتاريخنا الفكري وواقعنا الحضاري في البقاء أو التنحي، والتي تبدأ بمجدية التناول والطرح وعمق الأفكار والنظريات التي يقدمها المسلمون لإنسان القرن القادم، وعصر الكونية والعولمة والفضاء وما بعد الفضاء!..

ولا يعقل أن نتنكر لها لتبقى القضايا السياسية أو المتعلقة بالإسلام وأصول الحكم، كما هي دون تغيير من حيث النظرية أو التطبيق. فما موقف الإسلام من الإرهاب، وما الحلول التي يقدمها من أجل حماية الشعوب من إرهاب الدولة وإرهاب الجماعات المسلحة على حد سواء؟! وما موقف الإسلام من الاقتصاد المحلي والعالمي، وما الذي سيقدمه للعرب في ظل نظريات الجات وانفتاح السوق، وما الإسهام الذي سيقدمه العلماء والباحثون من أجل الوحدة العربية والإسلامية في مقابل أوروبا موحدة، وغرب موحد، كما أن الصراع الحضاري يفرض نفسه، فمن نظرية صمويل هانتجتون الأستاذ بجامعة هارمز الأمريكية في كتابه «صدام الحضارات»، والذي يصور لنا مستقبلاً يحل فيه صراع الحضارات محل الحرب الباردة والمعارك الأيديولوجية، ومحل الفاشية والشيوعية والديمقراطية، التي سيطرت على معظم هذا القرن، ويتوقع أن يميل الناس إلى تعريف أنفسهم وفقاً لانتماءاتهم الحضارية: الغربية، الإسلامية، الصينية، الأمريكية، اللاتينية، الأرثوذكسية... إلخ. وأن هذا الصراع سيظهر عند نقاط التقاطع!

أما الصراع الإسلامي الغربي فهو أكثر نقاط الصراع استمرارية وسخونة، أما

الصراعات الأخرى. ربما كانت أقل قابلية للتفاقم، وأكثر قابلية للحلول الوسط. أي أنه لا هدنة ولا سلام مع المسلمين والإسلام.

فالحركات الإسلامية صارت مبعث قلق للغرب بدورها المتصاعد، لا سيما البعيدة عن التطبيق السياسي، والتي يصور بعض قادتها الإسلام في مقابل الديمقراطية، والغرب قلق بطبعه لعدم معرفته بالاتجاهات التنويرية في الفكر الإسلامي، والتي تنطلق من تاريخية أصيلة وتراث متفوق في الممارسات والنظريات، وكذلك قلق لإيمانه بأن العلمانية الكاملة هي شرط التحول الديمقراطي.

يأتي بعد ذلك مفكرون غربيون ليقفوا من نظرية صمويل هانتجتون على النقيض، ليقرروا أن العلمانية المتطرفة، كانت هي العامل الأساسي وراء ظهور الأصولية كرد فعل. كذلك عدم وجود رد فعل حقيقي فكري وشعبي للتعريف بالإسلام السياسي، جعل تقارير العملاء وأنصاف العملاء من الصحفيين الأمريكيين وغيرهم ينفخون في نظريات جديدة ليس لها ظل من الواقع «كالمؤامرة الإسلامية» والتي تقوم على الخلط بين الاتجاهات والأحداث.

أما تعبير «الأصولية الإسلامية» والذي لا يساوي بحال البيئة الحقيقية التي نقل منها هذا اللفظ البروتستانتية الأمريكية، لوصف الوضع الإسلامي الداخلي فهو تعبير غير لائق ولا ملائم، ويضلل الغرب، الذي لا يعرف حقائق الإسلام السياسي، تجاه فكرية خرجت — بقصد — من أدراج البنتاجون والمخابرات الأمريكية.

وعموماً الغرب يرد على الغرب فقد كتب جون اسبوزيتو كتاباً عن «التهديد الإسلامي: أسطورة أم حقيقة؟»، ورد فيه مزاعم التصور الغربي للإسلام السياسي والجماعات العاملة على الساحة الإسلامية.

أما مقالة «تحتدي الإسلام الجهادي» لجودفري جانس، فقد بينت عدم جدوى المواجهة مع الجماعات الإسلامية، في ظل الفساد وعدم الكفاءة. ومقاومة التأييد المتنامي للإسلام السياسي يدعو الغرب إلى حملة جهاد غربية ضد ما يسمى بخطر الأصولية الإسلامية.

وإذا كان لنا تعليق على الوضعية الفكرية في الغرب للإسلام وأهله، فإننا نناشدهم

التعامل مع الإسلام بمنظور جديد، وكذلك ناشد الحكومات الإسلامية إلى تطبيق الفكر الإسلامي السياسي بمعاييره الواضحة والديمقراطية لقطع خط الرجعة على الجماعات المسلحة، وكذلك قطع خط الرجعة على التعصب والعصبية الغربية في مواجهة الإسلام. ويؤكد خطورة الموقف في العالم الإسلامي ما ذكره غسان سلامة من: «أن المعايير المزدوجة للغرب وسياسة التدخل العسكري الانتقائية، والتركيز على الجانب الأمني في التوجه الغربي، نحو العالم الإسلامي، قد يدفع بدون شك في سبيل وصول الإسلاميين للسلطة»^(١) ولعل دعوة السيد محمد خاتمي رئيس جمهورية إيران الإسلامية إلى (حوار الحضارات) تعد نموذجا رائعا من الحلول التي يقدمها الإسلام والمسلمون في سبيل التعايش السلمي بين الشعوب والاعتراف بالآخر.

ربما نكون قد أوضحنا مدى خطورة الموقف السياسي في العالم الإسلامي، إن لم نقدم على إصلاح حقيقي كالذي حدث في الغرب، فالشورى ضرورة ملحة، والديمقراطية ضرورة ملحة، وتطبيق الدستور، والتخلي عن الأحكام العرفية ضرورة ملحة.

وتطبيق مبادئ حقوق الإنسان ضرورة ملحة، وإلا جعلنا للجمعيات المراقبة في الداخل والخارج، بتقاريرها المشبوهة في الغالب، يداً طولى على مؤسساتنا السياسية بما تفعله في الغرب، وما تعطيه له من مسوغات للتدخل في شئوننا الداخلية. وما حدث أخيراً ينذر بتحضر الغرب ضد الشرق الإسلامي.

وكثيراً ما يعتريني الخوف من الخلط المقصود الذي صورته د/مظهر في كتابه «الإسلام لا الشيوعية» عن تصور الغرب لنا إذ يقول: «سمعت بعضهم يقول: لقد شبعنا من الإسلام، فلا نعود إلى حكم الإسلام، ذلك بأنهم لم يعرفوا الإسلام، ولم يتفقهوا في ما ينبغي أن تكون عليه دولة الإسلام».

فكل الحكومات التي قامت على الاستبداد والجور والفسق واللصوصية في ديار الإسلام، ثم انحلت وماتت، هي عندهم وليدة الإسلام لا وليدة المسلمين، مسكين هذا

(١) انظر تقرير د/ألفت حسن آغا في: الأصولية الإسلامية بالإعلام الغربي العدد ٢٥ — يناير ١٩٩٥ —
الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية.

الإسلام، باسمه تؤخذ الدنيا وباسمه تزول، ومن وراء الأخذ والزوال لصوص بعيدون عن الإسلام، يلتبس هم بعض المغفلين الأعذار؛ بأنهم لولا الإسلام، لما أصبحوا لصوصاً!!.. ولولا الإسلام لما انقلبوا جهلة مارقين، ولولا الإسلام لما زالت دولة اللصوصية من أيديهم، فهل وراء ذلك من جهل!«^(١).

لقد تعرض التاريخ الإسلامي السياسي منه والثقافي والديني، لتفسيرات واجتهادات مختلفة، ومع تباين البيئات وتفاوتها في كل عصر استطاع المفكرون الإسلاميون أن يضعوا اجتهادات ثابتة وفريدة، وعالجوا مشكلات عديدة ذات مستوى راق، يشهد لذلك هيجل في مؤلفه «محاضرات من تاريخ الفلسفة» يصف التاريخ السياسي للعالم الإسلامي بقوله إنه «بمجرد معرض للتغيرات الدائمة»^(٢).

فهل لنا أن نواصل مسيرة الإصلاح السياسي في ظل هامش الديمقراطية المتاح دون التفات للخلف أو انتكاس للوراء؟!.. مع توعية الشعب المسلم بخطورة الجماعات الإسلامية التي تعتمد العنف والإرهاب في مقرراتها، فهي إن لم تكن عميلة للغرب وخرجت من أدراج مخبراتها، فهي على الأقل تعمل لتزكية مصالحه في بلادنا.

وبالبدل من ذلك، زيادة الوعي الشعبي بحقيقة الإسلام السياسي من خلال القنوات الشرعية والمؤسسات الثقافية، لأن إهمال هذا الجانب يؤدي إلى عواقب وخيمة.



(١) الإسلام لا الشيوعية/٥١ وما بعدها.

(٢) روز نتال في: مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي/١٣ ترجمة د/انيس فريجة، دار الثقافة ١٩٦١ بيروت.

التوحيد

إن وجود الله تعالى وتوحيده من البدايات التي يدركها الإنسان بفطرته، ويهتدي إليها بطبيعته. وليس من مسائل العلوم المعقدة، ولا من حقائق التفكير العويصة. ولولا أن شدة الظهور قد تلد الخفاء، واقترب المسافة جدا قد يعطل الرؤية، ما اختلفت على ذلك مؤمن ولا ملحد.

﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠].

وقد جاءت الرسل لتصحيح فكرة الناس عن الألوهية. فأنهم وإن عرفوا الله بطبيعتهم إلا أنهم أخطأوا في الإشراف به، والفهم عنه. ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ [إبراهيم: ٥٢]. ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [محمد: ١٩].

والبيئة الفاسدة خطر شديد على الفطرة، فهي تمسخها وتشرد بها، وتُخلف فيها من العلل ما يجعلها تعاف العذب وتسيع الفج.

وذاك سبب انصراف فريق من الناس عن الإيمان والصلاح، وقبولهم للكفر والشرك! مع منافاة ذلك لمنطق العقل وضرورات الفكر وأصل الخلقة.

(إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، فأنتهم الشياطين، فاجتالهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم..)^(١).

وقد اقترنت حضارة الغرب — التي تسود العالم اليوم — بترويع حاد إلى المماراة في وجود الله، والنظر إلى الأديان — جملة — نظرة تنقص، أو قبولها كمسكنات اجتماعية لأنصارها والعاطفين عليها.

ولا شك أن المحنة التي يعانيتها العالم الآن أزمة روحية، منشؤها كفره بالمثل العليا التي جاء بها الدين، من الحق، والإنصاف، والتسامح، والإخاء.

فلا نجاة له مما يرتكس فيه إلا بالعودة إلى هذه المثل، يهتدي إليها بفطرته، كما

(١) أخرجه مسلم ٢١٩٧/٤ (٢٨٦٥)، وأحمد ١٦٢/٤ (١٧٥١٩)، وابن حبان ٤٢٢/٢ (٦٥٣).

يهتدي سبيله الجنين في ولادته، والفرخ من بيضته.

ومتى هُدي العالم إلى الفطرة، هُدي إلى الإسلام، فإن الإسلام هو دين الفطرة. ومعرفة الله سبحانه وتعالى مركوزة في كل طبع. واسمه الكريم معروف في كل لغة، واختلاف الأجناس والألسنة لم يصرف الأفئدة والأفكار عن هذه الحقيقة الواحدة.

بيد أن هذه المعرفة المتصلة برب العالمين لم تأخذ امتدادها الكامل وسماتها الراشدة، ولم تبرأ من الأوهام وتبعد عن الأهواء، إلا عندما تلقّاها الناس مُصفاة من ينابيع الوحي، وسمعوا آياتها تُتلى من أفواه الأنبياء.

ولكن ذلك لم يمنع الكثير ممن لم يدخلوا في نطاق الرسالات الأولى، أو لم تبلغهم — على وجه صحيح — هدايات القرآن الكريم، أن يفكروا في الله من تلقاء أنفسهم، وأن يطلقوا لعقولهم عنان البحث.

والفلسفة الإلهية حافلة بالكثير من هذه الأفكار، كما أن علماء الكون في العصر الأخير قد تكلموا عن الله في حدود ما هداهم إليه البحث المجرد في آفاق الطبيعة وأسرارها وقوانينها.

والفلاسفة القدامى أسَمَوْا الله: الصانع، والعقل الأول، وواجب الوجود، وسبب الأسباب، وغير ذلك من الأسماء التي اصطَلَحُوا عليها.

كما أن للعلماء المحدثين تصورات في الألوهية التبس فيها الحق بالباطل كما سترى. وعلة هذا اللبس، أن هداية السماء لم تصخب العقل في سيره. ومن ثم أقر العقل بالمبدأ الواجب، وأخطأ في التفاصيل المتعلقة به.

المهم أن العقل الذكي، والبحث الزيه، والفكرة المبرّاة عن الغرض، المستقيمة على النهج، تتأدى بأصحابها — حتماً — إلى الله، وتَقْفُهُمْ خاشعين أمام الشعور الغامر بعظمته وجلاله.

ليس كمثله شيء

إن مخالفة الذات الإلهية لغيرها من المحدثات ظاهرة، والبدهة تقضي بأن بين

المخلوق والخالق أمدًا بعيدا، وأن الخالق لا يشبه شيئا من خلقه، لا في ذاته، ولا في صفاته.

وقد وصف الله عز وجل نفسه بصفات كثيرة، من الصعب إدراك حقيقتها على النحو الذي ندرك به أمورنا المعتادة، بل هذا مستحيل!
من أين للتأفة أن يعرف كنه العظيم؟

إن النملة لا تعرف حقيقة الإنسان، فحدود عالمها الذي تعيش فيه تقفها دون ذلك.

والطفل — في المرحلة الأولى من عمره — لا يعرف ما هي الرجولة، ولا ما يصحبها من سعة عقل، واستحكام إدراك.

بل إن الإنسان عاجز عن إدراك حقيقة الوجود المادي الذي يعيش فيه، فكيف يعرف ما رواءه من غيوب؟

إذا قيل: إن الله يسمع، فليس ذاك بأذن كأذاننا. أو يرى، فليس ذلك بعين كأعيننا. وإذا قيل: إنه بنى السماء، فليس على النحو المألوف من تكليف بُناة واستحضار أدوات. وإذا قيل: يده فوق أيدينا، فليس الوصف لجارحة كأعضائنا.

والذي نوقن به ابتداء، أن صفات المحدثين واحوالهم لا يجوز أن تنسب إلى الله، فهو — سبحانه وتعالى — غير مخلوقاته.

وشأن الألوهية أسمى مما تتصور الأذهان الكليّة والعقول القاصرة.

وقد وردت في الوحي الكريم كلمات عن الوجه، واليدين، والأعين والاستواء على العرش، والتزول إلى السماء، والقرب من العباد... إلخ، حاول كثير من المسلمين استكناه دلالتها واستكشاف حقيقتها، فلم يرجعوا إلا بالحيرة. حتى قال قائلهم:

نهاية إقدام العقول عقال وآخر سعي العالمين ضلال!

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا!

وكم من جبال قد علا شُرُفاتها رجال فبادوا والجبالُ جبال!

ولا غرو، فإن البحث عبث فيما لا يملك المرء وسائل الخوض فيه.

إن الكيميائي قد يعرف خواص سائل أو غاز يقلبه تحت يده ويُجري عليه ما شاء من تجارب، فكيف يجوز للعباد أن يتدخلوا بالبحث النظري في شأن الألوهية لينكروا أو ليثبتوا؟ وشأن الألوهية بالنسبة إليهم عزيز المنال.

إن اللغات من وضع الناس على مر الزمان.

فنحن العرب وضعنا كلمة أذن مثلاً لهذا التجويف أيمن الوجه أو أيسره الذي نسمع عن طريقه الأصوات ونتبين الكلمات...

وقد وضع غيرنا من أبناء اللغات الأخرى كلمات تدل على هذه الحاسة غير الكلمة المتداولة بيننا، والمهم أن هذه الألفاظ الموضوعية استحدثتها الناس لمفاهيم مادية أو معنوية مارسوها وألفوها، ومن هنا فالجحيء بهذه الكلمات للدلالة على أمور مغيبة ليس إلا من قبيل التقريب للذهن، ولا يمكن أن تكون هذه العبارات — التي صنعناها نحن بياناً للمحسوسات أو المعقولات المأنوسة لنا في عالمنا — وصفاً حقيقياً لعالم ما وراء المادة.

على ضوء هذا الملحظ نفهم حديث أي لغة عن الله جل شأنه وعن صفاته العليا، إن الأمر لا يعدو تقريب الحقائق المطلقة لوعينا المحدود.

والله أكبر من أن تحيط بعظمته عقولنا. أو تستوعب كمالاته أقدارنا.

وقال ابن أبي الحديد:

والله لا موسى ولا عيسى	سوى المسيح ولا محمد
علموا ولا جبريل وهو	إلى محل القدس يصعد
كلا ولا النفس البسيطة	لا ولا العقل المجرد
من كنه ذاتك غير أنك	أوحدي الذات سرمد
وجدوا إضافات وسلبا	والحقيقة ليس توجد
ورأوا وجودا واجبا	يفنى الزمان وليس يتفد
فلتخسأ الحكماء عن	حرم له الأفلاك سُجَّد
مَنْ أنت يا رسطو ومن	أفلاط قبلك يا مبلد
ومن ابن سينا حين قرأ	ر ما بنيت له وشيد

هل أنتم إلا الفرا ش رأى الشهاب وقد توقد
فدنا فأحرق نفسه ولو اهتدى رشدا لأبعد
وقال:

فيك يا أعجوبة الكون غدا الفكر كليلا
أنت حيرت ذوي اللب وبَلَبَلَتَ العقولا
كلما قدّم فكري فيك شبرا فرّ ميلا
ناكصا يخبط في عميا لا يُهدى السبيلا
وقال:

فيك يا أغلوطة الفكر تاه عقلي وانقضى عمري
سافرتُ فيك العقول فما رجحت إلا أذى السفر
رجعت حسرى وما وقفت لا على عين ولا أثر
فلحى الله الأولى زعموا أنك المعلوم بالنظر
كذبوا إن الذي طلبوا خارج عن قوة البشر^(١)

وقد تناول الإمام القاسم مسألة التوحيد والعدل في جل كتبه، إن لم أقل كلها بشكل موضوعي متميز، وهي لديه القضية المركزية، والمحور الأساس لقضايا العقيدة، والشرعية بكل أصولها وفروعها.



العدل

العدل الإلهي — عند المؤمنين بالله تعالى — قضية بديهية لا يرقى إليها شك، ولا يعترىها ريب، ولا تحوم حولها شبهة. وكل الأديان السماوية، وكل معطيات العقل السليم والمنطق العلمي مقرّان بذلك أتم اقرار، ومذعان له أكمل اذعان.

ولهذا لم يكن العدل الإلهي — بمعناه البحث المجرد — معضلة من المعضلات الفكرية المعقدة التي تحتاج إلى تجريد بحث خاص، يُعنى بتسجيل براهينها وإيراد أدلتها ومناقشة ما قيل ويقال بشأنها من شبهات وشكوك. بل ربما يعتبر البحث فيها تافها إلى حد بعيد، لأنه من قبيل الحديث عن توضيح الواضحات والاستدلال على المسلّمات.

ولكن المسائل الفكرية البديهية قد تحوطها ملاسبات هامشية معينة، وتضاف إليها تفرّعات جانبية معقدة، وتلقى عليها ظلال قائمة من التفاسير والشروح والتأويلات، فيتكدر صفاؤها وينطمس إشراقها وينقلب وضوحها إلى لغز وجلاؤها إلى غموض، ويصبح استكشاف الواقع — في هذه الحال — محتاجا إلى كثير من البحث والمناقشة والأخذ والرد، لتظهر الحقيقة الضائعة جلية ناصعة، لا يحجبها ضباب الحواشي والتفرّعات، ولا تطمس معالمها تلك الأكداس الهائلة من المجادلات العقيمة المطولة.

المجبة القدرية

الإيمان بالقضاء والقدر عقيدة من العقائد التي أسسها الإسلام على الإيمان بالله عز وجل، وبنائها على المعرفة الصحيحة لذاته العليا، وأسمائه الحسنى، وصفاته العظمى. ولا ريب أن الإسلام قد أوجب لله نعوت الكمال، وصفات الجلال والجمال، ودواعي الحمد والتمجيد.

ووافق العقل النقل في ذلك كله، ثم فصلت هذه الكمالات الواجبة لرب الوجود: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۖ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ ﴿[الأعلى: ٢-٣]﴾.

فكان في عداد ما ينبغي الإيمان به والاطمئنان إليه، أن لله وحده صفات العلم

الواسع، والإرادة الشاملة، والقدرة الكاملة، وأنه — سبحانه — فعال لما يريد، عالم بما يفعل.

وعلى هذه الصفات قامت عقيدة القضاء والقدر. فكان الإيمان بها — لا ريب — جزءاً متمماً للإيمان بالله، وعنصراً من حقيقته الواضحة المشرقة.

نعم إن الله وسع كل شيء علماً، وأحاط بكل شيء خيراً.

سواء في هيئته: ديب النمل في جحورها، أو وثبات الأفلاك في مداراتها. وشمول علمه يستغرق الأمكنة على تعدادها، والأزمنة على تطاولها. فما تغيب عنه بقعة في المشرق أو في المغرب، وما يغيب عنه يوم في الأزل أو الأبد.

وأحداث الحياة — وما أكثر ما يلوح في آفاق الحياة من خير وشر، وبأس ورجاء، وحزن وفرح — ذلك كله استوعبه العلم الإلهي عدداً وإحصاء: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

وفي صفحات هذا الكتاب خُطَّتْ سطور القضاء والقدر، وعرفت مصائر الأمور، ووضّحت نهاياتها، من شقاوة وسعادة. ولكن أتى لنا علم بذلك؟

إنما الغيبُ كتاب صانه عن عيون الخلق رب العالمين
ليس يبدو منه للناس سوى صفحة الحاضر حيناً بعد حين

ويتعلق القضاء والقدر بوقائع الحياة وأحداثها وأعمال الناس وتصرفاتهم على نحوين واضحين متميزين! لكل نحو منهما حكمه الخاص وآثاره التي تترتب عليه. وبين كلا القسمين فواصل قائمة، تجاهلها يُوقِعُ في الدين الغموض والاضطراب، ولذلك سنوضح حدود كل قسم ومعالجه.

نحن مجبورون في هذا

هناك أمور تحدث وتتم بمحض القدرة العليا، وعلى وفق المشيئة الإلهية وحدها، وهي تنفذ في الناس طوعاً أو كرهاً، سواء شعر بها الناس أو لم يشعروا. فالعقول

ومقدار ما يودع فيها من ذكاء أو غباء، والأمزجة وما يلبسها من هدوء أو عنف، والأجسام وما تكون عليه من طول أو قصر، وجمال أو قبح، والشخصيات وما تطبع عليه من امتداد أو انكماش، والزمان الذي تولد فيه والمكان الذي تحي به، والبيئة التي تنشأ في ظلها، والوالدان اللذان ينحدر منهما، وما تتركه الوراثة في دمك من غرائز وميول. والحياة والموت، والصحة والمرض، والسعة والضيق، ذلك ومثله، لا يد للإنسان به.

فأصابع القدر وحدها هي التي تتحرك ظاهرة وباطنة، لتوجه الحياة كما يريد صاحب الحياة.

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۚ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ۚ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ ﴾ [آل عمران: ٦-٥].

وغني عن البيان، أن شيئاً من هذا ليس محل مؤاخذه ولا موضع حساب، وإنما لفتنا النظر إليه لتعرف أن الجنسية التي تنتمي إليها، واللغة التي تنطق بها، بل نوع التكوين الذي يوجد الإنسان عليه، ذكراً كان أو أنثى.

هذا شيء من الخصائص التي لا قبل لنا بها، ولا سبيل لنا إليها، وفي مثلها يساق قول القرآن الحكيم: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ۚ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ ﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝ ﴾ [القصص: ٦٨-٧٠].

والإيمان بهذا الضرب من القدر واجب، والأدلة عليه متظاهرة من العقل والنقل. وعلى المؤمن أن يوقن — من أعماق قلبه — أن هذه أمور مفروغ منها، مفرقة على ذويها، من قديم جفت الأقلام بها فلا راد لها.

هذه أمور علمها الحق وأرادها، ونفذها استقلالاً، ولسنا منها في قليل ولا كثير. وقد أحسن سلفنا الصالح الإيمان بما فكان أثرها في مسلكهم رائعا. وإذا علم الواحد منهم أن أجله مكتوب لا ينقصه الإقدام ولا يزيده الإحجام،

أدى واجبه على وجهه الأكمل، وفي أذنيه دويُّ التوجيه الإلهي.
﴿قُلْ لَّنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١].

ومواضع الرجوع إلى القضاء والتسليم لله فيما أراد، كثيرة متنوعة، وهي تعطي
المسلم صلابة وقوة واندفاعا، وتغلؤه عزيمة وتحملا وجلادة.

هنا إرادتنا حرة

أما القسم الثاني من متعلقات القضاء والقدر، فهو يتصل بأعمال على عكس
الأولى.

ونحن نشعر حين أدائها بيقظة عقولنا، وحركة ميولنا، ورقابة ضمائرنا.

فما مدى صلتنا بها؟ وما معنى نسبة القدر إليها؟

الخطب سهلٌ جداً، وسنجيب على هذا التساؤل بما يذر شبه المشوشين هباء إن
شاء الله.

إننا نُحسُّ باستقلال إرادتنا وقدرتنا فيما نباشر من أعمال تقع في دائرتهما، وكان
يكفي هذا الإحساس دليلاً على حرّيتهما لولا أن هناك من يزعم أن الإحساس يكذب
أحياناً.

ولكننا نطمئن إلى صدق هذا الإحساس ونكذب ما يغض من قيمته بعد أن نرجع
إلى القرآن الكريم نستفتيه في ذلك.

ونحن نجد القرآن يؤكد هذا الإحسان البديهي، وينوه بحرية الإرادة الإنسانية.

﴿وَقُلْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].
ولا يُخْلِيهَا مِنَ الْمَسْئُولِيَةِ الْوَاضِحَةِ عَلَى مَا يَصْدُرُ مِنْهَا: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ
جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَحْتَدَى فَأْتِمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ
فَأِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ [يونس: ١٠٨].

بل إن طبيعة الدين — وهي التكليف والابتلاء، لا تتحقق البتة مع استعباد الإرادة
وتقييدها..

وإيقاع الجزاء كذلك لا يتوجه ويقر إلا في هذا الجو الطلق الفسيح.
وليس هنا موضع سرد الآيات الشاهدة لذلك. فالقرآن كله شواهد بينات ودلائل واضحات.

فما موقف العلم الإلهي من هذا النوع من الأعمال؟ هو الإحاطة التامة والشمول الكامل: ﴿عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ [طه: ٥٢].
ولكن كيف يتفق القول بحرية الإرادة والقول بأن أعمالنا لن تخرج عن دائرة العلم الإلهي المحيط الشامل؟

والجواب سهل: قف أمام مرآة مجلوة صافية وأنت عابس الوجه مقطب الجبين فماذا ترى؟ سترى صورتك كما هي عابسة مقطبة.
أيّ ذنب للمرأة في ذلك؟ إن مهمتها أن تصف وأن تكشف وهي قد صدقت فيما أثبتت لك، ولو كنت ضاحك الوجه لأثبتت لك على صفحتها خيالاً ضاحكاً لا شك فيه.

كذلك صفحات العلم الإلهي ومرائيه لا تتصل بالأعمال اتصال تصريف وتحريك، ولكنه اتصال انكشاف ووضوح، فهي تتبع العمل ولا يتبعها العمل.
غاية ما يمتاز به العلم، أنه لا يكشف الحاضر فقط، ولكنه يكشف — كذلك — الماضي والمستقبل.

فيرى الأشياء على ما كانت عليه، وعلى ما ستكون عليه، كما يراها وهي كائنة، سواء بسواء؟

بقي بعد ذلك تفسير ما قررناه من شمول الإرادة العليا، ومن هيمنة القدرة العليا على الخلائق كافة، فما معنى ذلك وكيف يتفق مع حرية الإرادة الإنسانية؟

معنى يُضِلُّ من يشاء ويهدي من يشاء

الخطب في ذلك سهل كذلك، ولن نذهب في بيانه إلى أبعد من كتاب الله لمن شاء أن يفهم. ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

ونحن نجد أن إطلاق المشيئة في آية، تُقَيِّدُهُ آية أخرى يذكر فيها الاختيار الإنساني صريحا.

أي أن إضلال الله لشخص، معناه: أن هذا الشخص أثر الغي على الرشاد، فأقره الله على مراده، وتم له ما يبغي لنفسه..

﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [الصف: ٩].

وانظر إلى قيمة التنويه بالاتجاه البشري المعتاد.

﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ﴾ [النساء: ١١٥].

فهل بقي غموض في إطلاق المشيئة؟ لا.

إن معنى قوله: ﴿ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ﴾ [الرعد: ٢٧، النحل: ٩٣، فاطر: ٨] لا يَعْدُو قوله: ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾ [البقرة: ٢٦-٢٧].

وكذلك الحال في ﴿ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾.

انظر إلى قيمة الإرادة الإنسانية في قول الحق وهو يتكلم عن إرادته: ﴿ قُلْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ﴾ [الذين ءامنوا] وَتَطْمِئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٧-٢٨].

فهو يهدي إليه من أناب ﴿ إِنْ أَلَّ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [المنافقون: ٦].

اجعل أيها القارئ هذا المصباح بين يديك، وسر في نوره بين شتى السور، فلن نجد في دين الله قلقا أو اضطرابا.

وإنما القلق والاضطراب في عقول الحمقى، وقلوب الغافلين.

وهنا قد يسأل البعض عن حدود الإرادة الدنيا والعليا في الأعمال. ومع أن هذا السؤال لا مبرر له، فنحن نتبرع بالإجابة عنه حتى يظهر السر في نسبة الهداية والإضلال، تارة لله، وتارة للإنسان.

هل تعرف ما يفعله الفلاح في حقله؟ إنه يلقي البذر، ويتعهدده بالسقي وعلى الله

الإنبات والإثمار.

تستطيع أن تسمي الفلاح زارعا — وأنت صادق — لقيامه بالسبب.

وتستطيع أن تسمي الحق سبحانه زارعا لقيامه بالعمل.

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴾ ٦٣ ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿ ٦٤ ﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا ﴿ [الواقعة: ٦٣-٦٥].

فما للإنسان في سعيه مثل ما للفلاح في زرع.

فازرع عمرك — إن شئت — خيرا، فإن يد القدرة سوف تنميه لك ورداً يانعا.

أو ازرع — إن شئت — شرا، فإن يد القدرة تنميه شوكا رائعا.

﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة: ١٠٥].

إن الصورة التي يرسمها الجبريون للعالم لا ترمز إلا إلى الفوضى المطلقة والخلط الشائن.

ولما كان البشر — في نظرهم — يقومون بأدوار لا خيرة لهم فيها، فهم لا يفرقون بين بر وفاجر.

وإنك لتسمع في كلام بعض الناس ممن يدينون بهذا المذهب الباطل، تسوية بين آدم وإبليس، وبين موسى وفرعون، إذ الكل — في نظرهم — مدفوع إلى عمل ما قُدِّرَ عليها أزلا.

وليست الحياة إلا رواية يقوم أفرادها بما فرض عليهم من مواقف، وينطقون بما لقنوا من كلمات.

هذي الحياة رواية لمثل الليل ستر والنهار الملعب

وإنك لو نقت لرأيت هذه الصورة مرتسمة في أذهان الكثيرين، بعضهم يعلنها مصارحا، وبعضهم يطويها مستحييا وإن كان يدين بها.

واختيار الدولة الإسلامية راجع إلى فُشُو هذه الضلالة بين الناس فُشُوًّا جعل المنكر ينتشر بلا نكير، وجعل الواجبات تهمل بلا نصيح.

وأساس الإصلاح يعتمد أول ما يعتمد على تصحيح الفهم في عقيدة القضاء

والقدر، حتى تعود كما كانت.

الدافع الأعظم على التضحية والفداء، والوازع الأول على ترك الشر وفعل الخير، قياماً بواجب الإنسان نحو نفسه، وتنقيداً لأوامر الله جل شأنه.

أما الآيات والأحاديث التي وردت توهم بظاهاها أن الإرادة الإنسانية غير حرة، فليست كما يظن الواهمون.

إن هذا الفهم العجيب نضحت به العقول المعوجة، ولم توح به نصوص الدين. إذ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦].

فليس إنذارهم وعدمه سواء، لأن نفوسهم صيغت بحيث لا تقبل الحق من تلقاء ذاتها!! فهي أوعية للكفر برغم أنوفها. كلا!!

وإنما القصد صرف همة الرسول عن قوم طالما دعاهم وبذل جهوده لإنقاذهم من غوايتهم. فأصبروا على تنكب الصراط المستقيم بمحض اختيارهم.

الرمية

اعتُبرت كلمة «الإسلام» علماً على الدين الذي جاء به صاحب الرسالة العظمى محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله، وتعارفت الأجيال هذه الحقيقة.

فإذا ذكر الإسلام، عُرف من هذا العنوان أنه الدين الذي يقوم على اتباع القرآن الكريم والسنة المطهرة.

ويدخل فيه من شاء من بابهِ الرئيسي المعروف «كلمة التوحيد» ثم يؤدي بعد ذلك ما يفرض عليه من تكاليف شتى.

على حين توسع العرف العالمي في كلمة «الإيمان».

فهناك إيمان مسيحي، وآخر يهودي، وآخر وثني، وآخر شيوعي... إلخ، وهذا العرف العام لا يغض من قيمة الحقيقة الشرعية التي ذكرناها آنفاً.

فمتعلقات الإيمان، والدائرة التي يتسع لها في ديننا، تجعله لا يصح في نظرنا، إلا إذا

كان مرادفا للإسلام، أو ملازما له.

ولكن هذا العرف الشائع يؤكد أن الإسلام يرفض رفضا حاسما أي مسلك ينطوي على الاستهتار بالأعمال المطلوبة، والتمرد على شارعها جل شأنه.

ولذلك نعد رفض الخضوع لله خروجاً على الإسلام، ومروقاً عن الدين، وههما للإيمان، مهما زعم هذا الرفض من معرفة ويقين.

لقد كان إبليس يعلم أن الله واحد لا شريك له، وكان يعلم أن مصيره إليه يوم يبعثون.

بيد أنه لما صدر إليه الأمر: أن اسجد، فقال — مستكبراً جاحداً —: لا.. عُدّ كافراً ولم تشفع له معرفته بوحدانية الله، لأن المعرفة المجردة عن مبدأ الخضوع المطلق لرب العالمين لا وزن لها.

والمعصية التي يقارنها هذا التمرد تخلع صاحبها من الإيمان خلعا.

والمعروف في دراستنا النظرية أن الدين عقائد وعبادات وأخلاق، وأن الصلة بالله هي القائد الأول لبقية الشرائع، وأن صحة هذه الصلة ضمان للنجاة، وإن قلّت حظوظ المرء من بقية التكليف الشرعية...

ونريد أن نتوقف قليلاً لنناقش هذا التفكير، فلا نجوز على أصل الإيمان، ولا نجوز على مجموعة الأعمال المرتبطة به والناشئة عنه.

من حق علمائنا الأقدمين أن يهدروا كل خير يصنعه الكافر، وأن يُنوّهوا بثقل كلمة التوحيد في ميزان الصالحات.

إن وجهة نظرهم واضحة فإن الذي يرتكب في عصرنا جريمة الخيانة العظمى، تعصف جريمته بكل خير فعله من قبل.

ويوم يقال: فلان خان وطنه وباعه للأعداء، فلن ترى إلا الازدراء والمقت والإجماع على استحقاق أقسى العقاب.

ولو قيل: إن هذا الشقي كان براً بأمه، أو كريماً مع خدمه، أو لطيفاً مع أصدقائه، فإن هذه الخصال جميعاً تطوى في صمت، وتزم دونها الشفاه! ولا تغني عن حكم

الموت المادي والأدبي الذي يستحقه هذا الخائن.

والواقع أن سلفنا نظروا إلى الكافر بالله نظرة العصر الحاضر إلى الخائن لأُمته، ورفضوا الاعتراف بأي خير يفعله، أو الإقرار بأي ميزة له.

والكافر — في نظرنا — أهل لهذا الهوان.

والجاحد لوجود الله، الخائن لنعمته، المشر للقاءه، يرتكب بهذه الخلال أشنع جرائم الخيانة العظمى، وليس له ما يدفع عنه، مهما صنع: ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهَ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٦].

إلا أن هذه الحقيقة تولد عنها خطأ شائع، ألحق بالإيمان وأهله ضررا بليغا.

فقد فهم العامة أن حسن الصلة بالله — وهو فضيلة بيقين — قد يجبر النقص في بقية الواجبات المفروضة.

ثم تدرّج هذا الفهم إلى أن هذه الواجبات يمكن أن تتلاشى ويغني الإيمان المجرد عنها.

وانضم إلى هذا الوضع أن الذين انحرفوا عن الإيمان، ونسوا الله، اتقنوا طائفة من الأعمال الإنسانية، والفنون الحيوية، وسبقوا بها سبقاً بعيداً.

وعندما قام في العالم هذا التناقض، اهتزت قضايا الدين، وتخاذلت صفوف المؤمنين، ونجحت في أرجاء الدنيا فتن عاصفة.

إن المعنيين بالتربية الدينية قد يسيئون إلى الإيمان، حين يتصورونه منديلاً يمسح فيه الخطأ عن عيوبهم، فهم يعثرون والإيمان يغفر، ويكسرون والإيمان يجبر.

وكثير من أتباع الأديان السماوية ظنوا التمسك بأصل الدين كافياً في النجاة مهما صنعوا.

وقالوا: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَنًى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ...﴾ [البقرة: ١١١].

وقد قد القرآن الكريم هذه المزاعم، ورسم طريق النجاة الحقيقي، وهو مزيج من الإيمان الحي، والإحسان في العمل والإخلاص لله ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ

صَدِّقِينَ ﴿١١٢﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٣﴾ ﴿البقرة: ١١٢-١١٣﴾.

وبعض الوعاظ القصار النظر قد يقعون على آثار دينية محدودة المعنى والمجال، فيسيئون فهمها وتطبيقها، ويتجاهلون بها — جملة — الكتاب والسنة، بل طبيعة الإيمان نفسه.

تلك الطبيعة التي تخلق من الموات حياة ومن الفوضى نظاماً.

خذ مثلاً حديث البطاقة عن عبد الله بن عمرو من أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (إن الله تعالى سيخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر له تسعة وتسعون سجلاً، كل سجل مثل مد البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يارب.

فيقول تعالى: بلى: إن لك عندنا حسنة، فإنه لا ظلم عليك اليوم، فيخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فيقول: يارب، ما هذه البطاقة مع هذه السجلات! فقال: فإنك لا تظلم.

فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة، ولا يثقل مع اسم الله شيء^(١)...

هذا حديث مثير الدلالة، ويضع عن الناس شتى التكاليف الإلهية، ويبطل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ ﴿يونس: ٨١-٨٢﴾.

إن إطلاق هذا الحديث وأشباهه بين العوام أو بين الناشئة هدم للدين كله، وهو الأساس لتكوين طوائف من المتدينين، تحط من قدر الإيمان وأثره.



(١) أخرجه الترمذي ٢٤/٥ (٢٦٣٩)، وابن ماجه ١٤٣٧/٢ (٤٣٠٠)، وأحمد ٢١٣/٢ (٦٩٩٤)، وابن حبان ٤٦١/١ (٢٢٥)، والحاكم ٤٦/١ (١٩).

الإيمان والعمل

صلة الإيمان بالعمل كصلة الخلق بالسلوك.

فإذا آمن الإنسان بالله العظيم، وأيقن باليوم الآخر، وصدق بما جاء به المرسلون، دفعه ذلك — لا محالة — إلى استرضاء ربه، والاستعداد للقاءه، والاستقامة على صراطه.

كما أن الشجاع في ميادين الخطر يُقدم، والكرّم في مواطن البذل ينفق، والصادق في أداء الحديث يتحرى الحق.. إلخ.

يَبْدَ أن أعداء الإسلام — وقد عجزوا عن هزيمته في ساحات القتال — لم تُعيهم الحيلُ لسحقه في عقر داره.

فدسوا على المسلمين من يصور لهم الإسلام كلمة لا تكاليف لها، وأمان لا عمل معها.

وفي ظل هذا الفهم المعوج ترى المسلم واليهودي والمسيحي يتعاضون سنين عدداً، فلا تستطيع أن تميز أحدهم من الآخر في شيء.

الكل لا يدخل مسجداً، ولا يقيم فريضة، ولا يحترم لله شعيرة.

والكل يشرب الخمر، ويأكل الربا، ويفجر بالأعراض.

وغاية ما بينهم من فوارق، أن اليهودي يقدس يوم السبت، وقد يذهب المسيحي إلى كنيسة خلصة.

أما ذلك المسلم المزعوم فليس يربطه بالإسلام إلا اسم سُجِّلَ في شهادة الميلاد فحسب.

والمؤسف أن أقواماً — من أهل العلم الديني — لا يكثرثون بذلك.

فالمرء إذا غمغم بين شفثيه بكلمة التوحيد، تحصّن وراءها، فأصبح يسيرا عليه، ألا يقوم إلى واجب، وألا ينتهي عن محرم.

وقد زعم هؤلاء المغفلون: أن الدين ينص على ذلك! ألا ساء ما يصنعون.

ولو فرضنا أن حزباً ما، تقدم إلى الناس وقد أضاف إلى جملة المواد التي تبين للجماهير منهاجه وتوضح أغراضه، مادة أخرى تُصرِّح أو تُلمِّح، بأن لكل مُنتِمٍ للحزب ألا يعمل بمبادئه وألا يتقيد بتعاليمه، لقال الناس أجمعون: هذا هو العبث والمجون!

فكيف تنتهم الإسلام بأنه يحمل في ثناياه ما يهدمه؟ وكيف نطلق إلى نصوصه نبخت بينها عن (المادة) التي تبيح الخروج عليه واللعب به؟ وكيف ندعي أن الأعمال أمر كماليٍّ بحت، لا يضير نقصانه؟ أولئك هم الحمقى: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [الأعراف: ٥١].

وعلى رؤوسهم يقع التفريط الهائل في إقامة حدود الله وأداء فرائضه. وما أصاب المسلمين من كوارث ونكبات عندما فهموا دينهم على ذلك النحو الأبتري.

أمة تعتبر العمل من (الكماليات) الخفيفة، كيف يقوم لها دين؟ أو تقوم بها دنيا؟ إن الله — عز وجل — جعل العمل رسالة الوجود ووظيفة الأحياء، وجعل السباق في إحسانه سر الخليفة ودعامة الحساب.

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الملك: ٢].

وما من آية في كتاب الله ذكرت الإيمان مجرداً، بل عطف عليه عمل الصالحات، أو تقوى الله، أو الإسلام له، بحيث أصبحت ضلة العمل بالإيمان آصرة لا يعرفونها وهن.

فإذا عُقدت مقارنة بين الهدى والضلال، جُعِلَ الإيمان والعمل جميعاً في كفة، وجُعِلَ الكفر في الكفة الأخرى.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ﴾ [غافر: ٥٨].

وكثيراً ما يشار إلى الإسلام وحقيقته الشاملة بمظاهر عملية واضحة محدودة:

﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ۚ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۚ فَكٌ رَقَبَةٌ ۚ أَوْ
إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۚ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۚ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۚ ﴾
[البلد: ١١-١٦].

بل إن العلامة التي ينصبها القرآن دليلاً على فراغ النفس من العقيدة وخراب القلب من الإيمان، هي في النكوص عن القيام ببعض الأعمال الصالحة.

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْأَيْدِي ۚ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ۚ وَلَا
يُخْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ۚ ﴾ [الماعون: ١-٣].

وقد ينظر إلى الإيمان على أنه وصف يلحق الأعمال ويطرأ على السلوك الإنساني المعتاد، فيصلحه ويصله بالله، فيذكر العمل أولاً كما هي مرتبة وجوده، ثم يذكر الإيمان ثانياً، على أنه شرط صحته وقبوله.

﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيهِ ۚ إِنَّا لَهُ
كَاتِبُونَ ۚ ﴾ [الأنبياء: ٩٤].

ثم ما الذي يوزن في الدار الآخرة؟ أليست الأعمال التي تميل بالإنسان إلى النعيم أو الجحيم، أو الدعاوى والمزاعم؟

﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ۚ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۚ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۚ
وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۚ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ ۚ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ۚ ﴾
[الأعراف: ٨-٩].

إننا نعرف تاريخ أمم هلكت بسوء عملها. ونعرف أن الله نقم على قوم لوط — مثلاً — لارتكابهم الفاحشة، وعلى قوم شعيب — مثلاً — لبخسهم المكيال والميزان، وقد عرفنا مصائر أولئك الفاسقين.

فهل أمتنا — وحدها — هي التي تريد أن ترتكب السيئات، دون حذر أو وجل؟

ليس الإسلام بدعاً من الشرائع السابقة، فيوجب الإيمان دون العمل.

بل إن القرآن الكريم ليقص علينا عبر السابقين لتنتعظ منها، ثم لنسمع قول الله بعد

ذلك: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [يونس: ١٣-١٤].
 الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ١٤-١٥].

هكذا نمتحن وثرأقب تصرفاتنا، ويكلفنا الله بالإيمان والعمل جميعاً ثم ينظر وفاءنا بما حملنا من أعباء!



الشفاعة

يغلط عوام المسلمين بأحاديث واردة في شفاعته النبي صلى الله عليه وآله وسلم لبعض العصاة.

وتعلق أولئك العوام بأحاديث الشفاعة يخيل إليك أن قوانين الجزاء بطلت. وأن نيران الجحيم توشك أن تتحول برداً وسلاماً على عصاة المؤمنين.

وكثيراً ما يفرط هؤلاء الجهال في الفروض، ويقعون في أوحم الذنوب ثم يقولون: أمة محمد بخير!

وهذا مسلك ساقط.

ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم أول من يستنكره ويحارب أصحابه، وينذرهم بأنهم أصحاب الجحيم.

فأما أن الجزاء حق، وأنه يتناول الذرة من الخير والشر. وأنه يعم الناس أجمعين، فذلك صريح القرآن.

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۖ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

والقول بأن قوانين الجزاء توقفت بالنسبة لأتباع نبيٍّ ما سُخِفَ فارغ، وقد كذب القرآن الكريم في مواضع شتى مزاعم الأولين والآخرين لما جمحت بهم أمانيتهم إلى هذا الوهم الباطل.

فليس للشفاعة هذا النطاق الواسع الذي يبرر به الخطاؤون إصرارهم، وما تفيدهم أمانيتهم فيها شيئاً.

وقد بين الله سبحانه أن الشفاعة لا تجدي على كافر، ولا على فاسق مُثَقِّلٍ بالخطايا.

قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨].

وقال كذلك: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا

يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴿١٨﴾ [فاطر: ١٨].

والنفس المثقلة بالخطايا — ولو كانت لرجل من المصلين — لا يفوقها جزاؤها كما رأيت في حديث الرسول. وهو يصف أمته عند اجتيازها الصراط. والظاهر أن الشفاعة التي يزجوها النبي الكريم إنما تدرك صنفاً من الناس تأرجحت موازين الحق والباطل في أعماله فهو بين السقوط والنجاح. ونحن في حياتنا ننظر إلى التلامذة الذين يقتربون من النهاية الصغرى للنجاح نظرة رافة. ونميل إلى منحهم درجة أو درجتين جبراً لنقصهم. أما الذين يتعدون عن المستوى الأدنى للنجاح مسافة بعيدة فإننا نحكم بسقوطهم فوراً.

فلعل الشفاعة المنسوبة للرسول الكريم تنفذ أمثال هؤلاء المقارين للنجاح وبهذا التفسير يتم الجمع بين النصوص. وقد يكون المقصود من هذه الشفاعة التنويه بمكانة النبي صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله والإشادة بمزله الكبرى عند الله..

ومثال ذلك في مجتمعتنا أنه في مناسبات خاصة — كعيد ميلاد الملك أو عيد الفطر المبارك — يفرج عن طوائف المسجونين الذين قضوا أغلب المدد المحكوم عليهم بها، ويراد إشعارهم بفضل المناسبة التي ستسوق لهم العفو والحرية. وهذه الحرية الممنوحة بالعفو العام، لا تتחדش أصل العقوبة المقررة.

ولا يفهم منها أنه لا ضرورة لسن القوانين وبناء المحاكم وتعيين القضاة. كما يريد أن يفهم ذلك عوام المسلمين من أحاديث الشفاعة المنسوبة لنبيهم، والتي تشير إلى أن الله قد يجيب دعاء نبيه وهو جاث بين يدي ربه يسأل الصفح عن الأمم الغفيرة من الأولين والآخرين، التي أدركها خر الموقف المعنت، وألهب عصاتها شواظ من النار المستعرة، فهي تضرع إلى الله أن يرفع غضبه وتتردد على أنبيائه جميعاً كيما يشاركوهم الرجاء والدعاء.

على أنه مهما بلغت مزله عند الله فلن يتجاوز في الله حد الزلفى لمولاه، وما كان لني أن يفرض رأياً أو يقرر حكماً: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾

حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ
الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ﴿النبا: ٢٣﴾.

﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ
وَقَالَ صَوَابًا﴾ ﴿النبا: ٣٨﴾.

فلا كلام إلا بإذن، ولا كلام إلا بصواب، ومردُّ الأمر لله وحده.

فإذا كان من الناس من يقترف الموبقات المهلكة اعتماداً على شفاعة موهومة،
فلذا ذكر قول الحق في أهل النار: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ ﴿١٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنْ
الْمُصَلِّينَ ﴿١٣﴾ وَلَمْ نَكُ نَطْعُمُ الْمَسْكِينِ ﴿١٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَاطِئِينَ
﴿١٥﴾ وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٦﴾ حَتَّىٰ أَتَيْنَا الْيَقِينَ ﴿١٧﴾ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ
الشَّفِيعِينَ ﴿١٨﴾ ﴿الدنر: ٤٢-٤٨﴾.

إن أتباع الدين يجب أن يعرفوا أن الحساب الإلهي لا يغفل الذرة من الخير أو
الشر. وأن هذه الدقة تنفي كل تصرف ينطوي على الفوضى، وكيل الجزاء جزافاً.

وقد ندد القرآن الكريم باليهود، لما سرت بينهم هذه الآراء الغريبة، حتى ظن
عامتهم أن الجنة حكر لهم ولذرياتهم — لأمر ما — فأقبلوا على ملذات العيش الأدنى
ينتهبونها ويقولون — في يقين — سيغفر لنا!!

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَىٰ
وَيَقُولُونَ سَبُعْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ
الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَاللِّدَارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ
لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿٣٣﴾ ﴿الأعراف: ١٦٩﴾.

والمؤسف أن هذا القطع بين العمل والجزاء رسب في أوهام العامة، فأسأوا به إلى
أنفسهم وإلى دينهم، ثم إن عوج سلوك المنسوين إلى الدين وقلة فقههم، وسوء
ذوقهم، مكن للإلحاد في الأرض، ورفع الثقة من الأديان ومثليها جملة.

والعجب للمسلمين، يصابون بهذه اللوثة وهم يقرأون قول الله: ﴿لَيْسَ
بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلَ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ
دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ﴿١٢٣﴾ ﴿النساء: ١٢٣﴾.

حِكْمٌ وَأَدَابٌ وَأَخْلَاقٌ

إن الإسلام جاء لينتقل بالبشر خطوات فسيحات إلى حياة مشرقة بالفضائل والآداب، وإنه اعتبر المراحل المؤدية إلى هذا الهدف النبيل من صميم رسالته، كما أنه عدَّ الإخلال بهذه الوسائل خروجاً عليه وابتعاداً عنه.

فليست الأخلاق من مواد الترف، التي يمكن الاستغناء عنها، بل هي أصول الحياة التي يرتضيها الدين، ويحترم ذويها..

وقد أحصى الإسلام بعدئذ الفضائل، وحث أتباعه على التمسك بها واحدة واحدة.

ولو جمعنا أقوال صاحب الرسالة في التحلي بالأخلاق الزاكية لخرجنا بسفر لا يعرف مثله، لعظيم من أئمة الإصلاح.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: (إن الفحش والتفحش ليسا من الإسلام في شيء، وإن أحسن الناس إسلاماً، أحسنهم خلقاً) ^(١).

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (أكمل المؤمنين إيماناً، أحسنهم خلقاً) ^(٢).

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (ألا أخبركم بأجيبكم إلي، وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة؟ — فأعادها مرتين أو ثلاثاً — قالوا: نعم يا رسول الله، قال: أحسنكم خلقاً) ^(٣).

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، إن الله يكره الفاحش البذيء، وإن صاحب حسن الخلق ليلعب به درجة صاحب الصوم والصلاة) ^(٤).

هذا التصريح لو صدر عن فيلسوف يشتغل بشؤون الإصلاح الخلفي فحسب لما

(١) أخرجه أحمد ٨٩/٥ (٢٠٨٦٣).

(٢) أخرجه أبو داود ٢٢٠/٤ (٤٦٨٢).

(٣) أخرجه أحمد ١٨٥/٢ (٦٧٣٥).

(٤) أخرجه الترمذي ٣٦٣/٤ (٢٠٠٣).

كان مستغربا منه، إنما وجه العجب أن يصدر عن مؤسس دين كبير، والأديان — عادة — تتركز في حقيقتها الأولى على التبعيد المحض.

ونبي الإسلام دعا إلى عبادات شتى، وأقام دولة ارتكزت على جهاد طويل ضد أعداء كثيرين، فإذا كان — مع سعة دينه، وتشعب نواحي العمل أمام أتباعه — يخبرهم بأن أرجح ما في موازينهم يوم الحساب، الخلق الحسن. فإن دلالة ذلك على منزل الخلق في الإسلام لا تخفى...

والحق أن الدين إن كان خلقا حسنا بين إنسان وإنسان، فهو في طبيعته السماوية صلة حسنة بين الإنسان وربّه، وكلا الأمرين يرجع إلى حقيقة واحدة.

إن هناك أديانا تبشر بأن اعتناق عقيدة ما، يمحو الذنوب، وأن أداء طاعة معينة يمسح الخطايا.

لكن الإسلام لا يقول هذا، إلا أن تكون العقيدة المعتقدة محورا لعمل الخير، وأداء الواجب، وأن تكون الطاعة المقترحة غسلا من السوء، وإعدادا للكمال المنشود. أي أنه لا يمحى السيئات إلا الحسنات التي يضطلع بها الإنسان، ويرقى صعدا، إلى مستوى أفضل.

وقد حرص النبي صلى الله عليه وآله وسلم على توكيد هذه المبادئ العادلة، حتى تبينها أمته جيدا، فلا تكون لديها قيمة الخلق، وترتفع قيمة الطقوس.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: (إن العبد ليلبغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة، وأشرف المنازل، وإنه لضعيف العبادة، وإنه ليلبغ بسوء خلقه أسفل درجة في جهنم)^(١).

وحسن الخلق لا يؤسس في المجتمع بالتعاليم المرسلة، أو الأوامر والنواهي المجردة، إذ لا يكفي في طبع النفوس على الفضائل أن يقول المعلم لغيره: افعل كذا، أو لا تفعل كذا. فالتأديب الثمر يحتاج إلى تربية طويلة، ويتطلب تعهدا مستمرا.

ولن تصلح تربية إلا إذا اعتمدت على الأسوة الحسنة، فالرجل السيء لا يترك في

(١) أخرجه الطبراني في الكبير ٢٦٠/١ (٧٥٤).

نفوس من خوله أثرا طيبا.

وإنما يتوقع الأثر الطيب ممن تمتد العيون إلى شخصه، فيروعها أدبه، ويسببها نُبله، وتقبس - بالإعجاب المحض - من خلاله، وتمشي بالحجة الخالصة في آثاره.

بل لا بد - ليحصل التابع على قدر كبير من الفضل - أن يكون في متبوعه قدر أكبر، وقسط أجل...

والإسلام - كسائر رسالات السماء - يعتمد في إصلاحه العام على تهذيب النفس الإنسانية قبل كل شيء، فهو يكرس جهودا ضخمة للتغلغل في أعماقها، وغرس تعاليمه في جوهرها حتى تستحيل جزءا منها.

وما خلدت رسالات النبيين وكونت حولها جماهير المؤمنين إلا لأن (النفس الإنسانية) كانت موضوع عملها ومحور نشاطها، فلم تكن تعاليمهم قشورا ملصقة فتسقط في مضطرب الحياة المتحركة، ولا ألوانا مفتعلة تَبْهَتْ على مَر الأيام.. لا.. لقد خلطوا مبادئهم بطوايا النفس، فأصبحت هذه المبادئ قوة تهيمن على وساوس الطبيعة البشرية، وتتحكم في اتجاهاتها.

وربما تحدثت رسالات السماء عن المجتمع وأوضاعه، والحكم وأنواعه، وقدمت أدوية لما يعرف هذه النواحي من علل.

ومع ذلك فالأديان لن تخرج عن طبيعتها في اعتبار النفس الصالحة هي البرنامج المفضل لكل إصلاح، والخلق القوي هو الضمان الخالد لكل حضارة.

وليس في هذا تهوين ولا غرض من عمل الساعين لبناء المجتمع والدولة، بل هو تنويه بقيمة الإصلاح النفسي في صيانة الحياة وإسعاد الأحياء.

فالنفس المختلة، تثير الفوضى في أحكم النظم، وتستطيع النفاذ منه إلى أغراضها الدنيئة، والنفس الكريمة، ترفع الفتوق في الأحوال المختلة ويشرق نُبلها من داخلها، فتحسن التصرف والمسير، وسط الأنواء والأعاصير.

إن القاضي التزيه، يكمل بعدله نقص القانون الذي يحكم به، أما القاضي الجائر فهو يستطيع الميل بالنصوص المستقيمة. وكذلك نفس الإنسان حين تواجه ما في الدنيا من تيارات وأفكار، ورغبات ومصالح.

ومن هنا كان الإصلاح النفسي، الدعامة الأولى لتغليب الخير في هذه الحياة.

فإذا لم تصلح النفوس أظلمت الآفاق، وسادت الفتن حاضر الناس ومستقبلهم.

لهذا وضع الإمام القاسم عليه السلام دستوراً في الأخلاق والحكم والآداب وعلم النفس، عالج فيه كل الاختلالات التي تحدث جراء التفكك من وثاق الأخلاق، وقَدَّم رؤى متقدمة في علم النفس من منظور إسلامي قلَّ أن تجد لها نظيراً في ما كتب في هذا السبيل، في كتابين يعدان قطعة أدبية متميزة، هما كتاب (المكنون)، وكتاب (سياسة النفس)، والكتابان من عنوانيهما لهما دلالة عميقة، فهما لا يهتمان بالأخلاق الظاهرة والإصلاح القشري للإنسان، ولكنهما يتجهان إلى أعماق النفس البشرية ليلاصبا فيها نوازع الخير فينميها، ونوازع الشر فيقتلعاها، بحكمة الحكيم المفكر، وأناة الحليم المستبصر.

وكنت قد أزمعت على نقل فقرات من الكتابين لضرب الأمثلة، إلا أني عدلت عن هذا خشية إثقال المقدمة بالنصوص.



رؤى علمية

للإمام رؤى ونظريات علمية ثاقبة سبق بها عصره بحوالي ألف سنة.

كروية الأرض وحركتها وجاذبيتها

قال متحدثاً عن استقرار الأرض وثبيتها بالجبال، وعن الجاذبية الأرضية التي تحفظ توازن الأرض، والبحار والأنهار أن تنفجر، ناقدا النظريات الساذجة والتصورات الخاطئة عن الأرض والأفلاك والنجوم، مبينا الصواب في ذلك بنظره الثاقب وعلمه بالكون والطبيعة وأسرار الفضاء: وما جعل الله سبحانه في الأرض من رواسي الجبال، وغيرها مما ثقلها به من الأثقال، كيلا تמיד بمن عليها من الانسان، وغيره من أنواع الحيوان، الذي لا بقاء له ولا قوام مع الميدان، فموجود بأيقن الايقان، إذ توجد بالعيان الأفلاك تمر من تحت الأرض دائرة، وتخفى بعمرها تحتها وتظهر عليها سائرة، ولا يمكن أن يكون مسيرها، تحتها ومقبلها ومدبرها، إلا في خلاء أو عراء، أو هواء أو ماء..

وقال حشو هذه الأمة المختلف، الذي لا يفقه ولا يتصرف، قرار الأرض زعموا على ظهر حوت، ونعتوا حوتها في ذلك بألوان من النعوت، وأشبه هذه الأقوال عندنا بالحق، وأقرب ما قيل به فيها من الصدق، أن يكون ما تحت الأرض خلاء منفهقا، وهواء من الأهوية منخفقا، ليس فيهما لسالكهما رد يرده، ولا للمقبل والمدبر فيهما صد يصده، لقول الله سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣].

الطر من نجاد البحار

قال مبينا نظرية تبخر الماء من البحار والأنهار، وانتزاع السحاب له، ثم تحويله مرة أخرى إلى ماء ورجوعه إلى الأرض على شكل مطر. وهي من الحقائق العلمية التي لم تكتشف إلا في عصرنا الحديث، قال: قال الله سبحانه: ﴿وَالنَّزْعَتِ غَرَقًا﴾ ① وَالنَّشِطَتِ نَشْطًا ② وَالسَّيْحَتِ سَبْحًا ③ فَالسَّيْقَتِ سَبْقًا ④

فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ [النازعات: ١-٥].

النازعات فيما أرى — والله أعلم —: فهن السحاب المتترعات لماء الأمطار من البحار والأنهار، ومما في الأرض من الندوة والبخار، وكذلك صح في الروايات والأخبار. وهذه الرؤية تصدقها الآية الكريمة: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿٥﴾﴾ [الطارق: ١١].

عناصر الأشياء

قال متحدثنا عن أصول العناصر الأربعة، التراب والماء والنار والهواء: والدليل البتُّ اليقين، الشاهد العدل المبين، على أن آدم عليه السلام بُدئ من التراب وخلق، مصير نسله تراباً إذا بلي وُفِرَّقَ، وكل مركَّب انتقض من الأشياء، فعاد إلى شيء عند تنقضه بالفرقة والبلى، فمعه رُكَّب وخلق غير شك ولا امتراء، كالثلج والجليد، والبرَد الشديد، الذي يعود كل واحد منهما إذا انتقض وُفِرَّقَ، إلى ما رُكَّب منه من المياه وخلق، وكمرَّكَّب الأشجار والحبوب وغيرها من ضروب الأغذية، التي تعود عند بلائها إلى ما رُكَّب منه من الأرضين والمياه والنيران والأهوية.

العقل

للعقل عنده مكانة عالية ودور متميز، وهو أعظم نعمة منَّ بها الله على خلقه، ولذلك تراه يقدره أيما تقديس، ويدعو إلى استعماله والنظر به.

قال في تعريف العقل: والعقل روحاني لا يرى بالعيون، لأنه ليس بشبح ولا لون ولا جسم.

وقال: وسألته: عن العقل في الإنسان أطيع هو أم مستفاد؟

فقال: هو الحفظ والفكر، وأصل العقل فطرة وخلق.

وقال أيضاً: فهذه ثلاث عبادات من ثلاث حجج، احتج بها المعبود على العباد، وهي: العقل، والكتاب، والرسول. فجاءت حجة العقل بمعرفة المعبود، وجاءت حجة الكتاب بمعرفة التعبد، وجاء الرسول بمعرفة العبادة. والعقل أصل الحجتين الآخريتين، لا

نهما عرفا به ولم يعرف بهما.

وقال أيضا: والعقل آمن أمين، وأفضل قرين، فاستأمنه على أحوالك، وجميع خلالك، واعرف ما عرفك...

وقال ناعيا على الذين لا يفكرون، ولا يؤمنون إلا ما لمسوه أو رأوه بأعينهم، مشبها لهم بالبهائم: وإنما يُدرك ما غاب من الأمور بالفكر واليقين، ويدرك ما حضر منها بالحواس من العين أو غير العين، وذلك فإنما هو درك البهائم الخرس، التي لا تدرك شيئا إلا بحاسة من الحواس الخمس، ولا توقن أبدا بغائب غاب عنها، ولا تدرك إلا ما كان شاهدا قريبا منها، فأما أهل الألباب والعقول، فيستدلون موقنين على الجاعل بالمجعول، وعلى الغائب المتواري الخفي، بالحاضر الظاهر الجلي.

وقال أيضا: فأخبر سبحانه أن بيانه إنما هو للذين يعقلون، ويوقنون من الغيب بما لا يرون ولا يبصرون، فأما أشباه البهائم الذين لا يعلمون، إلا ما يرون ويبصرون، فإن الله سبحانه انتفى من البيان لهم، وتبرأ من ذلك إليهم.

التفكير شرط لفهم الدين

قال مؤكدا على أهمية التفكير في الإسلام: وقد زعم بعض أهل الحيرة والنقص، ومن لا يعرف عين النجاة والتخلص، أن الإلطاف في النظر، يدعو صاحبه إلى الخيلاء والبطر، وإنما يكون ذلك كذلك عند من يريده للترؤس، لا لما فيه وما جعله الله عليه من حياة الأنفس، فانفوا مثل هذا عن ضمائركم، وسدوا ثلثة عيه في سرائركم.

واعلموا أن البحر لا يجاز يقيناً بئاً إلا بمعبر، وأنه يحتاج الشجاع المحارب السلاح في الحرب فكيف بالعمي المغتر، فلا يتعاط أحد سبيل التقوى، وما قرن الله بها من التمحيص والبلوى، إلا وقد تحصن بالعلم والبصر والنظر، الذي ميز الله به بين أهل الخير والشر، فلا تدعوا رحمكم الله حسن النظر في الأمور، والاستضاءة في ظلمها بما جعل الله في العلم من النور.

الإسلام

قال عن الإسلام: وأيُّ دين أحسن نظاماً، وأعدل أحكاماً، وأقل تناقضاً، وأرضى رضىً، من دين قامت دعائمه، واعتدلت قوائمه، على الأمر فيه بالعدل والاحسان، ونهت نواهيه عن كل فحشاء وعدوان، فلم يترك لحسن ثواباً، ولم يضع عن مسيء فيه عقاباً، بمقادير من قسط عادلة، وموازين من عدل غير مائلة، لولاه لفسدت الأرض خراباً، وعمدت الصالحات ذهاباً.

تشويه الحكام للإسلام

قال: ولكني أراه ظن ديننا، وتوهم أحكام ربنا، أحكام معاوية بن أبي سفيان، وما سن بعد معاوية ملوك بني مروان، من تناقض أحكامها، وجورها في أقسامها، وأولئك فأعداء ديننا، وحكم أولئك فغير حكم ربنا، وحكم ديننا فالحكم الذي لم يخالطه قط جور، وأموره من الله فالأمور التي لا يشبهها أمور، ويحق بذلك أمرٌ وِلِيَّةٌ أحكم الحاكمين، وحكم جاء من رب العالمين.

الملوك وراء نشأة المذاهب

قال: وليس لقلة ذلك ولا عسره، ولا لملتبس لبس من أمره، ضل القوم عنه ولا تاهوا، ولكن لما سنَّ فيهم ملوك بني أمية وشبهوا، ولقهر بني أمية لهم وغلبة سلطاتهم، قوي عليهم فيه سلطان شيطانهم، فألفوه حتى أنسوا به لطول الصحبة، وعز فراقه في أنفسهم لما كان يكون في خلافه من الأنكال المعطية، ولما كان من جهله يومئذ لديهم منكلاً محروماً، عاد مجهوله يومئذ فيهم بعد جهله معلوماً، ثم خلفت من بعدهم أخلاف السنو، التي أتت عداوتها للإسلام من وراء عداوة كل عدو، فكانت أكلف بما سنَّ لها أسلافها كلفاً، وأسرف في الاحتجاج للباطل سرفاً.

الجهاد والثورة

فَهِم الإمام القاسم القرآن فهما جهادياً ثورياً، يرفض الذلة الخنوع، والانكفاء

على الذات، فقال: وقال سبحانه فيما أذن به من قتل المعتدين باعتدائهم، وبسط أيدي المؤمنين للعدوان من سفك دمائهم، ﴿فَمَنْ أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿١٩٥﴾ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٦﴾ [البقرة: ١٩٥-١٩٦]. فأمرهم سبحانه للعدوان لا لغيره بقتالهم، ونهاهم عن أن يلقوا بأيديهم إلى التهلكة باستسلامهم لهم، وأمرهم بالإنفاق في جهادهم سبحانه والإحسان، وأخبرهم أنهم إن لم يفعلوا فقد ألقوا بأيديهم إلى التهلكة لأهل العدوان. وصدق الله العزيز الحكيم الأعلى، الذي لا يرضى لأوليائه أن يكونوا أذلاء، والذي لم يزل سبحانه يحوط العز لهم حوط العليم الخبير، وينصرهم عند القيام بأمره نصر العزيز القدير، وأي تهلكة أهلك لهم؟! من استسلامهم لمن يريد قتلهم!!

وسئل: عن التهلكة؟

فقال: إن ذلك هو الاستسلام للعدو الظالم، الذي لا يخاف الله في ارتكاب المظالم.

الصلاة

قال عن الصلاة: الصلاة صلة بين العبد والرب، وستر للعب وكفارة للذنوب، الصلاة صلة بلا مسافة، وطهارة كل خطيئة وآفة، الصلاة مواصلة ومصافة، ومدانة ومناجاة، المصلي يقرع باب الله ويطمع في ثوابه، وهو على بساط الله عز وجل.

الصلاة شرح الصدور، وفرج من جميع الأمور، الصلاة نور في الفؤاد، وسرور يوم المعاد، الصلاة للقلوب منهاج، وللأرواح معراج، الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر...

وقال أيضا: واعلموا أن الصلوات، ليست بطرب الأصوات، ولكنها بالباطن الظاهر، والفكر المنير الزاهر، والنية الصادقة، والضمائر المحققة، فاستعملوا ضمائركم بصحيح الاستعمال، ولا تميلوا إلى ظاهر المراءاة باللسان، تكن أعمالكم مطيبة زاكية، وضمائركم لله خالصة نقية.

وله نظريات عميقة في العرفان والتزكية تخرج بين بصيرة العقل وعاطفة القلب في

حرارة دافقة وعقلانية متجردة.

مثل العالم والمتعلم

قال: ومثل العالم والمتعلم مثل نور الشمس ونور العينين.

افهم لو أن رجلاً بصير العينين بقي في بيت مظلم قد سُدَّ عليه بابه، وهو لا يهتدي إلى شيء فيه مخرجه، أليس يكون متحيراً لا ينتفع ببصر عينيه ما دام البيت مظلماً، حتى إذا فُتح عليه الباب، وخرج ورأى ضوء الشمس، انتفع ببصر عينيه عند ضوء الشمس. كذلك المتعلم يكون في بيت الجهل موثقاً عليه بابه، لا يهتدي إلى الخروج حتى يفتح عليه العالم العارف، لأن المتعلم يستضيء بنور العالم.

مثل علماء السوء

قال: والعلم شفاء وزين، لا يدخل معه داء ولا شين، وليس العلم علم اللسان، المعلق على ظاهر الإنسان، الخالي عن القلب، وإنما مثله كمثّل شبكة الصياد التي ينثر عليها الحب للطير، وليس يريد بذلك منفعة الطير، ولكنه يريد أن يصطادها بذلك الحب المنشور على الشبكة.

كذلك عالم السوء لا يريد بعلمه رضى الله، ولكن يريد رضى نفسه ومنفعتها، وقد جعل هذا علمه شبكة، ليصطاد حطام الدنيا.



نظرة إلى القرآن

القرآن عند الإمام هو ما بقي من وحي في هذه الدنيا، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فهو محفوظ بحفظ الله، وهو العزاء الوحيد عن ضياع موارث النبوات الأولى، ففيه الهداية والنور.

قال: فمن اعتصم بنور كتاب الله وبرهانه، واتبع ما فيه من أموره وتبانيه، أدخله الله كما قال سبحانه مدخلاً كريماً، وهده به كما وعد صراطاً مستقيماً، ومن أبصر به واهتدى، لم يعم بعده أبداً، ومن عمي عنه فلم ير هده، وتورط من غيه ورداه، في بحور ذات لج من الجهالات، وتخط في غور لجج من الضلالات، لا يخرج من تورط فيها من ضيق غورها، ولا ينجو غريق بحورها، من نار تبوها، وحيرات سهوها، فلا صريخ له فيها ينقذه من تب، ولا هاد يهديه منها في سهب، فهو في لج بحورها في تبوب، ومن ضلالات غورها في سهوب...

القرآن كتاب حياة

وقال الإمام القاسم عن القرآن: نور أعين القلوب المبصرة، وحياة ألباب النفوس المطهرة، إلف فكر كل حكيم، وسكن نفس كل كريم، وقصص الأنباء الصادقة، ونبا الأمثال المتحققة، ويقين شكوك حيرة أولي الألباب، وخير ما صُحِب من الأصحاب، سر أسرار الحكمة، ومفتاح كل نجاة ورحمة، قول أرحم الراحمين، وتزِيل رب العالمين، نزل به الروح الأمين، فأَي مُتَرَل سَبْحانه ونازِل وتزِيل، لقد جل سبْحانه وتزِيله عن كل تمثيل، وطهر وتقدس - إذ وَلِيَه بنفسه، ونزل به روح قدسه، - عن قذف الشياطين وأكاذيبها، وافتراء مردة الآدميين وألعيها، فأَحْكَم عن خطل الوهن والتداحض، وأكرم عن زلل الاختلاف والتناقض، فجُعِل بآياته مترافداً، وبضياء بيناته متشاهداً، غير متكاذب الأخبار، ولا متضايق الأنوار، بل ضحيان النور، فيحان الأمور، سيحان الأنهار بالحياة المنجية، واسع الأعطان والأفنية، ساطع النور والبرهان، جامع الفصل والبيان، فأنواره بضائه زاهرة، وأسواره لأوليائه ظاهرة، فما إن يوارى عن أهله الذين أُسْتُوْدِعُوا علمه من سرائر سريرة، ولا يدع ما وضح من نوره في

قلوبهم من مشكلةٍ حيرة، بعزائم حكيماته المترة، ودلائل آياته المفصلة.

ويرى في الحروف المقطعة في أوائل السور علوما وأسرارا مكنونة، قال: كيف بما في حواميمه؟! من غرائب حكمه، وما في ظواسينه، من عجائب مكنونه، وما في ﴿ق﴾، ﴿وطه﴾، و ﴿يس﴾، من علمٍ جمٍّ للمتعلمين، وفي كهيعص وألم والذاريات، من أسرار العلوم الخفيات، وما في المرسلات والنازعات، من جزم أنباء جامعات، لا يحيط بعلمها المكنون، إلا كل مخصوص به مأمون، فسر ما نزل الله سبحانه من الكتاب، فحفي على كل مستهزئ لعاب.

وأسراره برحمة الله لأوليائه فعلائية، وأموره لهم فظاهرة بادية، فهو الظاهر الخلي الجهور، والباطن الخفي المستور، وهو بمن الله المصون المبذول، والجزم الذي لا يدخل شيئاً منه هذر ولا فضول، بل قرنت فيه لأهله مجامع كلمه، وسهلت به لهم مسامع حكمه، فقرعت من قلوبهم مقارع، ووقعت من أسماعهم مواقع، لا يقعها من غيرها عندهم واقع، ولا يسمع مثل تفسيرها أبداً منهم سامع...

سماوي أحله الله برحمته أرضه، وأحكم به في العباد فرضه، فلا يوصل إلى الخيرات أبداً إلا به، ولا تكشف الظلمات إلا بثواب شهيه، من صحبه صحب سماوياً لا يجهل، وهادياً إلى كل خير لا يضل، ومؤنساً لقرنائه لا يمل، وسليماً لمن صحبه لا يغل، ونصيحاً لمن ناصحه لا يغش، وأنيساً لمن آنسه لا يوحش، وحيباً لمن حابّه لا ييغض، ومقبلاً على من أقبل عليه لا يعرض، يأمر بالبر والتقوى، وينهى عن المنكر والأسواء، لا يكذب أبداً حديثاً، ولا يخذل من أوليائه مستغيثاً، إن وعد وعداً أبجزه، أو تعزّز به أحد أعزه.

لا تهن لأوليائه معه حجة، ولا تبلى له ما بقي أبداً بهجه، ولا يخلقه كراً ولا ترداد، ولا يلّم به وهن ولا فساد، ولا يعي به وإن لکن لسان، ولا يشبه فرقانه فرقان، ومن قبل ما صحب الروح الأمين، والملائكة المقربين، فكان لهم هادياً ومبيناً، وازدادوا به من الله يقيناً.

فاتخذوه هادياً ودليلاً، واجعلوا سبيله لكم إلى الله سبيلاً، حافظوا عليه ولا ترفضوه، واتخذوه حبيباً ولا تبغضوه، فإنه لا يحب أبداً له مبغضاً، ولا يُقبل على من

كان عنه معرضاً، ولا يُهدى إليه من عاداه، ومن تعامى عنه أعماه، ولا يبصر ضيائه إلا من تأملّه، ولا يُعطي هداه إلا أهله، من ضل عنه أضله، يُقلد جهله من جهله، إن أدبر عنه أدبر، أو أقبل عليه بصّر، جعله الله يتلون في ذلك بالوان، ويتفنن فيه على أفنان، فهو الهادي المضل، وهو المدير المقبل، وهو المسمع المصم، وهو المهين المُكرم، وهو المعطي المانع، وهو القريب الشاسع، وهو السر المكتوم، وهو العلانية المعلوم، فمرة يهدي إليه من اصطفاه، ومرة يُضل من أبى قبول هداه، ومرة يُقبل على من أقبل إليه، ومرة يدبر عن من التوى في الهدى عليه، ومرة يُسمع من استمع منه، ومرة يُصم من أعرض عنه، ومرة يهين الأعداء، ومرة يكرم الأولياء، يعطي من قبل عطاه، ويمنع من أبى قبول هداه، يُقرب لمن ارتضاه، ويشنع عمن سخط قضاه، يعلن لأوليائه ويظهر، ويكتتم عن أعدائه ويستتر، نور هدى على نور، وفرقان بين البر والفجور، أرشد زاجر وأمر، وأعدل مقسط ومعذر، يوقظ بزجره الثوماء، ويعظ بأمره الحكماء، ويحيي بروحه الموتى، ولا يزيد من مات عنه إلا موتاً، يعدل أبداً ولا يجور، وكل أمره فقدر مقدور، ظاهره ضياء وبهجة، وباطنه غور وجمّة، لا يملك حسن أنواره، ولا يدرك باطن أغواره، فمن ظهر لظاهر مَنَاطِرَه، رأى أعاجيبه في موارده ومصادره، ومن بطن لمستبطنه، رأى مكنون محاسنه، من غرائب علمه، وأطايب حكمه، لباب كل لباب، وفصل كل خطاب، وحكمه من حكم رب الأرباب، اكتفى به منه في هداه لأوليائه، واصطفى به من خصّه الله سبحانه باصطفائه، فمصاييح الهدى به، تُزهر واهجة، وسئل التقوى به إلى الله تلوح ناهجة، يُحتاج إليه ولا يحتاج، سراجُه أبداً بنوره. وهّاج، يُعلم ولا يُعلم، ويُقوم ولا يُقوم، فهو المهيمن الأمين، والفاصل المبين، والكتاب الكريم، والذكر الحكيم، والرضى المقنع، والمنادي المسمع، والضيء الأضوى، والحبل الأقوى، والطود الأعلى، الذي يعلو فلا يعلو، ولا يؤتى لسورة من سوره أبداً بمثل ولا نظير، ولا يوجد فيه اختلاف في خير ولا حكم ولا تقدير، فصل كل خطاب، وأصل كل صواب.

وآثرت نقل هذا النص رغم طوله لبلاغته وجزالة ألفاظه، وللتعريف بمكانة القرآن عن الإمام القاسم خاصة والزيدية عامة.

[تحريف الطفافة للقرآن]

ولقد كان ينعى على الطفافة وعلماء السلاطين التحريف في تأويله، لتطويعه لتضليل الأمة وإبقائها خائفة للعسف والجور، باسم القرآن والإسلام، بل يصل بهم الأمر إلى وضع الأحاديث التي تمجد الحاكم الظالم، وتدعو الأمة إلى الصبر والخنوع، وتحريم الثورة والجهاد المسلح، لاستعادة الحقوق، والحكم بالمنهج الإلهي، قال:

على ما بُلي به قديماً من تلبيس ملوك الجبايرة، وأتباعها من علماء العوام المتحيرة، في توجيهها له على أهوائها وتصريفه، وتأويلها له بخطئها على تحريفه، حتى عُطِّلَ فيهم قضاؤه، وبُذِلَتْ لديهم أسماؤه، فسميت الإساءة فيه إحساناً، والكفر بالله إيماناً، والهدى فيه عندهم ضلالاً، وعلماء أهله به جهالاً، ونور حكمه ظُلماً، وبصر ضيائه عمى، بل حتى كادت أن تُجعل فَاوُهُ ألفاً، وألفه للجهل بالله فاءً، تلبساً على الطالب المرتاد، وضلالة من العامة عن الرشاد، فنعوذ بالله من عماية العمين، والحمد لله رب العالمين.

فلو لا ما أبدى الله سبحانه من كتابه وحججه، وأذكى سبحانه من تنوير سرجه، لأَبَادَ حُجَجُهُ - بتظاهرهم - المبطلون، ولأَطْفَأَ سِرْجَهُ الظلمة الذين لا يعقلون، ولكن الله سبحانه أبى له أن يطفى، وجعله سراجاً لأولياءه أبداً لا يخفى، ولذلك ما يقول سبحانه: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَبِأَبْيَ اللَّهِ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

[مصحف علي عليه السلام]

وقال متحدثاً عن عدم اختلافه كما روى الهادي عليه السلام: حدثني أبي عن أبيه عن جده، أنه قال: قرأت مصحف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، عند عجز مسنة، من ولد الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، فوجدته مكتوباً أجزاء، بخطوط مختلفة، من أسفل جزء فيها مكتوب: وكتب علي بن أبي طالب، وفي أسفل آخر: وكتب عمار بن ياسر، وفي أسفل آخر: وكتب المقداد، وفي آخر: وكتب سلمان الفارسي، وفي آخر: وكتب أبو ذر الغفاري، كأنهم تعاونوا على كتابته. قال جدي القاسم بن إبراهيم صلوات الله عليه: فقرأته فإذا هو هذا القرآن

الذي في أيدي الناس حرفا حرفا، لا يزيد حرفا ولا ينقص حرفا، غير أن مكان:
﴿ قَتَلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ ﴾ [التوبة: ١٢٣] ﴿ أَقْتُلُوا الَّذِينَ
يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ ﴾، وقرأت فيه المعوذتين^(١).

أقول: لعل هذه الشريفة هي نفيسة بنت الحسين المذكور، وهي مشهورة بالفضل
والعبادة والزهد والكرامات المشهورة، ومشهدها بمصر مشهور مزور. ولدت سنة
١٤٥هـ، وتوفيت سنة ٢٠٨هـ. أو لعلها عمتها نفيسة بنت زيد بن الحسن.
وكانت بمصر وتوفيت قبل وفاة السيدة نفيسة.



نظرتة إلى السنة

قال الإمام القاسم بعد أن جعل الحجج ثلاث حجج، حجة العقل، والكتاب، والرسول: وأصل السنة التي جاءت على لسان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ما وقع عليه الإجماع بين أهل القبلة، والفرع ما اختلفوا فيه عن الرسول. فكل ما وقع فيه الاختلاف من أخبار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فهو مردود إلى أصل الكتاب والعقل والإجماع^(١).

وقال: وإن سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما كان لها ذكر في القرآن ومعنى^(٢).

قيل لهم: فمن أين قلتم ذلك وما يبتكم عليه؟! ولن تجدوا سبيلاً إلى إثبات اللون إلا من وجه الرواية، فيعارضون بأضداد رواياتهم، فإن جعلوا الرواية حجة لم يصح لهم دعوى ولا لنا، لأنهم رَوَوْا خلاف ما رَوَيْنَا وخلاف ما رَوَوْا، ولا بد أن يكون أحدنا محققاً والآخر مبطلاً، وفي إبطال قول أحدنا إبطال أحد الأثرين، وفي إبطال أحد الأثرين إخراج الأثر الشاذ من الحجة، لأن الشاذ من الأثر لا يكون مثل كتاب الله ولا سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم^(٣).

نظرتة إلى أهل البيت

وقال متحدثاً عن أهل البيت ونعمة انتسابهم إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وعن فضلهم وعلمهم، وعن من يأخذ الناس منهم إذا اختلفوا:

والحمد لله الذي جعلنا لخاتم المرسلين، وبقية من مضى من رسله الأولين، عترة وبقية، وآلاً وذرية، ابتداء لنا في ذلك بعظيم فضله، ومناً علينا فيه بولادة خاتم رسله...

وقال أيضاً: فأئني ضياء أضوى، أو حجة محتج أقوى؟ في إثبات الصفوة والفضل، لأبناء المنتجبين من الرسل.

(١) أصول العدل والتوحيد.

(٢) الأصول الخمسة.

(٣) انظر المسترشد.

وقال أيضا: فليسأل عنها، وليطلب ما خفي فيه منها، عند ورثة الكتاب، الذين جعلهم الله معدن علم ما خفي فيه من الأسباب، فإنه يقول سبحانه: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢]. ولتكن مسألتهم للسابقين بالخيرات، فإن أولئك أمناء الله على سرائر الخفيات، من مُنْزَلٍ وحي كتابه، وما فيه من خفي عجائبه، فقد سمعت قول الله: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل/٤٣، الأنبياء/٧] ^(١).

ولم يَلْقَوْا - فيما اشتبه منه، - مَنْ جعلهم الله معدنه، فيكشفوا لهم الأغطية عن محكم نوره، ويظهروا لهم الأخفية من مشته أموره، الذين جعلهم الله الأمناء عليها، ومنَّ عليهم بأن جعلهم الأئمة فيها.

وقال محمد بن القاسم: وسألته: عن الاختلاف الذي بين أهل البيت؟

فقال: يؤخذ من ذلك بما أجمعوا عليه ولم يختلفوا فيه، وأما ما اختلفوا فيه فما وافق الكتاب والسنة المعروفة فقول من قال به فهو المقبول المعقول.

نظرته إلى الحجة

الحجج الأصلية عند الإمام ثلاث حجج، العقل، والكتاب، والسنة، وفي كل حجة منها أصل وفرع، ويجب رد الفروع إلى الأصول.

قال: ثلاث عبادات من ثلاث حجج، احتج بها المعبود على العباد، وهي: العقل، والكتاب، والرسول. فجاءت حجة العقل بمعرفة المعبود، وجاءت حجة الكتاب بمعرفة

(١) المراد بأهل الذكر آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم، روى فرات الكوفي عن أبي جعفر عليهما السلام في الآية قال: نحن أهل الذكر، وفي رواية: هم آل محمد. وعن زيد بن علي عليهما السلام قال في الآية: إن الله سمى رسوله في كتابه ذكرا فقال: ﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ ذَكَرًا رَسُولًا﴾ [الطلاق/١٠]، وقال: ﴿فَسَأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾. وكلاهما مصحفتان، تفسير فرات ٢٣٥/٢، وأخرج الرواية الأولى محمد بن سليمان الكوفي في المناقب ١٣٠/١ (٧١)، والثعلبي في تفسيره والحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل ٣٣٥/١ (٤٦٠).

التعبد، وجاء الرسول بمعرفة العبادة. والعقل أصل الحجتين الآخرتين، لا نهما عرفا به ولم يعرف بهما، فافهم ذلك.

ثم الإجماع من بعد ذلك حجة رابعة مشتملة على جميع الحجج الثلاث، وعائدة إليها.

ثم اعلم أن لكل حجة من هذه الحجج أصلا وفرعا، والفرع مردود إلى أصله، لأن الأصول محكمة على الفروع، فأصل المعقول ما أجمع عليه العقلاء ولم يختلفوا فيه، والفرع ما اختلفوا فيه ولم يجمعوا عليه. وإنما وقع الاختلاف في ذلك لاختلاف النظر، والتمييز فيما يوجب النظر، والاستدلال بالدليل الحاضر المعلوم، على المدلول عليه الغائب المجهول. فعلى قدر نظر الناظر واستدلالة يكون دركه لحقيقة المنظور فيه، والمستدل عليه، فكان الإجماع من العقلاء على ما أجمعوا عليه أصلا وحجة محكمة على الفرع الذي وقع الاختلاف فيه.

وأصل الكتاب فهو المحكم الذي لا اختلاف فيه، الذي لا يخرج تأويله مخالفا لتزيهه. وفرعه المتشابه من ذلك فمردود إلى أصله، الذي لا اختلاف فيه بين أهل التأويل.

وأصل السنة التي جاءت على لسان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ما وقع عليه الإجماع بين أهل القبلة، والفرع ما اختلفوا فيه عن الرسول. فكل ما وقع فيه الاختلاف من أخبار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فهو مردود إلى أصل الكتاب والعقل والإجماع.

نهاية المطاف

ولما لم يجد الإمام القاسم الأنصار على الجهاد ولم تواته الفرصة للصمود أمام جيروت الدولة العباسية، انتقل إلى الرس في آخر أيامه — وهي أرض اشتراها وراء جبل أسود بالقرب من ذي الخليفة بالمدينة المنورة قرية من أبيار علي — من حيث يحرم للحج الخارجون من المدينة، وإلى جبل الرس نسب الإمام. وبني هناك لنفسه ولولده، وتفرغ للعلم والتأليف، وتوفي بها، وقد حصل له ثواب المجاهدين من الأئمة السابقين سنة (٢٤٦هـ = ٨٦٠م)، وله سبع وسبعون سنة، ودفن فيها. وقد حاولنا

أكثر من مرة زيارته والوصول إلى قبره فلم تتمكن من ذلك.

قال ولده الإمام محمد بن القاسم: فأقرب من به في ذلك تقتدون، وبفعله في الهجرة عن القرى والمدن تأنسون، جدكم الأقرب أبي وأبوكم القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه ورحمه، وقبل عزلته وهجرته منه، وقد كان رحمه الله زماناً طويلاً من عمره بالمدن مدن الحجاز ومدينة مصر ساكناً داعياً إلى طاعة الله، فلما لم ير في أهل القرى والمدن إلى طاعة الله ربه وحقه ومرضاته مستجيباً، ولم ير فيها إلا غرقاً في الجهل والمعاصي لا تائباً إلى ربه ولا منيباً، ورأى القرى والمدن أصل كل منكر وضلال، وتجمع الفجار والفساق والأرذال الدناة والأفسال، تبرأ إلى الله منهم، وهاجر إلى البادية والجبال عنهم، فوفقه الله للصواب في ذلك وأرشده، وأراه له الخيرة في دنياه وأسعده، فخلا بنفسه وأهله وولده، وجرى حكمه عليهم وعلى من تحت يده، فصار — نظراً واختياراً، بعد أن أحاط بالمدن والقرى وأهلها اختباراً — إلى بادية المدينة وجبالها، وتنحى عن المدينة وأهلها، وحل في جبل من باديتها يسمى قُدْساً^(١)، فكان به حيناً وكنا به معه أطفالاً صغاراً، لا يعاين فسقاً ولا فجوراً ولا منكراً، ثم انتقل إلى (وادي الرس) وجباله، فكان خالياً فيه بولده وعياله، ما أمرنا فيه من أمر أظعناه، وما عرفنا في الدين من حق أو قول في الهدى والصواب قبلناه.

ثم انتقل إلى فرع آخر من جبل يسمى (الأشعر) من جبال جهينة، بعد أن أقام عمراً طويلاً وسنين كثيرة في (وادي مزينة) فكان منه بجبل وفرع يدعى (فرع السور) حتى توفي فيه رحمة الله عليه وقبض، وكان قد عاهد الله وأعطاه من نفسه أن لا يسكن هو ولا أحد يطيعه من ولده ما بقي حياً مجامع الناس بين المدن والقرى^(٢).



(١) في وفاء الوفاء للسهمودي في أخبار دار المصطفى (قُدْس) بالضم وسكون الدال المهملة.

قال الهجري جبال قدس غربي ضاف من البقيع، (وقدس) جبال متصلة عظيمة كثير الخير تنبت العرعر والخزم وبها تين وفواكه وفراع، وفيها بستان ومنازل كثيرة من مزينة. ١٢٨٧/٤.

(٢) الهجرة والوصية/٦٢ - ٦٣. (مخطوط).

قالوا في الإمام القاسم:

قال الإمام أحمد بن عيسى بن زيد: وقد عرض عليه الإمام القاسم البيعة لا والله، وأنت يا أبا محمد حاضر، إذا حضرت فلا يجب لأحد أن يتقدمك ويختار عليك، وأنت أولى بالبيعة مني^(١).

وقال عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب للإمام القاسم عندما عرض عليه البيعة أيضا: يا أبا محمد نحن لا نختار عليك أحدا، وقد أصاب أبو عبد الله فيما قال، وأنت الرضى لجميعنا^(٢).

وقال الحسن بن يحيى بن الحسين بن زيد بن علي، وقد عرض عليه الإمام القاسم البيعة أيضا: يا أبا محمد والله لا يتقدم بين يديك أحد إلا وهو مخطئ، أنت الإمام وأنت الرضى، وقد رضيناك جميعا^(٣).

حدثنا أبو العباس الحسيني بإسناده عن عبد العزيز بن الوليد، قال: سألت الحسن بن يحيى بن الحسين بن زيد بن علي عليهم السلام عن أبي محمد القاسم بن إبراهيم عليه السلام؟

فقال: سيدنا وكبيرنا والمنظور إليه من أهلنا، وما في زماننا هذا أعلم منه، ولقد سمعته يقول: قرأت القرآن والتوراة والإنجيل والزبور، ما علمي بتأويلها بدون علمي بتزييلها. ثم قال: لو سألت أهل الأرض من علماء أهل البيت؟ لقالوا فيه مثل قولي. قيل له: فأحمد بن عيسى؟! فقال: أحمد بن عيسى من أفضلنا، والقاسم إمام^(٤).

وقال محمد بن منصور المرادي وقد سئل لم لم يكتر الرواية عنه؟! فقال: كأنكم تظنون أنا كلما أردنا كلمناه، من كان يجسر على ذلك منا؟! ولقد كان له في نفسه

(١) تمة المصاييح/٣٢٣. (مخطوط).

(٢) تمة المصاييح/٣٢٤. (مخطوط).

(٣) تمة المصاييح/٣٢٤. (مخطوط).

(٤) تمة المصاييح/٣٢٧. (مخطوط).

شغل، كنت إذا لقيته كأنما ألبس حزنا^(١).

وقال عبد الله بن أحمد بن سلام: لست أجسر على النظر في (كتاب الهجرة) للقاسم عليه السلام، وأومئ إلى أن ذلك لما فيه من التحشين والتشديد والزهد وترك الدنيا والتباعد من الظالمين^(٢).

وقال جعفر بن حرب المعتزلي: أين كنا عن هذا الرجل، فوالله ما رأيت مثله^(٣).

وقال أبو القاسم البلخي في طبقات المعتزلة: وأئمتهم أي: الزيدية المشهورون كزيد بن علي، ويحيى بن زيد، وأولاد عبد الله بن الحسن، إبراهيم، ويحيى، ومحمد، (كالقاسم)، والناصر، والهادي، وغيرهم، مذكورون في كتب التاريخ بالفضل الشهير، علما وعملا وحسن السيرة في الأمة^(٤).

حدثنا أبو العباس الحسيني رضي الله عنه بإسناده، عن يحيى بن الحسن العلوي، قال: حدثنا إسماعيل بن محمد بن محمد بن إبراهيم، قال: استوفى عمي غلته خسمين ديناراً، فلقية رجل يمدحه وأنشده قصيدة يقول فيها:

ولو أنه نادى المنادي بمكة	بيطن مئى فيمن تضم المواسم
من السيد السباق في كل غاية	لقال جميع الناس لا شك قاسم
إمام من أبناء الأئمة قدمت	له الشرف المعروف والمجد هاشم
أبوه علي ذو الفضائل والنهي	وآبؤه والأمهات الفواطم
بنات رسول الله أكرم نسوة	على الأرض والأبناء شم خضارم

قال: فأمر له بالخمسين ديناراً^(٥).

وقال الإمام الناصر الأطروش:

محمد وعلي والبتول ومن قد كان يأتيهم بالوحي جبريل

(١) تنمة المصاييح/٣٢٥ - ٣٢٦، والإفادة/١٢٥.

(٢) الإفادة/١٢٦.

(٣) الإفادة/١١٥.

(٤) المنية والأمل للمرتضى/٩٩.

(٥) تنمة المصاييح/٣٢٥، ومآثر الأبرار/١١٨.

وعترة المصطفى بالرس عنصرتنا الطاهرين المقاديس البهاليل
هم السفينة لا إفك أقول به فمن تأخر عنها فهو معزول^(١)
وقال الإمام الناصر الأطروش أيضا: زاهد خشن^(٢).

وقال الإمام الهادي — حفيده —: القاسم بن إبراهيم الفاضل العالم الكريم، المجرد
سيفه، المصمم الباذل نفسه، المبين للظالمين، الداعي إلى الحق المبين....^(٣).

وقال الإمام أبو طالب الهاروني: كان نجم آل الرسول صلى الله عليه وعلى آله،
المبرز في أصناف العلوم وبثها ونشرها وإذاعتها، تصنيفا وإجابة عن المسائل الواردة
عليه، والمتقدم في الزهد والخشونة ولزوم العبادة^(٤).

وقال أبو نصر البخاري من أعلام القرن الرابع: الإمام القاسم بن إبراهيم صاحب
المصنفات والورع والدعاء إلى الله سبحانه ومنازمة الظالمين^(٥).

وقال ابن أبي الحديد في معرض الرد على فخر بني أمية على بني هاشم: ومن
رجالنا القاسم بن إبراهيم طباطبا، صاحب المصنفات والورع والدعاء إلى الله وإلى
التوحيد والعدل، ومنازمة الظالمين، ومن أولاده أمراء اليمن^(٦).

وقال الحاكم الجشمي أيضا: نجم آل الرسول وفقههم وعالم المبرز في أصناف
العلم، ومن يضرب به المثل في الزهد والعلم^(٧).

وقال الحاكم المحسن بن كرامة الجشمي في كتابه تنزيه الأنبياء والأئمة: فأما
القاسم عليه السلام فلا شبهة في فضله وعلمه، وله الكتب المعروفة والأصحاب، فأما

(١) مقدمة البساط/ ١٧ (بتحقيقنا).

(٢) الإفادة/ ١١٧.

(٣) الأحكام ٤٣/١.

(٤) الإفادة/ ١١٤.

(٥) سر السلسلة العلوية/ ٢٨.

(٦) شرح نهج البلاغة ٢٨٩/١٥.

(٧) البحر الزخار ٢٢٨/١.

الزهد فأشهر من الشمس^(١).

وقال الإمام عبد الله بن حمزة: يلقب ترجمان الدين، ويقال له: القاسم العالم. وكان يقال له: نجم آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهو المبرز في أصناف العلوم وبثها ونشرها وإذاعتها، تصنيفا وإجابة عن المسائل الواردة عليه، والمتقدم في الزهد والخشونة، إلى غاية لم يبلغها أحد من أهل عصره، ولزوم وظائف العبادة^(٢).

وقال الشهيد حميد: كان من أقمار العترة الرضية، ويواقيتها المشرقة المضية، انتهت إليه الرئاسة في عصره، وتميز بالفضل على أبناء دهره.

وله عليه السلام العلم العجيب، والتصانيف الرائقة في علم الكلام وغيره من الفنون^(٣).

وقال أيضا: وله في الفقه التصانيف العجيبة، التي تشهد بتدقيقه، وحسن تحقيقه، ومعرفته بالاختلاف بين الفقهاء، وجودة غوصه على استنباط الغرائب.

وقال أيضا: وكذلك كلامه — عليه السلام — في علوم القرآن، فإنه إذا أخذ يتكلم فيه فكأنه منه الذي نشأ عليه.

وقال أيضا: وله عليه السلام كتاب (سياسة النفس) الذي من شاهده علم أنه خرج من قلب خاشع.

وقال أيضا: فأما زهده — عليه السلام — وورعه فمما لا يتماهى فيه اثنان، ولا يترادد فيه رجالان^(٤).

وقال الهادي بن إبراهيم الوزير: وأما الإمام الطاهر الأورع العالم الزاهد، القاسم بن إبراهيم عليه السلام، فإنه جامع الفضائل، وصاحب الدلائل، والإمام الكامل، إن

(١) هداية الراغبين/٤٣٣.

(٢) الشافي ٢٦٢/١.

(٣) الحدائق الوردية ٢/٢.

(٤) الحدائق الوردية ٣/٢.

قيل من الإمام الكامل؟ فاض علما وزهدا وفضلا ومجدا وشرفا وجودا، وبرز في العلم على علماء الطوائف، واعترف بفضله وعلمه الموالف منهم والمخالف، ورسخت في العلوم أطنابه، وأشرقت في ذروة العلوم قبابه، وظهرت على ما كان عليه من الخوف والتستر مصنفاته، وبهرت على ما كان عليه من التزهّد والتقشف صفاته، وشخصت أبصار العلماء في زمانه إلى لقاء غرته، وامتدت أعناق الفضلاء في أوانه إلى ورود حضرته، واشتاق نفوس الأولياء والزهاد إلى مراجعته، وتطلعت قلوب الأصفياء والعباد إلى أنوار طلّعته، وكان عيانه أبلغ من سماعه، واختباره أفضل من أخباره، وما يُشاهد فيه من الفضل أعظم مما يحكى عنه، وما يعاين فيه من الزهد أجل مما يخبر به منه، وما يعلم منه من العلم أوسع مما يوصف فيه، وما يتحقق منه من الورع أكمل مما يضاف إليه، ولو ادعيت العصمة لأحد بعد الأنبياء عليهم السلام لأدعيت للقاسم بن إبراهيم، وقد ورد هذا في الحديث فيما رواه أئمتنا وأهلنا وعلمائنا عليهم السلام: مسلوب الرباعين من أهل بيتي لو كان بعدي نبي لكان هو.

ولو كان الاتباع في الدنيا على قدر العلم والفضل والزهد، لكان من في الدنيا كلها من فرق الإسلام على مذهب القاسم بن إبراهيم.

بل لو وقف التقليد في الفروع على الاتقان في الرواية، ومجرد الصدق والعدالة، وصحة التقى والطهارة، لكان القاسم عليه السلام أحق الأئمة كافة بتقليده، وأولاهم بالرجوع إلى قوله واجتهاده.

ومن أنصف وبحث وطالع السّير والأخبار، ونقّب عن الأحوال والآثار، تعرّف صحة ما قلناه، وتحقّق صدق ما ذكرناه. ومن جعل القاسم بن إبراهيم بينه وبين الله تعالى فقد نجا^(١).

وقال الهادي بن إبراهيم الوزير: ففضائله عليه السلام لا تحصى، ومحامده النبوية لا تستقصى^(٢).

(١) هداية الراغبين/٤٢٨ - ٤٣٠. (مخطوط).

(٢) نهاية التنوية/٢١٧.

وقال أيضا: وله عليه السلام العلم الغزير، والتصانيف الفائقة في علم الكلام، وغيره من الفنون^(١).

وقال أيضا عن الإمام القاسم: إنه البحر الزخار، والقمر النوار، والغمام المدرار، وتصانيفه — عليه السلام — في الفقه أكثر من أن تذكر^(٢).
وقال أيضا:

وهم جهلوا الرسي وهو مقدس عن الجهل بحر الحكمة المتلاطم
وهم أنكروا إسناد يحيى وقاسم وما لهما في العالمين مقاسم
إذا القاسم الرسي ضل بزعمكم فمن يهتدي إن ضل في الناس

وقال أيضا: وإن كان ناسب الجهل إلى القاسم عليه السلام جاهلا بحاله، ومحاسن خلاله، غير عارف بفضائله الوسام، ومكارمه العظام، وعلومه المتلاطمة الأمواج، وآياته المتسعة الفجاج، ومحامده الوضیة الدياج، ومحاسنه الوهاجة السراج...^(٣).

وقال السيد محمد بن إبراهيم الوزير لما قال له قاضي القضاة محمد بن عبد الله بن ظهيرة الشافعي: ما أحسن يا مولانا لو انتسبت إلى الإمام الشافعي: فأجاب عليه السيد محمد الوزير فقال: سبحان الله أيها القاضي إنه لو كان يجوز لي التقليد، لم أعدل عن تقليد الإمام القاسم بن إبراهيم أو حفيده الهادي^(٤).

وقال الأمير الحسين بن بدر الدين: كان عليه السلام معروفا بالفضل، أجمع على فضله المخالف والموافق، ولم ينكره عالم عارف، وبلغ في الزهد مبلغا عظيما، وكان بجميع العلم عليما^(٥).

(١) نهاية التنوية/٢١٩.

(٢) نهاية التنوية/٢٢٠.

(٣) نهاية التنوية/٢٢٣.

(٤) مقدمة العواصم/٣١، البدر الطالع ٩٠/٢.

(٥) ينابيع النصيحة/٤١٧.

وقال الحسن بن بدر الدين:

أين لهم كالقاسم الرسي الترجمان العالم التقى
أكرم شيخ من بني النبي خيرة آل المرتضى علي
شيخ الرسوس وإمام الحق ومعدن العلم ورب السبق
وعصمة الآل وشمس الخلق مقال حق ومقال صدق

ثم قال: يلقب ترجمان الدين، ويقال له: القاسم العالم... وكان الغاية القصوى في العلم والفضل، وكان يقال له: نجم آل الرسول صلى الله عليه وآله.

وقال: وله عليه السلام التصانيف الجمة في أنواع العلم، والأنظار الحسنة، والحجج الواضحة، وله الهجرة إلى الله والزهد في الدنيا والانقطاع إلى الله، وله من الفضل ما يطول شرحه^(١).

وقال العلامة يحيى بن أبي بكر العامري الشافعي: الإمام القاسم بن إبراهيم، وكان له فضل مشهور، وعُمر كثيرا حتى تولى في زمنه كثير من خلفاء العباسيين، وكان يستتر عنهم في مملكتهم فيظهر مرة بالحجاز وأخرى بغيره حتى مات، ولم يقع في أيديهم^(٢).

وقال أحمد بن علي الحسيني (ابن عتبة النسابة): كان عفيفا زاهدا له تصانيف، ودعا إلى الرضا من آل محمد^(٣).

وقال ضارم الدين الوزير في البسامة:

وترجمان الهدى والدين قاسمنا أجل معتصم بالحق مشتهر
خليفة بركات فيه ظاهرة كأنها بركات ألياس والخضر
لما دعاها إلى التقوى وما نظرت من العيون إلى عبس لها نظر^(٤)

(١) أنوار اليقين ١٣٠/٢ (مخطوط).

(٢) الرياض المستطابه/٢٩٤.

(٣) عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب/٢٠١.

(٤) مآثر الأبرار/١١٨ (مخطوط).

وقال صارم الدين الوزير أيضا: القاسم بن إبراهيم عالم آل محمد ^(١).
 وقال: القاسم والهادي وأمثالهما من أكابر سادات الأئمة، وقادات الأمة ^(٢).
 وقال: الإمام العالم نجم آل الرسول ^(٣).
 وقال محمد بن الحسن الديلمي (صاحب قواعد عقائد آل محمد) في الإمام القاسم:
 نور من الملكوت مثل صورة بشرية ضلت عليه دليلا
 لو لم يكن ختم الرسالة جده خلناه في هدي الرسول رسولا
 هذا الذي بهر العقول جلاله وتجاوز التشبيه والتمثيلا
 إن كنت تجهل قدره فاسأل به القرآن والتوراة والإنجيلا ^(٤)
 وقال السيد محمد بن يحيى القاسمي:
 كذلك القاسم الرسي قال كما قالوا وفجر ينبوع الهدى الحالي
 مناظرا لفلسفي حتى أقر له وتاب من دنس تغليل وإيغال
 وقال الشارح:

يريد عليه السلام: القاسم بن إبراهيم عليه السلام، وهو اليم الزاخر، وأبو الأئمة
 الأطهار، فقد وردت فيه آثار عن النبي صلى الله عليه وآله المختار، منها: قوله صلى
 الله عليه وآله: منك هاديها ومهديها ومستلب الرباعيتين. يعني: القاسم عليه السلام.
 وفي رواية أنه قال: يا فاطمة منك هاديها ومهديها ومستلب الرباعيتين، ولو كان
 بعدي نبي لكان هو ^(٥).

(١) الفلك الدوار/٦٠.

(٢) الفلك الدوار/٧٥.

(٣) طبقات الزيدية ٢/٢٠٨ (مخطوط).

(٤) نهاية الثنوية/٢١٨.

(٥) اللؤلؤ الدرية/٤٣.

وقال العلامة أحمد بن محمد الشرفي: كان أبيض اللون، حسن الوجه، تام الخلق، قد غلب البياض على شعره، لا يكاد يكلمه أحد لهيته... وعلمه وزهده وورعه وفضله، أشهر من نار على علم... ويسمى: نجم آل الرسول^(١).

وقال المرزباني في معجم الشعراء: حجازي مدني يسكن جبال قدس من أعراض المدينة، حسن الشعر جيدة، وذكر له بعض قصيدة:

وئي التهجير والدلج...

وبعض قصيدة:

عسى مشرب يصفو...

وقال: وله:

بيأس الضمير وهجر المني

دعيني هديت أنال الغني

كفاف امرئ...^(٢)

وقال ابن الندم بعد حديثه عن الزيدية: وأكثر المحدثين على هذا المذهب، مثل: سفيان بن عيينة، وسفيان الثوري، وصالح بن حي وولده وغيرهم، وقال: قال محمد بن إسحاق: أكثر علماء المحدثين زيدية، وكذلك قوم من الفقهاء المحدثين، مثل سفيان بن عيينة، وسفيان الثوري، وجلة المحدثين^(٣).

وقال محمد بن علي الزحيف: القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل فرع دوحة بسقت في أرض الفخار، ونور زيتونة تتوقد لنوي الأبصار، ما في آبائه إلا من فاق وراق، وانتشر فضله في الآفاق، وله العلم الغزير، والتصانيف المفيدة في كل فن من العلوم^(٤).

وقال العلامة أحمد بن يحيى حابس: القاسم بن إبراهيم، وهو نجم آل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وفقههم وعالمهم المبرز في أصناف العلوم، ومن يضرب به المثل

(١) اللآلئ المضية ٥٤٨/١ (مخطوط).

(٢) أحيان الشيعة ٤٣٤/٨.

(٣) الفهرست/٢٢١ - ٢٢٢.

(٤) مآثر الأبرار/١١٨. (مخطوط).

في الزهد والعلم^(١).

وقال محمد بن الإمام عبد الله بن علي بن الحسين بن الإمام عز الدين بن الحسن، صاحب كتاب التحفة العنبرية:

ونجم آل الرسول القاسم العلم الرسي قدوتنا في القول والعمل^(٢)

وقال محمد بن أحمد بن مظفر الحميري: له العلم الغزير، والتصانيف المفيدة، وهو أول من أكثر التصانيف في كل من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وحاله فيما اتسم به من محاسن الخلال وجمع أوصاف الكمال، أشهر من الإفصاح به إلا على جهة الإجمال^(٣).

وقال إبراهيم بن القاسم صاحب طبقات الزيدية: الإمام العالم نجم آل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

وقال: كان — عليه السلام — ميرزا في أصناف العلوم.

وقال الجنداري: ترجمان الدين، ونجم آل الرسول، والمبرز على أقرانه في الفروع والأصول، والمسموع والمعقول^(٤).

وقال الجنداري أيضا: وكان عليه السلام بحرا لا تقطعه الألواح^(٥).

وقال الجنداري أيضا: الإمام الحجة مجدد القرن الثاني، نجم آل الرسول القاسم بن إبراهيم الرسي^(٦).

وقال شيخ الأزهر الشيخ محمد أبو زهرة: القاسم بن إبراهيم الرسي: هو كبير طائفة تسمى القاسمية، قد نشأت ببلاد الحجاز... وله فقه ممتاز جيد... وكان على

(١) المقصد الحسن/٣٠٢ (مخطوط).

(٢) التحفة العنبرية/٨٠ (مخطوط).

(٣) الترجمان المفتتح لثمرات كرائم البستان/١٠٤ (مخطوط).

(٤) تراجم رجال شرح الأزهار/حرف القاف.

(٥) سمط الجمان/٢٨٣ بتحقيقنا.

(٦) الجامع الوجيز/٥٣ (مخطوط).

علم دقيق بالمذهب الحنفي مع فقه الحجاز. وكان ذلك الإمام منقطع النظر في تلك الديار، بل كان من علماء الإسلام ذوي الشأن... ومهما يكن فأراء القاسم مدونة في كتب الفروع الزيدية، وهي جزء من هذه الحديقة الغناء.

وإن مذهب القاسم وتخريجاته واختياراته كان لها شأن باليمن^(١).

وقال خير الدين الزركلي: فقيه، شاعر، من أئمة الزيدية، له (٢٣) رسالة — خ. في الإمامة والرد على ابن المقفع — ط. مع ترجمة إلى الإيطالية... ذكره المرزباني في الشعراء^(٢).

وقال الباحث فؤاد سزكين: هو أبو محمد القاسم بن إبراهيم... تولى قيادة أتباعه. أسس اتجاهًا زيديًا ينسب إليه هو (القاسمية) وما يزال هذا الاتجاه موجودًا إلى اليوم... ثم عدّد كتبه وآثاره^(٣).

وقال كارل بروكلمان: ترجمان الدين الإمام القاسم بن إبراهيم الحسني طباطبا الرسي، المتوفي سنة ٢٤٦هـ/٨٦٠م، كان معنيا بالرد على الجبرية والمجسمة، كما أسس مذهب القاسمية في الفقه. ثم عدد كتبه وأماكن وجودها في المكتبات والمتاحف العالمية^(٤).

وقال عمر رضا كحالة: فقيه شاعر مشارك في أصناف العلوم^(٥).

وكتب الدكتور نصر حامد-أبو زيد الباحث المصري عن الإمام القاسم قائلا: ... وبذلك نقلوا الخلافات العقلية الاستدلالية إلى القرآن على أساس وجود المحكم والمتشابه فيه...

وأدل محاولة تكشف عن هذا الربط بين الأصول العقلية للمعتزلة وبين قضية

(١) الإمام زيد حياته وعصره/٤٩٥ - ٤٩٦.

(٢) الأعلام ١٧١/٥.

(٣) تاريخ التراث العربي المجلد الأول الجزء الثالث — الفقه، ترجمة د/محمود حجازي.

(٤) تاريخ الأدب العربي ٣/٣٢٥، ترجمة د/عبد الحليم النجار.

(٥) معجم المؤلفين ٩١/٨.

المحكم والمتشابه، هي رسالة القاسم الرسي (ت ٢٤٦هـ) «كتاب أصول العدل والتوحيد»...^(١).

وقال السيد العلامة محمد الدين بن محمد المؤيدي:

وصفوة إبراهيم جلي محمد ومن بعده الرسي نعم المباح

الإمام أبو محمد القاسم، نجم آل الرسول، وإمام المعقول والمنقول^(٢).

وقال سيف الدين الكاتب مجاز من جامعة الأزهر: القاسم بن إبراهيم فقيه شاعر، مشارك في أصناف العلوم..^(٣)

وقال الدكتور محمد عمارة: متكلم، وفقيه، وشاعر، ومن أئمة الزيدية الثوار^(٤).

وقال الدكتور أحمد محمود صبحي: والقاسم الرسي — كسائر متكلمي الزيدية — تقترب آراؤه الكلامية من الفقه، بأكثر مما تقترب من الفلاسفة، وهذا ما يميز الزيدية بعامة عن المعتزلة، ومن ثم لن نجد مصدرا يونانيا أو غير يوناني في آراء القاسم الرسي الكلامية، وإنما هي إسلامية خالصة^(٥).

وقال الأستاذ إمام حنفي عبد الله — أحد الباحثين المصريين —: القاسم، بن إبراهيم، بن إسماعيل، بن إبراهيم، بن الحسن، بن الحسن، بن علي بن أبي طالب، العلوي، الشهير بالرسي، متكلم، وفقيه، وشاعر، وإمام تائر من أئمة الزيدية..^(٦)

وقال الأستاذ عبد الفتاح شايف نعمان: أبو محمد القاسم الرسي بن إبراهيم طباطبا،... ويعتبر زعيم الطائفة الزيدية، وجامع شتات المذهب الزيدي، وقد نقلت آراؤه إلى اليمن بواسطة حفيده الإمام الهادي، وقد خلف لنا الكثير من الآثار العلمية،

(١) الاتجاه العقلي في التفسير/١٦٤.

(٢) التحف شرح الزلف/٤٨ - ٤٩.

(٣) مقدمة رسائل العدل والتوحيد (مطبوع سنة/١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م).

(٤) مقدمة رسائل العدل والتوحيد/٢١.

(٥) الزيدية للدكتور صبحي/١٣٨.

(٦) مقدمة الرد على ابن المقفع/٨٣. ومقدمة المسترشد/٢٣.

في التفسير والفقه وعلم العقائد، التي كانت وما تزال من أهم المراجع لدى الطائفة الزيدية^(١).

مشائخ الإمام القاسم

الإمام إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن، وموسى بن جعفر، وغيرهم^(٢).



(١) الإمام الهادي واليا وفقهها ومجاهدا/٧٠.

(٢) الطبقات ٢/٢٠٨.

الكتاب

إثبات نسبة الكتب إلى الإمام القاسم

أولاً: الأسانيد

كتب ورسائل الإمام القاسم بن إبراهيم من أشهر الكتب في أوساط الزيدية، سواء زيدية العراق أو زيدية الجبل والديلم، أو زيدية اليمن، فهي ليست بحاجة إلى توثيق، ومع هذا فأنا أرويها بعشر طرق عن مشائخي بطريق الإجازة.

الأولى: عن السيد العلامة مفتي الجمهورية أحمد بن محمد زبارة، عن العلامة علي بن أحمد السدسي (١٢٧١ — ١٣٦٤هـ)، عن العلامة عبد الكريم عبد الله أبو طالب (١٢٢٤ — ١٣٠٩هـ)، عن العلامة إسماعيل بن أحمد الكبسي (١١٥٠ — ١٢٣٣هـ)، عن القاضي محمد بن أحمد مشحم المتوفي سنة (١١٨١هـ)، عن السيد صارم الدين إبراهيم بن القاسم بن محمد بن القاسم المتوفي سنة (١١٥١هـ)، عن القاضي أحمد بن سعد الدين المسوري (١٠٠٧ — ١٠٧٩هـ)، عن الإمام القاسم بن محمد.

ويروي الإمام القاسم بن محمد، عن أمير الدين بن عبد الله بن نهشل، عن أحمد بن عبد الله الوزير، عن الإمام المتوكل على الله يحيى شرف الدين، عن الإمام محمد بن علي السراجي، عن الإمام عز الدين بن الحسن، عن الإمام المطهر بن محمد الحمزي، عن الإمام أحمد بن يحيى المرتضى، عن أخيه السيد الهادي بن يحيى، عن القاسم بن أحمد بن حميد الشهيد، عن أبيه، عن جده الشهيد حميد بن أحمد المحلي، عن الإمام عبد الله بن حمزة، عن العلامة الحسن بن محمد الرصاص، عن القاضي جعفر بن أحمد بن عبد السلام، عن أحمد بن الحسن الكني.

ويروي الإمام المتوكل على الله شرف الدين عن السيد العلامة صارم الدين إبراهيم بن محمد الوزير، عن العلامة عبد الله بن يحيى أبي العطايا، عن أبيه يحيى بن

المهدي، عن العلامة المطهر بن محمد بن المطهر بن يحيى، عن أبيه، عن جده، عن محمد بن أحمد بن أبي الرجال، عن الإمام أحمد بن الحسين، عن الشيخ العالم أحمد بن محمد الأكوخ المعروف بشعلة، عن الشيخ محي الدين بن محمد بن أحمد القرشي، عن القاضي جعفر بن أحمد، عن الإمام أحمد بن سليمان، عن الشيخ إسحاق بن أحمد، عن عبد الرزاق بن أحمد، عن الشريف علي بن الحارث، وأبي الهيثم يوسف بن أبي العشرة، عن الحسن بن أحمد الضهري إمام مسجد الهادي، عن محمد بن أبي الفتح، عن الإمام المرتضى محمد بن يحيى، عن أبيه الإمام الهادي يحيى بن الحسين، عن أبيه الحسين بن القاسم، عن الإمام القاسم بن إبراهيم الرسي.

ويروي أيضا القاضي جعفر بن أحمد، عن القاضي أحمد بن أبي الحسن الكني، عن أبي الفوارس توران شاه، عن أبي علي بن آموج، عن القاضي زيد محمد، عن علي خليل، عن القاضي يوسف الخطيب، عن الإمام المؤيد بالله، والإمام أبي طالب، عن السيد أبي العباس الحسيني، عن السيد الإمام علي بن العباس الحسين، عن الإمام الهادي، عن أبيه، عن جده.

ويروي الإمام المؤيد بالله، وأبو طالب، وأبو العباس الحسين، عن السيد الإمام يحيى الهادي بن المرتضى محمد بن يحيى، عن عمه الإمام الناصر أحمد بن يحيى، عن الإمام الهادي، عن أبيه، عن جده.

الثانية: عن السيد العلامة مفتي اليمن أحمد بن محمد بن زبارة، عن حسين بن علي العمري، عن محمد بن محمد الضفري، عن محمد بن علي الشوكاتي، عن عبد القادر بن أحمد بن عبد القادر، عن أحمد بن عبد الرحمن الشامسي، عن حسين بن أحمد زبارة، عن أحمد بن صالح بن أبي الرجال، عن المؤيد بالله محمد بن القاسم، عن الإمام القاسم بن محمد به.

الثالثة: عن السيد العلامة محمد الدين بن محمد المؤيدي عَلم الزيدية الأكبر، عن أبيه محمد بن منصور المؤيدي، عن الإمام محمد بن القاسم الخوثي، عن الإمام محمد بن عبد الله الوزير، عن أحمد بن يوسف زبارة، عن الحسين بن يوسف زبارة، عن يوسف بن الحسين زبارة، عن الحسين بن أحمد بن صالح بن أبي الرجال، عن المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم، عن الإمام القاسم بن محمد به.

الرابعة: عن السيد العلامة حمود بن عباس المؤيد، عن الشيخ عبد الواسع الواسعي، عن القاضي محمد بن عبد الله الغالي، عن أبيه عبد الله بن علي الغالي، عن محمد بن عبد الرب بن محمد، عن عمه إسماعيل بن محمد بن زيد، عن أبيه محمد بن زيد المتوكل، عن أبيه زيد المتوكل، عن أبيه المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم، عن الإمام القاسم بن محمد به.

الخامسة: عن السيد حمود بن عباس المؤيد، عن محمد بن علي الشرفي، عن الإمام محمد ابن القاسم الحوئي، عن الإمام محمد بن عبد الله الوزير، عن أحمد بن يوسف زبارة، عن الحسين بن يوسف زبارة، عن الحسين بن زبارة، عن أحمد بن صالح بن أبي الرجال، عن المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم، عن الإمام القاسم بن محمد.

السادسة: عن السيد العلامة محمد بن الحسن العجري، عن السيد العلامة علي بن محمد العجري، عن السيد العلامة عبد الله بن يحيى العجري، عن الإمام المهدي محمد بن القاسم الحوئي، به.

السابعة: عن السيد العلامة محمد بن الحسن العجري، عن الوالد العلامة علي بن محمد العجري، والوالد العلامة الحسن بن عبد الله القاسمي، عن العلامة يحيى بن صلاح ستين، والعلامة عبد الله بن الحسن القاسمي، عن القاضي محمد بن علي الغالي، عن أبيه، به.

الثامنة: عن السيد العلامة بدر الدين بن أمير الدين الحوئي، عن العلامة أحمد بن محمد القاسمي، عن الإمام الحسن بن يحيى القاسمي، عن العلامة عبد الله بن أحمد المؤيدي، عن القاضي عبد الله بن علي الغالي، بإسناده المتقدم إلى الإمام القاسم بن محمد، به.

التاسعة: عن السيد العلامة محمد بن محمد المنصور، عن القاضي عبد الله بن عبد الكريم الجرافي، عن حسين العمري، عن أحمد بن محمد الكبسي، عن القاضي عبد الله بن علي الغالي، به.

العاشرة: عن السيد العلامة محمد بن يحيى بن المطهر، عن الشيخ عبد الواسع

الواسعي، عن القاضي العلامة حسين بن محمّد المغربي، عن السيد العلامة عبد الكريم بن عبد الله أبي طالب، عن العلامة أحمد بن عبد الله بن الإمام المعروف بصاحب دار سنان، عن شيخه العلامة أحمد بن يوسف زبارة، عن أخيه العلامة الحسين بن يوسف زبارة، عن أبيه يوسف بن الحسين، عن أبيه الحسين بن أحمد زبارة، عن شيخه العلامة أحمد بن صالح بن أبي الرجال، عن شيخه الإمام المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم بن محمد، وأخيه الإمام المؤيد بالله محمد بن القاسم بن محمد، به.

تداول الأفكار والمصطلحات في عصره

إن الأفكار والمصطلحات التي كان يطرحها الإمام القاسم ويستخدمها كانت متداولة في عصره، ولقد كان المعتزلة يغشّون مجالسه، فهذا جعفر بن حرب يفد عليه، ويسأله ويحاوّر، فيرجع مبهوراً، قائلاً: أين كنا عن هذا الرجل؟! فوالله ما رأيت مثله^(١).

وقال الإمام القاسم: ... وقد سأل عن هذا بعينه، وما قلت به من تبينه، نصراني، كان يغشاني، من قبط أهل مصر يقال له: سلمون، وكان ربما اجتمع عندي هو والمتكلمون... فسأل يوماً وهو عندي — جماعة من الموحدين، وفيهم (حفص الفرد البصري) وكان من المتكلمين...

وكذلك فإن تلك المصطلحات كانت سائدة ومتداولة قبل عصره، فهذا غيلان الدمشقي المعتزلي توفي بعد سنة/١٠٥هـ.

وكذلك واصل بن عطاء رأس المعتزلة، توفي سنة/١٣١هـ.

وكذلك عمرو بن عبيد من رؤوس المعتزلة، توفي سنة/١٤٤هـ.

وكذلك عثمان بن خالد الطويل، مبعوث واصل بن عطاء إلى أرمينية.

وكذلك محمد بن الهذيل أبو الهذيل العلاف من أئمة المعتزلة، توفي سنة/٢٣٥هـ.

وكذلك بشر بن المعتمر من مناظري المعتزلة، توفي سنة/٢١٠هـ.

وكذلك ثمامة بن الأشرس من كبار المعتزلة، توفي سنة/٢١٣هـ.
وكذلك عبد الرحمن بن كيسان الأصم، من فقهاء المعتزلة، توفي سنة/٢٢٥هـ.
وكذلك جعفر بن مبشر، من كبار المعتزلة، توفي سنة/٢٣٤هـ.
وكذلك عمرو بن بحر الجاحظ، من رؤساء المعتزلة ومتكلميهم، ولد سنة/١٦٣هـ، وتوفي سنة/٢٥٥هـ.
هؤلاء جماعة من أئمة المعتزلة ومتكلميها، سبقوا عصر الإمام القاسم، وكانوا بلا شك يتداولون تلك المصطلحات التي تداولها الإمام القاسم.

النقل من كتبه

معظم أئمة وعلماء الزيدية في عصره وما بعده إلى يومنا هذا يرجعون إلى كتبه، وينقلون منها مقتطفات وفقرات، انظر جميع كتب العقيدة لدى الزيدية.
كالإمام الهادي يحيى بن الحسين بن القاسم، وانظر في ذلك جميع كتبه، والإمام المرتضى محمد بن يحيى، والناصر أحمد بن يحيى، والإمام القاسم بن علي العياني، والإمام أحمد بن سليمان، والقاضي جعفر بن أحمد بن عبد السلام، والإمام عبد الله بن حمزة، والشهيد حميد المحلي، والسيد حميدان، والإمام يحيى بن حمزة، والإمام القاسم بن محمد، وغيرهم كثير كثير، انظر كتبهم.

ذكر العلماء لكتب الإمام

قال الإمام أبو طالب: ومن أراد أن يعرف تقدمه في علم الكلام، فليُنظر في (كتاب الدليل)، الذي ينصر فيه التوحيد، ويحكي مذاهب الفلاسفة، ويتكلم عليهم، ويتكلم في التراكيب والهيئة.

وفي (كتاب الرد على ابن المقفع)، ونقضه كلامه في الانتصار لما فيه من التثنية، وفي الكتاب الذي حكى فيه (مناظرته للملحد بأرض مصر). وفي (كتاب الرد على المجبرة)، وفي (كتاب تأويل العرش والكرسي) على المشبهة، وفي (كتاب الناسخ والمنسوخ)، وفي كلامه في (فصول الإمامة) والرد على مخالفتي الزيدية، وفي (كتاب

الرد على النصارى).

ومن أحب أن يعلم براعته في الفقه، ودقة نظره في طرق الاجتهاد، وحسن غوصه في انتزاع الفروع، وترتيب الأخبار، ومعرفته باختلاف العلماء، فليُنظر في أجوبته عن المسائل التي سئل عنها، نحو: (مسائل جعفر بن محمد النيروسي، وعبد الله بن الحسن الكلاري) التي رواها الناصر للحق الحسن بن علي رضي الله عنه، وكان سمعها منهما، وفي (كتاب الطهارة)، وفي (كتاب صلاة اليوم والليلة)، وفي (مسائل علي بن جهشيار) وهو جامع (الأجزاء المجموعة في تفسير قوارع القرآن) عنه عليه السلام.

وفي (كتاب الفرائض والسنن) الذي يرويه ابنه محمد عنه، وليتأمل عقود المسائل التي عقدها فيه، وفي (كتاب المناسك).

ومن أحب أن يعرف طريقته فيه — الزهد — فليُنظر في (كتابه في سياسة النفس)^(١).

وقال أيضا: وذكر القاسم عليه السلام في (الفرائض والسنن)^(٢).

وقال أيضا: وقد ذكره القاسم في (كتاب الطهارة)^(٣).

وقال أيضا: قال القاسم عليه السلام في (المسائل)^(٤).

وقال أيضا: قال الإمام القاسم عليه السلام في (مسائل ابن جهشيار)^(٥).

وقال أيضا: وقد قال عليه السلام في (مسائل النيروسي)^(٦).

وقال أيضا: قال القاسم عليه السلام في (مسائل القومسي)^(٧).

(١) الإفادة/ ١١٤ - ١١٧.

(٢) التحرير ٨٦/١.

(٣) التحرير ٤٧/١.

(٤) التحرير ٧٠/١.

(٥) التحرير ١٠١/١.

(٦) التحرير ٥٧/١.

(٧) التحرير ١٢٠/١.

وقال أيضا: قال القاسم عليه السلام في (مسائل يحيى بن حسين العقيقي) ^(١).
وقال أيضا: قال القاسم عليه السلام في (مناسكه) ^(٢).
وذكر نحو هذا الإمام عبد الله بن حمزة في الشافي ^(٣).
وذكر نحو هذا أيضا الشهيد حميد المحلي في الحقائق الوردية ^(٤).
وذكر نحو هذا أيضا السيد محمد بن الإمام عبد الله بن علي بن الحسين بن الإمام
عز الدين في التحفة العنبرية ^(٥).
وذكر نحو هذا أيضا السيد الهادي بن إبراهيم الوزير في هداية الراغبين ^(٦).
وللإمام القاسم كتاب لم يشتهر، ولكني على يقين من صحة نسبته إليه، وهو
كتاب (العالم والوافد).
وهذا الكتاب قد طبع سنة ١٣٩٩هـ — ١٩٧٩م باسم (مصباح الأنظار) ضمن
كتاب أخلاقي حكَمِي يسمى (الحقائق في محاسن الأخلاق للفيض الكاشاني الإمامي
المتوفي سنة ١٠٩١هـ).
تحقيق وتعليق السيد إبراهيم الميانجي. وهو ناقص نحو النصف وملئ بالأخطاء
والتصحيفات. ولم ينسبه المحقق إلى الإمام ولا إلى غيره.
والدلائل على صحة نسبته إلى الإمام القاسم كثيرة منها:
١ — أسلوب الإمام ونَفْسُهُ ولغته المتميزة في هذا الكتاب، فلا يكاد القارئ يقرأ
هذا الكتاب، وقد عرف أسلوب الإمام في الكتاب إلا ويجزم بأنه من تأليفه.
٢ — جل من ترجم للإمام يصفه بالعالم حتى صار لقباً له.

(١) التحرير ٢٢٥/١.

(٢) التحرير ١٩٧/١.

(٣) الشافي ٢٦٢/١.

(٤) الحقائق الوردية ٢/٢.

(٥) التحفة العنبرية/٨١.

(٦) هداية الراغبين/٤٣١.

قال الإمام الحسين بن القاسم العياني عن الإمام القاسم: قال إبراهيم بن إسماعيل أبو القاسم العالم عليه السلام:

قد موتت قلبي الهموم وطولت ليلي مهانا في الضفاد وثاقا

وقال: قال العالم صلوات الله عليه ^(١). ولا يذكره إلا ويقول: قال العالم.

وقال الإمام عبد الله بن حمزة في ترجمته: القاسم العالم ^(٢).

وكذلك قال في صفوة الاختيار في مسئلة إذا ورد الأمر مطلقا، للإمام عبد الله بن حمزة (مخطوط). ووصفه كاتب الكامل المنير بالإمام العالم.

وقال صارم الدين الوزير: القاسم بن إبراهيم عالم آل محمد ^(٣).

وكذلك وصفه الشرفي في المصاييح ^(٤).

قال السيد يحيى بن المهدي بن القاسم: والصحيح أن الوافد محمد بن القاسم بن إبراهيم عليهما السلام، وأبوه العالم القاسم المجيب على ولده، نعم والله الوالد والولد، هاجر إلى جبال الرس، وتفرغ لعبادة الله ونشر العلوم... ^(٥).

وقال السيد العلامة مجد الدين المؤيدي: قلت: المشهور أن الوافد قاموس آل محمد، محمد بن القاسم، والعالم والده نجم آل الرسول القاسم بن إبراهيم صلوات الله عليهم، وهو كتاب من جوامع العلم، وسواطع الحكم كله سؤال من الوافد وجواب من العالم، وقصدهما صلوات الله عليهما إلقاء الحكمة ^(٦).

وينسب إليه كتاب الكامل المنير في الرد على الخوارج، ولدي منه ثلاث نسخ مختلفة، إلا أن نسختين منهما مكتوب عليهما أن المؤلف إبراهيم بن خيران، وأكد

(١) تفسير الغريب في تفسير سورة (محمد).

(٢) الشافي ٢٦٢/١.

(٣) الفلك الدوار/٦٠.

(٤) المصاييح ٢٢٤/١ - ٢٢٥ - ٢٧٠.

(٥) الوسائل العظمى/٢٧١ (مخطوط).

(٦) لوامع الأنوار ١٨٩/٢ - ١٩٠.

ذلك الإمام الحسن بن بدر الدين في أنوار اليقين، والإمام عبد الله بن حمزة في فتاويه. أما الإمام القاسم بن محمد فإنه أكد أنه من تأليف الإمام القاسم بن إبراهيم، وضح ذلك تلميذه الذي قرأه عليه الحسين بن علي بن صلاح القاسمي، وهذا موجود على نسخة مكتوب عليه أن المؤلف الإمام القاسم بن إبراهيم وكلام الحسين بن علي القاسمي مزبور عليها بخط يده. والكتاب كله بخط يده.

وقال ابن أبي الرجال في ترجمته: وهو [الذي] ينسب إليه بعض العلماء الكامل المنير، وبعضهم ينسبه إلى نجم آل الرسول القاسم بن إبراهيم، وناهيك بهذا الشيخ الذي التبس ما صنفه بما صنفه هذا الإمام الجليل رحمهم الله جميعا، ومن اطلع على هذا الكتاب علم محل الفقيه المذكور من العلم^(١).

وأیضا فإن أسلوب ولغة الكامل المنير يختلف تماما عن أسلوب الإمام القاسم، ولا يلمس هذا إلا من خبر أسلوب القاسم، وأنا بحمد الله قرأت كتبه وحققته حرفا حرفا، حتى طبع أسلوب الإمام في فكري، بحيث أنني أستطيع أن أميز كلام الإمام من غيره بأدنى تأمل، لكثرة ما دقت في كتبه وتأملت.

والإمام يعتمد أساسا العقل ثم القرآن الكريم في مناظرته ومحاجته، والكامل المنير يعتمد السنة والأخبار، ويذكر رجال الأسانيد كثيرا، وهذا غير معهود في كتب الإمام القاسم.

ولهذا فأكاد أحزم بأن الكامل المنير ليس من تأليفه، والله أعلم.

المسائل المنثورة

جمعتُ فيه كل ما وجدت من أسئلة وجّهت للإمام القاسم، وجواباته على تلك الأسئلة، ولهذا سميتها المسائل المنثورة، لتناثرها، ولاختلاف مواضعها.



الكتب والرسائل الموجودة والمفقودة

الوجود منها:

- ١_ الدليل الكبير (في الرد على الفلاسفة الملحدين).
- ٢_ الدليل الصغير (في الرد على الفلاسفة الملحدين).
- ٣_ مناظر الملحد (في الرد على الملاحدة).
- ٤_ الرد على ابن المقفع (في الرد على الثنوية).
- ٥_ الرد على النصارى.
- ٦_ المسترشد (في الرد على المشبهة).
- ٧_ الرد على المجبرة.
- ٨_ الرد على الرافضة.
- ٩_ الرد على غلاة الروافض.
- ١٠_ العدل والتوحيد.
- ١١_ أصول العدل والتوحيد.
- ١٢_ مسألة الطبريين (في التوحيد والعدل).
- ١٣_ فصول في التوحيد.
- ١٤_ تفسير العرش والكرسي (في التوحيد).
- ١٥_ مديح القرآن الكبير.
- ١٦_ مديح القرآن الصغير.
- ١٧_ تفسير سور القرآن.
- ١٨_ الناسخ والمنسوخ.
- ١٩_ تثبيت الإمامة.
- ٢٠_ الإمامة.

- ٢١_ الإمامة.
- ٢٢_ القتل والقتال.
- ٢٣_ الهجرة للظالمين.
- ٢٤_ المكنون (في الحكم والآداب والأخلاق).
- ٢٥_ سياسة النفس (عظة وعلم نفس).
- ٢٦_ العالم والوافد (عرفان).
- ٢٧_ مواعظ.
- ٢٨_ مفاهيم إسلامية.
- ٢٩_ الطهارة.
- ٣٠_ صلاة اليوم والليلة.
- ٣١_ المسائل المثورة.

الفقود:

- ١_ الفرائض والسنن.
- ٢_ مسائل ابن جهشيار.
- ٣_ مسائل النيروسي.
- ٤_ مسائل القومسي.
- ٥_ مسائل يحيى بن الحسين العقيقي.
- ٦_ مسائل عبد الله بن الحسن الكلاري.
- ٧_ منسك الحج.

وله فقه كثير، يوجد منه شيء كثير في كتاب حفيده الهادي يحيى بن الحسين بن القاسم الأحكام، وأمالى أحمد بن عيسى لمحمد بن منصور المرادي، والجامع الكافي لأبي عبد الله العلوي، وشرح التجريد للمؤيد بالله في أدلة فتاوى القاسم والهادي، والتحرير

لأبي طالب الهاروني. ولدي مشروع لجمع فقه الإمام القاسم في كتاب مفرد، أسأل الله العون والتيسير.

وقد تناول كثير من العلماء والباحثين من الإسلاميين والمستشرقين كتب وحياة الإمام القاسم بالدراسة والتحقيق والترجمة.

فمن تناول فكره بالدراسة والترجمة المستشرق الإيطالي (ميكل أنجلو جويدي)، والذي حقق كتاب (الرد على ابن المقفع) لأول مرة في بداية القرن، ثم أعاد طبعه عام ١٩٢٧م. وترجمه إلى الإيطالية. وقد أشار إلى ما ذكرت الباحث السوري الكبير خير الدين الزركلي في موسوعته (الأعلام) عند ترجمته للإمام القاسم.

ومنهم المستشرق الألماني الشهير (Madelung Wilferd) (ويلفرد ماديلونغ)، فقد كتب عنه وعن المعتزلة كتابا حافلا باللغة الألمانية، أخرجني بذلك صديقي الباحث الأمريكي (موريس بومرانتس) وهو أحد تلامذته، وهو يعد دراسة عن اللقاء بين الزيدية والمعتزلة في القرن الثالث والرابع، لنيل درجة الدكتوراة بجامعة أمريكية في مدينة شيكاغو.

وقد تكرم بترجمة عناوين الكتاب الآنف الذكر المسمى (القاسم بن إبراهيم والمذهب الزيدي).

وهذا المستشرق الألماني له اهتمام كبير بفكر الزيدية وتاريخهم، وقد جمع كتابا تحت عنوان (أخبار أئمة الزيدية في طبرستان وديلمان وجيلان) ترجم إلى العربية وطبع عام ١٩٨٧م.

وهذا مستشرق ألماني آخر اسمه (BINYAMIN ABRAHAMOV) (بنيامين إبراهيموف) حقق كتاب (الدليل الكبير) وكتاب (الرد على النصاري) وترجمهما إلى الإنجليزية وطبعاً بالعربية والإنجليزية، ولدي منهما نسخة أهداها لي صديقي السيد حسن أنصاري، باحث إيراني متخصص في البحث عن الزيدية، يعمل في دائرة المعارف الإسلامية بطهران.

وللمستشرق الألماني (إبراهيموف) كتاب حافل عن الإمام القاسم، ما زال باللغة الألمانية، أرجو أن تيسر ترجمته إلى العربية، قال فيه عن الإمام القاسم: إنه أفلاطون

المسلمين، كأفلاطون في اليونان.

وحقق الباحث المصري سيف الدين الكاتب بعض رسائله ضمن مجموعة رسائل تحت عنوان (رسائل العدل والتوحيد).

كما حقق الباحث الكبير الدكتور محمد عمارة مجموعة من رسائله تحت عنوان (رسائل العدل والتوحيد).

وحقق له أخيراً الباحث إمام حنفي عبد الله عدة كتب منها: الدليل الكبير، والرد على ابن المقفع، والرد على الرافضة... وقد أفدت من مقدماتها في جزء من دراستي عن الإمام القاسم.

وحقق أيضاً الأستاذ/صالح الورداني كتاب (تثبيت الإمامة).

وإن كانت كل الكتب المحققة والمطبوعة مليئة بالأخطاء والأوهام والسقط على تفاوت بين المحققين، بيد أنها جهود مشكورة للتعريف بالإمام القاسم وفكره.



أسلوب التأليف

كيفية إيصال الفكرة:

إن الإمام القاسم يعد مدرسة متميزة في طرق الإقناع، والسيطرة على العقول والقلوب، بما منحه الله تعالى من علم وفهم وأناة وخلق وسعة صدر.

له أسلوب فريد في الحوار والمناظرة، لا يملك معه الخصم إلا التسليم عن قناعة وطيب خاطر، لا يظهر عليه أي علامات الانتصار والفلاح، مما قد يضطر خصمه للعناد والمكابرة، بل يتلطف ويتواضع، منطلقاً في ذلك من قيم الدين، والشعور بالمسئولية في هداية الخلق، ولأنه ينتسب إلى بيت الرحمة والخلق الكريم. فجده علي بن أبي طالب منتهى الكمال البشري في العلم والخلق والدين بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ومناظرته للملحد خير دليل على ذلك، فإنه اتخذ في محاورته أسلوباً اضطر الملحد للتسليم والدخول في الإسلام.

قال الإمام للملحد واضعاً الأسس للحوار: سل عما بدا لك، وأحسن الاستماع، وعليك بالنصفة، وإياك والظلم، ومكابرة العيان، ودفع الضرورات والمعقولات.

وهذا أحد النصارى المناظرين من أقباط مصر، يلقي شبهاته على علماء الإسلام في مصر، ويثير البلبلة الفكرية في أوساطهم، ولا يجد عندهم ما يغني، حتى يلتقي بالإمام فيزيل شبهته ويرجع مبهوراً مقتنعاً.

وانظر كذلك في كتابه (تثبيت الإمامة) وكتاب الإمامة تجد ما يدهش. بل إن أسلوب الإمام في جميع كتبه منهج لا يختلف.



فكرة التأليف

لم يكن التأليف عند الإمام ترفاً فكرياً، أو افتراض شُبّه فكري لا وجود لها، ومن ثمّ يتطوع لتفنيدها والرد عليها، بل كانت فكرة التأليف لديه تنطلق من موضع الحاجة، وبأدنى تأمل في كتبه يتضح صدق ما ندعي، فجميع كتبه ورسائله تجيب على كثير من التساؤلات المثارة في الساحة الإسلامية آنذاك.

أهمية الكتب والرسائل

تأتي أهمية الكتب والرسائل من نواح عدة:

الأولى: نقاء الفكرة!

وأعني هذا أنه لم يتأثر بالفلسفة اليونانية، ولا بالفكر الاعتزالي المعتمد على العقل التحريدي، ولم يعرج على تلك الأفكار والمصطلحات المعقدة التي تشوش ذهن المسلم وتبلبله، ولم يندس أفكاره بالنظرة الوثنية إلى الإله، التي تشبهه بخلقه وتماثل بينه وبينه في الصفات، كالوجه والعين واليد والرجل... إلخ المفاهيم الوثنية، وترهات ومغالات الجبرية القدرية، ومقالات المرجئة، وطلاسم وهرطقات الباطنية، وترهات ومغالات الرافضة، وإسفاف الصوفية، وسذاجة وتخربات الخوارج، بل اتخذ الوسطية من بين كل هذا الركام الهائل من الإفراط والتفريط والتناقض والسطحية في التفكير، وعمد في الاحتجاج إلى العقل ثم القرآن ثم السنة.

قال الإمام الهادي حفيد الإمام القاسم مبينا عقيدته ووجهته وتميزها عن مقالة الفرق عامة، والتي تمثل عقيدة ووجهة جده: لست بزندق ولا دهرى، ولا ممن يقول بالطبع ولا ثنوي، ولا بحير قدرى، ولا حشوي، ولا خارجي، وإلى الله أبرأ من كل رافضي غوي، ومن كل حروري ناصبي، ومن كل معتزلي غال، ومن جميع الفرق الشاذة، ونعوذ بالله من كل مقالة غالية، ولا بد من فرقة ناجية عالية، وهذه الفرق كلها عندي حجتهم داحضة. والحمد لله.

وأنا متمسك بأهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة، ومهبط الوحي، ومعدن العلم،

وأهل الذكر، الذين بهم وُحِّد الرحمن، وفي بيتهم نزل القرآن، ولديهم التأويل والبيان، ومفاتيح منطقهم نطق كل لسان. وبذلك حث عليهم رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بقوله: (إني تارك فيكم الثقلين، لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي، مثلهم فيكم كسفينة نوح من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق وهو).^(١)

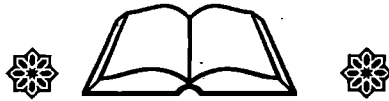
فقد أصبحوا عندي بحمد الله مفاتيح الهدى، ومصابيح الدجا، لو طلبنا شرق الأرض وغربها لم نجد في الشرق مثلهم، فأنا أقفوا آثارهم، وأمثل مثالهم، وأقول بقولهم، وأدين بدينهم، وأحتذي بفعالهم^(٢).

الثانية: تناول مواضيع ساخنة:

كما أسلفنا لم يكن التأليف عند الإمامة حالة ترف فكري، وتأليف من أجل التأليف، أو أنه كان يتناول مواضيع مألوفة وأفكارا مكرورة، بل إن المواضيع التي طرحها والأفكار التي نقدها وفندها، كانت مواضيع ساخنة وتسأؤلات مشروعة، ورؤي معروضة بشكل مستفز، وكانت أكثر المواضيع حساسية في ذلك العصر، ولا زالت إلى عصرنا هذا.

الثالثة: أصالة الحجة:

لم يعتمد الإمام القاسم في استدلالاته على حجج غير ناهضة بالمقصود، ولا على حجج دخيلة على الفكر الإسلامي، وإنما اعتمد الحجج الأصيلة من صريح المعقول وصحيح المنقول.



التحقيق

كيف كانت البداية

قبل أكثر من (١٤) سنة يعني سنة ١٤٠٥هـ تقريباً كانت بداية معرفتي بفكر الإمام القاسم، حين أخذت في دراسة مجموع كتبه ورسائله على يدي شيخنا العلامة يحيى بن حسين الحشوش، فأخذت كتب الإمام القاسم بمجامع قلبي لدقة أنظاره، وجزالة لفظه، وبراعة استدلاله، وبلاغة لغته، بيد أنه كانت تواجهنا مشكلة التصحيف والسقط في المخطوطة الوحيدة التي لم أجد غيرها في صعدة كلها رغم بحثي المستمر عنها، وضل يراودني الأمل في الوقوف على نسخة أخرى، حتى يسّر الله — وله الفضل والمنة — الحصول على أكثر من مخطوطة من صنعاء وحجة سنة ١٤١٢هـ، وكانت — بحمد الله — أدق وأصح وأوسع من المخطوطة التي بجوزي. وكثيراً ما كنت أسمع كل من يتحدث عن الإمام القاسم وكتبه من الآباء العلماء وغيرهم، يتحدثون عن تعقيد لغة الإمام ووعورة تراكيبه، واستعصائها على الفهم، وبعد تصحيح الكتاب وضبطه والتأمل الدقيق فيه تبين خطأ ما كان يُظن فيه من التعقيد والاستعصاء على الفهم، ومرد ذلك إلى الأخطاء والتصحيفات الكثيرة، وسيلمس القارئ الكريم صحة ما أقول.

مراحل الإعداد:

لقد كانت أولى مراحل الإعداد بتجميع المخطوطات، ولقد أخذ مني ذلك كل مأخذ، فثاني نسخة حصلت عليها. كانت من مكتبة السيد محمد بن زيد، وهي موروثه من جدهم السيد العلامة محمد بن الحسن بن القاسم بن محمد، والثانية من مكتبة الجامع الكبير بصنعاء، ولم أتمكن من الحصول عليها إلا بعد وساطات عالية المستوى، كالسيد العلامة محمد بن محمد المنصور حفظه الله كبير علماء صنعاء ووزير أوقاف سابق وناظر الوصايا اليمنية، والسيد العلامة عبد الله بن يحيى الصعدي رحمه الله

وزير أشغال سابق، والسيد العلامة يحيى الوشلي رحمه الله.

مراحل التحقيق

أول عمل قمت به أن نسخت المخطوط ثم قابلت المخطوطتين ثم دفعته إلى الكمبيوتر وظل أكثر من سنتين حتى تناثر وضاع أكثر ما نسخته، فداخلني الملل والكلل، ثم حصلت على نسختين أخريين فقوي العزم على معاودة تحقيقه من جديد، وأعدت المقابلة وضبط النص، ودفعته إلى الكمبيوتر ثانية إلى أن أنجزنا منه الكثير، ثم حصل عطل في الكمبيوتر فأرجأنا العمل مرة أخرى، وهكذا كلما تقدمت خطوة في العمل تأخرت أخرى، ثم صممت على إنجازهما مهما اعترضني من عقبات، وعملت حتى شارفت على التمام فأصاب الكمبيوتر فيروس فأفسد كثيرا من عملي ومسح كتباً عدة لم تكن حفظت، وواصلت العمل حتى وفق الله وأعان على إتمامه. ولقد تجرعت الغصص حتى انتهيت من العمل فيه، وقضيت السنين ذوات العدد — أكثر من سبع سنوات — أبل وحققت وطبعت أثناء العمل فيه أكثر من كتاب.

منهج التحقيق

تصحيح النص

يبدو لي أن أهم عمل ينبغي أن يوليه المحقق الاهتمام الكبير هو تصحيح النص وتقويمه، حتى يكون أقرب ما يكون من نص المؤلف كما كتبه، خاصة كتب القرون الأولى.

ولقد واجهت في تصحيح نص كتب الإمام عقبات وعقبات، لغرابة ألفاظها وخلوها من الإعجام، فغالب الخطوط القديمة تأتي مهملة. وأذكر أنني وقفت على كلمة (نخيرة) مهملة، فافترضتها (نخيرة، أو نخيرة، أو نخيرة، أو نخيرة، أو نخيرة، أو نخيرة)، وقلبتها على وجوه عدة فلم أهند لمعناها، أو أقف في معاجم اللغة على معنى أطمئن إليه أنه المقصود للإمام، وهكذا تركتها سنة تقريبا، وبينما أنا

أتصفح كتابا لغويا إذ مرت بي كلمة (نخيرة) فتأملتها باهتمام كبير ثم عمدت إلى معجم (لسان العرب) فبحثت عنها، وإذا به يفسرها بأنها تعني الطبيعة، فعدت إلى أوراقي وملفاتي القديمة الخاصة بمجموع الإمام القاسم فتأملتها وتأملت السياق الواردة فيه، فإذا هي هي فكدت أطير فرحا لوقوفي عليها وحمدت الله على ذلك.

ولقد بذلت جهدا مضنيا لتصحيح النص وتقويمه، ولكثرة تأملي في كتب الإمام، وتحقيقها حرفا حرفا، فقد تَشَرَّبْتُ أسلوب الإمام وخَبِرْتُ طريقته، حتى كنت إذا قرأت نصا من كلامه وفيه تصحيف أو خطأ ينكشف لي ذلك قبل أي تأمل، وقبل الرجوع إلى المخطوطات للتأكد والمقابلة. وكثيرا ما كنت أجتهد رأيي في تصحيح النص وتقويمه، وإن خالفتُ جميع المخطوطات، بيد أنني أثبت ما ارتثيت في الأصل، وأثبت ما في المخطوطات في الهامش، فلعل قارئنا متأملا يتبين له خطأ ما أثبت فلا أحرمه فرصة الوقوف على ما في المخطوطات، وتلك أمانة علمية ينبغي أداؤها.

ضبط النص

لأن الكتاب يتناول أهم مواضيع العقيدة وأكثرها سخونة، ولأنه من أقدم ما ألف في هذا الصدد، ولأن كثيرا من كتبه ورسائله كُتِبَ في نهاية القرن الثاني، ولأنه كتب بطريقة فريدة — النثر المشعور أو الشعر المنثور — وبتركيب لغوي متينة، ومفردات جيزة غريبة، كان لا بد من ضبط النص، لتسهيل قراءته وتوضح معانيه.

توزيع النص

قطعت النص إلى فقرات، والفقرة إلى جمل، مستخدما علامات الترقيم المتعارف عليها. ولأن الكتاب شعر منشور أو نثر مشعور فكنت قد أزمعت على الفصل بين كل سجة وأخرى بنجمة مميزة، ثم أضربتُ عنها واستخدمت الفصلة. ولذلك فالفصلات ليست عشوائية، وإنما وضعتها حسبما أراد الإمام أن يُقرأ كتابه.

ترتيب الكتب

مجموعة كتب ورسائل وجوابات الإمام القاسم مختلفة ومتعددة فهي أكثر من (٣٠) كتابا ورسالة، في مختلف المعارف الإسلامية، لذلك فإنها لم تأت مرتبة، بل إن بعض الكتب لا يوجد منه إلا نسخة أو نسختان، والبعض الآخر ربما وجد منه أكثر من سبع نسخ.

لذلك عمدت إلى ترتيبه ترتيبا مبتكرا، فبدأت بالكتب التي ناقش فيها الإمام الطوائف غير الدينية، كالفلاسفة، والملاحدة، والزنادقة، ثم الديانات السماوية (النصارى)، ثم الفرق الإسلامية، المشبهة بالمجسمة، والقدرية المجبرة، والرافضة، وغلاة الروافض.

ثم رتب الباقي حسب ترتيب الأصول الخمسة لدى الزيدية: فبدأت بالتوحيد، ثم العدل، ثم النبوة، وما يتبعها من القرآن والإمامة، ثم الجهاد ومهاجرة الظالمين، ثم الحكم والآداب والزهد والعظات، ثم الطهارة والصلاة، ثم المسائل العامة.

التعليقات

الآيات

خرجت جميع الآيات المذكورة في الكتاب.

الحديث

خرجت جميع الأحاديث المذكورة في الكتاب من كتب الحديث عند الزيدية، والجعفرية، والسنة، والأباضية.

الغريب

شرحت الغريب من الألفاظ، والتراكيب، معتمدا على معاجم اللغة وكتب العقائد.

تعليقات

علقت على كل ما يحتاج إلى تعليق، بالتوضيح أو الاستشهاد بما يؤكد مراد المؤلف.

مقدمة

وضعت مقدمة للتعريف بالمؤلف، ودراسة موثقة للكتاب.

الفهارس

وضعت فهرسا للكتب والمواضيع، وفهرسا للأحاديث، وفهرسا للأعلام، ولم أضع فهرسا للآيات لكثرتها.

الخطوط العتمة

اعتمدت في تحقيق هذا الكتاب على خمس نسخ منه:

الأولى: نسخة خطية بخط واضح حسن، أغلبها مهملة من الإعجام. كتب في آخرها: تم الكتاب وربنا المحمود وله الكبرياء والجلود، وصلى الله على رسوله، سيدنا محمد وأهله، وسلم تسليمًا، في سادس شهر جمادى الأولى من سنة خمس وستين وألف.

بخط الفقير إلى مولاه: سليمان بن محمد بن عبد الله المهلا، عفا الله عنه، وغفر ذنوبه، وستر عيوبه، آمين.

وكتب على غلافه: مما استكتبه لنفسه مولانا الأكرم، العلم العلامة الأعظم، عز الإسلام والمسلمين، وسيد أولاد الأنزع البطين، محمد بن الحسن بن أمير المؤمنين المنصور بالله القاسم بن محمد بن رسول الله صلوات الله عليهم أجمعين.

كتب في شهر رجب الأصب من سنة خمس وستين وألف سنة. وصلى الله على سيدنا محمد الأمين، وعلى آله الطيبين وسلم.

وهي تقع في (٤٧٤) صفحة، في كل صفحة (٢٥) سطرا، في كل سطر (١٢)

كلمة. وقد رمزت لها بـ(أ).

وقد حصلت عليها من مكتبة محمد محمد بن زيد من أحفاد محمد بن الحسن بن القاسم بن محمد.

الثانية: نسخة مصورة بخط واضح غير أنها مليئة بالأخطاء والتصحيقات والسقط، وإهمال الإعجام، كتب في آخرها: كان الفراغ من هذه النسخة ثاني شهر رجب الخير، سنة أربعة وستين وألف سنة. والحمد لله على كل حال من الأحوال.

وهي النسخة الوحيدة الموجودة في صعدة.

وهي تقع في (٥٢٦) صفحة، في كل صفحة (٢٠) سطرا، في كل سطر (١١) كلمة، وقد رمزت لها بـ(ب).

الثالثة: نسخة مصورة بخط قديم واضح يغلب عليها الصحة، ويغلب عليها أيضا إهمال الإعجام. لم يبين تاريخ كتابتها ولا اسم كاتبها، إلا أنه واضح عليها أنها من خطوط القرن السادس أو السابع.

وهي تقع في (٣٢٨) صفحة، في كل صفحة (٢٦) سطرا، في كل سطر (١٩) كلمة. وقد رمزت لها بـ(ج).

وحصلت عليها من مكتبة الجامع الكبير بصنعاء.

الرابعة: نسخة خطية بخط واضح، غير أنها شبيهة بنسخة (ب) بل غالبا ما تتفقان. ويبدو أنها من القرن العاشر الهجري، لم أعد أذكر التفاصيل عنها، لأن صاحبها أخذها قبل أن أسجل المعلومات عنها. ورمزت لها بـ(د).

حصلت عليها من مكتبة السيد العلامة محمد بن قاسم الشريفي. من المحابشة/حجة.

الخامسة: نسخة مصورة بخط واضح غير أنها قليلة الكتب كثيرة السقط. رمزت لها بـ(هـ).

إضافة إلى كتب ورسائل عدة بعضها لا يوجد منها إلا نسخة واحدة مفردة عن المجاميع السالفة الذكر.

مثل كتاب العالم والوافد فلدي منه ثلاث نسخ، وكتاب الناسخ والمنسوخ لدي

منه نسختان ضمن نسخة (أ) و (ج). وكتاب صلاة يوم وليلة لدي منه نسختان نسخة ضمن نسخة (أ)، والأخرى مفردة. وكتاب المسائل المنشورة يوجد لدي منه نسخة واحدة ضمن مجموع تفسير الأئمة، بخط قديم مكتوب عليه: كتبه إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن الهادي بن إبراهيم بن علي بن المرتضى بن المفضل بن الهادي إلى الحق عليهم السلام، وكان ذلك بصنعاء اليمن، برجب من سنة ست وستين وثمان مائة.

ورسائل أخرى موجودة لدي.



الصفحة الأولى من نسخة (أ)

الصفحة الأخيرة من نسخة (أ)

القصر فيها الاما فلما من العصر ولم يحرك يد على قصر الصلوة
 اذ لم يمسك ولا وجه للقصر فيها الامر لم يمسك اولها وانما
 عدل في الصلوة زيد عليها ولا عمل شيء من القصر فيها الا اذا
 صلوا قصر الصلوة الاما ذكرنا كان كانه خذعة لما وكما بين
 ما امر من ركعتي النسيك في حضوره تسع حيتا لله عز وجل
 فريد في صلاة الحضر وافتت صلاة السفر وكان ذلك كله لله رضي
 فاما من ذلك كله او اذ لم يمسك الله ان يعادق والتموت
 فادعى عن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله انه قال القنوت ثلاث
 كلمات العشاء ولما نصيف على المصلي عاقرا من وقد ذكر على
 واربطا بالصلوة ان الله عز وجل في الركعة الاولى الحمد وسبح اسمك
 الامن وفي الثانية الحمد وباركها الكفرون وفي الثالثة الحمد
 وقل هو الله احد وروى عنه صلى الله عليه واله انه كان يقول
 سبوح عبد الكريم وسبح لسان لا دعوى الموت الابا به
 مركبات لله وكذلك ايضا في قنوت الضحى مثل قول الله سبحانه
 لا تكف الله ففشا الاوسمها الى اخر السورة ويسل قوله ربنا اتنا
 في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ونجنا من النار ثم كبر وسبح
 وسجد محدث وسجد ثم سلم سلمين ثم عيبره ومن شانه

بسم الكتاب وبسم الحمد وله الكبريا والحمد

وصلى الله على رسوله سيدنا محمد وآله

وسلم تسليمًا وبارك

على اوليائه

حسن وبشرف

والحمد

الحمد لله الذي هدانا لهذا مما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

الصفحة الأخيرة من نسخة (ب)

بسم الله الرحمن الرحيم هـ سُبْحَانَ الْقِسْمِ رَأْسِهِمْ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ عَزَّ وَجَلَّ بِأَلِفِ
 وَالْخَلِائَةِ لَعَلَّ رَأْسَهُ طَابَتْ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ كَمَا تَقَالُ أَمَّا وَجِبَتْ عَلَى النَّاسِ
 طَاعَةُ عَلِيٍّ وَتَقْدِيرُهُ لِفَضْلِهِ عَلَى رِزْقِ اللَّهِ وَتَوَاتُفِهِ فِي جِهَادِ أَهْلِ اللَّهِ الَّتِي
 لَوْ بَلَغَ مِثْلُهَا مِثْقَلُ كَنْزِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَمِيعًا بِالْخَيْرِ وَلَمْ يَلْحَقْ بِهِ وَلاَ يَكُنْ مِنْ
 جَمِيعِ أَصْحَابِهِ لِأَخْوَجٍ مَعَ وَرَأْسِهِ الْقَرِيبِ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 أَهْلُ بَيْتِهِ وَسَلَّمَ وَفَضْلِهِ فِي الْعِلْمِ وَالْفَقْهِ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا كُنْتَ فَضَائِلَهُ
 فِي الْجَهْلِ مَا لَا يَنْكَرُ هَانِكُمْ وَكَانَ فَضْلُهُ عَلَى مَا لَا يَدْفَعُهُ دَارُ فِجْ عَالَمٍ وَلاَ
 جَاهِلٍ الْأَخْوَجُ مَكَانُهُ وَكَانَ لَهُ مِنَ الْقَرَابَةِ الْغَاثَةُ لِرَسُولِ اللَّهِ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِشَرِيعَتِهِ مَعَ مَا جَاءَ مِنْ تَبَاطُخِ الْغَيْرِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي جَلَالِهِ لَعَلَّ وَاشْتَرَاكَ إِلَيْهِ وَمَا جَاءَ مِنَ الْإِقَابِ وَبِلَيْتِهِ وَمِنْ الدَّلَالَةِ
 عَلَى فَضْلِهِ مَا لَمْ يَقْلُ مِثْلُهُ فِي غَيْرِهِ وَجِبَتْ عَلَى النَّاسِ عِدَّةٌ عَلَى الْأَمَامَةِ
 وَفَضْلِهِ وَكَانَ مِنْ قَدَمِ عَيْنِي عَلَيْهِ فَقَدْ قَدِمْتُ الْمَفْضُولَ عَلَى الْفَاضِلِ
 وَجَالَفْتُ ذَلِكَ الصُّوَابَ الَّذِي بَلَّ اللَّهُ عَلَيْهِ وَبَلَغَ مِنْهُمْ مَا اللَّهُ مِنَ الْحِكْمِ
 الرِّشْدَ الْقَلْبَ بِتَقْدِيمِ الْمُتَقَدِّمِ وَبَاخِرِ الْمُخَّرَجِ مَعَ خِلَافِ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى قَلْبِي وَفَضْلِهِ وَوَضْعِ الْأَمْرِ فِي غَيْرِ
 مَقْبُورِهِ وَأَهْلِهِ وَالْحَمْدُ لَهُ كَمَا يَكْفُرُ وَأَصْلُهُ

بِسْمِ اللَّهِ

الصفحة الأولى من نسخة (ج)



الصفحة الأولى من نسخة (أ) من كتاب مسائل القاسم

الحمد لله وحده ۞ هـكـا التفسير القاسم
الكاشف عن معاني القرآن الكريم ۞ من تفسير الامام القاسم رحمه

وابنائه الاكرم ۞ صلوات الله عليهم اجمعين ۞ فاوله الى النشر
وضعاها من تفسير شرح القرآن الله القاسم رحمه وعاقبه عن التمام
شواغل منغته الى ان نزل به الحمام ۞ ومن اقسام هذا التفسير من
تفسير علامه الغفره وقاموس المستر محمد القاسم رحمه
التبليغ الى اخره والشارحات غرقا ۞ ومن هم يتسائلون في
سوره الشافقين من تفسير الامام الاغظم الذي بشره النبي صلى الله
عليه وسلم ابن المنيش حتى اكمل التفسير عليه السلام ويوجد
ذلك متايل للقصم عليه السلام ثم تفتير مما سأل المصنف الهادي في
اباة سم مثايل شيل عنها الامية من باب المنيش عليه السلام متايل
اجاب عنها ۞ فهذا حاصل ما في هذا التفسير على الترتيب

هدى الحبيب المبارك سيح من تفسير
القرآن العظيم للقصم بن ابراهيم وولده محمد القاسم
الهادي الى الحق وولده المرتضى عليهم
السلام ومثايل فهمه وعبدك

الصفحة الأخيرة من نسخة (أ) من كتاب مسائل القاسم

الحمد لله وحده وصلى الله على محمد وآله
هذا الكتاب مشتمل على علمنا على النحو
 يتلخس انوارها الصدور في ويطلع قلوبنا
 على حقائقها اهدى القلوب وما اخاذوا باليد
 لا يفسدوا وانما بهم وسعهم الصدور في ولا يور
 الورد والصدور في انما انفع على ما اصابنا
 نرفعهم من علوم الاله الطهارات في وما عباد
 اخباروه وهو عند البيه من يختار في ومن
 حوادث الدهر ومجايبه وغطيات مقاصد
 ان كتب الحق صارت في انما انما المشاهير
 تبايع في الاشواق قال انما الباحثة ويحللها
 محدثات الكتب الاقوال التي تعاليم انما
 طامسة فان الله وانا لله را جعول في
 كتبه ابره من محمد عبد الله من الهادي
 بعون المولى المصطفى الهادي في الحق المبين
 وكان ذلك بمقتضى الحق بوجه من سيرة
 وتعالى ما بين احسن الله حوائج من المنها ونسب

كلمة أخيرة:

لا يسعني إلا أن أرفع أيادي الحمد والشكر والاعتراف بالفضل لله سبحانه على توفيقه لإخراج هذه المجموعة الذهبية من تراث الزيدية المظمور.

ولا أدعي أنني قد جئت بما لم تستطعه الأوائل، ولكن حسبي أني قد بذلت وسعي، واستفرغت جهدي وطاقتي، فإن أوفق فذلك من فضل الله علي، وإن يكن غير ذلك فكما قال الأول:

ولكن عذري واضح وهو أنني من الخلق أخطي تارة وأصيب

والحمد لله رب العالمين.

داعيا أبناء الزيدية إلى العمل الجاد لإخراج هذه الكنوز لتري النور، ففيها الخلاص والانعقاد من القيود الفكرية التي كبلت العقول. والعالم الحر ينتظرها بفارغ الصبر، ويتلقاها بالحفاوة والتقدير.

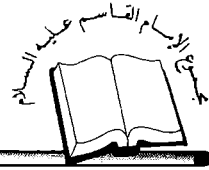
والله أسأل أن يغفر لي ولسائر المؤمنين، وصلى الله وسلم على محمد وآله الطاهرين.

عبد الكريم أحمد جدبان

اليمن — صعدة ذي الحجة/١٤٢١هـ

الموافق ١٤/٢/٢٠٠١م





الدليل الكبير



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وبه نستعين، وصلواته على خير خلقه أجمعين، سيدنا محمد^(١) وأهل بيته الطاهرين، وسلم تسليماً.

قال الحسين بن القاسم بن إبراهيم: سألت أبي يوماً رحمة الله عليه، عن ما يقال للزنادقة والملحدين، فيما يسألون عنه من الدليل على الله رب العالمين، تقدست أسماؤه، وجل ثناؤه؟! و

فقال: سألت يا بُنيَّ عن أكرم مسائل السائلين، وعن ما بجهله هلك أكثر قدماء الأولين، فتخبط فيه منهم - عماية - من تخبط، وأفرط بجهله فيه منهم من أفرط، بغير ما حجة ولا برهان لمنكرهم في إنكاره، ولا عدم دليل مبين فيما هلك به من اختياره^(٢)، إلا ما اتبعوا من مضل أهواء الأنفس، وضلوا به لتقليد أسلافهم من غواة الجن والإنس.

وحجج الله عليهم تبارك وتعالى في العلم به قائمة ظاهرة، وشواهد معرفته سبحانه لكل من خالفها بإنكار أو اختيار^(٣) غالبة قاهرة. فالحمد لله ذي الغلبة والسلطان القاهر، ولعرفته والعلم به الحجة والبرهان الزاهر.

(١) في (أ) سيدنا النبي وأهل.

(٢) إختياره: من الحيرة.

(٣) في (ب): اختيار.

[دليل الحكمة والإتقان] ^(١)

فدليل العلم بالله يا بني وأعصم ^(٢) أسبابه، وأقرب ما جعل للعلم به من مداخل أبوابه، ما أظهر في الأشياء سبحانه من آثار الحكمة المتقنة، التي لا تكون إلا من مؤثر متقن، وأبان في الأشياء من شواهد التدبير الحسنة المحكمة، التي لا تكون إلا من حكيم محسن، كما قال سبحانه: ﴿ذَلِكَ عَلَّمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ^(٣) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ^(٤) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ^(٥) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ^(٦) ﴿ [السجدة: ٦-٩]. فكل ما ذكره سبحانه

(١) دليل الخلق والإبداع والإتقان، أو التأمل في آثار الصنعة والخلق، هو دليل قرآني، أصّل له المتكلمون المسلمون في أصول الدين، وصار أصلاً من أصول النظر والاستدلال في إثبات الخالق ووحديته، وفي الرد على المنكرين للإلهية من الفلاسفة القدماء، والذين يطلق عليهم بالفلاسفة الدهريين والفلاسفة الطبيعيين، وقد استفاد المتكلمون من الإمام القاسم الرسي في الاستدلال على الخالق، لسبقه لهم في هذا الطريق، وجاء من بعده الجاحظ المتوفي سنة (٢٥٥هـ) والذي عاصره فكتب رسالة في ((الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير)) وهي رسالة طبعت أكثر من مرة وحقت، وكذلك الأشعري المتوفي سنة (٣٢٤هـ) في كتابه ((اللمع)) عندما استدلل بدليل النطفة/ ١١ - ١٩، وأبو بكر الباقلاني المتوفي سنة (٤٠٣هـ) في كتابه ((التمهيد)) وهو كتاب في الرد على فرق الملحدين وغيرهم، حيث استخدم دليل الخلق والإبداع في الاحتجاج على أهل الطباع، وكذلك الحافظ أبو بكر البيهقي المتوفي سنة (٤٥٨هـ) في كتابه ((الاعتقاد)). عندما استدلل بالأدلة القرآنية في خلق السماوات والأرض وما فيهما من الدلائل على وجود الخالق ووحديته/ ٣٠ - ٤٣، وجاء الغزالي المتوفي سنة (٥٠٥هـ) ليكتب في هذا المجال بإفاضة، ويؤلف فيه رسالة على نسق ما كتب الإمام القاسم والجاحظ من قبل ويسميتها ((الحكمة في مخلوقات الله)) وهي رسالة مطبوعة ومحققة ضمن مجموعة. والقصد مما سبق أن هذا الدليل إسلامي أصيل، ونجح المسلمون في استخدامه بطريقة بارعة، ويرجع الفضل للأوائل منهم في هذا الطريق وعلى رأسهم صاحب هذه الرسالة الذي وظفه في الرد على الزنادقة والملحدين والمعادنين.

(٢) في (أ): وعصم. وفي (د): وعظم. والعصم والعصام من الدلو والقربة: حبل يشد به، ومن الرعاء: عروة يعلق بها، جمعه: أعصمة وعُصْم، واعتصم به امتنع، والعصمة مأخوذة من هذا، والمراد به هنا القوة والمنع. والسبب في اللغة: الحبل، وأسباب السماء: مراقبها أو أبوابها.

فجَعائِلٌ لا بد لها من جاعل، وفَعائِلٌ لا تقوم أبداً إلا بفاعل، ولن يوجد جاعلها وفاعلها إلا الله سبحانه ذو الأسماء الحسنی، البريء من مشابَهة الجعائل والفعائل في كل معنى.

ومن أسباب العلم به ودلائله، بعد الذي أبان من أثر التدبير في جعائله، أوثق وثائق^(١) الأسباب، مما فطر عليه بنية الألباب، من العلم البت^(٢)، واليقين المثبت، الذي لا يعتري فيه - بحقيقة - شكٌ ولا مرية، ولا تعترض فيما جعل من بصائره شبهةً مُعشِية^(٣)، من أن لكل ما أحسَّ أو عَقَلَ، مما أثار سبحانه وجعل، خلَاقاً^(٤) متيقن معلوم، لا تدركه الحوَّاس ولا الوهوم. يُعقل ويُعرف بخلاف ما عَقَلت به الأشياء وعُرِفَت، فتخالفه ويخالفها بغير ما به في نفسها اختلفت. فهذان أصْلان^(٥) مجملان، لمعرفة الله عز وجل ثابتان، وشاهدان عدلان، على العلم بالله بآثان.

[وسائل المعرفة]

ولن يخلو العلم بالله، والوصول إلى المعرفة بالله^(٦)، من أن يكون مدركا:

— بمباشرة حس فيكون كمحسوس،

— أو يدرك بمباشرة^(٧) نفس فيكون كبعض ما يُدرك من النفوس.

(١) الوثائق: أقوى العرى التي يتمسك بها.

(٢) البت: القطع، أي: من العلم القطعي.

(٣) مُعشِية: مُلبِسة.

(٤) في (ب) و (ج): خلاف متيقن معلوم. وفي (د): خلاق متيقن معلوم. وفي (أ): خلَاقاً متيقناً معلوماً.

وقد لفقت النص من الجميع ليستقيم أسلوب الإمام في السجع، ولهذا التلفيق وجه في اللغة، مع احتمال أن تكون العبارة هكذا (من أنه لكل... إلخ).

(٥) الأصْلان اللذان ذكرهما الإمام هما:

١- وجود المخلوقات المحكمة المتقنة التي لا بد لها من خالق.

٢- أن خالقها يجب أن يختلف عنها وأن يعرف بخلاف ما به عرفت.

(٦) في (أ) و (ب) و (ج): لله.

(٧) في (ب): أو يكون مدركا بمباشرة، وفي (ج): أو يدرك من مباشرة.

وليعلم من وصل إليه كتابنا هذا في ذكر درك النفس أن فلاسفة الروم، يزعمون: أن للنفس دركاً ليس بدرك الحواس ولا درك الوهم. ولا سيما عندهم إذا كانت النفس مُعرّاة من الأجسام، ومِرّاة مما هي عليه من أوعية الأجرام.^(١)

— أو يُدرك من وَهْم جائل^(٢)، فيكون كمتَوَهَّم بالمخايل^(٣).

— أو يكون دركه سبحانه بظن، فيكون دركه كالمُتَنظِّن^(٤)، الذي يصيب فيه الظن مرة ويخطي، ويسرع المتنظن بظنه فيه ويبطي.

— أو يدرك من دليل مبین، فيكون مدلولاً عليه ببتّ يقين.

— أو يكون مدركاً سبحانه بحال واحدة دون أحوال، أو بما^(٥) يمكن اجتماعه من كل ما وصفنا من الخلال.

— أو مدركاً بجميع ما قلنا وحددنا، ووصفنا من الأمور كلها وعددنا.

(١) الأجرام: جمع جرم، وهو الجسم.

(٢) وَهْم جائل: أي خيال طائف.

والإمام القاسم هنا ينقد الفلاسفة اليونان في تعريفهم للنفس حيث ذهب بعضهم إلى ((أنها ليست بجسم، وإنما هي جوهر بسيط محرك للبدن))، وهو أفلاطون، وطالما أنها ليست جسماً فهي لا تدرك، كما أن أدوات الإدراك الحسي والعقلي ليست مما تدرك به النفس الأشياء، وإذاً هي تدرك بشيء خارج عن ذلك، وهو ما يرفضه الإمام القاسم، فالإدراك إما حسي أو عقلي، أو حسي عقلي معاً، وليست هناك طريق أخرى للإدراك سوى ذلك، أما الإدراك الباطني الإلهامي الحدسي الذي يطبع في النفس الإنسانية فهو ظني وغير قطعي، وهو طريق لا يستقل بذاته عند المعرفة، ولا يصلح أن يكون طريقاً لمعرفة الله. يبقى هنا الإشارة بنقد الإمام القاسم للفلاسفة اليونان، وهو دليل قاطع على معرفته، وهضمه للفلسفة القديمة، ونقده لها في مقابل ما يملكه من معرفة إسلامية راسخة، لها قواعدها ومفاهيمها آن ذاك، والتي في ضوءها رفض كون النفس جوهرًا ليس بجسم، لأن الأشياء إما أجسام أو غير أجسام، والأجسام هي العالم والكون بما فيه، وكلّ محدث، وغير الجسم هو الله، والأجسام لا تدرك إلا عن طريق أدوات معرفية محددة ومقننة، أثبتها الله في النفس الإنسانية هي المدارك الحسية والعقلية، وليس غير ذلك.

(٣) المخايل: جمع مخيلة كمدنية مدائن، والخيال ماتشبه لك في البقطة والحلم من صورة.

(٤) في (ب): بالمتنظن.

(٥) في (ب) و (د) و (هـ): أو بكل ما.

— أو مدرَكًا سبحانه بخلافه لكل محسوس الأشياء ومعقولها، في جميع ما يُدرك^(١) من فروع الأشياء وأصولها.

وهذا الباب من خلافه سبحانه لأجزاء الأشياء كلها، فيما يُدرك^(٢) من فروع الأشياء جميعاً وأصلها^(٣)، فما لا يوجد أبداً إلا بين الأشياء وبينه، ولا يوصف بها أبداً غيره سبحانه. وهي الصفة^(٤) التي لا يشاركه عز وجل فيها مشارك، ولا يملكها عليه تعالى مالك.

ولا يعلم جميع^(٥) الأشياء ما يقع من الاختلاف، فلن يوجد واقعاً إلا بين ذوات الأوصاف. وكل واحد منها وإن خالف غيره في صفة فقد يوافقه في صفة أخرى، كان مما يُعقل أو كان مما يُلمس أو يُرى. فإن اختلف محسوسان في لون أو طعم، اتفقا فيما لهما من حدود الجسم، وإن اختلف معقولان في فعال أو همة، اتفقا فيما يُعقل من أصولهما المتوهمّة. كالملائكة والانس والشياطين التي أصولها في النفسانية واحدة متفقة، وهممها وأفعالها مختلفة مفترقة.

فهمّ الملائكة الاحسان والتسبيح، وهمّ الشياطين العصيان والقبیح، وهمّ أنفس الانس فمختلفة كاختلافهم في قصدها وإسرافها، فتحسن مرة وتبرّ، وتسيء تارة وتُشرُّ^(٦).

وكل خلق من الملائكة والانس والشياطين فقد جعل الله له صفة متممة ذاتية، بها

(١) في (ب): ما يورد.

(٢) في (ب): يوجد.

(٣) في (ب) و (ج): وأصولها.

(٤) وهي ما تسمى: الصفة الأخص، عند المعتزلة. ومن هنا أخذ من نقل عن الإمام القول بالصفة الأخص.

(٥) أي: أن جميع الأشياء لا تختلف في صفاتها من كل وجه، وإن كانت مختلفة في أصولها كالحیوان والنبات والجماد، فقد تختلف في صفة وتتفق في أخرى، بخلاف الله سبحانه، فإن جميع الأشياء لا تتفق معه في صفة من صفاته سواء، وإن اتفقت معه في صفة كالوجود مثلاً، فالفرق شاسع وواضح بين وجودها ووجوده.

(٦) أي: تفعل الشر.

بأن بعضهم من بعض وكانت لكل من جعلها الله له خاصة صنفية، فهي لهم وبينهم ولهم اختلاف، وكلهم بها وبما جعل الله منها أصناف، بعضهم غير بعض، كما السماء غير الأرض.

وليس من وراء ما قلنا في الدرك لمعرفة الله والوصول إلى العلم بالله قول، ولا بعد الذي عددنا وحددنا في أصول المعارف بالله أصل معقول.

ولابد من النظر لمن أراد يقين المعرفة بالله، في تصحيح كل ما وصفنا صفة بعد صفة في معرفة الله، ليأتي المعرفة بالله من بابها، وليستلم بذلك من شكوك النفس وارتياها، فإنه لن تزكو نفس ولن تطيب، ولن يهتدي امرؤ ولن يصيب، اعتلج في صدره بالله ريب مريب، ولا كان فيه لشك في الله نصيب.

فنستعين بالله على معرفته ويقينها، ونرغب إليه في يقين أوليائه ودينها، فان ذلك ما لا يثبت لمن ادعاه بدعوى غير ذات بيّنة ولا أصل، فضلاً عن من كذب دعواه في ذلك من العامة سوء الفعل، فقال: أعرف الله بلسانه، وكذب ما ادعى من المعرفة له بكبير عصيانه^(١).

فإذا قيل له: بم عرفت ما تزعم، ومن أين علمت ما تقول إنك تعلم؟!؟

قال: يا سبحان^(٢) الله! ومن يجهل الله؟! وهل يسأل أحد عن معرفة الله؟!؟

وليس عنده من وجوه المعارف التي عددنا كلها وجه! ولا له في الجهل بالله لفاحش عصيانه مثل ولا شبه، يقول أبدأ فيكذب، ويخوض أبدأ ويلعب، فقوله خوض وزور، وفعاله فساد وبور، ولا يصدق قوله بفعال، ولا يقوم دعواه إلا بمحال، لا يفهمه عنه ليب، ولا يصوّب مذهبه فيه مصيب، كالبهيمة المهملّة الراتعة، التي لا همة لها إلا في مأكل أو متعة، كما قال الله جل جلاله، عن أن يحويه قول أو يناله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: ١٢]. وقال سبحانه: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ

(١) في (ب) و (ج): بكثير. ومن هذا يؤخذ للإمام أن مرتكب الكبيرة كافر، لأن من لم يعرف الله فهو كافر.

(٢) في (أ): قال: سبحان.

الْغَفِيلُونَ ﴿ [الأعراف: ١٧٩]. وقال سبحانه: ﴿ ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الحجر: ٣].

فنعوذ بالله يا بني من مثل حالهم، ونرغب إليه في السلامة من سوء فعالهم، وحسبنا الله في معرفته دليلاً وداعياً، وموفقاً سبحانه للعلم به وهادياً.

[تفصيل طرق المعرفة]

فأول باب: وصفناه من دركه سبحانه بمباشرة الحس، والباب الثاني: من دركه سبحانه بمباشرة النفس، ففاسد أن يكون الله سبحانه بواحد منهما مدركاً أو معروفاً، لأنه إن عُرِفَ أو أُدرِكَ بما أُدرِكَ به أو عُرِفَا كان بصفتها موصوفاً، يجري عليه ما يجري عليهما، ويضاف إليه تعالى ما يضاف إليهما، من تجزئة الكل والأبعاض، وألَمَّ به ما يُلمُّ بهما من الآلام والأعراض.

لأن ما يُدرِك من كل محسوس، وإن كان خلافاً لما يعقل من النفوس، فلن يخلو من أن يكون خليطين خلطاً فامتزجا فتوحداً، أو أخلاطاً كثيرة عُدُنَ مزاجاً واحداً، فتبدلن عن حالن الأولى، وصرنَ كونا من الأكوان التي تبلى، وما كان كوناً لزمه ما يلزم الأكوان، ولم يتقدم الحركة ولا الأزمان، وكان فيهما محظوراً، وبما حصرهما^(١) من الحدث محصوراً.

وحدث الحركة والزمان^(٢)، وقرائنهما من الجسم والصورة والمكان، فما لا ينكره — إلا بمكابرة لعقله، أو فاحشٍ مستنكرٍ من جهله — مَنْ سلمت من الخَبَلِ نفسه، ونجت من نقص الآفات حوأسه.

وكل نفس فذاتٌ قوى شتى مختلفة، كل صفة منها فسوى غيرها من كل صفة،

(١) في (أ) و (هـ): حظرهما.

(٢) في (أ): والأزمان.

واختلاف قوى كل نفس فمعروف غير منكر، منها التوهم ^(١) والفكر، وغيرهما من التذكر والخطر ^(٢).

وقوى كل نفس فمتيمة لها، لا يمكن أن ترايلها، لأنها ^(٣) إن زايلتها قوة من قواها المتتمة لكونها، وما وصفناه من محدود كمال شؤونها، كان في ذلك من زواله زوالها، وزال عن النفس بزواله عنها كمالها، وفنيت النفس بفنائها، ولم تبق النفس بعد بلائه.

ألا ترى أن قوى النفس المتتمة لكونها، ومحدود كمال شؤونها، كحر الشمس ونورها، وغيرهما مما لا قوام للشمس دونه من أمورها، وكذلك قوى النار في إحراقها وحرها، كقوى النفس في توهمها وذكرها، فإن في حر الشمس أو نورها فنيت، وإن بلي إسخان النار أو إحراقها بليت، وكذلك النفس إن زايلها، ما جعله الله من القوى لها، فزال فكرها عنها، أو في توهمها منها، فنيت بفنائها، وبلت مع بلائه.

وفي ذلك، إذا كان كذلك، دليل مبين، وعلم ثابت صحيح يقين، أن ^(٤) النفس كثيرة عددا، وأما ليست شيئا واحداً، فكل نفس فغير واحدة، ولكنها كثيرة ذات عدة ^(٥)، والله تبارك وتعالى فواحد فرد، وقوته فمفردة ليس لها حد، ومن لم يكن واحداً فرداً، ونهاية في الدرك صمداً، كان متحاداً معدوداً، وأشتاتاً متناهاً محدوداً.

والباب الثالث: من دركه سبحانه بمخايل الأوهام، ففاسد لتشبيهه فيه ^(٦) بمتوهم مخايل الأجسام.

والباب الرابع: من دركه سبحانه بالظن فقد يمكن ويكون، إذ كانت قد تخطئ وتصيب الظنون.

(١) في (أ): للتوهم.

(٢) الخطر: ما يخطر في النفس.

(٣) سقط من (ج): لأنها إن زايلتها. ومن (ب): لأنها.

(٤) في (أ): فإن. وفي (ج) و(هـ): بأن.

(٥) في (ب): وكل نفس فذات قوى شتى مختلفة، كل صفة منها فسوى غيرها فغير واحدة، ولكنها كثيرة ذات عدد.

(٦) في (ج): بتشبيهه.

فصواب الظن في أنه قد ^(١) يصيب فيه سبحانه، وخطأ الظن فيه فمُنَحَّى ^(٢) عنه مقطوعة الأسباب فيما بينها وبينه.

والباب الخامس: من دركه سبحانه بالدلالة فموجود لا يغنف، وصحيح ثابت في الألباب ^(٣) لا يختلف.

والباب السادس: من دركه سبحانه بحال واحدة مما عددنا، ففاسد فيه تبارك وتعالى بما أفسدنا.

والباب السابع: من دركه سبحانه بكل ما عددنا وحددنا من الخلال، فأحول ما يتوهم من وجوه المحال، لما يجمع مما لا يجتمع في حس ولا عقل ولا وهم، وفي ذلك أن يكون كذلك أعدم العدم!!

والباب الثامن: معرفته سبحانه بخلاف الأشياء كلها فلباب كل لباب، وأصح ما يُدرّكه به — سبحانه — من خلقه أولو الألباب، لأنه إذا صح أنه غير مدرك سبحانه بذرك هذه الأشياء وأوصافها، وكان لابد لمن أدرك هذه الأشياء دركا صحيحا من أن يكون مدركا بصحة لخلافها، بيقين — من دركه لها — مبثوث، كدرك الحياة وخلافها من الموت، ودرك الصحة وخلافها من السقم، ودرك الشباب وخلافه من الهرم، وغير ذلك من اختلاف الأشياء كلها، وما يوجد لها من الاختلاف في فرعها وأصلها، وإذا كان ذلك كذلك، وصح ما ذكرنا في النفوس من ذلك، كان واجبا وجوب اضطرار، وثابتا من النفوس في أثبت قرار، دركه سبحانه ووجدّه عند دركها ووجودها، إذ هو خلاف سبحانه لكل ما يوجد من موجودها.

فإن قال قائل: فلم لا تجعل خلاف الأشياء كلها العدم؟! فقد يحيط بخلافه للأشياء كلها ألهم؟!.

(١) في (أ): فقد.

(٢) في (أ): فتمنحى.

(٣) سقط من (ب) و (ج) و (د): في الألباب.

قلنا: إن العدم ليس بمعنى موجود، وليس مما له إنِّيَّةٌ ^(١) ولا حدود، وإنما مطلبنا فيما قلنا، للخلاف بين ما قد عقلنا، من ذوات الإنِّيَّةِ الموجودة الثابتة بالحبس، أو الشهادة الباتَّة من درك النفس، أو ما يدرك خلافا لهما جميعا، فيوجد أثر تدبيره بيِّنًا ^(٢) فيهما معا.

فأما ما ليس بذِي أَيْسٍ، ^(٣) — ولا يُدرك درك محسوس، ولا يعرف بفرع ولا سُوس ^(٤)، ولا يُبين عن نفسه بأثر من تدبير، ولا يُستدل على وجوده بدليل منير — فليس فيه لنا مطلب، ولا لنا إليه بحمد الله مذهب، وإنما قولنا في العدم، إنه خلافٌ في الوهم، لا في حقيقة للعدم موجودة، ولا عين منه قائمة ولا محدودة، وإنما ^(٥) يطلب خلاف الأشياء كلها في حقائق الأعيان، بما يُدرك في العقل والعلم من الاختلاف بيِّنٌ الايقان، وكذلك وجدنا الاختلاف الصحيح اليقين يكون، بين ما يُحس أو يُعقل من الأشياء التي لها كون، فأما العدم الذي هو ليس ^(٦)، والذي لم يُتوهم له قط أَيْسٌ، فليس في بعده من أن يقال: مختلف بحقيقة أو مؤتلف وهم، وليس لأحد علينا والحمد لله في اختلاف منه ولا ائتلاف متكلَّم، هو غير ذِي شكٍّ عدم الأعدام، ولا ^(٧) يرتفع عنه إلا بعبارة المنطق ^(٨) نطق الكلام.

(١) إنِّيَّة الشيء: ذاته.

(٢) سقط من (ب) و (ج): بيِّنًا.

(٣) أي: بذِي وجود، قال الخليل وإنما معناها كمعنى حيث هو في حال الكينونة والوجد. لسان العرب مادة أَيْس.

(٤) أي: أصل. لسان العرب مادة سُوس.

(٥) في (أ): فلإنما.

(٦) أي: نفي معدوم.

(٧) في (أ) و (هـ): وما.

(٨) أي: لا يتبين إلا بالاسم، وإلا فهو ليس بشيء موجود.

[دلالة الآيات الكونية على وجود الله]

والحمد لله على ما جعل لنا من السبيل بما قلنا وغيره إلى معرفته، ودلنا عليه في محكم القرآن مناً وإحساناً من صفته، فقال سبحانه فيما عرفنا، منه وثبت لنا، من أنه يعرف بالأعلام القائمة الدالة، والشهادات القاطعة العادلة، التي لم تبحر في الأنفس والآفاق شاهدة مشهودة، ولم تزل في السماوات والأرض وما بينهما من^(١) سالف الأحقاب قائمة موجودة، تشير إلى معرفته بكف وبنان، وتومئ إلى العلم بالله لكل من^(٢) له قلب وعينان، كما قال الله سبحانه: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥]. وقال سبحانه: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ [٢١] وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ [٢٢] وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ [٢٣] فَوَرَبَّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ [٢٤] [الذاريات: ٢٠-٢٣]. وقال سبحانه: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣]. فمن شهادته سبحانه لها أنه^(٣) لما كان منها مدبر مريد، ثم قرر لنا سبحانه شهادة دلائله، بما أظهر في السماوات والأرض والأنفس من أثر جعائله، بتوقيف منبه لكل بصير حي، وتعريف لا يجهل بعده إلا كل ضليل عمي، فقال سبحانه في توقيفه، وما نبه من تعريفه: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْغَيْثِ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [٢٥] فَالِقُ الْأَصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ [٢٦] وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ [٢٧] وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِّنْ نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ [٢٨] وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ

(١) في (أ) و (هـ): في.

(٢) في (أ): من كان له.

(٣) سقط من (أ): أنه.

خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ نَّظَرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ [الأنعام: ٩٥-٩٩]. ففلق^(١) الحب — يا بني — والنوى والاصباح، وإخراج^(٢) الحى من الميت والميت من الحى بأوضح الايضاح، وما جعل من الليل سكناً، ولباساً مُكْنًاً^(٣)، ومن الشمس والقمر حساباً معدوداً، وما جعل في النجوم للسايرين من الهدى، وإنشاء البشر من نفس واحدة، فما لا تنكره فرقة ملحدة ولا غير ملحدة. وما استودع منهم في الأرحام والأصلاب، وما استقر — منهم في قرار الأرض وعلى متن التراب، وما أنزل من الماء، من جو السماء، وما أخرج به من خضر الألوان المختلفة، وأصناف الجيوب المتراكبة المتصنفة، وما أخرج به من النخل وطلعها، وقنواها الدانية عند ينعها، وما أخرج به من جنات الأعناب ذوات الألوان، وما تشابه أو لم يتشابه من الزيتون والرمان — فمعين^(٤) كله بما قال الله فيه مشهود، بَيَّنَّ فيه كله أثر صنع الله موجود، لا يقدر أحد له بحجة على إنكار، ولا يمتنع حكيم على الله فيه من إقرار.

ومن توقيفه سبحانه المكرم، وتعليمه تبارك وتعالى المحكم، قوله: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [يونس: ٣١-٣٢].

وكل ما ذكر الله سبحانه من هذا كله^(٥) فقد علمنا بيقين، وأدركنا بقلب وعين، أنه مرزوق غير رازق، ومخلوق ليس لنفسه بخالق، ومملوك غير مالك من نفسه بشيء، ومُخْرِج ومُحْيٍ غير مَخْرِج لنفسه ولا مُحْيٍ، وكل أمر السماء والأرض فقد يُعَين

(١) في (ب) و (ح): ففلق.

(٢) في (ب) و (ح): وأخرج.

(٣) أي: ساتراً.

(٤) سقط من (أ): كله.

مدبراً غير مدبر، ويُرى أثراً — بأبين شواهد التأثير — من مؤثر، فلا بد بيت اليقين من رازق ما يُرى من الأرزاق، ومدبر ما يعاين من أثر التدبير في السماوات والآفاق، ومالك ما يرى مملوكاً غير مالك من السمع والأبصار، ومخرج الحي من الميت والميت من الحي بمواقيت وأقدار، ولا بد من مدبر الأمر الأعم الكلي، ولن يوجد ذلك ^(١) إلا الله الأعلى فوق كل عليّ.

ومن ذلك أيضاً ف قوله تبارك وتعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴾ ٥٨ ﴿ ٥٩ ﴾. فالله سبحانه هو الخالق ونحن الممنون، ليس لنا في ذلك غير إيمان المني من صنع، ولا نقدر بعده لما قدّر بيننا من الموت على منع، فتقدير صنعنا كله وتدييره، وتبديل خلقنا إن شاء خالقنا وتغييره، إلى من تولاه دوننا، وكان منه لا منا، كما قال سبحانه: ﴿ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ ٦٠ ﴿ ٦١ ﴾ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ٦٢. وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ٦٣. [الواقعة: ٥٨-٥٩]. فقرر سبحانه معلوم غير مجهول، وذكر بما لا ينكره سليم العقول، من نشأة الصنع الأولى، فبارك الله العلي الأعلى.

ثُمَّ قَالَ سبحانه: ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴾ ٦٤ ﴿ ٦٥ ﴾. أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾ ٦٦. [الواقعة: ٦٣-٦٤]. فالله هو الزارع ونحن الحارثون. ليس لنا في الزرع سوى حرثه من حيلة موجودة ولا معدومة، ولا نقدر بعد الحرث له على إنشاء منه لسنبلة محمودة ولا مذمومة، وقدرتنا فإنما هي على الحرث والاعتمال، وعلى خلافهما من الترك والاغفال، وكذلك فَلِلَّهِ مِنَ الْقُدْرَةِ بَعْدُ عَلَىٰ إِبْطَالِ الزَّرْعِ وَبِلَاثِهِ، مثل الذي كان له من القدرة قَبْلُ عَلَى تَنْمِيهِهِ وَإِنْمَائِهِ، ولا يقدر على أمر إلا من يقدر على خلافه، وعلى فعلٍ كل ما كان من نوعه وأصنافه، فمن لم يكن كذلك، وتَصَحَّحَ صِفَتُهُ بِذَلِكَ، كان برياً من القدرة عليه، وكان العجز في ذلك منسوباً إليه، كما قال سبحانه، في الزرع بعد إكماله: ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَبًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ ٦٧ ﴿ ٦٨ ﴾ إِنَّا لَمُعْرِضُونَ ﴾ ٦٩. بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ ٧٠. [الواقعة: ٦٥-٦٧]. وكذلك إعذاب الماء، وما

(١) سقط من (أ): ذلك.

يعاين من تنزيله من جو السماء، فلا يقدر على إعذاب الماء وإنزاله، إلا من يقدر على إيجاحه ^(١) وإقلاقه، كما قال الله سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٧٠﴾ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿٧١﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الواقعة: ٦٨-٧٠]. وكل فعل فرع لا يتم إلا بأصله، ففاعل الأصل أولى بفعل فرع أصله، كشجرة ^(٢) النار، وأصول الأشجار، التي هي من الأرض والماء، والجو والسماء.

فصنع هذه الفروع لمن كان له صنع الأصول، لا ينكر ذلك منكر ولا يدفعه إلا بمكابرة فطر ^(٣) العقول، كما قال الله سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧٣﴾ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴿٧٤﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَلَعًا لِلْمُقْوِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الواقعة: ٧١-٧٣]. فكل ما نبه به ^(٤) من هذا ودل عليه، فداع من معرفته سبحانه إلى ما دعا إليه.

ومن ذلك أيضا، فقوله تبارك وتعالى: ﴿أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الحديد: ١٧]. فإذا كانت حياة الأرض بعد موتها موجودة، وميتها التي كانت تُعلم قبل حياتها مفقودة، فلا بد اضطرابا ثابتا، وبقينا لا تدفعه النفوس بآثا، من إثبات مميتها ومحيتها، إذ بان أثر تديره فيها، بأكثر مما ^(٥) يعقل من الآثار، وأكبر مما ^(٦) تعرفه النفوس من الأقدار، مما لم يُر له في ^(٧) الحياة قط مؤثرا، ولم يوجد له ^(٨). من المدبرين قط مدبر، إلا من يزعم أنه من الله لا منه، ومن يقر أنه منه يقر أنه من الله دونه، مثل المسيح بن مريم، وغيره ممن أعطيه من ولد آدم.

(١) أي: إملاحه.

(٢) في (أ) و (ب): كشجر.

(٣) جمع فطرة.

(٤) في (أ): له.

(٥) في (ب) و (ج): ما.

(٦) في (ب) و (ج): ما.

(٧) في (أ) و (ب) و (ج): من.

(٨) في (ب) و (ج): في.

ومن تعريفه القريب، وتوقيفه العجيب، قوله سبحانه: ﴿قُلْ لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٨٥﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴿[المؤمنون: ٨٤-٨٥]﴾. فلما كانت الأرض مملوكة ومن فيها، بما تبين من أثر الملك عليها، ثبت مالکها عند معانتها غير مدفوع، ووُجدَ صانعها باضطرار غير مصنوع.

ومن توقيفه، أيضا وتعريفه، قوله سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿[المؤمنون: ٨٦]﴾. فلما وُجدَ — ما وقف الله سبحانه عليه من ذلك — مربوبا غير متمنع، بما تبين فيه من شواهد كل مربوب متخشع، وُجدَ ربا كلها بيقين مبتوت عند وجودها، وشهد له بالربوبية ما شهد بالصنع عليها من شهودها.

ثم قال سبحانه لتوقيفه وتعريفه مرّداً، وعليهم بما لا تدفعه النفوس من الشهود^(١) مستشهداً: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿[المؤمنون: ٨٨]﴾. فلما كان كل شيء يُحس بحس، أو يُعقل إن لم يكن محسوساً بنفس، في قبضة محيطه به من قدرة وملكوت، بما لا يدفعه^(٢) عن نفسه من بلاء أو موت، كان ملك الملوك للأشياء كلها معلوماً باضطرار، من يجير ولا يجار عليه إذ الملوك كلها له غير ممنعة منه^(٣) بجار.

ومما يَقطُ به سبحانه لمعرفته، ودلّ منه بأوضح دليل على ربوبيته، وما تفرد به من صنع البدائع، وتوحد بابتداعه من بدع الصنائع، قوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مَعْمَرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ﴿[فاطر: ١١]﴾.

فلما أن كان خلق أينا، الذي هو أول إنشائنا، وهو آدم، الأب المقدم، مما ذكر الله تبارك وتعالى أنه ابتدأه منه من التراب، كنا مخلوقين مما خُلِقَ منه وإن نحن جرينا بعده نُطْفًا في الأصلاب.

(١) سقط من (ب) و (ج): من الشهود.

(٢) في (أ): يدفع.

(٣) في (هـ): عنه.

والدليل البتُّ اليقين، الشاهد العدل المبين، على أن آدم عليه السلام بُدئ من التراب وخلق، مصير نسله تراباً إذا بلي وفُرق، وكل مركَّب انتقض من الأشياء، فعاد إلى شيء عند ^(١) تنقضه بالفرقة والبلى، فمنه رُكَّب وخلق غير شك ولا امتراء، كالثَلَج والجليد، والبرَد الشديد، الذي يعود كل واحد منهما إذا انتقض وفُرق، إلى ما رُكَّب منه من المياه. وخلق، وكمرَّكَب الأشجار والحبوب وغيرهما من ضروب الأغذية، التي تعود عند بلائها إلى ما رُكِّبت منه من الأرضين والمياه والنيران والأهوية.

وآدم عليه السلام في أنه من تراب - وإن كان كاملاً وأباً - كأولاده، يجري عليه في أنه من تراب ما يجري على أجزائه وآحاده ^(٢)، وما يعاين من معاد أنساله، التي هي أجزاؤه من كماله، إلى الرفات الجامد، والتراب الهامد، يلحق به مثله، إذ هم جزؤه ونسله، وما لحق بالأجزاء، من الموت والبلاء، فلاحق لا محالة بالكمال، والكمال ^(٣) والأجزاء فجارية منه على مثال، إذ كانت أشباهاً متماثلة، وأمثلاً لا يُجهل تماثلها متعادلة! وأما يقين خلقه إيانا سبحانه من نطفة، وما جعل منا أزواجا مختلفة، في الخلقة غير مؤتلفة، فمعاًين فينا معلوم، لا تدفعه العيان ولا الحلوم. ألا ترى أن النطفة لو لم تكن لما كنت، ولو عدمت إذن لعدمت. وما كان إذا عدمت، فمنه غير شك خلقت وقومت. ألا ترى أن كون المرعى والأشجار، مما يترل الله لها من المياه والأمطار، فإذا عدم الماء والمطر، هلك المرعى والشجر، أولا ترى أن كل ثمرة فمن شجرتها، فإذا عدمت الشجرات عدمت ثمراتها.

وما عجب الله به سبحانه من صنعه في تكثيره منه للقليل المفرد، ونشره تبارك وتعالى للكثير من واحد العدد، فأعجب عجاب، عجب له من خلقه أولو الألباب، بينا نحن تراب ميت إذ أحيانا، ونطفة واحدة إذ كثرتنا فأثرتنا، فجعل سبحانه منا بنطفة تمى، ذكرنا يعاين وأنثى، حكمة منه سبحانه لا عبثا، كما قال تبارك وتعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ ﴿١﴾ أَلَمْ يَكْ نُطْفَعٌ مِّنْ مَّنِيِّ يُمْنَى ﴿٢﴾ ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً

(١) في (أ): بعد.

(٢) في (ج) و (هـ): وأوحاده

(٣) سقط من (ب) و (ج): الكمال.

فَخَلَقَ فَسَوَّى ﴿٣٦﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿٣٧﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴿٣٨﴾ ﴿[القيامة: ٣٦-٤٠].

فصرقنا بعد خلق خلقا، ترابا ثم نطفة ثم تارة علقا، تصارييف لا يدعي على الله فيها مدح دعوى، فيعلن بدعواه فيها ولا يسر^(١) بها نجوى، تبريا إلى الله الخالق منها، وتضأولا في جميع الأشياء عنها.

وكل هذه التصارييف فلا بد لها من مصرف، وما عُدّد من شتيت الأصناف فلا بد لها من مصنف، لا تدفع الألباب وجوده، ولا يكذب إلا كاذب شهوده.

وما ذكر سبحانه من حمل كل أنثى ووضعها بعلمه، فما لا ينكره أحد وهبه الله حكمة من حكمه، وما لا يأباه منقوص بعد التقرير إلا بمكابرة منه لعقله، مع الاقرار منه لنا صاغرا راعما بمثله، وإذا كان بمثله مقرا، كان بإنكاره له مكابرا، بل يعطى فيأبى^(٢)، إلا مجانة وألعا، إنما هو أصغر صغرا، وأيسر أضعافا قدرا، من حمل الأنثى ووضعها، وتأليف أعضاء الولدان وجمعها، وما فيها من حسن التصوير، وداخل معها في^(٣) لطيف التدبير، لا يقوم معتدلا، ولا يبقى متصلا، طرّف^(٤) عين، بأيقن يقين، إلا بعلم من عليم، وتدبير متقن من حكيم، لا تلم به سنة ولا نوم، ولا تنازعه الأشغال ولا الهموم.

وكذلك تعمير المعمّر، وما ينقص له من عمر، فلا يكون أبدا إلا في كتاب، إذ كانت الأيام والليالي بحساب، ولا يكون نقص العمر وزيادته، إلا لمن به قوامه ومآدته، ممن^(٥) يدبر الأيام والليالي، ولن يوجد ذلك إلا عن الله الكبير المتعالي، ولا^(٦) يكون كتاب ذلك الذي — هو علمه — على من وسّع الأشياء كلها تدبيرا، إلا خفيفا — لا

(١) في (أ): يسر.

(٢) في جميع المخطوطات: فلا يأبى. والكلام غير مستقيم وأشار في (أ) إلى نسخة بأن (فلا) محذوف، ولعل ما أثبت هو الصواب والله أعلم.

(٣) في (أ) و (هـ): من.

(٤) في (ب) و (ج) و (د): طرفة.

(٥) في (أ): فمن.

(٦) في (أ): ولن.

يؤوده حفظه — عليه تبارك وتعالى كما قال: يسيرا، ثُمَّ أخبر سبحانه صدقا، وَبُأً في كتابه حقا، بقدرته على أن يخلق من الأشتات المختلفة، واحدا غير مختلف في الصفة، لأنه من قدر على خلق الأشتات من المؤلف الذي لا يختلف، قَدَر على خلق الواحد المشتبه من الأشتات التي لا تأتلف، كخلقه سبحانه لأحدان^(١)، ما خلق من الدر واللحمان، من مختلف البحار وأشتاتها، بأبين اختلاف من أجاجها وفراها. فجعل سبحانه منها، مع خلافه بينها، لحما واحدا مشتبها طريا، ولباسا واحدا من الدر حسنا بهيا، وحمل سبحانه على ظهورها، مع خلافه بينها في أمورها، الفلك المشحون السائر، وردّها بعد التفريغ فيه مواخر^(٢)، لِيُعْلَمَ — من عجيب تدبير أمرها، واختلاف^(٣) الحال في مسيرها، إذ تسير شاحنة مالية، كما تسير ماخرة خالية، وإذ تسير بحاليها جميعا في أجاج البحار، كما تسير بهما في فرات الأنهار — أن لها لمسيرا لا تختلف في قوته الأشياء، ومدبرا قويا لا تساويه الأقوياء، وأن تسييرها مقبلة ومدبرة، وشاحنة في البحرين وماخرة، إلى من يدبر ما سارت به من مختلف الرياح المسيرات، ومن يملك ما جرت فيه من الماء الأجاج والفرات، ومن له مُلْكُ ما لولا هو لم تكن الرياح الجاريات، ولم يوجد الملح^(٤) من المياه ولا الفرات.

ومن إبداعه سبحانه الليل في النهار، وما قدر بهما من المواقيت والأقذار، وتسخيره سبحانه للشمس والقمر، اللذين بهما دَبَّرَ مسيرَ الفلك في البحار كل مدبر، كان لتدبيره — في المسير بهما في بحر — حكمة، أو فيهما^(٥) لفلك بعد الله من نجاة عصمة، لما جعل سبحانه فيهما من الضياء، وبَصَّرَ بهما في المسير من القصد للأشياء، وبَصَّرَ تبارك وتعالى بغيرهما، إذ فَقَدَ^(٦) في ظلم الليل ما جعل من البصر بتسخيرهما، من

(١) في (د): الاحداث، مصحفه. و الأحدان: جمع أحد، واللحمان: جمع لحم.

(٢) جاريات.

(٣) في (أ): عجيب تدبيرها، وباختلاف.

(٤) في (د): المالح.

(٥) في (أ) و (ج) و (د): فيه.

(٦) في (أ) إذا أفقد. وفي (د): إذ أفقد.

النجوم السَّيَّرَ التي جعلها الله هدى للسَّارِينَ^(١) في الظلمات، سَرَوْا في البحار أو كان سَراهم في الفلوات. كما قال الله سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٧].

وتسخير ما ذكر الله سبحانه من الشمس والقمر، وتسخيـره لغيرهما من النجوم السَّيَّرَ، فظاهرٌ بحمد الله غير متوارٍ ولا خفي، يبصره عيانا كل ذي عقل حيي، لما فيها من آيات التسخير، وبيِّن ما^(٢) معها من دليل التدبير، بتفاوت نورها، وغيره من أمورها، في السرعة والابطاء، والظهور والخفاء، والرجوع والتَّحِيرُ، والدَّأْبُ^(٣) في التَّدْوَرُ، فهي راجعة في المسير ومتَّحِيرة، ومقبلة بالدَّوْبِ^(٤) ومدبرة، فهذه حال المسخَّر غير مرية ولا شك، جرى بها فلـكها أو كانت جارية بأنفسها في الفلك. والتفاوت بينها^(٥) في الضياء، فكغيره من التفاوت بين الأشياء، ولا يقع حكم التفاوت، أبدا بين متفاوت، إلا كان له وفيه، من فاوت^(٦) بينه في حاله، وكان مملوكا اضطرابا غير مالك، وكان ملكه لمن أسلكه من التفاوت في تلك المسالك. وكذلك حال^(٧) تفاوت هذه النجوم، يجري من الله فيه^(٨) بحكم محكوم، والله سبحانه من^(٩) ملك كل نجم وفلك ماله من ملك كل مملوك، والحمد لله إله الآلهة وملك الملوك، ومدبر كل نجم وغيره، بما لا يخفى من أثر تدبيره، في الهيئة والتصوير، والمقام والتَّحِيرُ والتيسير، ذلك قوله سبحانه فيما وصفنا من قدرته على خلق الواحد المشتبه من شتيت الأصناف،

(١) في (أ): للسَّارِينَ.

(٢) في (أ) و (د) و (هـ): وبين معها.

(٣) التَّحِيرُ: من الحَوَر. أي: الرجوع. عطف تفسيري. وفي (ب) و (ج) و (د): الدَّوْبِ.

(٤) في (أ): للدَّوْبِ.

(٥) في (ج): وتفاوت ما بينها في الضياء، فكغيره من تفاوت ما بين الأشياء.

(٦) في (ج): يفاوت.

(٧) في (ج): حكم.

(٨) في (ج): فيها.

(٩) في (ج): في.

وخلقه للكثير المختلف من الواحد الذي ليس بذي اختلاف، وما وَلَّى الله سبحانه من تدبير النجوم وتسخيرها، وإجراء الفلك في مختلف البحار وتسييرها، وإيلاجه سبحانه الليل في النهار، وتقديره لذلك كله بأحسن الأقدار، ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أجاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حُلِيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَآخِرَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣١﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فاطر: ١٢-١٣]. فصدق الله تبارك وتعالى، ذو الملك والقدرة والأمثال العُلا، إنه هو الله ربنا، ومَنَّا منه كان خلقنا وتركينا، له الملك ومنه عجيب التدبير، ومن دُعي معه أو دونه فما يملك من قطمير، والقطمير: فأصغر ما يملكه متفرد به مالك، أو يشرك مليكاً في ملكه مشارك.

فكل ما ذكر الله من هذه الأمور، فَنِيرٌ ^(١) بَيْنٌ غير مستور، يشاهده ويحضره، ويعاينه ويبصره، مَنْ آمَن بالله شكراً، أو صد عن الله كفراً.

أو لا تسمع قوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرَضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنبياء: ٣٠-٣٣]. ففتق السماوات والأرض فيهن ظاهر لا يتوارى، يراه ويعاينه كل ذي عين ترى، وما يُعَايَنُ فيهن ويرى فتقاً، فشاهد على أنهن كنَّ قبله رتقاً، إذ لا يكون فتق إلا لمرتق، كما لا يكون رتق إلا لمفتق، ولا فتح إلا لمنغلق. ولا بد يقينا لكل مفتوق من فاتقه، كما لا بد لكل مفتوح من فاتح أغلاقه ^(٢)، وما جعل الله من الماء من

(١) في (د) و (هـ) فين بين. وفي (ج): فمئير بأثر التدبير من الله غير مستور.

(٢) في (أ): علاقه.

الحيوان، فموجود ما ذكر الله منه بالعيان؛ لأن كل شجرة حية قائمة^(١)، أو دابة ناطقة أو بهيمة، فمن الماء جَعَلْتُهَا، وبه قامت جبلتها.

ألا ترى أن الشجرة إذا فقدت من الماء غذاءها، وفارق الماء قلبها ولحائها^(٢)، يبست فماتت، وانحطمت فتهافتت، فذلك^(٣) الدليل على أن من الماء جُعِلَتْ، إذ كانت إذا عدم الماء عدمت.

أولا ترى أن لولا مياه الذكران والإناث التي هي النطف، إذا^(٤) لما وجد من البشر والبهائم طارف يطرف، فذلك الدليل على أنهم من الماء جعلوا، إذ كان الماء إذا عدم عدموا، وذلك قوله سبحانه: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ ﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ ﴿[الطارق: ٥-٧]﴾ وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ [الفرقان: ٥٤].

[حكمة خلق الجبال]

وما جعل الله سبحانه في الأرض من رواسي الجبال، وغيرها مما ثقلها به من الأثقال، كيلا تميد بمن عليها من الانسان، وغيره من أنواع الحيوان، الذي لا بقاء له^(٥) ولا قوام مع الميدان، فموجود بأيقن الايقان، إذ توجد بالعيان الأفلاك تمر من تحت الأرض دائرة، وتخفى بممرها تحتها وتظهر عليها سائرة، ولا يمكن أن يكون مسيرها، تحتها ومقبلها ومدبرها، إلا في خلاء أو عراء، أو هواء أو ماء، وأي ذلك ما كان مسيرها مقبلها ومدبرها^(٦) فيه، احتاج من على الأرض من ساكنها إلى ما جعلهم

(١) كل المخطوطات قدمت كلمة (قائمة) على (حية) وتأخيرها اجتهاد مني.

(٢) لحائها: قشرها.

(٣) في (ج): وذلك.

(٤) في (أ) و (د) و (هـ): بحذف إذا.

(٥) في (أ): التي لا بقاء لها.

(٦) سقط من (أ) و (ج) و (هـ): مقبلها ومدبرها. وفي (ب) و (ج): قدم كلمة (فيه) على قوله

محتاجين إليه، من تثقيل قرارهم بما ثقله الله من رواسي الجبال، وغيرها مما ثقلها به سبحانه مما عليها من الأثقال، لكيما تكون كما قال الله: قراراً، ولما جعله الله خلاها أثماراً، ولو لم تكن سكناً قاراً، لما احتملت من أثمارها ثمرات، ولو مادت لاضطربت غير مستقرة ولا هادية، ولو لم تستقر وتهدأ لكانت أثمارها متفجرة غير جارية، لا ينفع ما جعل الله حاجزاً وبرزخاً، وحبساً ثابتاً مرسخاً، بين ^(١) منسج عذب مياهها وملحه، ومفسد أمورها ومصلحه، فاختلط فرائها بأجاجها، وبطل ما جعل فيها من سبل منهاجها، حتى لا يكون لفلک افیه سبيل مسير، ولا لطامي جم مياهها صوت خرير، ولو كان ذلك، فيها كذلك، لكان فيها من فساد التدبير، وجفاء الفعل في حسن التقدير، ما لا يجهل ولا يخفى، لكنه تبارك وتعالى ألطف في التدبير لطفاً، وأعلم بالأمور كلها علماً، من أن يدبر إلا محكماً. ألم تسمع لقوله سبحانه: ﴿أَمِنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خَلَالَهَا أَنْهَرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيًا وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بِلَا أَكْثَرُ لَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٦١].

فإن قال قائل: فما جعل من الأثقال عليها والجبال لا يزيدها إلا ثقلًا، وكل ما ازداد ثقلًا هوى وذهب سفلاً، فنحن إذن نهوى سافلين، وقد نرانا بالعيان عالىين، فهذا من القول تناقض واختلاف، لا يصح لذي لب به إقرار ولا اعتراف!؟

قلنا: قد قيل فيما تحت الأرض وما يحملها، ويمسكها بحيث هي ويقلها، أقوال كثيرة غير واحدة، قالتها فرق ملحدة وغير ملحدة.

فمنهم من قال تحت الأرض خلاء، ومنهم من قال تحتها هواء، ومنهم من قال تحتها لج ماء، ومنهم من قال ليس تحتها شيء من الأشياء، وهي غاية الثقل ومنتهاه، وكل ثقل فإليها انتهاه، فليس لجرم من الأجرام ثقلها، ولا شيء من الأشياء في الثقل مثلها، فهي أثقل الأثقلين، وأسفل الأسفلين، وما كان وهو أخف منها، فغير شك أنه مرتفع عنها، أو قارٌّ عليها، أو داخل فيها، وقرارها بحيث هي زعموا قرار طبيعي، ومنهم من قال إن قرارها بحيث هي قرار موضعي، وإنما ثبتت بحيث هي من

مقبلها ومديرها، والأوفق لنسق الكلام ما أثبت.

(١) في (أ): من.

موضعها، واستقرت ثابتة في موقعها، لأنها زعموا معتدلة في الوسط، غير مائلة إلى جهة من الجهات بفرط، مستوية كاستواء كفة الميزان، ممتعة لاستوائها عن الميلان، يمينا أو شمالا، أو علوا أو سفالا^(١)، وقال حشو هذه الأمة المختلف، الذي لا يفقه ولا يتصرف^(٢)، قرار الأرض زعموا على ظهر حوت^(٣)، ونعتوا حوتها في ذلك بألوان من النعوت، وأشبه هذه الأقوال عندنا بالحق، وأقرب ما قيل به فيها من الصدق، أن يكون ما تحت الأرض خلاء منفهقا، وهواء من الأهوية منخفقا^(٤)، ليس فيهما لسالكهما رد يرده، ولا للمقبل والمدبر فيهما صد يصده، لقول الله سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣].

وليس أحد من هذه^(٥) الفرق كلها التي وصفنا، وإن قالوا من مختلف الأقوال بما ألفنا، إلا مقر لا ينكر، ومعترف لا يكابر، أن الشمس والقمر يسلكان بأنفسهما، أو يسلك فلكهما بهما، فيما يرى من دورهما، ويعاين في كل حين من مرورهما، من تحت الأرض لا من فوقها، يعرف ذلك بغروب الشمس في كل يوم وشروقها، لا يسلكان

(١) في (أ) و (ب): سفلا. وفي (د): أسفلا.

(٢) في (أ): يصرف. وفي هامش (د): يتعرف. ولعله الصواب.

(٣) أخرج عبد الرزاق، والفرناي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة، والحاكم وصححه، والبيهقي في الأسماء والصفات، والخطيب في تاريخه، والضياء في المختارة، عن ابن عباس، قال: إن أول شيء خلق الله القلم، فقال له: اكتب، فقال: يا رب وما أكتب؟ قال: اكتب القدر، فجرى من ذلك اليوم ما هو كائن إلى أن تقوم الساعة، ثم طوي الكتاب وارتفع القلم، وكان عرشه على الماء، فارتفع بخار الماء ففتقت منه السماوات ثم خلق النور فبسطت الأرض عليه، والأرض على ظهر النون، فاضطرب النون، فمادت الأرض فأثبتت بالجبال، فإن الجبال لتفخر على الأرض إلى يوم القيامة، ثم قرأ ابن عباس: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾. الدر المنثور ٢٤٠/٨.

وقد ذكره المسعودي في مروج الذهب ٢٨/١، واستنكره محققه الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد. ولاشك أن هذه من الخرافات والدسائس الإسرائيلية التي غزت كتب الحديث والتفسير عند المحدثين.

(٤) أي: متحركا. وفي (أ): متخفقا. وفي (ب) و (ج) و (هـ): متحققا.

(٥) سقط من (ب) و(ج): هذه.

يميناً ولا يساراً، ولا يختلف مسلكهما تحتها ليلاً ولا نهاراً، والشمس والقمر فجسمان، مدركة جسميتهما بالعيان، يذرعان ذرع الأجسام، وينقيهما بأبين الانقسام، لهما أوساط وأطراف، وفيهما كلٌّ وأنصاف، والأرض فذات جنس مصمت معلوم، لا يمكن أن يسلكه جسم مثله من النجوم، ولا يمكن أن يسلك جسم^(١) إلا في هواء أو خلأ، أو فتق إن سلك في أرض أو ماء، أو في جو من الأجواء، وإن كان مسلكه من الأرض أو الماء، إنما يكون في فتق ففي الخلاء يسلك أو الهواء، وإن هو احتجب عن العيون فلم يُر. وإن كان مسلكه في فتق^(٢) من أرض أو ماء، لا فيما قلنا به من هواء أو خلأ، انتقض ما أجمعوا عياناً عليه، واجتمعت أقوالهم جميعاً فيه، من أن مسلك النجوم، من وراء قاصية التخوم.

وما جعل الله في الجبال الرواسي، وغيرها من القنان^(٣) الشُّمَخ الطوال العوالي، من فجاج السبل، ومن الطرق الدُّل، فما لا يَمْتري — في وجود صنعه وتقديره، بما يرى فيه من إحكام الصنع وتدييره — منصف أنصف في نظر لنفسه، قاضٍ على الأمور كلها^(٤) بحقيقة درك حسّه، لأنه قد أدرك بحسّه دركاً بتاً^(٥)، وأيقن بقلبه إيقاناً^(٦) مُثَبِّتاً، أن أصغر ما يُرى من هذه الفجاج سبيلاً، لم يتهياً لسالكه سلوكه ولم يمكنه حتى دُلّ تذليلاً، وأن هذه الفجاج التي جُعِلت سبيلاً، وهُيئت مع صعوبتها طرقاً ذللاً، لم تتأت وتواطأ، سبلاً وضُراطاً^(٧)، في حزون^(٨) الجبال الشوامخ، وبطون البیدان^(٩)

(١) في (ب): ولا يمكن الجسم أن يسلك. وفي (ج): ولا يمكن جسماً.

(٢) في (ب) و (ج): من الأرض وماء. وفي (د): وإن كان مسلكه بين الأرض والماء.

(٣) القنان: جمع قنة، والقنة قمة الجبل.

(٤) في (ب) و (ج) و (د): الأمور فيها.

(٥) في (أ): باتاً.

(٦) في (ب) و (ج) و (هـ): يقينا.

(٧) الصراط: جمع صراط.

(٨) والحزون: جمع حزن ما غلظ من الأرض.

(٩) البیدان: جمع بيداء. الصحراء.

الرواسخ، إلا بقوة أيدٍ من قوي شديد، وتدبير رشيد^(١) من عزيز حميد، لا يؤوده حفظ شيء ولا صنعته، ولا يمتنع منه قوي وإن عز تمنعه^(٢)، ذلك الله العزيز الأقوى، ومن لا يماثل في شيء ولا يساوى، فيصعب عليه ما يصعب على الأمثال، من صنع فجاج رواسي الجبال، وما جعل فيها من السبل المسهلة، وما من به في ذلك من النعم المفضلة، التي لا يمن بمثلها مأن^(٣)، ولا يحتملها سوى إحسان الله إحسان، ولا يدعي المنة فيها مع الله أحد، ولا يقوم بها سوى مجد الله مجد.

ومن ينكر إلا بمكابرة لنفسه، أو إكذاب لحقائق درك حسه، أن السماء جعلت كما قال الله سبحانه: ﴿سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢]. وقد يعاين سمكها عيان عين مرفوعا، وآياتها من نجومها دائبة غروبا وطلوعا، ونرى السماء كما قال الله سبحانه محفوظة في مكائنها ثابتة غير زائلة، ونرى الشمس والقمر وغيرهما من نجومها مقيمة على هيئة واحدة غير حائلة، ونعلم يقينا، ونوقن تبينا^(٤)، أنه مستنكر مدفوع، ومقبَّح في اللب مشنوع، أن يُتَوَهَّم حفظ مثل^(٥) ما ذكرنا، ودوام ما قد عاينا وأبصرنا، دائما ثابتا مقيما، ومن البلاء والزوال سليما، إلا بحافظ عزيز، وحرز من الحفيظ حريز، لا تحيط^(٦) به الملالات^(٧)، ولا تلتبس به الغفلات، ذلك الله العزيز الحكيم، المقتدر العليم، ومن يشك فيما قال الله من إعراض الناس عن آيات السماء، وهم بكل ما فيها من آياتها أجهل الجاهلاء، لا يعتبرون من عبرها^(٨) بظاهر مقيم، لا ولا بسائر دائب مدغم، لا يَنِي في مسيره ولا يفتر، يخفى في مسيره مرة ويظهر، مدبر لما^(٩) يحث حثا، لا يحتمل

(١) سقط من (ب) و (ج): وتدبير رشيد.

(٢) في (أ): بمنعة.

(٣) في (أ) و (هـ): منان.

(٤) في (أ): بتا.

(٥) سقط من (أ) و (هـ): مثل.

(٦) في (أ) و (د) و (هـ): تختلط.

(٧) الملالات: جمع ملالة، وهي السهم.

(٨) في (ب) و (ج): غيرها.

(٩) في (ب): بما. وسقط من: (أ) و (د) و (هـ).

غفلة ولا عبثا، في رجوع ولا مقام ولا مسير، ولا في شيء مما له من صنع ولا من تدبير.

ومن تنبيهه أيضا قوله تبارك وتعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠]. فخلق الإبل الذي هو صنعها ^(١) فيه موجود، ورفع السماء معها معان مشهود، ونصب الجبال أوتادا، وسطح الأرض مهادا، متيقن معلوم، ومعان مفهوم، وهذه كلها فقد ثبتت صنعا، وثبت كل صنع بدعا، بما بان فيها، وشهد عليها، من دلائل الصنع وتدبيره، ومعالم البدع وتأثيره.

فأين خالق الإبل وصانعها؟! وممسك السماء ورافعها؟! وناصب الجبال وموتدها؟! وساطح الأرض وممهدها؟! إذ لا بد اضطرابا لكل مصنوع من صانع، ولكل مرفوع من الأشياء كلها من رافع، ولكل منصوب موتد من ناصبه وموتده، ولا بد لكل مسطوح مُمهّد ^(٢) من ساطحه وممهده، ذلك الله رب العالمين، وصانع الصانعين، الذي جعل الأرض والإبل والجبال صنعا له مصنوعا، والسماء سقفا بحفظه له ثابتا محفوظا مرفوعا.

ومن توقيفه وتفهمه، وتنبيهه وتعليمه، قوله سبحانه: ﴿ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٤﴾ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَاهَا ﴿٢٥﴾ وَأَعْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٦﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٢٧﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٢٨﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَلَهَا ﴿٢٩﴾﴾ [النازعات: ٢٧-٣٣]. فلا بد في كل حس وعقل، لا عند مضرور بخبل ^(٣)، لكل بناء - غاب أو حضر - من بانيه، ولا بد لكل مرفوع ومسوّى من رافعه ومسوّيه، ولا بد لكل ليل مغطّش من مغطّشه، كما لا بد لكل عرش معروش من

(١) في (ب): صنعه.

(٢) في (ب) و (ج): وممهّد.

(٣) في (أ) و (ب) و (ج) و (د) و (هـ): فلا بد في حس ولا عقل ولا عند مضرور بخبل الا أنه شكّل في (د) على كلمة (لا) في قوله: ولا عقل. وفي نسخة أشار اليها المحقق بـ(ص) فلا بد في كل حس وعقل فحذفت الواو من قوله (ولا عند) ليستقيم المعنى.

معرشه، ولا بد لإخراج الضحى، من مُخرج وإن كان لا يرى، ولا بد لدحو الأرض من داحيها، لما تبيّن من شواهد الدحو عليها، ولا بد لمخرج المرعى والماء من مخرجه ومرعيه، ولا بد لما أرسى من الجبال من مرسيه، لما فيها بيّنًا من علم كل مُرسى، وإن كان هذا كله يدرك عقلا وحسا، فلا بد من صانع السماء وبانيها، ورافع سمكها ومسويها، ومغطش ليلها ومخرج ضحاها، ولا بد ممن خلق الأرض ودحاها، وأخرج منها ماءها ومرعاها، ومن نصب الجبال وأرساها، ثُمَّ لا بد إذ^(١) لم يُوجد ذلك شيئا مما وجد^(٢) بالحواس الخمس، ولا شيئا مما أدرك بالعقول^(٣) من كل نفس، أن يثبت بآئنت الثبوت، وأيقن اليقين البتّ، أن صانع ذلك كله، ومن تولى فيه إحكام فعله، خلاف سبحانه لكل محسوس، ولكل ما يعقل من النفوس.

[استدلال إبراهيم عليه السلام على الله]

ومن ذلك وفيه، ومن الدلائل عليه، قول إبراهيم عليه من الله أفضل الصلاة والسلام^(٤)، فيما دار بينه وبين قومه في الله من الجدال والخصام، قوله تعالى: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ ٢١ ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ ٢٢ ﴿قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ٢٣ ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ﴾ ٢٤ ﴿قَالَ بَلْ رُبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ ٢٥ ﴿[الأنبياء: ٥٢-٥٦]﴾. فشهد صلى الله عليه شهادة الحق لله رب العالمين، ونبههم بشواهد الله ودلائله، بما قد يروونه رأي عين من صنعه وجعائله.

أو لا يعلم من يعمى ويجهل؟! فضلا عما يبصر ويعقل، أن لو كانت - هذه

(١) في (ب): إذا.

(٢) في (أ) و (ج): وجدنا.

(٣) في (ب) و (ج): يدرك بالعقول.

(٤) في المخطوطات: والتسليم. ولعل ما أثبت أصوب لتوافقه مع كلمة (الخصام) بعده.

البدائع والأصول، وما تدركه منها عيانا العقول، على ما يقول به فيها الجاهلون أنها كانت وجاءت، كما أرادت وشاءت - لما فضل بعضها أبدا بعضا، ولما كانت الأرض سفلا وأرضا، ولما قصر أوضاع الأشياء وأدناها، عن درجة أرفع الأشياء وأعلاها، ولكانت الأشياء جميعا سواء، ولما كان بعضها من بعض أقوى، حتى يكون كلها شيئا واحدا، وحتى لا يوجد شيء لشيء منها ضدا. وقد يوجد باليقين من تضادها، ويتبين^(١) من صلاحها وفسادها، لكل حاسة من الحواس الخمس. ومن سلمت له حواسه من جميع الإنس، فقد يستدل بما يرى فيها من الاختلاف والنقص، على أن لها صانعا خصها بما أبان فيها من الاختلاف والخصائص، بريء تبارك وتعالى من شبهها في النقص والاختلاف، متعال عما يوجد فيها أو في واحد منها من الأوصاف. فدل سبحانه على صنعه للأشياء كلها، بما أبان فيها من تصرف^(٢) أحوالها وتنقلها.

واحتج إبراهيم صلى الله عليه^(٣)، عند محاجته لقومه فيه، ومنازعتهم فيما كانوا يعبدون من النجوم معه، وإنما هي صنع من الله صنعه، بأفول النجوم التي كانوا يعبدون والكواكب، ووقفهم على أن كلها صنع الله مغلوب غير غالب، بما أراهم صلى الله عليه من الأفول فيها والزوال، وبما أبان عليها من أثر التبديل^(٤) والانتقال، وتصرف ما لا ينكروته فيها من الأحوال، فلما أراهم أنها من الزائلين، قال لهم: ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦]. يقول صلى الله عليه عند أفول الكواكب: ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾. ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ [الأنعام: ٧٧]. وكذلك قال: ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ﴾. قال الله: ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُقَوْمُ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [٧٧] إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ

(١) في (أ): ويين.

(٢) في (ب) و (ج): تصريف.

(٣) في (أ) و (ب) و (ج) و (د): عليه السلام. وفي هامش (هـ): صلى الله عليه، وهو الأفوق لنسق الكلام.

(٤) في (ب) و (ج): التبديل.

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٨﴾ [الأنعام: ٧٨-٧٩].

والفاطر هو: المبتدئ الصانع، والحنيف هو: المحبب^(١) الخاشع، فاستدل صلوات الله عليه بدلائل الله من سماواته وأرضه، على أن الله صانع لذلك كله لا لبعضه، وتبرأ صلى الله عليه من شرك كل من أشرك، إذ رأى كل نجم منها إنما يسلك كما أسلك، بما رآه بينا في جميعها، من تدبير بديعها، في الحيئة والطلوع، والذلة الخشوع، وعلم أنه لا يكون ما رأى منها عيانا، وأدركه فيها إيقانا، من الطلعة والأفول، إلا من مصرف ناقل غير منقول، فقال صلى الله عليه: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. الذين أشركوا بين المالك والملوك، تجاهلا بما يعلمون، ومكابرة لما يرون، من التزاييل والفرق، بين الخالق والخلق، والمبتدع والبدائع، والصانع الصنائع.

وفي الدلالة على الله بدلائله، وبما جعله دليلا عليه من جعائله، ما يقول لهم صلى الله عليه، فيما كانوا من الشرك فيه: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مِمَّا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٩﴾ أَنْتُمْ وَعِبَادُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٨٠﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٨١﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٨٢﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٨٣﴾ وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٤﴾ وَالَّذِي يُمَيِّتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٦﴾﴾ [الشعراء: ٧٥-٨٦]. فلما رأى صلى الله عليه ما رأى من عالم ومعلوم، وكل ما أدركه وهم من الوهوم، ملكا مربوبا، وصنعا مغلوبا، قال صلى الله عليه: ﴿إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾. الذي هو رب السموات كلها والأرضين.

ثم ابتدأ احتجاجا عليهم الله في معرفته، بما لا يوجد سبيل إلى دفعه من صفته، وما بان الله به من خصائص الأنعات، التي لا توجد إلا فيما له من الصفات. قال صلى الله عليه: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٨٧﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٨٨﴾ وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٩﴾ وَالَّذِي يُمَيِّتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٩٠﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٩١﴾﴾. فهو الله الخالق الذي لا خالق سواه، والهادي الذي لا يشبه هدى هداه، والمطعم الساقى الذي لا يطعم ولا يشرب إلا من أطعمه وسقاه،

(١) المحبب: المطمئن المتواضع.

والشافي من كل سقم الذي لا يشفى من سقم أبداً إلا من كشف عنه سقمه فشفاه، والمميت المحيي الذي لا يموت أبداً ولا يحيا إلا من أماته وأحياه، والغافر الذي لا يظفر بالمغفرة إلا من وهبها إياه، لا تؤخذ المغفرة منه كرها ولا قسراً، ولا ينالها إلا من كان الله ^(١) له مغفراً.

ألا تسمع كيف يقول صلى الله عليه: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾. ويوم الدين ففيه يغفر الله لمن يشاء أن يغفر له من المذنبين، فاستدل صلوات الله عليه ودل بما عدد من هذا كله على رب العالمين، وليس مما دل به صلى الله عليه من دليل صغير ولا كبير، يدل أبداً مستدلاً إلا على الله العلي الكبير، فذكر إبراهيم عليه السلام منناً من الله لا يَمُنُّ بها مَن، وإحساناً من الله لا يُمَثِّلُ به إحسان، منها خلقه لأعضاء الانسان السليمة الظاهرة القوى، التي ليس فيها لمدح من الأولين والآخرين دعوى، والتي كلهم جميعاً في الحاجة إليها سواء، وكيف يصح في ذلك لمدح شيء لو ادعاه؟! وهو لا يقدر على أن يزيد ^(٢) مثقال ذرة في شيء من خلقه ولا قواه، فكيف يعطي معط شيئاً من ذلك أحداً سواه؟!

فهذا والحجة البالغة لله فما لا يمكن فيه الكيف، ولا يتوهمه بصحة من الدعوى قوي من الخلق ولا ضعيف، والحمد لله على ما أبان من برهانه وحجته ^(٣)، لإبراهيم صلى الله عليه في محاجته. وفي ذلك ما يقول سبحانه فيه، لإبراهيم صلى الله عليه: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣]. وما ذكر صلى الله عليه من فعله به في المطعم والمشرب، المشفي من المرض والوصب، والموت والحياة، والمغفرة للخطيئة والإساءة، فما لا يدعيه مدع ولا يُدْعَى له أبداً بصدق ولا كذب، ولا يوجد ما يرى من صنعه وتديره أبداً إلا للرب، كما لا يرى صنع الأرض والسموات، وما بينهما من الفئق والفجوات، من صانع ولا خالق سوى الله، فكذلك ما ذكر إبراهيم لا يكون إلا من

(١) سقط من (أ): الله.

(٢) في (ب) و (ج): يزاد.

(٣) سقط من (أ): برهانه.

الله، فلولا صنع الله سبحانه للسماء، لما ارتوى أهل الأرض من الماء، ولو لا ما صنع الله منها ومن الأرض والهواء، لما اغتذى أحد أبداً ولا ارتوى، وَلَحَفَتْ كل مغتذ مواتا، ولما لم يغتذ خفاتا، فاحتج إبراهيم صلى الله عليه في الدعاء إلى الله من صتعه وخلقه، ورزقه وغير رزقه، بما لم تنزل أنبياء الله عليهم السلام قبله وبعده، تحتج به الله على كل من أنكره وجحدته.

[استدلال نوح عليه السلام على الله]

فَمَنْ^(١) كان قبله ممن وهبه الله رسالته، ودل على معرفة الله دلالاته، نوح صلى الله عليه، إذ يقول لقومه فيما يدعوهم إليه، من عبادة الله ومعرفته، ويدلهم عليه بالخلق والصنع من صفته: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۖ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۚ﴾ (١) ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ۚ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ۚ﴾ (٢) ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۚ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۚ﴾ (٣) ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ۚ﴾ (٤) ﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ۚ﴾ (٥) [نوح: ١٣-٢٠]. فأبان لهم صلى الله عليه فيما عدد كله أثر صنع الله برهانا واحتجاجا، بخلقه لهم في أنفسهم أطوارا، يريد بالأطوار طبقات ومرارا، مرة من تراب وطين، وطورا من ماء مهين، ومرة مضغة وطورا علقة، يُصِرُّفُهُمْ سبحانه خلقة بعد خلقة، ثُمَّ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عِظَامًا، ثُمَّ كَسَا الْعِظَامَ لَحْمًا، ثُمَّ أَنْشَأَهَا خَلْقًا آخَرَ بَشَرًا، قَدْ جَعَلَ لَهُ سَمْعًا وَفُؤَادًا وَبَصَرًا، كَمَا قَالَ سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۚ﴾ (٦) ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۚ﴾ (٧) [الملك: ٢٣-٢٤]. ومعنى ذراكم: فهو كثركم وأنماكم، وكذلك فعل رب العالمين، كما قال: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۚ﴾ [المؤمنون: ١٤].

(١) في (أ) و (ب): فمن.

[استدلال يوسف عليه السلام على الله]

ومن دلائل من كان بعده من رسل الله وأنبيائه، الذين جعلهم من ذرية إبراهيم عليهم السلام وأبنائه. قول يوسف صلى الله عليه، لصاحبي السجن اللذين كانا معه فيه، وهو يدلّهما على ما تفرد الله به من الربوبية، وما هو له لا لغيره سبحانه من الوجدانية: ﴿يَلْصِقِي آلِ سَجْنٍ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٦﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمِيَتْ مُوَهَّاءٌ أَنْتُمْ وَعِبَادُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [يوسف: ٣٩-٤٠]. يقول صلى الله عليه أرباب^(١) الربوبية بينهم، ليست بخالصة لواحد منهم؟! خير في الربوبية أمراً، وأعلى في الفضيلة قدراً، أم^(٢) تكون الربوبية لواحد خاصة، ولرب لا لربين اثنين خالصة؟! فمن يمتنع من الأصحاء، سمع أو لم يسمع من النصحاء، أن الربوبية لرب واحد أفضل فضلاً، وفي رب واحد أكمل منها في اثنين وبين ربين وأعلى؟! لأنها لو كانت لاثنين كان كل واحد من الربين منقوصاً، وكل إله من الإلهين بالنقص مخصوصاً، فإن كانوا وهم أكثر عدداً، كان كل واحد منهم أنقص أبداً.

فكيف يكون المنقوص إلهاً أو يثبت رباً؟! وأين الأعلى من الأشياء كلها قدراً من له أصداد وأكفاء؟! وربنا فمعلوم في الألباب غير مجهول، وثابت لا يدفع في العقول، لأن^(٣) كل اثنين فبينهما تباين لا يخفى في الأحوال، يبين به أحدهما على صاحبه في الفضل والكمال، وأن أفضلهما أبداً أحوالاً، وأكملهما في الفضل كمالاً، أولاهما^(٤) بالأثرة والتقدمة، وأحقهما بالطاعة والتكرمة. وإذا كان ذلك، موجوداً في العقل كذلك، لم تصح الربوبية أبداً إلا لرب واحد، وثبتت الحجة في التوحيد وإثبات الإلهية لله على كل ملحد، وانقطع بين الموحد والملحد في ذلك كله التشاغب، وذهب - بصدق الحجة لله في ذلك كله - التكاذب، ونفي الحق من الباطل وتبرأ، فلم يعم

(١) في (ب): أرباب.

(٢) في (أ) و (د) و (هـ): أو.

(٣) في (ب) و (ج): أن.

(٤) في المخطوطات: وأولاهما. والصواب حذف الواو لأن (أولاهما) خير أن.

عنه إلا من لا يبصر ولا يرى، فلا ^(١) يجيب إلى الحقائق لله داعياً، ولا يسمع بالدعاء إلى الله منادياً، كما قال سبحانه: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨].

[استدلال موسى وهارون عليهما السلام على الله]

ومن مقال رسول الله بعد يوسف صلى الله عليه وعليهم، واحتجاجهم لله على عباده بدلائله فيهم، قول موسى وهارون، إذ أرسلهما الله إلى فرعون: ﴿أَنَا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦]. فقال فرعون: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣]. قال موسى: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٤]. يقول صلى الله عليه وآله إن كنتم ممن يوقن في غيب بيقين، أو يستدل فيما غاب عنه بدليل مبین، استدلال ذوي العقول والألباب، على ما غاب عن أبصارهم بتواز واحتجاب. وإنما يدرك ما غاب من الأمور بالفكر واليقين، ويدرك ما حضر منها بالحواس من العين أو غير العين، وذلك فإنما هو درك البهائم الخرس، التي لا تدرك شيئاً إلا بحاسة من الحواس الخمس، ولا توقن أبداً بغائب غاب عنها، ولا تدرك إلا ما كان شاهداً قريباً منها، فأما أهل الألباب والعقول، فيستدلون موقنين على الجاعل بالجمعول، وعلى الغائب المتواري الخفي، بالحاضر الظاهر الجلي.

وكل ما عظم من الدلائل وازداد عظماء، ازداد به موقفه يقيناً وعلماً، فلما كانت السماوات والأرضون، أعظم ما يرون من الدلائل ويصرون، دلهم بهما على ربهما، وأخبرهم أنهم إن لم يوقنوه بهما، لم يوقنوه بغيرهما، لما فيهما من دلائل اليقين بصنعه وتدبيره ^(٢)، فسـ ﴿قَالَ - فرعون - لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٥]. فسألوا موسى كما سأله الملعون، وارتابوا في قوله كما ارتاب فرعون، فقال موسى صلى الله عليه وآله لهم: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦]. فأخبرهم أن

(١) في (أ) و (هـ): ولا.

(٢) لعل هنا سقطاً.

كلهم وكل من كان قبلهم عبد الله مربوب، إذ كلهم وكل من كان مثلهم ^(١) مصرف مقهور مغلوب، يسقم ويفنى ويموت، ويحل به السقم والموت، فقال لهم فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧]. فقال لهم موسى صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٨]. فقررهم صلى الله عليه وآله وسلم على الله سبحانه بدليل مبين، فيه لمن أيقن أدل الدلائل وأيقن اليقين.

وكذلك قال الله سبحانه للقوم ^(٢) الذين لا يعلمون، إذ سألوا من رؤيته ما لا يمكن ولا يكون، إذ يقول سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ١١٨]. فأخبر سبحانه أن بيانه إنما هو للذين يعقلون، ويوقنون من الغيب بما لا يرون ولا يبصرون، فأما أشباه البهائم الذين لا يعلمون، إلا ما يرون ويبصرون، فإن الله سبحانه انتفى من البيان لهم، وتبرأ من ذلك إليهم ^(٣)، وذلك فمما يدل على علم الله وحكمته، ولطيف خبره بأحوال بريته.

ومن ذلك قوله سبحانه لكفرة قريش والعرب، ولمن كان معهم من كل ذي لسان معرب: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [إبراهيم: ٩-١٠]. الذي يستدل عليه منهما بكل شيء فيهما من كل أو بعض، فقالت رسلهم في ذلك لهم، ما قالت الرسل لأممهم قبلهم، واحتجوا الله عليهم، بمثل حجج نوح وإبراهيم

(١) في (أ): إن كلهم وكل ما كان قبلهم. وكان هذه هي التامة. وفي (أ) و (هـ): قبلهم.

(٢) في (أ): في القوم.

(٣) سقط من (أ) و (هـ): من ذلك إليهم.

فيهم، ودلوهم على الله بدلائله، من فطره ^(١) صنعه وفعاثله، وتعجبوا من شكهم!! وما هم فيه من شركهم!! مع ما يرون من الدلائل في السماء والأرض ويصرون، مما يوقن بأقله فيما غاب عنهم الموقنون.

[استدلال محمد صلى الله عليه وآله وسلم على الله]

ومن ذلك وفيه، ومن الدلائل عليه، قول الله سبحانه لرسوله، صلى الله عليه وعلى الطيبين من آله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ [إبراهيم: ١٩-٢٠]، فبِهِ سبحانه في ذلك من دلائله على ما فيه لمن اعتصم به من الشك فيه أحرز الحرز الحريز. ثُمَّ قَالَ سبحانه في هذه السورة، تكريرا بحججه ^(٢) المنيرة: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْيَلَّ وَاللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَذَلِيلٌ كَفَّارٌ ﴿٢١﴾ [إبراهيم: ٣٢-٣٤]. يقول سبحانه الذي خلق ذلك كله وصنعه، لا صانع فيه غيره ولا صانع له معه، فذلك كله وإن كبروا فما لن يدعوه، وإن لم يأثم فيه قصيص الله ولم يسمعه، كما قال تبارك وتعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ هَذَا خَلَقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٢﴾ [لقمان: ١٠-١١]. فصدق الله لا شريك له، في أن من لم يعرف هذا كله، صنعا له وخالقا، وحقا يقينا صدقا، فهو في أبين الضلال، وأخبل صاغر الخبال، والحمد لله كثيرا رب العالمين، على ما أبان من حججه على الملحدين.

(١) أي: خلقه.

(٢) في (أ): بالحجة. وفي (ب) و (ج): للحجة.

فكيف - يا ويله - يلحد ملحد؟! أو يهنُّ أو يضعف لله موحد؟! ودرك السماوات والأرض وما بينهما من الخلق بالعيان، والعلم بالله سبحانه فمدرك بأوضح من ذلك من العلم والايقان، واليقين بالله فما لا يشاركه ولا يختلط به أبداً شك، وعلم الأبصار والعيان والحواس فعلم بين الإنسان والبهايم مشترك، وقد تعلم البهايم وتدرك بما جعل الله لها من حواسها من السمع والبصر، كل ما يدرك مدرك بالحواس من جميع البشر.

وكيف - ويلهم - يرتابون أو يلحدون؟! أو يعتقدون من الشك في الله والشك بالله ما يعتقدون؟! والله يقول جل جلاله، عن أن يحويه قول أو يناله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِّنْ دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿يُدِيرُ الْأَمْرَ مَنِ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٤-٥]. والولي فهو النصير المانع، والشفيع فهو الطالب الشافع.

فأخبر سبحانه أن تدبيره وصنعه من العرش لما بعد عنهم، كتدبيره وصنعه لما قرب في الأرض منهم، وأن بعد ما بين العرش - وهو ذرى السماوات العلى - وبين ما تحتهن مما ترى أعينهم من الأرض الأولى، مقدار ألف سنة كاملة مما يعدون، وأن الأشياء كلها لا تبعد عنه كما يستبعدون، وكيف يبعد عليه ^(١) سبحانه من الأشياء شيء، وإنما ينشئ منها ما ينشئ، إذا أراد له إبداء أو إعادة ^(٢)، بأن يريده سبحانه إرادة بعد إرادة، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

وكيف يشك ملحد في صنع الله للأشياء كلها، أو في ما يرى من دق الأشياء أو جملها؟! وقد يرى كيف أحكمت فاستحكمت، وانقادت للصنعة فتقومت، وذلت على ما فطرت ^(٣)، واضطرت كما اضطرت، فكلها مصرف مضرور، وجميعها بدع

(١) في (أ): عنه.

(٢) في (ب) و (ج): وإعادة.

(٣) في (ب) و (ج): على ما فطرت عليه.

مفطور، لا يمتنع من القهر والذلة والخشوع، ولا عن ما أبان الله فيه من أثر صنعة كل مصنوع، لا ينظر منه ناظر إلى طرف، ولا يلتفت إلى كَنَفٍ^(١)، إلاَّ وجد أثر الصنع فيه واضحا بيّنا، ووجده بصنع الله له مخبرا مُبَيَّنًا.

ولما ثبت اضطراباً بما لا تدفعه العقول مما لا مزية فيه، وبما جميع العقول كلها مجمعة عليه، أن لكل ما يرى أو يسمع أو يشم، أو يذاق أو يلمس أو يتخيل فيتوهم، مدبراً لا يخفى تدبيره، ومؤثراً بيّناً - لكل ذي^(٢) عقل - تأثيره، ثبت وجود^(٣) خلاف المدبّر مدبراً غير مدبّر، ووجود^(٤) خلاف المؤثر مؤثراً غير مؤثر، لا يمكن غير ذلك علماً، ولا يتخيل خلاف لذلك فهما، لأنّه لما كان ما وجد من الأشياء كلها مدبراً وصنعاً، وخلقا مفطراً بدعا^(٥)، احتيج إلى علم مدبره ومفطره، وثبت يقيناً وجود المفتطر المدبّر بما وجد من تدبيره ومفطره، فلا بد كيفما كان النظر في ذلك فارتفع أو لم يرتفع، من أن يثبت مدبر صانع لم يُدبّر ولم يُصنّع، وذلك فما لا يوجد أبداً غير الله جل ثناؤه، وتقدست بكل بركة أسماؤه، فهو الله الصانع غير المصنوع، والأول المتبدع غير المبدوع.

ولما كان - كل عزيز من دُلٍّ، إنما يعز في بعض لا في كل، كان العز كلا وبعضاً، ولم يوجد العز كله لواحد محضاً - أيقنّا أن بعض العز مملوك للمليك، وأيقنّا أن كل العز للمالك غير ذي شريك، لأنه لو كان له فيه شريك، أو له معه مليك، لكان إنما له، بعضه لا كله، فرجعنا إلى الخطة الأولى، وعاد العز ذلاً، إذ كان مشاركاً فيه، لأنه إنما له أحد شطريه، وذلك يردّه إلى أن يكون عزيزاً ذليلاً، وأن يكون ما يُستكثر^(٦) من عزه قليلاً، لأن نصف العز أقل من ضعفه، وضعف العز أكثر من نصفه، وما ملك غيره من أحد شطري العز، فليس له بملك ولا عز معز، ولكنه لما لكه دونه، ليس له شيء

(١) أي: جانب.

(٢) سقط من (أ): ذي.

(٣) في (أ): وجوده.

(٤) في (أ): ووجد.

(٥) سقط من (أ): بدعا.

(٦) في (أ) و (هـ): يستكثره.

منه، فكلاهما دليل وإن عز، وغير محرز من العز إلا لما أحرز، وجميعهما قليل عزّه، إذ لم يملك العز كله فيحرزه، فليس العزيز الذي لا يذل، إلا من له العز الذي لا يقل، بأن تشاركه فيه الشركاء، أو أن تنقسمه بملكها له الملكاء، وذلك فهو الله العزيز الأعلى، يهب لمن يشاء عزاً ويذل من يشاء إذلالاً، ﴿بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١]، كما قال سبحانه: ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨]. مع ما في القرآن من هذا ومثله، مما يكثر عن أن يحيط كتابنا هذا بتفسيره أو جملته.

[تنزه الله عن شبه الخلق]

فأما دلائله لنا سبحانه على أنه خلاف للأشياء، ولكل ما يعقل في جميعها من العجزة والأقوياء، فقوله سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. وما ليس كمثله شيء، فهو خلاف لكل شيء، وقوله سبحانه في سورة التوحيد والإفراد، بعد تترهه فيها سبحانه عن الوالد والأولاد: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤]. ومن لم يكن له كفواً أحد، فهو خلاف لكل أحد، وما كان خلافاً للآحاد كلها، كان خلافاً اضطراراً لأصلها، لان الأصل في نفسه وتحداده، فهو غير شك جميع آحاده، فالله سبحانه هو خلاف الآحاد المعدودة، وجميع ما يعقل من الأصول الموجودة^(١)، وهو الله الصمد الحق الذي ليس من ورائه مصمد^(٢) يصمد إليه صامد، والله الملك القدوس الذي ليس من ورائه ملك ولا قدوس يجده واجد، والله الأول قبل الأوائل المتقدمة^(٣)، والعظيم قبل جميع الأشياء المعظمة، فليس قبله أول موجود، ولا بعده معظم معمود، ومن وراء كل عظيم عظيم، حتى ينتهي إلى الله الذي ليس من ورائه عظيم، وفوق كل ذي علم عليم، حتى ينتهي إلى الله الذي

(١) في (ب) و (ج): المحدودة.

(٢) في (ب) و (ج): صمد.

(٣) في (ب) و (ج): المقدمة.

ليس فوقه عليم، والصمد فهو النهاية القصوى في الوجود، وفيما يُرغَب إليه ^(١) فيه في الآخرة والدنيا من كل محمود، والأحد فما ليس له قبل ولا بعدٌ يفترقان فيه، وما لا تجري مدد الدهور والأزمان عليه، لأنه إن افترق فيه القبل والبعد، زال من صفة الأحد والصمد، إذ هما فيه اضطرارا مفترقان، فهما عليه بالمقارنة لاشك متداولان، لا خلوة له من أحدهما، يجري عليه من المقارنة ما يجري عليهما من أحدهما، ويزول عنه من الوحدة ما زال عنهما، ولا يُتَوَهَّم أبداً خاليا منهما.

وكذلك ما جرت عليه مُدَد الأزمان والدهور، غيَّرتَه ^(٢) تغييرها لغيره من الأمور، كما قال الله سبحانه: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]. فأولَّيته سبحانه آخريته، وباطنيته ظاهريته، لا يختلف من ذلك ما وُصِفَ به، كما لا يختلف سبحانه في نفسه.

وكذلك أسماءُه كلها الحسنى، وأمثاله كلها العلى، فأسماءُ ^(٣) لا تنهاى مرسله مطلقة ^(٤)، مجتمعة كلها فيه سبحانه لا مفترقة، ليس لاسم منها حد محذور، ولا لمثل منها حصار محصور، فيكون الحد حينئذ للمحدود ثانياً، وما حُضِرَ ^(٥) بالحد من المحدود متناهاً، ولكنه كما قال سبحانه: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، ولا لن يوجد له سمي إذ لا تجد الألباب له كفياً، كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [الروم: ٢٧]، وكذلك هو سبحانه إذ لا تجد له الألباب مثلاً، وما قلنا به في هذا من دلالة التفاضل، فموجود والحمد لله لا ينكره عقل عاقل، ومضطرة الألباب إلى علمه لا يدفعه إلا متجاهل، مع ما لا نأتي عليه وإن بلغ ^(٦)

(١) في (أ) و (ب): وفيما يُرغَب الله فيه.

(٢) في (ب) و (ج): وغيرته.

(٣) في (د) و (هـ): فاسمائه أسماء. وفي (أ): فاسمائه لاتنهاى.

(٤) يؤخذ للإمام من هذا أنه يرى جواز إطلاق أسماء على الله، وإن لم يرد بها أذن من الشرع ما دامت تفيد مدحا وتعظيماً.

(٥) في (أ): وما حُضِرَ.

(٦) في (أ) و (ب) و (ج) و (د) و (هـ): ما لا يأتي عليه وإن بولغ.

تعديدنا، ولا نستقصيه ^(١) وإن جهد تحديدنا، من لطيف شواهد معرفة الله سبحانه وجلالها، وما جعل الله من شواهد المعرفة به ^(٢) ودلائلها.

وكفى بما ذكرنا لمعرفة الله عز وجل علما منيقا شامحا، وعلما بالله يقينا في النفوس ثابتا راسخا، لا يدفعه إلا بمكابرة للعقول ملحد، ولا يصدف ^(٣) عن الاقرار به إلا معاند مَلَدٌ ^(٤)، والحمد لله الذي لا يهتدي للخير أبداً إلا من هداه، ولا يصيب الرشد إلا من آتاه إياه، كما قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥١]. وقال: ﴿ وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٥].

[الايمان قول وعمل واعتقاد]

فقلب الايمان من كل عصيان اليقين بالله وبعلمه ^(٥)، وإبراء الضمائر من تَوَهُّمه، فإنه لا تجول أوهام المتوهم، إلا في كل ذي صورة وتَحَسُّم، ومن توهم الله جسما، فلم يصب بالله علما، ولم يقارب من اليقين بالله شيئا، ولذلك كان حشو ^(٦) هذه العامة من اليقين بالله بُراء، ولما التبس بقلوبهم وأنفسهم من ذلك واعتقاده، اقتادهم وليُّهم إبليس بالعصية في قياده، فحثوا له بالعصيان لله سراعاً عَنَقاً ^(٧)، وآثروا رضاه على رضى الله إذ لم يؤمنوا ^(٨) به فسَقاً، فبدلوا معالم أموره، وعموا عن ضياء نوره، ثُمَّ لم

(١) في (أ) و (هـ): ولا يستقصيه.

(٢) سَيَقُط من (ب) و (ج): به.

(٣) أي: يعرض ويميل.

(٤) المتماذي في الحاجة.

(٥) في (أ): وعلمه. وفي (د): وتعليمه.

(٦) الحشوية: طائفة جرية مشبهة، وسميت حشوية: لحشوهم الأحاديث التي لا أصل لها في الأحاديث

المروية عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم. الحور العين/٢٥٨.

(٧) نوع من السير السريع.

(٨) في (ب) و (ج): يوقنوا.

يزدادوا في العمى عن الله إلا تماديا، ولم يجيوا له إلى الهدى من الهادين إلى الله داعيا، وعدوا إساءتهم فيما بينهم وبين الله إحساناً، وكفرهم بالله ورسله وكتبه إيماناً، وجعلوا لله مثل السوء ولهم المثل الأعلى، فتبارك الله عما قالوا به عليه وتعالى، ونسبوا إلى الله سبحانه جور الحكم، وبرأوا أنفسهم من الجور والظلم، وهم بما نسبوا إليه سبحانه من الجور والظلم أولى، وله سبحانه لا لهم المثل الأعلى، ومثل السوء فلهم كما قال سبحانه: ﴿وَهُمْ كَاذِبُونَ﴾ ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ﴾ [النحل: ٦٢]. وقال سبحانه: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوِّ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠].

ولعمري ما آمن بالآخرة مصدقا، ولا وجد لما حقق الله منها محققا، من أكذب وعدها ووعدتها، وأنكر من جزاء المحسن والمسيء عتيدها ^(١)، والله يقول سبحانه: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدُوهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٤].

ويقول سبحانه: ﴿فَاعْرَضْ عَنِ مَن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمَّ يَرْدِ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّٰ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَن اهْتَدَىٰ﴾ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَىٰ﴾ [النجم: ٢٩-٣١].

ويقول سبحانه: ﴿لَيْسَ بِأَمَانَتِكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلَ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِّنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أَنشَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣-١٢٤].

ويقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ

(١) العتيد: المعد الحاضر.

كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ [النساء: ٢٩-٣٠].

ويقول سبحانه: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ ﴿٣١﴾ [الكهف: ٢٩]. وعدا من الله ووعدا، وجزاء من الله للفريقين عتيدا، لا تكون الآخرة أبداً إلا وهو معها، ومن أنكره ودفعه أنكر الآخرة اضطرابا ودفعها، وله جعلت الآخرة وثبتت، وثبت باقيا معها أبداً ما بقيت، ولو أمكن فناؤه لأمكن فناؤها، وما بقيت الآخرة بقي معها جزاؤها، فبقاء كل بكل معقود، وكل من الله فوعداً موعود، لا يدخله أبداً كذب ولا خلف، ولا يزول من أوصاف الله فيه بصدق الوعد وصف.

ولا أكفر بالآخرة وأمرها، وما ذكر الله من بعث الأمم وحشرها، ممن زعم أن الله يحكم يومئذ فيها بغير العدل، فيقضي ^(١) بين أهلها فيها بغير قضاء الفصل، فيعذب من عذب فيها، بأمور هو حمل المездب عليها، حتى لم يجد من ارتكابها بدا، ولا عما ارتكب منها مصداً، وإن عمل ^(٢) ما شاء الله فيها وارضى، وحكم الله به منها وقضى، عذب بألوان العذاب، وعوقب ^(٣) بأشد العقاب.

فوصفوا الله بإخلاف الميعاد، ونسبوا إليه ما تبرأ منه من ظلم العباد، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿[النساء: ٤٠]﴾. وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ﴿[يونس: ٤٤]﴾. وقال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ ﴿[ق: ١٦]﴾. وقال سبحانه فيما قالوا به عليه من إخلافه في الوعد والوعيد: ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ ﴿[النساء: ١٢٢]﴾. وقال سبحانه: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ

(١) في (أ) و (د) و (هـ): ويقضي.

(٢) في (ب): وأنه على. وفي (ج) و (د): وإن عملا. وفي (هـ): وإن علا.

(٣) في (ب) و (ج) و (د) و (هـ): عاقب.

الْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ [الزمر: ٢٠]. وقال تبارك وتعالى في حكمه يوم القيامة بين الخلق بعدله، وقضائه يومئذ بين العباد بعدل فصله: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ ﴿٢١﴾ وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَىٰ الْحَنَاجِرِ كَظِيمٍ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿٢٢﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿٢٣﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٤﴾ [غافر: ١٧-٢٠]. وقال سبحانه: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٢٦﴾﴾ [المرسلات: ٣٨-٣٩]. يقول تبارك وتعالى هذا ^(١) يوم القضاء بالعدل الذي كنتم به تكذبون: ﴿* أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٧﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٨﴾ وَقَفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴿٢٩﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْصَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الصافات: ٢٢-٢٥]. فلعدله سبحانه في الحكم، وتعالى عن كل ظلم، وَقُفُّوا فَعُرِّفُوا، وبعد المسألة ^(٢) صُرفوا، إلى ما استحقوا من الجحيم، واستوجبوا من العذاب الأليم.

فاستقبل حشو هذه ^(٣) العامة ما بين الله من هذا كله بمجده، وجاهاوا الله وأولياءه علانية برده، فكلما دعاهم المهتدون ليهدوا، استكبروا عن الهدى وصدوا، وكلما ذكروهم بالله ليذكروا، أعرضوا عن تذكيرهم بالله وفروا، فكلهم مُصِرٌّ مستكبر، مُولٌّ عن الهدى مُدْبِرٌ، كَانَهُمْ فِي ذَلِكَ بِفَعْلِهِمْ، وما أصرروا عليه من جهلهم، قوم نوح إذ يقول فيهم، صلى الله عليه لا عليهم: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٧﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٨﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَابَهُمْ بِتَرَفٍ يَعْزِفُونَ ﴿٩﴾ وَأَذَانَهُمْ فَأَتَنَّهُمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرَوْا وَاسْتَكْبَرُوا وَاسْتَكْبَارًا ﴿١٠﴾﴾ [نوح: ٥-٧]. فكلهم عدو للصادقين على الله ^(٤) مكذب، وفؤاد كل امرئ منهم

(١) سقط من (ب) و (ج): هذا.

(٢) في (أ) و (ج) و (د): المسألة ما صُرفوا.

(٣) سقط من (أ) و (د) و (هـ): هذه.

(٤) في (أ): عدو الصادقين. وفي (هـ): عدوا للصادقين. وسقط من (ب): على الله

عن الايمان بالحق منقلب، وذلك إذا لم يؤمنوا به أول مرة، وكانوا به إذ سمعوه عند الله من الكفرة، ألم تسمع إلى قوله سبحانه: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْعِدَّتَهُمْ وَأَبْصُرُهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ﴿١١٠﴾ * وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ ﴿١١١﴾ [الأنعام: ١١٠-١١١]. فقلوه سبحانه ﴿يَشَاءُ﴾ إنما هو خبر عن قدرته عليهم، وقوة سلطانه تبارك وتعالى فيهم، ولو أنه شاء لَمَنَعَهُم من المعصية فكانوا ^(١) به مؤمنين، إذ كان الايمان عندنا إنما هو أمان من عصيان العاصين، ومن منعه الله من المعصية جبراً فمأمون عصيانه، وإذن كان الاحسان في ذلك المنع إحسان الله لا إحسانه، وكان فيما منع منه من المعصية غير مطيع لله، ولا مستوجب لثواب من الله، إذ مُنِع من المعصية بجبر، وحمل على الايمان منه ^(٢) بقسر.

[أول الواجبات معرفة الله]

فابتدئ يا بني — في طلب فعل الصالحات، واكتساب الخيرات، إذا ابتدأت — بطلب اليقين بالله، وحقيقة العلم لله، فإنك إن تفعل اهتديت لكل بركة وخير، وظفرت بالخط الكبير، وأمنت بإذن الله من العمى، ورويت بمعرفة الله من الظلمات، وشاركت الملائكة المقربين في عبادتهم، وازددت مما يمكنك من فعل كل خير مثل زيادتهم ^(٣)، وَأَنْسَكَ يَقِينُكَ ^(٤) بالله من كل وحشة مرعبة، واكتفيت بصحبة الله من كل صاحب وصاحبة، وخف عليك من عبادة الله عبء الأثقال، فكنت إماماً للضالحين في صالح الأعمال، فدانت ^(٥) بالبر أعمالك، وصدّق قولك في الخير فعالك،

(١) في (أ): وكانوا.

(٢) في (أ) و (د) و (هـ): منها.

(٣) في (أ): كزيادتهم.

(٤) في (ب) و (ج): وأنست نفسك.

(٥) في (ب) و (ج): فدامت.

فكنت إلى الله حبيباً محبباً، وكان سمت ^(١) الصالحين لك سمياً، وَمَنْ وَالَى الله من أوليائه لك ولياً ^(٢)، وما رضىه من الأشياء عندك رضىاً ^(٣)، ورأيت السوء حيث كان سوءاً، واتخذت عدو الله عدواً، وكنت من خاصة الله وخلصانه، وأهل العلم بالله وإيقانه، وانفتحت لك بعد اليقين بالله أبواب العلوم، وكنت في الأرض قيماً من قَوْمَةِ الحي القيوم، فَقَرَّتْ بالله عينك، وَتَزَيَّدَ بالله يقينك، وانشرح بمعرفته صدرك، وسرَّ بأمره سبحانه أمرك، فلم تهب ولم تخش غيره، ولم ترج من الخير إلا خيره، وعلمت أنه سبب الخيرات الأول، وأن بيده الفضل الكبير الأطول، فأمنت بإذن الله مسكنة الفقراء، وامتألت يداك من الغنائم الكبرى، وكنت على ملوك الدنيا ملكاً، ونجوت بإذن الله من هلكة الهلكى.

ففي طلب اليقين بالله يا بني فادأب، ومن رجوت عنده على اليقين بالله عوناً فقارن ^(٤) واصحب، فإنهم ألفاء كل رحمة، وقرناء كل حكمة، لا يرغب لبيب إلا فيهم، ولا تترع نفس حكيم إلا إليهم، فمن لم يكن منهم فأعرض عنه واتركه، ومن كان منهم فاشدد به يدك ^(٥) وامسكه، فإنه بلغني أن حكيماً من الحكماء، قال لبعض من كان له علم كثير من القدماء: يا هذا لا تَرِنَنَّ أنك علمت شيئاً وإن علمت كل شيء، ما لم تكن عالماً بالله الأول الحي، الذي هو سبب كل خير كان أو يكون، والذي تعالى عن أن يلحق به حركة أو سكون. ثُمَّ قال: يا هذا إني كنت قبل أن أعرف الله أروى وأظماً بالطباع، ولما عرفت الله رويت بغير طباع.

نعم رَوِيَ فشفي بالهذى!! من حَرَّ الغُلَّة والصدى ^(٦)! ولما صار إلى اليقين بالله تبارك وتعالى، الذي هو سبب الخيرات الأول الأعلى، غَنِيَ بالله غنى الأبد، وصار إلى

(١) السمت: القصد والمذهب والسير على الطريق.

(٢) أي: وكان من وإلى الله... إلخ.

(٣) في (ب) و (ج): مرضياً.

(٤) في (ب) و (ج) و (د): فقارب.

(٥) في (أ): به يدك. وفي (ب) و (ج): يدك به.

(٦) الغلة: شدة العطش. والصدى: العطش.

الغنى الباقي المحلّد، وسكن اضطراب نفسه وقلقها، إذ عَلِمَتْ يَقِينَا أَنَّ اللَّهَ هُوَ رَبُّهَا وَخَالِقُهَا.

وبلغني أن حكيمًا آخر من حكماء الأولين، كان في أمة تعبد الأصنام من الأمم الخالين، كان يقول: من أيقن بالله إيقانًا نقيًا، لم يزل بالله في عاجل الدنيا ما بقي غنيا، وأيقن ليقينه بالله بكل حقيقة علم معلومة، وأدرك ليقينه بالله من العلوم كل ذات سر مكتومة، فاطلع بما ينور الله من قلبه على خفي سرها، وأمن أن تتعبده الدنيا برق مسكنتها وفقرها!.

وبلغني أيضاً عن بعض من تقدم وخلا، من الأمم السالفة الأولى، أنه كان يقول: لا يشك أحد ولا يمتري، ممن خلا ولا ممن بقي، في أن من جهل الصانع كان للعقوبة مستوجبا مستحقا، نعم ولم يؤمن عندي أن لا يكون ممن يعرف من الحقوق كلها حقا، إلا معرفة فاسدة مختلطة، مقصرة عن التحقيق أو مفرطة، لأن من جهل ما كثرت دلائله وشهوده، ووُجِدَ بمظاهِر الآيات فلم يُدفع وجوده، حريٌّ حقيق، وجدير خليق، أن يكون بكل شيء جاهلا، وأن لا يعتقد من علم شيء طائلا.

أما رأيت العامة لما ^(١) هي فيه من الجهل بالله الأعلى، إذ جهلت ما قلنا مما كثر الله على معرفته الأدلاء، كيف قَلَّتْ بحقائق الأمور علومها، وضَلَّتْ بعد جهلها بمعرفته حلومها ^(٢)، فقالت في دينها بكل قول متناقض مذموم، لا يصح لفحش تناقضه في الألباب ولا الحلوم، فهي فيه دائبة تُخَبِّطُ كل عشوى ^(٣)، وصادة عن سبيل كل تقوى، ترى معتقد باطلها فيه حقا، وزور قولها فيه على الله صدقا، وقبيحها فيه حسنا جميلا، وجهلها به علما جليلا.

فَمَنْ جهل الله تبارك وتعالى، فلن يدرك بحقيقة من الأشياء إلا شُبْهًا أو خيالا، ولن

(١) سميت العامة: عامة لالتزامهم بالعموم. الذي اجتمع عليه أهل الخصوص، وهم الذين يقولون بالأصول، ولا يعرفون شيئا من الفروع، ويقرون بالله، وبرسوله، وكتابه، وما جاء به رسوله على الجملة، ولا يدخلون في شيء من الاختلاف. الحور العين ٢٥٨. وفي (أ) و (د) و (هـ): بما.

(٢) عقولها.

(٣) في (هـ): تخبط خبط عشوى. والعشوى: الناقة التي لا تبصر أمامها.

يزال متحيراً في الأمور خَبَاطًا، ومقصراً في حقائق العلوم أو مفراطاً^(١)، لا يَقْرُ به قرارٌ علم فيسكن، ولا يذل لحق في حجته^(٢) فيذعن، ولا يزال مفترياً على المحقين كذبا، ومدعياً من الباطل دعوى عجابا، ليس لها من الله سبحانه تصديق، ولا يشهد لها في الألباب من برهان تحقيق، وإن كانت في نفس مدعيها ذات حقيقة وبرهان، فإنها في حقائق الأمور كَسْرَابِ القيعان، كما قال الله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوهُمْ كَسْرَابٍ بِقَيْعَةٍ يَخْسِئُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَقَّهٖ حِسَابُهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝﴾ أَوْ كَظُلُمَةٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَتُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٣٩﴾ [النور: ٣٩-٤٠]. انظر كيف يمثله لإغفاله، فيما يراه حقا من باطله بأمثاله، من ذوي الضمأ، ومن ينظر في الظلماء، فلا يرى يده ولا يكاد، فكيف يقود أو ينقاد له في الظلماء منقاد، إلا أن يكون مثله عميا، لا يرى لعمى قلبه شيئا، فهو ينقاد في ظلمة وعشوى، لمن لا يبصر ولا يرى، ولمن أثر الضلالة على الهدى، فهو متورط في ورطات الردى، يركب بعضه في كل هوة بعضا، رافض لكل حقيقة^(٣) علم رفضا، لا يسمع لكتاب الله به نداء، ولا يقبل من الله فيه هدى، مُخَبَّةٌ^(٤) به في خبوت الضلال ركائبه، عظيمة عليه في هلكة الدين والدنيا مصائبه، غير متحفظ من هلكاته بحفظ، ولا متعظ من عظات الله بوعظ، غَلَقٌ^(٥) بين إطباق خطيئاته، غَرَقٌ في بحور عماياته، لما عطل من يقين علم الكتاب، ورضي من صحبته بشكوك الارتياب^(٦)، فبالله يا بني: فعُد من موالاته، والرضى بما

(١) في (أ): حقائق الأمور أو مقرا بما.

(٢) في (أ): حجة.

(٣) في (أ): لحقيقة كل.

(٤) أي: مسرعة.

(٥) أي: مرهق.

(٦) في (أ) و (د) و (هـ): ورضي بصحبته من شكوك الارتياب. وفي (ب): ورضي من صحبته من سلوك. وفي (ج): ورضي بصحبته من سلوك. وما أثبت اجتهاد مني والله أعلم بالصواب.

رضي به من تعطيل ما عطل من كتاب ^(١) ربه وآياته.

[الإصغاء لحديث القرآن]

وإذا أردت أن ترى عجائب الأنباء والأنبياء، وتعلم فضل عدل حكم الله في الأشياء، فاسمع من الكتاب ولا تسمع عليه، واكتف بحكم الله على العباد فيه، فإنك إن تسمع صوتا عنه بأذن واعية، ثم تُقبل عليه منك بنفس لحكمته راعية، تسمع منه بالهدى صيِّتا، وتعرف مَنْ جعله الله حيا ممن جعله ميتا، فلعلك حينئذ عند معرفتك به ^(٢) للأشياء، تهرب من الميتين وتلحق بالأحياء، فتجد طيب طعم الحياة، وتثق بالقرار في محل النجاة، فتزول يومئذ منازل العابدين، وتأمين الموت حينئذ آمن الخالدين، ففي مثل ذلك فارغب، وله ما بقيت فانصب، فللرغبة فيه، وللحرص ^(٣) عليه، استنزل إبليس أباك آدم فأغواه، وبالخلد في معصيته ^(٤) الله مناه، فقال له، ولزوجه ^(٥) معه: ﴿ مَا نَهَكُكُمْ رَبُّكُمْ عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينَ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٠]. وفي ذلك: ﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ ^(٦) ﴿ فَدَلَّلَهُمَا — كَمَا قَالَ اللَّهُ — بِغُرُورٍ ﴾ [الأعراف: ٢١-٢٢]. وكذبهما فيما مناهما به من الأمور، فأعقبا برجائهما في المعصية لله ندماء، ونسي آدم صلى الله عليه ولم ^(٧) يجد الله له عزما، كما قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ [طه: ١١٥]. فلو لم يعص الله للبت فيها أبدا، ولو أطاع الله في الشجرة ل بقي فيها مخلدا.

(١) في (ب) و (ج): كتب.

(٢) سقط من (ب)، ج، (د): به.

(٣) في (أ) و (د): والحرص.

(٤) في (أ): معصية الله.

(٥) في (أ) و (د) و (هـ): ولزوجه.

(٦) في (أ): فلم.

فكذلك يبقى فيها يوم القيامة، وفي الآخرة الباقية الدائمة، مَنْ أطاع الله في هذه الحياة الدنيا، وقام بما يجب له عليه فيها من التقوى، فيدوم في الجنة له النعيم والتخليد، ويبقى له ما هو فيه من نعيمها فلا يبذل، فطاعة الله مفتاح الخلد في الجنة، واليقين بالله مفتاح كل طاعة وحسنة، فأيقن بالله تُحسِن، وأحسن لله تُؤمِن.

[صفات المؤمن]

واعلم يا بني أنك لن توقن حتى تعرف الموقنين، ولن تؤمن حتى تؤمن^(١) للمؤمنين، ومن الموقنين أبوك إبراهيم خليل الرحمن، والمؤمنون فمن^(٢) أَمِنَ من الكفر وكبائر العصيان^(٣)، وأعمال الموقنين من البر فدلِيل على إيقانهم، وترك المؤمنين^(٤) للكفر وكبائر العصيان فحقيقة إيمانهم، فاسمع يا بني لخبر الله الذي لا خير كخبره^(٥) عن يقينهم، وما كانوا يعملون به لله في دينهم، من الصالحات، ويسارعون فيه من الخيرات، فإنه يقول سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِعَاقِبَتِ رَبِّهِمْ يَأْمِنُونَ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٢٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٣٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١].

ويقول سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنفال: ٢-٤].

(١) أي: تصدق.

(٢) في (ص): ممن.

(٣) في (أ) و (ج): كبائر الكفر والعصيان.

(٤) في (أ) و (ب) و (ج) و (و) و (هـ): لكبائر الكفر والعصيان. وفي حواشي (و) كما أثبت.

(٥) في (ص): كخبر.

ويقول عز وجل: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذِنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذِنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ٦٢].

ويقول سبحانه: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحجرات: ١٥]. وقال عز من قائل: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ [١٦] فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٦-١٧].

أنظر كيف وصفهم الله سبحانه بالخشوع ^(١) والدين، بما نسبته مما سكن قلوبهم من حقيقة اليقين، فأولئك هم الذين وصفهم الله بالایمان وحلاهم، وسمّاهم به في كتابه ودعاهم، ولهم أوجب الجنان والرحمة، ومنه استحقوا الرضوان والعصمة، فمن خرج من ^(٢) صفتهم ونعتهم فغير مؤمن ولا نعمى عين ^(٣)، ولا مستوجب من الله الرحمة ولا ^(٤) الرضوان في يوم الدين، وداره غير دار المؤمنين، ومثواه من النار مثوى الظالمين.

وقد زعم غيرنا أن من لم يؤمن كبير ^(٥) عصيانه - فيكون لأحد منه أمان بإيمانه، فمن ذكر الله بالایمان وحلى - أنه ولي لله سبحانه فيمن تولى!! خلافاً على الله ومشاقة!! ومجانبة لكتاب الله ومفارقة.

وزعم أن الله لا يعذب من أقر به وبرسله وكتبه بلسانه، وإن ارتكب كل كبيرة من كبائر عصيانه، ثمناً على الله وافتراءً، واستكباراً عن تبيانه ^(٦) واجترأ!!

(١) في (أ) و (د) و (هـ): في الخشوع.

(٢) في (ب) و (ج): عن.

(٣) أي: قرار عين.

(٤) سقط من (أ): ولا.

(٥) في (ب) و (ج) و (و) و (هـ): كثير.

(٦) في (ص) و (ج): ببيانه.

فاسمع يا بني لقول الله في خلافهم، وما وصف فيما زعموا من خلاف أو صافهم، فإنه يقول سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِيهِٖٓ أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ۝﴾ [النساء: ٦٥]. فلم يرض سبحانه منهم له بالتحكيم، دون ما وصف من الرضى والتسليم، فقال سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝﴾. وقالوا هم: بلى خلافاً على الله هم مؤمنون!! والاقرار بالله ورسله، غير الرضى والتسليم لحكمه، فأى خلاف — لقائل أو اختلاف، أو فرط عن قول بغير حق أو إسراف — أبين مما تسمع وترى، مما قالوه جراءة وافتراء.

ويقول سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذِنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝﴾ [النور: ٦٢]. واستأذنهم له، غير إقرارهم بالله وبرسوله، فأين ما قالوا في الإيمان ووصفوا (١)؟! مما قال الله به إن أنصفوا!! والله يقول سبحانه: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ۝﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ۝﴾ [التوبة: ٤٤-٤٥]. فالله يقول: لا يؤمنون بالله إن استأذنوا!! وهم يقولون: بلى إن أقرؤا فقد آمنوا!!

فأى مجاهرة لله بخلاف، أو مقالة بغير حق في إسراف، أبين على الله خلافاً، أو في قول بغير حق إسرافاً، من قول هذا مخرجه، وسبيل أهله في القول ومنهجه؟! أو ما سمعوا لقول الله تبارك وتعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝﴾ [الأنفال: ١]. يخبر سبحانه أنهم إن لم يطيعوا أمر رسوله ويقبلوه، ويفعلوا ما يأمرهم به (٢)

(١) في (أ): فوصفوا.

(٢) سقط من (أ): به.

أن يفعلوه، فليسوا مؤمنين به لا ولا بالله ربه، ولا برسل الله وكتبه.

أو ما سمعوا لقوله سبحانه: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ أَجْمَعِينَ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١]. يقول سبحانه لمن شهد من المهاجرين والأنصار بدرا، وكان له ولرسوله من عدوهما منتصرا، إن كنتم بما وصفتُ آمنتم، فامضوا لما^(١) به أمرتم، فإن لم تمضوه على ما نزلت من حكمه، فلستم بمستحقين لثواب الايمان ولا اسمه.

فأي حجة لمتحج أقوى، أو ضياءُ نور أضوأ، فيما اختلفنا، ووصفوا وصفنا، مما تلونا جملاً^(٢) لا تأويلا، ووحيا أنزله الله^(٣) تزيلا.

فاسمع في ذلك يا بني عن الله تزيلا وحيه، وما نزل فيه صراحاً مكشوفاً على نبيه، فإنه يقول: ﴿وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٤٤]. فالله تبارك وتعالى يقول وما أولئك بالمؤمنين، وهم يقولون بلى إذا كانوا بالله وبما^(٤) جاء من عنده مقرين!! وإنما أخرجهم الله من الايمان بتوليهم، وبذلك نزل وحيه فيهم، وعليه عاتبهم لا على إنكار، ألا ترى أن قولهم آمنا قول إقرار، لم يدعهم إليه، ولم يعاتبهم فيه.

[اعرف الحق تعرف أهله]

فاعرف الحق يا بني ومن خالفه، فإنك تعرف حينئذ الحق ومن آلفه، واعلم أن معرفة الحق قسمان معلومان، وجزآن عند المحققين مقسومان:

(١) في (أ) و (د) و (هـ): ما به.

(٢) في (د) و (هـ): مجملا.

(٣) سقط من (ب) و (ج): الله.

(٤) في (أ) و (د) و (هـ): وما.

أحدهما: معرفة الحق في نفسه ونعته، وما أبانه الله به من ضياء بيئته.

والآخر: معرفة ما خالفه من الباطل، والبراءة إلى الله من جهل كل جاهل، فاعرفهما جميعا تعرف الحق وتوقنه، وتعرف قبح كل أمر كان أو يكون وحسنه، ولا تغتر بهما جاهلا^(١)، ولا تكن لواحد منهما معطلا، فتجهل بعض الحق أو تعطله، ولا يؤمن أن ترتكب بعض الباطل أو تفعله، ومتى لا تعرف الباطل لا تتبرأ من أهله، ومن لا يتبرأ من المبطل حل من السخط في محله، ومتى تجهل بعض الحق، لا تؤمن من^(٢) البراءة من الحق، ومن تبرأ من المحقين تبرأ الله منه، ومن أعرض عنه المحقون - سخطاً - أعرض الله عنه، والمحقون من خلق الله فهم المؤمنون، والمؤمنون فهم البررة الرحماء المتحابون، والمتحابون فهم المحبون في الله لمن أحبهم وتولاهم، والمعاقدون لمن حاد الله ربههم ومولاهم.

فاسمع يا بني لما ذكر الله في ذلك سبحانه عنهم، وعرف أوليائه في ذلك منهم، إذ يقول لا شريك له: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١]. ويقول سبحانه: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]. ومحادة الله تبارك وتعالى في حدوده، خلاف المخالفين فيما حدد من أمره وعهوده، فالله يقول سبحانه: ﴿لَا تَجِدُ﴾ وهم يقولون: بلى هم كثير موجودون، والله يشهد سبحانه ومن قبله وحيه على خلاف ما عليه يشهدون. وما في كتاب الله من بيان خلافهم، وشهادته بغير أوصافهم، فكثير ممن الله جم، يخص من بيان الله فيه ويعم.

(١) في (أ) و (د): جهلا.

(٢) في (د) و (هـ): لا تؤمن على. وفي (ب) و (ج): لا تؤمن البراة.

[أفة الجور من أسباب الضلال]

وليس لقلّة ذلك ولا عسره، ولا للملتبس^(١) لبس من أمره، ضل القوم عنه ولا تاهوا، ولكن لما^(٢) سنّ فيهم ملوك بني أمية^(٣) وشبهوا، ولقهر بني أمية لهم وغلبة

(١) في (هـ): يملتبس.

(٢) في (ب)، ج: بما.

(٣) أخرج الترمذي عن سفينة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (الخلافة في أمي ثلاثون سنة، ثم ملك بعد ذلك) ثم قال لي سفينة: أمسك عليك خلافة أبي بكر، ثم قال وخلافة عمر، وخلافة عثمان، ثم قال أمسك علي فوجدناها ثلاثين سنة. قال سعيد فقلت له: إن بني أمية يزعمون أن الخلافة فيهم، قال كذب بنو الزرقاء، بل هم ملوك من شر الملوك). تحفة الأحوذى شرح جامع الترمذي ٤٧٦/٦ (٢٣٢٦). والزرقاء: امرأة من أمهات بني أمية. وأخرجه أبو داود في سننه ٦٢٢/٢ (٤٦٤٦).

وأخرج ابن أبي حاتم، عن يعلى بن مرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (أريست بني أمية على منابر الأرض، وسيملكونكم، فتجدونهم أرباب سوء). واهتم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للناس. (وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلى فتنة للناس). وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: رأيت ولد الحكم بن أبي العاص على المنابر، كأنهم قرده). وأنزل الله في ذلك (وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلى فتنة للناس، والشجرة الملعونة). يعني الحكم وولده.

وأخرج ابن مردويه، عن عائشة رضي الله عنها: أنها قالت لمروان بن الحكم: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: لأبيك وجدك (إنكم الشجرة الملعونة في القرآن).

وعن الأسود، قلت لعائشة: ألا تعجبين لرجل من الطلقاء ينازع أصحاب محمد الخلافة؟ قالت: وما يعجب؟! هو سلطان الله، يؤتیه البر، والفاجر، قد ملك فرعون مصر. سير أعلام النبلاء ٩٥/٣.

وعن أبي ذر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: إذا بلغت بنو أمية أربعين اتخذوا عباد الله خولا، ومال الله نخلا، وكتاب الله دغلا. أخرجه الحاكم في المستدرك ٤٧٩/٤. وذكره في كثر العمال ٣٩/٦، وقال: ومال الله دخلا، وقال أخرجه ابن عساكر.

وعن أبي برزة الأسلمي قال: كان أبغض الأحياء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بنو أمية، وبنو حنيفة، وثقيف. أخرجه الحاكم في المستدرك ٤٨٠/٤. وقال هذا حديث صحيح على شرط الشيخين. وذكره الهيثمي أيضا في مجمع ٧١/١٠. وقال: رواه أبو يعلى.

وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن أهل بيتي سيلقون من

بعدي من أمي قتلاً وتشريداً، وإن أشد قومنا لنا بغضاً بنو أمية، وبنو المغيرة، وبنو مخزوم. أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/٤٨٧. وقال هذا حديث صحيح الاسناد. وذكره المتقي في كتر العمال ٦/٤٠. وقال: أخرجه نعيم بن حماد في الفتن.

عن بجالة قال: قلت لعمران بن حصين: حدثني عن أبغض الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال: نكتم عليّ حتى أموت؟ قلت: نعم. قال: بنو أمية، وثقيف، وبنو حذيفة. قال أخرجه نعيم بن حماد في الفتن: كتر العمال ٦/٦٨.

عن أبي عثمان النهدي عن عمران بن حصين قال: توفي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يبغض ثلاث قبائل، بنو حنيفة، وبنو مخزوم، وبنو أمية، قال: رواه هشام بن حسان عن عمران بن حصين. حلية الأولياء لأبي نعيم ٦/٢٩٣.

وعن علي عليه السلام في قوله: (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً). قال: هما الأفجران من قريش، بنو أمية، وبنو المغيرة، فأما بنو المغيرة فقطع الله دابرهم يوم بدر، وأما بنو أمية فمتعوا إلى حين. كتر العمال ١/٢٥٢. قال أخرجه ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والطبراني في الجامع الصغير.

وذكره السيوطي أيضاً في الدر المنثور في تفسير الآية في سورة إبراهيم، وقال أخرجه الطبراني في الأوسط، والحاكم وصححه، قال: وأخرج ابن مردويه عن علي عليه السلام أنه سئل عن (الذين بدلوا نعمة الله كفراً). قال: بنو أمية، وبنو مخزوم رهط أبي جهل.

وذكره المتقي أيضاً بعينه في كتر العمال ١/٢٥٢. وقال: أخرجه ابن مردويه عن علي عليه السلام. وعن ابن مسعود قال: إن لكل دين آفة وآفة هذا الدين بنو أمية. كتر العمال ٧/١٤٢. قال: أخرجه نعيم بن حماد في الفتن.

وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: إني رأيت في منامي كأن بني الحكم بن العاص يتزورون علي منبري كما تزور القردة. أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/٤٨٠. قال: فما رأي النبي صلى الله عليه وآله وسلم مستجمعاً ضاحكاً حتى توفي. قال هذا حديث صحيح على شرط الشيخين.

وذكره المتقي باختلاف يسير. كتر العمال ٦/٤٠. وقال: أخرجه أبو يعلى والبيهقي في الدلائل عن أبي هريرة وفي (ص ٩٠). وقال: أخرجه البيهقي في الدلائل، وابن عساكر وفي (ص ٩٠) ثانياً وقال: أخرجه أبو يعلى، وابن عساكر.

وفي ذيل تفسير قوله تعالى في تفسير الفخر الرازي الكبير: (وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس، والشجرة الملعونة في القرآن). في سورة بني إسرائيل قال: واختلفوا في هذه الشجرة - إلى أن قال -: القول الثاني. قال ابن عباس: الشجرة بنو أمية - يعني الحكم بن أبي العاص. قال: ورأى رسول الله

صلى الله عليه وآله وسلم في المنام أن ولد مروان يتداولون منيره، فقص رؤياه على أبي بكر وعمر وقد خلا في بيته معهما، فلما تفرقوا سمع رسول الله الحكيم يخبر برؤيا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاشتد ذلك عليه، وأقم عمر في إفشاء سره، ثم ظهر أن الحكيم كان يستمع إليهم فنفاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم — إلى أن قال —: ومما يؤكد هذا التأويل قول عائشة لمروان: لعن الله أباك وأنت في صلبه فأنت بعض من لعنة الله.

وفي ذيل تفسير قوله تعالى: (وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس، والشجرة الملعونة في القرآن). في سورة الإسرى من تفسير السيوطي الدر المنثور. قال: وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: رأيت ولد الحكيم بن أبي العاص على المنابر كأنهم القردة وأنزل الله في ذلك (وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس، والشجرة الملعونة). يعني الحكيم وولده.

وقال أيضا: وأخرج ابن مردويه عن عائشة أنها قالت لمروان بن الحكيم: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول لأبيك وجدك: إنكم الشجرة الملعونة.

وعن عبد الرحمن بن عوف قال: كان لا يولد لأحد مولود إلا أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فدعا له فأدخل عليه مروان بن الحكيم فقال: هو الوزغ بن الوزغ الملعون ابن الملعون. أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/٤٧٩ قال: هذا حديث صحيح الإسناد.

وعن محمد بن زياد قال: لما بايع معاوية لابنه يزيد قال مروان: سنة أبي بكر وعمر. فقال عبد الرحمن بن أبي بكر: سنة هرقل وقيصر. فقال: أنزل الله فيك (والذي قال لوالديه أف لكما). الآية. قال: فيبلغ عائشة فقالت: كذب والله ما هو به ولكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعن أبا مروان ومروان في صلبه. فمروان قصص من لعنة الله عز وجل. أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/٤٨١. قال هذا حديث صحيح على شرط الشيخين.

وذكره السيوطي أيضا في الدر المنثور في تفسير قوله تعالى: (والذي قال لوالديه أف لكما). في سورة الأحقاف. وقال: أخرجه عبد بن حميد، والنسائي، وابن المنذر، وابن مردويه، عن محمد بن زياد. وقال: فضفض من لعنة الله.

وعن عمرو بن مرة الجهني — وكانت له صحبه — إن الحكيم بن أبي العاص استأذن على النبي صلى الله عليه وآله وسلم فعرف النبي صلى الله عليه وآله وسلم صوته وكلامه، فقال: إئذنوا له عليه لعنة الله وعلى من يخرج من صلبه، إلا المؤمن منهم وقليل ما هم، يشرفون في الدنيا ويوضعون في الآخرة، ذو مكر وخديعة، يعطون في الدنيا وما لهم في الآخرة من خلاق. أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/٤٨١. قال: هذا حديث صحيح الإسناد.

وذكره المتقي، وقال: أخرجه أبو يعلى، والطبراني، والبيهقي، وابن عساكر. كثر العمال ٦/٨٩. وعن عبد الله بن الزبير أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعن الحكيم وولده. المستدرك ٤/٤٨١،

قال: هذا حديث صحيح الاسناد.

ثم قال ليعلم طالب العلم أن هذا باب لم أذكر فيه ثلث ما روي، وأن أول الفتن في هذه الأمة فتنتهم، ولم يسعني فيما بيني وبين الله تعالى أن أخلي الكتاب من ذكرهم.

وفي كثر العمال ٩٠/٦ ذكر حديثاً عن يحيى النخعي قال: فيه فغضب الحسن عليه السلام وقال له — يعني لمروان سأقلت: أهل بيت ملعونون فوالله لقد لعنك الله على لسان نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، وأنت في صلب أبيك.. قال: أخرجه ابن سعد، وأبو يعلى، وابن عساكر.

وعن زهير بن الأرقم قال: كان الحكم بن أبي العاص يجلس إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وينقل حديثه إلى قريش فلعه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وما يخرج من صلبه إلى يوم القيامة. كثر العمال ٩٠/٦. قال: أخرجه ابن عساكر.

وعن عبد الله بن الزبير قال وهو على المنبر: ورب هذا البيت الحرام والبلد الحرام إن الحكم بن أبي العاص وولده ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه وآله وسلم. كثر العمال ٩٠/٦. قال: أخرجه ابن عساكر.

وعن ابن الزبير أنه قال وهو يطوف بالكعبة: ورب هذه البينة لعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الحكم وما ولد. كثر العمال ٩٠/٦. قال: أخرجه ابن عساكر.

وعن عبد الله بن عمرو قال: كنا جلوساً عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وقد ذهب عمرو بن العاص يلبس ثيابه ليلحقني فقال ونحن عنده: ليدخلن عليكم رجل لعين، فوالله ما زلت وجللاً خارجاً وداخلاً حتى دخل فلان — يعني الحكم — الهيثمي في مجمع ١١٢/١. قال: رواه أحمد.

وعن حلام بن جذل الغفاري قال: سمعت أبا ذر جندب بن جنادة الغفاري يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين رجلاً اتخذوا مال الله دولا، وعباد الله خولا، ودين الله دغلا. قال حلام فأنكر ذلك على أبي ذر فشهد علي بن أبي طالب عليه السلام، أي سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: ما أظلت الخضراء، ولا أقلت الغبراء، على ذي لهجة أصدق من أبي ذر، وأشهد أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قاله. أخرجه الحاكم في المستدرک ٤٧٩/٤. قال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين.

وفي كثر العمال ٣٩/٦: إذا بلغ بنو الحكم ثلاثين رجلاً اتخذوا مال الله بينهم دولا، وعباد الله خولا، وكتاب الله دغلا، فإذا بلغوا تسعة وتسعين وأربعمائة كان هلاكهم أسرع من لوك ثمرة.. قال: أخرجه الطبراني، والبيهقي عن معاوية وابن عباس.

وذكره بنحو أبسط. ٩١/. فقال: عن ابن موهب أن معاوية بينا هو جالس وعنده ابن عباس إذ دخل عليهم مروان بن الحكم في حاجة فقال: اقض حاجتي يا أمير المؤمنين، فوالله إن مؤنني لعظيمة، وإنني أبو عشرة وعم عشرة وأخو عشرة، فلما أدبر قال معاوية لابن عباس: أما تعلم أن رسول الله صلى

الله عليه وآله وسلم قال: إذا بلغ بنو الحكم ثلاثين رجلاً، اتخذوا مال الله دولا، وعباده خولا، وكتابه دخلا، فإذا بلغوا تسعة وتسعين وأربعمائة كان هلاكهم أسرع من لوك التمرة. وفي لفظ لوك ثمرة.

قال ابن عباس: اللهم نعم، ثم إن مروان رد عبد الملك إلى معاوية في حاجة فلما أدير عبد الملك قال معاوية: أنشدك بالله يا بن عباس أما تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذكر هذا فقال: أبو الجبابرة الأربعة؟ قال: اللهم نعم، قال: أخرجه البيهقي في الدلائل، وابن عساكر.

وفي كثر العمال ٣٩/٦: إن هذا سيخالف كتاب الله وسنة نبيه، وسيخرج من صلبه فتن يبلغ دخاها السماء، وبعضكم يؤمئذ شيعة — يعني الحكم بن أبي العاص — قال: أخرجه الدار قطني، في الأفراد عن ابن عمر. وذكره في ص ٤٠. وقال: أخرجه الطبراني عن ابن عمر.

وفي ص ٩٠ بنحو أبسط، فقال: عن ابن عمر قال: هجرت الرواح إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فجاء أبو الحسن، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أذن فلم يزل يدينه حتى التقم أذنيه فبينما النبي صلى الله عليه وآله وسلم يساره إذ رفع رأسه كالفرع. قال فدفع الحكم بسيفه الباب فقال لعلي عليه السلام: اذهب فقد هبته إلى خيائها، فإذا علي عليه السلام يدخل الحكم بن أبي العاص آخذاً بإذنه له زعجة حتى أوقفه بين يدي النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فلغنه نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم ثلاثاً ثم قال: أحله ناحية حتى راح إليه قوم من المهاجرين ثم دعا به فلغنه ثم قال: إن هذا سيخالف كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، وسيخرج من صلبه فتن يبلغ دخاها السماء. فقال ناس من القوم: هو أقل وأذل من أن يكون هذا منه! فقال: بلى وبعضكم يؤمئذ شيعة. قال أخرجه الدار قطني في الأفراد، وابن عساكر.

وعن عمرو بن يحيى بن سعيد بن عمر بن سعيد، قال: أخبرني جدي، قال: كنت جالساً مع أبي هريرة في مسجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالمدينة، ومعنا مروان، قال: أبو هريرة: سمعت الصادق المصدوق يقول: هلكت أمتي على يدي غلمة من قريش، فقال مروان: لعنة الله عليهم غلمة. فقال أبو هريرة: لو شئت أن أقول بني فلان وبني فلان لفعلت. فكنت أخرج مع جدي إلى بني مروان حين ملكوا بالشام فإذا رآهم غلماناً أحداثاً قال لنا: عسى هؤلاء أن يكونوا منهم، قلنا: أنت أعلم. صحيح البخاري ٢٥٨٩/٦ (٦٦٤٩).

يقول الشارح ابن حجر العسقلاني في فتح الباري: ١٣-٧، ٨: إن أبا هريرة كان يمشي في السوق ويقول: اللهم لا تدركني سنة ستين ولا إمارة الصبيان.

قال الشارح: وفي هذا إشارة إلى أن أول الأغيلمة كان سنة ستين، وهو كذلك فإن يزيد بن معاوية استخلف فيها وبقي إلى سنة (٦٤هـ)، فمات ثم ولي ولده معاوية، ومات بعد أشهر. وقال الشارح أيضاً: إن أول هؤلاء الغلمان يزيد كما دل عليه قول أبي هريرة سنة ستين وإمارة الصبيان. ثم قال الشارح: تنبيه، يتعجب من لعن مروان الغلمة المذكورين مع أن الظاهر أنهم من ولده، فكأن الله تعالى

سلطانهم، قوي عليهم فيه سلطانُ شيطانهم، فألفوه حتى أنسوا به لطول الصحبة، وعز فراقه في أنفسهم لما كان يكون في خلافه من الأنكال المعطية^(١)، ولما كان من جهله يومئذ لديهم منكلاً محروماً، عاد مجهوله يومئذ فيهم بعد جهله معلوماً، ثم خلقت من بعدهم أخلاف السوء، التي أتت^(٢) عداوتها للإسلام من وراء عداوة كل عدو، فكانت أكلف^(٣) بما سنَّ لها أسلافها كلفاً، وأسرف في الاحتجاج للباطل سرفاً، فאלله المستعان للمحققين عليهم وفيهم، وفيما خالفوهم فيه من حكم ربهم عليهم، فقد أصبحوا وأمسوا عن الحق بكما وصما وعميا، وصاروا هم وأئمتهم من بني أمية لأنفسهم في ذلك داء دوي^(٤)، لا يقبل شفاء الأدوية، ولا يسوغ فيه ولا ينفع دواء الأشفية، كما لا يسوغ في البكم، ولا في العمى ولا في الصمم، دواء ولا شفاء أبداً، إلا أن يكون

أجرى ذلك على لسانه ليكون أشد في الحجة عليهم، لعلهم يتعظون، وقد وردت أحاديث في لعن الحكم والد مروان وما ولد. أخرجها الطبراني، وغيره غالبها في مقال وبعضها جيد.

وفي الصواعق المحرقة لابن حجر (ص ١٣٤): ومات — يعني يزيد ابن معاوية — سنة أربع وستين لكن عن ولد شاب صالح عهد إليه فاستمر مريضاً إلى أن مات ولم يخرج إلى الناس ولا صلى بهم، ولا أدخل نفسه في شيء من الأمور، وكانت مدة خلافته أربعين يوماً، وقيل: شهرين، وقيل: ثلاثة أشهر، ومات عن إحدى وعشرين سنة، وقيل: عشرين، قال: ومن صلاحه الظاهر أنه لما ولي صعد المنبر فقال: إن هذه الخلافة جبل الله، وإن جدي معاوية نازع الأمر أهله، ومن هو أحق به منه علي بن أبي طالب عليه السلام، وركب بكم ما تعلمون حتى أته منيته، فصار في قبره رهيناً بذنوبه، ثم قلد أبي الأمر وكان غير أهل له، ونازع ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقُصِفَ عمره وانبت عقبه، وصار في قبره رهيناً بذنوبه، ثم بكى وقال: من أعظم الأمور علينا علمنا بسوء مصرعه، وبؤس منقلبه، وقد قتل عترة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأباح الخمر، وخرّب الكعبة، ولم أذق حلاوة الخلافة فلا أتقلد مرارتها، فثأنكم أمركم، والله لئن كانت الدنيا خيراً فقد نلنا منها حظاً، ولئن كانت شراً فكفى ذرية أبي سفيان ما أصابوا منها، قال: ثم تَغَيَّبَ في منزله حتى مات بعد أربعين يوماً كما مر، فرحمه الله أنصف من أبيه، وعرف الأمر لأهله. أقول: بل وأنصف من أبيه وجده، جميعاً فلا تغفل، ولابن حجر هذا كتاب يحامي فيه عن معاوية بن أبي سفيان.

(١) المهلكة.

(٢) في (ب) و (ج): بث.

(٣) الكلف: شدة الحب.

(٤) دوي: لازماً.

الله بشفائه متوحداً^(١)، وكذلك داؤهم من الجهل والضلالة والكفر، فلن يشفى منهم إلا بإكراه من الله لهم على الإيمان وجبر، وذلك فما لا يكون منه بعد أن أمرهم، ولأنه لو كان منه يجبر لكان الإيمان^(٢) لمن جبرهم، وإذا كان له لا لهم، وكان فعله لا فعلهم، لأنه منه لا منهم، فالاحسان فيه له دونهم.

فهذا يا بني فاعلمه^(٣) من أمرهم، ومما^(٤) هم فيه من جهلهم وأكفرهم.

[الجهل المركب]

واعلم يا بني أن جهل الناس بالله وبدينه، وما هم عليه من العمى عن الله وعن تبيينه، يُدْعِيَانِ جهلاً مضعفاً^(٥)، وعمى مُتَبَرِّراً^(٦) متلفاً، لا يرجى إلا بالله لأهلها منهُما سلامة، ولا يزدادان على صاحبهما^(٧) طول الدهر إلا مداومة، وإنما قيل في الجهل إنه مُضعف، لأن صاحبه لا يعرف ولا يعرف أنه لا يعرف، فجعله هذا جهلان، وهلكته بجعله هلكتان، بل لو قيل إن جهله هذا جهل مضعف أضعاف ثلاثة متراكبة، لكانت مقالة من قال ذلك في جهله صادقة غير مكذبة، لأنه جهل فكانت تلك منه جهلاً، ثم جهل أنه جاهل فكانت تلك لجهله مثلاً، ثم رأى أن جهليه^(٨) جميعاً علماً، فكان ذلك منه جهلاً ثالثاً وظلماً.

وإنما قيل إن عماه عمى مُتَبَرِّراً متلف، ليس له إلا بالله عنه زوال ولا تكشف، لأن

(١) في (ب): منفرداً.

(٢) في (أ): إيمان. وفي (ج): إيماناً.

(٣) في (أ): فاعرفه.

(٤) في (د): ومما.

(٥) في (أ): مضاعفاً.

(٦) أي: مهلكاً.

(٧) في (ب) و (ج) و (د) و (هـ): لأهلها على طول.

(٨) في (أ) و (د) و (هـ): أن جهليه. وفي (ب) و (ج): أن جهله، وفي حواشي (و) كما أثبت.

صاحبه لا يألم له ^(١) ولا يجده، فهو يزيده دائباً وبمده، إذ لا يجد له في نفسه ألماً، ولا يَعدُّ عماه فيه عَمَى، فلذلك ما ^(٢) ازداد داؤه، وقلَّ من عماه شفاؤه، ولو وجده فلمسه، أو ألمَّ بآلمه فحسه ^(٣)، لطلب له الشفاء، ولما كان متبراً متلفاً، ولو طلب - ويله - طب ما به من دائه، عند من جعل الله عنده طبه من أهل الحق وأوليائه، لوجد عندهم من ذلك شفاءً له شافياً، ونورا لما عدم من بصره كافياً، ولكنه أصر عن آيات الله مستكبراً، وعَدَّ عماه عن الله وعن تبينه بصراً، فكانت مقالته على الله كاذبة، ونفسه فيما بينه وبين الله للأثام كاسية، كما قال الله العليم بإصرار المصيرين، في أمثاله من الأئمة ^(٤) المستكبرين: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝ مِّنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ هَٰذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزِ أَلِيمٍ ۝﴾ ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لَتَجْرَىٰ أَلْفُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجن: ٧-١٣].

فكذلك ^(٥) هو فكما قال وإلا فمن سخره، هل ادعا تسخير ذلك أحد قط أو ذكره؟! لا ولو ادعاه مدعٌ إذاً لكان كذبه مكشوفاً، ولكان بكذبه ^(٦) في كل قرن خلا أو بقي من القرون موصوفاً، وما ادعا ذلك فرعون في جهله وعتائه ^(٧) ولقد ادعا غيره

(١) في (أ) و (د): به.

(٢) ما زائدة.

(٣) في (أ): فأحسه.

(٤) في (ب) و (ج) و (د): الأئمة.

(٥) في (د) و (هـ): وكذلك هو كما.

(٦) في (ب): تكذبه. وفي (د): كذبه.

(٧) العتي: الاستكبار ومجاوزة الحد.

في ^(١) ملكه لنظرائه، وما ادعا لهم خلقاً ولا صنعاً، ولو ادعاه لكان ذلك كذباً مستشنعاً، وإنما تأويل قول فرعون: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤] ، أنا سيدكم ومليككم لا ما قال موسى، ولم يرد أنا لكم رب خلاق، ولا أنا لكم إله رزاق، لأن كل رب في لسان العرب فسيّد ومليك، ولا سيما إذا كان وليس له عند نفسه فيما ملك شريك.

أولا تسمع يا بني وترى، أنّه لم يزعم أنّه رب لغيرهم من أهل القرى، التي لا ملك له عليها، ولا سلطان له فيها، فلما لم يوقن بغيره، ولم يستدل على الله بتدبيره، وكذب من ^(٢) الله بما لم تره عيناه، وكان كل من صدّقه مثله لا يوقن إلا بما عاينه ورآه، وما كان لذلك مثلاً ونظيراً، قال أنا ربكم ومليككم ولم يدّع لهم صنعاً ولا تدبيراً، صِعراً منه وتضائلاً عن تلك ودعواها، فلما صغر عنها وتضائل كان ادعاؤه لسواها، مما يدخل به وفيه غلط وامترأ، وما يمكن في مثله له عندهم الإدعاء، ولو ادعا فيهم خلقاً، أو انتحل لهم رزقاً، لما اعترقهم في كذبه مع تلك مرية، ولا أعمتهم من الشبهة في أمره مُعمية، ولكنهم لما لم يوقنوا بالله وتدبيره، ولم يقرأوا إلا بما رأوا مثله ^(٣) من فرعون وغيره، وأنكروا ما لم يروا أو يكون مثلاً لما رأوا فدفعوه، جاز عندهم لفرعون ولهم في فرعون ما ادعوه، فحمد الله الذي حسّر ^(٤) كل من أيقن أو تحير عن أن يدعي من صنعه وإن جهله صنعاً، فيكون فيه لشبهة أو تحير لمبطل مُدّعا، وإن كان أثر التدبير فيه بأنه صنع مصنوع باديأ، وكان هدى الله فيه لمن لم يهتد إليه بالهدى منادياً، فنداؤه بإحداث الله له أعلى من كل علي، وتبدييه بأنه صنع الله وتديير أبدي من كل جلي، فتبارك الله أحسن الخالقين خلقاً، وأحق ^(٥) جميع الحقائق متحققاً، الذي لم يزل ولا يزال، ومن له الكبرياء والجلال، رب الأرباب المعظمة، وولي كل إحسان

(١) في (د) و (هـ): من.

(٢) سقط من (د) و (هـ): من.

(٣) في (د) و (هـ): رأوا أو مثله.

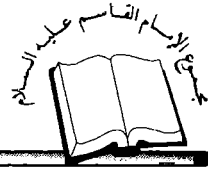
(٤) الحسر: الإعياء والتعب.

(٥) في (أ) و (ج): وأحق من. وفي (ب): وأحق في.

ونعمة، الأول الذي ليس كمثل شيء وهو القوي العزيز القهار الغلاب، ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]. وصل على جبريل أمينك وعلى ملائكتك المصطفين، وعلى محمد رسولك وعلى جميع الرسل والنبين، والحمد لله رب العالمين، وصلواته على سيدنا محمد خير خلقه أجمعين، وأهله الطاهرين وسلامه.

تم كتاب الدليل على الواحد الجليل





الدليل الصغير



بسم الله الرحمن الرحيم

قال أبو محمد الحسن بن القاسم رضي الله عنه:

سألت أبي رضي الله عنه عن الحجة على من ألحد في الله تمرداً، وجهل المعرفة بالله حيرةً وتلدداً، فظن أنه موقن بمعرفة رب الأرباب، وهو من ظنه لذلك في مرية وحيرة وارتباب، فكثير أولئك، ومن هو كذلك، وإن هو لم يظهر ما في قلبه، من الحيرة والجهل بربه، جل جلاله وسلطانه، وظهر دليل الإيقان به وبرهانه؟!

فقال: إنما يُستدل يا بني: على إيقان الموقنين، بمعرفة رب العالمين، بطاعتهم لله وتقواهم، فبهما يُعرف يقينهم بالله وهداهم.

ولذلك يا بني وفيه، من الدلائل عليه، قول الله سبحانه (لرسوله) صلى الله عليه وآله: ﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة: ١٠٥]. وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحجرات: ١٥]. وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [التكوير: ٢٠] تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ [السجدة: ١٥-١٦]. وآياته سبحانه فهي وحيه وتزييله، وشواهد الإيقان به ودليله، والإيمان فمن الإيقان، وهو الأمان من كبائر العصيان. وأكبر الكبائر عند الله، وعند الصالحين من خلق الله، فهو الإنكار لله، والإلحاد في الله، والارتباب في معرفة الله.

وفي ارتباب المرتابين، وصفة الله للمؤمنين، ما يقول أرحم الراحمين: ﴿ لَا يَسْتَفْزِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠] إِنَّمَا يَسْتَفْزِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَبِّهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ [التوبة: ٤٤-٤٥].

وفي الحيرة والمرية والشك والارتباب، ما يقول سبحانه لأهل إضاعة طاعته والغفلة

والتقصير والألعاب^(١): ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾^(٢)
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾^(٣) بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ
يَلْعَبُونَ﴾^(٤) [الدخان: ٧-٩]. فأخبر^(٥) تبارك وتعالى بلعبهم، عن شكهم في ربه، ودل
بذلك على أن من اشتغل عن طاعة الله بلعبه، فليس من الموقنين مع ذلك بالمعرفة بالله
ربه.

[التفكير طريق المعرفة بالله]

وفي قلة اليقين بالغيب، وما يعرض للجاهلين فيه من الريب، ما يقول الله سبحانه
فيما قص من نيا^(٦) قوم نوح وعاد وثمود وآدم وقوم لوط وأصحاب الأيكة، وما أحل
بهم بعد ما أراهم من الآيات والدلالات البينات من التدمير والهلكة، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾^(٨) [الشعراء:
١٩٠-١٩١]. ففي كل ما قص الله من ذلك لمن يعقل فيوقن ببيان من الله فيما ذكرنا من
قلة اليقين وتعريف وتفهم، واليقين بالغيب فإنما يكون، بما يدركه^(٩) الفكر لا بما
تدركه العيون، فمن لم يفكر بقلبه فيما غاب عنه، لم يؤمن أبدا بشيء منه.

والآية في كل ما كانت من الأشياء فيه، فهي الدلالة البينة المستدل بها عليه، ومن
استدل بالآيات على ما غاب صح له به^(١٠) يقينه، وإن لم يره ولم يبصره لغيبته عنه،
وكان أصح عنده صحة، وأوضح له ضحة^(١١)، من كل ما وضح من الأمور كلها
فاستنار، وأيقن به كما يوقن بالليل^(١٢) والنهار، بل كان أصح عنده في الإيقان، من
كل ما أدركه برؤية أو عيان، لفضل درك اليقين، على درك الرؤية والعين، ومن لم

(١) في (أ) و (ج): والألعاب ما يقول.

(٢) سقط من (ب): فأخبر.

(٣) في (ب): أنباء.

(٤) في (أ): يذكره.

(٥) سقط من (ب): له به. ومن (د): به.

(٦) الضحة: الظهور والوضوح. يقال: ما لكلامه ضحى - كهدى - بيان.

(٧) في (أ) و (ج): الليل.

يفكر، لم يؤمن ولم يبصر، وإنما يوقن من فكر، ويبصر من نظر، كما قال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ [الأعراف: ١٨٤، الروم: ٨]. ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا﴾ [الأعراف: ١٨٥]. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ [النحل: ٤٨]. تنبيهها من الله بذلك كله لهم على أن يوقنوا فلا يمتروا، فيما عرفهم الله سبحانه من نفسه بآياته، ودلهم على معرفته من غيب أموره بدلالاته، فليس يوصل إلى معرفته واليقين به، وما احتجب عن ^(١) العباد من غيبه، إلا بما جعل من ^(٢) الدلالات، وأرى من الآيات، كما قال سبحانه: ﴿سُرِّيهِمْ ءَايَاتُنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۖ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ۝﴾ [فصلت: ٥٣-٥٤]. ولقاؤهم لربهم فهو مصيرهم ومرجعهم إليه، وليس بلقاء رؤية ولا عيان ولا يمكن شيء من ذلك فيه ^(٣)، لبعده سبحانه في ذلك وغيره من مماثلة الناس وغير الناس، وبقدسه وتعالیه عن أن يُنال أو يُدرك بحاسة من الحواس، وإنما تدرك معرفته وتُنال — له القدس والكبرياء والجلال — بما بين من الدلائل والآيات لقوم يعقلون، كما قال سبحانه: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ١١٨]. فليس بعد تبين الله بيان، يكون به معرفة ولا إيقان.

والحمد لله على ما بين من آياته، وأوضح من دلالاته ^(٤)، ونستعين بالله على اليقين بمعرفته، ونعوذ بالله من الإلحاد في صفته.

وفي مدحة الله سبحانه للأبرار، بما آمنوا به مما غاب عن الأبصار، واستدلوا عليه بالنظر والأفكار، عن ^(٥) غيب المعرفة بالله وإيقانه، وما لا يدرك أبداً من الله برؤيته جهرًا ^(٦) ولا عيانه، وما لا يُصاب فيه أبداً حقيقة العلم واليقين، إلا بما جعل الله عليه

(١) في (أ) و (ج): من.

(٢) في (ب): جعل الله الدلالات.

(٣) سقط من (ب) و (د): فيه.

(٤) في (ب) و (د): دلائله.

(٥) في (ب) و (د): من.

(٦) في (ب) و (د): جهره.

من الشواهد والدليل المبين، هو أحق حقيقة، وأوثق وثيقة، وأثبت يقينا، وأنور تبينا، من كل معانية — كانت أو تكون — أو رؤية، أو درك حاسة ضعيفة أو قوية، ما يقول الله سبحانه: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴿٣١﴾﴾ [البقرة: ٢-٣]. تبرئة من الله لهم فيما غاب عنهم في جميع أموره من كل شك وريب.

[استدلال إبراهيم على وجود الله]

وفي الاستدلال على الله، بما يرى ويبين ^(١) من آيات الله، ما يقول أبوك إبراهيم خليل الله: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ﴿٧٤﴾﴾ [الأنعام: ٧٤]، احتجاجا على قومه في غيبه ^(٢) بما يرون من فطرة الله في سمواته وأرضه وتوقيفاً. ويقول صلى الله عليه: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَأَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيَ إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾﴾ [الشعراء: ٧٥-٨١]. فكل ما ذكر صلى الله عليه وعدد من خلق الله له وهداه، وإطعام الله له وسقيه إياه، وإبراء الله له من مرضه وشفائه، وإماتة الله له وإحيائه، فبدائع موجودة، وأفعال بينة معدودة، لا ينكر موجودها، ولا يجهل معدودها، من المدركين ^(٣) لها من أحد، ألد فيها أو لم يلحد، وإنما ينكر من أنكر صنعها، ويجهل من جهل بدعها، فأما ^(٤) العدد لها والوجود، فبين فيها محدود، لا ينكره منكر، ولا يتحير فيه متحير.

وكل ذي عدد، وكل ما حُدَّ بحد، فالدليل على صنعه تعديده، وعلى أنه محدث

(١) في (أ): ما نور ويين. وفي (ج): بما نور ويين.

(٢) في (ب) و (د): نفسه.

(٣) في (أ) و (ج): المدعين.

(٤) في (ب): وأما.

تجديده، وإذ ^(١) كان ذلك كذلك وجد الصانع المبدع عند وجوده، والمحدد له المحدث بما بان فيه من حدوده، لأنه لا يكون أبداً حدث إلا من محدث موجود، ولا يكون حد ^(٢) أبداً إلا من مفرق محدود، كما قد رأينا في ذوات الحدود، من كل مفرق موجود، لا يمتنع من درك ذلك ويقينه وعلمه ^(٣)، إلا من كان مكابراً فيه لحسنه ووهمه.

وإنما أراد إبراهيم صلى الله عليه بما عدّد من ذلك وذكر، ما ابتدع من ذلك كله وصنع وافتطر، مما لا صنع فيه لصانع مع الله، وما لم يوجد شيء فيه قط إلا من الله، فأما ما يصنع العباد بعد صنع الله من أخذ وعطاء، وما يدور في ذلك بينهم من الأشياء، فلم يرده إبراهيم صلى الله عليه، ولم يعدده ولم يذهب إليه، وكل ما كان من العباد في ذلك من الصنائع، فغير صنع الله في الابتداء والبدائع، صنع الله سبحانه فابتداع، وصنع العباد فاحتيال ^(٤) واصطناع، وصنع الصّانع، غير صنع الطبايع، صنع الطبايع ^(٥) صنيعاً مبتدعة مطبوعة، وصنع الصانع فصنعة معتملة مصنوعة، والصنعة لا تكون إلا في مصنوع، والطبيعة لا تكون إلا في مبدوع، فما طبع من غير شيء، وكان من غير أصل ولا بدّي، وذلك كله وأمثاله، فما لا يصنعه إلا الله جل جلاله، ولا يدركه أبداً ولا يناله، صنع الخلق ولا احتياله.

ولو كان - ما صنع وابتدع تبارك وتعالى، من ذلك من ^(٦) الأرضين والسموات العلى، وجعل من الليل والنهار، وما مزج بقدرته من البحار، وما أرسى من الجبال، صنّع أكفّ واحتيال - إذاً لما قدر بذلك على صنع أقله، فضلاً عن صنع جميعه وكله، في وقت من الأوقات وإن طال أبداً، بل إن كان الوقت منه ممتداً سرمداً ^(٧)، ولكنه

(١) في (ب) و (د): وإذا.

(٢) في (ب) و (د): حدا. مصحفة.

(٣) في (أ) و (ج): وعلمه ويقينه. مقلوبة.

(٤) في (أ): فاختيار. مصحفة.

(٥) سقط من: (أ) و (ب) و (د): صنع الطبايع. ولعلها سقطت لظن التكرار.

(٦) في (ب): ومن.

(٧) في (ب) و (د): وإن كان الوقت فيه ممتداً سرمداً.

تبارك وتعالى صنعه وأنشأه، فابتدعه كله وفطره فطرة واحدة فَبَرَاهُ ^(١)، كما قال سبحانه: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧]. ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأُنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. وفي أقل ما ذكر الله من ذلك وجعل، لمن فكر ونظر فاستدل ^(٢)، دليل مبين، وعلم يقين.

وأي دليل على الله؟! وعلى اليقين بالله؟! من افتطار الله للسموات والأرض، وما جعل منا ومن الأنعام أزواجا بعضها لبعض، فجعل سبحانه ما ذكر من الأزواج أصولا، أنسل منها بقدرته نسولا، لا يحصيها أبداً غيره، ولا يمكن فيها إلا تدبيره، فأَي دليل أدل؟ لمن فكر فاستدل، على اليقين بالله؟! مما ^(٣) يراه عيانا من صنع الله، للأزواج المجعلولة المحدثّة، وما خولف به في ذلك بينها من الذكورة والأنوثة، فجعل ذكور الأزواج غير إناثها، دلالة بذلك على جعلها وإحداثها، وكان ما ^(٤) عُوِينَ بعدها من ذُرُوءِ نسلها وتكثيره، دليلاً على حكمة صانعها وتدبيره، وآيةً أبانها منيرة مضيئة، ودلالة بينة جلية، لمن فكر ونظر - فأحسن - بقلبه، على الله خالقه وربّه، فأيقن لفكره فيما يراه ببصره، وما يدركه بمشاعره بالله ^(٥) مقدّره ومدبّره، فظفر باليقين والهدى، وسلم من الحيرة والردى، فاستراح ووثق واطمأن، واعتقد المعرفة بالله وأيقن، فخرج ^(٦) بيقينه من الظلمة والحرية والشك ^(٧)، إذا أيقن بالله مليك كل ذي ملك.

وفي مثل ذلك من الخلق والإحداث، لما ذكر الله من صنعه للذكور والإناث، ما

(١) براه: خلقه.

(٢) في (ب) و (د): واستدل.

(٣) في (ب): بما.

(٤) في (أ) و (ج): مما.

(٥) في (ب) و (د): فالله.

(٦) في (ب) و (د): فيخرج بنفسه.

(٧) في (أ) و (ج): والشك والحيرة. (زيادة).

يقول سبحانه: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ ۖ أَوْ يَزْوَجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ [الشورى: ٤٩-٥٠]. فَمُلْكُ جميعهما، وما يرى من بديعهما ^(١)، فمعانين موجود لا يخفى ولا يتوارى، عن كل من يعقل ويصبر فيرى، وكل ملك صح دركه رؤية وإيقانا، فلا بد من درك مالكة باليقين وإن لم يُرَ جهرة عيانا. وكل مفترق في الخلقة والصنع والفظور، مما ذكر سبحانه من الإناث والذكور، فوجد كما وجد ^(٢) افتراقه، وبان فطرة صنعه وفطرته واختلاقه، فلا بد له اضطرابا، إذ وجد كذلك ^(٣) جهارا، من مميّز فارق، ومفطر خالق، لا يشك في ذلك ولا يجمله، إلا من لا عقل له.

فَلَخَلَقَ اللهُ تبارك وتعالى لما شاء، فرّق بين ما خلق من الذكور والإناث وأنشأ، فوهب لمن يشاء إناثا ووهب لمن شاء ذكورا، وجعل كلا على حياله خلقا مفطورا، غير مُشبه بعضه لبعض، كما السماء غير مشبهة للأرض، ووهب لمن شاء ذكورا وإناثا معاً، فجمع ذلك له بموهبته فيه جميعاً، وجعل من شاء من الرجال والنساء عقيما لا يلد ولداً، ولا يكون ^(٤) منه ولد أبداً، إلا بعد تبديله الإعقام وتغييره، وبحدته ^(٥) يحدثه في ذلك من صنعه وتديره، ^(٦) كما فعل سبحانه في امرأة زكريا، وما وهب لهما ^(٧) من يحيى، صلى الله عليهما وعليه، وما من به عليهما من ذلك وفيه. وما وهب لإبراهيم صلى الله عليه من الولد بعد يأسسه منه، وكبره صلى الله عليه عنه ^(٨)، وفي ذلك ما يقول عليه السلام ذكراً، وحماً وشكراً، بما وهب له تبارك وتعالى، في ذلك من الموهبة والنعماء: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي

(١) في (أ) و (ج): جميعها وما يرى من بديعهما.

(٢) في (أ) و (ج): وجدنا.

(٣) في (أ) و (ج): ذلك.

(٤) سقط من (أ) و (ج): يكون.

(٥) في (أ) و (ج): ولحادث.

(٦) سقط من (ب): وتديره.

(٧) في (ب) و (د): لها.

(٨) سقط من (أ) و (ج): عنه.

لَسْمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾ [إبراهيم: ٣٩].

وفي محاجة الملك، بالمكابرة والإفك، لإبراهيم^(١) خليل الله، إذ يقول عليه صلوات الله^(٢): ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ فقال الملك بالمكابرة والكذب: - قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴿[البقرة: ٢٥٨]. وإنما قال إبراهيم عليه السلام من ذلك صدقا، ونطق به^(٣) في محاجته للملك بما نطق حقا، لا شك فيه ولا مرية، ولا شبهة ولا ظلمة مُعْشِيَةً، لأنه لما وجدت الحياة يقيناً والموت، وُجِدَ بوجودها اضطرابا المحيي^(٤) المميت. ولما لم يجد الملك - صاغرا لليقين بهما والاضطرار - سبيلاً لنفسه بحدثهما إلا المكابرة فيهما والإنكار،^(٥) كَأَبْرَ لِدَادًا، ومباهتة وجحادًا، فقال: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾. وكيف يكون محيياً أو مميتاً، من لا يملك لنفسه حياة ولا موتاً؟!

وفي مثل ذلك، ومن كان كذلك، ما يقول الله سبحانه: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً﴾ [الفرقان: ٣]. وفيما اتخذوا^(٦) من تلك الآلهة الملائكة المقربون، وعيسى بن مريم عليه السلام وما كان من آلهتهم يعبدون، فقال تعالى: ﴿ءَالِهَةٌ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣]. فلما كابر الملك إبراهيم عليه السلام من قوله بما كابر به بمباهتة وإفكاً وزورا،^(٧) فقال صلوات الله عليه ورضوانه: ﴿فَأْتِ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وتأويل بُهِتَ هو: صمت وسكت عن الإفك والمباهتة والجحود، إذ قرره صلى

(١) في (ب) و (د): لأبيك إبراهيم.

(٢) في (أ) و (ج): صلوات رب العالمين.

(٣) سقط من (ب) و (د): به.

(٤) في (ب) و (د): المحيي والمميت.

(٥) في (أ) و (ج): وإن كان. مصحفة.

(٦) في (ب) و (د): اتخذ.

(٧) سقط من (أ) و (ج): وزورا.

الله عليه بأمر معين موجود، لا ينكره إلا بمكابرة فاحشة عقل الملك ولا عقل غيره، لما فيه من بين أثر تدبير الله وتقديره، من دليل^(١) الملك والتسخير، من دؤوب^(٢) التحرك والمسير، جيئة وزهوباً، وطلعة وغروباً، فهي طالعة وغائبة لا تقصر، وجائية^(٣) وزاهية لا تفتقر، مختلفاً^(٤) بها ما جعل الله من الليل والنهار، وما قدر^(٥) بمسيرها من الأوقات والأقدار، وبما بان من ذلك وأنار لكل أحد، بُهت الذي كفر فلم يكابر ولم يبحد.

[استدلال موسى على وجود الله]

وكذلك قال موسى عليه السلام إذ قال لفرعون، حين قال له ولأخيه هارون: ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ ﴿١١﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿١٢﴾﴾ [طه: ٤٩-٥٠]، فدلّه صلى الله عليه على ربهما بأدل دلائل الهدى، من عطائه سبحانه لخلقه من نعمه ما أعطاهم، وما من به جل ثناؤه من هداهم، لكل رشد^(٦) في دينهم ودنياهم.

وفيما ذكر موسى صلى الله عليه من عطية الله لخلقه، ما أعطاهم من هداه لهم ورزقه، ما يقول سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]. ويقول سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحج: ١٣]. وفي هدايته لهم ما يقول سبحانه: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونٍ أَمْهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]. ولفرعون ما

(١) في (ب) و (د): بدليل.

(٢) في (ب) و (د): في دؤب. وفي (أ) و (ج): من دون. مصحفة.

(٣) سقط من (ب) و (د): وجائية.

(٤) في (ب) و (د): مختلفاً. مصحفة.

(٥) في (ب) و (د): قدر الله.

(٦) في (ب) و (د): للرشد.

يقول موسى عليه السلام إذ ﴿ قِيلَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٣-٢٤]. فلما أن قال له ذلك: ﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٥]؟! يريد ما تقولون؟ فقالوا لموسى ما قال، وسألوه عما سال، ^(١) فقال عليه السلام رب العالمين: ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٦]، دلالة لهم على أن الله ربههم ورب آبائهم الأولين، بما بين ^(٢) لهم ولغيرهم من تدبيرهم وإنشائهم، الذي لا يمتنعون ^(٣) من وجوده في أنفسهم، وفي كل عضو من ^(٤) أعضائهم، بالنشأة البينة فيهم والتقدير، والهيئة الظاهرة عليهم والتصوير، فلما قطعه وقطعهم، من حجة الله بما أسمعهم ^(٥) وأسمعهم، خرج فرعون في المسألة والمجادلة، إلى غير ما كان فيه من الجدل والمقابلة، فقال العمي الملعون: ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الشعراء: ٢٧]. فرد عليه موسى عليه السلام قوله، بتبيين الحجة القاطعة له، فقال له ولمن حوله كلهم أجمعين، فيما كانوا يتقاولون ^(٦) أو يتجاهلون ويجهلون، ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٨]، فالمشرق ^(٧) والمغرب وما بينهما كله فمربوب لا يشك فيه إلا الجاهلون، ^(٨) لما يرى فيه، ويتبين عليه، من أثر الصنع ^(٩) والتدبير، والهيئة البينة والمقادير.

فلما وقَّفه وإياهم على الآيات فلم يقفوا، وعرفهم الدليل والبيّنات فلم يعرفوا، وأمسكوا عن المسألة والمقال خاصتين محسورين، قال فرعون: ﴿ لَيْسَ آتَّخَذَتِ إِلَهًا

(١) سال بدون همز، لغة حجازية فصيحة.

(٢) سقط من (ب) و (د): الأولين. وفي (أ) و (ج): يبين.

(٣) في (أ) و (ج): لا يسمعون. وفي (ب) و (د): يمتنعون. ولفقت النص من الجميع.

(٤) في (أ) و (ج): غوامض. مصحفة.

(٥) سقط من (ب) و (د): أسمعهم.

(٦) في (أ) و (ج): يقولون.

(٧) في (ب) و (د): المشرق.

(٨) في (أ) و (ج): جاهل.

(٩) في (أ) و (ج): آثار. وفي (ب): الصنعة.

عَبْرَى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٣٠﴾ [الشعراء: ٢٩]. قال موسى عليه السلام توقيفاً له ولهم^(١) وتعريفاً، وتقريراً للحجة^(٢) عليهم وتعطيفاً: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿٣١﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ [الشعراء: ٣٠-٣٢].

ويعمل احتجاج إبراهيم صلى الله عليه وموسى عليه السلام على من أُلْحِدَ وجحد وأشرك، لم تنزل رسل الله تحتج على من تحير في الله أو ارتاب أو شك، وذلك^(٣) فَبَيِّنَ والحمد لله فيما نزل من كتبه كثير^(٤)، وقولهم في الإحتجاج على من جحد أو أُلْحِدَ أو أشرك فواضح منير، لا يطفأ له سراج، ولا يشبهه احتجاج، ولا ينكره من الخلق كلهم رشيد، ولا يأبى قبوله من الخلق إلا شيطان مرید.

وما لم يزل الله برحمته وفضله،^(٥) يدل به من هذا ومثله، في كتبه^(٦) وعلى السن رسله، فكثير عن الذكر له والاستقصاء، والتعديد والإحصاء، في كتابنا هذا وأمثاله، فنحمد الله على مَنَّةٍ فيه وإفضاله، ونسأل الله أن يجعلنا وإياك - بما بَصَّرَ - من المبصرين، وفيما أمر بالفكر فيه من المفكرين.

اسمع يا بني^(٧): فقد سألت أرشدك الله للهدى، وجعلك رشيداً مرشداً، عن أولى ما سأل عنه سائل أراد لنفسه أو لغيره رشداً وهدى، أو لمبطل كان فيما سألت عنه متحيراً أو ملحداً متمرداً.

فجعلنا الله وإياك فيما سألت عنه، من القائلين بما يرضى منه، ووهبنا من البصائر بدلائله وآياته، ما وهب للقائلين في ذلك من محبته ومرضاته، فانه لن يصيب في ذلك

(١) سقط من (أ) و (ج): ولهم.

(٢) في (ب): وتكرير الحجة. وفي (د): وتكرير اللحجة.

(٣) في (أ) و (ج): في ذلك.

(٤) سقط من (ب) و (د): كثير.

(٥) في (ب) و (د): وفضله يؤتي فضله.

(٦) في (أ) و (ج): كتبهم. مصحفة.

(٧) سقط من (ب) و (د): اسمع يا بني.

هَـدَاهُ، إِلَّا مِنْ أَرَشَدِهِ وَهَدَاهُ، وَلَنْ يَظْفِرَ فِيهِ بِيغِيْتِهِ وَطَلْبَتِهِ، إِلَّا مِنْ كَانَ مُتَحَرِّياً لِإِرَادَةِ^(١) اللَّهِ فِيهِ وَمَحَبَّتِهِ.

وبعد: فاعلم يا بني: نفعلك^(٢) الله بعلمك فكم من علم غير نافع، ومنادى^(٣) له وإن كان صحيحاً سمعه غير سامع، وناطق في عداد البكم، إذ ينطق بغير رشد في الهدى ولا علم،^(٤) وكم من ناظر لا يبصر^(٥) ولا يرى، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرْلَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨]. وقال سبحانه: ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُمَّىٰ فَعَمًى لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]. فليس كل من علم انتفع ولا اتبع، ولا كل من نُودِيَ به سمع ولا استمع، ولا كل من نطق فكر، ولا كل^(٦) من نظر أبصر، ولا كل من له قلب فقه ولا عقل، إذا^(٧) هو أعرض وترك وغفل.

وفي أولئك، ومن هو كذلك، ما يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، فكفى رحمك الله بما نرى من هذا ومثله في كثير من الناس بيانا وآيات لقوم يعقلون.

[عِظَةٌ بِلِغَةٍ]

وكيف لا يكون عند من يعلم أو يعقل كالأنعام، من لا يهتم إلا بما لها من الهم

(١) في (أ) و (ج): بغيته وطلبته، إلا من كان متحريراً لإرادة الله.

(٢) في (ب): ينفعلك.

(٣) في (ب) و (د): له بعد علمه وإن. (زيادة).

(٤) في (أ) و (ج): إذ نطق بغير رشد إلى الهدى، وكم.

(٥) سقط من (أ) و (ج): لا يبصر.

(٦) سقط من (ب) و (د): كل.

(٧) في (أ) و (ج): إذ.

والإهتمام، في مأكَل أو منكح، أو لعب أو مُتمرِّح، فعلمه علمها، وهمته همتها، فهو مُكَبٌّ عليها، لا يرغب إلا فيها، ولا تنازعه نفسه إلا إليها، فلها يجتهد ويشقى، وبها يدعو ويُدعى، غافلا عما شِيبَ بمحآبه فيها من الأذى والمكاره، غير مُتَعَطِّ بشيء ولا معتبر ولا متنبه، وقد يوقن إيقانا، ويرى بعينه عيانا، أن ما يحب من ديناه وحياتها مشوبٌ بموقتها، وما يشوبه من دركها مقرون بفوقها، فكم من مدرك من^(١) بعد دركه فايت، وحي بعد حياته مائت، قد تبدد شمله، وأعرض عنه أهله، الذين كان يُعِدُّهم له أحبابا، ويكد لهم في حياته بجهده اكتسابا، بما حل من المكاسب أو حرُم، أو حُمد من المطالب أو ذُم، وكم قَبْلَ موته عنهم، كان من مسخط له^(٢) منهم، قليل له شكره، سيء له ذكره، ورثه ما جمع غير شاكر ولا حامد، يقول: لقد كان فلان غير مهتد ولا راشد، كما يقول أعدى الأعداء، وأبعد البعداء، يُعَجِّب بعض من يجالس بعد موت شخصه، بما كان يرى من كده قبل موته وحرصه، وكم كان له قبل موته من خليل حبيب مقارن،^(٣) أسلمه عند وفاته لموته إسلامَ البعيد المباين، وَلَهَى بعده، بخليل جدِّه! فكأن لم يكن لمن مات^(٤) خَدِينا! ولم يَعُدَّه بعد موته قرينا! بل كم من أب والد، أو ولد حبيب واجد، تعزى فسلا، عمن مات وتولى، واشتغل من بَعْدَه بأشغاله، وأقبل على ما يعنيه من حاله، وقال هلك أبي ومات! أو ذهب ابني وفات! فما عسيت أن أصنع؟! وهل لي في الجزع منتفع؟! تسهلا في مصابه لما دهاه، وتفرغا بمقاله لديناه، فهذا في الوالد والولد، وهما سلاله النفس والجسد، كما تعلم وترى، فكيف بغيره من الأمور الأخرى، من المال والأثاث، والفكاهات والأعباث؟!

وفي الولد رحمك الله وفي المال، ما يقول ذو الكبرياء والجلال، لحمد عبده ورسوله، صلى الله عليه وآله: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٨٠]. فجعل

(١) في (أ) و (ج): بعد من دركه. وسقط من (ب) و (د): من. وما أثبت اجتهاد.

(٢) سقط من (ب): له.

(٣) في (ب) و (د): مقارب. مصحفة.

(٤) في (ب) و (د): مات إذ مات.

سبحانه المال والولد لهم عذابا في حياتهم وهما عندهم آثر ما يؤثرون^(١)، وما قال سبحانه من ذلك فقد رأيناه يقينا، وأدركناه فيهم ظاهرا مبينا، لا يشك فيما ذكر الله منه سبحانه ولا يمتري، ولا يجهله منا إلا من لا يعقل ولا يدري!! أو ليس قد علمنا أن العذاب، ألم ونصب وأتعاب، وقد رأينا من نصب أهل الأموال والأولاد فيهما، وبشفقتهم ومحافظتهم عليهما،^(٢) ما يكثر به السهر والسهاد، ويقل معه الخفض^(٣) والرقاد، فأئى ألم أوجع لفؤاد أو جسم، أو أدعى لمرض أو سقم، من السهر والنصب والاهتمام؟! وقد يترك له كثير من الشراب والطعام!!

والمال والولد فإنما هما كما قال الله سبحانه فتنة، والفتنة قد يعلم كل ذي لب أنها ابتلاء^(٤) وتمحيص ومحنة، وفي الأزواج رحمك الله والأولاد، وهما أحب الأشياء إلى جهلة العباد، ما يقول رب العالمين، لمن قال له من المؤمنين: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ابْنَ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَدَكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤-١٥]. فكل ما تسمع^(٥) آيات بينات، ودلائل على الله متيقنات، فليس لمن يعقل الحياة الدنيا وحال أهلها وسكانها، مع ما وصفنا من حال أحبائهم وقرنائهم وخللائهم، أنس ولا ثقة، ولا توكل ولا حقيقة، إلا بالله وحده، وبالرغبة فيما عنده، وليس يأنس أبداً بالله، إلا من صح يقينه ومعرفته لله، ولا يعرف الله جل ثناؤه فيوقنه، إلا من يجد أنسه بالله وأمنه، فيكون عليه جل جلاله، معتمده واتكأه، فتقر عينه، ويسلم دينه، ويعز فلا يرى خزيًا^(٦) ولا ذلا، ما كان على الله سبحانه متوكلا.

(١) في (ب): يرون.

(٢) في (ب): فيها بشفقتهم ومحافظتهم عليها. وفي (د): فيها شفقتهم عليها ومحافظتهم عليها. وفي (أ) و (د): فيها وشفقتهم ومحافظتهم عليها. ولفقت النص من الجميع.

(٣) الخفض: الدعة، والسكون.

(٤) في (ب) و (د): بلوى.

(٥) في (ب) و (د): ما ذكر الله.

(٦) في (أ) و (ج) و (د): حزناً.

[التوكل على الله]

ولمّا جعل الله من ذلك في التوكل عليه، أمر رسوله عليه السلام به ودعاه إليه، فقال سبحانه لرسوله، صلى الله عليه وعلى آله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩]. والعرش العظيم^(١) فهو السلطان والملك، الذي ليس لأحد مع الله فيه نصيب ولا شرك^(٢).

والتوكل فهو الاعتماد عليه والثقة به، وأصل توكل كل متوكل فهو اليقين والمعرفة بربه.

وفي التوكل على الله وذكره، وما عظم الله من التوكل عليه وقدره، ما يقول تبارك وتعالى لقوم يؤمنون: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التغابن: ١٣]^(٣). (وفي التوكل على الله، ما يقول رسل الله^(٤)): ﴿وَمَا لَنَا إِلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢]. فمن^(٥) توكل على الله كُفي بالله واستغنى، وعاش في دنياه مسرورا آمنا، غير مشوبة كفايته ولا غناه، بحاجة ولا فقر في آخرته ولا دنياه، ولا مشوب سروره بحزن، ولا آمنه بخوف ولا وهن، كما قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٤-٦٣]. لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٤-٦٣].

وكيف يخاف أو يحزن؟! ولا يأنس فيأمن،^(٦) مَنْ كان الله معه! وَمَنْ حاطه ومنعه! وإن مكر به الماكرون، وخذله من قرابته الناصرون!!

(١) سقط من (أ) و (ب) و (ج): العرش العظيم.

(٢) في (أ) و (ج): ولا شريك.

(٣) في جميع المخطوطات: المتوكلون. والآية كما أثبت.

(٤) في (ب) و (ج): رسل الله عليهم السلام. وما أثبت اجتهد.

(٥) سقط من (أ) و (ج): ما بين القوسين. وفي (ب) و (د): ومن.

(٦) سقط من (ب): فيأمن.

وفي ذلك ما يقول الله سبحانه لرسوله، صلى الله عليه وآله: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ (٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿٢٨﴾ [النحل: ١٢٧-١٢٨]. وأول التقوى والإيمان، والبر والنهي^(١) والإحسان، فهو حقيقة المعرفة بالله والإيقان، فمن أيقن بالله وعرفه أنس واستراح، وجمع بمعرفته لله السرور والأفراح، وقلّت وحشته وأحزانه، وعظمت راحته وأمانه.

ومعرفة الله لمن أبصر سبيلها، واستدل دليلها، فأقرب قريب يرى علانية جهارا، أو يستدل عليه بدليل من دلائله اعتبارا، فالحمد لله الذي قرب إلى معرفته واليقين به السبيل، وأقام فيها وعليها برحمته الآيات والدليل، فسبيلها من الله سهل يسير، ودليلهما^(٢) والحمد لله فظاهر منير، ينطق بهما البُكم^(٣) الخرس، في كل ما تدركه فكرة أو حس، من كِبائر الخلق وصغائره، وعوالن^(٤) الصنع وسرائره، فلا يتعنت^(٥) في أوصاف ذلك واصف ولا متعنت،^(٦) ولا يلتفت إلى شيء منه كله ملتفت، إلا رأى منه عيانا بعينه، أو سمع منه سماعا بإذنه، أو ذاق منه ذوقا بفمه، أو لمس منه لمسا بجسمه، أو شم منه شمًا بأنفه، ما يدل على تغييره وتصرفه، وعلى أنه مصنوع في نفسه، لدرك المدرك له بحسه. إذ كل محسوس يحس، من الجن كان أو من الإنس، فمركب لا بد مجموع، وكل مركب فهو لا محالة مصنوع، وصانعه ومدبره و مركبه فغيره، إذ^(٧) وضح صنعه وتركيبه وتبذيره، وما سوى الإنس والجان، من كل موات أو حيوان،^(٨) فقد يدرك أيضا بحاسة من الحواس الخمس، وما يدرك بمباشرة الفكر له من كل نفس،

(١) في (أ) و (ج): والتقى.

(٢) في (أ): ودليلها.

(٣) في (أ): بما. وفي (أ) و (ج): إليكم. مصحفة.

(٤) في (ب) و (د): وعوالي. مصحفة.

(٥) في (ب) و (د): يتعنت. مصحفة.

(٦) في (ب) و (د): ولا يسغب. مصحفة.

(٧) في (ب): إذا.

(٨) في (ب) و (د): وحيوان.

فمركب لا يخفى على من فكر فيه تركيبه، وسواء في الفكر عنده بعيدة وقريبه.

[قوى النفس]

والنفس فالدليل على تركيبها أنها ذات قوى شتى، مختلفة وتبدل^(١) وتنقل وتصرف لا تخفى، فمن قواها، وإن كنا لا نراها، هيئة تبين ولا صورة، أنها ذات ذكر وفكرة، ومفكرها فغير ذاكرها، وإذا ثبت ما ذكرنا من تغايرها، صح بذلك أن لها قوى، كانت لذلك أقساماً وأجزاء، وكل ذي قسم وأجزاء متغايرة، مصورة كانت أو غير مصورة، فهو مركب غير شك، ومدبر في قدرة ومُلك، ولتركيبها تصرف وتنقل، فعلمت مرةً وجهلت، فتغيرت من جهل وصلاح، إلى علم وصلاح، ومن حزن وترح، إلى سرور وفرح.

وقوى النفس فكثيرة أقسام، ليس للنفس بغيرها تنمة ولا قوام، ولا يزول قسم من أقسام النفس عنها، إلا كان في زواله فناء ما كان موجوداً منها، فقوة النفس الأولى فهي القوة الغذائية،^(٢) وقوة النفس الحاسة فهي قوتها الثانية، وقوتها الثالثة، فهي الناهضة المتقابضة، وقوة النفس الرابعة فهي^(٣) المالكة من الشهوة والغضب بالفكر لما ملكت، وأي هذه القوى كلها فني من النفس وهلك فنيت النفس بفنائها وهلكت، وكل قوة من هذه القوى، فمقسمة أقساماً أجزاء.

ومن الدلالة على أن قوى النفس غير واحدة، وأنها قوى كثيرة ذوات عدة، ما ذكرنا من اختلاف أحوالها، وتغيرها وانتقالها، وكل متغير، فتركيبه نير^(٤) والتركيب

(١) في (ب) و (د): وتبدل. والظاهر أنها مصحفة. والأفعال الثلاثة أفعال مضارعة محذوفة التاء تخفيفاً. كقوله تعالى: ﴿ولا تفرقوا﴾. أي: تنفروا.

(٢) في (ب) و (د): العادية.

(٣) في (ب) و (د): فهو.

(٤) في (أ) و (ج): بين. مصحفة.

فحدث^(١) بَيِّن، ولا بد لكل حدث من صانع محدث، لا ينكر ذلك إلا كل مكابر متعَبِّث،^(٢) ولا يكون حدث مصنوع مثل محدثه وصانعه أبداً، ولا مشبهاً له في شيء من الأشياء ولا ندأ، لأنه أبداً^(٣) إن أشبه المصنوع الصانع في معنى واحد من معانيه، جرى في ذلك من المعنى على الصانع من الحدث ما يجري عليه، صغر ذلك المعنى أو كبر، وقل فيما يُدرك منه أو كثر، ولذلك جل الله سبحانه وتبرأ، من أن يكون مشبهاً من خلقه لشيء مما يُرى أو لا يُرى، ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]. و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. ويقول جل جلاله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. فنفى سبحانه من قليل مشاهدة خلقه في السنة ما نفى من كثيرها، تقدساً وتعالى عن صغير المماثلة لخلقه وكبيرها، فتعالى من ليس له مثل يكافيه، ولا ند من الأشياء كلها يساويه، ولا يشك فيه ولا يمتري^(٤) إلا مَنْ جهل نفسه فهي أقرب الأشياء إليه، وما يرى من السماوات والأرض خلقه وبين يديه.

[الدلائل على الله]

وفي أولئك، ومن كان كذلك، ما يقول رسل الله صلى الله عليهم، لمن أرسله جل ثناؤه إليهم: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ٦]. تعجباً وإكباراً، و تفحشاً^(٥) وإنكاراً، لشك الشاكين، مع ما يرون من فطرة الله في السماوات

(١) في (ب) و (د): محدث.

(٢) في جميع المخطوطات متعنت. مصحفة. والصحيح ما أثبت. والله أعلم.

(٣) سقط من (ب) و (د): أبداً.

(٤) في (ب) و (د): ولا يمتري ولا يشك فيه.

(٥) في (أ) و (ج): أو تفحيشاً.

والأرضين، التي لا تخفى ولا تتوارى، عن كل من يبصر بعين أو يرى، ^(١) أو يحس بحاسة حساً، أو يتوجس توجساً، لأن كل أحد من الناس، لا يخلو من حس أو إيجاس، والإحساس. ما يحس المحس ^(٢) بحواسه، والتوجس فما يكون بالنفس ^(٣) بالتوهم من إيجاسه، ^(٤) فكل ذي نفس، أو درك يُحس بحس، أو بحسوس أثر بالأرض ^(٥) والسماء، وبما له ^(٦) من الأعضاء، ففي إحساسه أو إيجاسه بأقل درك، ^(٧) بغير ما مرية ولا شك، ما دله على الصنع ^(٨) والتركيب، وعلى ما لله في ذلك من التدبير العجيب، الذي لا يكون أبداً أصغره، إلا وهو دليل مبين على من دبره، لا ينكر ذلك أو يجحده، من يحسه ويجده، إلا بمكابرة ليقين نفسه، ومكابرة لدرك حسه، ومن صار إلى تلك من الحال، خرج من حدود المنازعة والجدال، ولم ينازعه بعد ذلك ^(٩) ويجادله، إلا من هو في الجهل مثله. ولذلك ما يقول الله جل ثناؤه لرسوله: ﴿فَاعْرِضْ عَنْ تَوَلَّيَ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرْدِ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ^(١٠) ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى ^(١١) ﴿[النجم: ٢٩-٣٠]. فأخبر سبحانه أن مبلغ من أعرض عن ذكره وتولى، ولم يرد - كما قال الله جل ثناؤه - إلا الحياة الدنيا، في فهمه وعلمه بدنيها، وما يريده منها ويرضاه، ^(١٢) مبلغ البهائم في علمها بدنيها، ^(١٣) وما تريده البهائم فيها من متعتها ومرعاها، ومن أجل ذلك ولذلك، وإذ ^(١٤)

(١) سقط من (ب) و (د): أو يرى.

(٢) في (ب) و (د): والإيجاس. وفي (ب) و (د): ما يحس الحاس.

(٣) في (ب) و (د): من النفس.

(٤) في (أ) و (ج): انجاسه.

(٥) في (ب) و (د): أو توجيس أثر. وفي (أ) و (ج): أثر الأرض.

(٦) في (أ): وبمسه من. وفي (ج): وتمبله. (مصحفة).

(٧) في (أ) و (ج): انجاسه بأقل. وفي (أ) و (ج): بأقل ذلك.

(٨) في (ب) و (د): فأدلة. وسقط من (د): الصنع.

(٩) في (ب) و (د): ولا ينازعه بعد تلك.

(١٠) في (ب): وما يرضاه.

(١١) في (ب) و (د): علم دنياه. وفي (أ) و (ج): عملها بدنيها. ولفقت النص من الجميع.

وإذ^(١) كانوا سواء كذلك، مثلهم الله من البهائم بأمثالهم، وجعلهم أضل من البهائم في ضلالهم، فقال سبحانه لرسوله، صلى الله عليه وعلى آله: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ ﴿٤٤﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾﴾ [الفرقان: ٤٤-٤٥]. ثم جعل سبحانه الاستدلال^(٢) عليه بذلك بينا منيرا، فقال تعالى ذكره في قبضه للظل: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ ﴿٤٦﴾ [الفرقان: ٤٦]. يعني سبحانه تيسيرا هينا،^(٣) ظاهرا لا يخفى بيئا. وقبض الظل فهو فناؤه، وذهابه وانطواؤه، ولا ينقبض ويفنى، ويذهب ويطوى، شيء مما كان أبدا، جميعا كان أو فردا، إلا كان قابضه ومفنيه، ومذهبه وطاويه، موجودا يقينا بلا شك ولا مرية فيه، راشهدا بصنعه لصانعه، ودليلا عليه مكفيا من^(٤) علم غيب صانعه، وإن لم يُر بدرك اليقين،^(٥) من درك مشاهدة كل حاسة من عين أو غير عين، وزيادة الظل ومده، فلا يكون^(٦) إلا بمن يزيده ويمده، وإذا كان زائده ومآده ومدبره، لا تدركه العيون ولا تبصره، وإنما تقع العيون على صنعه وفطرته، كان أدل على جلاله وقدرته.

ثم أتبع ما صنع من مده سبحانه للظل وقبضه وتدييره، بما ذكر وفطر وخلق وجعل من غيره، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ ﴿٤٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِنُخْضِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْوَاسًا كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ ... * وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٥٠﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ

(١) في (ب) و (د): وإذا.

(٢) في (أ) و (ج): استدلالا.

(٣) سقط من (أ): يعني سبحانه تيسيرا.

(٤) في (ب) و (د): مكفا في.

(٥) في (أ): باليقين. وفي (ب) و (د): النفس.

(٦) في (ب) و (د): فلا يكونان.

مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥٥﴾ [الفرقان: ٥٤-٥٥]. فقرّر سبحانه بذكر آيات الظل ودلائله، ما يسمع من ذكر آيات خلقه وفطره وجعائله، رحمة منه ورأفة بعباده، وزيادة منه برحمته لهم من إرشاده، للمعرفة به والإيقان، إذ لا يدرك بحاسة ولا عيان، ولا يعرف ماله من الكبرياء والجلال، إلا بالشواهد والآيات والاستدلال، وكان دركه سبحانه بذلك أصح الدرك، وأنفاه لكل^(١) مرية وشك، لأن درك الاستدلال واليقين، لا يدخل عليه ولا فيه ما يدخل من الشك في درك العين، لأن العين ربما رأت الشيء شيئين، كاهلال تراه^(٢) هلالين، كالشيء الصغير إذا بُعد تراه كبيراً، وكالكبير إذا كان كذلك تراه صغيراً، ودرك اليقين^(٣) والاستدلال والأفكار، فدركٌ بَرِيءٌ من كل شبهة وشك واحتيار، لا يزداد بالنظر والفكر إلا إستيقاقاً، ولا يتيقنه^(٤) فيما أيقن به من الأمور كلها إلا استحقاقاً، فدركه الدرك البتّ اليقين، وعلمه العلم المثبت^(٥) المبين.

فمن تَفَهَّمْ يا بني - أرشدك الله - يسيراً قليلاً، مما ذكرنا^(٦) لله من آياته عليه دليلاً، اكتفى بقليل ذلك ويسيره، كفاية كافية بإذن الله من كثيره، وكان في اقتصاره على اليسير القليل، كفاية له من^(٧) التبيين والدليل، ومن^(٨) ازداد في ذلك من الآيات والدلائل كان له في ذلك من المزيد، أكثر - والحمد لله - مما يريد^(٩) في ذلك من كل مزيد، ولم يتقدم في الاستدلال فتراً^(١٠) إلا وجد منه شيراً، ولا في حسن النظر ذراعاً،

(١) في (ب) و (د): من كل.

(٢) في (أ) و (ج): ترى.

(٣) في (ب) و (د): النفس.

(٤) في (ب): إستيقافاً. وفي (د): اشثاقاً. مصحفة. وفي (ب) و (د): ولا ييقنه.

(٥) في (أ): المثبت.

(٦) في (ب) و (د): بما ذكره.

(٧) في (ب) و (د): في.

(٨) في (أ) و (ج): وما.

(٩) في (ب) و (ج): يزيد.

(١٠) الفتر: ما بين طرف الإهام وطرف المسبحة.

إلا وجد بعدها باعاً، بل يجد أبداً سرمداً، زيادة في الدلالة ومدداً، ^(١) بمدّه ^(٢) بما استمدّه، ويدله على الله وحده، لما وسّع الله في ذلك للمقربين برحمته، ووهب فيه للمستدلين من نعمته.

ألا ترى كيف يقول سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ [الفرقان: ٤٧]. ولباس الشيء فهو ما غشيه وواراه، ونوم النائم فهو ما أسبته وأهداه ^(٣)، وكلٌ فقد نعلمه ونراه ^(٤).

[الله خالق الكون]

والدليل على أن الله صنعه وأنشأه، أن لا يُعلم له طانع ولا منشئ سواه، وأن نشأته بيّنة، وصنعه نيرة، بما تبين فيه، ويشهد بتأ عليه، بالنشأة والتدبير، والصنع ^(٥) والتقدير، من حيث تارة وذهابه، ومفارقه وإيابه، وكل ما جاء وذهب، وفارق وتأوَّب، دل ذلك من حاله، على تصرفه واجتماعه، وثبت مصرفه بما ثبت من تصرفه، وما يرى بينا من اختلافه وتأليفه، ولم يكن مصرفاً أبداً إلا من مصرف، ولا تأليف ما كان إلا من مؤلف، ^(٦) وكذلك اللباس فلا يكون أبداً ^(٧) إلا من ملبس للباس، ولا النوم والسبات إلا من مسبت منيم بغير ما شبهة ولا التباس، لأن ذلك كله، وآخر ما يدرك من ذلك وأوله، صنع وجعائل، لا تكون إلا من صانع جاعل، وفطرة وفعائل، لا تكون إلا من مفتطر فاعل، وكذلك ما جعل الله سبحانه من النهار نشورا،

(١)

(٢) في (ب) و (د): ومدداً. وفي (ب): بمداه.

(٣) السبت: الراحة. وأهداه: من الهدوء.

(٤) في (ب): يعلمه ويراه.

(٥) سقط من (أ) و (ج): الصنع.

(٦) في (ب) و (د): لمؤلف.

(٧) سقط من (أ) و (ج): أبداً.

فلا يكون إلا صنعاً مفطوراً، لما يرى فيه من أثر الفطرة والصنع، وذلك فدلالة لا تخفى على الصانع المبتدع، وما أرسل تبارك وتعالى من الرياح بشراً بين يدي رحمته، فلا بد من وجود مرسله وولي فطرته، وما أنزل سبحانه من الماء، من أجواء السماء، فلا بد من منزله، ومعرّف رحمته فيه وفضله، لأن التفضيل لا يكون أبداً والرحمة، إلا ممن له منّ ونعمة.

وفي الماء وإنزاله، وحدره من المزن وإهطاله، ما يقول سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ (١) ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿٢﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٣﴾ [الواقعة: ٦٨-٧٠].

وما أحى بمثل الماء من موات البلاد، وما أسقاه من الأنعام وكثير العباد، فلا يمتنع فكرٌ عند وجوده كله، من وجود محبيه وساقيه ومنزله، ^(١) وما مُرَج فَحُلِّي من البحرين، فرؤي مزوجاً رأي عين، كل بحر منهما مُخللاً يجمع، ^(٢) ولا ينقطع بعضه عن بعض ولا يعرج، ^(٣) متصلاً جميعاً كله، غير منقطع متصله، يسير في قرار موضعه وبين أكنافه، ^(٤) وفيما بين حدوده التي جعلت له وأطرافه، ^(٥) قدر مسير مسافة شهر ^(٦) وربما كان أشهراً عدة، يعلم ^(٧) ذلك من سمع بخبره أو رآه فأبصره عياناً مشاهدة، فإذا انتهى إلى ما جعل الله له من الحد ووقف عند حده وحاجزه، وما جعل بينه وبين البحر العذب الفرات من برزخه وحواجزه، فلم يَعُدْ من حدوده كلها حداً، ^(٨) ولم يجد له معه مطلعاً ^(٩) ولا مصعداً، وفيما جعله الله له موضعاً، ومقراً رحباً واسعاً، يرى طامياً

(١) سقط من (أ) و (ج): منزله.

(٢) المعج: الاضطراب، وسرعة المُرّ، والسير في كل وجه.

(٣) العروج: الصعود، والإرتقاء والإقامة والميل. وهو المراد هنا.

(٤) في (ب) و (د): أطباقه.

(٥) في (ب): حتى جعلت أطرافه

(٦) في (ب) و (د): مسيرة شهر.

(٧) في (ب) و (د): ويعلم.

(٨) سقط من (أ) و (ج): حداً.

(٩) في (أ): يجد له مطلقاً.

فيه مشرفاً، ^(١) يركب بعضه بعضاً ^(٢) ركوباً متعسفاً.

فأي عجب أعجب، وأي دليل أقرب، لمن استدل بحقيقة من الحقائق، على ما نرى من الصنع في الخلائق، ^(٣) بين رؤية هذا وعيانه، والعلم به وإيقانه.

وفي ذلك بعينه، وفي دلالة تبيينه، ^(٤) ما يقول الله سبحانه: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ [النمل: ٦١]. تذكر للمقرين بما يقررون، ^(٥) واحتجاجاً على المنكرين بما لا ينكرون، إلا بمكابرة وجحدٍ لما يعرفون، من صنع الحاجز بين البحرين، وما بين لهم منه بأوضح التبيين.

ولصنع ذلك وبيان جعله، وما ذكر الله معه من صنع مثله، ما يقول سبحانه: أم من جعل مالا تنكرون جعله، وإن كنتم لا تعرفون الجاعل له، وإذ ^(٦) لا بد عندكم لكل مجعول من جاعله، ^(٧) وكما يعرفون ذلك ولا ينكرونه في كل مجعول وأمثاله، فلا يشكُّون ولا يمتزون، في أن لكل ما ترون من ذلك وتبصرون، جاعلاً بيت ^(٨) إيقانا، وإن لم تروه عياناً.

فمن جاعل الحاجز بين البحرين وفاطره؟! ومدبر ما يرى من ذلك ومقدِّره؟ إلا من ليس له مثل ولا نظير، ومن لا يُلغبه ^(٩) تدبير ولا تقدير، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾

(١) طامياً: مرتفعاً. ومشرفاً: عالٍ.

(٢) سقط من (أ) و (ج): بعضاً.

(٣) في (أ) و (ج): الخالق. وفي (ب) و (د): الحقائق. (مصحفة). ولعل الصواب ما أثبت والله أعلم.

(٤) في (أ) و (ج): دلالة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم: أم من جعل.... مصحفة.

(٥) في (أ) و (ج): يرون.

(٦) في (ب): وإن.

(٧) في (أ) و (ج): جاعل.

(٨) في (ب) و (د): بآنا.

(٩) في جميع المخطوطات يغلبه. (ولعلها مصحفة). بدلالة الآية بعدها. والله أعلم. واللغوب: التعب والإعياء.

[ق:٣٨] ، وهل يدبر أو يفتطر أقل ما يرى من بدائع الله وصنعه — سوى الله — واهبٌ أو موهوب، ^(١) كلا لن يفتطره، ويصنعه أبدا ويدبره، سوى الله صانع، معط ومانع ^(٢) وإنما صُنِعَ مَنْ ^(٣) سوى الله إذا صنع، أن يعطي أو يمنع، أو يفرق أو يجمع، أو يرفع أو يضع، بعض ما وَلِيَ الله ابتداعه صنعا، أو كان من الله خلقا وبدعا.

وفي امتناع ذلك على المخلوقين، ما يقول رب العالمين: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ اِنَّ الَّذِي تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَاِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّكَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج:٧٣]. فأقل بدائع صنع الله تبارك وتعالى فما لا يخلقه ولا يصنعه أبدا ^(٤) غالب من الخلق ولا مغلوب، ثم زاد سبحانه بما ذكر من الآيات في سورة الفرقان من الدلالة والتبيين دلالة وبيانا وتبصيرا، ^(٥) بقوله جل جلاله: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ [الفرقان:٥٤]. والبشر الذين خلقه جل ثاؤه من الماء، فهو ما لهم من الذرية والأبناء، ومنهم ولهم، وفيهم وبينهم، جعل سبحانه النسب والضرر لانتساب بعضهم إلى بعض، و مصاهرة بعضهم لبعض، لأن كلهم ينتسب، إلى أم أو إلى أب، وليس آدم عليه السلام ^(٦) بمنسوب إلى نسب، لأنه لم يخرج صلى الله عليه من رحم ولا صلب، ولم يصاهر بصهر ^(٧) أبدا، إذ كان كل البشر له ولدا، والماء الذي خلق الله منه ولده ونسله، فهي النطف التي لم تكن قبله، وفي ذلك كله وتصريفه، وعجيب صنعه وتأليفه، أدل الدلائل على مصرفه، وصانعه ومؤلفه، وكل ما ذكر الله تعالى من ذلك ومعجبه، فدليل على

(١) في (ب): راهب أو مرهوب. (مصحفة).

(٢) في (ب) و (د): ولا مانع.

(٣) في (أ) و (ج): إنما صنع ما سوى الله أن يعطي.

(٤) في (أ): فما لا يصنعه أبدا. وفي (ج): فما لا يخلقه أبدا. وفي (ب) و (د): مما لا يخلقه ولا يصنعه. ولفقت النص من الجميع.

(٥) في (أ) و (ج): وتبصرة.

(٦) سقط من (ب) و (د): عليه السلام.

(٧) في (ب): صهرا أحدا.

الله والحمد لله لاختفاء^(١) به.

ومن الدليل على معرفة الله، والدواعي لليقين بالله، فمالا يبجّله، بعد الإحساس له، إلا جاهل عصي،^(٢) ولا يحصيه من الخلق كلهم - ولو جَهِدَ كُلُّ جَهِدٍ - مُحْصِي، من خلق السماء والأرض، وغيرهما من الصنع والخلق، الذي في كل شيء منه على ناحيته وحياله، آية ودلالة نيرة على فطرة واجتعاله. والفطرة والاجتعال، هما^(٣) الوصلة والانفصال، وليس من السماء والأرض وما^(٤) فيهما، ولا من كل ما يضاف من الخلق إليهما، ما يخلو من تفصيل أو توصيل،^(٥) وفي ذلك على صنعه أدل الدليل. وآيات الله،^(٦) فهن الدلائل على الله، والدلائل فهن^(٧) العلامات المنيرات، والعلامات فهن الشواهد الظواهر البينات، وكل آية من آيات الله، فهي عَلَمٌ بَيْنٌ للمعرفة^(٨) بالله، والدلائل على الله المنيرة الزاهرة، والآيات في^(٩) معرفة الله البينة الظاهرة، في^(١٠) كل ما تدركه حاسة من الحواس الخمس،^(١١) من عيان أو سمع أو شم أو ذوق أو لمس، ومن تنزيل الله لذلك^(١٢) وفيه، ومن الشواهد لله عليه، قوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا

(١) سقط من (أ) و (ج): الله لاختفاء.

(٢) في (ب): عم. وفي (د): غمر. مصحفة.

(٣) في (أ): ومما.

(٤) في (أ): ومما.

(٥) في (ب) و (د): من توصيل وتفصيل.

(٦) في (أ) و (ج): الله عز وجل.

(٧) في (ب) و (د): فهي. وسقط من (ب): والدلائل.

(٨) في (أ) و (ج): بين من المعرفة. وفي (د): بين المعرفة.

(٩) في (ب) و (د): هي. مصحفة.

(١٠) في (أ) و (ج): ففي.

(١١) سقط من (أ) و (ج): الخمس.

(١٢) في (أ) و (ج): ذلك.

وَبَتْ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ لَأَيَّتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ [البقرة: ١٦٤].

وفي ذلك ما يقول جل جلاله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا
وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ
يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٦٥﴾﴾ [يونس: ٥]. فكان كما قال جل ثناؤه، وصدق
وعده وأنبأؤه، ^(١) خلق ما خلق في ذلك من الخلق، مما ذكر في خلقه ^(٢) من الحقيقة
والحق، وفصل فيه تبارك وتعالى كما قال: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ آياته تفصيلا، فجعل
كل شيء منه له آية وعليه دليلا، فما ينكر - شيئا ^(٣) من ذلك بمكابرة ولا يحجده، ولا
يكابر الدليل فيه بمناكرة فيرده، - إلا من لا يعقل ولا يعلم ولا يتقي، ولقلة تقواه لله ^(٤)
شقي بحيرته فيه من شقي، وإنما يبصر ذلك ويتفكر فيه ويتنفع به المتقون، كما قال
سبحانه: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
لَأَيَّتِ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [يونس: ٦].

ألا ترى أنه ليس من المتحيرين في ذلك ولا من المنكرين، ولا من الجاحدين له
المكابرين، من يرى ^(١) أصغر صنع الصانعين بأكفهم، لو هتفهم عن الابتداع وضعفهم،
فليمتنع من الإقرار بصنعه وصانعه، وإن كان صانعه برياً عندهم من ابتداعه، ومن أنكر
ذلك عنده، وكابر فيه فحجده، خرج بإنكاره لأقله، ^(٢) من العقل وصفة أهله، وقيل:
ماله - ويله - ما أعماه؟ وأجهله بما لا يجهله ^(٣) أحد صحيح العقل فيما ظنه ورآه؟!!

(٢) في (أ) و (ج): ونبأؤه. وفي (ب) و (د): يخلق.

(٣) في (ب) و (د): خلقه له.

(٤) في (أ) و (ج): شيء.

(٥) في (ب): ولقلة تقوى الله.

(٦) في (ب) و (د): والمكابرين. وفي (ج): من بر. لعلها مصحفة. والحرف الأول مهمل.

(٧) في (ب) و (د): أو كابر فيه وحجده. وفي (ب): خرج من إنكاره. وفي (ج): بإنكاره ولأقله.

(٨) في (ب) و (د): لا يجهله (أحد صح عقله فما يرى ويعاين من يبصره ويراه، ما هذا بصحيح العقل
فيما يظنه ويراه، ويبدو لي أن هذه الفقرة (زيادة سهو). والله أعلم.

فكيف أنكر وتحير؟ وأبى مكابرة عن أن يقر؟ بما يرى من الصنع والتدبير، في أكثر ما يراه أحد من الصنع الكبير، ^(١) الذي لا خفاء فيه من القدرة والتدبير، والصنعة البينة والتأثير المنير، مما تقصر ^(٢) عنه الأفكار، وتنحسر ^(٣) فيه الأبصار، من الأرض والسماء، وما بينهما من الأشياء، التي يدل اضطرابها دركها، على من يديرها ويملكها، وعلى أن من صنعها وأنشأها، إنما فطرها وابتدأها، فابتدعها صنعا، وخلقها بدعا، يدل على ذلك فيبينه، ^(٤) ويوضح ذلك فينيره، ^(٥) ما يرى من كثرة ذلك وسعة أقداره، وما يُعَين من بُعد ما بين أطرافه وأقطاره، مع ما فيه من لطيف التقدير والإحكام، وماله من طول البقاء والإقامة والدوام، فكل صنعه ولطيف ^(٦) تدبيره وتقديره وإحكامه، وما ذكرنا من بقاءه وإمساكه وإقامته ودوامه، دليل بين على صانعه ومحكمه، وممكسه بحيث هو ومُدبِره، وذلك الله العزيز الحكيم، والمتقن لما يشاء والممسك المدمم، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١] ، فكل ذلك فقد جعله الله بحلمه ^(٧) ومغفرته قدرا مقدورا، ولا يكون القدر وهو القدر المقدور، ^(٨) إلا وهو لا بد لربنا ^(٩) صنع وخلق مفطور، ولا يحدد ذلك أبدا ولا ينكره، إلا من عمي قلبه وفكره.

فاسمع يا بني: - هداك الله - لما بين في ذلك برحمته لما خلقه الله من الآيات الجليات، والدلائل المضيات، ففي أقل استماعه، وفهمه عن الله واتباعه، ما أغنى من

(١) في (أ) و (ج): الكثير.

(٢) في (ب): ما قصر.

(٣) في (ب): وتحير.

(٤) في (أ): ويبينه.

(٥) في (أ): وينيره.

(٦) سقط من (أ) و (ج): ولطيف.

(٧) في (ب) و (د): بحكمه. تصحيف. بدلالة الآية قبلها.

(٨) في (ب) و (د): القدرة والمقدور.

(٩) سقط من (ب): لا بد لربنا. ومن (د): لربنا.

فَهَمَهُ وَكَفَاهُ، ^(١) وأبراه من كل داء حيرة وشفاه، كما قال تبارك وتعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧] ، فإنك يا بني: إن تفهم أقل آياته وما دل به على نفسه في ذلك ^(٢) من دلالة حق فهمه تكن من الموقنين.

فمن ذلك - فافقه مقالته جل جلاله، عن أن يحويه قول أو يناله - ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: ١٣].

فأخبرهم سبحانه من إنشائه لهم بما يرون عيانا ويصبرون، ومالا يقدرّون على إنكاره إلا بالمكابرة ^(٣) لما يرون، إذ الجعل والإنشاء، إنما هو الزيادة والنماء، ولا خفا عندهم، ولو جهدوا جهدهم، بما يرونه والحمد لله عيانا من زيادتهم، في أنفسهم وسمعهم وأبصارهم وأفئدتهم، كما قال سبحانه لهم في ذلك، فإنما كانوا على ما وصفهم كذلك، يزيدون وينمون، وينشون ويتمون، ^(٤) حتى عادوا رجالا بعد أن كانوا أطفالا، وصاروا كثيرا مذكورا، بعد أن كانوا قليلا محقورا، كما قال سبحانه: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]. وقد أتى عليه أن كان ترابا ثم نطفة ثم علقة، ثم مضغة مخلقة وغير مخلقة، وفي ذلك ما يقول الله تعالى ذكره: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقْرِئُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ

(١) في (ج): وكفى.

(٢) في (ب) و (د): من ذلك.

(٣) سقط من (ب): إلا بالمكابرة.

(٤) سقط من (أ) و (ج): وينشون ويتمون.

أَهْتَرَّتْ وَرَبَّتْ وَأُنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٦٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى ﴿٦٦﴾ [الحج: ٥-٦]. كما أحيا الأرض بعد همودها، ^(١) وكذلك الله لا شريك له فموجود بما ذكر من الخلاق ووجودها، لا ينكر ^(٢) إلا بمكابرة ولا يحجده ولا يدفعه، مَنْ دَلَّه على صانع من الصانعين ما كان وإن غاب صنعه.

ألا ترى يا بني: أن من رأى كتابا علم أن له كاتباً، وإن كان مَنْ كَتَبَهُ عنه غائباً، وكذلك من رأى أثراً، أو صورة ما كانت أيقن أن لها مصوراً، أو سمع منطقاً علم أن له ناطقاً، وكذلك ما يُرى من هذ الخلق العجيب فقد يوقن من نظر وفكر أن له خالقاً، ليس له مثل ولا شبيه، كما ليس بين صنعه وصنع غيره تمثيل ولا تشبيه، ^(٣) كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج: ٧٣]، ^(٤) يخبر تبارك وتعالى أن لَنْ يَفْعَلَ أَحَدٌ فَعْلَهُ، وكيف يفعل ذلك مَنْ ليس له بمثال، ^(٥) وإنما يكون تشابه الأفعال بين النظراء والأمثال.

وفيما وقَّف الله تبارك وتعالى عليه الإنسان بيانا، من رؤيته لصنع ^(٦) الله فيه وخلقه له عياناً، قوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ﴾. والنطفة فهي: الماء المهيّن، ﴿فَإِذَا هُوَ﴾، بعد أن كَانَ نطفة وماء مهيناً ﴿خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ ﴿٧٧﴾ [يس: ٧٧]، والمهيّن فهو المهان، الذي لا قدر له ولا شان، وكذلك النطفة في صغرها، ومهانتها وقدرها. وخلق الله لها فهو تهيتها ^(٧) وتصريفه جل ثناؤه إياها، الذي قد رآه من الناس كلهم من رآها، مَنْ نطفة وماء مهين إلى علقه، ومن علقه إلى مضغة مخلقة وغير مخلقة، وتخليق المضغة فهو تهيتها، وتقدير الصورة الآدمية لها وتسويتها، التي لا

(١) في (ب) و (د): موقها.

(٢) في (أ): ما لا ينكره.

(٣) سقط من (ب): كما ليس بين صنعه وصنع غيره تمثيل ولا تشبيه.

(٤) في (ب) و (د): أكمل الآية.

(٥) في (ب) و (د): ليس مثله.

(٦) في (ب) و (د): لرؤيته. وفي (أ) و (ج): بصنع.

(٧) سقط من (أ) و (ج): فهو.

يكون أصغر صغير رُؤْيٍ^(١) منها إلا بخالق مهيب، مقدّر حكيم مسوّي،^(٢) لا يُشك فيه ولا يُمتري، وإن خفي عن^(٣) العيون فلا يُرى، وذلك فهو الله الذي ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] ، وكيف تدرك الأبصار من ليس له مثل ولا ند ولا كفؤ ولا نظير؟! لا كيف إلا عند جاهل عمي! شاك في جلال الله ممتري،^(٤) لا يعرف ما بينه وبين الخلق، من المباشرة والفرق.

فكل^(٥) ما تسمع يا بني بتعريف،^(٦) وتبصير وتوقيف وتصريف، من الله الحكيم، الخبير العليم، الرحمن الرحيم، لدرك معرفته، واليقين به، من حجج الفكر^(٧) والاعتبار، وحجج الرؤية والمعانية بالأبصار.

وفي ذلك ما يقول تبارك وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [العنكبوت: ١٩]. فابتدأه حل ثناؤه له^(٨) فهو ابتداعه وزيادته وإنماؤه، وإعادته فهو إلى ما كان عليه وهو محققه وتقليله وإفناؤه، وذلك كله فقد يراه ويعاينه، ويبصره ويوقنه، من كان حيا،^(٩) مبصرا سويا، كما قال لا شريك له، لا يجهله إلا من تجاهله، ولا يخفى إلى على من أغفله! ممن لعنه الله وخذله! أولم تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: ٢٠]. وتأويل بدأ،^(١٠) فهو كان ونشأ، ونما فصار ناميا زائدا، ثم رجع إلى

(١) في (أ) و (ج): درك.

(٢) في (أ): فسوى.

(٣) في (أ): من.

(٤) في (ب) و (د): جاهل غمرا شاك في جلال الله ممتري.

(٥) في (أ) و (ج): وكل.

(٦) سقط من (أ) و (ج): بتعريف و.

(٧) في (أ) و (ب) و (ج): بين حجج. وفي (ب) و (د): الفكرة.

(٨) في (ب) و (د): فابتدأه له حل ثناؤه.

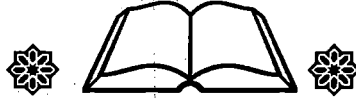
(٩) في (أ) و (ج): حيا.

(١٠) في (أ) و (ج): أبدا.

الفناء عائداً، فقلّ بعد زيادته، وبلي بعد جدّته. فمن يعمى^(١) بعد عيان هذا اليقين بربه، إلا من خذله الله فأسلّمه إلى عمى قلبه، فكابر عيانه، وأنكر إيقانه،^(٢) وهو يرى النور لائحا لا يخفى،^(٣) والبيان ظاهراً واضحاً لا يطفأ.

ومن البيان فيما قلنا من ذلك، ومن^(٤) الدليل على أنه كذلك، قوله سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ ﴿[الروم: ٥٤] ، والضعف والشيب فهو الإفناء والتدمير.

تم كتاب الدليل الصغير، وصلواته وسلامه على رسوله سيدنا محمد النبي البشير النذير، وعلى أهله المختصين بالمودة والتطهير.

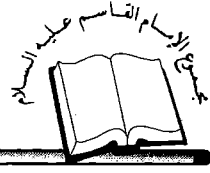


(١) في (ب) و (د): تعامى.

(٢) في (أ) و (ج): عياناً وأنكر إيقاناً.

(٣) سقط من (أ) و (ج): لا يخفى.

(٤) في (أ) و (ج): من الدليل.



مناظرة مع ملحد



بسم الله الرحمن الرحيم

[مدخل إلى المناظرة]

قيل: كان وافي^(١) مصر رجل من الملحدين فكان يحضر مجالس فقهاءها، ومتكلميها، فيسألهم^(٢) عن مسائل الملحدين، وكان بعضهم يجيب عنها جواباً ركيكاً، وبعضهم يزجره ويشتمه، فبلغ خبره القاسم بن إبراهيم عليه السلام، وكان بمصر متخفياً^(٣)، في بعض البيوت فبعث صاحب منزله ليحضره عنده، فأحضره، فلما دخل عليه قال له القاسم رضي الله عنه: إنه بلغني أنك تعرضت لنا، وسألت: أهل نخلتنا^(٤)، عن مسائلك، ترجو أن تصيد أغمارهم^(٥) بجائلك^(٦)، حين رأيت ضعف علمائهم عن القيام بحجج الله، والذب عن دينه، ونطقت على لسان شيطان رجيم لعنه الله: ﴿وَقَالَ لَا تَخْذَنْ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ [النساء: ١١٤].

فقال الملحد: أما إذا عبث أولئك، وعيرتهم بالجهل فأني سائلك، وممتحنك، فإن أجبت عنهم فأنت زعيمهم^(٧)، وإلا فأنت إذا مثلهم.

فقال القاسم عليه السلام: سل عما بدا لك، وأحسن الإستماع، وعليك بالتصفة^(٨)، وإياك والظلم^(٩)، ومكابرة العيان، ودفع الضرورات^(١٠)، والمعقولات، أجبتك عنه، وبالله أستعين، وعليه أتوكل، وهو حسي ونعم الوكيل.

(١) في (ب) و (د): كان في.

(٢) في (ب): ويسألهم.

(٣) في (ب) و (د): مستخفياً.

(٤) الإنتحال: إدعاء الشيء وتناوله. مفردات الراغب ٤٨٥، وهو هنا بمعنى أهل ملتنا.

(٥) أغمار: جمع غمر بالضم: من لم يجرب الأمور.

(٦) الجائل: جمع حباله بالكسر: ما يصاد بها من أي شيء كان - النهاية ٣٣٣/١.

(٧) سقط من (أ) و (ج): أجبت عنهم فأنت زعيمهم.

(٨) التصفة بالتحريك: الإنصاف والعدل.

(٩) الظلم: هو تعدي وتجاوز الأمر الواضح المدلول عليه عقلاً بزيادة منه أو نقصان.

(١٠) أي: بدائه العقول.

[إثبات وجود الصانع وحدوث العالم]

فقال الملحد عند ذلك: حدثني ما الدلالة على إنية الصانع؟^(١)

قال القاسم عليه السلام: الدلالة على ذلك قوله في كتابه عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأُنْتَبَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾ [الحج: ٥-٧].

ووجه الدلالة في هذه الآية فهو: كون الإنسان تراباً، ثم نطفة، ثم علقة، لا تخلو هذه الأحوال من خلتين:

إما أن تكون مُحَدَّثَةً، أو قَدِيمَةً، فإن كانت محدثة فهي إذاً من أدل الأدلة على وجود إنيته، لعل:

منها: أن المُحَدَّث متعلق في العقل بِمُحَدَّثِهِ، كما كانت الكتابة متعلقة في العقل (٢) بكتابتها، والنَّظْم بناظمه. إذ لا يجوز وجود كُتَابَةٍ لا كاتب لها، ووجود أثر لا مؤثر له في الحس، والعقل.

ومنها: أن المُحَدَّث هو ما لم يكن فَكُوْنٌ، فهو في حال كونه^(٣) لا يخلو من أحد

(١) الإنيّة: تحقق الوجود العمي من حيث مرتبته الذاتية، وقال الراغب: أنية الشيء، وإنيته: كما يقال ذاته، وذلك إشارة إلى وجود الشيء، وهو لفظ محدث ليس من لغة العرب. المفردات/٢٩. وفي المعجم الفلسفي/٢٧: إنية منطقياً: الوجود الفردي المتعين، مقابل الماهية.

(٢) سقط من (ب) و (د): في العقل.

(٣) أي: وجوده.

أمرين:

إما أن يكون هو كَوْن نفسه، أو غيره كَوْنَهُ^(١)!!

فإن كان هو الذي كَوْن نفسه لم يخل أيضا من أحد أمرين:

إما أن يكون كَوْن نفسه وهو معدوم، أو كَوْنَهَا وهو موجود! فإن كان كَوْنَهَا وهو معدوم، فمحال أن يكون المعدوم أوجد نفسه وهو معدوم. وإن كَوْنَهَا وهو موجود، فمحال أن يكون الموجود أوجد نفسه وهو موجود. إذ وجود نفسه قد أغناه عن أن يُكَوَّنَهَا ثانياً. فإذا بطل هذا ثبت أن الذي كَوْنَهُ غيره، وأنه قدّم ليس بمُحَدَّث، إذ^(٢) لو كان محدثاً كان حكمه حكم المحدثات.

وإن كانت الأحوال قديمة فذلك يستحيل، لأننا نراها تحدث شيئاً بعد شيء في حين واحد، في نفس واحدة، فلو كانت^(٣) كلها مع اختلافها في أنفسها وأوقاتها قديمة، لكانت الترايبية نطفة مضغة دما علقة عظما لحما إنساناً، في حالة واحدة، إذ القدم هو الذي لم يكن، ولم يزل^(٤) وجوده، وإذا لم يزل وجود هذه الأحوال، كان على ما ذكرت وقلت، من كونه تراباً مضغة لحماً عظماً إنساناً، في حالة واحدة، إذ الأحوال لم يسبق بعضها بعضاً، لأنها قديمة، ولأن كل واحد منها^(٥) في باب القدم سواء، فإذا استحال وجود هذه الأحوال معا في حين واحد، في حالة واحدة، وثبت^(٦) أن الترايبية سابقة للنطفية، والنطفية^(٧) سابقة للحال، التي بعدها^(٨)، صح الحدوث، وانتفى عنها

(١) في (أ) و (ج): كون نفسه وهو معدوم أو غيره كونه.

(٢) في (أ) و (ج): إذا لو كان.

(٣) في (أ) و (ج): ولو كانت.

(٤) الأزل: استمرار الوجود في الأزمنة غير المنتهية، والأزلي: هو من لا يكون مسبوقاً بغيره. التعريفات/

٣٢، المعجم الفلسفي/٩.

(٥) في (ب) و (د): ولأن كلها.

(٦) في (ب) و (د): فصح.

(٧) في (ب): والنطفة.

(٨) في (أ) و (ج): التي معهما. وفي (هـ): للحالتين اللتين بعدها.

القدم^(١)، وإذا صح الحدوث فقد قلنا بديًا: إن المحدث متعلق في العقل بمحدثه.
قال الملحد: وما أنكرت أن تكون^(٢) الأحوال حديثة، وأن العين — التي هي
الجسم — قديمة.

قال القاسم عليه السلام: أنكرت ذلك من حيث لم أره منفكا عن هذه الأحوال
بته، ولا جاز أن ينفك^(٣) (فلما لم أره منفكا من هذه الأحوال ولا جاز أن ينفك)،
كان^(٤) حكم العين كحكم الأحوال في الحدوث.

قال الملحد: ولم؟

قال القاسم عليه السلام: من قبل أنها — أعني العين — إذا كانت قديمة وكانت
الأحوال محدثة، فهي لم تزل تحدث فيها الأحوال، وإذا قلت لم تزل تحدث فيها
ناقضت، لأن قولك: لم تزل خلاف قولك: تحدث. والكلام إذا اجتمع فيه إثبات شيء
ونفيه في حال واحد استحال. وذلك أنها إذا لم تزل تحدث فيها، فقد أثبتتها قديمة^(٥) لم
تزل تحدث فيها، وإذا كان هذا هكذا فهي لم تسبق الحدث، فقد صار الحدث قديما،
لأنه صفة الجسم الذي هو قديم، وإذا كانت صفته استحال أن تكون صفة القدم الذي
لا يخلو^(٦) منها ولا يزول عنها محدثة^(٧)، وهذا محال بين الإحالة، لأن فيه تثبيت المحدث
قديما، والقدم محدثا.

قال الملحد: فما أنكرت أن تكون هذه الأعيان هي التي فعلت الأحوال؟

قال القاسم عليه السلام: بمثل ما أنكرت زيادتك الأولى، لأنه لا فرق بين أن

(١) في (أ): العدم. مصحفة.

(٢) في (أ) و (ج): ما أنكرت أن تكون الأحوال. وفي (هـ): ما أنكرت أن هذه الأحوال. وفي (د): ما

أنكرت هذه الأحوال.

(٣) سقط من (ب): ولا جاز أن ينفك.

(٤) سقط من (و): ما بين القوسين. وفي (هـ) و (و): فكان.

(٥) في (أ) و (ب): قديما.

(٦) في (د): لم يخلو.

(٧) في (ب) و (د): يزال عليها. وفي (و): يزد. وفي (أ) و (و): محدثا.

تكون هي الفاعلة، وهي لم^(١) تسبق فعلها، أو تكون هي قديمة وهي لم تسبق صفاتها^(٢)، لأن الفاعل سابق لفعله متقدم له، وكذلك القدم الذي لم يزل، سابق للذي لم يكن، لأن في إثبات الفعل له إثبات حدث فعله، وإذا لم يسبق فعله فقد جمعت بينهما في حال واحد، وثبتت للشيء الواحد القدم والحدوث في حالة واحدة، وهذا محال بين الإحالة.

[نظرية الهيولي والصورة وحدث الأشياء من بعضها]

قال [الملحد]: فإني لم أرَ كَوْنُ شيء إلا من شيء، فما أنكرت أن تكون الأشياء لم تزل يتكون بعضها من بعض؟ وما أنكرت أن يكون الشيء الذي هو الأصل قديماً؟ قال القاسم عليه السلام: أنكرت ذلك أشد الإنكار، وذلك أن الشيء الذي هو الأصل لا يخلو من أن يكون فيه من الأحوال والهيئات والصفات مثل ما في فرعه، أو ليس كذلك؟! فإن كان فيه مثل ما في فرعه، فحكمه في الحدث كحكمه، وقد تقدم^(٣) الكلام في هذا المعنى بما فيه كفاية، على أنا نجد الصور والألوان والهيئات والصفات بعد أن لا نجدها فيه^(٤)، ووجود الشيء بعد عدمه هو أدل الدلالة على حدثه!!

فحدثني عن الصورة^(٥) من أي أصل حدثت^(٦)؟ فإن قلت إنها قديمة أحلت، وذلك أنها لا تخلو من أمور.

(١) في (أ): لمن. مصحفة.

(٢) في (أ) و (ج): أو تكون قديمة لم تسبق صفاتها.

(٣) في (هـ) و (و): تم.

(٤) في (ب): لم نجدها. وسقط من (أ): فيه.

(٥) في (هـ): عن الصور. والصورة: العرض، وهي ما قابل المادة وقد عني أرسطو بهذا التقابل وبني عليه فلسفته كلها، وطبقه في الطبيعة وعلم النفس والمنطق. والإله عنده صورة بحتة، والنفس صورة الجسم، ولا يتم وجودها إلا بالفعل دون وجود ما حلت فيه. انظر: المعجم الفلسفي/١٠٧، التعريفات/١٧٨.

(٦) في (ج): من أي شيء حدثت.

أحدها: أن الصورة لو كانت قديمة لكانت في هذا المصور^(١) الذي ظهرت فيه الصورة، أو في عنصره الذي تسمونه "هيولى"^(٢)، فإن كان في هذا المصور بآن فساد قولكم ودعواكم، إذ قد نبذه بخلاف^(٣) هذه الصورة، وإن كانت في الذي تسمونه "هيولى"، فلا بد إذا ظهرت في هذا المصور أن تكون قد انتقلت عنه إلى هذا^(٤) فإن قلت: انتقلت. أحلت، لأن الأعراض^(٥) لا يجوز عليها الانتقال، على أن في الصورة ما يرى بالعيان، فإن كانت منتقلة فما بالها خفيت عند الانتقال، وظهرت عند اللبث؟!

وفيه حلة أخرى وهي: أمّا^(٦) لو كانت في الأصل^(٧)، ثم انتقلت عنه إلى فرعها^(٨)، فقد جعلت لانتقالها غاية ونهاية، وإذا جعلت لها غاية ونهاية^(٩) فقد صح حدث^(١٠) الذي انتقلت عنه هذه الأحوال^(١١).

فإن قلت: لم تزل تنتقل. كان الكلام عليك في هذا المعنى، كالكلام الذي قدمناه آنفا في "باب لم تزل تحدث".

(١) المصور: الجسم، أي جسم.

(٢) الهيولى: القطن. وشبه الأوائل طينة العالم به. وهو السليم. والسلم هو الضباب الرقيق. وهو في اصطلاحهم موصوف بما يصف به أهل التوحيد. الله تعالى أنه موجود بلا كمية ولا كيفية، ولم يقترن به شيء من سمات الحدث ثم حلت به الصنعة، واعتضت به الأعراض، فحدث منه العالم.

(٣) في (ب) و (د): على غير.

(٤) أي: عن الهيولى إلى المصور. وسقط من (هـ): عنه إلى هذا.

(٥) أي: الصور.

(٦) أي: الصورة.

(٧) يعني: الهيولى.

(٨) لعله: فرعه، أي فرع الأصل الذي هو الهيولى وفرعه المصور.

(٩) في (ب): جعلت الانتقال لها غاية ونهاية.

(١٠) سقط من (ب): صح.

(١١) لأنها قد تحلقت عنه فدل ذلك على أنها غير ذاتية؛ لأن ما بالذات لا يتخلف، ودل ذلك على جواز ثبوتها له وانستفائها عنه، وإذا جاز ذلك لم يصح أن يثبت له إلا لفاعل أو علة قديمة موجبة، والثاني باطل كإثباتها له لذاته، فدل ذلك على أنها لفاعل، وأنها محدثة وأن ملازمتها للجسم دليل حدوثه. تعليقه للسيد بدر الدين الحوثي.

وفيه معنى آخر وهو: أنك إذا جعلت الأشياء في وهمك شيئين، إذا أفردت كل واحد من صاحبه نقص، وانتهى إلى حد ما وقل، وإذا جمعت كل واحد إلى صاحبه زاد، وانتهى إلى حد ما وكثر، أفليس^(١) إذا انتهى في حال، وزاد فكثر أو نقص فقل، فالنقص والزيادة يخبران بالنهاية عنه^(٢)؟! وإذا ثبت فيه النهاية، ثبت فيه الحدوث^(٣)!!!

[نظرية الكمون والظهور]

قال الملحد: ما أنكرت أن تكون صورة التمرة والشجرة كامنة في النواة، فلما وجدت ما شاكلها ظهرت؟!

قال القاسم عليه السلام: إن هذا يوجب التجاهل، وذلك أنا لو تتبعنا أجزاء النواة لم نجد فيها ما زعمت.

وشيء آخر وهو: أنه لو جاز هذا لجاز أن يكون الإنسان كامنةً فيه^(٤) صورة الخنزير، والحمار، والكلب، وإذا كان ذلك كذلك، كان^(٥) الإنسان إنساناً في الظاهر، كلباً، حماراً، خنزيراً، فيلاً، في الباطن!! فإن قلت ذلك، لحقت بأصحاب سوفسطاء^(٦).

(١) في (هـ): فليس.

(٢) في (أ): عنه بالنهاية.

(٣) وهذا يوافق قول زين العابدين عليه السلام في جوابه على الخارجي: كيف يستحق الأزل من لا يمتنع من الحدث. أي: الحوادث المنقضية.

(٤) في (أ): في.

(٥) في (أ) و (و): والكلب، فيكون الإنسان.

(٦) في (هـ) و (و): أصحاب. والسوفسطائيون: جماعة يونانية اتخذت من التدريس مهنة لها، وكان همها تعليم الشباب اليوناني الفضيلة، ويعنون بالفضيلة مقدرة الشخص على أداء وظيفته في الدولة، وكان ابتداء وجودهم حوالي ٤٨٠ ق م، أما كتب المقالات الإسلامية فتقسمهم إلى ثلاث فرق واصطلحت على تسميتهم بالعنادية، والعندية، واللاأدرية، فالأولى تنكرفي الأصل حقائق الأشياء، فليس ثمة حقيقة مؤكدة. والثانية الحقيقة هي ما تبدو لها فحسب، فإذا كان في يدي قلم فإنه قلم، وقد يكون عندك شيء آخر. والأخيرة اتخذت من كلمة لأدري منهجاً، فإذا ما سئلوا عن شيء فإنهم

فإن شئت تكلمنا فيه. على أنه قد ظهر من حمقهم لأهل العقول ما يزعهم^(١) عن القول بمقالتهم.

قال الملحد: وكيف يجوز أن يكون الإنسان إنساناً في الظاهر، وكلباً حماراً ختيراً فيلاً^(٢)، في الباطن؟! قال القاسم عليه السلام: كما جاز أن تكون صورة التمرة والنخلة كأمثلة في النواة!!

قال الملحد: فإن بين التمرة والنخلة والنواة مشاكلة، وليس بين الإنسان والكلب مشاكلة.

قال القاسم عليه السلام: لو كان بين التمرة والنخلة والنواة مشاكلة مع اختلاف الصورة، لجاز أن يكون بين الإنسان والكلب مشاكلة!!

قال الملحد: فإن النواة إذا انتقلت من صورتها، انتقلت إلى صورة النخلة^(٣).

قال القاسم عليه السلام: وكذلك الإنسان إذ تفرقت أجزأؤه جاز أن يكون كلباً في الطبع والقوة والهيولية عندك، فمهما أثبت به فيه من شيء^(٤) تريد الفرق بينهما فهو لي عليك، أو مثله.

ووجه آخر وهو: أن الصورة لو كانت في الأصل نفسه، لكان الأصل نفسه هو التمرة، لأن التمرة إنما بانّت من^(٥) سائر المصنورات، وعرفت من غيرها بالصورة، فعلى هذا يجب أن يكون أصلها التمرة، وهذا مكابرة العقول، لأنه لو كان هذا هكذا، لكان

لا يدرون، وإذا ما شكوا فإنهم يشكون في أنهم شكوا.

(١) في (ب) و (د): يرغبهم.

(٢) سقط من (هـ) و (و): فيلاً.

(٣) سقط من (أ): قول القاسم وجواب الملحد عليه.

(٤) في (أ) و (ج): فمهما أثبت به من شيء. وفي (ب): فمهما ثبت من شيء. وفي (د): فمهما أثبت به فيه من شيء. وفي (هـ): فمهما أثبت به من شيء. وفي (و): فمهما أثبت به شيء. ولفقت النص من الجميع.

(٥) في (ب) و (د): عن.

ظهورها في نواتها أقرب وأشهر وأعم، ولم يستحل وجود صورتين معا^(١) في حين واحد. قال الملحد: إن النواة هي ثمرة بالقوة الهيولية، أعني أنها إذا انتقلت لم تنتقل إلا إلى شجرتها، ثم إلى ثمرتها، ثم تعود إلى أصلها، ثم تصير نواة في وسطها.

قال القاسم عليه السلام: لو كان هذا هكذا، لكانت الطبيعة^(٢) التي هي الأصل ثمرة بالقوة الهيولية، إن كنت ممن يقول بالدهر، وإن كنت ثنويا فالنور والظلمة، وما أصلت من أصل فيجب على هذا أن يكون ذلك الأصل ثمرة بالقوة، لأنها إذا انتقلت انتقالاتها صارت ثمرة، وهذه مكابرة^(٣) واضحة، وذلك يوجب عليك أن الأصل البحث: ثمرة، نواة، خوخة، باذنجانة، لأنه جائز عندك الانتقال من صورة إلى صورة. وإن^(٤) كان حكم الأصول في الهيات^(٥) خلاف حكم الفروع فسنقول فيه قولاً شافياً إن شاء الله.

قال الملحد: إن صححت أن^(٦) حكم الأصول حكم الفروع^(٧)، تركت مذهبي، فإنه قد عظم عليّ الشبهة في هذا الموضع.

قال القاسم عليه السلام: اعلم أن طرق العلم بالأشياء مختلفة.

فمنها: ما يعرف بالحس.

ومنها: ما يعرف بالنفس.

ومنها: ما يعرف بالعقل.

ومنها: ما يعرف بالظن والحسبان.

(١) سقط من (ب) و (هـ): معا.

(٢) سقط من (ب): لكانت الطبيعة.

(٣) في (هـ): وفي هذا مكابرة. وفي (و): وهذا مكابرة.

(٤) لعله عطف على قوله في الجواب السابق حيث قال: أشد الإنكار، وذلك أن الشيء الذي هو الأصل لا يخلو من أن يكون فيه من الأحوال. في (ب): فإن.

(٥) في (ب) و (د): الأصول والهيات.

(٦) في (ب): بأن.

(٧) في (ج): إن صححت أن حكم الأصول في الهيات خلاف حكم الفروع تركت مذهبي.

فأما الذي يعرف بالحس فطرقة خمس:

سمع، بصر، شم، ذوق، لمس.

فالسَّمع طريق الأصوات، والكلام.

والبصر طريق الألوان، والهيئات.

والذوق طريق المطعوم.

والشم طريق الأرياح^(١).

واللمس طريق اللين والخشونة.

وما يعرف بالنفيس فالخجل، والوجل، والسرور، والحزن، والصبر، والجزع،
واللذة، والكراهية، وما أشبه ذلك من التوهم، وغيره.

وأما ما يعرف بالعقل فشئان:

أحدهما: يدرك^(٢) بديهته مثل تحسين الحسن، وتقبيح القبيح، وحسن التفضل،
وشكر المنعم، ومثل تقبيح كفر المنعم، والجور، وما يجانسه من علم بدائه العقول.

والوجه الثاني هو: الإستنباط، والإستدلال، الذي هو نتيجة العقول^(٣) كمعرفة
الصانع، وعلم التعديل، والتجويز، والعلم بحقائق الأشياء.

وأما ما يعرف بالظن والحسبان فهو: القضاء^(٤) على الشيء، بغير دليل، فهذا ربما
يصيب، وربما يخطئ، وإنما لخصت لك هذا كله، ليكون عوناً لنا فيما تأخر من
كلامنا، ويكون أحد^(٥) المقدمات التي نرجع إليها، فكل^(٦) شيء من هذه العلوم لا
يصاب إلا من طريقه، ولو حاولته من غير طريقه لتعسر عليك، وكنت كمن طلب

(١) في (ب): الروائع. وفي (د): الأرياح.

(٢) في (ب) و (د): يعرف.

(٣) في (ب) و (د): العقل.

(٤) القضاء هنا بمعنى: الحكم.

(٥) في (ب) و (د): إحدى.

(٦) في (ب): وكل.

عِلْمُ الألوان بالسمع، وعِلْمُ الذوق بالعين.

فأما أحوال^(١) الأجسام فإن^(٢) طريق المعرفة بها من جهة البصر، والبصر لا يؤدي إلى الإنسان إلا الأجسام، لأن الأجسام لا يجوز أن^(٣) تخلو من هذه الصفات، فيتوهمه ويمثله^(٤) في نفسه خاليا منها، فإذا لم يجز ذلك، ثبت أن الأجسام لا تخلو من هذه الصفات، وأنه لا يكون حكم أصولها إلا كحكم فروعها.

[علة وجود الأشياء وفسادها]

قال الملحد: إنهم يزعمون أن علة كون الأشياء، وفسادها حركات الفلك، وسير الكواكب، وبعضهم يقول: إن علتها تمازج الطبيعتين، أعني النور والظلمة، وبعضهم يقول غير ذلك.

قال القاسم عليه السلام: الدليل على فساد قولهم: قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يَتَّقِي وَيَمْخُصُّ مِّنْ يُّرَدُّ إِلَىٰ أَرْضِ الْغَيْرِ﴾ [الحج: ٥]، وقوله: ﴿وَمَنْ نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٥٠].

فلو كان علة كونه ما ذكروا^(٥) لكان الإنسان لا يتوفى في طفوليته، ولا يفسد كونه، مع وجود علة كونه، اللهم إلا أن يُقرُّوا بحدوث علة الفساد، فيكونوا حينئذ تاركين لمذهبهم، فإن قالوا: بل علة كونه وفساده قديم. فالشيء^(٦) إذا كان فاسدا في حال، كان فيها صالحا، إذ عللها موجودة، ومحال أن تكون عللها موجودة ويتوفى

(١) يعني: الصور، التي هي الأعراض.

(٢) في (ب) و (د): فإنما.

(٣) سقط من (أ): يجوز أن.

(٤) أي: يتوهم الإنسان الجسم خاليا من الصفات، لأن منها الطول والعرض والعمق ولو تجرد منها لخرج عنه كونه جسما.

(٥) في (أ) و (هـ) و (و): ما ذكر.

(٦) هذا جواب عليهم.

هذا في الطفولية، ويرد هذا إلى أرذل العمر، وينكس هذا في الخلق. إذ يعمر^(١)؛ إن هذا لعمرى لعكس العقول.

قال الملحد: لو لزمهم ذلك، للزمك حين زعمت: أن الله علة كون الأشياء وفسادها، مثل ما ألزمت خصومك.

قال القاسم عليه السلام: ولا سواء! وذلك أبنا لا نزع أن الله علة كون الأشياء وفسادها، بل نزع: إن الله تعالى هو الذي كون الشيء، وأفسده من غير ما^(٢) اضطرار. والدليل على أن الله عز وجل ليس بعلة فعلة^(٣) ذلك؛ أن أفعاله مختلفة الأحوال، منتقلة الصفات. فلو كان هو العلة لما زال شيء عن صفته، لأنه عز ذكره قديم، والقديم لو كان علة شيء، لم يزل معلول، كما لم يزل هو في ذاته، وزوال الأشياء عن صفاتها يدل على أن الله عز وجل ليس بعلة ولا معلول.

فقال الملحد حينئذ^(٤): بارك الله فيك، وفي من وكذلك، فقد أوضحت ما كان ملتبسا عليّ؛ وإني سائلك عن غيرها، فإن أجبتني عنها كما أجبت أسلمت.

قال القاسم عليه السلام: إن أسلمت فخير لك، وإن أصررت- فلن يضر الله إصرارك! سل عما بدا لك.

[توحيد الخالق]

قال الملحد: ما الدلالة على أن صانع العالم واحد؟

قال القاسم عليه السلام: لأنه لو كان أكثر من واحد، لم يخل من أن يكون كل واحد من الصانعين حيا، قادرا. أو ليس كذلك؟! فإذا^(٥) كان كل واحد منهما حيا

(١) في (أ) و (ج): أو يعمر.

(٢) سقط من (ب) و (هـ) و (د): ما.

(٣) سقط من (أ) و (ب) و (ج) و (د): فعلة.

(٤) في (هـ): عند ذلك.

(٥) في (ب) و (د) و (و): فإن.

قادرا، لم يكن محالا متى أراد هذا خلق شيء، أن يمنعه الآخر من خلقه لذلك الشيء بعينه، ولو منعه صاحبه من ذلك، كان الممنوع عاجزا، وذلك عجزه على حدثه! وإن تمنعا، وتكافأت قواهما، وقع الفساد، ولم يتم لواحد منهما خلق شيء، ودخل كل واحد منهما العجز، إذ لم يقدر كل واحد منهما على مراده. فلما وجدنا العالم منتظما، مُتسق التدبير، دلنا على^(١) أن صانع ذلك ليس باثنين، ولا فوق ذلك.

قال الملحد: ما أنكرت أن يتفقا، ويصطلحا؟

قال القاسم عليه السلام: إن الاتفاق والإصلاح يدلان على حدث من تعمدهما، لأنهما لا يتفقان إلا عن ضرورة، والمضطر فمحدث لا محالة.

قال الملحد: إنهم يقولون: إن صانع الخير لا يأتي بالشر أبداً، وكذلك صانع الشر لا يأتي بالخير أبداً^(٢).

قال القاسم عليه السلام: إن هذا مكابرة العقول.

قال الملحد: وكيف ذلك؟

قال القاسم عليه السلام: لأن ذلك يدعو إلى القول بأن أحدا لم يذنب قط، ثم اعتذر من ذنبه^(٣)؛ وإلى القول بأن إنسانا واحدا لم يصدق ولم يكذب، ولم يضل ولم يهتد^(٤)، ألا ترى أنهم^(٥) يزعمون أن انتحالهم حق، وأنه واجب على الناس الرجوع إلى مذهبهم، فإن كان الشيء الواحد لا يأتي بالخير والشر، فحدثني من يدعون إلى مذهبهم؟ فإن قالوا: الخير. قيل: فإن الخير لا يضل أبدا. وإن قالوا: الشر. فالشر لا

(١) في (ب) و (د): واتسق تدبيره. وسقط من (أ) و (ب) و (ج) و (د): على.

(٢) الشر قسمان: الأول شر ليس من صنع الله وهو الفساد والمعاصي وما شابهها. والثاني من الله وهو شر في تصور الإنسان وخير في الواقع وذلك مثل: الجذب والمرض والفقر وما شابه، وهو المقصود هنا.

(٣) أي: تاب وصلاح بعد فساده.

(٤) في (هـ): لم يصدق ويكذب ولم يضل ويهتد.

(٥) أي: الثنوية أصحاب الظلمة والنور.

يهتدي أبدا. فليت شعري مَنْ هذا^(١) الذي يدعونه إلى مذهبيهم.

قال الملحد: لعمرى لقد أَلْطَفْتُ^(٢) في الإستخراج على القوم، ولعمرى إن هذا مما يقطع شغبيهم، ولكنهم يقولون: لما كان في العالم خير وشر، دلنا ذلك على أنهما من أصلين قديمين.

قال القاسم عليه السلام: أما وجود الخير والشر في العالم، فإننا نجده؛ إلا أن هذا يدلنا على أن صانع العالم واحد.

والدليل على ذلك: أن الخير والشر، معتقان على الخير والشرير، ووجدناهما محدثين، وقد قدمنا الكلام في هذا المعنى بما فيه كفاية، وبينا أن العالم أصله وفرعه محدث، وأن المحدث يقتضي المحدث، (فإن كان حكم فاعله كحكمه، أوجب ذلك حدوث صانع العالم، ويقتضي المحدث^(٣))، فإن كان هذا هكذا، فلكل صانع صانع، إلى مالا نهاية له، وقد بينا فساده آنفا^(٤).

ووجه آخر وهو: أن الخير والشر ليس اختلافهما يدل على قدمهما، ليس اختلافهما بأعظم^(٥) من اختلاف الصور والهيئات. وقد قلنا: إن اختلافهما يدل على من خالف بينها، واخترعها^(٦) مختلفة، فلو كان الخير والشر وسائر المختلفات قديمة، لكان فيها دفع الضرورات.

ووجه آخر: ذلك^(٧) أنا نرى خيرا لمعنى، وشرى لمعنى آخر، ونرى الخير والشر

(١) في (أ) و (ج): ما هذا.

(٢) في (أ) و (ب) و (ج) و (د): لطف.

(٣) سقط من (ب) و (د): ما بين القوسين.

(٤) في (هـ) و (و): أيضا.

(٥) في (أ) و (ب) و (ج) و (د): بأكثر. وفي (هـ): أعظم.

(٦) في (أ): إن اختلافهما يدل على من خالف بينهما واخترعهما. وفي (ج): إن اختلافهما يدل على من خالف بينهما واخترعها. وفي (و): إن اختلافهما يدل على من خالف بينهما واخترعها.

(٧) سقط من (أ) و (ج): وجه آخر. وفي (هـ): وهو.

مجتمعين في حين^(١) واحد، فلا يخلوان في حال اجتماعهما من أمور: إما أن يكونا اجتماعاً بأنفسهما، أو جمعهما غيرهما، فإن كانا اجتماعاً بأنفسهما فمحال^(٢)، وذلك أنهما ضدان، والضدان لا يجتمعان بأنفسهما، لأننا^(٣) نشاهد نفورهما، وفرار كل واحد من صاحبه، فإذا فسد ذلك، لم يبق إلا أن جامعا جمعهما.

ووجه آخر وهو: أنه لو كان وجود الخير والشر، دآلا على أن لهما أصلين قديمين، لكان وجود الطبائع الأربع دآلا على أن لها أصولا قديمة، وإذا كان هذا هكذا، دلنا على أن شاهدهم شاهد زور.

[حكمة خلق العالم]

قال الملحد: فإذا لم يكن العالم واحدا قديما، ولا كان^(٤) مزاج الاثنين، وكان صنعا من صانع قديم؛ فحدثني. لِمَ خلق الله هذا العالم؟

قال القاسم عليه السلام: إن هذا الكلام فرع من أصل، فإن سلّمت لي الأصل كلمتك فيه، وإلا نازعتك في الأصل.

قال الملحد: وما ذلك الأصل؟

قال القاسم عليه السلام: هو أن تعلم بالدلائل: أن العالم محدث، وأن له محدثا، ثم تعلم: أن محدثه واحد، قديم؛ ثم تعلم: أنه قادر، حي، حكيم في نفسه، وفعله.

قال الملحد: قد دلت على الصانع، وعلى أنه واحد، فما الدليل على أنه قادر حي حكيم؟

قال القاسم عليه السلام: الدليل على ذلك أنا وجدنا الفعل المتقن المحكم متعذرا

(١) في (هـ): حال.

(٢) في (ب) و (ج) و (هـ): فذلك يستحيل.

(٣) في (أ) و (ج) و (و): مع أنا.

(٤) سقط من (هـ): وكان.

إلا على القادر الحي الحكيم العالم؛ فلما وجدنا الفعل المحكم واقعا، دلنا ذلك على أن صانعه عالم، قادر، حي، حكيم.

قال الملحد: فهل الفاعل الحكيم القادر سوى الإنسان؟

قال [القاسم]: لا.

قال [الملحد]: أفقول إنه إنسان؟

قال [القاسم]: إني وإن لم أجد إلا إنسانا، فلم يقع الفعل منه لأنه إنسان، إذ قد وجدنا إنسانا تعذر عليه الفعل، فلما وجدناه متعذرا عليه؛ دلنا ذلك على وجود فاعل ليس بإنسان^(١).

ألا ترى أنا لما قلنا: إنه لا يجوز كون الفعل إلا من قادر حكيم، جائر منه ذلك. فكان قولنا فيه مستمرا؛ ولما لم يستمر القول في ذلك^(٢) لم نقل به.

قال الملحد: قد أبلغت في هذا، فارجع إن شئت إلى مسألتني.

قال [القاسم]: سل^(٣).

قال [الملحد]: لِمَ خلق الله العالم؟

قال القاسم عليه السلام: قال الله سبحانه: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الحاثية: ١٣]. فأخبر أنه خلقنا للعبادة، والابتلاء، وليبلغ بنا إلى أرفع الدرجات، وأعلى المراتب.

(١) لأن تخلف القدرة والحكمة عن بعض الناس دليل على أنها لم تحصل للآخرين لعل كونهم من الناس، إذ قد وجدنا ناس لم تحصل لهم فدل على أنها حصلت ممن يعلم ويقدر من الناس يجعل جاعل، لا لعل أنه إنسان. وذلك يدل على أن القدرة والحكمة لا تتوقف على الإنسانية. تعلية السيد بدرالدين الحوثي.

(٢) أي: في الإنسان وقدرته.

(٣) سقط من (هـ): ما بين القوسين.

قال الملحد: فما دعاه إلى خلقنا؟ الحاجة خلق؟

قال القاسم عليه السلام: أما قولك: ما دعاه؟ فمحال.

وذلك أنه لم يزل عالماً بلا سهو، ولا غفلة. فقولك: ما دعاه^(١)؟ محال. لأن الدعاء، والتنبيه، والتذكير، إنما يحتاج إليها الغافل؛ فأما الذي لا يجوز أن يغفل، فمحال أن يدعوهُ شيء إلى شيء؛ إذ لا غفلة هناك، ولا سهو. والدليل^(٢) على ذلك: أن الغفلة من الدلالة على الحدوث؛ وقد قامت الدلالة على أنه قديم. وأما قولك: الحاجة خلق؟ فالحاجة أيضاً من صفات المحدثين، والقديم يتعالى عنها.

قال الملحد: فلمَ خلق؟!

قال القاسم عليه السلام: أما قولك: لمَ خلق؟ فقد أجبتك، وذلك في الجوابين السابقين لهذا. لأن قولك "لمَ" سؤال. وقولي: "لأن" إجابة.

قال الملحد: فما وجه الحكمة في خلق العالم، وخلق الممتحنين؟

قال القاسم عليه السلام: وجه الحكم في ذلك، أنه إحسان، أو داع إلى إحسان، وكل من أحسن، أو دعا إلى إحسان، فهو حكيم فيما نعرفه.

قال الملحد: وكيف يكون حكيماً من خلق خلقاً فألمه بأنواع الآلام؟ وامتحنه بضروب من الإمتحان، أخبرني عن وجه^(٣) الحكمة في ذلك، من الشاهد؟

قال القاسم عليه السلام: أما قولك: كيف يكون حكيماً، من خلق خلقاً، فألمه بأنواع الآلام؟ فوجه الحكمة في ذلك من الشاهد^(٤)، أنا وجدنا من الآلام في الشاهد ما هو داع إلى الإحسان. من ذلك: ضرب المؤدبين للصبيان^(٥) ومنه الحمامة، والفصد^(٦)،

(١) في (هـ): فما دعاه.

(٢) في (ب) و (ج) و (د): والدلالة.

(٣) في (أ): خبرني بوجه. وفي (د): خبرني ما وجه. وفي (ب) و (ج): خبرني عن وجه.

(٤) في (هـ): في الشاهد.

(٥) في (هـ) و (د): المؤدبين والصبيان. وفي (د): المؤدبين الصبيان.

(٦) الفصد: شق العروق، والمراد الحمامة.

وشرب الأدوية الكريهة؛ كل ذلك داعية إلى الإحسان، وإلى شيء حسن في العقل، فإذا كان من الآلام^(١) في الشاهد ما هو كذلك، فكل ما^(٢) كونه من قِبَلِ الله عز وجل، مثل الموت والمرض والعذاب وغيره، حكمة في الصنع، وصواب في التدبير، إذ كان كل ذلك داعية إلى إحسان.

قال الملحد: ما الدليل على أن ذلك داعية إلى الإحسان؟

قال القاسم عليه السلام: الدليل على ذلك أنها أفعال الحكيم، وقد صح أن الحكيم إنما^(٣) يفعل هذه الأشياء، التي هي الترغيب في السلامة والصحة والخير، والترهيب من الغم والشر^(٤) والسقم. ومن رَغِبَ في الخير، فحكيم في ما نعرفه.

وأما قولك: لِمَ امتحن امتحانات، عَطِبَ^(٥) أكثرهم عندها؟

فإننا نقول في ذلك ولا قوة إلا بالله: إن الله سبحانه إنما امتحانه وأمره ونهيه، داعية له إلى الخير، فمن عَطِبَ فمن قِبَلِ نفسه عَطِبَ^(٦)، لأنه لم يأتمر بما أمره الله سبحانه؛ ولا انتهى عما نهاها عنه، ولو كان انتهى عما نهاها عنه، وركب ما أمر به، لكان يؤدي ذلك إلى الفوز العظيم.

فهو: من قبل نفسه عَطِبَ؛ لا من قبل الله عز وجل.

ومثل^(٧) ذلك فيما نعرفه: أن حكيما من حكمائنا لو أعطى عبدا له دراهم، وقال لهم: اتجروا، فإن رجتم، ولم تفسدوا، فأنا معطيكم ما يكفيكم، وإن لم تفعلوا عاقبتكم. فأطاعه منهم قوم، وعصاه آخرون، لم ترجع اللائمة عليه، بعصياتهم إياه؛ ولكنها لاحقة بهم، حين عصوه، ولم يخرج دعاء سيدهم إياهم وعطيتهم من الحكمة؛

(١) في (هـ): الأدوية.

(٢) في (أ) و (ج) و (هـ): ما هو كونه من قبل.

(٣) في (ب) و (د): لأنه فعل الحكيم، والحكيم إنما.

(٤) في (هـ) و (و): الغم والسقم والشر.

(٥) في (ج): غضب. (مصحفة).

(٦) في (ب) و (د): داعية له إلى الحكمة، فالمأمور من قبل نفسه عَطِبَ. وسقط من (أ) و (ج): عَطِبَ.

(٧) في (ب): مثال.

إذ لم يدعهم به إلا إلى الإحسان، فلما كان ذلك كذلك، كان الله حكيما، بامتحانه وأمره^(١) ونهيه.

قال الملحد: إن الله يعلم ما هم صائرون إليه، ونحن لا نعلم ذلك^(٢).

قال القاسم عليه السلام: إن الجهل، والعلم^(٣)، لا يحسن الحسن، ولا يقبح القبيح، وذلك لأنه^(٤) لو كان حسنا لأن الأمر به يعلم أنه يفعله^(٥) لكان ذلك قبيحا، إذا^(٦) كان الأمر بما يصير إليه المأمور جاهلا، فلما^(٧) لم يكن ذلك قبيحا لجهل الأمر منا، لأنه إنما^(٨) أمر بالحسن ودعا إلى الحسن، وإن كان جاهلا بما يصير إليه المأمور [دل ذلك على أنه لا فرق بين أن يكون الأمر بالحسن، والداعي إلى الحسن، جاهلا بما يصير إليه المأمور]^(٩)، أو علما.

وشيء آخر: وهو أنه لو كان الإمتحان قبيحا، إذا علم أنه يُعصى، لكان لا شيء أقبح من إعطاء العقل، لأنه إنما يُعصى عند وجوده، ويُستحق الذم والمدح به، فلما كان إعطاء العقل عند الأهم كلها موحدها وملحدها حسنا، دل ذلك على أن الإمتحان والخلق والأمر بالحسن كله حسن، علم أنه يعصي أو^(١٠) يطيع.

قال الملحد: فلمَ مزج الخير بالشر ولمَ صار واحد غنيا، وواحد فقيرا، والآخر قبيحا، والآخر حسنا؟

(١) في (ب) و (د): بأمره.

(٢) يعني أن ما ذكر القاسم غير مطابق، لأن الله يعلم مصير المتحنيين، والسيد لا يعلم.

(٣) يعني الجهل منا. والعلم من الله.

(٤) في (أ) و (ب) و (ج) و (د): أنه.

(٥) في (ب): بفضله. (مصحفة).

(٦) سقط من (ب): ذلك. و في (أ) و (ب) و (ج) و (د): إذ.

(٧) في (ب): ولما.

(٨) في (ب): لجهل الأمر لأنه أمر.

(٩) زيادة توضيحية لا بد منها لانتظام الكلام.

(١٠) في (ب): أم.

قال القاسم عليه السلام: إن هذه الدار دار امتحان، ودار ابتلاء، وحقيقة الإمتحان فهو: أن يخلق فيه، أو يأمره بشيء يثقل على طباعه؛ فينظر هل يطيع، أم لا يطيع؟

ولو خلق الله ما هو خفيف على طباعه، ثم أمره بالخفيف لكان ذلك لذة له، وليس بامتحان^(١). فلما كانت هذه الدار دار امتحان، كان الواجب في صواب التدبير، أن يمزج الخير بالشر، والنفع بالضرر، والمكروه بالمحبوب، والحسنة بالسيئة، والكره المنظر بالحسن المنظر، إذ كانت الدار دار امتحان؛ لأنه^(٢) لو كان كله محبوبا كان دار الثواب، ولو كان كله مكروها، كان دار العقاب، ودار الثواب والعقاب هذه صفتها.

واعلم أنه لو^(٣) لم تُعرف علل ذلك لكان جائزا، وذلك أنه في بدّي الأمر، إذا أقمت الدلالة على أنه حكيم في نفسه وفعله، ثم دلت على أن الكل من أفعاله حكمة، استغنيت عن معرفة علله.

ومثال ذلك من الشاهد: أنا لو هجمنا على آلات من آلات الصانع، فرأينا اعوجاج المعوجات، واستواء المستويات، وصغر بعضها، وكبر بعضها، وغلظ بعضها، ورقة بعضها، فحكمنا^(٤) أن صانعها غير حكيم، لكننا جاهلين بالحكمة، نضع الحكمة في غير موضعها. بل حينئذ الواجب علينا أن نسلم للحكماء حكمتهم، ونعرف أنهم لا يفعلون شيئا من ذلك إلا لضرب من الحكمة يعرفونه، ونعلم بأن المعوج والمستوي، وكل زوج منها يصلح لعمل لا يصلح له الآخر، فحينئذ وضعنا الحكمة في موضعها. فاعرف ذلك وتبينه، تجده كما قلنا إن شاء الله تعالى.

فلما^(٥) كانت أفعال الله كلها إحسانا، أو داعية إلى الإحسان، كان تبارك وتعالى

(١) في (ب) و (د): ولم يكن بامتحان.

(٢) في (هـ): لأنه جل وعلا لو.

(٣) في (هـ): واعلم أنه لو لم نعرف.

(٤) في (هـ): وكثرة بعضها، وقلة بعضها. وفي (ب) و (د): فحكمنا على.

(٥) في (ب) و (د): ولما.

بفعلها كلها حكيمًا، إذ كل ذلك حسن في العقل.

فإن قلت: لمَ فعل الحسن في العقل؟

قيل لك: يفعل الحسن لحسنه، ولو لم يفعل الحسن في العقل لحسنه، لكان لا يترك القبيح لقبحه في العقل^(١)، وكفى بهذا القول قبحًا.

[إرسال الرسل وحكمة التشريع]

قال الملحد: لقد أبلغتَ وقد بقيتَ لي مسائل.

قال القاسم عليه السلام: سل.

قال الملحد: ما الدليل على أن الصانع له رسول؟

قال القاسم عليه السلام: الدليل على ذلك أن الصانع حكيم، محسن إلى خلقه، وفي العقل أن شكر المنعم واجب، فلما كان هذا في عقولنا واجبا، وكان الله حكيمًا منعمًا على خلقه؛ كان من كمال النعمة أن أرسل إليهم الرسل، مع دلائل اضطرت العقول إليها، ليبين لهم كيفية شكره، لأن كيفية^(٢) شكره ليس مما يعلم بالعقل، ولا بالنفس، ولا بالحس، ولا بالظن، وإن كان في العقل جوازه. فحيث أقام لهم معهم دلائل ومعجزات، دل بها على صدقهم.

قال الملحد: كأنك تقول: إن شرائع الأنبياء خارجة عن العقول، إذ قلت: لا يُعلم كيفيتها بها^(٣).

قال القاسم عليه السلام: أما قولك: إن شرائع الرسل خارجة عن العقول إذ ليس فيها كيفيتها. فإني لم أقل لك^(٤) ليس فيها كيفيتها بته، بل اشترطتُ لك فقلت لك: إنه

(١) سقط من (هـ): في العقل.

(٢) في (هـ): كيف.

(٣) سقط من (هـ): بها.

(٤) في (هـ) و (د): أقل لك ليس فيها أن لا تكون بته.

وإن لم يكن فيها كیفیتها ففيها جواز كونها.

قال الملحد: وكيف ذلك؟

قال القاسم عليه السلام: هو مثل ما تعرفه في الشاهد، وذلك لو أن سيداً أمر عبده ببناء دار، أو قطع شجرة، أو إعطاء عبد الله، أو ضرب زيد، فإنه ليس في العقل أن السيد يأمر به^(١)، فإذا أمر به كان في العقل أن الإثم به حسن، وأن تركه قبيح، إذا كانت^(٢) لأمر سيده عاقبة محمودة، ومرجع نفع إلى العبد، فالعقل^(٣) يجوز الأمر بكل شيء على حياله، ولا يوجب شيئاً من ذلك دون شيء، إذا كان ذلك الأمر مما ينتقل حاله في العقل، وذلك أنه قد يكون المشي إلى موضع ما حسناً في العقل، إذا كان للمشـي معنيً حسن، فأما اللواتي يُدرك حكمها في العقل، فقد أدرك بأن^(٤) الأمر بها لا يأمره إلا بما هو حسن، ولا ينهى إلا عن ما هو قبيح عنده.

قال الملحد: فحدثني عن الصلاة والصيام وغيرهما من الشرائع، هل له أصل في العقل^(٥) تفرّع هذا منه؟

قال القاسم عليه السلام: أجل، قد أخبرتك به آنفاً، وهو كالأمر بالمشي إلى موضع ما، وكضرب زيد، وإعطاء عبد الله، ليس له أصل في العقل^(٦)، أكثر من الإثم لأمر الحكيم، ووجه الحكمة فيه أن الأمر إنما يأمر به لينظر هل يأتمر به المأمور فيجازية لذلك؟ لا سيما إذا كان الأمر مستغنياً غير محتاج إلى ما يأمر به، وإنما يأمرهم ليمتحنهم، وليظهر بذلك أعمالهم، فإن الأمر به حسن، وعلى ذلك سبيل الشرائع كلها.

قال الملحد: خبرني عن كيفية معجزاتهم.

قال القاسم عليه السلام: هو قلب العادات، وأن لا يترك العادات جارية على

(١) أي: بعينه.

(٢) في (ب): كان.

(٣) في (ب): فإن العقل.

(٤) في (ب) و (هـ): أن.

(٥) في (هـ): هل لأمر في العقل.

(٦) في (هـ): ليس له في الأصل في العقل.

مجرأها، فإذا جاء أحدهم وقال له قومه: ما الدلالة على صدقك، قال: الدليل أن الله يقلب عاداتهم، في كذا، وكذا، إلى كذا وكذا، فحينئذ يعرفون صدقه، ويضطرون إلى قبول قوله، وهذه سبيل المعجزات كلها، وبمثل ذلك^(١) يفرق بين النبي والمتنبي، وبين^(٢) الصادق والكاذب.

[الحكمة من الموت والبحث]

قال الملحد: فإنه^(٣) بقي في قلبي شبهة، فأحب أن تقلعها بحسن رأيك ونظرك.

قال القاسم عليه السلام: هاها لله أبوك!

قال الملحد: أخبرني عن الله عز وجل، لِمَ يميت الإنسان، ويصيرُه ترابا، بعد أن جعله ينطق بغرائب الحكمة، وبعد هذه الصورة العجيبة البديعة؟! وَلِمَ يفني العالم كله؟! أرأيت لو أن إنسانا بنى بناء فنقضه لا لمعنى، هل يكون حكيما؟!

قال القاسم عليه السلام: ليس الأمر كما ظننته، أرأيت لو أن إنسانا بنى بناء للشتاء فلما جاء وقت الصيف نقضه وبناه للصيف، هل يكون حكيما؟
قال [الملحد]: نعم.

قال [القاسم] عليه السلام: وَلِمَ؟

قال [الملحد]: لأن الذي اتخذ للشتاء، لا يصلح للصيف، وكذلك الذي اتخذ للصيف لا يصلح للشتاء.

قال القاسم عليه السلام: وكذلك الله عز وجل، خلق الدنيا وما فيها^(٤) للإبتلاء، فإذا انتهى إلى أجله وحينه، أفناها^(٥)، ويعيدها ثانيا ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْأَوْا بِمَا

(١) في (ب): وبذلك.

(٢) سقط من (هـ): بين.

(٣) في (ب) و (د): إنه قد.

(٤) سقط من (هـ): وما فيها.

(٥) سقط من (أ) و (ج) و (هـ): وحينه. وفي (ب) و (د): يفنيها.

عَمِلُوا وَتَجَزَى الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴿٣١﴾ [النجم: ٣١]. ولا يكون ذلك خروجاً من الحكمة، بل الحكمة أن لا يضيع الثواب والعقاب.

قال الملحد: إن التوحيد، والتعديل، والرسول، قد تكلم فيه ناس من أهل الملل^(١) وكل يشك في الميت، هل يجي أم لا؟ وكل يجيء في ذلك بشيء، فإن دلت على ثباته، وكيفيته، لم تبق لي مسألة، وحينئذ آمنت بربي.

قال القاسم عليه السلام: أما الدلالة على ثباتها^(٢) فإني وجدت الله تبارك وتعالى حكيماً، قد امتحن خلقه، وأمرهم، ونهاهم، وكان قول من يقول بإزالة الإمتحان، داعياً^(٣) إلى الإهمال، والإهمال داعٍ إلى أن الله غير حكيم، وإذا^(٤) جاز أن يكون العالم قديماً. لأنه لا فرق بين أن يفعل من^(٥) ليس بحكيم هذا الصنع العجيب، وبين أن يقع فعل لا من فاعل، والأشياء موجودة، فتكون قديمة أزلية، لا فاعل لها.

ووجدت^(٦) هذا القول داعياً إلى التجاهل، فلما كان ذلك كذلك، صح أن الله حكيم، والحكيم لا يهمل خلقه، وإذا لم يهمل خلقه، لم يكن بد من أمر وهي، ولم يكن بد من^(٧) مؤتمر، وغير مؤتمر، وكان من حكم العقل أن يفرق بين الولي، والعدو، ووجدنا أوليائه وأعداءه مستوية الأحوال في الدنيا، لأنه كما أن في الأعداء من هو موسر صحيح، ففيهم من هو معسر مريض، وكذلك الأولياء، فلما كانت في الدنيا أحوالهم مستوية، ولم يكن بد من التفرقة بينهما^(٨)، صح أن داراً أخرى فيها يفرق بينهم، وفيها ينشرون، إذ قد وجدت هذه الحال قد اشتملت الكل، الولي والعدو.

(١) في (ب): الملل والرسول. وفي (ج): أهل العلل. مصحفة.

(٢) في (أ) و (ب) و (ج) و (د): حياتها.

(٣) في (ب) و (د): داعية.

(٤) في (هـ): فإذا.

(٥) في (هـ): ما.

(٦) في (ب) و (هـ): وجدت.

(٧) سقط من (هـ): لم يكن بد من.

(٨) سقط من (هـ): بينهما.

وذلك قوله عز وجل: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ ﴿٢٨﴾ [ص: ٢٨].

وأما قولك: أخبرني عن كيفيتها؟ فإن الله عز وجل جعل الروح لجسد الإنسان حياة له، كالأرض إذا اهتزت بالماء، وتحركت بالنبات، كذلك الروح إذا صار في الإنسان، صار حيا متحركا، إذا امتزج أحدهما بصاحبه.

قال الملحد: وكيف يمتزج الروح بالبدن^(١) وقد صار ترابا؟

قال القاسم عليه السلام: وكيف يمتزج الماء بالأرض الهامدة؟ إذا صارت قاحلة يابسة.

قال الملحد: هو أن يحطر عليها، أو يجري فيها فيتصل أجزاء الأرض بأجزاء الماء، بالمشكلة التي بينهما، فعندها تهتز وتتحرك.

قال القاسم عليه السلام: وكذلك الروح، يرسل^(٢) إلى ذلك التراب، فيماسه ويمارجه، فحينئذ يحى الإنسان ويتحرك. أولا ترى إلى بدء خلق الإنسان، كيف كان؟ أو ليس^(٣) تعلم أنه كان ترابا، فلما جمع الله بينه وبين روحه صار إنسانا، فأصل خلق الإنسان يدلك على آخره، أولا تسمع قوله سبحانه: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿٧٦﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [يس: ٧٩-٨٠].

قال الملحد: إنه ليس بين الروح والتراب مشكلة، فيما يُعرف!

قال القاسم عليه السلام: فهل تعلم^(٤) بين النار والشجر الأخضر مشكلة؟

قال الملحد: نعم. وهي أنها مجموعة^(٥) من الطبائع الأربع إحداهن النار^(١).

(١) في (ب) و (د): بالجسد.

(٢) في (هـ): يوصل.

(٣) في (هـ): أولست.

(٤) في (د) و (هـ): تعرف.

(٥) في (هـ): مخلوقة.

قال القاسم عليه السلام: الله أكبر هل تعلم بين النار وبين^(١) ثلاثتها مشاكلة؟
قال الملحد: لا.

قال القاسم عليه السلام: فكيف اجتمعن؟ إنه لما جاز أن تجتمع النار مع الماء،
والأرض والأهوية، بلا مشاكلة بينهن^(٢) جاز للروح مثل ذلك.

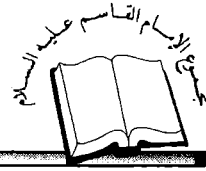
فقال الملحد عند ذلك: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله وأن كل ما
جاء به حق، ونَعِسَتْ أمة ضلت عن مثلك. وأسلم وحسُنَ إسلامه، وكان يختلف إلى
الإمام أمير المؤمنين القاسم عليه السلام، ويتعلم منه شرائع الإسلام.
تمت المناظرة وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين.



(١) الطبائع الأربع هي: التراب، والماء، والنار، والهواء.

(٢) سقط من (هـ): وبين.

(٣) سقط من (هـ): بينهن.



المراد علي الزنديقي ابن المقفع



بسم الرحمن الرحيم

الحمد لله خالق كل معبود، المستوجب للحمد في كل موجود، الذي لا يقصر عنه بالحمد من رشيد خلقه حامد، الصمد الذي ليس من ورائه غاية يصمدها صامد. دليل من استدل بالحقائق، فيما فطر سبحانه من مختلف الخلائق، التي يوجد من اختلافها، وما خالف بينه من أصنافها، ما يوجد من اختلاف الظلم والأنوار، وفرقة ما بين الليل والنهار، بل أكثر في الفرقة بيانا، وأوضح في التباين فرقانا، لتفاوت ما فيها من اختلاف الألوان والطعوم، ولضروب ما فيها من كل محسوس ومعلوم، دلالة منه سبحانه بمتفاوتها، ومختلف ما بين حالاتها، على الأول الأحد، السابق لكل عدد، الذي لا يكون ثان إلا من بعده، ولا يثبت الثاني إلا من بعد عده، البعيد من مساواة الأنداد، المتعالي عن مناواة الأضداد.

نحمده على ما هدانا إليه، ودل برحمته من توحيده عليه، ونسأله أن يصلي على ملائكته المصطفين، وعلى جميع رسله والنبيين، وأن يخص محمداً في ذلك من صلواته، بأفضل ما خص به أهل كراماته، ونستعينه لا شريك له على شكر نعمته، فيما وهب لنا من أبوة محمد عليه السلام وولادته، والحمد لله رب العالمين، ونعوذ به^(١) من عمارة العمين.

(١) في (ب): بالله.

[الرد على ماني^(١)]

ثم إن فرقة من الكفرة قادها عصيانها، ونعق بقادتها في الكفر والعمى شيطانها، إمامها المقدم، وسيدها المعظم، (ماني) الكافر بأنعم الله اللعين، الذي لم يبلغ كفره قط بالله الشياطين، ابتدع من القول زوراً لم يسبقه إليه سابق من الأولين، ولم يقل به قبله قط أحد من قدماء الخالين، مع افتراق مللهم، ومختلف سبلهم، فزعم أن الأشياء كلها شيثان، وقد يوجد خلاف زعمه بالعيان، فلا يوجد بين ما ذكر من النور والظلمة فرقة، إلا وجدت الأشياء كلها يمثلها لهما مفارقة، إلا أن الفرقة بين الأشياء أوجد، ومن الأشياء للنور والظلمة أوكد، مكابرة لعقول أطفال الأنعام، وتجاهلاً بما تجهله بهيمة الأنعام.

ثم قال تحكماً، وافترى زعماً، أن الأشياء كلها من النور والظلمة مزاج، وأنه لم

(١) ماني بن فاتك، مؤسس المانوية، ولد بجنوبي بابل نحو سنة (٢١٦م) أي بعد ميلاد المسيح عليه السلام، واختلف في أصله، إلا أن أقرب للصواب أنه كان فارسي الأصل، وتربى تربية دينية، هيئته فيما بعد إلى ادعاء النبوة هو في سن صغيرة في الرابعة والعشرين من عمره. أما عن أسباب ادعائه النبوة في هذه السن وبواعث ذلك فهو أمر يصعب معرفته أو التكهن به، لأن أغلب المراجع التي أرخت له تقف عند أسباب ادعائه للنبوة، إلا أن الظاهر من ذلك هو أن ميوله الشخصية وبيئته والتربية الدينية التي تلقاها قد أثرت كثيراً في ذلك. الموسوعة الفلسفية/٤١٧.

وشرع ييشر بالمانوية وقصد الهند، ولما ارتقى شابور عرش فارس (٢٤١م) استدعاه، لكن دعوته لاقت معارضة شديدة من كهنة الزرادشتية، فلما نصب بهرام بن شابور ملكاً قضى بإعدامه سنة (٢٧٢م).

وتعتبر المانوية فرقة غنوصية مسيحية، وهي من أخطر الدعوات على العقيدة المسيحية والأفكار التي تعرضت لها منذ بشر بها المسيح عليه السلام، بل تعتبر من أطول هذه الدعوات التي أثرت فيها، إذ استمرت من القرن الثالث الميلادي حتى القرن الثالث عشر.

انتشرت المانوية وشاعت واعتنقها الكثيرون في سوريا وآسيا الصغرى والهند والصين ومصر وبلاد البلقان وإيطاليا وفرنسا، وكان القديس أوغسطين نفسه مانوياً لبعض الوقت.

وتقوم عقيدة المانوية على ثنائية الإله، وهي أهم فكرة في هذه العقيدة، فهناك إله للنور وإله للظلمة، والأول إله للخير والخصب والثمار، والثاني إله للشر والدمار.

يكن بينهما فيما خلا من دهرهما امتزاج، سفهاً من القول وتعباً^(١)، ومجانةً في السفه وخبثاً، فثبت بينهما شبه الاستواء، وحكمٌ عليها حكمُ السواء، في حالين يجمعانهما عنده معاً، وفعالين يتساويان فيهما جميعاً، فقال في أولاهما لم يمتزجا، ثم قال في أخراهما امتزجا، فجمعهما - عنده في الامتزاج وخلافه - الحالان، واشتراكهما فيما كان من إساءة وإحسان، وليس في أنهما هما الأصلان، دليل واضح به يثبتان، أكثر من تحكّم العماة في الدعوى، والاعتساف منهم^(٢) فيهما للعشوى، وما ذا يرون قولهم، لو عارضهم مبطل في الدعوى كههم^(٣).

فقال: بل النور والظلمة مزاجان، ومن ورائهما فلهما أصلان، هل يوجد من ذلك لهم، إلا ما يوجد لمن خالفهم؟!

فإن قالوا: الدليل على ذلك نفع النور، فربما ضرنا النور في أكثر حوادث الأمور، ولما يوجد من نفع قليل غيره، أنفع مما يوجد من أكثر كثيره، لثمرة أنفع في الغذاء لأكلها، من الأنوار في الغذاء كلها، ولئن كانت الدلالة من الدال على المنكر ضراً، يعود عندهم شراً، إن النور لأدل على طلبات الأشرار، وأكشف لهم عن خفيات ما يغون من الأسرار، التي عنها تجلّى نورهم، وبه كثرت في الضر ضرورهم.

وإن كان دليل عمارة الظلمة، على ما بينوه أصلاً في^(٤) الظلمة، ضر الظلمة في بعض أمورها، لربما منعت كثيراً من الشرور بستورها، فلم يجد لمنعها بسواتر ظلامها، الأئمة سبيلاً إلى تناول آثامها، ولسنا نجد عياناً نورهم من المضار معرّى، ولا ظلامهم في جميع الأحوال مضراً،^(٥) إلا أن يكون نورهم عندهم غير النور المعقول، فيصيروا

(١) في جميع المخطوطات: وتعتنا. وما أثبت إجتهد.

(٢) في (ب): فيهم.

(٣) في (ب) و (د): لهم.

(٤) في (ب): من الظلمة ضراً الظلمة. وفي (د): ضراً للظلمة.

(٥) قال أحد الشعراء مقتدا دعوى المانوية في أن النفع وإلى في النور والضر والشر في الظلمة. وكم لظلام الليل عندي من يد تفيد بأن المانوية تكذب يقول: إن للظلام عندي أباد مشكورة فقد نفعني وأوصل إلى الخير حينما جن تستري مع معشوقي ولولاه لما تمكنت من لقائه، وهذا النفع من الظلام يكذب

بعد إثبات أصلين إلى إثبات أصول، ويحكموا على غائب لا يُرى، بحكم لا يُتيقن ولا يُمتري، يتبين به عند أنفسهم قصرة^(١) عماهم، ويصح لهم بَلَّةٌ^(٢) غيرهم فيه خَطَاهُمْ.

ثم يقال لهم أيضاً: حدثونا عن نور الشمس، وما يباشر أبصار المبصرين منه عند شروقه باللمس، أليس نافعا^(٣) في نفسه، وعند مباشرة لمسه؟!

فإن قالوا: بلى، وكلما تَلَأْأَ؛ لأنه يتلأأ فيشرق وينير، وكذا الأمر به كل نور إما قليل وإما كثير.

قيل: فما باله يُعشي أبصار الناظرين ويؤذيها؟! وما بال بعض الحيوان لا تبصر مع ضوء الشمس وتلايلها؟!^(٤)

فإن قالوا: لعله^(٥) أن النور إذا أشرق على ناظر الانسان، وغيره مما يبصر^(٦) مع ضوء الشمس من الحيوان، رد مع شروقه ما في النواظر، من الظلمة إلى الناظر، فلم ير فيه، ولم يطق النظر إليه.

قيل: فالظلمة في قولهم تستر، فكيف مع مكانها في الناظر تبصر، وقد تُرى الأبصار، إذا أشرقت الأنوار، تبصر حينئذ الأشياء، وترى الظلمة والضياء، فلو كانت الظلمة لها سُترة، لما أبصرت ما ترونها له مبصرة.

فإن قالوا: الحرارة هي التي فعلت ذلك بالأبصار؛ لأن النور من شأنه دفعها إلى ما هي فيه من محجر القرار.

قيل: فالحرارة عندكم يا هؤلاء من شأنها الإحراق، وقد يُرى الناظر يدم النظر إلى شروق الشمس فلا يحرق ناظره الإشراق! وقد يزعمون أن الحرارة في الظلمة أوكد،

دعوى المانوية في نسبة الشر إلى الظلام والخير إلى النور.

(١) القصر: اختلاط الظلام.

(٢) بَلَّةٌ: ناهيك عن، أو فضلا عنه.

(٣) في (أ) و (ج): نافع.

(٤) أي: تَلَأْأَها. وإنما حذف الهمز لتوافق السجعة أو الفصلة السابقة. وهي لغة حجازية.

(٥) في (ب): العلة.

(٦) في (ب): لا يبصر.

وفي سوسها^(١) وكونها أوجد، ثم يدم الناظر إليها نظره، فلا يُعشيه ولا يحرق بصره! فأى دليل أدل على تلعبهم، وأوضح برهاناً على سفه مذهبهم؟! من هذا عند من ذاق من المعارف ذوقاً، وعَقَلَ بين مفترقات الأشياء فروقاً!!.

وأخرى يا هؤلاء فافهموها، تدل فيها على غير الأوهام التي توهموها، أن الشديد الرمد يجد في الظلمة راحة وفترة، وأنه يجد في النور عند مقاربته له مضرة منكراً، فلا نرى الظلمة إلا تفعل خيراً، ولا النور إلا يفعل شراً كبيراً^(٢).

وهذا فقد يبين أيضاً بوجه آخر، يدل على خلاف ما قالوا في الخير والشر. وهو أن يقال لهم في الماء، إذ زعموا أنه مزاج من النور والظلماء: ما بال قليله ينفع وكثيره يضر؟! فإن قالوا من قَبْلِ أن المزاج يقل ويكثر.

قيل: فما بال كثير نوره، في الكثير من بحوره، لا يمنع ضر كثير ظلمته، كما منع قليل نفعه قليل مضرته؟!.

أم تزعمون أن قليل النور أقوى من كثيره، فهذا من القول هو المحال بعينه، أن يكون قليل من شيء هو أقوى من كثير، كان منيراً أو غير منير!

ومما - أيضاً - يدخل عليهم، أن يقال إن شاء الله لهم: حدثونا يا هؤلاء عن الثور^(٣) ما باله يفر عن الحر إذا أحرقه إلى البرد والضَّلَال، ويفر من البرد إذا آذاه إلى الصَّلَاة^(٤) والنار، وهما في زعمكم جميعاً ظلمة مضرة، ليس لأحد فيهما منفعة ولا مسرة! ولن يخلو عندكم أن يكونا من سوسه فينفعا، أو مما زعمتم من خلافه فيضراهما؟!.

فإن قلتم بما فيهما من مزاج النور انتفع؟

(١) أي: أساسها.

(٢) في (ب) و (د): كثيرا.

(٣) في (ب) و (د): النور. ولعلها مصحفة.

(٤) الصَّلَاة: الشَّوَاء.

قيل لكم: فإلى أيهما فر ونزع؟!

فإن قالوا: إلى أكثرهما نوراً، وأقلهما من المزاج شروراً.

قيل: لئن كان من الشر إلى الخير صار بفراره، لقد أدركه الشر منهما في مقره وقراره، وإن ذلك لما لا ينمي^(١) أبداً، ولا يكون حيث كان إلا ضداً.

ثم يقال لهم: هل الظلمة مضادة للنور؟

فإن قالوا نعم.

قيل: أمثل ما يعقل من تضاد الأمور؟

فإن قالوا: نعم.

قيل: إن الضد لا يجمع أبداً ضداً، إلا أفناه فكان له عند الجامعة مفسداً، ولا تكون المضادة من الشئيين واقعة، إلا لم تجمعها بعد تضادها جامعة، إلا مع بطلان موجود^(٢) أعيانها، أو تبدل لهما باجتماعهما عن معهود شأنهما، كبطلان الثلج والناير عند اعتلاجهما، أو كتبدل اللونين أو الطعمين في امتزاجهما.

فكيف يصح لما زعموا من الأصليين الاجتماع؟! أو يوجد منهما بعد المزاج إضرار^(٣) أو انتفاع؟! وهما لا يكونان إلا متنافرين، أو مزاجاً فيكونا متغيرين، كتغير الممزجات عند مزاجها^(٤) إلى فعال واحد، يجده منها بدرك الحوآس أو بعضها كل واحد. لا كما قال (ماني) المكابر لدرك حسه، المخالف فيما قال ليقين نفسه، المتلعب^(٥) في مذهبه، السفیه بمتلعبه.

(١) لا ينمي: أي: لا ينجي، والنامي: الناجي. قال التغلي:

وما فيه كان السم فيها وليس سليمها أبداً بنامي

لسان العرب مادة نجي.

(٢) في (ب): وجود.

(٣) في (ب): أو إضرار وانتفاع. وفي (د): اضطراب أو انتفاع.

(٤) في (أ): مزاجهما.

(٥) في (ب): المتغلب في مذهبه السفیه بمتلعبه، وهو تصحيف.

وهذا أيضاً يكذب قولهم، أن يقال لهم: حدثونا ممن موجود الضحك والبكاء؟
 فإن قالوا: هما من الظلماء. لم يصح أن يكونا وهما متضادان من واحد غير
 متضاد. وكذلك إن قالوا من النور لم يصح أن يكونا منه وهو واحد غير ذي تضاد.
 وكذلك الجوع والشبع، والصبر والجزع، والفرح والحزن، والجرأة والجبن، وهذا
 كله، وفرعه وأصله، عندهم شرٌّ مذموم، وفي كل حال مُقْبَحٌ ملوم؛ لأنه قد يضحك
 ويكي، ويصح في هذا الدار ويشتكى^(١)، ويجوع ويشبع، ويصبر ويجزع، ويفرح
 ويحزن، ويجترئ ويجبن، مَنْ يكون ذلك كله منه عندهم في بعض الحال شراً، فكفى
 بهذا لمن أنصف الحق من نفسه متهم معتبراً.

فهذا أصل قول (هاني) النجس الرجيس^(٢)، الذي لم يسبق قوله فيه قول إبليس، ولم
 يَعب على الله بمثله قط عات، ولم يقصر بمعتقده عن غايات الضلالات، وعلى هذا -
 من قوله، وما وصفنا فيه من أصوله - مات^(٣) هاني لعنه الله لعناً كثيراً، وزاده إلى ناره
 سعيراً.

[الرد على ابن المقفع]

ثم خلف من بعد هاني أبي^(٤) الحيرة والهلكات، خَلَفُ سوء استخلفه إبليس على ما
 خلف هاني من الضلالات، يسمى ابن المقفع^(٥)، لعنه الله بكل مرأى ومسمع، فورث

(١) أي: يمرض.

(٢) في (أ) و (ج): الرجس.

(٣) في (ج): فات.

(٤) في (ب): أبو.

(٥) ابن المقفع:

أبو محمد عبد الله روزبة بن داذويه. فارسي الأصل.

ولد حوالي سنة ١٠٦هـ، في قرية بفارس اسمها (جور). وهي مدينة (فيروز آباد) الحالية، وقيل
 بالعراق.

لقب أبوه بالمقفع، بفتح الفاء، لأن الحجاج ضربه فتقفعت يده، أي: تشنجت.

وقيل: بكسرهما لعمله القفعة، وهي شبيهة بالرنبيل، بلا عروة وتعمل من الخوص.

نشأ بين أحياء العرب. فكان أبوه (دادويه) المقفع الفارسي يعمل في جباية الخراج لولاية العراق، من قبل بني أمية، وهو على دين المجوسية، ثم أسلم في آخر عمره، وولد له ابنه هذا وسماه (روزبه) فنشأ بالبصرة، وهي يومئذ حلبة العرب، وامتدّى البلغاء والخطباء والشعراء.

فكان لكل ذلك — فوق ذكائه المفرط — أعظم أثر في تربيته، وتحيته، لأن يصير من الكتاب والأدباء، والمترجمين إليها.

وكان مجوسياً مزدكياً، قيل أسلم على يد عيسى بن علي — عم السفاح — بمحض من الناس، وتسمى (عبد الله) وتكنى بأبي محمد.

وتقرب من بني أمية وولائهم، فكان يكتب ليزيد بن عمر بن هبيرة والي العراق في عهده، ثم كتب لأخيه داود بن هبيرة بعده وهو لا يزال مجوسياً. في خلافة مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية.

فلما ظهر العباسيون، وتمكنوا من الأمويين اتصل بعيسى بن علي — عم الخليفة السفاح، والمنصور — وكان حاكم الأهواز، فأسلم على يده — كما قيل — فكان كاتب ديوانه، كما قام بتعليم بني أخيه فنون العربية.

والمؤرخون يقولون إنه كان كاتباً بليغاً يضارع صديقه الكاتب عبد الحميد الكاتب، والذي كان يكتب بالشام لمروان بن محمد الملقب بالحمار — آخر خلفاء بني أمية.

وترجم له كتب (أرسطاطاليس) الثلاثة في المنطق، وكتاب (المدخل إلى علم المنطق) المعروف بإيساغوجي. وترجم له عن الفارسية وقيل عن الهندية كتاب (كليلة ودمنة) الشهير. وأتم بالزندقة.

قال ابن حجر: وحكى الجاحظ أن ابن المقفع، ومطيع بن أبياس، ويحيى بن زياد، كانوا يتهمون، ويقال: إن ابن المقفع مر ببيت نار المجوس، فتمثل بأبيات عاتكة.

والبيتان ذكرهما الشريف المرتضى في أماليه، وقال روى ابن شيبة قال حدثني من سمع ابن المقفع وقد مر ببيت نار المجوس، بعد أن أسلم فلمحه وتمثل:

يا بيت عاتكة الذي أتغزل حذر العدى وبه الفؤاد: موكل
إني لأمنحك الصدود وإني قسماً إليك مع الصدود لأميل

وقال الشريف المرتضى أيضاً:

وروى أحمد بن يحيى ثعلب قال: قال ابن المقفع يرثي يحيى بن زياد، وقال الأخفش: والصحيح أنه يرثي بها ابن أبي العوجاء:

رزئنا أبا عمرو ولا حي مثله فله ريب الحادثات بمن وقع
فإن تك قد فارقتنا وتركنا ذوي حلة ما في السداد لها طمع
لقد جر نفعا فقدنا لك أننا أمناً على كل الرزايا من الجزع

قال ثعلب: البيت الأخير يدل على مذهبه في أن الخير ممزوج بالشر، والشر ممزوج بالخير.

أقول: والأبيات المذكورة في حماسة أبي تمام/٣٥٧.

وقال ابن حجر: ونقل عن ابن المهدي أنه قال: ما رأيت كتاباً في زندقة إلا هو أصله. لسان الميزان ٣ /٤٤٩.

وكذلك قال الشريف المرتضى في أماليه ١/١٣٥.

وأيضاً ما نقل الإمام القاسم عنه من كتابه من النصوص التي تؤكد صدق ما قيل عنه من الزندقة، شاهد عدل، وخير ثبت، سيما والإمام القاسم قريب العهد به، إذ ولد ابن المقفع سنة (١٠٦هـ)، وولد الإمام القاسم سنة (١٦٩هـ). إضافة إلى ورع الإمام الشديد الذي يستحيل معه التقول والإفتراء. ورغم أنني بحثت كثيراً عن كتب ابن المقفع إلا أنني لم أعثر إلا على مجلد بعنوان آثار ابن المقفع، بعد لأيٍ وجهيد، حصلت عليه من مكتبة بعمان الأردن، يحتوي هذا المجلد على:

— كليلة ودمنة

— الأدب الكبير

— الأدب الصغير

— الدرة اليتيمة

— رسالة في الصحابة، وبضع وريقات رسائل وحكم.

ولم أفق على كتابه الذي نقل منه الإمام القاسم، ولعل الله أن يمن بالوقوف عليه.

ولقد شن الجاحظ حملة شعواء على الثنوية، وذكر طرفاً من عقائدهم التي ذكرها الإمام القاسم في كتابه (الرد على ابن المقفع)، وهو من المعاصرين للإمام القاسم، فقال: إن كتبهم لا تفيد علماً ولا حكمة، وليس فيها مثل سائر، ولا خبر طريف، ولا صنعة أدب، ولا حكمة غريبة، ولا فلسفة، ولا مسألة كلامية... وجل ما فيها ذكر النور والظلمة، وتناكح الشياطين، وتسافد العفاريث، وذكر الصنديد، والتهويل بعمود الصبح. الحيوان ١/٢٨.

وهذا يؤكد وجود رسالة ابن المقفع في هذا الشأن، التي رد عليها الإمام القاسم، وقد أثبت المستشرق الإيطالي (ميكل أنجلو جويدي) رسالة ابن المقفع التي فندها الإمام القاسم وأكد أنها من تأليفه.

ورغم الحالة العلمية الكبيرة التي أحيط بها في علمه بفنون وآداب العربية، فإن الإمام القاسم قلل من علمه بلغة العرب، وآدابها، في غير ما موضع من كتابه هذا. قال: إنه إنما أتى هو وأضرابه من قبل جهلهم باللسان العربي. ومثل لذلك بقوله: والذي اضطرت عظمته أعداءه الجاهلين له، والعامين عنه. فقال: وجهله بما بين العامين والعمين من الفرق في اللسان، أوقعه بحيث وقع من جهله بمخارج القرآن، والعامي فإنما هو ما نسب إلى أعوام الزمان، والعمي فإنما هو أحد العميان. قتله - حرقاً بتهمة الزندقة - سفيان بن معاوية المهلي، أمير البصرة، بأمر المنصور.

عن مائي في كفره ميراثه، وحاز عن أبيه مائي فيه تراثه، فعقد بعنقه من ضلالاته أرباقها،^(١) وشد على نفسه من هلكاته^(٢) أطواقها، فنشأ في الغواية منشأه، وافترى على الله ورسله إفتراءه، فوضع كتاباً أعجمي البيان، حكم فيه لنفسه بكل زور وبهتان، فقال من عيب المرسلين، وافترى الكذب على رب العالمين، بما تقوم له ذوائب الرؤوس، وتضطرب لوحشته أركان النفوس، ووصل إلينا في ذلك كتابه، وما جمحت به فيه من الإفك ألبابه.

فرأينا في الحق أن نضع نقضه، بعد أن وضعنا من قول مائي بعضه، إذ كان مائي العمي له فيما قال من الضلال إماماً، فأما النقض على مائي فسنضع له إن شاء الله كتاباً تاماً^(٣).

زعم ابن المقفع اللعين عماية وفرطاً، أنه لا يرى من الأشياء كلها إلا مزاجاً مختلطاً. كذلك زعم النور والظلمة، اللذان هما عنده الجهل والحكمة.

فاعرفوا إن شاء الله هذا من أصله، فإنما وضعناه لنكشف به عن جهله، وبالله نستعين في كل حال، كانت منا في قول أو فعال.

وقيل: إن سبب قتله الأمان الذي كتبه لعبد الله بن علي — عم المنصور — بعد أن خرج بالشام بعد مسوت السفاح، وكان أميراً عليها، وغلب عليها، وادعى أن السفاح عهد إليه، فجهز المنصور أبا مسلم الخراساني، فدخل البصرة، فاستأمن له أخواه عيسى وسليمان المنصور فآمنه، فطلب عبد الله من يرتب له كتاب أمان لا يستطيع المنصور أن ينقضه، وكان ابن المقفع كاتب سليمان أمير البصرة فأمره فكتب نسخة الأمان، ومن جملة: ومتى غدر أمير المؤمنين بعمه عبد الله، فريقيه أحرار، ونساؤه طوالق، والمسلمون في حل من بيعته. فاشتد على المنصور، وأمر سفيان بن معاوية المهلي — وكان يعادي ابن المقفع — أن يقتله فقتله.

هذا ما قيل في سبب قتله.

وكمنا أسلفنا فقد ولد ابن المقفع سنة (١٠٦هـ)، وقتل سنة (١٤٢هـ). يعني أنه كان في ريعان شبابه عند مقتله، فعمره آنذاك (٣٦) سنة.

(١) الأرباق جمع ربق: الحبال.

(٢) في (أ) و (ج): هلكته.

(٣) لم نقف عليه ولم يذكره المؤرخون، فلعل الإمام عليه السلام توفي قبل وضعه.

كان أول ما افتتح به كتابه، ما أكذب به نفسه وأصحابه، أن قال:

بسم النور^(١) الرحمن الرحيم

فإن كان النور هو الذي فعل اسمه (فلا اسم له، وإن لم يكن فعل اسمه فمن فعله، فإن هم ثبتوا^(٢) له اسماً غيره لم يكن إلا مفعولاً، وإن كان هو اسمه^(٣)) كانت أسماءه من سماه فضولاً، والفضول عندهم من كل شيء فمذمومة، وأسماءه إذاً كلها شرور ملومة، فهل يبلغ هذا من القول، إلا كل أحق أو محبول.

وقال: الرحمن الرحيم، فلمن زعم أن نفسه أم للأصل الذميم؟! فإن كان عنده رحماناً رحيماً، لمن لم يزل عنده شراً مليماً^(٤)، إن هذا هو أجل الجهل، والرضى عما ذم من الأصل، وإن كان إنما هو رحيم رحمان، لما هو من نفسه إحسان، فهذا أحول المحال، وأحبث متناقض الأقوال.

ثم قال: أما بعد: فتعالى النور الملك العظيم، فليت شعري أيُّ تعال يثبت لمن هو في أسفل التخوم!! ومن هو مختلط عنده بكل مذموم، من الأنتان القذرة، والبول والعذرة، وبكل ظلمة هائلة، وأوساخ سائلة، مرتبط في الأسفل، مزلزل فيها بأمواج الزلازل، لا يطيب منها نتن، ولا يُعيد قبيحا حسناً، ولا هائلاً أنساً، ولا سائل بول ييساً.

أيُّ ملك لمن لا يملك إلا نفسه وحدها؟! ولا يستطيع رشداً إلا رشدها! ولا يتخلص من مرتبط عدو! ولا يقدر على النجاة من سؤ! وأي عظمة تحق لمناوى ضده بالباشرة؟! ولم^(٥) يعلُ عدوه بغلبة - له عن مباشرته^(٦) - قاهرة، ومن فرقة المناوأة أعضاء؟! ومزقته المحاربة أجزاء؟! ومن حطه حربه من أعالي العلى؟! إلى بطون الأرض السفلى!!

(١) في (ب): الله (خطأ).

(٢) في (أ): بينوا.

(٣) سقط ما بين القوسين من (ج).

(٤) في (ب) و (د): ملوما.

(٥) في (ب): ولمن.

(٦) في (أ) و (ب): مباشرته.

ثم قال زعم: الذي بعظمته وحكمته ونوره عرفه أولياؤه. فليت شعري أنور أولئك عنده أم ظلمة؟! فإن كانوا نوراً^(١) فهم أجزاءه، أو ظلمة فتلك - زعم - أعداؤه، فهو الذي لا ولي له في قوله، ولم يؤمن عليه الفناء بعد زواله، عما كان معهوداً من حاله، ومع ما صار إليه من انتقاله، عن دارٍ أودَّآته، إلى دار أعدائه^(٢).

فيا ويل ابن المقفع، أيّ مشسع^(٣) عن الحق شسع، وأي متطوَّح^(٤) من الضلالة تطوَّح، وإلى أيّ طحية^(٥) من العماية تروَّح^(٦).

فافهموا أيها السامعون عجيب أنبائه، وتدبروا من قوله معيب أهوائه، إذ زعم^(٧) أن بعظمة نوره، وحكمة ما ذكر من زوره، كانت أولياؤه - زعم - عارفة، كأنه يثبت أنها كانت به جاهلة، ومع تثبيت هذا من القول في أموره، ثبت عمى^(٨) الجهل والشر في نوره، ثم نسب عظمة إلى عظيم، وثبت حكمته لحكيم، فأضاف نوراً إلى منير، ولا^(٩) يخلو ذلك من أن يكون قليلاً من كثير، فيكون كثير ذلك أفضل من قليله، فيكون مقصراً بالقليل عن الكثير وتفضيله، والتقصير نقص والنقص عنده شر من شروعه، والشر - زعم - لا يكون أبداً في نوره. فاسمعوا لقول التناقض، وزور حجج التداخض، ففي واحدة مما عددنا، وأصغر ما من قوله أفسدنا، كفاية نور كافية، وأشفية من الضلالة شافية، لمن أنصف فاعتبر، واعتبر فادَّكر.

فإن زعم أن عظمته ونوره وحكمته هن هو، زال عنه بزواله عنهن إذ هوهن الارتفاع والعلو، إلا أن يزعموا أنه ليس في الأرض للنور عظمة، ولا في دار هذه الدنيا

(١) في (ب) و (د): أنواراً.

(٢) في (أ) و (ج): عذابه. (مصحفة).

(٣) المشسع: المبعد.

(٤) المتطوَّح: المهلكة والمهوى.

(٥) الطحية: الذهاب في الأرض، والبعد.

(٦) تروَّح أي: ذهب.

(٧) في (ج): إذ يزعم، وسقط: إذ من (ب).

(٨) في (ج): عم الجهل والبشر.

(٩) في (ب): ولن. وفي (د): أن.

من حكمه حكمة، فيكون هذا ترك قولهم كله، والخروج من معهود فرعهم فيه وأصله.

ثم قال زعم: والذي اضطرت عظمته أعداءه، الجاهلين له، والعامين عنه، إلى تعظيمه - كما زعم - لا يجد الأعمى بداً مع قلة نصيبه من النهار أن يسميه نهاراً مضياً.

وجعله بما بين العامين والعمين من الفرق في اللسان، أوقعه بحيث وقع من جهله بمخارج^(١) القرآن، والعامي فإنما هو ما نسب إلى أعوام الزمان، والعمي فإنما هو أحد العميان، فكيف ويله مع جهله لهذا ومثله، يقدم على تعنيف وحي كتاب الله ومترله، الذي نزله على رسله، سبحانه الله ما يبلغ العمى بأهله!! فثبت العظمة من نوره جزءاً وجعلها^(٢) من أعضائه عضواً، ونسب إليها بعد فعلها، زالت^(٣) به عن عدو النور جهلاً، ورفعت به عن العمين - زعم - عماهم، والعمون فلا يكونون عنده إلا ظلماتهم، فلا نرى عظمتهم عندهم، وإن كابرُوا في ذلك جهدهم، إلا وقد أولت الظلمة خيراً كثيراً، وأحدثت^(٤) للجهل والعمى تغييراً، وهو يزعم في قوله، أنه لا تغيير^(٥) في شيء من أصوله، والأعمى فلم ينكر قط نهاراً، ولم يستصغر نهاره احتقاراً، ولم يعارضه به جهل، ولم يكن له عما فيه تبدل، وأعداء نوره به - زعم - جاهلة^(٦)، وعن مذهبه فيه ضالة مضلة،^(٧) فكيف يصح تمثيله لهم بالأعمى؟ إن هذا لصمم من ابن المقفع و عمى!!

ثم قال: ومُسَبَّح ومُقَدَّس النور.^(٨) النور الذي - زعم - من جهله لم يعرف شيئاً

(١) في (ج): جهله لمخارج. وفي (د): من جهله بمخارج.

(٢) في (أ) و (ب) و (د): وجعله من. وفي (ج): وجعل له من. وما أثبت هو الصواب. تأمل.

(٣) في (أ) و (ج): أزاله. وفي (د): أزال.

(٤) في (ج): أوحديث (مصحفة).

(٥) في (أ) و (ج): لا يغير شيء من أصوله.

(٦) في (ج): جهله. (تصحيف).

(٧) في (أ) و (ج): متصلة.

(٨) في (ب) و (د): ومقدس النور الذي.

غيره، ومن شك فيه - زعم - لم يستيقن بشيء بعده.

فاسمعوا في هذا القول من أعاجيبه! وما استحوذ عليه فيه من ألامه!! قال
وَمُسَبِّحٌ فَمَنْ تَأْوِيلُهُ مُسَبِّحُهُ^(١)، إذ ليس إلا هو وعدوه الذي لا يسبحه، فإن كان إنما
يسبح نفسه، فإنما يسبح جنس جنسه، فما في ذلك له من المدح! وما يحق بهذا من
مُسَبِّحٍ وغير مُسَبِّحٍ، وإن^(٢) كان إنما سبحه^(٣) جزء من أجزائه، فإنما سبح^(٤) الجزء نفسه
وغيره نظيره^(٥) من أكفائه، وقد يحق له يا هؤلاء على الأكفاء، من تسبيحه ما يحق لها
عليه بالسواء، وهو مُسَبِّحٌ ومُسَبِّحٌ، ومادح وممدح، فليس له من مُسَبِّحِهِ إلا ما عليه
مثله من تسبيحه، ولا له من مادحه إلا ما عليه من مدحه، وكل هذا أعجب عجيب!
وقول متناقض وتكذيب!!

قال: ومقدس وإنما مقدس مُفْعَلٌ ومعناه فَمُبْرَكٌ، فمن يُبْرِكُهُ وهو عنده يُبْرِكُ ولا
يُبْرِكُ، وليس معه إلا عدوه، الذي لا سوا إلا سُوهُ،^(٦) فنفسه تَبْرِكُهُ، فقد كان إذا ولا
بركة له. فسبحان الله ما أفحش خَطَأُهُمْ! وأبين جهلهم وعماهم!!

فإن قال قائل منهم فهذا فقد قلتم، وقد يدخل لهم عليكم ما أدخلتم!!
قلنا أما مُسَبِّحٌ فنقولها، وأما مقدس فأنت تقولها، ونحن لا من^(٧) طريق ما كَفَرْتَ،
فقد نقولها في النور الذي ذكرت، لأن الله تبارك وتعالى بارك فيه، وفطره من البركة
علي ما فطره عليه، فينفع بقدره^(٨)، في بعض أمره، فدل بذلك على بركته، وإحسان
ولي فطرته، ولكننا نقول في الله: الملك القدوس كما قال، إذ كان كل شيء فبقده

(١) في (ج): سبحانه.

(٢) في (ب) و (د): فإن.

(٣) في (ج): يسبحانه. وفي (ب) و (د): يسبحه.

(٤) في (ب) و (د): يسبح.

(٥) في (ب) و (د): نظيراً.

(٦) يعني: لا سوء إلا سوءه. وإنما لغة الإمام لغة حجازية وهم يسهلون المهموز.

(٧) في (أ): لأن (مصحفة).

(٨) في (ب) و (د): بقدرته.

نال من قُدسِ البركة^(١) ما نال.

وَمُسِيحٌ فقد نقولها^(٢)، إذ نجدها له ونعقلها، من كل ما هو سواه مفطوراً، ظلمة كان ذلك أو نوراً، فأما هذان التعبت، وقول التناقض والتكث، فهو بحمد الله مالا نقول، مما لا يقارب قول^(٣) أهل العقول، فأما قوله: الذي من جهله لم يعرف شيئاً غيره، فافهموا فيه هذيانه وهذره، فلعمر أبيه، ولعمر مغويه، لقد يعرف - الطب والصناعات، وأنواع ما تفرق فيه الناس من البياعات - من لا يعرف نوره، ولا يتوهم أمره، يعرف ذلك يقيناً من نفسه ابن المقفع، ويرى منه^(٤) بياناً بكل مرأى ومسمع، كم ترون من طيب طلب منه ابن المقفع الدواء؟! أو موصل من العوام أوصل إليه سراء^(٥) أو ضراء؟! توقن نفسه أن طبيبه يداويه، وأنه لا ينجع^(٦) فيه بغير يقين تداويه.

وكذلك من أوصل إلى ابن المقفع ضراءه فقد يعلم أنها غير سراءه، أو أوصل إليه سراءه فقد يوقن بتأ أنها غير ضراءه، وهذا من تكذيبه فيما قال فأثم موجود، كثير بين الناس في كل ساعة معهود، لا يشك في يقينه أهل الطب والصنائع، ولا العامة فيما تدبر من المضار بينها والمنافع، وكلهم لا يوقن بشيء مما زعم في نوره، بل يزعم أن الجهل في كل ما هو عليه من أمره.

ثم ابن المقفع فقد يعلم بتأ يقيناً، أن الناس لا يثبتون لسيطانه فعلاً ولا عيناً^(٧)، فأمر أعمه عمها؟! أو ضلالة أقل شبها؟! من ضلالة دخلت بأهلها، في مثل هذا السبيل من جهلها! فنعوذ بالله من خزي الأضاليل، ونعتصم به من هو الأباطيل، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد النبي وآله وسلم تسليماً كثيراً طيباً مباركاً فيه.

(١) في (د): البركة له ما نال.

(٢) في (أ) و (ج): ويفعلها. تصحيف.

(٣) في (أ): يقارب قوله العقول.

(٤) في (أ) و (ج): وابن أمية. تصحيف.

(٥) في (أ) و (ج): شراً أو ضراً.

(٦) أي: لا ينفع.

(٧) في (ب) و (ج): عبثاً.

وأما ما بعد هذا من حشو كتابه، فإننا قصرنا - لضعفه^(١) - عن جوابه. ثم قال وتَلَعَّب^(٢) في بعض كلامه، وجَوَّز ما حكم به لنفسه من أحكامه: فقد يبصر المبصرون - زعم - أن من الأمور محموداً، وأن منها مذموماً. فقال منها ولم يقل كلها، وسقط عنه بعضها وفضلها، وإذا كان لأيهما^(٣) كان بعض وكل، كان لكلها يقيناً على بعضها^(٤) فضل، وإذا ثبت بين النور التفاضل، ثبت لبعضه على بعض فضائل، وإذا كان النور فاضلاً ومفضولاً، فقد عاد^(٥) النور بعد أصل أصولاً، إذ الفاضل والمفضول اثنان، والفضل والنقص منهما شيان، والفاضل فخير حالا، والمفضول أسفل سفالا، فكل جزأين من أجزائه، فهما خير من جزو، وكل عضو من أعضائه، فهو في الشر كعضو، وهما^(٦) إذا اجتماعا، خير منهما إذا انقطعا، فمرة فيهما^(٧) خير عند الاجتماع، ومرة فغيرهما خير منهما عند الانقطاع.

وكذلك أيضاً فقد يدخل عليهم^(٨) في الظلمة وتفاضلها، ما يصيرهم إلى أن شر البعض منهما أقل من شر كلها، إذ شر كلها أكثر من شر بعضها، وإذا الشر من أقلها ليس هو أكثر من شر كلها، فالنور في نفسه واسمه شر ضرار، ونافع شرار، وذلك أنه^(٩) يقل والقلة عنده شر فيعود نوره ضرا، و يقصر عن قدر مبلغ كماله والتقصير عنده ضر فيعود ضرا، والظلمة فخير عندهم وشر، ونفع وضر، إذ قليلها^(١٠) مقصر في

(١) في (ب) و (د): لضعفه فيه عن.

(٢) سقط من (ج): وتلعب.

(٣) في (ب) و (د): لأيهما.

(٤) في (ب) و (د): بعض.

(٥) في (ب): صار.

(٦) في (ب) و (د): فهما.

(٧) في (أ) و (ج): فيهما. وفي (ب) و (د): فهما. ويبدو أن كليهما مصحفة.

(٨) في (أ) و (د): يدخل عليهما الظلمة وفاضلها. وفي (ج): وتفاضلها.

(٩) في (أ) و (ج): وكذلك. وفي (ب): لأنه.

(١٠) في (أ) و (ج): قلنها.

الشر، عن مبلغ كثيرها في مواقعه من الضر، وبعضها كذلك مع كلها، فرعها فيه ليس كأصلها.

فأي عدوان أعدى؟! أو طريقة أقل هدى؟! مما تسمع من أمورهم أيها السامع، فلتنفعك في بيان قبائحه المنافع، وأياً^(١) ما - ويله - رأى من الأشياء، من كل ظلمة أو ضياء، يحمد أو يذم في الناس دائباً، وأليس في الحمد والذم عندهم متقلباً، ألم ير^(٢) أن الظلمة ربما نفعت فحُمِدَتْ، وذلك إذ استترت الأبرار^(٣) بها عن ظلم الظالمين فَسَلِمَتْ، وطلبت فيها وبها، البرد^(٤) فأدر كته في طلبها، فهذا منها نفع ظاهر في دنيا ودين، يراه^(٥) بيناً من أمرها كل ذي عين وقلب رصين^(٦)، ثم تعود منافعها مضاراً، إذا أعطت^(٧) هذا منها أضراراً، وكذلك أحوال النور، في جميع ما يرى من الأمور، ربما^(٨) نفع فيها، ثم عاد بالضر عليها، وقد ذكرنا من ذلك في صدر كتابنا طرفاً، فيه لمن أنصف في النظر ما كفى.

وقال في كتابه زعم لبعض من دعاه^(٩): إن الذي دعاه إليه رجأؤه فيه للهدى. فمن ياوله رجاء، الظلمة التي لا تُرجأ، ولا يكون^(١٠) منها أبداً إلا الأذى، ولا يفارقها

(١) في (ب) و (د): وأياً.

(٢) في (ب) و (ج) و (د): ألم تر.

(٣) في (أ) و (ج): الأنوار. (مصحفة).

(٤) في (ب): البرة. (مصحفة). والبرد هنا: النوم. قال تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا﴾. أي: نوماً.

(٥) في (ب) و (د): يرى.

(٦) الرصين: المحكم الثابت.

(٧) في (أ): مضاراً أعطت هذا فيها أضراراً.

(ب): إذا أعطت به هذا منها أضراراً. (ج): مضاراً أعطيت هذا فيها أضراراً. والمعنى: أنها تنقلب

منافعها إلى مضار إذا سترت الأضرار. وهم يرتكبون الجرائم.

(٨) في (أ) و (ج): بما (مصحفة).

(٩) في (ب) و (د): دعا.

(١٠) في (أ) و (ج): يمكن.

أبداً عنده العمى؟ أم النور الذي لا يخشى ولا يعمى^(١)؟! ولا يكون منه أبداً عنده إلا الرضى؟! بل ليت - ويله - شعري، فلا يشك - زعم - ولا يمتري، من الذي يدعوه إلى الإحسان من الإساءة؟!^(٢) ومن الذي ينادي به إلى الصواب عن الخطأ؟! أهو النور الذي لا يسي؟! والمصيب الذي لا يخطي؟! فلا حاجة له إلى دعائه وندائه، وهو لا يسيء أبداً فيكون كأعدائه، أم المسيء الذي لا يحسن؟! والمخطئ الذي يشتم ويلعن؟! كان يا ويله إليه دعاؤه، وبه كان نداؤه، فأني يحبيه وليس بمحبيب؟! وأني يصيب من ليس أبداً بمصيب؟!!

إن ابن المقفع ليكابِر يقينَ علم نفسه، وإن به لطائفاً من لمم الشيطان ومسه، بل مثلُ ابن المقفع يقيناً، وما مثله الله به تبييناً، ما ذكر الله جل ثناؤه، وتباركت بقدسه أسماؤه، حيث يقول: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]. يقول الله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]. ثم قال سبحانه: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١]. فلعمر الحق وأهله، ما وفق^(٣) ابن المقفع فيه لعدله، ألم يسمع ويله، قول الله لا شريك له: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٨٥-١٨٦]. فيا ويل ابن المقفع لقد أذاه عتبه وعماه في الأمور، إلى أجهل الجهل فيما وصف من الظلمة والنور، وليس علته^(٤) فيما أحسب من ضلاله، ولا علة من تبعه عليه من جهاله، إلا قلة علمهم بما شرع الله به دينه ونزل به كتابه من الحكمة، لاعتن شبهة

(١) في (ب) و (د): ويعمى.

(٢) في جميع المخطوطات: الإساءة. ولعل الصواب ما أثبت، والله أعلم. رغم أني لم أقف على الإساءة في معاجم اللغة.

(٣) في (أ) و (ج): ما وافق.

(٤) في (أ): عليه. وفي (ج) علمه. مصحفة.

دخلت عليه ولا عليهم فيما وصفوا من النور والظلمة، فلما - عموا عن حكم^(١) الله في ذلك ورسله، وما حكم به فيه سبحانه من أحكام عدله، ورأوا فيه ما ظنوه^(٢) تناقضاً، ورأوا كل أهل ادعائه فيه متباغضاً، ولم يلجأوا^(٣) إلى الله في جهله باستسلام، ولا عصمهم^(٤) فيه من صالح عمل بعروة اعتصام، ولم يلقوا^(٥) - فيما اشتبه منه - من جعلهم الله معدنه، فيكشفوا لهم الأغطية عن محكم نوره، ويظهروا لهم الأخفية من مشبه أموره، الذين جعلهم الله الأمناء عليها، ومن عليهم بأن جعلهم الأئمة فيها، ولم يجدوا عند علماء هذه العامة فيما اشتبه عليهم منه^(٦) شفاء، ولم يرجوا منهم في مسألة لو كانت لهم عنه اكتفاء - ازدادوا بذلك إلى حيرتهم فيه حيرة، ولم تُفدِّهم أقوال العلماء فيه بصيرة، حتى بلغني والله المستعان - من تهافت الضعفاء في^(٧) هذا المذهب العمي، لما رأوا من جهل علماء هذه العامة بما فيه لأهله من الدعاوي ما دعاني^(٨) إلى وضع أقواله، والكشف عما كشف الله عنه من ضلاله، وإن كان عندنا قديماً لحمقه وضعفه، لما لا أحسب بأحد حاجة إلى كشفه، حتى بلغني عن الحمقى منه انتشار، وتتابعت بانتشاره عليّ أخبار، ورُفعت إلينا منه مسائل عن ابن المقفع، لم آمن أن يكون يمثلها اختدع في مذهبه كل مختدع، فرأيت من الحق علينا جواها، وقطع ما وصل به من باطله أسباها، فلينصف فيها، من نظر إليها، وليحكم - فيما يسمع منها نقائضها - حكم الحق، فإنه أعدل الحكم وأرضاه عند من يعقل من الخلق، وما أُلِّف من مسائله هذه وجمع، فهو ما أوقعه من الضلال بحيث وقع، فذكر فيها النور والظلمة تلعباً، وتلعب بذكرهما فيهما كذباً.

(١) في (ب): حكمة.

(٢) في (أ) و (ج): ما طلبوه. (مصحفة).

(٣) في (أ): يلجؤ. وفي (د): يلجأ.

(٤) في (ب): أعصمهم.

(٥) في (أ) و (ج): يلحقوا.

(٦) في (أ) و (ج): فيه.

(٧) في (ج): وفي. وفي (د): من.

(٨) في (أ) و (ج): ما هو دعائي. (مصحفة).

فافهموا عنا جواب مسائله، فإن فيه إن شاء الله قطع حباله، التي لا تصيد صوائدها، ولا تكيد له كوائدها، إلا حمقان الرجال، وموقان^(١) الأندال، كان أول ما بدأ منها، وقال به متحكما عنها: إن سألناك يا هذا فما أنت قائل: أقول كان الله وحده ولم يكن شيء غيره.

فاعرفوا يا هؤلاء فضول قوله، فإن^(٢) لم يكن شيء غيره هو من فضوله،^(٣) التي أكثر بها كتابه، وضلل بها أصحابه، ومسألته هذا مما كان جوابه فيه قديماً، من كل من أثبت لله من خلقه توحيداً وتعظيماً، وفي ذلك من كتب ضعفة الموحدين وعلمائهم، ما فيه اكتفاء لمن نظر في آرائهم، ففي كتبهم فانظروا، ومن نور قولهم فيه فاستنبروا، ففيها لعمرى منه ما كفى، وصفوة^(٤) هدى لمن اصطفى، ومع ذلك فسنجيب مسألته، ونقطع إن شاء الله علته.

نعم وكذلك يقول في الله فليقل قولنا فيه من سمعه، ممن لم يتبع ابن المقفع وممن تبعه، فقد يعلم كل أحد أن الواحد لا يكون واحداً، عند من أثبت له نداً وضداً، وأنه متى كان معه غيره، ضده^(٥) كان ذلك أو نظيره، زال أن يكون معنى الواحد المعلوم ثابتاً، ويعلم كل أحد أنه لا يكون ذو الأجزاء إلا أشتاتاً، ولا تكون أبداً الأشتات إلا كثيراً، ولا تكون أجزاء إلا كان بعضها لبعض نظيراً.

أو ليس معلوماً معروفاً أن من وراء كل غاية غاية، حتى ينتهي المنتهي الذي ليس من ورائه غاية ولا نهاية، وأنه إن كان مع غاية غاية، أو بعد نهاية عند أحد نهاية، فلم تنصر بعدُ إلى غاية الغايات، ولم ينته عقله إلى نهاية النهايات، وأنه يصير بالعظمة عند النظر من عظيم إلى عظيم، حتى يَقِفَ النظر على غاية ليس وراءها مزيد في تعظيم.

(١) في (ب): مرقان. لعلها مصحفة. وموقان: جمع مائق. وهو الأحق الغي.

(٢) في (أ) و (ب) و (ج): إن. بغير ضبط. فأفهمت الجازمة. وهي هنا الناصبة، لأن الإمام يتكلم عن جملة قول ابن المقفع (لم يكن شيء غيره) فليتأمل.

(٣) في (أ): فضوله، وهي محتملة للصواب.

(٤) في (أ) و (ج): وضوه هذا. تصحيف.

(٥) في (أ) و (ج): ضد.

وكذلك الأمر في كل معلوم أو مجهول، حتى ينتهي إلى الله الذي لا يُدرك إلا بالعقول، فيجده كل عقل سليم، وفكر قلب حكيم، واحداً لا اثنين، وشيئاً لا شيئين، عظيم ليس من ورائه عظيم، وعليم ليس فوقه عليم، ذلك الله الرحمن الرحيم، الواحد الأول القديم، القدوس الملك الحكيم، الذي لا تناويه الأعداء بمقاتلة، ولا تكافيه الأشياء بمماثلة، وهو الله الذي لم يلد ولم يولد، والصمد الذي ليس من ورائه مبتغى يُصمد، غاية طلب الخيرات، ونهاية النهايات، وإذا صحح حجتنا في هذا صوابنا، فهو لمن سأل عن وحدانية الله جوابنا.

فأما ما ذكر^(١) بعد هذا من القيل^(٢)، فحشو مسربل بهذيان الفضول، ليس له مرجوع نفع، ولا يحتاج له إلى دفع.

أرأيتم حين يقول: انقلب عليه خلقه الذين - زعم - هم عمل يديه، ودعاء كلمته، ونفخة روحه، فعادوه، وسبوه وآسفوه، وأنشأ تعالى يقاتل بعضهم في الأرض، ويحترس من بعضهم في السماء بمقاذفة النجوم، ويبعث لمقاتلتهم ملائكة وجنوده.

فيا ويل ابن المقفع ما أكذب قبله! وأضل عن سبيل الحق سبيله!! متى قيل له - ويله - ما قال؟! أو زُعم له أن الأمر في الله كذا كان؟! ومتى - ويله - قلنا له أن من قُوتل هو من قُذِف بالقذف؟! وأن الله في نفسه هو المحترس أف لقوله ثم^(٣) أف!! بل الله^(٤) هو المانع لأعدائه، من أن يصلوا من العلو إلى مقر أوليائه، تعريفاً - بعدل^(٥) - حكمه، وفيما تعلم الملائكة من علمه - بين الشياطين العصاة، وبين الملائكة المصطفاة، ورحمة منه سبحانه للآدميين، وإقصاءً عن^(٦) علم السماء للشياطين، توكيداً به لحجته

(١) في (ب) و (د): ما ذكره.

(٢) في (أ) و (ج): القيل. وفي (ب) و (د): القتل. وكلاهما مصحفة، ولعل الصواب ما أثبتنا.

(٣) في (أ) و (ج): من.

(٤) في (ب) و (د): بل هو الله المانع أعداءه.

(٥) في (أ) و (ج): فعدل. مصحفة.

(٦) في (أ): من.

سبحانه وإحداثاً، وإحياء به ^(١) لموتى الجهالة وانبعاثاً، وإكراماً منه بذلك لنبيه، وصيانة منه ^(٢) لوحيه.

فمن أين - يا ويله - أنكر من هذا ما كان مستباناً؟! وما يراه الناس في كل حال عياناً؟! أو يقول إن ما يرى من هذا لم يزل، وأنه ليس بحادث كان بعد أن لم يكن، فأين كانت مرّة قریش عن الرسول به؟! ودلائلها للعرب ^(٣) فيه على كذبه، وهو يزعم لها أن ما رمي بها عند بعثته، وأن الرمي ^(٤) بها علّم من أعلام نبوءته، فلو كانت عند قریش - على ما قال - حالها، لكثرت على الرسول فيه أقوالها، ولما أرادوا من شاهد أكبر بياناً من هذا في إكذابه، ولكن ابن المقفع يأبى في هذا وغيره إلا ما ألف من الغابه ^(٥).

للعرب إذ أكثرها أهل ضواحي وبادية، وقریش ^(٦) فإذا كانت منازلها على جبال عالية، أحدث بالنجوم عهداً، وأشد في الكفر تمرداً، من أن يكون أمرها على خلاف ما قال الرسول فيها، ثم لا يكذبونه فيما زعم من اختلاف حالها ^(٧)، وإلا فالرسول كان في حكمته، ^(٨) وفيما كان له عليه السلام من فضيلة الصدق عند عشيرته، يتقول مثل هذا لعباً، أو يفتره عندهم كذباً، بل ليت شعري ما أنكر؟! ولم - ويله - نفرّ

(١) في (ب): وإحيائه.

(٢) في (ج): وصلة منه. مصحفة. وفي جميع المخطوطات الاعنة بدل: منه. ولعلها مصحفة. والصواب ما أثبت. لأن الشهب رصدت لمنع الشياطين من استراق السمع.

(٣) في (أ) و (ج): للفرر.

(٤) يعني أن ابن المقفع يزعم أنه لم يرم بشيء بعد بعثته صلى الله عليه وآله وأن الرمي لم يكن علماً من أعلام نبوته.

(٥) في (أ) و (د): ألبابه. وفي (ب) و (ج): الغاية. ولعل الصواب ما أثبت. وألغاب: جمع لغب. وهو الإفساد، والحديث الخلف، وسيء الكلام.

(٦) في (أ) و (ب) و (ج): وبادية قریش فإذا كانت.

(٧) في (أ): خالها. (ب): خالتها. وفي (ج): لفظة مهمة.

(٨) في (أ) و (ج): حكمه.

فاستكبر^(١)، من أن ترجم الشياطين على علم وحي الله ومترله، كي لا تسبق به الشياطين إلى أوليائها قبل رسله، فينتشر علمه قبلها في الناس انتشاراً، فيزداد مثله^(٢) يومئذ له إنكاراً، ويحكم له^(٣) فيه ظنونه، ويزيد فتنة به مفتونه، فأبما^(٤) من هذا أنكر في رحمة الله الرحيم، وفيما خص الله به رسله من التكريم.

فإن قال فما باله إذا أراد إنزاله؟! لم يطوه حتى لا يناله، شيطان رجيم مريد، ولا مطيع رشيد، إلا رسوله من بين خلقه وحده، فيكون هو الذي يث^(٥) رسله؟!

فليعلم أنه لم يصل^(٦) إلى الأرض من الله حكمة في تنزيل، إلا كانت ملائكة الله أولى فيها بالفضل، لأنها صلوات الله عليها أطوع المطيعين وأعلمهم عن الله بحكم التنزيل، وأنها في ذلك متعبدة، وبه الله عز وجل مُمَجِّدة، وإنما تعبدوا الله سبحانه بالعلم، وفضلها في العبادة للحكم، والتنزيل بعلم العلوم، وبحكمة كل محكوم، وجبل^(٧) الجن جبل^(٨)، للسمو إلى السماء محتملة، والجن فهم^(٩) بفضل أهل السماء عالمون، وإلى علم ما عندهم من العلوم متطلعون، فإذا دارت في الملائكة حكمة وحي نُزِّلَ^(١٠) فيها، أو عدل^(١١) حكم^(١٢) حُكِمَ به في الأمور عليها، استرقت منه الجن ما سمعت في مشاهدتها، وما ذَكَرَتْ أنه لها هناك من مقاعدها. ألم تسمع قولها في ذلك، وخبرها عن مقاعدها

(١) في (أ) و (ج): فامسكين. مصحفة.

(٢) يعني: مثل ابن المقفع.

(٣) في (ب) و (د): أو يحكم به.

(٤) في (أ) و (ج): فأبما ما من. تصحيف.

(٥) في (أ) و (ج): يث. تصحيف.

(٦) في (ب) و (د): لا يصل.

(٧) في (أ): وحيله الجن حبله. (ب): وحبله الجن حبله. وفي (ج) و (د): (بدون إعجام). وقد قلّبت

الكلمة على وجوه عدة مع البحث في معاجم اللغة، فلم أهد إلى معنى يُطمئن إليه، فاجتهدت فيما أثبت. والله أعلم بالصواب.

(٨) في (أ) و (ج): فهم.

(٩) في (ج): يتزل.

(١٠) في (أ) و (ج): يحكم. مصحفة.

هنالك، ﴿وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا﴾ ⑩ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعَدًا لِلْسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَصَدًا ⑪ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمَنُ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ⑫﴾ [الجن: ٨-١٠].

وهذا يا هؤلاء وإنما كان منها، ونبا الله به فيما أدى عنها، بعد أن قالت: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا - فِي الْأَرْضِ - قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ ⑬﴾ [الجن: ١] ، ألا تسمعها تقول بعدد: ﴿وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا﴾ ⑭﴾.

وما ابن المقفع بمأمون، من ⑮ أن يظن أن الحرس شرطيون، لما بلونا من جهله باللسان، وقلة علمه بمخارج القرآن. وإنما الحرس مثل على معنى الحفظ لها، بما جعل من الرجم دونهما، فازدادت الجن بما وجدت هنالك، يقينا وإيمانا بذلك. فما ينكر من القذف بالشهب، وغيره ما فيه من التعجب؟! هل ذلك ممن يقدر عليه، إلا كغيره مما هو فيه، وقد زيد به في هذا من الجن ⑯ اهتدى، وتجنب طرق الضلالة والردى، وكان فيه منع لتوكيد كذب الشياطين، ودفع عن الرسول لتصديق أقوال المكذبين، والله يقول لرسوله، صلى الله عليه وعلى آله، في السورة نفسها، ومع ذكر الشياطين وحرسها، ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ مَا تُوْعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾ ⑰ عِلْمُ الْعَيْبِ فَلَا يُظْهَرُ عَلَيَّ غَيْبُهُ أَحَدًا ⑱ إِلَّا مَنْ أَرْتَضِي مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ⑲ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ⑳﴾ [الجن: ٢٥-٢٨].

وأما قوله في القتال: وأنزل ملائكته فإذا غلبوا عدوا قال: أنا غلبته، أو غلب له ولي، قال: أنا ابتليته.

فما أنكر ويله من أنا غلبته؟! وقد قاتلت معه ملائكته، وقد قذف بالرعب في قلوبهم، وبث الرعب في مرعوبهم، وما ينكر من قتلهم - ويله - بالملائكة، وهل ذلك بهم إلا كغيره من كل هلكة، إلا أن ملائكة الله في ذلك متعبدة مثابة، وأنه منه جل

(١) سقط من (ب) و (د): من.

(٢) في (ب) و (د): من الجن من اهتدى.

ثناؤه بالملائكة لأعدائه معاقبة، وأنه لأوليائه عزٌ ونصر، ولأعدائه ذلٌ وكسرٌ.

فإن قال: ^(١) ألا قتلهم بما هو أوحى! ^(٢) واجتاحهم بغير القتل اجتياحاً!!

فهذا إن دخل علينا له دَخَلٌ في الملائكة، دخل في غيره من كل هلكة، يقال في كل واحد بعينها، ألا كان الأمر بغيرها! وكل ما كان به كائن الهلكة، فهو أمره بالملائكة أو غير الملائكة.

فإن قال: ألا خلق الناس أبراراً! ومنعهم أن يكونوا أشراراً! فمسألة من سأل عن هذا محال، وليس لأحد علينا في هذا مقال، لأنه إنما يكون البرُّ برّاً، ما فعله فاعله متخيراً، فأما ما جبر عليه صاحبه جبراً، فلا يكون منه خيراً ولا شراً.

وفيما قال: أن يكون الانسان إنساناً لا إنساناً، والاحسان إحساناً لا إحساناً، لأن الانسان لا يكون إنسان إلا وهو مُملِكٌ مختار، والاحسان لا يكون إحساناً إلا ولم يحمل عليه اضطرار.

وأما قوله (في ظفر أعدائه، في بعض الحالات على أوليائه) ^(٣)، فليس ويله بوجود من قولنا صحيح، يعلمه كل أعجمي منا أو فصيح، أن أوليائه لم تغلب إلا بنصره، ولم تغلب إلا بمخالفتهم أو بعضهم لأمره، والدليل على ذلك أنه لما أمسك عنهم نصره لما كان من عصيائهم، كان ذلك هو بعينه سبب خذلانهم، وأنه من فقد سبب، ما به الغلبة غلب، وأنه غير مستنكر ذلك من فعال حكيم يملكه، أن يعصيه ^(٤) من أعطاه إياه فيمسكه، فيفقد فيه من نصره ما كان يجد، ويتغير الأمر به إذا عصى عما كان يعهد، فمتى نصر الله له ولياً فبرحمته، أو تركه من النصر فبضرب من معصيته، وهذا من الأمر فلا يزول به عن قدير قُدرة، ولا تفسد معه الحكيم حكمة، بل الحكمة معه قائمة موجودة، والأفعال فيه منه عدلٌ محمود. ألم تسمع حكيم الحكماء، وأقدر قادري العظماء، يقول في هذا من نصره وخذله، وقدرته سبحانه وعدله: ﴿إِنْ

(١) في (أ) و (ج): ألا هو قتلهم.

(٢) أي: أسرع.

(٣) سقط ما بين القوسين من (أ) و (ج).

(٤) في (أ) و (ب): يملكه أن يعصيه. وفي (أ) و (ج): أو يعصيه.

يَنْصُرُكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ [آل عمران: ١٦٠].

يخبر عن أنه متى حبس عنهم نصره، حل مع حبسه خذله، فمن لم يخذله سبحانه فأولئك هم المنصورون، ومن خذله فلم ينصره فأولئك هم المبتلون، فما في هذا مما ينكره عقل، أو يفسد فيه من الله فعل، سبحانه الله ما أحق في من جهل هذا شبه البهائم! التي مثلها جل ثناؤه بأهل الجرائم.

وأما قوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]، فهي فيما أرى والله أعلم، مما قد يجوز في اللسان ويُعلم، أنك لم ترم بالرعب في قلوبهم إذ رميت، ولكني أنا الذي به في قلوبهم رميت، وبالرعب الذي قذفه الله في قلوبهم اهزموا، لا بالرمي بالبطحاء إذ رُموا.

ومثل ذلك من الله لا شريك له قوله: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ [النحل: ٩٩] وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿١٠٠﴾ [الأحزاب: ٢٦-٢٧]. فما ينكر من القدير على الأشياء، أن يفعل ما يقدر عليه من الرماء، ما ينكر هذا إلا أحمق، ولا يدفع هذا من الله مُحِق، فالله على هذا وخلافه يقدر، وكذلك قدرته في أن يخذل وينصر، وما صحت في فعله لقادر^(١) قدرة، فغير مستنكر أن تكون له وحده^(٢) مفتعلة، وإلا كان معنى القدرة عليه باطلاً، إذ ليس يُرى بها القادر طول الدهر فاعلاً.

فإن قال قائل: فما تقولون^(٣) هل يقدر الله على أن لا يدخل المتقين الجنان؟! ولا من كفر نعمته^(٤) وأنكره وأنكر رسله النيران؟!

(١) في (د): لفاعل.

(٢) في جميع المخطوطات (وحدة). وقد قلبتها على الوجوه المحتملة فلم أهد فيها إلى معنى صحيح، فلعل الصواب ما أثبت والله أعلم.

(٣) في (ب) و (د): تقول.

(٤) في (ب): بنعمته.

قلنا^(١) قديماً كان ولم يدخل واحداً من الفريقين مدخله، وإنما القدرة على أن يدخل ولا يدخل فُقدماً فعله، فقد كانوا قديماً ولم يدخلوا، ولا بد بعد أن يدخلوا، فقد كان المقدور عليه من لم يدخل، وسيدخل، فافهموا ما قلنا عنا، وضعوا الفهم فيه حكماً^(٢) بيننا.

وأما قوله: فقتلت أعداؤه أنبياءه ورسله. فما ينكر من قتلهم لهم^(٣) قاتله الله وقتله،^(٤) لو لم يُقتلوا لم يجب لهم من الكرامة عنده ما أوجبه، ولم يدركوا ثواب ما كان القتل فيه سببه، ولو كان له علينا في قتلهم مطلب لكان في موتهم، ولو دخل علينا بقتلهم وموتهم لدخل علينا في أصل الفطرة لهم، والفطرة لا يكون فيها من الحكمة ما فيها، إلا بموجود البنية التي بنيت عليها، وذلك ما قد فرغنا من الجواب فيه، ودلنا بآثار الله في الحكمة عليه، وفيما وصفنا منه، وأنبأنا به عنه، ما أوضحه، ووضح به فصيحته. والحمد لله رب العالمين كثيراً، وصلى الله على سيدنا محمد النبي وآله وسلم تسليماً.

وأما قوله: فأجل عدوه إلى يوم يبعثون. فهو وأصحابه في هذا يلعبون، ولو فسد في التأجيل طول تأخير، لفسد في ذلك أقصر قصيره! فليت شعري ويله، لم تقابح هذا، أنكره؟! وهو لو لم يبق لم يعص ولم يُطع، ولو لا المعصية والطاعة لم يُخلق ولم يُصنع!

وأما قوله: وأمراض خلقه وعذبهم، بما عرض من الأسقام لهم. فلعمري لقد وفّاهم سبحانه طبائعهم مفصلة، وسلمها إليهم مكملة، عن هلكات العصيان، وشين معائب النقصان، فما دخلها من سقم بدن، أو فساد متدين^(٥)، فبعد اعتدال تركيبها،

(١) في (أ) و (ج) و (د): قيل.

(٢) في (ب): الفهم فيه كما بينا.

(٣) في (أ) و (د): له.

(٤) في (ب) و (د): ولعنه.

(٥) مُتَدَيِّن: مصاب بداء، يقال: دان. إذا أصابه الدَّيْن. وهو داء. لسان العرب. مادة دين.

عن كل نقص من معيها،^(١) وما فسد لهم من دين بعصيان، فبعد هدى من الله وبيان، وتخيير في^(٢) الطاعة وإمكان، فما في الذي ذكر، وفتن فيه فأكثر، مما^(٣) يدخل له أو لغيره علينا، أو يجد به أحد مقال تعنيف فينا، كأن كلامه، ويله وأحكامه، كلام لم يزل يسمعه من شطار^(٤) أهل السجون، أو كأما قبل آدابه عن سفلة أهل المجون، بل كأنه مجنون مصاب، لا يحق له جزاء ولا عليه عقاب.

ومتى قيل له، قاتله الله وقتله، ما زعم وقال؟!^(٥) وهذى به وهذر إذ سال؟! أنه أصم خلقه من حيث ظن،^(٦) وأعماهم كما توهم، أو جبرهم على عصيانه، أو حال بين أحد وبين إيمانه، أو أنه هو أمرضهم،^(٧) أو عذب بغير ذنب بعضهم، بل نقول هو أسمعهم بالدعاء نداء، ونور أبصارهم بنور هداة. ومن مرض منهم فمن الله يطلب شفاة، وإذا ابتلي ببلاء فهو سبحانه الذي يكشف بلاه، ألم يسمع - ويله، الله تعالى وقوله، عن أيوب نبيّه المبلى، عليه صلوات الرب الأعلى: ﴿أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١]، ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]. قال الله سبحانه: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَالِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٤].

أو ما سمع قول إبراهيم، فيما نزل الله به^(٨) من القرآن الحكيم، فيما ذكر عند

(١) لعل المطرفية فيما تدعي من الأخذ بأقوال الإمام القاسم والهادي عليهما السلام أخذت في دعواها بأن الأمراض من تغير في الطبيعة المحيول عليها الإنسان، ومن حدوث خلل في التركيب، أخذت ذلك من هذا النص.

(٢) سقط من (أ) و (ج): في.

(٣) في (ب): فما.

(٤) الشطار: جمع شاطر، وهو من أعبى أهله حيثاً.

(٥) في (أ): وقال وهذر به إذ. وفي (ب) و (د): وقال به وهذى به وهذر إذ.

(٦) ربما نقص هنا شيء من الكلام. فعادة الإمام السجع المستوي.

(٧) وهذا أيضاً مما تعلق به المطرفية في تلك الدعوى.

(٨) سقط من (ب) و (د): به.

الله^(١) لمرضه إذا مرض من الشفاء، وأضاف إلى نفسه من الغفلة والخطأ، إذ يقول صلى الله عليه: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) [الشعراء: ٧٨-٨٢].
وأما قوله: وكل خلقه دمر تدميرا.

فلقد أنكر ويله من تدميرهم ما لم يجعله الله نكيراً....^(١) عصياهم لله مُسْتَحَقَّ الطاعة ظلماً واعتداً، ومجانبتهم لما جعل الله لهم به النجاة والهدى، هو الذي به هلكوا ودُمُّوا، بعد أن بصرهم الله منجائهم فلم يُبصروا، إلا أن يكون توهم أن الله^(٢) هو الذي حملهم على العصيان وجبرهم، فكيف يا^(٣) ويله وهو الله الذي مكنتهم فيه وخيرهم؟! وما أجبر أحداً تعالى على إحسان، فكيف يجبره له على عصيان؟! ولم يسخط ما قضى، ولا رضي إلا بما فيه الرضى، ولم يَغضَبْ له من فعال، ولم يتضاد بحال، ولم يتناول^(٤) عدواً بقتال، ولم يتمثل في شيء بمثال، وإذا مرض خلقه شفاهم، أو تعاملوا عن الهدى أراهم.

فيا عجباً من^(٥) جهله! وأنكر حقه وعطله!! لو كان الله سبحانه صاحباً لوجب حقه!! فكيفه والخلق خلقه؟! وهو خالق الخلق ومبتدعه، والحسن إليه في كل حال ومصطنعه، ومن لم يُدبر^(٦) عنه بإحسانه حتى أدبر،^(٧) ولم يُغيّر ما به من نعمه حتى كفر، كيف وهو من عصاه استرضاه! ومن استكبر وهو القادر عليه أملاه! ثم كرّر

(١) في (ب) و (د): عن.

(٢) أشار إلى بياض في (أ).

(٣) في (ب) و (د): أن يكون يتوهم أن يكون هو حمهم.

(٤) في (ب) و (د): فيكف ويله.

(٥) في (أ) و (ج): ينازل. وفي (ب): يناول.

(٦) في (أ) و (ج): عن. وفي (ب): من.

(٧) سقط من (ب): من. وفي (أ) و (ج): يدبره. تصحيف.

(٨) يعني: أن الله سبحانه لم يقطع إحسانه عن أحد حتى أدبر وأعرض عنه.

عليه في دعواه الهدى نذاه، ثم مَنْ قَبَلَ حظه فيه جازاه، ومن أبى عطيته من الخيرات حرّمه، وهو الذي قَبَحَ مَنْ كل ظالم ظَلَمَهُ. فيا ويل من جهل إحسانه، وركب في الكفر عصيانه، ماذا جهل من إحسان كثير لا يحصى؟! ومن عصى^(١) إذ إياه عصى، فمن أولى منه جل ثناؤه بالعبادة والتعظيم، فيما دعا إليه من الطاعة له والتسليم، وهو الله الهادي إلى سبيل النجاة، والمنعم بنعمه التي ليست بمحصاة.

فإن قال قائل: ومن أين تدري أن هذه نعمه؟ وأن محدثها إحسانه وكرمه؟!

فليعلم أن كل ما يُرى منها نعمٌ بين آثار الإنعام فيها، بحكم تُصحح أثره^(٢) العقول عليها، وأنه لا بد في فطرة العقول، وما فيها لها^(٣) من المعقول، من أن يكون لهذه النعم مؤلّ أولاهها، هو الذي فطرها وأنشأها، وأنه لا ينبغي أن يكون موليتها، كهيّ فيما أبان من أثر الصنعة عليها، وأنه لا يوجد شيء غيرها، إلا وُجدت فيه الصنعة وتأثيرها، حتى ينتهي ذلك إلى من لا يشبهه مصنوع، ومَنْ كل الأشياء فمنه بدع مبدوع، وأنه الله الأول القديم، الملك القدوس الحكيم.

فإذا صح ذلك عند من يعقل بإشهاد، علم أن النجاة من الله لا تكون^(٤) إلا بإرشاده، الذي نزل فيما أوحى من كتبه، ودل على النجاة فيه بسببه، فالحمد لله ولي النعمة في الأشياء، والمتولي لنجاة من نجا بهداه^(٥) من الأولياء، الذي ليس له أكفاء فتساويه، ولا شركاء في الملك فتكافيه، المتبري من كل دناءة،^(٦) المتعالي عن كل إساة، رب الأنوار المتشابهة في أجزائها، وولي تدبير الظلم وإنشائها، العلي الأعلى، ذي الأمثال العلى، والأسماء الحسنی، شاهد كل نجوى، ومنتهى كل شكوى، والممهل

(١) في (د): عصاه.

(٢) في (ب) و (د): آثار.

(٣) سقط من (ب): ولها.

(٤) سقط من (ب): لا تكون.

(٥) سقط من (أ): بهداه.

(٦) في (أ) و (ج): ذله. تصحيف.

المطيل، ومَنْ لا يُعدل من الأشياء كلها بعديل، فكل ذي خير^(١) محمود، أو منسوب إلى كرم أو وجود، فאלله مبتدئ فطره محموده، والسابق الأول بما حُمد من وجوده^(٢).

فأين قولنا ويله، مما^(٣) ادعاه وتقولوه؟ سبحان الله ما أشد سفهه وجهله! لعنه الله وأضل عقله. ولو لا - أني سمعت الله لا شريك له يقول: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ﴾ [الزخرف: ٥]، ويقول سبحانه: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلَّ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]. ثم لم يترك مع^(٤) ذلك تذكيرهم، وبعث مع ذلك فيهم نذيرهم، - لما رأيت لمن ذهب مذهبه، وتلعب في القول متلعبه، منازعة ولا إجابة ولا تذكيرا، ولظننتهم إلا ما شاء الله له في العقول بقرأ أو حميرا!!

أرايتم حين يقول: ولا يغلب أحداً إلا بالخييل السلاح. إنه ليطمح^(٥) في الخطأ - ويله - أي طماح! أترونه إنما يظن تغالب البهائم، أو غلبة الناس للإبل الجلة الصلادم^(٦) وارتباطهم للفيلة بالأمراس، وقرع سؤاسها^(٧) لرؤوسها بالأجراس،^(٨) إنما كان منهم بخيل أو سلاح، ويله إنه ليجمع^(٩) عن الحق أي جماع! ولئن كان يظن أن الناس أقوى من الملائكة، إن هذا في الظن لأهلك الهلكة، وقد بينا في جواب ذلك لهم فيهم، ومن

(١) في (ب): ذي كرم.

(٢) في (ب): موجوده.

(٣) في (أ) و (ج): بما ادعاه، ويقولوه. تصحيف.

(٤) في (أ) و (ج): ثم يزل. وفي (ج): ثم لم يزل. وفي (ب): ثم يترك. وفي (د): ثم لم يذكر. وما أثبت ملفق من الجميع، والله أعلم بالصواب. وفي (أ) و (ج): في ذلك.

(٥) في (أ) و (ج): لطمح.

(٦) في (ب) و (د): اللحية. تصحيف. والجلة: هو الجمل إذا نكبي، يعني في السنين. قاموس. والصلادم جمع صلدم: وهو الصلب الشديد.

(٧) الأمراس: الخبال. وسؤاس جمع سائس: وهو الذي يقوم عليها ويروضها.

(٨) الأجراس: عيدان يضرب بها.

(٩) في (أ) و (د): للجمع. والطماح والجماع بمعنى. وهو الارتفاع، والنشوز. مأخوذ من جماع الخيل.

غلبة الأولياء لله^(١) لعدوهم وظهورهم عليهم، بما^(٢) فيه بيان كاف، وعبرة واضحة لذي إنصاف^(٣).

-وأما قوله: **يقاتل على الملك والدينا. فكيف - ويله - يقاتل على الملك والدينا**، وطلب العز فيها والكبرياء، من كان لباسه فيها مع وجوده للملكها الشَّعْر والوبر والعباء والصوف، وشعاره فيها والناس شباع آمنون الجوع والظمأ والخوف، وما الملك ممن يظل^(٤) نهاره وليله خاشعاً وباكياً، ويسبح على قدميه^(٥) في الأرض خافياً، يدعو من هلك من أهلها إلى النجاة، وينادي من مات عن الهدى إلى الحياة، ومن هو أعز ما يكون مفارقاً^(٦) لأحوال ملوك الدنيا وأغنيائها، ومن^(٧) لا يرى متكبراً عن مساكين العامة وفقراءها، يقف عليها، ويرى واقفاً فيها، ويأكل معها إذا أكلت، ويجيئها إذا سألت، ويعود مرضاها إذا مرضت، ويشهد موتها إذا ماتت.

فأين هذا كله، وفرع هذا وأصله، من أحوال الملوك التي تتكبر عن^(٨) آباءها، ولا تنظر بخير إلى أبنائها، ما أشبه بعض ابن المقفع ببعض، وما أحسب له في المكابرة نظيراً من أهل الأرض.

وأما قوله قول الزور والباطل: وأخرج - زعم - سلطان الجاهل، الذي يستر^(٩) عليك الجهالة، ويأمرك أن لا تبحث ولا تطلب، ويأمرك بالآيمان بما لا تعرف، والتصديق بما لا تعقل، فإنك - زعم - لو أتيت السوق بدراهمك تشتري بعض السلع، فأتاك الرجل من أصحاب السلع، ودعاك إلى ما عنده، وحلف لك أنه ليس في

(١) في (ج): عليهم الأولياء. مصحفة. وفي (ب) و (ج) و (د): بالله.

(٢) في (أ) و (ج): ما.

(٣) في (ج): لذوي إنصاف. وفي (ب): لذوي الإنصاف.

(٤) في (أ): يظل بهذه. وفي (ج): يظن بهذه. مصحفة.

(٥) السياح: الذهاب في الأرض للعبادة. وسقط من (أ) و (ج): على قدميه.

(٦) في (أ) و (ج): مفارق الأحوال. وفي (ب) و (د): مفارق لأحوال. ولعل الصواب ما أثبت.

(٧) سقط من (أ) و (ج): ومن.

(٨) في (أ) و (ج): على.

(٩) في (أ): ستر. وفي (ب): يسري. وفي (د): يسر.

السوق شيء أفضل مما دعاك إليه لكرهت أن تصدقه، وخفت الغبن والخديعة، ورأيت ذلك ضعفاً، وعجزاً منك، حتى تختار - زعم - على بصرك، وتستعين بمن رجوت عنده معونة وبصراً.

[التفكير فريضة إسلامية]

فمن - ياويله - الذي يُخاطب ويسأل؟ ومن الذي يخشى أن يُخدع ويجهل؟
النور الذي لا يجهل - زعم - فيعود شراً، أم الظلمة التي لا تكون إلا خديعة ومكراً؟!
سبحان الله ما أشبه أمثاله بعقله! وما أوجد^(١) شبهه في الدناءة^(٢) بفعله!! أحمداً -
ويله-^(٣) صلوات الله عليه، كان يدعو إلى شيء مما كَذَبَ^(٤) عليه فيه؟! معاذ الله أن
تكون تلك كانت قط من آدابه، ومما نُزِّلَ عليه في كتابه! أهو - ويله - يحمل على
خلاف ما يُعرف؟! وإنما جاء صلى الله عليه وآله يدعو إلى المعارف، أو يأمر صلى الله
عليه وآله بالكف عن الطلب والبحث، وهو الكاشف عن أسرار الغيوب لكل
متبحر، أو هو يرضى دناءة الخدع وقبائحها، أو يقارب الأسواء فضائحها؟! ولم
يُقبَّح أحد من الخلق السيئات بأكثر مما قبَّح، ولم ينصح في الدلالة على الخيرات أشد^(٥)
مما نصح، ولم يناد بإظهار أمره أحد قط كما نادى، ولم يُدع إلى^(٦) كشف الحق ما إليه
دعا.

أما سمعه وويله، ما أكذب قبله! وهو يقول صلوات الله عليه ورضوانه: ﴿يَتَأْتِيهَا
النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ
أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّنَكُمْ وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿يونس: ١٠٤﴾.

(١) في (ب) و (د): يوجد.

(٢) في (ب): الدنيا. مصحفة.

(٣) سقط من (ب) و (د): وويله.

(٤) أي كذب ابن المقفع على النبي صلى الله عليه وآله.

(٥) في (ب): أكثر.

(٦) في (أ): من الكشف للحق.

ويقول الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]، ويقول سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس: ٣٥].

وإن^(١) دعوى ابن المقفع هذه فيه، لما لم يدعه قط مدّع عليه، لا ممن أحابه فاهتدى، ولا ممن صد عنه واعتدى،^(٢) ولكنني أحسب أن ابن المقفع هذى، وألقى الشيطان على لسانه ما^(٣) غمّي، فجعل ظنه عليه يقينا، أو كابر^(٤) من وجد قوله بينا! كيف يا ويله، قاتله الله وقتله، يكون كما افتراه، أو على شيء مما ادعاه، والله يقول سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَحْدَةِ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِيَ وَفَرَدَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦]. ويقول سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [الاعراف: ١٨٥]. ويقول سبحانه: ﴿قُلْ أَنْظِرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]. فهل دعا أحد إلى إخلاص الفكر دُعاه، أو حدى^(٥) أحد من الناس على النظر حُداه، ما يبلغ كذب ابن المقفع في الكلام، كذب أضغاث الأحلام، طلب - ويله - في الكتاب من التعنيف، وتكلف في عيبه من التكاليف، ما لم تُطقه قبله عفاريت الشياطين، فكيف به وإنما هو مجنون من المجانين!! أما سمع قول رب العالمين: ﴿قُلْ لَنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ

(١) في (أ) و (ج): وأين.

(٢) في (أ) و (ج): ملحدا.

(٣) سقط من (ب): الشيطان. وفي (ب): لسانه بما.

(٤) في (ج): كآين. مصحفة.

(٥) في (أ): حذاء. وفي (ج): حد. مصحفة. ومعنى حدى: بعث وساق وحث.

وَالْجَنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ [الإسراء: ٨٨]. وقوله سبحانه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨].

أما قوله: فلا نعلم ديناً مذ كانت الدنيا - زعم - إلى هذا الزمان الذي حان فيه انقضاؤها، أحببت زبدة كلما مخض، وأسفه في ذلك التمحيض أهلاً، والبر أصلاً، وأمرًا ثمرًا وأسوأ أثرًا، على أمته، والأمم التي ظهر عليها، وأوحش سيرة، وأغفل عقلاً، وأعبد للدنيا، وأتبع للشهوات من دينكم.

وقد قال: ويله في هذا من أصول ديننا وفروعه، ومُفرّق حكم دين الله ومجموعه، بما لا يخفى كذبه فيه، عمن^(١) حكم بأقل الحق عليه.

وأَيُّ دين أحسن نظاماً، وأعدل أحكاماً، وأقل تناقضاً، وأرضى رضىً، من دين قامت دعائمه، واعتدلت^(٢) قوائمه، على الأمر فيه بالعدل والاحسان، ونهت نواهيه عن كل فحشاء وعدوان، فلم يترك لمحسن ثواباً، ولم يضع^(٣) عن مسيء فيه عقاباً، بمقادير من قسط عادلة، وموازين من عدل غير مائلة، لولاه لفسدت الأرض خراباً، وهدمت الصالحات ذهاباً.

[إسلام السلاطين]

ولكني أراه ظن ديننا، وتوهم أحكام ربنا، أحكام معاوية بن أبي سفيان،^(٤) وما

(١) في (ب): من.

(٢) في (ب): وعدلت.

(٣) في (ب): يضع لمسيء. تصحيف.

(٤) عن عبد الله قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إذا رأيتم معاوية بن أبي سفيان فاقتلوه. أخرجه الذهبي في الميزان ٧/٢. وصححه. وأخرجه في تهذيب التهذيب ١١٠/٥، وفي تهذيب التهذيب ٧/٣٢٤، وفي الميزان ١٢٩/٢، مثله عن أبي سعيد رفعه، ونحوه عن أبي جذعان. وقال في تهذيب التهذيب ٧٤/٨، في ترجمة عمرو بن عبيد بن باب قال: حدثنا بندار، حدثنا سليمان بن حرب،

حدثنا حماد بن زيد قيل لأيوب: إن عمراً روى عن الحسن أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: إذا رأيت معاوية على منبري فاقتلوه. وعن أبي سعيد رفعه: إذا رأيت معاوية على هذه الأعواد فاقتلوه. قال ابن حجر: وأخرجه الحسن بن سفيان في مسنده عن إسحاق عن عبد الرزاق، عن ابن عينة عن علي بن زيد. قال: والمحفوظ عن عبد الرزاق عن جعفر بن سليمان عن علي ولكن لفظ ابن عينة: فارجموه. قال أورده ابن عدي عن الحسن بن سفيان. وفي كنوز الحقائق للمناوي/٩، ولفظه: إذا رأيت معاوية على منبري فاقتلوه، قال: أخرجه الديلمي — يعني عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم (إذا رأيت معاوية على منبري). هو مطلق المنبر بدعوى أن كل منبر يصعد عليه في الإسلام ويخطب عليه فهو منبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ويحتمل أن يكون المراد منه مخصوص منبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة كما يؤيده بل يدل عليه ما تقدم في حديث أبي سعيد: إذا رأيت معاوية على هذه الأعواد... إلخ.

وعلى كل حال فإن معاوية حسب الأحاديث المتقدمة ممن يجب قتله بحكم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقد تسامح فيه المسلمون، أما وجوب قتله على الاحتمال الأول فواضح، وأما على الثاني فلما رواه ابن سعد في الطبقات ١/٤/١٣٦، من يحيى معاوية إلى المدينة وصعوده على منبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: أخرنا إسماعيل بن إبراهيم الأسدي، عن أيوب، عن نافع، قال: لما قدم معاوية المدينة حلف على منبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليقتلن ابن عمر. ثم رواه بطريق آخر عن نافع. فراجع.

وقال في أسد الغابة لابن الأثير في ترجمة معاوية بن صخر وهو معاوية بن أبي سفيان، قال: وروى عبد الرحمن بن أبيزي عن عمر أنه قال: هذا الأمر في أهل بدر ما بقي منهم أحد، ثم في أهل أحد ما بقي منهم أحد، ثم في كذا وكذا ليس فيها لطلق، ولا لولد طلق، ولا لمسلمة الفتح شيء. ورواه ابن سعد أيضاً في طبقاته. ٣ — ٢٤٨/١.

الاستيعاب لابن عبد البر ج ٢/٤٠٢: في ترجمة عبد الرحمن بن غنم الأشعري، قال: ويعرف بصاحب معاذ لملازمته له، وسمع من عمر بن الخطاب، وكان من أفقه أهل الشام، وهو الذي فقه عامة التابعين بالشام، وكانت له جلالة وقدر، وهو الذي عاتب أبا هريرة وأبا الدرداء بمحصر إذ انصرفا من عند علي عليه السلام رسولين لمعاوية، وكان مما قال لهما: عجباً منكما كيف جاز عليكما ما جئتما به، تدعوا علياً أن يجعلها شورى، وقد علمتما أنه قد بايعه المهاجرون والأنصار، وأهل الحجاز، وأهل العراق، وأن من رضي خيراً ممن كرهه، ومن بايعه خيراً ممن لم يبايعه، وأي مدخل لمعاوية في الشورى وهو من الطلقاء الذين لا تجوز لهم الخلافة، وهو وأبوه من رؤوس الأحزاب. قال: فندما على مسيرهما وتابا منه بين يديه. وذكره ابن الأثير أيضاً في أسد الغابة. ٣/٣١٨ باختلاف يسير.

سن بعد معاوية ملوك بني مروان^(١)، من تناقض أحكامها، وجورها في أقسامها، وأولئك فأعداء ديننا، وحُكم أولئك فغير^(٢) حكم ربنا، وحكم ديننا فالحكم الذي لم يخالطه قط جور، وأموره من الله فالأمور التي لا يشبهها أمور، ويحق^(٣) بذلك أمرٌ وِلِيَّةٌ أحكم الحاكمين، وحكمٌ جاء من رب العالمين.

وأما قوله: رجل من أهل قهامة. فإنما هو ضرب من العجامة، وما في هذا وِله، ما أشد عتوه وكفره، قهامةً كان عليه السلام أو شامياً، أو مغربياً كان من الناس أو مشرقياً، هل هو إلا بشر آدمي، بعثه إلى كل فصيح وأعجمي، كما قال سبحانه، أجزل الله كرامته ورضوانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَاستَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ [فصلت: ٦]. هل هو إلا رسول الله صلى الله عليه بعثه الله إلى الانسان، وإحسان من الله وهبه الله عباده لا كالأحسان، أرسله سبحانه بهذه مبتديا، إلى أولاء الخلق بأن يكون مهتديا، إلى الملاء من عشيرته، وفي ولد إبراهيم وذريته، وإلى أبناء قحطان من خيرته، وهم الذين كانوا في كفرهم أوفى أهل الكفر لمن عاهدوا عهداً، وأكرمهم لمن وآدَّ ودَّاء، وأحسنهم لمن تحرَّم بهم تحرُّماً، وأحفظهم لجوار من جاورهم اتكرماً، وأشدَّهم للكذب إنكاراً، وعن كل دناءة خلق استكباراً، وأشدَّهم لله إعظماً، ولحرم بيته إكراماً، والذين يقول عنهم، فيما ذكر عنهم، في عبادة ما كانوا يعبدون معه من الأوثان، تقرباً بعبادتهم لذلك إلى الرحمن، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [ص: ٨٤]. أما سمعت قول الله فيهم، وفيما ذكر لعباده من ثنيتهم، ﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُنَّ ۖ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾ [٣٨] لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ [٣٩] [الصافات: ١٦٧-١٦٩]. ويقول سبحانه عنهم خاصاً^(٤) دون الخلق، في ثنيتهم دون أهل الأرض لدين الحق، ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى

(١) في (أ) و (ج): في. وقد سبق في الدليل الكبير بعض ما ورد في بني أمية فراجع.

(٢) في (أ): غير.

(٣) في (ب): بحق.

(٤) في (أ): خاصة. وفي (ج): حاصلًا. مصحفة.

الْأُمِّ ﴿ [فاطر: ٤٢].

وأما قوله: عليه اللعنة في آيات المرسلين، واثميله لها بسحر الساحرين، فغير بدع بحمد الله منه وقبّله، ما قال إخوانه من الكافرين فيها قوله، أما سمعتم قول فرعون وملائته، عندما رأوا من نور الحق وضياؤه، ﴿إِنَّ هَٰذَا نَ لَسَاحِرَٰنِ﴾ [طه: ٦٣] فبينما^(١) هو يقول أيها الساحر إذ قال إنك لمسحور، وبينما قريش تقول لمحمد صلى الله عليه ما هذا إلا سحر إذ قالوا إنك لمجنون، ولعمري لو كان موسى ومحمد صلى الله عليهما ساحرين عندهم وفيهم، لكان ذلك يتيئلاً جليلاً لديهم لا يخفى منه شيء عليهم، كما كان يتبين لهم سحر السحرة والكهان، يوقنونه منهم بحقيقة الايقان، ولا يدعون سحرهم جنونا، ولا ساحرهم مسحورا، غلطا وعتها، وعمايا وعمها^(٢).

هذا ليعلم أن قولهم فيه لم يكن إلا كذباً وافتراء، وأن السحر لم يكن عندهم ما^(٣) يشك فيه ولا يمتري.

كيف ويله وويل أسلافه، ومن تبعه بعده من أخلافهم وأخلافه، يسمى سحراً أو جنونا؟ ما يملأ بطوناً وعيوناً! وترى آثاره اليوم^(٤) إلى الدهر الأطول دائمة، ومواقعه في بطون الأكليين والشاربين من الظمأ والجوع باقية، ما هذه بطريقة السحر المعروف، ولا يعرف السحر بوصف من هذه الوصوف، إلا أن يكون في مؤمه^(٥) وعماه، وشدة تباعده عن هداه، يبصر اليوم من السحر ما لم يكونوا يبصرون، أو يُظهر السحرة اليوم له منهم ما لم يكونوا يؤمئذ^(٦) يُظهرون، والسحر يؤمئذ فيهم ظاهر منشور، وصاحبهم إذ ذاك عندهم مكرّم محبور، ومن أظهر اليوم السحر، لم يكن له عند الأمة عقوبة إلا القتل، ما أوضح الأمور، وأبين الساحر والمسحور، وليس في هذا شغل، لأحد ممن

(١) في (ب): فبينما.

(٢) في (أ) و (ج): وعماهما.

(٣) في (ب): بما.

(٤) سقط من (ب): اليوم.

(٥) مؤمه. الموم: اليرسام. وهو علة يهذى فيها.

(٦) سقط من (أ) و (ج): يؤمئذ.

يعقل، مع أنك لم تر قط أحداً يسحر، إلا وهو يعبث في سحره ويسخر، ولم تره وإن سحر إلا مستردلاً، وسفلة دنيئاً ندلاً.

وأما قوله: نافر الله الإنسان فقال: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ ④ سَدْعُ الزَّبَانِيَةِ ⑤ ﴿[العلق: ١٧-١٨]. ثم افتخر بغلبته - زعم - لقرية أو لأمة أهلها من الأمم الخالية. فما في هذا ويله من تافّر وافتخر، لا ولكنه أوعد وحذر، بما فيه لمن عقل مزدجر،^(١) وعبرة كافيه ومدّكر، وهذه من لفظاته الأولى، وشبهتهن في الدناءة والعمى، فيا ويله ما أغلب عليه قول السفال والبهتان، وأجهله بما يدور بين أهله من هذا اللسان، الذي لا يصاب إلا به تأويل القرآن، ولا يتبين بغيره من الألسن ما يتبين به من البيان، فليقبل من أراحه قبل تعلّمه، ولا يحكم على القرآن بوجهه، فإن^(٢) ابن المقفع إنما استعار أحرفه، فأما معناها فجَهْلُهُ وحرّفه، يسمع منا في ذكر الله لفظاً، فوعاه كما سمع حفظاً، ثم ثبته إلى نوره وضلالته كذباً، فأنشأ بمدح به غير الممدوح تلعباً، والمعاني منه فأعجمية، والأسماء التي سمي فعرية.

وأما قوله: انقلب وأنشأ. فكلمتان ليس لهما في الله معنى، لقبح مخرجهما، وضلال منهجهما، عن كلام أهل القدر والنهي، وإنما قبلهما من الناس عن^(٣) الطبقة السفلى!

ومن قال له ياويله انقلب عليه خلقه؟! وأنه أنشأ سبحانه يقاتله ويغالبه؟! هذا ويله فما لم يقل به في الله قط، منذ كانت الدنيا مُقتصد ولا مُفرط.

وأما قوله: عمل يديه، ودعاء كلمته، ونفخة روحه. فكله منه على ما توهمه زور وبهتان، وأكثر قوله فيه هذر وهذيان، وليس فيما فَنَنَ في^(٤) هذا من قوله، لا في قصره ولا في طوله، أكثر من أن الله أحدث صنعاً، وأبدع لا شريك له بدعاً.

فإن قال قائل ولم أوجد صنعه؟! وما العلة التي لها أبداع بدعه؟! فهي الاختيار

(١) في (أ) و (ج): من زجر. مصحفة.

(٢) في (أ) و (ج): وإنما.

(٣) سقط من (ب) و (ج): عن.

(٤) في (ب): من.

فيما أنشأ، وإظهار حكمته فيما أبدى، جوداً منه وكرماً لا يَشَوُّهُ حسد، ولا يجب به إلا له فيه حمد، وكفى بهذه^(١) لصنعه علة، وفيما سأل عنه جواباً ومسألة.

فإن سأل سائل، أو قال قائل،^(٢) فما باله إذا كان الجود عندكم من علة صنعه وبرّيته، والجود فلم يزل عندكم من ذاته، لم يحدث الصنع قبل إحداثه؟! فهذا ضَرْبٌ من غلط السؤال وأعيائه^(٣)! إذ كان الصنع كيف ما كان حدثاً، وكان الله له في ذلك مُحَدَّثاً، فهذا جوابنا له فيما سأل، إذ كان في مسأله قد أحال^(٤). والحمد لله رب العالمين، وأول من أنعم من المنعمين.

وأما قوله: فصارت الغلبة للشيطان بأن تبعه الخلائق على ضلّالته إلا أقلهم.

فيا ويله ما في هذا من غلبته،^(٥) بل هَبَّهم تبعوه على ضلّالته، فإنما بأهوائهم،^(٦) وأطاعوه لعدائهم،^(٧) لأعن غلبة منه لهم، فوالله ما غلبهم، فكيف يغلب خالقه وخالقهم؟!، ومتى غالب الله الشيطانَ فَعَلَبَ أو غُلِبَ؟! يَأْبَى^(٨) ابن المقفع - ويله - إلا اللعب، لئن كان الشيطان غلب الله بكثرة أتباعه، لقد غلب الشرُّ نورَه بكثرة أشياعه!. ويله إنما يتبع الشيطانَ مَنْ أطاع هواه، وعمي عن الله مثل عماء، وسبَّله إلى الله لو أرادها دُلُّ، وطريق نجاته بالحق له مُسَهَّلٌ، ولم يعص من عصى غلبةً ولا قهراً، ولم تطع نفس على طاعتها جبراً، إنما خُلِقَ الثقلان، مُخَيَّرَين بين الطاعة والعصيان، لتكون الطاعة بالاختيار إحساناً، والمعصية للإنسان عصياناً.

وأما قوله عليه اللعنة: أدخلوا عليه الأسف والحسرة والغیظ.

(١) في (ب) و (د): هذه الصنعة. تصحيف.

(٢) سقط من (أ): أو قال قائل.

(٣) الأعيان: جمع عيث. وهو الفساد.

(٤) أحال: أتى بالحال.

(٥) في (أ) و (ج): غَلَبَ.

(٦) في (ب) و (د): وإنما تبعوه ومالوا إليه بأهوائهم.

(٧) في (أ) و (ب): لعذابهم. وفي (ج): لعذابهم. وما أثبت اجتهد مني، والله أعلم بالصواب.

(٨) في (أ) و (ج): فأبى.

فَكَذَّبَ عَدُوَّ اللَّهِ لَا يَقَالُ لِلَّهِ تَحَسُّرٌ وَلَا غَيْظٌ، وَلَكِنْ يَقَالُ لَهُمْ آسَفُوا، إِذَا عَصُوا^(١) اللَّهُ فَأَسْرَفُوا،^(٢) وَلَا يَقَالُ تَحَسَّرَ اللَّهُ وَلَا اغْتَاظَ،^(٣) وَلَيْسَ سُبْحَانَهُ مِمَّا يَغَاظُ، يَا بِي ابْنِ الْمُقْفَعِ إِلَّا عَجْمَةُ اللِّسَانِ، وَمُظْلَمَةُ كَذِبِ الْبَهْتَانِ، مَتَى وَجَدَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَمَّا يَقُولُ، زَعَمَ مِمَّا لَا تَقْبَلُهُ الْعُقُولُ، أَظْنَهُ ذَهَبَتْ بِهِ ذَوَاهِبُ اسْتَعْجَامِ الْحَيَرَةِ، فِيمَا ذَكَرَ عَنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ مِنَ الْغَيْظِ وَالْحَسْرَةِ، إِلَى قَوْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ: ﴿يَلْحَسِرَةُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [يس: ٣٠]، فَهَذِهِ إِنَّمَا هِيَ حَسْرَةٌ عَلَى الْعِبَادِ لَا عَلَيْهِ، وَتَحَسُّرٌ فِيهِمْ عَلَى الْهَدْيِ لَا فِيهِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج: ٦]. وَهَذَا أَيْضاً فَإِنَّمَا كَانَ لَمَّا^(٤) هُوَ لَهُمْ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَغِيظٌ. يَقُولُ سُبْحَانَهُ أَمَّا مِنْ أَمْرٍ غَاظَهُ، فَلَيْسَ يَذْهَبُهُ اغْتِيَاظُهُ، وَأَمَّا ﴿ءَاسَفُونَا﴾ [الزخرف: ٥٥]. فَهُوَ أَفْرَطُوا فِي عَصْيَانِنَا، فَوَجِبَ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ تَعْجِيلُ انتِقَامِنَا، لَا عَلَى مَا تَوَهَّم^(٥) مِنْ حَرْقَةِ الْأَسْفِ، الَّتِي لَا تَحُلُّ إِلَّا بِكُلِّ مُسْتَضْعَفٍ، وَلَقَدْ كَانَ لَهُ فِي هَذَا بَيَانٌ وَاضِحٌ لَوْ تَبَيَّنَ، وَيَقِينُ عِلْمٌ صَادِقٌ لَوْ تَيَقَّنَ، لِقَوْلِ اللَّهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ، وَتَبَارَكَتْ بَقْدَسُهُ أَسْمَاؤُهُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. وَأَنْ الَّذِي تَوَهَّمُ لَتَمَثِيلٍ هُوَ التَّمَثِيلُ،^(٦) فَسُبْحَانَ مَنْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ الْأَلَامُ، وَلَا يَعْضُرُ لَهُ نَوْمٌ وَلَا نَسْيَانٌ، وَمَنْ لَيْسَ كَمِثْلٍ مَا خَلَقَ مِنَ الْإِنْسَانِ، ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّ الْأَرْبَابِ، وَوَلِيُّ مَجَازَةِ الْعَدْلِ فِي الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: فَجَعَلَ اللَّهُ السَّبِيلَ سَبِيلِينَ.

فَوَا عَجَباً لِمَحَالِ قَوْلِهِ فِي هَذَا التَّكْثِيرِ وَالتَّفْنِينِ! وَكَيْفَ - وَيْلَهُ - يَكُونُ سَبِيلَانِ

(١) يَشِيرُ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥]. وَفِي (ب): إِذْ غَضِبُوا. تَصْحِيفٌ.

(٢) فِي (ب) وَ (د): وَأَسْرَفُوا.

(٣) فِي (أ): وَاغْتَاظَ.

(٤) سَقَطَ مِنْ (ب): كَانَ لَمَّا.

(٥) فِي (أ) وَ (ج): لَا عَلَى تَوَهُّمٍ.

(٦) هَكَذَا فِي جَمِيعِ الْمَخْطُوطَاتِ، وَلَعَلَّ مَعْنَاهُ: أَنَّ مَا تَوَهَّمَهُ فِي تَمَثِيلِ اللَّهِ بِالْأَمْثَلَةِ هُوَ التَّمَثِيلُ وَالتَّشْبِيهُ، الْمَنْعُوعُ فِي حَقِّ اللَّهِ سُبْحَانَهُ.

سبيلاً؟! ما أحسب كلامه بهذا ومثله إلا خبيلاً وتضليلاً!! فسبيلٌ - زعم - للطاغوت وحزبه، وسبيلٌ تفرد الله به، ^(١) وإنما يكون سبيلهم لهم سبيلاً غياً، إذا ^(٢) كان كل أحد سواهم منه برياً، وإنما يكون السبيل لله سبحانه سبيلاً، ^(٣) إذا كان إليه داعياً وعليه دليلاً، فهذا - ويله - وجه السبيلين، لا ما قال به من محال الشيئين.

وقال: هل تعلم يا هذا لِمَ خلق الخلق؟! فنعم نعلم، إذ ^(٤) علّم وفهّم، ومن ما نزل من ذلك وبين، أما الجن والإنس فلَمَّا قال تعالى من عبادته، إذ العبادة له واجبة على أهل النعمة في محمده، وأما ماسوى الثقلين فلهما خلقه، وبه استحق عليهما من الشكر ما استحقه، فذلك قوله جل ثناؤه، وتباركت بقدسه أسماؤه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ^(٥) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ ^(٦) [الذاريات: ٥٦-٥٨]. ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لَتَجْرَىٰ أَلْفُكٍ فِيهِ بِأَمْرِهِ ۖ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ۚ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ^(٧) وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ^(٨) [الحج: ١٢-١٣]. فسبحان الله مستحق الرضى، من أطاع أو عصى، بأحق حقائق الاستحقاق، وما يحق للخالق الرزاق.

فأما قوله: فما أراد بخلقه الخير أم الشر؟!

فالخير أراد بهم جميعاً سبحانه معجلاً، وثواب المحسن منهم أراد جل ثناؤه مؤجلاً، فأراد سبحانه الخير في كلهم إرادة تعجيل، أتمها فأكملها أفضل تكميل، لا كما يريد من لم تتم إرادته، ولا تحقق على غيره عبادته، وأما إرادته في التأجيل، فإرادة خلافها يستحيل، إذ لا يكون بنية أهل الدين، إلا بنية تمليك وتمكين، وأنه متى كان غير ذلك

(١) في (أ): الله زعم نجه. وفي (ج) و (د): الله به زعم نجه. وفي (ب): ينهجه. والعبارة قلقة هنا ولعل

(زعم ينهجه). زيادة من النساخ. فالكلام مستقيم بدونها. أو أن هنا سقطاً من الكلام.

(٢) في (ب) و (ج) و (د): سبيلاً وغياً. وفي (أ): وعياً. ولعلها مصحفة وما أثبت اجتهاد، ولم يظهر لي

المعنى، والله أعلم بالصواب. وفي (أ) و (ب) و (ج): إذ.

(٣) سقط من (ب) و (د): سبيلاً.

(٤) في (أ) و (ج) و (د): إذا.

لم تكن البنية بمحكمة، ولم يُر فيها ما يرى من آثار الحكمة، وكانت مواتا لا تفعل، وشيئا من الأشياء لا يعقل، فليعقل -ويله- أسباب حَكَم الله المترافدة، ^(١) وليعلم تعالى الله عن بنية أعيان الأشياء المتضادة، التي لا تقوم بحال في وَهْم الأصحاء، ولا توجد بفهم في جُهلاء ولا علماء.

وأما قوله لعنه الله: إن ربهم على كرسيه ^(٢) قاعد، وإنه تدلى فكان قاب قوسين أو أدنى.

فَيَالَ عباد الله من أعطاه، قاتله الله ما أعظم فِراه، أنه جلس فقعد، أو تدلى أو صعد، من حيث ظن، أو توهم، وما يبالي ما قال علينا كذبا، وادعاه ^(٣) من القول فينا تلعباً، إن الذي قال من قعد وتدلى وانقلب، وجزع وافتخر وأنشأ وغلِب، فأكثر فيه من هذا القول علينا كذباً وقرفاً ^(٤) وخلفاً، لشيء ما علمتُ أن ملئاً ^(٥) ولا ذمياً يعقل ما قال منه قط حرفاً، وبلى، ولعله وعسى، أن يكون ظن قوله: ﴿أَسْتَوَى﴾ [القرة: ٢٩]، فلا لم يعن الله بها ما عني، وما لله سبحانه من ذلك، ^(٦) لو عني به ما ظن هنالك، من المدح المعظم، والتعظيم المكرم.

أما علم إنما يُراد بالاستواء، الاجلال لله والاعلاء بملكه لما فوق السموات العلى، وأن استواءه على ذلك كاستوائه على الأرض السفلى؛ وأن استوى في هذا كلمة من الكلام، جائز معناها بين الخواص والعوام، تقول العرب إذا ظفرت بأحد، وغلبت على بلد: لقد صرتُ إليها، واستويت عليها، تريد غلب سلطاني فيها، فهذا وجه قوله جل ثناؤه: ﴿أَسْتَوَى﴾. لا ما يذهب إليه فيه من العمى.

وأما ما جهل من قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾

(١) في (ب): المترافية. وفي (د): المترافدة. كلاهما مصحفتان.

(٢) في (أ): كرسى.

(٣) في (ب) و (د): أو ادعاه.

(٤) القرف: البغي. والخلف الطالح الرديء.

(٥) يعني: من أهل الملة.

(٦) سقط من (أ) و (ج): من ذلك.

ثَمَنِيَّةٌ ﴿[الحاقة: ٩]﴾، فقد يمكن أن يكون ثمانية أصناف، أو ثمانية آلاف، أو ثمانية معان، ليس مما يُدرك بعيان، وأن لا يكون كما ظنوا ملائكة، وأن أقل ما في ذلك إذ^(١) لم يَأْتَهُمْ فيه عن الله فيه بيان أن تكون قلوبهم فيه ممترية شاكّة، لأن ذلك قد يخرج في اللسان، ويتوجه^(٢) في فهم أهله بإمكان، وإن في ذلك لعلماً عند أهله مخزوناً، وإن فيه لله لغياً مكنوناً، يدل على عجائب خفيّة، ويتجلى^(٣) إذا كشف عنه تجلية مضية، وليس معنى: ﴿فَوْقَهُمْ﴾ ما يذهب إليه الجهلة من الرقاب، ولا^(٤) ما يتوهمون فيه من تشبيه رب الأرباب. والثمانية فقد يمكن فيها، غير ما قال به الجهلة عليها.

وأما قول الله لا شريك له: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ [الزمر: ٧٥]. فقد يحتمل حافّين، أن يكون مكبرين مُجَلِّين. ويحتمل أن يكونوا بأمره عاملين؛ لأن الاحفاف قد يحتمل ذلك في لسان العرب أيّن الاحتمال، لأنهم يقولون إن قوم فلان لحفون به في الاجلال.

فإن قال قائل: فما وجه قوله، فيما ذكر من إحفافهم به من حوله؟ فقد يكونون حافّين وإن كانوا من تحته كما يقال: إنهم بفلان لحافون، وإن كان من علا لي منازل به حيث لا يبصرون، ذلك كقوله سبحانه فيما أرى،^(٥) لا ما توهم في حَمَلٍ وَأَحَفَّ واستوى: ﴿وَأَنشَقَّتْ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ [الحاقة: ١٦-١٧]. فإذا انشقت السماء للفناء والبلاء، تحوّزت الملائكة لشَقِّها إلى الأرجاء، وهي النواحي، وصارت حينئذ^(٦) حافّة حول العرش الباقي، والعرش فإنما هو السقف الأعلى، والأسفل ففناؤه قبل فناء الأعلى، فليعقل هذا من المعنى، من أراد حقيقة ما عني، وليعلم أن سقف أعلى ما فيه الملائكة من السماوات، غير مسكون بشيء من

(١) في (ب) و (د): إذا.

(٢) في (أ) و (ج): ويوجه.

(٣) في (أ) و (ج): أو يتجلى.

(٤) يعني: ليس عرشاً يحمل فوق الرقاب. وفي (ب) و (د): وما.

(٥) في (أ) و (ج): أرى فتعالى.

(٦) سقط من (أ) و (ج): حينئذ.

البريات.

فإن قال قائل: أف يكون، مكان غير مسكون؟! قيل: نعم سقف ما تنهى من بناء السماوات العلى، لأنه لا يكون سفلى أبداً إلا بأعلى، فأما أن العرش هو السقف فوجود في اللسان، كثير ما يتكلم به بين العرب والعجمان.

وقد يمكن أن يكون معنى: «الذين يحملونه»، إنما يراد به الذين يلونه، إذ ليس بينهم وبينه شيء، فتعالى الملك العلي.

وقد تقول العرب في المنزل تترله، أو في الأمر تحمله: إنه ليحملنا إذا كان عليهم واسعاً، وعرفقه لهم مُمتعا، وليس يريدون حمله لهم بيد ولا عنق، أفما في اختلاف هذا ما وقف عن تشبيه الخالق بالخلق!!؟

فأما الخداع والمكر والكيد، لمن كان يمكر ويخدع ويكيد، فقد نقوله عنه، ونصفه سبحانه منه، لأنه خير الماكرين، وذو الكيد المتين، وخادع من خادعه من الكافرين، وكل ذلك منه فليس كفعل الخاسرين. والمكر والخدع والكيد، فإنما هو إخفاء ما يريد من ذلك المرید، وما عند الله مما يريد بأعدائه، فأخفى^(١) ما يُحتال في إخفائه.

وأما حربه^(٢) فإنما هو حرب أوليائه عن أمره، هذا وجه ما ذكر سبحانه من حربه وكيد ومكره، الصحيح معناه، لا ما شدد به ابن المقفع جهله وكفره وعماه.

وأما ما سمعه من الله سبحانه إذ يقول: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهَ بُنْيَانُهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَنَّهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: ٢٦]. أفتري أن أحداً يعقل أو لا يعقل يتوهم أن هنالك سقف بناء مسقوف، أو أن ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ﴾. إنما هو تمثيل^(٣) ما يعرف من سقوط السقوف^(٤)، ما يتوهم هذا أحد، ولا يضل فيه من ذي لب قصد، وهو أيضاً

(١) في جميع المخطوطات: فأخفاء.

(٢) في (أ) و (ج): حربه. مصحفة.

(٣) في (أ) و (ج) و (د): يمثل.

(٤) في جميع المخطوطات: السقف. وما أثبت اجتهد مني. فهو بأسلوب الإمام أشبه.

وتوجُّهه من تنزيل الله في كتابه، بهذه الوجوه كلها في فهمه وإعراجه، يدل على غير ما توهم فيما^(١) ذكر كله، إلا أن يأبى ذلك مكابرة لعقله.

وقوله في الكيد استدراجهم سبحانه من حيث لا يعلمون^(٢)، وقوله في المنافقين: ﴿يُخٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ ٱخٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]. وقوله سبحانه في الاستهزاء: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥]، فإنما يريد تركه لهم وتأخير إياهم وهم عاصون، لا ما ظنه ابن المقفع بالله كذبا، ولا استهزاء يكون من الله لعباء، كقول قوم موسى إذ قال لهم، صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذٰبَحُوا بِقَرَّةٍ قَالُوا أَنۢتَ أَخَذْنَا هٰذَا قَالِ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجٰهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧]. فهذا الاستهزاء إذا كان كذبا، وقول الخادع فإذا كان لعباء، فإلى المخلوق يضاف وينسب، لا أنه هو الذي يلهو ويلعب، فهذا وجه الاستهزاء منه والخداع والمكر، لا ما يذهب إليه كل عمي ضيق العلم والصدر. وإذا قيل له سبحانه يرضى أو يحب، أو يأسف أو يسخط أو يغضب، فإنما ذلك إخبار عن أقدار الطاعة والعصيان، وجزاء الإساءة عنده والاحسان، لا يُتوهم مع ذلك ضمير مسكون، ولا حركة منه في رضى ولا سخط ولا سيكون، وكيف يكون عندنا غير هذا وهو عندنا - ويله - ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. ﴿ٱلْخَلْقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ فِى ٱلسَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٤].

وأما قوله: فما باله جزع في غير كنهه من عمل يديه.

فهى^(٣) أخوات قوله: انقلب وافتخر وانشأ التي لا تخرج إلا من بين جنبيه، ومتى زعم - ويله - أنا أخبرناه أنه جزع، أو سخط أو كره أو عاب شيئا مما صنع؟! وأما قوله: ابتدع الأشياء مما كان هاذيا فيه.

(١) في (ب) و (د): مما.

(٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ [القلم: ٤٤].

(٣) في (أ): فهو. وفي (ج): فهو. إلا أنه وضع الواو على شكل ياء ونقطها من تحت.

وهذا من قوله في الأشياء، فقول فاسد ليس يقرأ، ^(١) إلا أنا أدّيناه عنه لحفظه، وكرهنا تبديله إذ حكيناه عن لفظه.

ثم قال عذبه الله، وأدام ^(٢) العذاب عليه: وتجاوز رضاه إلى سخطه، ومحآبه إلى مكارهه، والخير لعباده إلى الشر لهم، والرحمة لهم إلى العذاب عليهم، ثم افتخر - زعم - وامتدح بأنه غلبهم وقهرهم وإنما هم لاشيء ومن لاشيء.

افهموا قوله: وإنما هم لاشيء. فكيف - ويله - يكون هم لا هم، وشيء لاشيء، متى يبلغ مثل هذا هذيان المجانين؟ ولا جنون أقوال الهاذين. فأما قوله: إذا ^(٣) غلبهم افتخر وامتدح.

فهما من أخوات انقلب، وهو فيهما يلعب كما كان يلعب.

ثم عمد إلى سر أسرار الفرقان، وأعجب عجيب ^(٤) سر القرآن، من الرآيات والحواميم، وما ذكر فيه من (ق) و(آلم) و(طسم)، فعدّ علمها جهلاً، وظن مصون عجيبها مبتذلاً، وأراد - ويله - علم سر أنبائها، وما طواه الله إلا عن الأصفياء في إيجائها. وكلا لم يجعله لعلمها أهلاً، ولم يجعل قلبه العمي لها محلاً، بل أخفاه الله وزمّله ^(٥)، ولم يعطه إلا أهله، فإن كان علمه يُصير المعلوم مجهولاً، فقد يوجد كثير مما هو عنده علم مجهولاً، وليس من جهل لذي فضل فضيلته، ولا من رأى أمراً فلم يدر علته، يسلب ذا فضل فضله، ولا يزيل عن ذي علل علله، وقد يرى - ويله - هو آلات الصناعات، وأشياء كثيرة من أنحاء الأمتعات، فلا يدري لم ذلك وأهله به دارون، ولا يشعر بما فيه من المنافع وهم يشعرون.

فأين - ويله - كان من إحضار هذا وهمه، أولاً - ويله - حكم بما رأى من هذا وأشباهه حكمه، ولكنه يأبى إلا تحكيم العمى، والاعتداء والمكابرة في العلم للعلماء،

(١) في (ب): يعزي. وفي (د): يعرى. مصحفتان.

(٢) في (ب): فأدام.

(٣) في (ب) و (د): إذ.

(٤) في (ب) و (د): عجائب.

(٥) التزميل: الإخفاء واللف.

وإلا فلم لم يفكر، إن كان ذا فطنة وينظر، إن كان من أهل النظر فيما يستدل به أهل الكتاب والعرب، من هذه الأحرف على ضمائر كل مُغَيَّب، فكانت هي الدليل لهم على الكتاب، والسبب لعلمه دون جميع الأسباب. أفما رأى - ويله - سر عجائبها، فيما تنبئ عن محجوب غيبها، من سرائر قلوب المتكاتبين^(١) بها، ويدور من الأنباء في التعبد بسببها، اكتفاء منهم في أنباء الأمور، من كل مشاهدة بين المخبرين أو حضور، فهذا وأشباهه فليس لمثله فيه مدخل تعنيف، ولا يُشتغل منه ولا من مثله فيه بمنازعة في تحريف، مع أن لهذه الوجوه في التأويل،^(٢) ما لو سقط عنا علمها في التزليل، لكان علينا أن نعلم أن لها مخارج عند الحكيم، ووجوهاً صحاحاً في علم التعليم.

ولو كان جهلنا بها يزيل صحتها، أو يبطل عن الحكيم حكمتها، لما ثبتت للحكماء حكمة، ولا في علم العلماء معلمة، إذ توجد العامة لا تعلم^(٣) علمها، ولا تعرف للحكماء حكمها،^(٤) ولو لم يثبت العلم لعالمه، ولا حكم الحكمة لحاكمه، إلا بأن يعلم غيره منه ما علم، أو يحكم في الأمور كما حكم، لما كان في الأرض من أهلها جاهل، ولما وجدت بين الناس في العلم فضائل! وما - ويله - في جهله لحكمة الكتاب، وما جعل الله فيه من عجائب الأسباب، مما يلحق بالله جهلاً، أو يزيل عن كتابه فضلاً، ماله لعنه الله تأتي؟! به عماياته إلا تباباً؟!^(٥)، لقد كابر من فرق ما بين الجهلاء^(٦) والعلماء، ما لا يكابره ذو العمى، يقيناً منها به وعلماء، ومرمى منها إلى غير ما رمى.

والتبيان في هذا بيننا وبينه، وما ينبغي أن يشتغل به منه، فإنما هو في تثبيت الصانع

(١) في (ب) و (د): المتكاتبين. مصحفة.

(٢) في جميع المخطوطات: التفاسير. وما أثبت اجتهاد مني. وأكاد أجزم بصحة ما أثبت، لأنه الأشبه بكلام الإمام.

(٣) في (د): لا توجد.

(٤) في جميع المخطوطات: حكمتها. وما أثبت اجتهاد مني، والله أعلم بالصواب.

(٥) التَّب: النقص والخسار والهلكة.

(٦) في (أ) و (ج): ما بين العلماء والجهلاء.

ورسوله، لا فيما أنكر وقتن فيه من هذيان قيله، فإذا ثبتت الحجة فيهما، وأقمنا دليل الحق عليهما، علم بعد إقامة الدليل، أن الحكمة ثابتة موجودة في التزليل، جهل ذلك أو علم، أو توهم فيه أو لم يتوهم. فدليل معرفة الله الذي لا يُكابر، وشاهد العلم بالله الذي لا يُناكر، ما أرى وأوضح مما تراه^(١) أعين الناظرين، وتحيط بالتحديد فيه أفكار المفكرين، من الأشياء كلها في تأثير مؤثرها، وتصوير صور مصورها، وتناهي أقطار موجودها، وظاهر افتطار محدودها، وما ذكره منها ذاكر ووصفه واصف، أو تصرف بوصفه من الواصفين لها متصرف.

ففيه لمن نظر وأنصف، وعدل في النظر فلم يحف،^(٢) دليل على حدوث الأشياء مبین، وشاهد ثابت - لا يُدفع - ممكن، إذ الأشياء كلها محدودة، والآثار في قائمها موجودة، ومعلوم بأن التحديد إذا وجد لا يكون إلا من محدّد غير محدود، ولا أثر إذا غوين^(٣) إلا من مؤثر موجود، ولا تصوير مصوّر إلا من مصوّر، ولا فطرة مفطور إلا من مفتطر، كما لا يكون كتاب وجد إلا من كاتب، ولا تركيب إذا كان إلا من مركّب، ولا فعل ما كان إلا لفاعل، ولا مقال قيل إلا من قائل، فالله تعالى مؤثر كل مؤثر، والفاطر جل ثناؤه لكل مفتطر، لا ينكره إلا مناكر، ولا يأيي الاقرار به إلا مكابر، والمناكر فغير منكر، والمكابر^(٤) فغير مستنكر.

فلَمَن أتهج إلى معرفته السبيل، وأوضح بمنته الدليل، الشكرُ على إبانة التعريف، ووضوح^(٥) دلالة التأليف، التي لا يضل عنها إلا متضال، ولا يجهل معلومها إلا متجاهل، ولا يبور^(٦) على الله فيها إلا خاسر، ولا يجور عن قصدها إليه إلا جائر.

وإذا ثبت تأثير الأشياء كما قلنا، واستدل امرؤ عليه من حيث استدللنا، فمعلوم

(١) الفاعل في أرى وأوضح ضمير مستتر تقديره هو عائد على الله. و في (أ) و (ج): تراعيه. و في (ب) و (د): ترى عنه. ويبدو أنهما مصحفتان. ولعل الصواب ما أثبت.

(٢) الحيف: الميل.

(٣) في (ب) و (د): إذا عرف..

(٤) في (ب) و (د): ومن كابر.

(٥) في (ب) و (د): وأوضح.

(٦) في (أ) و (ج): ينور. و في (ب) و (د): مهملة بغير إغجام. والبوار: الهلاك والكاد.

أن المؤثر بعيدُ الشبه عن مؤثره، وأن مَنْ ولي تصوير المصور متعال عن مساواة مصوره، وأنه إن قُرب من الشبه منه، أو لم يُفرّق بينه - جل ثناؤه - وبينه، في كل معنى من معانيه، وفيما جلّ أو دقّ مما فيه، جُعِلَ كهو في عجزه ومقاديره، وذُلّ ضعفه وتأثيره، وعاد المؤثر مؤثراً، ومصور الأشياء مصوراً، فأثبتوا على المؤثر سمة المؤثرين، وأضافوا إلى الله تعالى ذلة تصوير المصورين، وكان في قولهم، وما سلكوا من سبيلهم،^(١) المؤثر مؤثراً، ومصور الأشياء مصوراً، وصانعها مصنوعاً، ومصنوعها صانعاً، وبديعها مبتدعاً، ومبتدعها بديعاً.

وهذا من قول القائلين، ومعمد جهل الجاهلين، عين متناقض الحال، ونفس متدافع الأحوال، الذي لا يقوم له في الأوهام صورة، ولا من فطر بمعقولات الأقوال فطرة، وفي ذلك أن تكون الأشياء موجودة لا موجودة، ومفقودة في الحال التي وجدت فيها لا مفقودة، وصار المخلوق لا مخلوقاً، والخالق في قولهم لا خالقاً، فتعالى - العلي الأعلى، الذي نَهَجَ إلى معرفته سبلاً ذللاً، - عما وصفه به المشبهون، واقتضى في التشبيه به المفترون، ونحمده على ما عرفنا به من الفرق، فيما بينه وبين جميع الخلق، ونعوذ به من جهل ما جهل من^(٢) توحيده، ونستعينه على ما ألهمنا من شكره وتمجيده، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد النبي وآله وسلم تسليماً.

وأما مذهبه في العاديات وعيبيها، لجهله بشا هدها وغائبها، فغير مستنكر منه، قاتله الله ولعنه، فقد تكون العاديات من العدوان والغى، وتكون العاديات من العدو والسعي، ثم لكل ما كان من ذلك وجوه شتى، يرى^(٣) ما بينها مَنْ يعقل متفاوتاً، والضبح أيضاً فألوان مختلفة، وكل ما ذكر في السورة فله وجوه متصرفة، يعرفها من عرفه الله إياها، ويوجد علمها عند من جعله الله مجتباها،^(٤) فليُقصِر من عَمِيَ عنها في عماه، فإن العَمِيَ لا يعلم الظاهر ولا يراه، كيف يعلم خفي ما بطن من الأسرار، التي

(١) في (ب) و (د): سبيلهم.

(٢) في (د): من جهل مَنْ جهل.

(٣) في (أ) و (ج): ما يرى.

(٤) المجتبي: المختار.

جعلها الله أفضل مواهبه للأبرار، أو لا فليسأل عنها، وليطلب ما خفي فيه منها، عند ورثة الكتاب، الذين جعلهم الله معدن علم ما خفي فيه من الأسباب، فإنه يقول سبحانه: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ [فاطر: ٣٢].^(١) ولتكن مسألته منهم للسابقين بالخيرات، فإن أولئك أمناء الله على سرائر الخفيات، من مُنْزَلِ وحي كتابه، وما فيه من خفي عجائبه، فقد سمعت قول الله: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣، الأنبياء: ٧].^(٢) فأما من لا فرق عنده بين عامي من عمي، ولا غي^(٣) في العاديات من سعي، ولا الصَّوْر من صوْر، ولا العُمر من عُمر، ولا النور من نُور، ولا الأمور من أُمْر، فحقيق أن يتعلم لسان القرآن، الذي صوْر والصَّوْر فيه مفترقان، والحمد لله رب العالمين،

(١) المقصود بورثة الكتاب هم أهل البيت عليهم السلام. والآية نزلت فيهم. أخرج الحبري في تفسيره عن علي بن الحسين عليهما السلام في الآية قال: نزلت والله - فبنا أهل البيت قيل فمن الظالم لنفسه؟ قال: الذي استوت حسناته وسيئاته وهو في الجنة. فقلت: والمقتصد؟ قال: العابد لله في بيته حتى يأتيه اليقين. فقلت: السابق بالخيرات؟ قال: من شهر سيفه، ودعا إلى سبيل ربه. تفسير الحبري ٣٥٤/ (٣٢). ورواه أيضا عن زيد بن علي ومحمد بن علي عليهما السلام/ ٣٥٥ ٣٥٧. وأخرجه فرات الكوفي في تفسيره ٣٤٧/٢ (٤٧٣) عن زيد بن علي بلفظ: الظالم لنفسه. فيه ما في الناس، والمقتصد: المقصد الجالس. ومنهم سابق بالخيرات: الشاهر لسيفه. وأخرجه الحسكاني عن زيد بن علي في شواهد التنزيل ١٠٤/٢ (٧٨٢)، وأخرجه محمد بن سليمان الكوفي في المناقب عن زيد بن علي عليهما السلام ١٦٤/٢ (٦٤٣)، وأخرج الطبراني في المعجم الكبير ١٢٤/٣. عن ابن عباس حديثا في معنى الآية.

(٢) المراد بأهل الذكر آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم؛ روى فرات الكوفي عن أبي جعفر عليهما السلام في الآية قال: نحن أهل الذكر، وفي رواية: هم آل محمد. وعن زيد بن علي عليهما السلام قال في الآية: إن الله سمى رسوله في كتابه ذكرا فقال: ﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ ذَكَرًا رَسُولًا﴾ [الطلاق: ١٠]، وقال: ﴿فَسَأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾. تفسير فرات ٢٣٥/٢، وأخرج الرواية الأولى محمد بن سليمان الكوفي في المناقب ١٣٠/١ (٧١)، والتعلي في تفسيره والحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل ٣٣٥/١ (٤٦٠).

(٣) في (ج): عن العاديات من سعي. وفي (د): ولا عي.

وصلواته على محمد وآله وسلم.

وأما قوله: ثم زعموا أن الله خلق الأشياء كلها بيده من شيء موجود - وزعم - أن اليد لا يُتوهم قبضها وبسطها إلا بعد وجود.

فوا عجباً لجهله بمسائله! وزور كذبه علينا ومقاوله! ومتى ويله زعمنا له أن جميع ما بَثَّ من خلقه وأرى، مما ولي خلقه بيده تعالى؟! إنما قيل ذلك في آدم خاصة دون غيره من الأشياء، إذ تولى سبحانه صنعه بالابتداء، ولم يكن كَكُون بعض الأشياء من بعض، ولم يتقدمه في خلقه^(١) نظير من أهل الأرض. فأما نظراًؤه الذين كانوا بعد من أولاده، فإنما خلقهم سبحانه بالتناسل من بعده، لا على طريق خلقته من الابتداء، ولا بمثل مُبتدئه من الأشياء، خلقاً عن غير والدين وكذاه، ومبتدعاً لا على مثال ابتداء.

فأما قوله في قول الله سبحانه: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧]، وزعمه أنه لا يقال: كن إلا لما هو كون، فليس - ويله، ويلاً يكثر عوله - مذهبنا في ذلك إلى ما توهم^(٢) وأنه سبحانه نطق أو تكلم، إنما ذلك للإخبار، عن القوة منه والافتدار، وأنه لا يفعل ما فعل بمباشرة، وأن سبيل فعله كله سبيل قدرة، لا يعان بكفين، ولا يستعان^(٣). بمعنى.

فأما^(٤) قوله: لأن كون شيء، لا من شيء، لا يقوم في الوهم له مثال، وما لا يقوم في الوهم مثاله فمحال.

فإنه يقال فيه لمن قال مقاله، ورضي - فيما قال منه - حاله: أترعم يا هذا أن الأشياء قديمة؟! ليس لبعضها على بعض عندك تَقْدِمة؟!

فَمِنْ قوله: نعم، قد ثبت لكلها القدم.

فيقال له: أليس إقرارك لكلها بقدمها، وإثباتك للقدم في تَوَهُمها، إقراراً بأنها لا من شيء، وأنها أولٌ بَدِي؟!

(١) في (ب) و (د): خلقته.

(٢) في (ب) و (د): يتوهم.

(٣) في جميع المخطوطات: لا يعانا. مصحفة. وفي (ب) و (د): ولا يستعان فيه بمعنى.

(٤) في (أ) و (ج): وأما.

والأول لا يكون أولاً إلا لغيره، ولا يثبت أولاً لتكريره، فأيهما أولى بالقيام في الوهم؟ حدوث شيء لا من شيء متقدم؟! أو شيء لا أول له يُعلم؟! ولا نهاية في آخره تُتوهم؟!!

فإن قال شيء لا أول له ولا نهاية، أولى بالتوهم منه ولاية.

قيل: فلا يكون هو أولاً إلا وهو متوهم، وإذا أجزت في معنى لم يزل التوهم، ثبتت^(١) به حينئذٍ الإحاطة، ولا يحاط إلا بماله نهاية محيطة، والنهية أقطار، والقطر تحديد وافتطار.

فإن قلت: ليس نتوهمه على هذا لأن هذا قد استحال، ولكننا نتوهم أنه لم يزل ولن يزال.

قيل: فأنت إنما تريد تتوهم أنك تدرك وتعلم!! فلم أنكرت المحدث وإن لم تعلم له كيفية في الوهم؟! وقد ثبت معنى لم يزل غير متوهم، فقد يلزمك أن يكونا جميعاً^(٢) عندك في التعجب مشتبهين، فإن قلت: فإني أنفي يا هذا هذين من الوجهين، فالمسألة عليك في نفسك لازمة، والأشياء بعد قائمة!!

يقال لك: أتخلو الأشياء من أن تكون حوادث أو قديمة؟! إذ الأشياء ليست إلا قديماً أو حادثاً، لا يتوهم متوهم فيها وجهاً ثالثاً؟

فإن قلت: فإني لا أدري أعلى حقائق الأشياء أم لا! لحقت بأصحاب سوفسطاء^(٣)، وفيما كان من رد الأوائل عليهم غنى كاف، وبيان قد تقدم منهم شاف. والحمد لله رب العالمين، وصلواته على محمد وآله الذين طهرهم تطهيراً.

ومما يقال إن شاء الله لمن قال إنه لا يكون شيء إلا من شيء، وأن كل ما أدرنا

(١) في (ب) و (د): تبتت. وهي لا تستقيم هنا. لأن معناها الانقطاع.

(٢) سقط من (أ): جميعاً.

(٣) سوفسطاء زعيم لجماعة تنكر المشاهدات والضروريات وقد سبق الحديث عن خرافاتهم. والسوفسطائية: لفظة يونانية و «سوفاء» بمعنى العلم، و«سطاء» تعني الغلط، فيكون معناها: علم الغلط. وعلى هذا فالسفطة: قياس مركب من الوهميات، والغرض منه تغليب الخصم وإسكاته. وليس يعقل أن يكون في العالم قوم ينتحلون هذا المذهب، بل كل غلط في موضع غلطه يقال له: سوفسطائي.

بالحواس كلها فأوَّلِيَّ أزلي،^(١) وهم فرق شتى متفرقة، فمنهم من يقول: إنما الحدث اجتماع وفرقة.

ومنهم من يقول: إنما هو بتغير العين، باختلاف ما يدخلها من التعيين^(٢).

ومنهم من يقول: إنما الحدث كون بعض الأشياء المختلفة المتضادة من بعض، كالأرض التي تكون من الماء والماء الذي يكون من الأرض؛ ومن أجل هذا الأصل، قالوا جميعاً إن الكل مختلط بالكل، وأن الكل من الكل^(٣) يكون، وأن هذا هو الحدث والكون، إلا أنه من صغر أقداره، لا يوجد ولا يُحس به، وهو لا ينتهي له في عدّه،^(٤) وأن كل ضد من الأشياء مختلط بضده، البياض بالسواد، والنامي بالجماد، والعظم باللحم، واللحم بالعظم، ليس شيء منه بخالص وحده، ويرون أن طبيعة الشيء هي الأكثر منه أو مما ضآده.

يا هؤلاء إنه إن^(٥) كان الشيء لا ينتهي له في نفسه لم يعرفه^(٦) أبداً عارف، وإن كان لا ينتهي له في عدّة أو كثرة لم يكن للكمية معارف، وإن كان لا ينتهي للشيء في الصورة، كانت الكيفية مجهولة، وإذا كانت الأشياء لا تعرف لأنه لا ينتهي لها، فما كان منها فلا يعرف أيضاً مثلها، وإنما يعرف ما يدرك، ويُسهل لمعرفته^(٧) المسلك، إذا

(١) سقط من (أ): أزلي.

(٢) في جميع المخطوطات: التغير. وما أثبت اجتهاد. وأكاد أجزم بصحة ما أثبت لوجهين:

أولاً: ما عهدنا من أسلوب الإمام في السجع.

ثانياً: ما سيأتي من الكلام يدل على ما ادعيت، لأنه في صدد الرد على من أثبت وحدة الأشياء وأن بعضها من بعض، وإنما تختلف بالتعيين فتعين جزء منها أرضاً، وجزء ماء، وجزء هواء، وإلا فالأرض من الماء و الأرض هي الماء، والماء هو الهواء، لأن الماء مكون من الأكسجين والهيدروجين.... وهكذا. تأمل.

(٣) سقط من (أ) و (ج): من الكل.

(٤) في (ب) و (ج) و (د): عدده.

(٥) في (أ) و (ب): لو.

(٦) في (أ): لا يعرفه.

(٧) في (ب) و (ج) و (د): بمعرفته.

علم من كم رُكِب؟ وأي الأشياء هو إذا تركَّب، ومضطرب أن يكون ما كان من الأشياء لما منه كان نظيراً، قليلاً كان منه إذا^(١) كان أو كثيراً، وأن الذي يكون عنه، كالكل إذا يكون منه.

فإن كان لا يستقيم أن يكون الحيوان، ولا ما جعل الله له من الأجسام، ولا الأشجار، ولا ما جعل الله له من الثمار، بلا منتهى في عظم ولا صغر، ولا فيما يرى له من قدر، فكذلك الكل - عند من يعقل - ذوات^(٢) نهاية، إذ هذه الأشياء التي هي أجزاء ذوات غاية، ولا تستقيم له ما لم يستقم لأجزائه، وإنما تناهيها من قبل انتهائه. وإن كان الحيوان والشجر وأجزاؤهما، التي لحق^(٣) بها في وصفها انتهاؤهما، لسن^(٤) حوادث مفتعلة، وإنما يريد القائل بحوادث منفصلة.

وبعضها عندهم فيعض، فالماء منها هو الأرض، والأرض فهي الماء، والماء فهو الهواء، فإن ذلك يصير إلى أن كل موجود فمن موجود، والموجود فلا يصح أن يقال له كن^(٥) ولا يعود، وكيف يكون الكائن؟ أو يبين شيء من شيء وهو بائن؟! كقولك: إن الماء ينفصل من اللحم واللحم ينفصل من الماء كيف والماء فأصل موجود، وإن كان كل جسد ذي حد إذا خرج منه بقدره جسد مثله محدود، فني عندها يقيناً، وبطل أن يكون كميناً،^(٦) فمعروف أنه لا يكون الكل من الكل، ولا يخرج منه في الوزن مثل له بعد مثل، كيف وقد يُعلم أن الشيء إذا أخذ منه مثله، فقد فني وذهب كله، وإن كان ما أخذ منه، مقصراً في القدر عنه، نقص منه بقدر ذلك، لا يكون الأمر فيه أبداً إلا كذلك، ولا يستقيم أن يكون لهذا الذي أخذ منه مثله قوام أبداً بلا منتهى، ولو انتقص منه مثل بعضه لكان بذلك قد تناهى، الشيء الذي يدوم عظمه وينفى عنه تغيره، ولا

(١) في (ب): إذ.

(٢) في (ب): دونها. مصحفة. وفي (أ) و (د): ذواتها. وفي (ج): ذواتها. ويبدو أنها مصحفة. والصواب ما لفتت من الجمع. ويدل عليه ما بعده.

(٣) في (أ) و (ج): يحق. ولعلها مصحفة.

(٤) في (ب) و (د): ليس. مصحفة.

(٥) في (ب) و (ج) و (د): يكون. مصحفة.

(٦) من الكمون، وهو الإخفاء.

يستقيم أن يفصل منه أبداً غيره، ومن أجل أنه لا يبقى أبداً قدره، وهو يخرج منه أجساد مثله، وبقدرة في الوزن محدودة، مستوية في الوزن بقدرة موجودة، وهو أيضاً لا يُحد إذا حُدَّ^(١) بكثرتها، ولا يوصف عند الصفة بصفتها، وإن كان كل جسد من الأجساد إذا أُخذ من بعض زنته،^(٢) لا بد أن ينقص من كميته،^(٣) كيف ما كان في حده، من كبره أو صغره، فمعلوم أنه لا يفصل منه أبداً جسد مثله، إلا انتقصه^(٤) ما فصل منه كله، وأنه لا يجوز في ألباب الأصحاء، ولا فيما يحمد من قضاء النصحاء^(٥)، أن يكون يوجد من شيء شيء ثم لا يُنقصه ما أخذ منه، وإذا انتقص فالنقص يخبر بالنهاية عنه.

ويقال أيضاً لهم إن^(٦) كانت الأجساد والأعراض مختلطة، وإنما يفارق بعضها بعضاً عندكم فرقة، وهي كلها في قولكم فواحدة، فالإنس والجن^(٧) بينهما عندكم خلاف، والأعراض والأعيان فقد تجمعهما^(٨) الأوصاف، ولا بد لهذا الخلق من رؤوس أولية، مبتدعة من الله سبحانه بدئية، منها برى الله كل برية، ترى من البرايا كلها بعيان، وثبت^(٩) أن تركيبها شيء أو شيان، ولا ينبغي لهذه الرؤوس أن يكون بعضها من بعض، بل تكون متضادة تضاد النار والأرض.

ويقال أيضاً إن كانت صور الأشياء لم تزل ولا تزال، والصور فهي الألوان

(١) في (ب) و (د): أخذ. إلا أنه شطب في (ج): على الألف. مصحفة.

(٢) في (ب) و (د): بعض زنته. ووضع على زنته في (ب) علامة (x). وفي (أ) و (ج): بعضه زنته. وكتب كلمة (بعض) فوق (بعضه) في: (أ). ولعل الصواب ما لفقت من الجميع. والله أعلم بالصواب.

(٣) في (ب): ينتقص فيه بكميته. وفي (د): ينقص منه كميته.

(٤) في (ب) و (د): إلا ينقصه.

(٥) في (أ) و (ج): الصلحاء.

(٦) في (ب): لئن.

(٧) في (ب) و (د): فالأبيض والخلق. مصحفتان.

(٨) في (أ) و (ب): تجمعها.

(٩) في (أ) و (ج): ويثبت.

والهيئات والأشكال، كان قول القائل - إنه لا يمكن أن يكون شيء لا^(١) من شيء، ولا يفسد من الأشياء كلها شيء فيعود إلى التلاشي، - قولاً من قائله مقبولا، وعُدَّ ما زُعم فيه قولاً.

وإن لم تكن صور الأشياء دائمة، ولا في كل حين موجودة قائمة، أعني بالصور صورة اللحم، وصورة الدم، وصورة العظم، وصورة الأشكال الطبيعية، والألوان كلها الظاهرة منها والخفية.

فلا محالة أنها لم تكن قبل حدوثها، وأنها قد^(٢) تفتى بعد حدوثها، وأن حدوثها استحالتها من ليس إلى أئس،^(٣) وأن فناءها استحالتها من أئس إلى ليس، كيباض الثلج الذي يحدث عند كون الثلج معاً، ويظل بياضه عند بطلانه فيفنيان جميعاً، وهل من فعال في سكون أو زوال يجده واجد،^(٤) أو يشهد به على فاعله شاهد، إلا وهو يحدث ثم كان^(٥) بعد أن لم يكن، بريء من معنى لم يزل، تعلم كل بهيمة مضى ماضيه، وفراقها في المعنى لمنتظر آتية، فلا يجهل أحد منه ماضياً، ولا يشبه^(٦) ماضٍ منه آتياً، إلا أن يزعم متجاهل، أو يكابر عاقل، فيقول: إن كون الحركة والسكون في حال واحدة معاً، وإن الحركات والسكون لم تزل قط جميعاً، فيلزمه أن تكون أوقاتها كلها وقتاً، ونطق ما يعقل ناطقاً من الأشياء سكتاً، فيعود يومه من أوقاتها أمساً، ومجنوسها عنده لنفسه جنساً، وفرعها أصلاً، وآخرها أولاً.

وكفى بهذا من القول محالاً، ومن وصف محالات القول مقالاً، أن^(٧) البهائم جميعاً

(١) في (ب): إلا مصحفة.

(٢) سقط من (ب) و (د): قد.

(٣) الأئس: العدم والفناء. قال الليث: أئس: كلمة قد أُميتت. إلا أن الخليل ذكر أن العرب تقول: جيء به من حيث أئس. وليس معناها: كمعنى حيث هو في حال الكينونة والوجد. وقال: إن معنى أئس أي: لا وجد. لسان العرب مادة أئس. وفي (أ) و (ج): من ليس إلى أنس. مصحفتان.

(٤) في جميع المخطوطات: واحد. مصحفة.

(٥) في (أ): يحدث كان إذ لم.

(٦) في (أ): يشبه. وفي (د): يشبهه. مصحفتان.

(٧) في (ب) و (د): وإن.

في اختلافها، لتنظر ما لم يأتيها بعد من أعلاها، فإذا وصل إليها، افترقت مواقعها لديها، فما تنتظره بعد إتيان، ولا تضطرب إليه بجولان، ^(١) ومن قبل ذلك ما ^(٢) كانت تصهل إليه وتنهق، وتضطرب إليه دأبة وتقلق، ولكن لم يعد القوم في جهلهم من ذلك لما جهلوا، وضلالتهم عن حقائق الأمور عما ضلوا، ما وصفهم الله به، وذكر من ضلالتهم في محكم كتابه، ^(٣) إذ يقول تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]. فلم يقفهم على مواقف البهائم في الجهل ومناهيها، بل زادهم ^(٤) في حكم الجهل عليها، فافهموا أدلة هذه الآية المعجزة المتحققة، وما أوجد الله سبحانه منها عيانا في هذه الفرقة، وأن وجودها فيهم، ودلالة الله بها عليهم، آية عظيمة عند من يعقلها في البيان، لا توجد إلا فيما ذكر سبحانه من الضلال ^(٥)، والحمد لله رب العالمين حمداً موفوراً، وعلى سيدنا محمد النبي وآله السلام كثيرا.

ثم جعل ابن المقفع النور الذي زعم أنه خير واحد أفانين، ولو أنه في معناه الأولين، وجعله بعد توحيده له كثيرا لا يحصى، وعدداً جماً لا يتناهى، فقال ^(٦): إنه نورٌ وحكمة، وطيب وبهجة، وخير وبركة، وإحسان وراحة.

وكذا وكذا مما لا يتناهى. وقد تعلمون أن البركة والبهجة، والطيب والحسن والحكمة، أشياء في العدد كثيرة، ومعان لا يشك فيها متغايرة، كل واحد منها غير صاحبه، والسبب منها غير سببه، لا يشك في ذلك ولا يمتريه، إلا من لا يعقل شيئاً ولا يدره.

(١) في (ب) و (ج) و (د): بجولان. وكلاهما صحيح. وهما معنى الانتقال والطواف.

(٢) ما: زائدة.

(٣) في (أ) و (ج): كتبه.

(٤) في (ب) و (د): زادوا.

(٥) الضُّلَّان: جمع ضال. ولم أقف على هذا الجمع في ما لدي من معاجم اللغة. ووقفت على الضُّلال والظالين. بيد أن الإمام القاسم من أهل اللسان العربي. المحتج بلغته. فهو حجة فيما نقل عن العرب.

(٦) في (أ): وقال.

وكذلك قال في تكثير الظلمة، وما نسب إليها من الشر وخلاف الحكمة، ثم جعل كثيرها واحداً، وزعم أنه لا يكون منها خير أبداً.

أفليس يا هؤلاء الليل الأدھم، وسواده الذي هو من كل ظلمة أظلم، موجوداً فيه ما ذكر الله فيه من السكون؟! بأوجد معارف ما يُعرف من كل كون؟! والسكون راحة، والراحة فسحة، والفسحة خير كثير، فالظلمة الآن عندهم خير. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [يونس: ٦٧]. وقال الله: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمُ بَلِيلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص: ٧٢].

وهل ينكر أن نور الشمس، يدرك ذلك منها بالحس، معشة^(١) لبعض العيون، ومضار في كثير من الفنون، وهو أفضل النور عندهم فضلاً، وأكثره في النور محصلاً؟! أو ليس قليل النهار^(٢) مقصراً في النور عن كثيره؟! والتقصير^(٣) شر فالشر في بعض النهار بتقصيره؟! فأني محال أوضح! أو مقال إحالة أقبح؟ من هذا مقالاً! ومن محاله محالاً! ليس بالأمر من تخفاء، ولا على غورة أهله من غطاء. إلا أن عجمة القلوب، وما فيها من عمه الذنوب، تجول بأهلها كل مجال، وتهلك^(٤) بمحالتها ضعفة الرجال.

ومما قال من همائم صدره، وزمازم هتره^(٥): إن الشيطان - زعم - قد بنى على كل صنف من أهل الأديان حائطاً حصيناً، وسوراً شديداً، حصرهم - زعم - فيه،

(١) معشة: معماة.

(٢) في (أ): البهاء. مصحفة.

(٣) في (ب) و (د): وبالتقصير.

(٤) في (أ): ويهلك محالها.

(٥) الهمائم: جمع هممة، وهي الكلام الخفي، وتردد الزئير في الصدر من الهم والحزن. والزمازم: جمع زمزمة، وهي: كلام الجوس عند أكلهم، وهي صوت خفي لا يكاد يفهم. وتراطن العلوج عند الأكل، وهم صموت لا يستعملون اللسان ولا الشفة في كلامهم، لكنه صوت تديره في خياشيمها وحلوقها، فيفهم بعضها عن بعض. والهتر: الكذب، والأمر العجب، والسقط من الكلام، والخطأ فيه. لسان العرب. مادة هم، وزم، وهتر.

ووكّل بهم شيطاناً من شياطينه وجعله عليه، فإن كان الوكيل حفظَ السور فهذا أمانة، وإن لم يحفظه وكانت منه لموكله فيه خيانة، كان السور كما لم يكن، ولم يبق فيه أحد ممّن سُجن.

فاعجبوا أيها السامعون، لما تسمعون، من متناقض هذا القول، الذي لا يقول مثله إلا كل منقوص مردول. فافهموا ما به وصف شيطانه، وكيف شدّد أركانه، إذ جعل له أسواراً وحصوناً، وجعل نوره عنده مسجوناً، وذو السجن والحصون محتال، والحيلة فلا يعرفها عنده الجهال، لأن المعرفة عنده خير سائر، والجهالة شرّ ضارّ.

وقال: حصرهم. والحاصر فقويّ والقوة فخير فقد عادت الظلمة عندهم خيراً، والمحصور فعاجز والعجز فشر فقد عاد النور عنده شراً.

ومما يقال لهم فيما زعموا من المزاج، وجاروا به من ذلك عن كل منهاج، سلّكه سالك، أو فتك فيه فاتك^(١): من أين يا هؤلاء جاء تعادي المتزجين من المتضادة؟!^(٢) بعد أن صاراً جميعاً في عقدة من المزاج واحدة، كنحو معادة إنسان لإنسان، أو ضرب آخر سواه من موات أو حيوان، وكيف يكون من الناس - ما كانوا صلحاء - نسل غير صالح؟! ومن طالحهم^(٣) - شيئاً كانوا أو أشياء - شيء^(٤) ليس بطالح، ولا يُرى صلاحُ أبيهم أصلحهم، ولا ما في أبيهم من الطلاح أطلحهم، ولا يكون منهما وهما اثنان، ولما هو منهما أصلان، إلا أنثى واحدة أو ذكر، لا يوجد لهما سواه بشر، فما بال فرعهما من ولدهما، إذاً لا يكون كأحدهما؟ إما أنثى مفرداً، أو ذكراً أبداً، فلو كان الأمر على ما يزعمون، أو في شيء من طريق ما يتوهمون، كان ولدهما ذكراً أنثى، وأنثى ذكراً، إذ كان عندهم إنما يكون كل شيء من مثله، وكل^(٥) فرع شيء - زعموا كأصله، والوالدان لولدهما أصل، وكل شيء فإنما يكون منه ما هو له مثل،

(١) الفتك: ركوب ما همّ من الأمور، ودعت إليه النفس، وانتهاز الفرصة.

(٢) في (ب) و (ج): التضاد.

(٣) في (ب) و (د): صالحهم.

(٤) سقط من (أ) و (ج) و (د): شيء.

(٥) في (ب) و (ج) و (د): أو كل.

والمزاج نفسه فتمرة لا من مثلها، وعقدة المزاج فليست كأصلها، إذ أصلها اثنان وهي واحدة، وإذ هما لها أصل وهي لهما عقدة، فأَيُّ مكابرة أوحش، أو محال قولٍ أفحش؟! مما أدى إلى مثل هذا، وما كان من القول هكذا؟!)

فليعلموا - ويلهم - أن الله هو الذي صنع الأولاد للآباء، وأنه لا يصنع الأكفاء^(١) الأكفاء، ولكن الله الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

وكيف يصنع والدٌ ولداً؟! وإنما كان بالأمس مولوداً، إذا^(٢) يكون الوالد من صنع ولده، كما الولد من صنع والده، لأنهما كفوان في الميلاد، وولدان كالأولاد، ولكن ذلك كما قال الله الشريك له، وما بينه في كتابه ونزله، ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ ۚ أَوْ يَزْوَجَهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۝﴾ [الشورى: ٤٩-٥٠].

ويقال إن شاء الله لهم من الناطق الظلمة فالناطق خلاف الخرس وهو خير زعمتم؟! أم النور والظلمة جميعاً فقد استويا في النطق والإستواء تشابه كما علمتم؟! أم الناطق النور؟ فالناطق خير وشرور، والشر إذا فهو في نوركم، ويلكم ما أبين في هذا شناعة أموركم! وأشد مجونكم! وأعظم جنونكم! وأظهر السفه به وبغيره فيكم! وأغلب الدناءة فيه عليكم.

وزعموا أنهما حساسان،^(٣) فهما لا محالة في الحس مشتبهان، ومثبه الشر لا يكون إلا شراً مؤذياً أليماً، ومثبه النور لا يكون عندهم إلا نوراً كريماً، وفي مشابهة النور بالحس للظلمة نفي ألا يكون (خيراً، وفي مشابهة الشر للنور بالحس نفي أن لا يكون)^(٤) شراً، فكل منهما خير شر، وشر خير،^(٥) وهو من القول فأحول ما يكون

(١) في (ب) و (د): الأكفاء إلا الأكفاء. (زيادة).

(٢) في (ب): إن. مصحفة.

(٣) في (ب) و (د): أنهما حساسات. مصحفة.

(٤) سقط من (ب) و (د): ما بين القوسين.

(٥) في (ج): فكل خير منهما خير شر وشر خير. وفي (د): فكل خير منهما شر خير شر.

من المحال، وأخبرت ما قيل به في الإحالة من الأقوال.

ومن^(١) قولهم إن الأشياء لا تتغير عن جواهرها،^(٢) وقد ترون أنها تتغير عن صورها، فصورة النور مؤنسة مضيئة، وصورة الظلمة موحشة ظلمية، فإذا ما هما امتزجا عُوِينَ مزاجهما بصورة في المزاج^(٣) أخرى، ليست بما كان يُرى، لا مؤنساً مضيئاً، ولا موحشاً ظلمياً، فمن أين كانت هذه الصورة الثالثة؟ إلا أن الأمور حادثة، ولكن القوم يلعبون بنفوسهم، ويقولون بخلاف ما يجدون من محسوسهم، وليس بيدع ممن جسر^(٤) على قول الزور والبهتان، أن يحدد بلسانه ما يدركه بشواهد العيان، فيزعم أن الرطب يس، وعُشر العدد خمس، وإنما التبيان في الحقائق الموجودة، ما يدرك منها بشواهد المشاهدة.

وزعموا أن الشيء لا يكون أبداً، إلا مثل جوهره مجتمعاً ومفرداً، وشأن النور العلو والارتفاع، وشأن الظلمة السفل والانتضاع، وكذلك شأن كل ضدين، متى وجدا متضادين، متى علا هذا، هوى هذا، فهو أبداً يهوي إذا ضده سما، ويسمو إذا ضده هوى، وفي فراق الشيء لشأنه، حقيقة فئائه وبطلانه، كالنار التي من شأنها التسخين، واللين الذي لا يكون إلا وله تلين، فمتى بطل شأنهما، بطلت لأبد عيناها، لأنه لا حار إلا مُسخن، ولا لين أبداً إلا مُلين.

وقد زعموا أن النور قد زال عن داره من العلى، وصار إلى هذه الأرض السفلى، وفي ذلك من تغيُّره، ما قد قيل من بطلان عينه. وكذلك الظلمة في بطلانها، إذا صارت إلى خلاف شأنها، فصارت في مترها سُفلاً، إلى ارتفاع ومعتلى، فهما في قولهم قد بطلا، وقد يوجدان بالعيان علوا وسفلا، وهذا نفس متناقض المحال، وعين متدافع الأحوال، إذ في أن يبطلا فُقدانها، وفي أن يوجد بطلانها، فعدمها وجود، وغيبتهما

(١) في (أ): وأما.

(٢) في (ب): جوهرها.

(٣) سقط من (ب) و (د): في المزاج.

(٤) في (ب) و (ج) و (د): بسبذيع. وفي (أ) و (ج): خسسر. وفي (ب) و (د): خسر. وكلاهما

مصحفتان. والصواب ما أثبت. والجسر: الإقدام، والمضي، والجرأة.

شهود. فأَيُّ عجب أعجب؟! ومتلَّعب أَلعب؟! ممن رضي بهذا قولاً، وكان بمثله معتلاً، وفي هذا من أمرهم، وما أوجدنا^(١) فيه من ذكرهم، كفاية للناظر المبصر، بل قد يكتفي به غير المفكر، والحمد لله حمداً دائماً مقيماً، وصلى الله على محمد النبي وآله وسلم تسليماً.

فأما خرافات أحاديثهم، وتُرَّهات^(٢) أعابيتهم، فهزل ليس فيه جد، ولا مما يجب له رد، ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩]. وبأي متلَّعب قاتلهم الله يتلعبون، ألم يروا أسماءهم التي يسمون، وما منها لا^(٣) غيره يعظمون. فمنها عندهم: أبو العظمة، وأم الحياة المتنسمة، وحبیب الأنوار، وحراس الخنادق والأسوار، والبشير والمنير، والانسان القديم، وما ذكروا من الأراكنة^(٤). التي عليهم بها من الله أَلعن اللعنة، وما قالوا من عمود الشبح، التي بها وبقولهم فيها أقبح ما يستقبح، وأكذب أكاذيب الزور، وأعجب عجائب ما وصفوا من الظلمة والنور، فزعموا أن أسماءهم هذه التي افتروا، وفننوا فيها بأعابيتهم^(٥) وكثروا، هي رد الظلمة - زعموا - عن النور، أفلا ردت عن أنفسها ما هي فيه من الشرور!!

وزعموا أن هؤلاء لأجزاء النور مصطفون، وهم في أنفسهم بالظلمة مختلطون. فيا ويلهم ويلاً ويلاً،^(٦) من أقاويلهم قبيلاً قبيلاً، في أبي عظيمتهم، وأم حياتهم، وحبیب أنوارهم، وبشيرهم ومنيرهم، وعمود شبحهم وإنسانهم، وما يعبثون فيه من أراكنهم، فعظموا منها غير معني، وسموها كذباً بالأسماء الحسنی، وهم يزعمون عنها - ويلهم - أنها مخالطة في حال للأقدار،^(٧) ملتبسة فيما زعموا بالأشرار، تُنكح في بعض الأحيان

(١) في (ب) و (د): وما وجدنا.

(٢) التُّرَّهات: جمع تُرَّهة: وهي الأباطيل.

(٣) في (أ): إلا غيره. مصحفة.

(٤) الأراكنة: جمع أركان: العظيم من الدهاقين. والدهقان: التاجر العظيم. فارسي معرب.

(٥) في (ب) و (د): بأعيانهم. مصحفة.

(٦) سقط من (ب) و (د): ويلاً ويلاً.

(٧) في (ب) و (ج): للأقدار. وفي (أ): للإقتدار. كلاهما مصحفتان.

نكاحاً، وتوكل في بعضها صراحاً، وتقسّم تارة^(١) وتحدث، ثم تقيم في ذلك وتمكث، فيالعباد الله إن هذا هو العبث العايب، والمقال الفاسد العايب، الذي لم يقل بمثله سوى أهله. قد قائل، ولم يسأل فيه. يمثل عجز مسائل ابن المقفع سائل، ولقد - ويله - أكثر في المسألة والمسألة لا تكثر^(٢) وطغى، حتى هممنا أن لا نجيبه لو لا مخافة أن يكون على ذلك المحق^(٣) متبعاً^(٤)، وذلك لجهله، بما سقط إلينا من مسائله، وحلّط في^(٥) قوله، ولكذبه أيضاً فيما يتحلّ ويتحلّ، وكثرة ما يختلف في كل مسألة وينتقل، وما أحسبه جالس قط متكلماً، ولا أحسن لمسائله تفهماً.

فليعلم من قرأ كتابنا هذا وفهم ما فيه لهم، نجوابنا إن هو كان من غيرهم، عمى مذهبه وصممه، وإن كان ممن تلبس بضلالتهم فليحذر غير الله ونعمه، فلقد قذفوا قذفاً، مسخاً وخسفاً، وكادت السماوات أن يتفطرن وشوامخ الجبال أن تحز بدون ما قالوا، ولأصغر أضعافاً مما نالوا، لأن الذين قالوا قبلهم الأقوال، وجعلوا لله سبحانه الأمثال، أثبتوه سبحانه ولم ينفوا، وإن هؤلاء أنكروا ونفوا، فلا يغترن منهم مؤخر في الجزاء، بما يرى من استدراجه بالاملاء، فإن الله يقول لا شريك له، وتعالى عن كذب الكاذبين قوله: ﴿وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُثَمِّلِي لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُثَمِّلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨]. ويقول سبحانه: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤-٤٥]. ويقول سبحانه: ﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهُ غَفْلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [مُطْعِمِينَ] مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئَدَتُهُمْ هَوَاءٌ [١٢] وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى

(١) في (د): ساعة.

(٢) يعني: أن من شأن السؤال أن يكون قليلاً مختصراً.

(٣) المحق: النقص، والحو، والإبطال.

(٤) في جميع المخطوطات: متبعاً. وغير بعيد أن تكون الكلمة (مبتغى) وغيرها أيدي النساخ.

(٥) في (ب) و (د): من.

أَجَلٌ قَرِيبٌ نُحِبُّ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعُ الرُّسُلَ أُولَئِكَ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٢﴾ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكَنٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُم كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْآمَثَالَ ﴿٤٣﴾ [إبراهيم: ٤٢-٤٥].

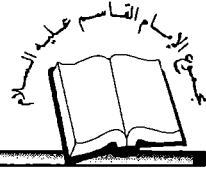
فإن قال قائل منهم يحذرنى النار، ويخبرني عن كتابه الأخبار، ولست بهما بموقن، ولا لخبره عنهما بمؤمن. (١) فليعلم أن أقل ما عليه فيما أنذر، وفيما يعقل من يعقل فيما حذر، خوف الممكن المطنون، إذا كان غير مستنكر أن يكون، وإن الناس لو كانوا لا يحذرون إلا ما يعلمه من حذروه، ولا ينذر المندزون قوماً إلا ما عاينوه وأبصروه، لقلَّت النذر، وفي الحذر، وإنه لو حذر (٢) جباراً بل إنساناً ذليلاً لارتاع له ارتياعاً، ولا استشعر من الخوف لتحذيره وهو هو أفزاعاً! فكيف بملك الملوك؟! ومن له ملك كل مملوك؟! ذلك الله العلي الجبار، الذي بإرادته كانت الظلم والأنوار، والسلام على من اتبع الهدى، وآثر رضى الرب الأعلى، فرضي من الأشياء مرتضاه، واصطفى من الأمور مصطفاه، فأدى إليه سبحانه في نفسه حقه، وعلم أنه هو الذي فطره وأحسن خلقه، وأن له عليه فرضاً واجباً، أن يكون لما أحبَّ محباً، ومن كل ما كره من الأمور قَصِيّاً، ولمن وآلى من خلقه ولياً، ولمن عادى سبحانه من أهل الأرض عدواً، فإنه لا يعادي سبحانه إلا مسيئاً أو سوءاً، والحمد لله رب العالمين، وصلواته على محمد وأهله الطاهرين.

تم الرد على ابن المقفع، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً.



(١) في (ب) و (د): موقن. وفي (ب) و (د): بخبره. والصواب: لخبره. وله يشهد له قوله تعالى ﴿وما أنت بمؤمن لنا﴾. وفي (أ): بموقن. وفي (ب): مؤمن.

(٢) في (ب) و (د) و (ج): حذرت. ويبدو أنها مصحفة. لأن الفعل مبني للمجهول. ونائب الفاعل (ضمير القائل). السابق ذكره.



الرد على النصارى



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي لم يزل ولا يزال، وله الكبرياء بدياً والجلال، البري من كل تعبير وزوال، وتبدل وحركة وانتقال، أو فناء أو احتيال، المتعالي عن أن يكون لشيء أصلاً متأصلاً، أو عنصراً من عناصر الأشياء كلها متحلاً، فيكون كواحد منها، أو كما بان من فروعها عنها، فكثير من قلته بتفرع بعد قلة، أو عز بكثرته بتجمع من ذلة، ولو أن ذلك، كان فيه كذلك، لعاد غيره له ندا ومثلاً، إذ كان له سبحانه محتداً (١) وأصلاً، ولكان حينئذ لكل ما كان منه، ووجد من فروعه وعنه، ما كان من التوالد له، إذ كان المتولد منه مثله.

[مشابهة الفروع للأصول]

وكذلك يوجد لكل فرع كان من أصل، ما يوجد لأصله من التوالد مثلاً بمثل، كفرع ما يرى من الأشياء كلها، التي تتولد يقيناً عياناً من نسلها، مثل ما يتولد غير مرية من أصلها، كما يرى من ولادة الأبناء، لمثل ما يتولد من الآباء، سواء ذلك كله سواء.

وكذلك ما يرى من متولد الشجر وغير الشجر، فكالأنثى في ذلك أجمع والذكر، يتولد في ذلك كله من أولاده (٢)، ما يتولد سواء من والده، فكل شيء أبداً كان ممكناً في أصل ووالد كونه وجوده، فمثله ممكن سواء في نسله ومولوده، لا يمتنع مما قلنا به في ذلك وقبوله، إلا مكابر في ذلك لعلمه ومعقوله. ولذلك وما فيه من الامكان، وما يدخل به على أهله من النقصان، ما تقدس الله عنه، وجل وتطهر منه، فلم تمكن فيه منه سبحانه ممكنة في فكر ولا مقال، وكان القول عليه جل جلاله بذلك أحول مُحال، إذ في أن يكون شيء له ولداً، وأن يكون لشيء أصلاً ومحتداً، إبطال الإلهية والربوبية،

(١) في (ج): إذا كان سبحانه. والمحتد: الأصل والطبع.

(٢) في (ج): أولاد.

و زوال الأزلية والوحدانية، وإذ لا يكون واحدا من كان له ولد أبدا، ولا يكون أزليا من كان أبا أو والدا، ^(١) لأن الابن ليس لأبيه برب، وكذلك الرب فليس لمربوب بأب، إذ كان الابن في الذات، هو مثله فكلاهما من الربوبية قاصي متباعد، إذ ليس منهما من هو بها متفرد متوحد. لأن الربوبية لا تمكن أبدا إلا لواحد، ليس بأصل لشيء ولا ولد ولا والد.

ولكل ولد في ذاته، ما للوالد من صفاته، وكذلك والده فله في الذات، مثل ما للولد في ذلك من الصفات، كالانسانية التي للابن منها ما لأمه وأبيه، وفي الأبوين منها ومن كمالها مثل ما فيه، فليس له من الانسانية وحدودها، ولا مما يوجد فيه وفيهما من موجودها، أكثر مما لهما منها، وكل واحد منهما فقير مقصر عنها، ولتمامهما جميعا فيها، وفطرة الله لهما عليهما كان الابن ولدا لهما ونسلا، وكانا له بها محتدا وأصلا، وفي ذلك ما يقول الله سبحانه، لعيسى صلوات الله عليه ورضوانه، فيما نزل من الكتاب، في يوم البعث والحساب، توقيفا وتعريفا له وللعباد، على أنه قد يجب للوالد في الذات ما يجب للأولاد، وتوبيخا لمن أفرده دون أمه في العبودية والإلهية، وحالهما في الذات حال واحدة مستوية، فعبوديه عماية وجهلا دونها، وهم يعلمون أنه ابنها ومنها، ويوقنون فلا يشكّون أن أباهما أبوه، فهي وآباؤها أولى منه بما أعطوه، إذ كان لولا وجودهم لم يوجد، ولولا ولادتهم له لم يولد.

فكيف يعبدونه دونهم، ولم يكن قط إلا منهم، فهو في الذات كهم، إلا أن يفرقوا بينه وبينهم، بحال يخصونه بها دونهم، أو بغير ذلك من فعل من الأفعال، هو سوى ما يجمعهم وإياه في الذات من الحال، فكيف وذلك غير قولهم، وما يبنون عليه من أصلهم.

[عيسى بشر]

فاسمعوا لقول الله في ذلك وبيانه، وما بين فيه جل جلاله من تفصيله وفرقانه، إذ

(١) في جميع المخطوطات: كان والدا أو أبا. والصواب ما أثبت.

(٢) في (ج): من.

يقول له صلى الله عليه، في ذلك من غير ما سخطة منه عليه ولا لوم فيه ^(١): ﴿يَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتَ قُلْتَهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ [المائدة: ١١٦] ، فسيح الله جل جلاله إكبارا له عن أن يقول في ذلك على الله علام ما كان وما يكون بقول إفكٍ مفترٍ مكذوب، لا يصح فيه أبدا قول في فطرة، ولا يقوم في سليم عقل ولا فكرة.

وقال صلى الله عليه: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة: ١١٧] ، فأنبأهم صلى الله عليه أنه عبد الله ^(٢) كما هم كلهم جميعا عبيد، ^(٣) وأخبر الله سبحانه من قوله في ذلك بما لا تنكره النصارى كلها وإن اختلفت في أديانها، وفرقتها البلدان في كل مفترق من أوطانها، لما رأوا منه عيانا، وأيقنه من غاب منهم إيقانا، من عبادته عليه السلام الله واجتهاده في طاعة الله، وكان في ما عاينوا ^(٤) من مشاهدته لهم في الحلقة دليل مبين على أنه عبد الله، يجري عليه من حكم الله في أنه عبد لله ما جرى عليهم، بما ^(٥) بان من أثر تدبير الله وصنعه فيه وفيهم.

وفيما قلنا من ذلك ومثله، في أن ^(٦) الفرع من الشيء له ما لأصله، ما يقول الله سبحانه لرسوله، صلى الله عليه وعلى آله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبْدِينَ ﴾ [الزخرف: ٧٤]. يخبر جل جلاله عن أنه قد يجب للولد ما يجب

(١) في المخطوطات: عليه فيه ولا لوم. ولعل الصواب ما أثبت.

(٢) في (أ) و (د): عبد له كما هم جميعا عبيده.

(٣) في (أ) و (د) و (ج): عبيده. والتصحيح من نسخة أشار إليها المستشرق الألماني.

(٤) في (ج): ما عاينوه.

(٥) في (ج): يجري. وفي (د): مما.

(٦) في (د): وأن الفرع.

للولادين^(١) في كل ما يجب لهم بالطبيعة والذات، لا فيما يجب من ذلك بالأعراض المحدثات.

ولو كان عيسى صلى الله عليه كما قالوا ربا وإلهًا، وعن أنه الله عبد أو صنع معظما في ذاته^(٢) مترها، لكان لأمه من ذلك ما له، إذ كانت في الذات مثله، بل لكان ينبغي لمن ولده أن يكون أعلى من ذلك منزلة منه، إذ كان وجوده صلى الله عليه به وعنه.

وليس أحد من النصارى يُثبت لمريم ما يُثبت لابنها من الإلهية، بل كلهم يقول: إنها أمة من إماء الله محدثة غير قديمة ولا أزلية، وقد يلزمهم صاغرین فيها، من إضافة الإلهية إليها، ما قال الله تبارك وتعالى فيهما، إذ الحكم واقع بالاشتباه^(٣) في الذات عليهما، فهي في ذلك كله كولدها، إذ روحه من روحها وجسده من جسدها.

فإن لم يكن ذلك، فيهما كذلك، زالت البنوة عنه منها، وزال أن تكون له أمًا عنها، فلم تكن له أمًا ولم يكن لها ابنا، إذ لم تكن إلا موضعا له ومكانا، إلا أن يجعلوا الأماكن أمهات لما كان فيها، فيقع ما قالوا من أنها أم له عليها.

فأما إن جعلوها^(٤) من طريق ما يُعقل أمًا له، فقد جعلوها في الطبيعة لا محالة مثله.

وإذا كان ذلك، فيهما كذلك، جعلوه صاغرین كأمه إنسانا لا ربا ولا إلهًا، وكان الناس كلهم إذ هو مثلهم في ذلك له أمثالا وأشباهًا، لا افتراق بينه وبينهم في الإنسية، ولا تفاوت بينه وبين جميعهم في الجنسية، ولذلك كان يطعم صلى الله عليه كما يطعمون، ويألم مما يؤلمهم كما يألمون، ويقيمه كما يقيمهم الشراب والطعام، ويعرض له الحزن والغموم والاهتمام.

والنصارى كلها فقد تقرر بطعمه وحزنه واغتمامه، وتحمله بما كان من صبره

(١) في (أ) و (د): للوالدين.

(٢) سقط من (أ) و (د) و (ج): معظما في ذاته

(٣) في (د): في الاشتباه.

(٤) في (د): يجعلوها.

وآلامه، التي كانت وصلت إليه عندهم في الضرب والصلب، وما كان يلقي في سياحته وأمره ونهيه من الدؤوب والتعب، وفيما^(١) جعل الله من طعمه وأكله من الآيات البينة الجلية، ما يُبطل ما قالت به النصارى فيه من الأقوال الكاذبة المفترية الرديئة، و في نسبة الله له المعقولة في الدنيا والآخرة إلى أمه، ما يدل - والحمد لله - من رُشد على أنها من أصله وجِرمه،^(٢) وأنه في ذلك كله كمثليها، إذ هو منها ومن نسلها، آبؤها آبؤها، وغذاؤها غداؤها.

فَلْيَفْهَمْ هَذَا - من أمره وأمرها، وعند ذكره في النسب وذكرها - من يفهم ويعقل، ولا يتجاهل منه ما لا يُجهل. وليعلم أن قول الله سبحانه كثير في كتابه: ابن مريم، وترديده في ذلك لذكره بها صلى الله عليه وسلم، فيه من تيقن الثلج،^(٣) وغوالب الحجج، التي يثلج^(٤) بها كل قلب، ويغلب فلا يُعلى بغلب، إذ تقرر من ولادتها له ما لا ينكره من النصارى ولا غيرها منكر، ولا يتحير فيه من^(٥) كل من عرفه بها ولا بما كان له من ولادتها مُتَحَيِّر، إذ جعله الله سبحانه ابنها، وجوده منها وعنّها، منها^(٦) كونه وفصوله، وأصولها كلها أصوله، وكل ما لزم فرع شيء من تغيير أو فناء لزم أصله، وكذلك كل ما كان من ذلك للأصل فهو له، لا يأبى ذلك ولا يكابر، إلا فاسد العقل حائر^(٧).

وفيما قلنا به والحمد لله من ذلك، وأن^(٨) عيسى صلى الله عليه كذلك، ما يقول الله سبحانه: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ أَنْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ

(١) في (ج) و (د): ونهيه والدؤوب. وفي (أ) و (ب): وما جعل.

(٢) الجرم: الجسد.

(٣) في (ج) و (د): يقين. والثلج: اليقين.

(٤) يسكن ويطمئن.

(٥) سقط من (ج): من.

(٦) سقط من (ج): منها.

(٧) في (أ): حائره. وفي (ج) و (د): حائر.

(٨) في (ج): وفي أن عيسى. وفي (د): في أن عيسى.

أَنْتَى يُؤَفِّكُونَ ﴿٧١﴾ [المائدة: ٧١] ، فأى آية أدل لهم على أنه مثلهم من أكله للطعام لو كانوا يعقلون، فلقد جهلوا من هذا - ويلهم - ما لم يجهل قوم نوح إذ يقولون: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣].

[مصادر عقائد النصارى]

ومن قبل ما قالت به النصارى في المسيح بن مريم ما قال بمثل قولهم المشركون، فزعموا أن ملائكة الله المقربين، ولدّت وبنات الله رب العالمين.

ومنهم ما^(١) قبلت النصارى أقوالها، وحذّت في الاشتراك بالله منهم مثالها، وهو قول كان يقول به في الأوائل الروم والقبط وأهل الجاهلية، من كان يقول في النجوم السبعة بتثبيت الربوبية لها والإلهية، وكانوا يزعمون أن النجوم السبعة ملائكة لله ناطقة، وأنها آلهة مع الله - لما تم بها^(٢) كونه - خالقة، وأن الله سبحانه صنعهن منه صنعا، ولم يبتدعهن لا من شيء بدعا، فلما أكملهن تبارك وتعالى وتم تمامهن، كنّ كلهن به وعنه قال لهن:

أتئن آلهة الإلهية بكنّ عقد كل معقود وحل كل محلول، وزعموا أن بهن وعنهن تكلمات من الحيوان المأيت^(٣) جعله كل مجعول، بهن كان وجوده وقوامه^(٤)، ومنهن كان صنعه وتمامه، وأنهن^(٥) علة واسطة بين الله وبين الأشياء، وأن الله الصانع لهن ولغيرهن به مآت^(٦) الأحياء، وكان الله لا شريك له إله الآلهة العليّ الذي لا يمثلونه بشي، والأول القديم الذي لم يزل تبارك وتعالى من غير أول ولا بدّي، وأنه هو المبتدئ^(٧)

(١) في (أ): من قبلت. وما، هذه زائدة، كثيرا ما يستخدمها الإمام.

(٢) في (ج): تم به كونها خالقة.

(٣) في (ج): الميت.

(٤) في (ج): قيامه.

(٥) في (د): وأنه.

(٦) في (ج) و (د): بهن. وفي (ج): ما بث.

(٧) في (د): المبتدئ بإنية الصانع.

الصانع للنجوم السبعة، المتعالي عن مشاهة كل مصنوع كان أو يكون وكل صنعة. وكذلك قالت النصارى: إن الله خلق الأشياء بانه نفسه، وحفظها ودبرها بروح قدسه، وإن الابن خلق الخلق وفطره، وإن روح القدس حفظ الخلق ودبره، وزعموا أن قوة الخلق غير قوة الحفظ والتدبير، وأن الأب لم ينفرد من ذلك كله بقليل ولا بكثير، وأن حال الأب والابن وروح القدس في الإلهية واحدة، وأن عبادة كل واحد منهم^(١) عليهم واجبة.

وكذلك زعم المشركون من أصحاب النجوم أن الله خلق الحيوان الميت ودبره بالنجوم السبعة، وأن بمن واما جعل الله من القوة فيهن كانت من ذلك كل بريته وكل صنعة، فأقوالهم كلهم^(٢) في أن لله ولدا واحدة^(٣) غير مفترقة، وفريتهم جميعا في ذلك على الله فكاذبة غير مصدقة، إذ شبهوا بالله غيره، فجعلوه ولده ونظيره.

وفي القول بالولادة والاشتباه،^(٤) إبطال من قائله لكل إله، لأنهما إذا تماثلا واشتبهتا، لم يكن كل واحد منهما إله، لأنه لا يقدر مع تشابههما أحدهما على إبطال الآخر، وإذا لم يقدر على إبطاله كان عاجزا غير قادر، ومن كان في شيء من الأشياء كلها عاجزا، كان عاجزه له^(٥) عن الربوبية والإلهية عاجزا.

وإن قال قائل كان^(٦) كل واحد منهما قادراً على إبطال نظيره، ففي ذلك أدل الدلائل على نقص كل واحد منهما وتقصيره، وإذا كان كل واحد منهما منقوصا مقصراً،^(٧) لم يكن من الأشياء كلها لشيء صانعا مدبرا، ليس له كفؤ من الأشياء كلها ولا مثل ولا نظير، ولم يوجد في السماء ولا في الأرض ولا فيما بينهما صنع ولا تدبير،

(١) سقط من (أ) و (د) و (ج): منهم.

(٢) في (د): كلهم جميعا في.

(٣) في (أ): أوجده. مصحفة.

(٤) في المخطوطات: في الولادة. ولعل الصواب ما أثبت. وفي (د): والأشياء.

(٥) سقط من (ج): له.

(٦) في (د): فإن قال. وسقط من (ج): كان.

(٧) في (ج): مقسراً.

والصنع فقد^(١) يُرى بالعيان في ذلك كله قائما موجودا، فكفى بذلك دليلا بيّنا على أن لهذا الصنع العجيب صانعا لا والدا ولا مولودا.

ووجود^(٢) صانعه أبين وأوجد من وجود كل موجود وجودا، وأنه واحد صمد ليس والدا ولا مولودا، ولن يجد ذلك أحد أبدا، إلا الله الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، ولم يزل تبارك وتعالى واحدا صمدا، ليس من ورائه أزلي مصمود، ولا أوّل من الأشياء موجود، فيكون متقدما أوّلاً قبله، فلا يكون الله هو الخالق له، بل هو الله الخالق الأول القديم، الذي ليس لغيره^(٣) عليه أولية ولا تقدم، ولكن كل ما سواه، فخلق ابتدعه وأبداه، فوجد بالله خلقا بديا بعد عدمه، برياً من مشاركة الله في قدرته وقدمه، بينة آثار الصنع والتدبير فيه، شاهدة أقطاره بالحدث والصنع عليه، مختلف مؤلف، ضعيف مصرّف، مجسم محدود، متوهم معدود، قد ناهاه قطرُه وحدّه، وأحصاه مقداره وعدّه، فهو كثير أشتات، له نعوت وصفات، كثيرة متفاوتات، كذلك الحيوان منه والموات.

فليس يوجد أبدا الواحد الأزلي، الذي ليس له مثل ولا نظير ولا كفي،^(٤) إلا الله تقدست أسمائه، وجل ذكره وثناؤه، وفي ذلك وبيانه، ومن حججه وبرهانه، ما يقول الله جل جلاله، عن أن يحويه قول أو يناله، فيما نزل من كتابه المجيد، في سورة الإخلاص والتوحيد: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]. والأحد فمن ليس له والد ولا ولد، ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ٢] والصمد فهو الغاية في كل خير والمعتمد، الذي ليس من ورائه، من يسمى بأسمائه، فيستحق منها كما استحق الله شيئا، فيكون لله فيما يُسمى به منها كفيا، كما قال الله سبحانه في كتابه، وما نزل من

(١) في (ج): قد.

(٢) في (ب): ووجوده أبين وأوجد من وجود كل موجود وجودا. وفي (ج): مثل (ب). إلا أنه سقط قوله (وجودا). وفي (د) مثل (أ). وسقط منه قوله: (وجودا).

(٣) في (ج): لغير عليه.

(٤) في (ج): كفو.

البيان^(١) على عبادته، فيما كان لله^(٢) تبارك وتعالى من أسمائه الحسنی متسميا: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مرم: ٦٥].

وفيما نزل سبحانه من أنه ليس له كفؤ ولا نظير، ما يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. و ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْآبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْآبْصَرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

وفي أنه ليس له شبيه ولا كفي،^(٣) ولا مثيل ولا بدي، ما يقول الله سبحانه: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [٢] وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ [١] ﴿ [الإحلاص: ٣-٤]. وكيف يولد من لم يزل واحدا أولا؟! أو يلد من جل أن يكون عنصرا متخللا؟!^(٤) لا كيف والحمد لله أبدا! يكون الله والدا أوولدا! فنحمد الله على ما منَّ به علينا في ذلك من البيان والهدى، ونعوذ بالله في الدين والدنيا من الضلالة والردى.

فليسمع - من قال بالولد على الله، من كل من أشرك فيه بالله، من اليهود والنصارى، والملل الباقية الأخرى - حُجَجَ الله المنيرة في ذلك عليهم، ففي أقل من ذلك بمنَّ الله ما يشفيهم، من سقم كل عَمَى عارضهم فيه أو داء، ويكفيهم في كل قصد أَرادوه أو اعتداء، ففي ذلك ما يقول الله سبحانه لهم كلهم جميعا، ولكل من كان من غيرهم لقوله فيه سميعا، ممن لم يعم عن قول الله فيه عماهم، ولم يعتد على الله فيه اعتداءهم: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ [البقرة: ١١٦]، فقال الله إنكارا لقولهم فيه وردا: ﴿سُبْحَنَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَلْنُوتٌ﴾ [٣] بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [٤] [البقرة: ١١٦-١١٧].

(١) في (د): البيان به على.

(٢) في (د): كان الله.

(٣) في جميع المخطوطات الموجودة (شبيه ولا مثل أو مثيل، ولا كفيء ولا بدي). وما أثبت اجتهاد مني جريا على نفس الإمام.

(٤) في (ج): متخللا.

وفي ذلك وتبيينه، وفي افتراءهم فيه بعينه، ما يقول الله سبحانه: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ ﴿١٠١﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أُنْتَى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلِمَ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠٢﴾ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٣﴾ لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٤﴾ ﴿[الأنعام: ١٠٠-١٠٣]﴾. ومعنى خرقوا، فهو: افتروا واخترقوا، باطلاً وبهتاناً، وعمايةً وجهلاً وطغياناً.

وتأويل ﴿سُبْحَانَ﴾ ومعناها، فليعرف ذلك من قراها: إنما هو بُعد الله وتعالیه، عما قالوا به^(١) من اتخاذ الولد فيه، وقول القائل سبحانه، إنما معناه: بُعدان، كما يقال بينك وبين ما تريد، سبحانه يا هذا بعيد، فالسبح هو البعيد^(٢) الممتنع، والأمر المتعالي المرتفع.

فما الذي هو أمتع وأبعد، من أن يكون الله والداً أو يولد، وهذا فهو قول متناقض، محال داحض، لا يقوم أبداً في فكرة ولا وهم، ولا يصح به كلام من متكلم. ولذلك من محاله، وتناقضه وإبطاله، ما يقول الله سبحانه تعالياً عن قولهم وبعداً: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ [البقرة: ١١٦]، والمتخذ عند كل أحد فهو المستحدث المصطنع، وما أُتخذ فاصطنع^(٣) فهو يقيناً المحدث المبتدع، والوالد كما قد بينا في صدر هذا الكتاب كالمولود، في مالهما بالذات والطبيعة من^(٤) الخاصية والحدود، فجعلوا الإله البديع كالمبدوع، و الرب الصانع للأشياء كالمصنوع، وكلهم يزعم أن الله صانع غير مصنوع، ومبتدع لجميع البدائع غير مبدوع، وإذا صح أن السماوات والأرض وما فيهن لله، وأن قيام ذلك ووجوده وصنعه بالله، وما قضى من أمر فإنما قضاؤه له، بأن

(١) سقط من (أ) و (ج): به.

(٢) في (ج): البعد.

(٣) في (ج): واصطنع.

(٤) سقط من (د): من.

يَسْبَحُ رَبَّهُ وَصَلَّى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِسَبِّ رَدِّهِ (١) نَزَلَ أَمَلَةً مَرَلَا مُعَانَاةً مَرَلَا احتياج، (٢) ولكنه يُتِمُّ كَوْنَهُ وَصْنَعَهُ، إِذَا هُوَ أَرَادَهُ وَشَاءَهُ.

وإذا قيل أَمَرَ الله في خلقه وقضى، فإنما هو من الله بمعنى أراد الله وشاء، وما ذكر من قنوت الأشياء لله، فإنما هو قيامها ووجودها بالله، وتأويل قوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَلْبُوتٌ﴾ (٣)، إنما هو كل به ومن أجله كائنون.

وسواء في هذا الباب، وفيما ذكر منه (٤) في الكتاب، قلت: له، و به (٥) ومن أجله، وكما يقال: فعلت ذلك بك ولك، وكذلك يقال: فعلت ذلك بك ومن أجلك.

ولما أن صح بأحق الحقائق، وأوجد ما يكون من الوثائق، أن السماوات والأرض ومن (٦) فيهن لا تكون أبدا إلا من واحد، صح أن ذلك لا يكون أبدا من مولود ولا والد، فكان القول - مع صحة هذا ونحوه وأمثاله، بما قالوا به في الولد - من أخبث القول وأحول محاله!! وأي تناقض في مقال يقال أقبح!! أو محال بتناقض (٧) فاحش أوضح!! من قولهم اتخذ الله ولدا فجعلوه (٨) متخذا مولودا! وهم يقولون مع قولهم ذلك أن الولد لم يزل قديما موجودا، لم يفقد قط ولم يزل، ولم يتغير حاله ولم يتبدل، فمن أين يكون مع (٩) هذا القول منهما ولد ووالد؟! وأمرهما جميعا في القدم والأزلية واحدا! وكيف يكون متخذا حدثا من لم يزل موجودا قديما، وإنما يكون المتخذ المستحدث من كان قبل أن يُتخذ مفقودا عديما. فقالوا جميعا كلهم: هو الله (١٠) وولده، ثم زعموا مع

(١) علاج ومعالجة: المحاولة.

(٢) سقط من (أ) و (ب): ولا احتياج.

(٣) في (د): من.

(٤) في (ج): قلت به وله..

(٥) في (ج): ما.

(٦) في (أ) و (د): ومحال يتناقض.

(٧) في (ج) و (د): فجعلوا الولد متخذا.

(٨) في (ج) و (د): (مع الله هذا). وهو سهو من الناسخ.

(٩) في (أ) و (ب) و (هـ): (هو ابنه وولده). وهو سهو فيما يبدو.

ذلك أنه ابنه يسبحه ويعبده، والمولود^(١) عندهم في الإلهية والأزلية كالوالد، فصيروا الرب المعبود في ذلك كله كالمربوب العابد، فهل وراء ما قالوا به من التناقض في ذلك على الرب؟! من مزيد في تناقض أو محال أو إبطال أو إفساد أو كذب، يقول به قائل مناقض محيل، ويضل^(٢) في مثله إلا تائه ضليل، قد عظم في المحال والتناقض إسرافه، وقل في المقام بالباطل لنفسه إنصافه، فهو يلعب في حيرته ساهيا، ويخوض في غمرته لاهيا.

وفيه والحمد لله وفي أمثاله، ممن قال على الله بمقاله، ما يقول الله تعالى: ﴿سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الزخرف: ٨٢-٨٣]. وفي ذلك ما يقول سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَكَةِ أَهْتُولَاءَ إِنَّا كُنَّا نَعْبُدُونَكَ ﴿١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبا: ٤٠-٤١].

وفي إحالة قول من قال بالولد، من أهل الكتاب ومن كل ملحد، ما يقول سبحانه: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴿١﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا ﴿٢﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٣﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٤﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٥﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٦﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ﴿٧﴾﴾ [مرم: ٨٩-٩٥]. والإد من الأمور والأقاول، فما امتنع امكانه في العقول، فلم يُطبق له أحد احتمالا، وكان في نفسه فاسدا محالا، وهو كما قال الله سبحانه: ﴿وَمَا يَنْبَغِي﴾. وذلك فما ليس بممكن ولا متأتى^(٣).

فأي ممتنع من الأمور أبعد إمكانا^(٤)؟! مما قالوا به في الولد على الله هتانا، وهل

(١) في (أ) و (ب) و (د): والمعبود.

(٢) في (ج) و (د): أو يضل.

(٣) في (ج) و (د): ولا متأت.

(٤) في (أ) و (ب): مكانا.

يمكن السماوات والأرض في عقل أو لب، أن تكون من ابن أبدا أو^(١) أب، وهل الابن إلا كالأبناء، وكذلك الأب فكالآباء، فإن لم يكن كههم زال أن يكون أبا أو ابنا، ولم يكن ذلك أبدا في الأوهام ممكننا، لأنه إن لم يكن أب وابن كأب وابن في الأبوة والبنوة مثله، زالت الأبوة والبنوة واسمها كلها عنه، وإن كان الابن للابن مثلا، كان مثله خلقا مجتبلا، ومتى^(٢) جعلوا المسيح ابنا وولدا، كان مثل الأبناء لله عبدا مخلوقا متعبدا، ومتى أنكروا أنه كغيره من الأبناء عبد^(٣) لله، أنكروا صاغرين أن يكون كما قالوا ابنا لله، أفليس هذا من القول هو الحال بعينه؟! وما يحتاج أحد يعقل إلى تبينه!!

إذ يثبتون من ذلك في حال واحدة ما ينفون، وينفون من مقامهم في حال واحدة ما يثبتون.

ولله تبارك وتعالى من الحجة والرد، في كتابه على من قال عليه بالولد، ما يكثر عن الله عن أن نخصيه أو نعدده، أو يدرك مدرك سوى الله^(٤) أمده، وكفى بما ذكرنا والحمد لله حجة وردا، على من زعم أن الله تبارك وتعالى ولدا، من فرق النصارى واليهود،^(٥) وأهل الفرية على الله والجحود، ممن جعل الله سبحانه ندا أوضدا، وجعله والدا^(٦) أو ولدا، فليفهم حجج الله في ذلك كله من كان لله موحدا، ولينفقد تناقض قولهم فيه وفساده، وإحالة واختلافه، يجد قولاً محالاً فاسداً، متناقضاً مختلفاً.

وفيه ما يقول الله سبحانه، لنبه صلى الله عليه وآله ورفع شأنه: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ ١ ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ ٢ ﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ ٣ ﴿[الكهف: ٤-٦]﴾. فأحير

(١) في (ج): أو من أب.

(٢) في (د): مثله سواء خلقا. وفي (ج): خلقا مجتبلا. وفي (ج) و (د): فمتى جعلوا.

(٣) في (أ) و (ج) و (د): عبدا لله. وفي (ب): عند الله. وما أثبت هو الصواب، والله أعلم.

(٤) في (ج) و (د): الله أبداً أمده.

(٥) لقولهم: عزيز بن الله.

(٦) في (ج): مولودا.

سبحانه بأسف رسوله، صلى الله عليه وآله، من قولهم على الله سبحانه بالفساد المحال، وبأ خبث ما يقال من متناقض الأقوال، ونبأ الله جميع عباده، بجهلهم لقولهم فيه وفساده، بقوله سبحانه: ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾^(١)، ووجدنا ما قال الله من كذبهم فيه وقلة علمهم لازماً واجبا، وكان ذلك على ما قال به من أهل الكتاب، أو كذباً لما^(٢) يقولون به من ربوبية رب الأرباب، فكلهم يثبت لله الربوبية، ويصحح له الوجدانية، وجميعهم - وإن زعم أن الله ولداً - يقر بربوبيته ووجدانيته، ويشهد له بدوامه وأزليته، التي لا يصح لهم أبداً ما يقولون به منها، إلا بتركهم لمقاتلتهم في الولد والرجوع عنها، ولن يرجعوا عن ذلك مصارحة أبداً، وإن هم قالوا أن قد اتخذ الله ولداً، لأن في رجوعهم عن القول لله بالوجدانية والأزلية، لحوقهم عند أنفسهم بقول^(٣) أهل الجاهلية، من عبدة الأوثان، والنجوم والنيران، وذلك فما لن يقولوه، وإن لم يعرفوا الله وجهلوه، لفساد ذلك عندهم وشناعه، وبعد إمكان ذلك في الله وامتناعه، ولذلك ما يقول جلّ جلاله، عن أن يصح عليه تشبيه شيء^(٤) أو يناله، في أزلية قديمة أو ذات، أو صفة ما كانت من صفات، إذ في ذلك، لو كان كذلك، إشراك^(٥) غيره معه في الإلهية، إذ كان شريكاً له في القدم والأزلية.

فتبارك الله الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وجل ربنا عن أن يكون له في شيء كفو أو نظير! وأن وكيف يكون خلق كخالقه؟! وهل يصح من ناطق بهذا لناطقه؟! لا ولو تظاهر الخلق جميعاً عليه، لما صح لهم والحمد لله أبداً منطق فيه.

(١) في (ب): ما.

(٢) في (ج): لقول.

(٣) في (ج): تشبيهه له بشيء.

(٤) في (ج): اشتراك.

[أدب الحوار]

وبعد: فلا بد لمن أنصف خصما في منازعته له ومجادلته، من ذكر ما يرى الخصم أن له فيه حجة من مذهبه ومقالته، فإذا ذكر ذلك كله، بان ما فيه عليه وله، فكان ذلك لباطله أقطع، وفي الجواب له أبلغ وأجمع.

والنصارى فهم خصماؤنا في الله، فلا بد من تبين ما افتروا فيه على الله، وهم ممن قال الله فيهم: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٦]. ومن الذين قال فيهم: ﴿هَٰذَا خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٦]. فهم في ذلك كغيرهم من كفرة الأمم.

فليفهم من قرأ كتابنا هذا ما نصف فيه من قولهم كله فسنصفه، بما يعلمه علماء كل فرقة منهم إن شاء الله ويعرفه، وسنستقصي لهم في كله ما استقصوا لأنفسهم من المقال، ثم نجادلهم فيه على الحق بالتي هي أحسن وأبلغ في الجدل، وندعوهم إلى سبيل ربنا ورهم بالحكمة والبينة، ونعظهم إن شاء الله بالمواعظ البليغة الحسنة، فإن الله سبحانه يقول لرسوله، صلى الله عليه وعلى آله: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥]، فنستعصم الله في ذلك كله بعصمة الهداة المرشدين^(١).

[مذاهب النصارى المتفق عليها]

وهذا كتاب ما حددت النصارى من قولها، قد استقصينا فيه جميع أصولها، فليفهم ذلك إن شاء الله منها، من أراد فهمه من الأمم عنها.

زعمت النصارى كلها: أن الله سبحانه ثلاثة أشخاص مفترقة، وأن تلك الأشخاص الثلاثة كلها طبيعة واحدة متفقة، وقالوا: تلك الثلاثة في درك يقين النفس،

(١) في (ب) و (د): المرشدين. وفي (د): الراشدين.

أب وابن وروحٌ قدس.

قالوا: فالأب غير مولود، والابن فابن وولد مولود، وروح القدس فلا والد ولا مولود، وكل واحد من الثلاثة بما قلنا فموجود.

وقالوا: إن هذه الأشخاص الثلاثة لم تزل جميعا معا، لم يسبق بعضها في الوجود بعضا، وإن ما ذكرنا^(١) من الأب والروح والولد، لم يزلوا كلهم في اللاهوت وملك واحد، ليس بين الثلاثة كلها تفاوت في الإلهية، ولا في قَدَم ولا قدرة ولا ملك ولا مَشِيَّة، وإن الثلاثة كلها واحد في الطبيعة والذات،^(٢) وإن هذا الواحد في الطبيعة ثلاثة في الأشخاص المفترقات،^(٣) وذلك كالشمس، فيما يدرك منها بالحس، التي هي شمس واحدة في كمالها وذاتها، وثلاثة متغايرة في حالها وصفاتها، كل واحد منها غير الآخر في شخصه وصفته، وإن كان هو هو في ذاته وطبيعته.

فمن ذلك زعموا أن الشمس في عينها كالأب، وضوءها فيها كالابن، وحرُّها منها كالروح، ثم هي بعدُ وإن كانت لها هذه العدة، فشمس لا يشك فيها أحد واحدة، لأن الشمس إن فارقتها ضوءها لم تُدع شمسا، وكذلك إن فارقتها حرُّها لم تُدع أيضا شمسا، وإنما تسمى شمسا وتُدعا، إذا كان هذا كله فيها مجتمعا.

وكذلك الإنسان فإنه وإن كان في الإنسانية واحدا، فإننا قد نراه وترونه أشياء كثيرة عددا، منها نفسه وجسده، وحياته ومنطقه، فجسده غير نفسانيته، ومنطقه غير حياته، لأنه ليس يقدر أحد أن يزعم أن الحياة هي المنطق، ولا أنهما جميعا واحد متفق، لأن كثيرا من الأحياء لا يتكلم ولا ينطق.

قالوا: ولسنا نريد بالمنطق القول الذي يُسمع سماعا، ولكننا نريد الفكر الذي جعله الله في الإنسان غريزة وطباعا، فطرة^(٤) خاصة في الإنسان، لا في غيره من الحيوان،

(١) في (ج): ما ذكرنا. وفي (د): ما ذكر.

(٢) سقط من (د) و (ج) و (د): والذات.

(٣) في (ج) و (د): المفترقة.

(٤) في (ج) و (د): وفطرة.

كالحَيوان الذي جُعِلَ^(١) من البهائم وغيرها، من نوابت الأرض وشجرها، ولو كانت الحياة هي المنطق، لكان كل حي من الأشياء ينطق، فنَطَقَ جميع البهائم، كما ينطق بنو آدم.

قالوا: فلما لم يكن الأمر كذلك، دل على ما قلنا به من ذلك، فالأب والابن وروح القدس، كان دركهم بعقل أوحس، فقد^(٢) صازوا في الذات والطبيعة واحدا فردا، وفي الأقانيم التي هي الأشخاص ثلاثة عددا، فالطبيعة تجمعهم وتوحدهم، والأقانيم تفرقهم وتعدددهم، فالأب ليس بالابن والابن فليس بالروح، وما قلنا به من هذا فبيِّنْ مشروح، فهم كلهم بالطبيعة والذات واحد، وهم في الأقانيم ثلاثة روح وابن وأب والد، لأن الأب والد غير مولود والابن فمولود غير والد، والروح فثالث موجود، لا والد ولا مولود.

قالوا: ثم إن هذه الأقانيم الثلاثة لم تنزل جميعا معا ثلاثة عددا، لم يسبق في الوجود والأزلية والقدم واحدٌ منها واحدا، أنزل واحد منها وهو الابن إلى الأرض رافة بالبشر والإنس، عن^(٣) غير مفارقة منه للأب ولا لروح القدس، إلى مريم العذراء، فاتخذ منها حجابا وسترا، فتحسد منها بجسد كامل في جميع إنسانيته، فتبدى به وظهر فيه لأعين الناظرين عند معانيته، فأكل كما يأكل الإنسان وشرب، وساح على قدميه ودأب وتعب، وأسلم نفسه رافة ورحمة بالبشر للصَّلب، ولما صار إليه لكرمه وحلمه من الأذى والنصب.

[مذاهب النصارى المختلفة]

ثم اختلفت النصارى^(٤) بعدُ في الابن والولد، وما كان من تجسده بما زعموا من الجسد.

(١) في (ج): جعل الله في البهائم.

(٢) في (ج) و (د): قد.

(٣) في (ج): من. وسقط من (د): عن.

(٤) قال الإمام يحيى بن حمزة عليه السلام في الشامل: (وأما النصارى فحكى نقلة الأقوال، إن مذاهب النصارى لا تنضبط، وهي غير منحصرة حتى قال بعض النقلة لمذاهبهم ليس شيء أغلظ علي من

حكاية أقاويل النصارى، لاضطرابها وكثرة تناقضها، وكفى مذهب بطلانا هذه خلاصته، ومثرتة وتفاوتته، وهم على ما اشتهر عنهم أربع فرق:

الأولى: الملكانية، وهم أقدم فرق النصارى مذهباً، وقد قالوا بأن الله تعالى، واحد بالجوهرية ثلاثة بالأقنومية، وإن الاتحاد لعيسى عليه السلام، ما كان من حيث أنه انسان معين، بل إنما وقع الاتحاد بالانسان الكلي.

الثانية: اليعقوبية، وهم القائلون بأن الاتحاد إنما كان من حيث الذات، حتى قالوا: المسيح جوهر من جوهرين، وأقنوم من أقنومين، ناسوتي ولاهوتي، وأنهما امتزجا حتى صار منهما شيء ثالث، كما تمزج النار بالفحمة، فيصير منهما شيء ثالث وهو الجمرة.

الثالثة: النسطورية، وهم القائلون بأن الاتحاد إنما كان من جهة المشيئة، وقال بعضهم معنى الاتحاد هو: إن الكلمة جعلته هيكلًا وأدركته أدراعاً، وكذلك قالوا: المسيح جوهران أقنومان.

الرابعة: هؤلاء الأرمنوسية، فإنهم زعموا أن عيسى عليه السلام، كان عبداً لله تعالى اصطفاه، ولكنه اتخذ ابنه له على سبيل التشريف، هذا ما ذكره الإمام يحيى عليه السلام من بيان فرقهم.

قال: واشتهر على ألسنة المتكلمين أن النصارى يقولون: إن الله واحد بالجوهرية ثلاثة بالأقنومية. فأما وصفهم الله تعالى بالجوهرية، فالخلاف فيه ليس إلا من جهة اللفظ، لأنهم متفقون على أن الله ليس بمتحيز، وأنه تعالى منزّه عن المكان والجهة، ومعنى وصفه بكونه جوهرًا عندهم، أنه قائم بنفسه ليس بمفتقر إلى غيره.

وأما الأقنوم فهو: اسم سرّياني. ومعنى الأقنوم عندهم: الشيء المتفرد بالعدد. والأقانيم عندهم ثلاثة: أقنوم الأب، وهذا ذات الباري تعالى. وأقنوم الابن، وهو الكلمة. وأقنوم روح القدس، وهو الحياة. وقد تخبط الناس في معرفة مقاصدهم، بهذه الأقانيم، فذهب بعضهم إلى أن هذه الأقانيم ذوات قائمة بأنفسها، وكل أقنوم منها مستقل بنفسه، وذهب آخرون منهم إلى أنها أشخاص. وقال قائلون: إنما وجوه وصفات، إلى غير ذلك من التفرق والخلاف.

قال: وكلامهم في هذه الأقانيم في غاية الخبط والاضطراب، لا تستقر له قاعدة، ولا يعقل له حقيقة. قال: واعلم: أن الأشبه عند التحقيق أن مراد النصارى من هذه الأقانيم التي زعموها هو هذه المعاني التي يثبتها هؤلاء الأشعرية، وبيانه أن النصارى يعتبرون في تقرير مذهبهم وقولهم، بهذه الأقانيم شرائط ثلاث:

الأولى: وحدة الذات، فإن عندهم أن الله تعالى، واحد بالجوهرية.

الثانية: أن الصحيح من مذهبهم أن هذه الأقانيم عندهم ذوات مستقلة بأنفسها، ليست من قبل الأحوال والصفات، بل ذوات على حياها منفردة.

الثالثة: أن هذه الأقانيم متعددة في أنفسها، وأعدادها ثلاثة كما سبق، وهذه الشرائط الثلاث لا توجد

فقلت فيه الروم، وهو قولها المعلوم: إن الأقنوم^(١) الإلهي الذي لم يزل موجودا، ومن قبل الدهور من الأب مولودا، أنزل إلى مريم العذراء فأخذ منها طبيعة بغير أقنوم فكان لطبيعتها أقنوما، فعمل^(٢) بطبيعتها التي أخذ منها كل ما كان لها في طبيعتها معلوما، فنام كما كانت تنام نومها، وإن لم يكن أقنومه أقنومها، وفعل من أفعال طباعها فعلها، وإن لم يكن أصله في الناسوت أصلها. قالوا: فعمل بطبيعتها فكان المسيح إنسانا تاما بطبيعتين، وإن كان أقنوما واحدا لا اثنين، والمسيح فهو ابن الله الأزلي المولود، وعمل^(٣) الطبيعتين جميعا فهو فيه موجود. قالوا: فإذا سرُّ أو بكى، أو ضحك أو اشتكى، - وكلهم يقر ولا يشك، أن قد كان ييكي ويضحك - فكل ما

على الكمال، إلا في مذهب الأشعري، فإن ذات الله عندهم هي أصل لهذه المعاني، وهو غير متعدد، وزعموا أيضا أن هذه المعاني مستقلة بأنفسها ذواتا على انفرادها، وهي القدرة، والعلم، والحياة، وغيرها. وقالوا أيضا: إن هذه المعاني متعددة في أنفسها، فزعم بعضهم أنها سبعة، وزعم بعضهم أنها ثمانية، فحصل من هذا أن الشرائط التي اعتبرتها النصارى في قولهم بالأقانيم، لا توجد إلا في مذهب هؤلاء الأشعرية، فهم يضاهونهم في مقالاتهم، ويكرعون معهم في آجن ضلاتهم.

قال: وقد فسر بعض النقلة من أهل المقالات كلام النصارى وقولهم بالآب، والابن، وروح القدس، بما تقوله الفلاسفة من أنه تعالى عقل وعاقل ومعقول، فهو من حيث أنه عقل لذاته أقنوم الآب، ومن حيث أنه عاقل لذاته أقنوم الابن، ومن حيث أنه معقول لذاته أقنوم روح القدس.

قال: واتفقت آراء الفرق النصرانية على القول بالاتحاد، ثم اختلفوا في كيفية، فقال بعضهم: إن الاتحاد كان بامتزاج الذاتين.

وقال بعضهم: الاتحاد بالحللول.

وزعم بعضهم: أن الاتحاد كان بالإنسان الكلي.

وبعضهم قال: الاتحاد بالإنسان الجزئي، إلى غير ذلك من الفرق والتزاع، تعالى الله عن سخيّف نحو هذه المقالات، التي أذعنت لها السماء بالانفطار، والأرض بالتشقق، والجبال بالانحدار ^{﴿﴾} أن زعموا للرحمن ولدا، وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا، إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً ^{﴿﴾}.

(١) الأقنوم: اسم سرياني، ومعناه الأصل، والشيء المتفرد كما سبق.

(٢) سقط من (أ) و (د) و (د): فعمل.

كان من ذلك كله وما^(١) أشبهه مما في طبائع^(٢) الإنس فمن عمل الطبيعة الانسانية، وما كان من إحيائه الموتى وإبرائه للكمه والبُرس ومثله فمن عمل الطبيعة الإلهية. وقالت اليعقوبية^(٣): إن الابن الذي لم يزل، زال من السماء إلى الأرض ونزل،

(١) في (ج): ومن.

(٢) في (ج): طباع.

(٣) النصرانية هي الديانة المسيحية التي أنزلت على عيسى عليه السلام، مكمله لرسالة موسى عليه السلام، متممة لما جاء في التوراة من تعاليم، موجهة إلى بني إسرائيل، داعية إلى التهذيب الوجداني والراقي العاطفي والنفسي، لكنها سرعان ما فقدت أصولها، مما ساعد على امتداد يد التحريف إليها حيث ابتعدت كثيراً عن صورتها السماوية الأولى، لامتزاجها بمعتقدات وفلسفات وثنية. التأسيس وأبرز الشخصيات:

زكريا عليه السلام: كان واحداً من أنبياء بني إسرائيل، كرس نفسه لخدمة الهيكل المقدس في فلسطين، وقد اختير ليكون كافلاً لمريم، وقد وهبه الله تعالى — على الكبر — يحيى عليه السلام. يحيى (يوحنا): واحد من أنبياء بني إسرائيل، كان يقوم بتعميد الناس في نهر الأردن ليطهرهم من الخطايا والذنوب، وقد قام هو نفسه بتعميد عيسى عليه السلام، مات مقتولاً بأمر من ملك اليهود بفلسطين (هيردوس) بسبب معارضته إياه في زواجه من ابنة أخيه. مريم ابنة عمران: عمران هو أحد عظماء بني إسرائيل، وقد كانت زوجته عاقراً فرزقها الله بمريم، فنذرهما لخدمة الهيكل والعبادة فيه، أما مريم فقد كانت صالحة وطاهرة، وقد اصطفاها الله على نساء العالمين.

عيسى عليه السلام: ولد في بيت لحم من أمه مريم، من غير أب، إذ نفخ الله فيها من روحه فكان ميلاده حدثاً عجباً على هذا النحو، ليلقي بذلك درساً على بني إسرائيل الذين غرقوا في الماديات وفي ربط الأسباب بالمسببات، بُعث عيسى عليه السلام نبياً إلى بني إسرائيل مؤيداً من الله بعدد من المعجزات الدالة على نبوته، فمن ذلك.

أنه كان يخلق لهم من الطين كهية الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله. وكان يرى الأكمه والأبرص بإذن الله.

وكان يحيى الموتى بإذن الله.

وكان يخبر الناس بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم بإذن الله.

وقد أيده الله بمائدة من السماء أنزلها عليهم لتكون عيداً لأولهم وآخرهم.

غضب اليهود عليه فأغروا به الحاكم الروماني الذي تجاهلهم أولاً، ثم كذبوا وتقولوا مما جعله يصدر

أمراً بالقبض عليه وإصدار حكم بالاعدام ضده.
ألقى الله شبه عيسى وصورته على رجل من أصحابه يقال: إنه (يهوذا الإسخريوطي) فنفذ الحكم فيه، أما عيسى فقد توفاه الله بعد ذلك ورفع له إليه.
الحواريون الاثنا عشر كما هم مذكورون في إنجيل متى:

- ١ — سمعان المعروف باسم بطرس — ٧ — توما.
- ٢ — اندرواس أخو سمعان.
- ٣ — يعقوب بن زبدي.
- ٤ — يوحنا أخو يعقوب.
- ٥ — فيلبس.
- ٦ — برنولماوس.
- ٧ — متى العشار.
- ٨ — يعقوب بن حافي.
- ٩ — لباروس الملقب تداؤس.
- ١٠ — سمعان القانوني (الغيور).
- ١١ — يهوذا الإسخريوطي.
- ١٢ — وهناك الرسل السبعون الذين يقال بأن المسيح قد اختارهم فأرسلهم ليعلموا المسيحية.
- وهناك المائة والعشرون الذين يقال بأن بطرس قد خطب فيهم فامتثلوا بالروح بعده وراحوا يدعون للنصرانية، وعن طريق هؤلاء اختير بالقرعة بدل ليهوذا فوقعت القرعة على متياس الذي أكمل الاثني عشر.
- بولس (شاول): لقد كان لهذا اليهودي الحبيث، الذي دخل النصرانية — دور كبير في تحطيم الاتجاهات الصحيحة للمسيحية بإدخاله فكرة التثليث والقول بالوهية المسيح، وأنه قام من الأموات، وصعد ليجلس عن يمين أبيه، كما ابتكر خرافة العشاء الرباني وغفران الذنوب مستمداً ذلك من الفلسفات الإغريقية والوثنية، ونادى بالوهية الروح القدس، ودعا إلى عدم ضرورة الختان، واخترع قصة الفداء، وهو الذي نقل المسيحية من كونها ديناً خاصاً ببني إسرائيل إلى جعلها ديناً عالمياً، لقد كتب أربعة عشر سفرًا تعليمياً من أصل إحدى وعشرين رسالة تشكل مجموع الرسائل التي تعد مصدراً تشريعياً في النصرانية.

الأفكار والمعتقدات:

أولاً: كتبها وأناجيلها:

— التوراة: وهو العهد القديم الذي يعد أصلاً للديانة النصرانية.
— العهد الجديد: أي الإنجيل، والأناجيل المعتمدة التي اعترفت بها الكنائس في القرن الثالث الميلادي أربعة هي:

إنجيل متى: وهو أحد التلاميذ الاثني عشر، دُوِّنَ الإنجيل باللغة العبرية أو بالسريانية، وأقدم نسخة عثر عليها كانت باللغة اليونانية، كما أن هناك خلافاً حول مَنْ دُوِّنَ الإنجيل وَمَنْ ترجمه.

إنجيل مرقس: كاتبه يوحنا الذي اختير من السبعين، وقد كان رجلاً نشيطاً في نشر النصرانية في

أنطاكية وشمال أفريقيا ومصر وروما وقد قتل حوالي عام ٢٦م.
 إنجيل لوقا: طبيب أو مُصَوِّر من أصل يهودي، كان مرافقاً لبولس في حله وترحاله، وهو ليس من تلاميذ المسيح.
 إنجيل يوحنا: وهو حوارى ابن صياد، كان المسيح يحبه، بعضهم يقول بأنه شخصية مجهولة، انفرد بالقول بالتثليث وبألوهية المسيح في ذلك الوقت المبكر من تاريخ النصارية.
 — يلاحظ على الأناجيل الأربعة أنها ليست من إملاء السيد المسيح عليه السلام مباشرة، وأن كاتبها ليسوا على مستوى من الأهلية ليكونوا علماء دين، كما أن أصولها ضائعة ولا تحمل أقل ما توجه شروط الرواية التي يستلزمها كتاب سماوي ديني.
 — أما الرسائل: فهي الأسفار التعليمية التي توضح النصارية المعاصرة أكثر من الأناجيل، وقد دَوَّها رجال مشهورون، وهي تعنى بتفسير مظاهر السلوك وأنواع الطقوس في الحياة النصارية.
 — إنجيل برنابا: يعرف بابن الواعظ وهو لاوي قيرصي، طاهر نقي، وهو خال مرقس، وأول نسخة اكتشفت منه كانت في مكتبة البابا سكستس الخامس بروما، لكنه يختلف عن الأناجيل الأربعة بما يلي:
 (الله) عنده هو رب العالمين خالق السموات.
 الذبيح من أبناء إبراهيم إنما هو إسماعيل لا إسحاق.
 يبشر بنوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم.
 لا يقول بصلب المسيح بل يؤكد بأن الله قد ألقى الشبه على يهودا الإسخريوطي.
 يبحث على الختان.
 يعتبر عيسى نبياً لا أكثر. ولهذا فالمسيحيون لا يعترفون بهذا الإنجيل.
 هذا وقد تم نقل هذا الإنجيل إلى العربية وطبع بها.

ثانياً: المجمع النصارية:

هي مجالس شورية تعقد بين الحين والحين لسن القرارات وإصدار الفتاوى، فهي هيئة تشريعية تحل وتحرم، ومن أهم هذه المجمع:
 مجمع نيقية ٣٢٥م: قالوا فيه بأن المسيح إله فقط.
 مجمع القسطنطينية الأول ٣٨١م: قرروا فيه بأن الروح القدس إله.
 مجمع أفسس الأول ٤٣١م: قالوا فيه بأن للمسيح طبيعتين لاهوتية وناسوتية.
 مجمع خلقيدونية ٤٥١م: قالوا فيه بأن للمسيح طبيعتين ومشيتين.
 مجمع رومه ١٨٦٩م: قرروا فيه بأن البابا معصوم.
 — تنابعت المجمع، وما تزال إلى يومنا هذا، ومن أواخرها مجمع روما ١٨٦٩م والمجمع الإقليمي في

جاكرتا ١٩٦٧م الذي عقد لتوقيع ميثاق بين كل الطوائف، للتحالف على مواجهة المسلمين بكلمة واحدة في الاجتماعات والمحافل الدولية.

ثالثاً: الفرقُ النصارية:

الموحدون وهم:

— أتباع آريوس الذي كان يقول بأن الأب وحده هو الله، والابن مخلوق له.

— بولس الشمشاطي وأصحابه في انطاكية: يقولون بأن عيسى عبدُ الله ورسولُه وهو واحد من أنبياء الله عليهم السلام.

— النسطوريون: وهم أصحاب نسطور بطريك الإسكندرية سنة ٤٣١م، والذي قال بأن مريم لم تلد إلا الإنسان، فهي بذلك أم لإنسان وليست أمًا لإله، ومذهب النساطرة وضع الأساس للقول بطبيعتين في المسيح.

— مذهب الكنائس الشرقية: ((الأرثوذكس)) وهو رد فعل لعقيدة نسطور، إذ أعلنوا في مجمع عقد بمدينة أفسس بالأناضول سنة ٤٣١م ووافقوا فيه على عقيدة البابا كيرلس بطرس الإسكندرية، والتي تقضي بأن للمسيح طبيعة واحدة ومشئية واحدة.

— مذهب الكاثوليك: وهو مذهب الطبيعتين والمشيئتين متأثر بمذهب النساطرة، وقد اعتنقت روما هذا المذهب واتخذت به قراراً في مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١م.

— مذهب اليعاقبة: يقولون بأن للمسيح طبيعة واحدة وهي التقاء اللاهوت بالناسوت.

— مذهب الموارنة: وهو مذهب منسوب لرجل اسمه يوحنا مارون، الذي دعا سنة ٦٦٧م إلى أن للمسيح طبيعتين، ولكن له مشيئة واحدة وذلك لالتقاء الطبيعتين في أقنوم واحد.

— مذهب البروتستانت: وتسمى كنيستهم ((الإنجيلية)) إذ إنهم يتبعون الإنجيل دون غيره، وفهمه لديهم ليس مقصوداً على رجال الكنيسة، إنها تمثل ثورة في الفكر النصارى، بدأها آريوس في القدام مروراً بنسطور وانتهاء بالكثيرين الذين من أبرزهم لوثر كنج (١٤٨٢ — ١٥٢٩م) وهم يستنكرون حق الغفران والاستحالة ومنع الصلاة للموتى وقصر سلطان الكنيسة في الوعظ والارشاد، ومنع استعمال لغة غير مفهومة في الصلاة.

— بعد انعقاد المجمع الثامن ٨٧٩م انقسمت الكنائس إلى قسمين رئيسيين:

الكنيسة الغربية اللاتينية البطرسية ورئيسها البابا بروما.

الكنيسة الشرقية اليونانية الأرثوذكسية ورئيسها بطريك القسطنطينية.

وسبب الانقسام هو السؤال التالي:

((هل الروح القدس منبثق عن الأب؟ وهو رأي الكنيسة الشرقية)).

((أم أن الروح القدس منبثق عن الأب والابن معاً؟ وهو رأي الكنيسة الغربية)).

رابعاً: في المعتقدات:

— **الألوهية والتثليث**: يعتقدون بوجود إله خالق عظيم، لأنهم كتابيون أصلاً لكنهم يشركون معه الابن (عيسى)، والروح القدس (جبريل)، وبين الكنائس تفاوت عجيب في تقرير هذه المفاهيم وربط بعضها مع بعض، مما يسمونه الأقانيم الثلاثة ويفسرونه بأنه وحدانية في تثليث وتثليث في وحدانية.

— **الديوتونة**: يعتقدون بأن الحساب في الآخرة سيكون موكولاً لعيسى ابن مريم، لأن فيه شيئاً من جنس البشر مما يعينه على محاسبة الناس على أعمالهم.

— **الصلب**: المسيح في نظرهم مات مصلوباً فداءً عن الخليقة، ذلك أن الله لشدة حبه للبشر من ناحية ولعدائته من ناحية أخرى، فقد أرسل وحيداً ليخلص العالم من خطيئة آدم حينما أكل من الشجرة المحرمة، وأن عيسى قد صلب عن رضى تام فتغلب بذلك على الخطيئة، وأنه دفن بعد صلبه، وأنه قام بعد ثلاثة أيام متغلباً على الموت ثم ارتفع إلى السماء.

— **تقديس الصليب**: يعتبر الصليب شعاراً لهم، وهو موضع تقديس الأكثرين، وحمله علامة على أنهم من أتباع المسيح.

— **الصوم**: هو الامتناع عن الطعام الدسم وما فيه شيء من الحيوان أو مشتقاته، مقتصرين على أكل البقول، وتختلف مدته وكيفيته من فرقة إلى أخرى.

— **الصلاة**: ليس لها عدد معلوم مع التركيز على صلاتي الصباح والمساء، وهي عبارة عن أدعية وتسابيح وإنشاد، كما أن الانتظام في الصوم والصلاة إنما هو تصرف اختياري لا إجباري.

— **التعميد**: وهو يعني الارتماس في الماء أو الرش به باسم الأب والابن والروح القدس، تعبيراً عن تطهير النفس من الخطايا والذنوب.

— **الاعتراف**: وهو الإفضاء إلى رجل الدين بكل ما يقترفه المرء من آثام وذنوب، وهذا الاعتراف يسقط عن الانسان العقوبة بل يظهره من الذنب، إذ يدعون بأن رجل الدين هذا هو الذي يقوم بطلب الغفران له من الله.

— **العشاء الرباني**: يزعمون بأن المسيح قد جمع الحواريين في الليلة التي سبقت صلبه، وأنه قد وزع عليهم خبزاً وخبزاً كسره بينهم ليلتهموه، إذ إن الخمر يشير إلى دمه، والخبز يشير إلى جسده.

— **الاستحالة**: من أكل الخبز وشرب الخمر من الكنيسة في يوم الفصح، فإن ذلك يستحيل فيه وكأنه قد أدخل في جوفه لحم المسيح ودمه، وأنه قد امتزج في تعاليمه بذلك.

— **يحلون أكل لحم الخنزير مع أنه محرم في التوراة**، ويحرمون الختان مع وجوده في شريعتهم أصلاً، وأباحوا كذلك الربا وشرب الخمر، لقد قصرُوا التحريم في الزنى وأكل المخنوق وأكل الدم وأكل ما ذبح للأوثان.

— **الأصل** في ديانتهم الرهبانية، وهو العزوف عن الزواج، لكنهم قصره على رجال الدين، وسمح

للناس بزوجة واحدة مع منع التعدد الذي كان جائزاً في مطلع المسيحية.

— **الطلاق**: لا يجوز للرجل أن يطلق زوجته إلا في حالة الزنى، وهنا لا يجوز للزوجين الزواج بعده مرة أخرى، أما الفراق الناشئ عن الموت فإنه يحجز للحى منهما أن يتزوج مرة أخرى، كما يجوز التفريق إذا كان أحد الزوجين غير نصراني.

— **التكاثر والنسل**: يحثون جماعتهم من النصارى على التكاثر، ويصبح ذلك أكثر وجوباً في المناطق التي لا يكونون فيها أكثرية.

— **النواحي الروحية**: لقد جاءت النصرانية في الأصل لتربية الوجدان، وتنمية النواحي العاطفية، داعية إلى الزهد وعدم محاولة الثأر، مستنكرة انخراط اليهود في المادية المفرقة، يقول إنجيلهم (من ضربك على خدك الأيمن فاعرض له الآخر، ومن أخذ رداءك فلا تمنعه ثوبك) لوقا ٦/٢٨ لكن تاريخهم مليء بالقتل وسفك الدماء.

— **صكوك الغفران**: وهو صك يغفر لمشتريه جميع ذنوبه ما تقدم منها وما تأخر، وهو يباع كأسهم الشركات، وقد يمنح الشخص بناء على هذا الصك أمتاراً في الجنة على حسب مقدار المبلغ الذي يقدمه للكنيسة.

— **المهرطقة ومحاربتها**: لقد حاربت الكنيسة العلوم والاكتشافات، والمحاولات الجديدة لفهم الكتاب المقدس، وصوبت سهامها إلى كل نقد، ورمت ذلك كله بالمهرطقة، ومحاربة هذه الاتجاهات بمنتهى العنف والقسوة.

الجدور الفكرية والعقائدية:

— **أساسها كتاب التوراة** الذي يسمونه العهد القديم، فقد انعكست الروح والتعاليم اليهودية من خلاله، ذلك أن النصرانية قد جاءت مكملة لليهودية، وهي خاصة بخراف بني إسرائيل الضالة، كما تذكر أناجيلهم.

— لقد أدخل أمنيوس المتوفى سنة ٢٤٢م أفكاراً وثنية إلى النصرانية، بعد أن اعتنق المسيحية وارتد عنها إلى الوثنية الرومانية.

— عندما دخل الرومان في الديانة النصرانية نقلوا معهم إليها أبحاثهم الفلسفية وثقافتهم الوثنية، ومزجوها بالمسيحية التي صارت خليطاً من كل ذلك.

— **لقب كانت فكرة التثليث** التي أقرها مجمع نيقية ٣٢٥م انعكاساً للأفلاطونية الحديثة، التي جلبت معظم أفكارها من الفلسفة الشرقية، لقد كان لأفلوطين المتوفى سنة ٢٧٠م أثر بارز على معتقداتهم، فأفلوطين هذا تتلمذ في الاسكندرية، ثم رحل إلى فارس والهند، وعاد بعدها وفي جعبته مزيج من ألوان الثقافات، فمن ذلك قوله: بأن العالم في تديره وتحركه يخضع لثلاثة أمور: المنشئ الأزلي الأول.

رأفة منه ورحمة بالإنسان، وتعطفنا منه على البشر بالاحسان، فأخذ من مريم العذراء جسداً، فنجسده به فصارا جميعا واحداً، وقالوا: ألا ترون الإنسان من روح وجسد، ثم هو يُدعى إنساناً باسم واحد، فترؤفهما وإن سُميا بالإنسان، فليس يقال لهما: إنهما في الانسانية اثنان، ولكن يقال: إنه إنسان واحد، وهو كما تعلمون روح وجسد. قالوا

العقل المنبثق عنه.

الروح التي هي مصدر تشعب منه الأرواح جميعاً.

وهو يضع بذلك أساساً للتثليث، إذ إن المنشئ هو الله، والعقل هو الابن، والروح هو الروح القدس. — تأثرت النصرانية بديانة متراس التي كانت موجودة في بلاد فارس قبل الميلاد بحوالي ستة قرون، والتي تتضمن تعاليمها قصة مثيلة لقصة العشاء الرباني.

— الهندوسية فيها تثليث وأقانيم وصلب للتكفير عن الخطيئة، وزهد ورهبة وتخلص من المال للدخول في ملكوت السموات، والإله لديهم له ثلاثة أسماء فهو (فشنو) أي الحافظ. وسيفا (المهلك). وبراهما (الموحد). وكل ذلك انتقل إلى النصرانية بعد تحريفها.

— البوذية التي سبقت النصرانية بخمسة قرون انتقلت بعض معتقداتها وأفكارها إلى المسيحية، وإن علم مقارنة الأديان يكشف تطابقاً عجباً بين شخصية بوذا وبين شخصية المسيح عليه السلام (انظر محمد أبو زهرة: محاضرات في النصرانية).

— عقيدة البابليين القديمة خالطت النصرانية، إذ أن هناك محاكمة لبعل إله الشمس، تماثل وتطابق محاكمة المسيح عليه السلام.

— نستطيع أن نقول بأن النصرانية قد أخذت من معظم الديانات والمعتقدات التي كانت موجودة قبلها، مما أفقدها شكلها وجوهرها الأساسي الذي جاء به عيسى عليه السلام من لدن رب العالمين.

الانتشار ومواقع النفوذ:

— تنتشر النصرانية اليوم في معظم بقاع العالم، وقد أعانها على ذلك الاستعمار والتنصير، الذي تدعمه مؤسسات ضخمة عالمية ذات إمكانات هائلة.

— لقد انتشرت الكاثوليكية بشكل كبير في إيطاليا وبلجيكا وفرنسا وأسبانيا والبرتغال.

— أما الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية فمعظم انتشارها في روسيا والبلقان واليونان، ومقرها الأصلي في القسطنطينية، ويتبعها عدد من الكنائس الشرقية المستقلة.

— أما الكنيسة البروتستانتية فمركز انتشارها ألمانيا والجنترأ والدانرك وهولندا وسويسرا والنرويج وأمريكا الشمالية. الموسوعة الميسرة/٤٩٩.

وكذلك المسيح الذي هو اجتماع اللاهوت والناسوت^(١) يسمى مسيحاً، وهو ابن الله الذي لم يزل أفما ترون هذا قولاً فيما ذكرنا وقسنا بيّناً صحيحاً.

وقالت النسطورية: إن الابن الذي لم يزل بمحبته نزل رافة وكرماً، فتجسّد من مريم عند نزوله جسداً كاملاً تاماً، بطبيعة وقنومية،^(٢) من إنسانية وآدمية، فكان المسيح طبيعتين وقنومين، بعد تجسده بالجسد تأمين. وقالوا: فنحن إذا رأينا يأكل ويشرب، ويحيى في الأرض ويذهب، وينصب ويشتكى، ويضحك ويكي، جعلنا ذلك كله، وما رأينا منه ومثله، من الناسوت وإذا^(٣) نحن رأينا يحيى الموتى، ويرى المرضى، ويمشي على الماء، جعلنا ذلك لللاهوت.

[المذهب الجامع للنصارى]

وقالت فرق النصارى كلها مع اختلافها، وافتراق قولها في أوصافها،^(٤) إن سبب نزول الابن الإلهي الذي نزل من السماء، رحمة للبشر ومحافظة على الرسل والأنبياء، قالوا من أجل خطيئة آدم فإنه لما أن^(٥) أخطأ، وأكل من الشجرة التي نهاه الله عنها فعصى، تراء الله تبارك وتعالى منه، وأسلمه إلى الشيطان باتباعه له. قالوا فكان في حيز الشيطان ودار ملكه، وكذلك زعموا كان معه فيها جميع ولده، يحكم فيهم الشيطان بما أحب من حكمه، قالوا وكان فيما ملك الشيطان من آدم ونسله، أنفس كثيرة من أنبياء الله ورسله، فمن تلك الأنفس نفس نوح ونفس إبراهيم، وغيرهما من أنفس الرسل والأنبياء، قالوا فتلطف الابن واحتال لاستخراج تلك الأنفس من يد الشيطان، فلبس لذلك ومن أجله جسداً آدمياً، ليكون بما لبس منه عن الشيطان خفياً، فتتكر

(١) اللاهوت: الإله، والناسوت: الناس.

(٢) في (أ) و (ب) و (ج): وقنومة.

(٣) في (ج) و (د): فإذا.

(٤) في (ج): أقوالها إن. وفي (د): أقوالها في أوصافها.

(٥) سقط من (ج) و (د): أن.

الابن بذلك له، لكي لا يحتسب الشيطان منه، فلا يُنفذ فيه مكره.

قالوا: فلما غلبت^(١) على الناس الخطية، وحلت بها^(٢) فيهم البلية، واستبان لآدم زعموا ما فعل الشيطان به، وما كان من غروره إياه وخديعته له، خدع عند تلك^(٣) الابنُ الشيطانَ بمكره، فبلغ فيه ما أراد من أمره، فاستخرج آدم وجميع ولده، من سلطان الشيطان ويده. قالوا وذلك كله فإنما كان الابن يبذل نفسه للصلب، ولما لقي من الأذى قبله والنصب، إحساناً من الابن^(٤) إلينا وكرماً، ورأفة من الابن بنا ورحماً^(٥).

قالوا: فاشترى الابن البشر من أبيه، بما وصل^(٦) من الأذى والصلب إليه، وذلك زعموا أن أباه لم يكن في حكمه وعدله، أن يظلم الشيطان ما جعل له من آدم وولده، إن صاروا إلى طاعة الشيطان وأمره، لأنه قال للشيطان فيما يزعمون من المقال: كل من اتبعك فهو لك.

قالوا: فلذلك اشترانا الابن من أبيه بالعدل، وغلب الشيطان على ما كان في يده منا بالمكر. فلما استخرج آدم ونفوس الرسل والأنبياء، صعد بعد فراغه من معاملة الشيطان إلى السماء، بعد أربعين^(٧) يوماً مرت به، بعد الذي كان من صلبه. قالوا: فجلس عن يمين أبيه تآماً بكليته وجسده وجميع ما فيه من اللاهوت والناسوت، وكل ما كان فيهما ولهما من النعوت.

قالوا: وسيترل أيضاً مرة أخرى، فيدين الأحياء والأموات عند فناء الدنيا. قالوا: ولذلك آمنا بالأب والابن وروح القدس. قالوا: والأب فهو الذي خلق الأشياء بابه،

(١) في (ج): غلب.

(٢) سقط من (ج) و (د): بها.

(٣) في (ج) و (د): ذلك.

(٤) في جميع المخطوطات: الابن. وأنا أعتقد أنها الأب. وإنما تصحفت والله أعلم.

(٥) في (ج): ورحمة.

(٦) في (أ) و (ب): وصل من ذلك من. وفي (د): وصل والصلب.

(٧) في (د): أربعين مرت بعد.

وحفظها بروح قدسه.

فهذا - فليعلمه من أراد علمه - جماع قول النصارى وما لبسوا من اللبس، في الأب والابن وروح القدس، وفي^(١) الأ قانيم والطبيعة، وما لهم في ذلك من المقالة البديعة، التي لم يقل بها قبلهم قائل، ولم يتنازع^(٢) فيها مجيب ولا سائل، وقولهم إن الثلاثة في موضع يوحدون، وفي موضع بعد التوحيد يثلاثون، وفي سبب نزول الابن زعموا من أجل^(٣) خطيئة آدم، وما قالوا به في ذلك من خلاف جميع الأمم، فلم نترك لهم بعد هذا من قول، يجعله منهم^(٤) إلا كل جهول.

[نقض مذاهب النصارى]

ونحن إن شاء الله مبتدئون فرآدئون، لباب فباب بما يقولون ويحددون، فليفهم ذلك من يريد مجادلته من أهل التوحيد والدعوة، فإننا مُقَدِّمُونَ إن شاء الله من ذلك باب الأبوة والبنوة.

فقائلون لهم، جميعا جوابهم^(٥): أخبرونا عن هذه الأسماء التي سميتكم؟ وادعيتكم من خرافات القول فيها ما ادعيتكم؟! من أب زعمتم وابن وروح قدس، لم يدل على شيء منه قياس ولا حاسة من الحواس الخمس، ما هذه الأسماء أسماء طبيعية ذاتية جوهرية؟! أم هي أسماء شخصية قنومية^(٦)؟! أم تقولون هي أسماء حادثة عَرَضِيَّة؟! فإنكم إن كنتم إنما^(٧) سميتكم الأب عندكم أبا، لأنه ولد بزعمكم ولدا وابنا، فليس هذه الأسماء طبيعية

(١) سقط من (ج): في.

(٢) في (ج): ولم ينازع.

(٣) سقط من (ج): أجل.

(٤) سقط من (ج): منهم.

(٥) سقط من (ج): جوابهم.

(٦) في (ج): اقنومية.

(٧) سقط من (ج) و (د): إنما.

ذاتية، ولا أسماء أيضا قنومية^(١) شخصية، ولكنها حادثة عرضية، عرضت^(٢) عند حدوث أولاد، بين الوالدين والأولاد، ولَسْن^(٣) بأسماء طبيعية ولا أقنوم، لا في الروم ولا في غير الروم.

والطبيعية فإنما تسمى بذاتها وطبائعها،^(٤) وبما يكمل ذلك كله لها من اجتماعها، لأننا بالأسماء المعلقة بالعلة المشتقة من الأفعال المعتملة أعرف،^(٥) لأن اسم الطبيعة غير اسم الأَقنوم، واسم القنوم^(٦) غير اسم الفعل المعلوم، واسم الطبيعة ثابت، لا اختلاف فيه ولا تفاوت، إنما هو اسم لها محدود موقَّف^(٧) لا ينصرف فيها ولا يختلف، فيدل على قنوم،^(٨) ولا فعل مفعول، ولكنه اسم الشيء نفسه، يدل عليه لا على جنسه، كالأرض والسماء، والنار والماء، وأشباه ذلك من الأسماء، التي تدل^(٩) على أعيان الأشياء، فهذه هي أسماء^(١٠) الذات والطبائع، لا أسماء الأَقانيم والصنائع.

فأما أسماء القنومية، التي ليست بطبيعية ولا عرضية، فمثل إبراهيم وموسى، وداود وعيسى، وليس في الأسماء الطبيعية، ولا في الأسماء الشخصية القنومية، أبوة ولا بنوة، ولا فعال^(١١) ولا قوة، إنما هي أسماء تدل على الأعيان، كالانسانية التي تدل على الانسان.

وفيما بينا - والحمد لله - من تحديدنا الذي حددنا في الأسماء، حجة لا يدفعها في

(١) في (ج): اقنومية.

(٢) سقط من (أ) و (ب) و (د): عرضت.

(٣) في (ج): فليس. وفي (د): وليست.

(٤) في (د) و (ج): بطبائعها وذاتها.

(٥) في (أ) و (ب) و (د): ترك فراغا بما يسع سبع كلمات، وقال في (أ): بياض في الأم. وفي (د): كذا.

(٦) في (ج): الأَقنوم.

(٧) في (ج): موقوف.

(٨) في (ج): أقنوم وعلى فعل. وفي (د): قنوم ولا مفعول.

(٩) في (ج) و (د): التي قد تدل.

(١٠) في (أ): فهذه من أسماء.

(١١) في (ج): ولا أفعال.

التسمية عندهم إلا من كان من أهل الجهل والعمى، لأن الأسماء عندهم للأشياء ثلاثة أسماء:

اسم جوهر كالأرض والسماء.

واسم قنوم، كفلان المعلوم.

واسم ثالث من عرضٍ وحدثٍ، يسمى به كل عارض^(١) محدث.

وزعمت الفرق الثلاث من النصارى - فنعوذ بالله من الجهل بالله^(٢) - أنها تجد فيما في أيديها من كتب الأنبياء أن المسيح بن مريم هو الله، وأنه هو ابن^(٣) الله، فجعلوا في قولهم هذا الابن أباه، ثم رجعوا فجعلوا الأب هو إياه،^(٤) غفلة وسهوا واختلافا، وعماية وتخرصا واعتسافا، تصديقا لقول الله فيهم وفي أمثالهم، ومن كان يقول من أهل الجهالة بمقاتلتهم، ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلَفٍ﴾  يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ  قَتَلَ الْخَرَّاصُونَ  الَّذِينَ هُمْ فِي عَمْرَةٍ سَاهُونَ  ﴿[الذاريات: ٨-١١]﴾.

وإنما أخذت النصارى وقبلت، هذه الكتب فيما زعمت وقالت، عندما صلب عندهم المسيح صلى الله عليه من اليهود، وليس أحد من خاصتهم ولا عامتهم عند النصارى بعدل ولا محمود، ولا تقبل شهادته على يهودي مثله، فكيف تقبل شهادتهم على الله تعالى وعلى رسله.

مع أن لما قالت النصارى من ذلك كله مخارج عندنا في التأويل صحيحة، لا يعنى عنها ولا عما بين الله منها إلا من لم يقبل فيها من الله بيانا ولا نصيحة، ولكن النصارى تأولت تلك الكتب بآرائها،^(٥) وعلى قدر موافقة أهوائها، فضلت في ذلك وما تأولت منه بعمى التأويل، وأضلت من اتبعها عليه عن سواء السبيل.

(١) سقط من (ج) و (د): عارض.

(٢) سقط من (ج): بالله.

(٣) في (ج): الله وهو ابن. وفي (د): الله وابن.

(٤) في (ج): الأب أباه.

(٥) في (ج): بآرائهم.

فيقال إن شاء الله لهم فيما تأ ولوه من ذلك وادعوا، وافتروا في ذلك على كتب الأنبياء وابتدعوا، مما لم يسبقهم إليه أحد، ولم يقل به قبلهم مفتر ولا ملحد: إنا لم ندرك نحن ولا أنتم الأنبياء ولا المسيح بن مريم، صلى الله عليه وسلم، ولم ندرك نحن ولا أنتم أحدا من حواريه، فنسأل من أدركنا منهم عما اختلفنا نحن وأنتم فيه، فتكتفوا^(١). بمن أدركتم من الأنبياء عليهم السلام في التأويل، ونجتمع نحن وأنتم على الحق فيما اختلفنا فيه من الأقاويل.

[قواعد للحوار]

ولا بد لنا ولكم من الانصاف، فيما وقع بيننا وبينكم من الاختلاف، فإن نحن تناصفنا ائتلفنا، وإن فارقنا التناصف اختلفنا، ثم لم نغد أبدا للائتلاف،^(٢) إلا بعودة منا إلى الانصاف. والتناصف هو الحكم العدل بعد الله بين المختلفين، والشفاء الشافي الذي لا شفاء أبدا في غيره للمتناصفين، فأنصفوا الحق من أنفسكم، تخرجوا بإذن الله بإنصافكم من ليسكم، وارفضوا للحق أهواءكم، تسعدوا في دينكم ودنياكم، وأقيموا ما أنزل إليكم^(٣) من التوراة والإنجيل، واتركوا الافتراء على الله فيها^(٤) بعمى التأويل، تهدوا إن شاء الله لقصد سبلكم، وتأكلوا كما قال الله من فوقكم ومن تحت أرجلكم، وافهموا قول العزيز الوهاب، فيكم وفي غيركم من أهل الكتاب: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦]، فكفى بهذا بيانا من الله في أهل الكتاب لقوم يعقلون.

(١) في (ج): فنكتفوا.

(٢) في (ج) و (د): أبدا إلى الائتلاف.

(٣) في (ب): إليكم من ربكم من. وفي (ج): إليكم ربكم في. وفي (د): الله إليكم من ربكم من.

(٤) سقط من (ج): فيها.

وليعلم مَنْ فَهِمَ منهم، أو من غيرهم، أن^(١) فيما ذكر الله لهم من المأكَل ومثله، آيةٌ عجيبَةٌ ظاهرةٌ لِمَنْ يفهمها بعقله، تدل على أنه لم يتركها إلا علام الغيوب، الذي لا يخفى عليه شيء من سرائر القلوب، لا سيما في النصارى^(٢) من أهل الكتاب، وما هم عليه من الحرص والكد والاكتساب، فإننا لم نر أمة من أهل الكتاب أرغب في المأكَل والمشرب، واكتناز الفضة والذهب، منهم خاصة دون غيرهم، معلوم ذلك من غنيهم و فقيرهم، ولذلك ما يقول الله سبحانه فيهم، وفي بيان ما قلنا به من ذلك عليهم: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤]. فرها هم إلا القليل و شمامستهم،^(٣) تعولهم أبداً أقوياءهم وضعفتهم. وليس من الرهبان ولا الشمامسة مَنْ تكلف في مطعمه ولا مشربه ولا كسوته ولا مصلحته كلفة، ومن كفاهم ذلك من عوامهم وضعفتهم فقد يرى ذلك قربة له عند من يعبدون وزلفة.

فأول ما يقال - إن شاء الله - لمن أراد الانصاف لنفسه منهم، وعند من تجري المجادلة فيما ادعوا من الكتب بين أحد من أهل التوحيد وبينهم^(٤)، يا هؤلاء: أنصفونا فيما ادعيتم من شهادات الكتب من أنفسكم، فلا تدعوا فيها ولا تأولوا فيها تأويلاً ملتبساً يزيدكم لبساً على لبسكم، فإن شئتم تأولتم الكتب وتأولنا، على ما قد قلتم وقلنا، ولنا من التأويل مثل مالكم، وقلنا فيه يخالف أقوالكم. فإن كان ذلك أحب إليكم، فافهموا فيه ما يدخل عليكم، فلنسا ندخل عليكم فيه، إلا ما نجتمع نحن وأنتم عليه.

أجمعنا نحن وأنتم جميعاً كلنا، قولكم مما قلنا به من ذلك قولنا، على أن أصدق الشهادات كلها وأعدلها، خمس شهادات يلزمنا وإياكم أن نقبلها:

(١) في (ج) و (د): ومن غيرهم. وسقط من (أ) و (د) و (د): أن.

(٢) في (أ) و (ب) و (د): لا سيما خاصة من النصارى.

(٣) الشمامسة: جمع شماس، من رؤوس النصارى الذي يحلق وسط رأسه ويلزم البيعة.

(٤) في (أ) و (د): بينه.

فأولها: زعمنا وزعمتم شهادة الله،

والثانية: فشهادة ملائكة الله.

والثالثة: فقول المسيح وشهادته.

والرابعة: فما شهدت به أمه ووالدته.

والخامسة: فشهادة الحواريين وما كانوا يقولون. فهذه خمس شهادات ليس منها ما تنكرون، وكلها فنحن وأنتم بها راضون، فيما ندعي في المسيح وتدعون.

فقد وجدنا ووجدتم في الأناجيل الأربعة شهادات مختلفة، كلها فيما عندنا وعندكم فقد^(١) أخطتم بها وأخطنا معرفة، فيما في الإنجيل الذي يُدعى عندكم إنجيلا مثل ما لا تنكرون من قوله، في أول ما وُضع من إنجيله: (هذا ميلاد يسوع المسيح بن داود)^(٢)، فهذه شهادته وهو من الحواريين على أن أبا المسيح داود، وأن المسيح ابنه وهو منه مولود، ول هذه الشهادة في الأناجيل الأربعة نظائر كثيرة، وفي ذلك حجة عليكم لا تدفع ظاهرة منيرة.

ومنها شهادة المسيح صلى الله عليه حواريه أنهم بنو الأب جميعا،^(٣) وأن الله أبوهم كلهم معا، وهذا يدل على أن تأويل الأبوة والبنوة، غير ما قلتم به فيها من الدعوة.

ومنها: شهادة المسيح أن الحواريين إخوانه^(٤) فإن شئتم فقولوا في نسب أو غير نسب، فلهم بذلك ماله بعد شهادته صلى الله عليه زعمتم أنه ابن الأب. ومنها: شهادة أمه صلى الله عليها، على أنه ابن يوسف جدها وأبيها^(٥).

(١) في (أ) و (د) و (ج): وقد أخطتم وأخطنا.

(٢) إنجيل متى/الإصحاح الأول.

(٣) نص الإنجيل هكذا: ولا تدعوا أبا على الأرض لأن أباكم الذي في السماوات. إنجيل متى ٩/٣٣.

(٤) نص الإنجيل هكذا: فأجاب وقال لهم: أمي وإخوتي هم الذين يسمعون كلمة الله ويعملون بها. إنجيل لوقا ٢١/٨.

(٥) نص الإنجيل هكذا: ولما أكملوا كل شيء حسب ناموس الرب، رجعوا إلى الجليل إلى مدينتهم الناصرة، وكان الصبي ينمو ويتقوى بالروح ممتلئا حكمة، وكانت نعمة الله عليه، وكان أبواه يذهبان =

ومنها قول فيلبس لسائل سأله، ^(١) إذ قال له عند مسأله عنه، هو ذلك الذي ذكره موسى في التوراة، ونسبه صلى الله عليه فيها وسماه، فقال: يسوع بن يوسف^(٢)، يعرف هذا منكم كل عارف.

ومنها أيضا: شهادة يحيى التي تدل على أن معنى البنوة والولادة، إنما هو معنى المحبة والولاية والعبادة، إذ يقول: أما أولئك الذين قبلوا قوله، وسلموا فيما سمعوا منه له، فلم يولدوا من اللحم والدم، ولا من مزاج المرة والبلغم، ولكنهم - زعم - من الله وُلدوا، وأعطوا من كرامة الله ما رضوا وحمدوا.^(٣) فتأويل هذا ومثله إن كان صدق فيه، فإنما هو على ما يصح أن يكون عليه، لا على ما يستحيل في الأبواب والعقول، ويفسد ويتناقض من القول في التأويل، من أن يكون الرب عبدا، و الوالد مع ولادته ولدا، وذلك أجهل الجهل، وفي ذلك المكابرة للعقل.

أما سمعوا قول الملائكة لمريم، صلى الله عليهم وعليها وسلم، عندما صاروا به من البشارة بولادتها، للمسيح ابنها: (تلدِين ابنا)^(٤) ولم يقولوا: تلدين ابن الله، وقالوا: (يدعا

كل سنة إلى اورشليم في عيد الفصح، ولما كانت له اثنتاء عشرة سنة صعدوا إلى اورشليم كعادة العيد، وبعد ما أكملوا الأيام بقي عند رجوعهما الصبي اليسوع في اورشليم ويوسف وأمه لم يعلما، وإذ ظنناه بين الرفقة، ذهبنا مسيرة يوم وكان يطلبانه بين الأقرباء والمعارف، ولما لم يجدها رجعا إلى اورشليم يطلبانه، وبعد ثلاثة أيام وجداه في الهيكل جالسا في وسط المعلمين يسمعون ويسألهم، وكل الذين سمعوه بهتوا من فهمه وأجوبته، فلما أبصراه اندهشا وقالت له أمه يا بني لماذا فعلت بنا هكذا؟ هو ذا أبوك وأنا كنا نطلبك معذبين، فقال لهما: لماذا كنتما تتطلباني؟ ألم تعلما أنه ينبغي أن أكون في ما لأبي. لوقا. ٣٩/٢. ٥٠.

- (١) في جميع المخطوطات: فيلبس. وسقط من (ج) و (د): سأله.
- (٢) نص الإنجيل هكذا: وجد ثنائيل وقال له: وجدنا الذي كتب عنه موسى في الناموس والأنبياء، يسوع بن يوسف الذي من الناصرة. يوحنا. ٤٥/١. ٤٦.
- (٣) نص الإنجيل هكذا: (إلى خاصته جاء، وخاصته لم تقبله، وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطانا أن يصيروا أولاد الله، أي المؤمنون باسمه الذين ولدوا ليس من دم ولا من مشيئة جسد، ولا من مشيئة رجل بل من الله). إنجيل يوحنا (١٢ — ١٣) الإصحاح الأول. ويوحنا هو يحيى.
- (٤) إنجيل متى (١ — ٢٢) بلفظ: و تلد ابنا.

يسوع ويكون عليا عظيما بالله، ويرث كرسي أبيه داود^(١) فلو كان كما يقولون لقالت الملائكة: تلدين ابن الله ويكون منك مولودا، فكان أعظم في القدر والخطر، من أن يقال: ابن البشر.

وكذلك قال الملك ليوسف زعمتم بعلمها، عندما أراد لما ظهر من حملها، من تطبيقه لها وتخليته لسبيلها: (يا يوسف بن داود لا تُخَلِّ سبيل امرأتك فإن الذي بها من روح الله، وهو يدعا يسوع، وبه يحيي الله شعبه من خطاياهم بإذن الله^(٢)).

ومما زعموا فأعرفوه أنه دلهم، وشهد على ما ادعوا لهم، واعتقدوا من ضلال أقاويلهم، قول الله زعموا في إنجيلهم، في المسيح بن مريم، صلى الله عليه وسلم: (هذا ابني الحبيب الصفي)^(٣). وقول سمعان^(٤) الصفا له: (أنت ابن الله الحق)^(٥).

وما ذكروا من هذا إن صح ومثله، مما يدعون على الله وعلى رسله، فقد يوجد له تأويل، لما قالوا مبطل مزيل، لا ينكرونه ولا يدفعونه، ولا يكذبون من خالفهم فيه ولا ينازعونه.

(١) نص الإنجيل هكذا: وفي الشهر السادس أرسل جبرائيل الملاك من الله إلى مدينة من الجليل اسمها ناصرة، إلى عذراء مخطوبة لرجل من بيت داود اسمه يوسف. واسم العذراء مريم. فدخل إليها الملاك، فقال سلام لك أيتها المنعم عليها. الرب معك. مباركة أنت في النساء. فلما رآته اضطربت من كلامه وفكرت ما عسى أن تكون هذه التحية. فقال لها الملاك: لا تخافي لأنك قد وجدت نعمة عند الله. وهما أنت ستحبلين وتلدن ابنا وتسمينه يسوع. هذا يكون عظيما. وابن العلي يدعا ويعطيه الرب الإله كرسي داود أبيه. ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد ولا يكون للملكه نهاية. لوقا ١/٢٦-٣٣.

(٢) نص الإنجيل هكذا (ولكن فيما هو متفكر في هذه الأمور، إذ ملاك الرب قد ظهر له في حلم قائلا: يا يوسف بن داود لا تخف أن تأخذ امرأتك، لأن الذي حبل به فيها هو من الروح القدس فستلد ابنا وندعوا اسمه يسوع، لأنه يخلص شعبه من خطاياهم وهذا كله كان لكي يتم ما قيل من الرب بالنبي القائل. (إنجيل متى ١/٢١-٢٢).

(٣) نص الإنجيل هكذا: (هذا هو ابني الحبيب الذي سررت به). إنجيل متى ١٧/٣. وإنجيل لوقا ٣/٣٢.

(٤) في (د): شمعان.

(٥) نص الإنجيل هكذا قول سمعان: فأجابه سمعان: بطرس يا رب إلى من تذهب، كلام الحياة الأبدية عندك، ونحن قد آمنّا وعرفنا أنك أنت المسيح بن الله الحي. إنجيل يوحنا ٦/٦٨-٧٠. وإنجيل متى ١٦/١٦.

فمن ذلك ما هم عليه وغيرهم مجمعون، لا يختلفون فيه كلهم ولا يتنازعون، من أن ملائكة الله، ومن مضى من رسل الله، لم يُسبَّح المسيح قط ولم يعبد،^(١) ولم يزعم أحد منهم أن الله ولده.

ومن تأويل ما ذكروا من الولد والابن، في زمن المسيح وكل زمن، أن الناس لم يزالوا يدعون ابنا وولدا من تبنا وأحبوا وحظي عندهم، وإن لم يكن على طريق التناسل ولدهم، ثم لم يزل ذلك لديهم معروفا، قديما وحديثا، ولا سيما في القدماء، من أهل العلم والحكماء، فكان الحكميم منهم يقول: يا بني لمن علّمه، ويدعو المتعلّم باسم الأبوة مُعلّمه، فيقول: قد قلتَ وقلنا يا أبانا، وربما قال أحدهم: يا أبت أما ترانا. قال بعضهم:

آباء أرواحنا الذين هم همُ أخرجونا من منزل التلف

من علّم العلم كان خير أب ذاك أبو الروح لا أبو النطف^(٢)

وذلك والحمد لله في الأمم كلها فأوجد موجود، يقوله الرحيم منهم لمن ليس بابن له مولود^(٣).

ومن ذلك ما كان يقول المسيح صلى الله عليه، كثيرا لا تنكره النصارى لحواريه: (إذ هبوا بنا إلى أبينا، وقلوا: يا أبانا أنزل من سماءك طعامك علينا)^(٤). ومن ذلك قوله لهم، صلى الله عليه وعليهم: (قلوا: يا أبانا تقدس اسمك، لتزل في

(١) في (ب) و (ج): لم يسبحوا المسيح. قط ولم يعبدوه.

(٢) لم أقف على البيتين فيما لدي من مصادر الأدب.

(٣) نص الإنجيل هكذا: وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطانا أن يصيروا أولاد الله، أي المؤمنون باسمه. يوحنا. ١٣/١٢. ومما يؤكد معنى الأبوة بالمعنى الذي قاله الإمام قول يسوع عليه السلام. قال يسوع: ولكن اذهبي إلى إخواني وقولي لهم إني أصعد إلى أبي وأبيكم. وإلهي وإلهكم. يوحنا. ١٧/٢٠.

(٤) نص الإنجيل هكذا: لتكن مشيقتك كما في السماء كذلك على الأرض، خبزنا كفافنا أعطنا كل يوم. إنجيل لوقا ١١/٣. وإنجيل متى ٩/١٢.

الأرض ملكوتك وحكمك^(١).

فهل يتوهم أحد أنه أب من الآباء يلد وينسل ويتغير ويتغذى؟! أو يصل إليه صلب أو نصّب أو أذى؟! لا بحمد الله وكلا! وتبارك ربنا عن ذلك وتعالى! ولكنّه أرحم بنا وألطف، وأعطف علينا وأرأف، من الآباء كلهم والأمهات، ومن أنفسنا فيما يهمننا من المهمات.

وقد ذكر عن بعض الحكماء، ممن مضى من أوائل القدماء، أنه كان إذا أخذ في التسبيح لله والذكر، قال: الله الذي هو في ذاته محب للبشر. وإنما يراد بالحبّة لهم، الرأفة والرحمة بهم.

وكذلك قال الرحمن الكريم: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣]. فمّن أرأف بهم وأرحم؟! وأعطف عليهم وأكرم؟! ممّن خلقهم مبتدئاً فسوّاهم؟! وأعطاهم من نعمه ما أعطاهم؟! ثمّ دلّهم تعالى على الهدى، ^(٢) وبَيّن لهم الغيّ والردى. لا ممّن بحمد الله وفضله! فنستمتع^(٣) الله بالنعم في ذلك كله.

ومما يحتج به على من كفر منهم بربه جهلاً وبجانة،^(٤) قول المسيح بن مريم لهم فيما زعموا من إنجيلهم أبانه^(٥): (أنا ابنه وهو أبي)^(٦) وقوله: (جئتكم من عند أبي، وما سمعت عنده فهو ما أكلمكم به، وأنتم لو كنتم منه لقبلتم ما جئتكم به من أمره، ولكنكم من الشيطان وأنتم بنوه، ولذلك قبلتم قوله فلم تخالفوه، وإنما أنتم بنو الخطيئة والشيطان أبوها، وأنتم صاغرون لطاعتكم له فبنوها. فقالوا: نحن بنو إبراهيم، ورموه

(١) نص الإنجيل هكذا: فقولوا أبانا الذي في السماء للّيتقدس اسمك، ليأت ملكوتك لتكون مشيئتكم كما في السماء كذلك على الأرض. إنجيل لوقا ١١/٣. وإنجيل متى ٦/٩ ١٢.

(٢) في (أ): دهم بعد ذلك على. وفي (د): دهم على.

(٣) أي: نسأله أن يمتعنا بالنعم.

(٤) المجانة: الجون.

(٥) سقط من (ج): أبانه.

(٦) نص الإنجيل هكذا: فالذي قدسه الأب وأرسله إلى العالم، أتقولون له إنك تجدف لأني قلت إني ابن الله. يوحنا ١٠/٣٦.

بالبهتان العظيم. فقال: لستم بولد إبراهيم ولا بنيه، لو كنتم ولده لعلمتم بما يرضيه، ولكنكم بنو الشيطان والخطيئة.

أخبروني هل منكم من يرجي الله لمعصيته؟ فعلام تريدون قتلي؟! ولم لا تقبلون قولي؟! لو عملتم بطاعة الله، إذن لكنتم أبناء الله^(١).

فجعل كما ترون الله أبا لمن أطاعه وأرضاه، وجعل الشيطان أبا لمن أطاعه واتبع هواه، فكفى بهذا حجة دامغة، وشهادة قاطعة بالغة، على من تأول من النصارى الأبوة والبنوة على ما تأولوها عليه، وما قلنا به من هذا كله فهم كلهم مقرون به في إنجيلهم لا يختلفون فيه^(٢).

فإن لم تكن الأبوة والبنوة إلا على ما قالوا، لزمهم أن يتأولوا كل ما في إنجيلهم من الأبوة والبنوة بما تأولوا، فقد يقرون كلهم من ذلك في إنجيلهم، بما سنذكره مع ما ذكرنا إن شاء الله من أقاويلهم.

زعموا أن فيها، وفيما يضيفونه إليها: ((أن المسيح خرج من القرى وتنحى، وصام في البرية أربعين صباحاً، لم يأكل فيها طعاماً، ولم يشرب فيها شراباً، فجاءه

(١) نص الإنجيل هكذا: فأجابه يسوع قائلاً: (الحق الحق أقول لكم إن كل من يقترف الخطيئة هو عبد للخطيئة، والعبد لا يملك في البيت إلى الأبد، وأما الابن فيملك إلى الأبد، فإن حرركم الابن تصيروا بالحقيقة أحراراً، أنا عالم أنكم ذرية إبراهيم، ولكنكم تبتغون قتلي، لأن كلامي لا مقر له فيكم، أنا أتكلّم بما رأيت لدى أبي، وأنتم تعملون بما سمعتم من أبيكم، فأجابوا وقالوا له: (أبونا هو إبراهيم). فقال لهم يسوع: (لو كنتم أبناء إبراهيم لكنتم تعملون أعمال إبراهيم، ولكنكم الآن تبتغون قتلي، وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعته من الله، وهذا ما لم يفعله إبراهيم، إنكم تعملون أعمال أبيكم). فقالوا له: (إننا لم نولد من زنى، وإنما لنا أب هو الله وحده)، قال لهم يسوع: (لو كان الله أبائكم لأحببتموني، لأنني من الله خرجت وأتيت، فأنا لم آت من نفسي وحدي، وإنما هو الذي أرسلني، لماذا لا تفهمون كلامي؟ لأنكم لا تستطيعون أن تستمعوا إلى ما أقول، إنكم أنتم من أب هو إبليس، وشهوات أبيكم تبتغون أن تتمموا ذلك الذي كان منذ البدء قتالاً للناس، ولم يثبت على الحق قط، لأنه ليس فيه من الحق شيء، متى تكلم بالكذب فإنما يتكلم بما عنده، لأنه كذاب وأبو الكذب، وأما أنا فلائي أقول لكم الحق لا تؤمنون بي، من منكم يستطيع أن يثبت عليّ خطيئة؟ فإن كنت أقول لكم الحق، فلماذا لا تصدقوني؟. يوحنا. ٨/٣٤ ع. ٤٧.

(٢) سقط من (أ) و (د): فيه.

إبليس في صومه ومنتحاه، فعرض عليه جميع زهرة الدنيا وأراها إياه، فلما رأى المسيح ذلك كله، سأله إبليس أن يسجد له سجدة واحدة، على أن يعطيه من ذلك كل ما أراه، فلغنه المسيح وأخزاه، وقال: لا يصلح السجود لغير الله، اخس^(١) إليك يا عدو الله، قال إبليس — زعموا له، عندما جرى من القول بينه وبينه — فالיום لك أربعون يوما، لم تشرب شرابا ولم تطعم طعاما، فادع الله إن كنت له حبيبا، أن يجعل لك هذه الحجارة فضة وذها، فقال له: ألم تعلم يا لعين أن كلام الله يكفي من اكتفى به من أحب كل طعام وشراب^(٢).

ومن كلام الله الذي ذكر صلى الله عليه ما نزل لا شريك له من كل كتاب، وزعموا في أناجيلهم أن الله أوحى إلى يوسف بعل مريم، بعد ولادتها للمسيح. بما الله به أعلم، ((أن انطلق بالصبي وأمه إلى مصر فأقم بها أنت ومريم وابنها حتى أبين لك موت هيردوس - وهو ملك من ملوك الروم كان ملكا على بني إسرائيل - فإنه يريد قتل عيسى ودماره، فرحل يوسف بمريم وابنها ليلا، وأتم الله زعموا بما كان من ذلك من أمره ببعض ما أوحى إليه من^(٣) كتب رسله إذ يقول سبحانه: من مصر دعوت صفيي^(٤).

(١) في (ج): حاشا.

(٢) في إنجيل متى: (ثم أصدع يسوع إلى البرية من الروح ليحرب من إبليس، فبعدما صام أربعين نهارا وأربعين ليلة جاع أخيرا فتقدم إليه المهرب وقال له: إن كنت ابن الله فقل أن يصير هذه الحجارة خبزا فأجابته وقال: مكتوب ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان بل بكل كلمة تخرج من فم الله، ثم أخذه إبليس إلى المدينة المقدسة وأوقفه على جناح الهيكل وقال له: إن كنت ابن الله فاطرح نفسك إلى أسفل، لأنه مكتوب أن يوصي ملائكته بك، فعلى أياديهم يحملونك لكي لا تصدم بحجر رجلك، قال له يسوع: مكتوب أيضا لا تجرب الرب إلهك، ثم أخذه إبليس إلى جبل عال جدا وأراه جميع ممالك العالم ومجدها، وقال له: أعطيك هذه جميعها إن خررت وسجدت لي، حينئذ قال له يسوع: اذهب يا شيطان لأنه مكتوب للرب إلهك تسجد وإياه وحده نعبد) إنجيل متى (١١/٤-١١). وإنجيل لوقا ١١/٩.

(٣) في (أ): في بعض ما أوحى. وفي (ج): أوحى إليه في بعض.

(٤) في (أ): في مصر. وفي إنجيل متى (وبعدما انصرفوا إذا ملاك الرب قد ظهر ليوسف في حلم قائلا: قم

وقالوا في إنجيلهم: (فلما مات هيردوس أوحى الله إلى يوسف أن قد مات فانطلق بعيسى وأمه إلى أرض إسرائيل^(١)) وزعموا أن هذا كله موجود عندهم فيما في أيديهم من الإنجيل، وأنه لما قدم بهما يوسف سمع أن كيلادوس ملك من اليهود بعد أبيه، ما كان يملك أبوه، ففزع لعيسى وأشفق عليه، فأوحى الله تبارك وتعالى إليه: (أن امض إلى جبل الجليل فكن فيه، فخرج حتى نزل منه في مدينة يقال لها: ناصرة). تصديقا لما أوحى الله به قديما في بعض كتبه.

وفيما ذكر من عيسى وأمره في أنه: ((يكون ويدعا ناصريا))،^(٢) وبذلك يرى ويدعا كل من تنصّر نصرانيا.

فلما كبر عيسى وظهر^(٣) في أيام يحيى، وكان يحيى صلى الله عليهما ممن أجابه وصار إليه، فأمره بالتطهر^(٤) والاعتسال في نهر الأردن، وكان ذلك تطهرة من الخطايا لمن تاب وآمن، فقال فيما زعموا من إنجيلهم: (أنا أطهركم كما ترون بالماء والذي يأتيكم على أثري، هو^(٥) أكرم على الله مني، وهو الذي يجعل الله به^(٦) المذرة، فلا يودع خزائنه إلا الحبوب المطيبة المنقاة، وما بقي بعد ذلك من الغرابلة والتبن، وما

وخذ الصبي وأمه واهرب إلى مصر وكن هناك حتى أقول لك، لأن هيرودس مزع أن يطلب الصبي ليهلكه، فقام وأخذ الصبي ليلا وانصرف إلى مصر وكان هناك إلى وفاة هيرودس، لكي يتم ما قيل من الرب بالنبي القائل من مصر دعوت ابني) في (متى ١٣/٢ — ١٤).

(١) نص الإنجيل هكذا: (فلما مات هيرودس إذا ملاك الرب قد ظهر وحلم ليوسف في مصر قائلا: قم وخذ الصبي وأمه و اذهب إلى أرض إسرائيل). إنجيل متى ١٩/٢ — ٢٠.

(٢) في (أ) و (د): ناصرا. وفي إنجيل متى (ولكن لما سمع أن أرخيلالوس ملك على اليهودية عوضا عن هيرودس أبيه، خاف أن يذهب إلى هناك، وإذ أوحى إليه في حلم: انصرف إلى نواحي الجليل، وأتى وسكن في مدينة يقال لها ناصرة، لكي يتم ما قيل بالأنبياء أنه سيدعى ناصريا). إنجيل متى ٢٢/٢ — ٢٣.

(٣) سقط من (أ) و (ب) و (د): وظهر.

(٤) في (أ) و (د): بالتطهرة. وفي (د): بالتطهر.

(٥) في (ج): فهو.

(٦) في (ج): يجعل الله بيده المذرة.

ليس بذى قيمة ولا ثمن، يحرق بالنار التي لا تخمد، حيث يبقى التحريق ويخلد^(١).

فلما سمع عيسى بأخبار يحيى صلى الله عليهما وعلى جميع النبين، وما يصنع من تطهيره للمؤمنين، (أقبل إلى يحيى من جبل الخليل^(٢) ليصبغه بالماء ويطهره، فكره يحيى عليه السلام مجيئه لذلك - زعموا^(٣) - وأمره، وقال له يحيى عليه السلام: بي إليك فاقة، وتجيء إلي أنت تطلب الطهارة، فقال عيسى، صلى الله عليه وعلى أخيه يحيى: دعنا الآن من هذا فإنه هكذا ينبغي لنا أن نستتم خلال البر كلها، أوكل ما قدرنا عليه منها، فتركه يحيى حينئذ فاغتسل، وعمل في^(٤) ذلك ما أراد أن يعمل^(٥).

(ثم سمع بقتل اليهود ليحيى فانطلق إلى أرض الخليل^(٦) فسكن في كفر ناحوم يتفياً من حد زبولون^(٧)). (وتم أوحى الله - زعموا - فيه^(٨) إلى شعيب^(٩) صلى الله عليه، في مضير عيسى من زبولون إلى ما صار إليه، وكان في مضيره إليها ومقامه بها سيارا يسىح في أرض الخليل، ينشر^(١٠) ويعلم ما يجب لله كل جيل وقبيل، ويرى كل مرض

(١) نص الإنجيل هكذا: (أنا أعمدكم بماء التوبة ولكن الذي يأتي بعدي هو أقوى مني الذي لست أهلا أن أحمل حذاءه هو سيعمدكم بالروح القدس وناره الذي رفشه في يده وسيفي يدره ويجمع قمحه إلى المخزن وأما التبن فيحرقه بنار لا تطفأ). إنجيل متى ١١/٣ - ١٢ وإنجيل لوقا الإصحاح الثالث ١٦ ١٨.

(٢) في (ج): الخليل.

(٣) سقط من (ج) و (د): زعموا.

(٤) في (ج): فاغتسل وعمل من ذلك.

(٥) نص الإنجيل هكذا: حينئذ جاء يسوع من الخليل إلى الأردن إلى يوحنا ليعتمد منه، ولكن يوحنا منعه قائلاً: أنا محتاج أن أعتمد منك وأنت تأتي إلي، فأجاب يسوع وقال له: اسمح الآن لأنه هكذا يليق بنا أن نكمل كل بر، حينئذ سمح له، فلما اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء. إنجيل متى الإصحاح الثالث ١٣ ١٧.

(٦) في (أ) و (ب) و (د): إلى أرض الخليل.

(٧) نص الإنجيل هكذا: ولما سمع يسوع أن يوحنا أسلم انصرف إلى الخليل وترك الناصرة، وأتى فسكن في كفر ناحوم التي عند البحر في تخوم، زبولون وفتاليم. إنجيل متى الإصحاح الرابع ١٢ ١٤.

(٨) سقط من (ج): فيه.

(٩) في (ج): إلى شعيب النبي.

(١٠) في (أ) و (د): في أرض الخليل. وفي (د): ينشر.

ووجع في^(١) بني إسرائيل، حتى سُمع بفعاله، وتبشيره ومقاله، في كل ناحية وأرض، وأُتي بكل ذي وجع ومرض، من البرصى والمجانين، والكُمه والمقعدين، فأبرأهم بإذن الله من أمراضهم المختلفة الهائلة، وانطلقت على إثره جموع كثيرة من كل قبيلة، من أرض الجليل،^(٢) ومن المدائن العشر وأهل بيت المقدس ومن عبر الأردن^(٣).

[وصايا المسيح عليه السلام]

(فلما رأى عيسى صلى الله عليه تلك الجموع وما اجتمع منها إليه، صعد على جبل مرتفع فارتفع عليه، ليسمع قوله كل من اجتمع فلما علا قعد عليه^(١) أدنى منه حوار يه، ثم قال: طوبى بالروح عند الله غدا للمساكين ذوي التقوى، كيف يكون ثوابهم في ملكوت الله ودار الإقامة والمثوى، طوبى للمحزونين على خطاياهم في الدنيا، كيف يغفر الله لهم خطاياهم غدا، طوبى للمتواضعين لله كيف يرثون أرض الله، طوبى للحياء العطاش في الله بالبر، كيف يشبعون ويروون في يوم البعث والحشر، طوبى للرحماء في الله، كيف يفوزون برحمة الله، طوبى للنقية قلوبهم، إذا نظروا إلى ربهم، كيف يصنع غداً بهم، وكيف ينتفعون عنده بكسبهم، طوبى لعمال السلام لله، كيف يُدعون أصفياء الله، طوبى للذين يُطردون لأعمال البر، كيف يملكون في ملك السماء إلى آخر الدهر.

ثم قال صلى الله عليه، لمن أجابه والحوار يه: طوبى لكم إذا أتمم غيرتم وطُردتم في

(١) في (ب) و (د): من.

(٢) في (أ) و (ج): أرض الجليل.

(٣) نص الإنجيل هكذا: وكان يسوع يطوف كل الجليل يعلم في مجامعهم ويكرز ببشارة الملكوت، ويشفي كل مرض وكل ضعف في الشعب، فذاع خبره في جميع سورية، فأحضروا إليه جميع السقام المصابين بأمراض وأوجاع مختلفة، والمجانين والمصروعين والمفلوجين فشفاهم، فتبعته جموع كثيرة من الجليل، والعشر المدن وأورشليم واليهودية، ومن عبر الأردن. إنجيل متى الإصحاح الرابع/ ٢٣ ٢٥.

(٤) في (أ) و (ب) و (د): فلما صعد عليه. وفي (ج): عليه ثم أدنى.

وعليّ، وقيل لكم قول السوء والكذب من أجلي، عندها فليعظم فرحكم لما عظم الله في السماء من نوركم، وذخر عند الله في الآخرة لكم^(١) من أجوركم، فإن تُظلموا فقبلكم ما^(٢) ظلمت الرسل والأنبياء، أو يكذب عليكم فمن قبل ما قيل على الله الكذب والافتراء، أنتم ملح الأرض فإذا أتن الملح فيم يُملح، فحيث لا يصلح إلا أن يُرمى به ويُطرح، فيكون شيئا ملقى، وتراب أرض يوطأ، أنتم نور العالم^(٣) الذي لا يخفى على من يبصر ويرى، وهل تستطيع مدينة ظاهرة على جبل أن تخفى أو تتوارى، وهل يُسرج السراج فيحمل^(٤) تحت الأغطية، لا ولكن يحمل فوق المنارة العالية، لكي ينير فيضيء، ويظهر فلا يختفي، وكذلك أنتم تنيرون للناس بنوركم المضيء، لينظروا عيانا إلى عملكم الرضي، لتحمدوا الله ربكم الذي زكاكم، وأعطاكم من توفيقه ما أعطاكم، ألا ولا يظن أحد أني جئت لدفع التوراة والإنجيل والأنبياء، ولا لنقض شيء جاء عن الله من جميع الأشياء، ولكني جئت لتمام ذلك كله، ولتصديق جميع ما أمر الله فيه ورسله،^(٥) بل أقول لكم قولاً حقاً، وأنبياءكم نبأ فافهموه صدقاً، أنه لا تُغيّر من آيات الله كلها آية ولا تنتقض، إلى أن تتغير وتفتن السماوات والأرض، ومن نقض من آيات الله آية، أو غيّر من أصغر وصاياه وصية، فعلمها أحدا من الناس مبدلة مغيرة، صغيرة كانت الآية والوصية أو كبيرة، دعي في ملكوت الله خسيساً ناقصاً، ومن علمها كما أنزلت كان في الآخرة تاماً خالصاً.

وحقاً أقول لكم: لئن لم تكونوا من الأبرار، ويكن بركم أفضل من بر الكتبة والأحبار، لا تدخلون غداً في ملكوت الله الغفار. ألا وقد سمعتم^(٦) في التوراة ألا تقتلوا النفس المحرمة،^(٧) ومن قتلها فقد استوجب في الدنيا العقوبة المؤلمة، وأنا فإني أقول

(١) سقط من (أ): لكم.

(٢) ما، زائدة معروفة في لغة الإمام.

(٣) في (أ) و (ب) و (د): العلم.

(٤) سقط من (أ) و (ب) و (د): فيحمل.

(٥) سقط من (أ) و (ب) و (د): ورسله.

(٦) في (ج): سمعتم أن قيل في.

(٧) في (ج): النفس المحرمة.

لكم: إن من قال لأخيه، كلمة قبيحة تؤذيه، فقد استوجب العقوبة، إلا أن يحدث لله منها توبة، ومن قال لأخيه ليعيره: إنك لأرغل لم تحتتن، فقد استوجب في الآخرة نار جهنم، بل من قرب منكم قربانه على المذبح وأدناه وقربه^(١) ليزججه، ثم ذكر أن أخاه واجد عليه فليذع قربانه وليذهب إلى أخيه فيصالحه.

ألا وقد قيل في التوراة: لا تكذبوا إذا حلفتكم، ولكن اصدقوا إذا حلفتكم بالله وأقسمتم، وأنا فإني أقول لكم: لا تحلفوا بشيء من الأشياء، ولا تقسموا طائعين بقسم ولا إيلاء،^(٢) لا تحلفوا بالسماة التي هي^(٣) مكان كرسي الله، وفيها يكون ملائكة الله، ولا بالأرض التي هي منزل رحمة الله وآياته،^(٤) ولا بحياة شيء، ولا برأس آدمي، ولكن ليكن كلامكم نعم^(٥) وكلا، فيما تقولون وبلى، وما كان سوى ذلك فهو من السوء، [والقول الباطل] والهزوء، ومن سأل أحدكم شيئا، فليعطه وإن كان نفيسا عليا^(٦).

ألا وقد سمعتم أن قيل: أحبوا أولياءكم، وأبغضوا من الناس أعداءكم، وأنا أقول لكم أحبوا في الله أعداءكم، وبرُّكوا منهم على من لعنكم وآذاكم، وأحسنوا منهم إلى مبغضيك، وصلوا منهم من يؤذيك، لكي تكونوا من أصفياء الله، ولتفوزوا بالكرامة والرضا من الله، الذي يُطلع شمسَه على المتقين والفجرة، ويترل أمطاره على الظالمين والبررة، فإن كنتم إنما تحبون من يحبكم، فأى أجر حينئذ لكم، أوليس المكسة والعشارون، كذلك فيما بينهم يفعلون.

ألا ولا ترآوا الناس بالصدقة والزكاة، ولا بما تصلونه لله من الصلاة، فتحبطوا أعمالكم في ذلك لله بالرياء، وتوفوا أجرها في عاجل هذه الدنيا، ولكن لتكن

(١) سقط من (ج): وقربه.

(٢) في (ج): بقسم ولا إيلاء.

(٣) سقط من (ج): هي.

(٤) لعل هنا سقطا.

(٥) في (ج) و (د): زيادة: نعم ولا.

(٦) في (ج): غليا.

صدقتم الله فيما بينكم وبين الله خفية وسرا، فإن الله الذي يرى سركم هو يجعلها لكم علانية جهرا، وإذا كنتم في صلاة لله أو خشوع، فلا تقوموا بذلك في السكك والجموع، كالمرآئين للناس بما هم فيه لذلك من حالهم، فحقا أقول لكم لقد توفى أولئك جزاء أعمالهم..

وإذا صليتم فلا ترفعوا أصواتكم ودعاءكم طلبا للرياء، فإن الله يعلم قبل أن تسألوه ما تحتاجون إليه من الأشياء، ولكن إن صليتم فلله وحده فصلوا، وإذا حكمتكم في أرضه بحكم فاعدلوا، وقولوا ربنا الذي في السماء تقدس اسمك وحكمتك، وعظم ملكك وجبروتك، أظهر حكمك في أرضك كما أظهرته في سمائك، وارزقنا طعام فاقة يومنا، واغفر لنا سالف جرمنا، كما تغفر لمن ظلمنا، واعف عنا برحمتك وإن أجرمنا، ولا تبتلنا ربنا بالبلاء، وخَلِّصنا من مكاره الأسواء، فإن لك الملك والقدرة، ومنك الحكم والمغفرة، أبد الآبدين، ودهر الدهرين.

واعلموا أنكم إن غفرتم للناس ما بينهم وبينكم، فإن الله سبحانه يغفر لكم، وإذا صمتم فلا تغيروا وجوهكم، ليعلم الناس صومكم، ولكن إذا صمتم فاغسلوا وجوهكم وادهنوا رؤوسكم، لكيما^(١) لا يعلم الناس صومكم، فإن الله الذي صمت له سرا، هو يجزيكم بصومكم علانية جهرا.

ألا ولا تخزنوا خزائكم، ولا تجعلوا في الأرض ذخائرکم، فإن ما في الأرض يفسده السوس وتأكله الأرضة، وتعرض له الآفات وتنااله السرقة، ولكن اخزنوا خزائكم، واجعلوا ذخائرکم في السماوات العلى، حيث لا يفسد منها شيء ولا يبلى، بسرقة ولا آفة معترضة، ولا يناله أكل سوس ولا أرضة، فحقا أقول لكم: أن حيث تكون خزائكم وذخائرکم، فهناك^(٢) تكون قلوبكم وضمائرکم.

واعلموا أن سراج الجسد العين فإن كانت العين نيرة مضیئة كان الجسد نيرا مضیا، وإن كانت العين عمية مظلمة كان الجسد مظلمًا عميًا، وإذا كان النور الذي

(١) في (أ): لكي لا.

(٢) في (أ) و (ب) و (د): هنالك.

فيكم مظلما لا يبصر ولا يعلم، فكم^(١) ترون ظلمة حوآسكم وقلوبكم أعمى وأظلم. واعلموا أن الله لم يجعل لأحد في جوفه من قلبين، وأنه لا يستطيع أحد منكم أن يعبد ريين، لأنه لا بد له من أن يكرم أحدهما ويحمله، فيقصر بالآخر عن الكرامة ويغفله، أو يهين أحدهما ويحقره، فيجل الآخر ويكرمه.

وكذلك لا تستطيعون أن تعبدوا الله وتعزروه، وتسعوا للمال فتجمعوه وتكثروه، ومن أجل ذلك فإني أقول لكم: لا تهتموا بما تأكلون، ولا بما تشربون، ولا ما تلبسون، أليس ما خلق الله لكم من الجوارح والأجسام؟! أكرم وأجل وأكبر من الشراب والطعام! أليس ما خلق الله لكم من الأنفس؟! أثر عند الله من الثياب والملبس!

انظروا إلى طير الأرض والسماء، وما خلق الله من دواب الماء، التي لا يزرعن زرعاً ولا يحصدنه، ولا يدخرنه في الأهواء ولا يحشدنه، والله ربكم الذي في السماء، يرزقهن في كل يوم ما يصلحهن من الغذاء.

وانظروا إلى عشب البرية الذي لم ينسج ولم يغزل، ولم يُعن منه بشيء ولم يُعتمَل، كيف يلبسه الله في حينه كل لون زينة تبهجه! أو حسناً أو نوراً،^(٢) فأنا أقول لكم إن سليمان بن داود في كل ما كان فيه من ملكه وسلطانه، ما كان يقدر على أن يلبس لونا واحداً مما ألبسه الله العشب من ألوانه، فإن كان العشب في حين تنويره ذا بهجة ونور، فعما قليل وبعد يسير ما يُجعل وقوداً للتنور.

ثم الله تبارك وتعالى اسمه يلبسه من البهجة والنور ما لم يلتمسه فيكم، فكم ينبغي لكم يا ناقضي الأمانة ألا تهتموا فتشتغلوا ولا تكثروا من القول لأنفسكم ولا لغيركم؟! فتقولوا ما نأكل وما نشرب؟! وما نلبس وأين نذهب؟! كأنكم بما قلتُ من هذا لا توقنون، فكل هذه الشعوب التي ترون، تبتغي ذلك ولا تبتغوا منه مايتغون، فإن ربكم الذي في السماء يعلم ما ينبغي لكم من قبل أن تسألوه إياه، ولكن ابتغوا

(١) في (أ) و (ب) و (د): فيكم. وفي (ج): فيكم، ولم يظهر لها معنى ويبدو أن الصواب ما أثبت، سيما ونص الإنجيل هكذا (فإن كان النور الذي فيك ظلاماً فالظلام كم يكون) والله أعلم.

(٢) لعل هنا سقطاً.

طاعة الله ورضاه.

فأما ما ذكرت من هذا كله فهو يعطيكموه ويعطيه، من لا يرضى عليه، فلا تشتغلوا بغد وما بعده من شغله، فحسب غد أن يقوم بشغل أهله، وكفى يومكم في غده، بما في غد من كده.

ألا ولا تعسفوا أحدا بظلم فإنكم كما تدينون تدانون، والمكيال الذي تكيلون به تكتالون، فما بال أحدكم يرى القذى في عين أخيه؟! ولا يرى السارية الشامخة في عينيه! أم كيف يقول لأخيه: اتركني أنزع من عينك قذاها! والسارية الشامخة التي في عينيه لا يراها!

أيا مخادعا مَلَقًا، ومخاتلا لغيره مسترقا، أخرج السارية أولا من عينيك، ثم التمس بعدُ إخراجها من عين غيرك.

ألا واسمعوا مني، وافهموا ما أقول عني: لا ترموا بقدس الصواب، بين نواحي الكلاب، ولا تقذفوا بلؤلؤكم المنير، بين عانات^(١) الخنازير، فلعلهن أن يدنسهن، ويتن ما ألقيت بينهن منه، ألا واسألوا تعطوا، وابتغوا تجدوا، واطرعوافتح لكم فكل سائل يعطى، ومبتغى يجد ما ابتغى، وكل من استفتح يفتح له، وأي امرؤ منكم يسأله حبيبه أو ابنه برًا أو خيرا؟ فيعطيه مكان ما سأله من ذلك حجرا! أو يسأله سمكة؟ فيعطيه حية مهلكة! فإن كنتم وأنتم أنتم في النقص والتقصير، ومنكم كل ظالم وشرير، تعطون العطايا الصالحة أبناءكم، وتجيئون عند الدعاء والمسألة أحباءكم، فكم ترون الله في ذلك؟! وإذ الأمر كذلك، من الزيادة عليكم فيه، للذي تسألونه وترغبون إليه.

وانظروا كما تحبون أن يفعل الناس بكم فافعلوه إليهم، وكما تريدون العدل من الناس عليكم فكذلك فاعدلوا عليهم، وإن تلك سنة الرسل والأنبياء، وميزان عدل الله في الأشياء، ألا وادخلوا الله وفي الله باب الضيق والمخاوف، فإن باب الأمن والسعة بمعصية الله سبب الهلكة والمتالف، وكثير من يدخله ويؤثره، ممن يبصر ذلك ومن لا يبصره، وما أضيق المدخل والباب! وأغفل السبيل والأسباب! التي تُبلِّغ العباد الحياة،

(١) العانة: الأتان، والقطيع من حمر الوحش.

وتوجب للناس النجاة، وأقل من يجدها! ويسهل له وردها!

ألا واحتفظوا من كَذْبَةِ أولياء الشيطان، الذين يرآؤن الناس بلباس الحملان، وهم مع ذلك ذئاب ضارية، وقلوبهم مستكبرة عاصية، فلا تغتروا بظاهر حالهم، ولكن اعرفوهم من قَبْلِ أعمالهم، فهل يخرج من الشوك عنب؟! أو من الخنظل رطب؟! لا لن يكون أبداً ذلك! ولن يوجد كذلك! ولكنه يخرج من كل شجرة طيبة ثمرة طيبة، ويخرج من كل شجرة خبيثة ثمرة خبيثة، وإنما تعرف الشجرة الخبيثة من قَبْلِ خبث ثمرها، فإذا كانت كذلك خبيثة أوقدت النار بها، وكذلك العمل إذا كان شيئاً غياً، فلا يكون صاحبه إلا مسيئاً غوياً.

وليس كل من يقول: ربي ربي بإقاراري والدعاء! يدخل يوم القيامة في كرامة ملكوت السماء، إلا أن يكون ممن عمل في دار الدنيا، بما حكم الله عليه به من التقوى، ولكثير في ذلك اليوم من يقول ربنا باسمك هدينا وسعينا، وباسمك أخرجنا من الشياطين ما أخرجنا، وباسمك أموراً كثيرة من العجائب صنعنا، ثم يقول الله لهم في ذلك اليوم: تأخروا عني ياعمال الزور.

وقال صلى الله عليه: اعلّموا أنه من سمع كلامي، فعمل بما سمع وقبّله عني، فمثله كمثل رجل ذي لب وحكمة، بنى بيته^(١) على أساس من حجر محكمة، فلما جاءت الأمطار، وخرّت فأعظمت الأنهار،^(٢) وتهيجت الرياح الكبار، جعل ذلك ينطح من كل جدر،^(٣) فلم يسقط البيت ولم يخرّ.

ومثل من سمع^(٤) كلامي بغير تسليم ولا تقبّل، كمثل رجل ذي حماقة وجهل مُضَلَّل، بنى بيته^(٥) على جرف منهار، أو رمل كثير هيال، فلما جاءت الأمطار ودرّت، وتحركت الأنهار فجرت، وعصفت الرياح فأعصرت، خر بيته منقعراً، و سقط سقوطاً

(١) في (أ) و (ب) و (د): بنية.

(٢) سقط من (أ): فأعظمت الأنهار.

(٣) في جميع المخطوطات: جدار. وما أثبت اجتهاد.

(٤) في (ج) و (د): يسمع.

(٥) في (أ) و (ب) و (ج): بنية.

مفزعاً مذعراً.

قالوا فلما فرغ من كلامه هذا كله، عجب من حضره من حكمته فيه وقوله، ثم لا سيما الكتب والأخبار، فإنهم كانوا أعجبهم به^(١).

(١) نص الإنجيل هكذا: ولما رأى الجموع صعد إلى الجبل. فلما جلس تقدم إليه تلاميذه، ففتح فاه وعلمهم قائلاً: طوبى للمساكين بالروح. لأن لهم ملكوت السماوات، طوبى للحناني لأنهم يتعزون، طوبى للدعاء لأنهم يرثون الأرض، طوبى للجوع والعطاش إلى البر لأنهم يشبعون، طوبى للرحماء لأنهم يرحمون، طوبى للأتقياء القلب لأنهم يعاينون الله، طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء الله يدعون، طوبى للمطرودين من أجل البر لأن لهم ملكوت السماوات، طوبى لكم إذا عروكم وطردوكم وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجلي كاذبين، افرحوا وهللوا لأن أجركم عظيم في السماوات، فإنهم هكذا طردوا الأنبياء الذين قبلكم، أنتم ملح الأرض، ولكن إن فسد الملح فيماذا يملح، لا يصلح بعدُ لشيء إلا لأن يطرح خارجاً ويداس من الناس.

أنتم نور العالم، لا يمكن أن تخفى مدينة موضوعة على جبل، ولا يوقدون سراجاً ويضعونه تحت الكيال بل على المنارة فيضيء لجميع الذين في البيت، فليضيء نوركم هكذا قدام الناس، لكي يروا أعمالكم الحسنة ويمجدوا أبائكم الذي في السماوات، لا تظنوا أنني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل، فإن الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض، لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل، فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلم الناس هكذا يدعوا أصغر في ملكوت السماوات، وأما من عمل وعلم فهذا يدعوا عظيماً في ملكوت السماوات.

فإنني أقول لكم إنكم إن لم يزد بركم على الكتب والفريسيين لن تدخلوا ملكوت السماوات، قد سمعتم أنه قيل للقديماء لا تقتل، ومن قتل يكون مستوجب الحكم، وأما أنا فأقول لكم إن كل من يغضب على أخيه باطلاً يكون مستوجب الحكم، ومن قال لأخيه رقا يكون مستوجب الجمع، ومن قال يا أحمق يكون مستوجب نار جهنم، فإن قدمت قربانك إلى المذبح وهناك تذكرت أن لأخيك شيئاً عليك، فاترك هناك قربانك قدام المذبح واذهب أولاً اصطلع مع أخيك، وحينئذ تعال وقدم قربانك.

كن مريضاً لحصمك سريعاً ما دمت معه في الطريق، لئلا يسلمك الخصم إلى القاضي، ويسلمك القاضي إلى الشرطي فتلقى في السجن، الحق أقول لك لا تخرج من هناك حتى توفي الفلس الأخير، سمعتم أنه قيل للقديماء لا تحت بل أوف للرب أقسامك، وأما أنا فأقول لكم لا تحلفوا البتة، لا

بالسما لألأا كرسى الله؁ ولا بالأرض لألأا موطئ قدميه؁ ولا بأورشليم لألأا مدينة الملك العظيم؁ ولا تحلف برأسك لأنك لا تقدر أن تجعل شعرة واحدة بيضاء أو سوداء؁ بل ليكن كلامكم نعم نعم؁ لا لا؁ وما زاد على ذلك فهو من الشرير.

سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن؁ وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر؁ بل من لطمك على خدك الأيمن فحوّل له الآخر أيضا؁ ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضا؁ ومن سخرك ميلا واحدا فاذهب معه اثنين؁ من سألك فأعطه؁ ومن أراد أن يقترض منك فلا ترده؁ سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبعض عدوك؁ وأما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم باركوا لاعنيكم؁ أحسنوا إلى مبغضيك؁ وصلّوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم؁ لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات؁ فإنه يُشرق شمس على الأشرار والصالحين؁ ويمطر على الأبرار والظالمين؁ لأنه إن أحببت الذين يبغونكم فأجر لكم؁ أليس العشارون أيضا يفعلون ذلك؟! وإن سلمتم على إخوانكم فقط فأجر فضل تصنعون؁ أليس العشارون أيضا يفعلون هكذا؟! فكونوا أنتم كاملين كما أن أباكم الذي هو في السماوات كامل.

احترزوا من أن تصنعوا صدقتكم قدام الناس لكي ينظروكم؁ وإلا فليس لكم أجر عند أبيكم الذي في السماوات؁ فمتى صنعت صدقة فلا تُصوّت قدامك بالبوق كما يفعل المرءون في الجامع؁ وفي الأزقة لكي يمجّدوا من الناس؁ الحق أقول لكم: إنهم استوفوا أجرهم؁ وأما أنت فمتى صنعت صدقة فلا تعرف شمالك ما تفعل يمينك؁ لكي تكون صدقتك في الخفاء؁ فأبوك الذي يرى في الخفاء هو يجازيك علانية. ومتى صليت فلا تكن كالمرأتين؁ فإنهم يحبون أن يصلوا قائمين في الجامع وفي زوايا الشوارع لكي يظهروا للناس؁ الحق أقول لكم: إنهم قد استوفوا أجرهم؁ وأما أنت فمتى صليت فادخل في مخدعك واغلق بابك وصل إلى أبيك الذي في الخفاء؁ فأبوك الذي يرى في الخفاء يجازيك علانية؁ وحينما تصلون لا تكررُوا الكلام باطلا كالأمم؁ فإنهم يظنون أنه بكثرة كلامهم يستجاب لهم؁ فلا تشبهوا بهم؁ لأن أباكم يعلم ما تحتاجون إليه قبل أن تسألوه؁ فصلوا أنتم هكذا: أبانا الذي في السماوات؁ ليتقدس اسمك؁ ليأت ملكوتك؁ لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك في الأرض؁ خبزنا كفافنا أعطنا اليوم؁ واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضا للمذنبين إلينا؁ ولا تدخلنا في تجربة؁ لكن نجنا من الشرير؁ لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد؁ آمين.

فإنه إن غفرتم للناس زلاتهم يغفر لكم أيضا أبوك السماوي؁ وإن لم تغفروا للناس زلاتهم لا يغفر لكم أبوك أيضا زلاتكم؁ ومتى صمتم فلا تكونوا عابسين كالمرأتين؁ فإنهم يغيرون وجوههم لكي يظهروا للناس صائمين؁ الحق أقول لكم إنهم قد استوفوا أجرهم؁ وأما أنت فمتى صمت فادهن رأسك واغسل وجهك؁ لكي لا تظهر للناس صائما بل لأبيك الذي في الخفاء؁ فأبوك الذي يرى في الخفاء

بجازيك علانية.

لا تكسروا لكم كنوزا على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ، وحيث لا ينقب سارقون و يسرقون، لأنه حيث يكون كترك هناك يكون قلبك أيضا، سراج الجسد هو العين، فإن كانت عينك بسيطة فجسدك كله يكون نيرا، وإن كانت عينك شريرة فجسدك كله يكون مظلما، فإن كان النور الذي فيك ظلاما فالظلام كم يكون؟!

لا يقدر أحد أن يخدم سيدين، لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر، أو يلزم الواحد ويحتقر الآخر، لا تقدرون أن تخدموا الله والمال، لذلك أقول لكم لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون، ولا لأجسادكم بما تلبسون، أليست الحياة أفضل من الطعام، والجسد أفضل من اللباس، انظروا إلى طيور السماء، إنها لا تزرع ولا تحصد، ولا تجمع إلى مخازن، وأبوكم السماوي يقوّمها، ألستم أنتم بالحري أفضل منها، ومن منكم إذا اهتم يقدر أن يزيد على قامته ذراعا واحدة، ولماذا تهتمون باللباس، تأملوا زنابق الحقل كيف تنمو، لا تعب ولا تغزل، ولكن أقول لكم إنه ولا سليمان في كل مجده كان يلبس كواحدة منها، فإن كان عشب الحقل الذي يوجد اليوم وي طرح غدا في التور يُلبسه الله هكذا، أفليس بالحري جدا يلبسكم أنتم يا قليلي الايمان، فلا تهتموا قائلين ماذا نأكل؟ أو ماذا نشرب؟ أو ماذا نلبس؟ فإن هذه كلها تطلبها الأمم، لأن أباكم السماوي يعلم أنكم تحتاجون إلى هذه كلها، لكن اطلبوا أولا ملكوت الله وبره، وهذه كلها تزداد لكم، فلا تهتموا للغد، لأن الغد يهتم بما لنفسه، يكفي اليوم شره.

لا تدينوا لكي لا تدانوا، لأنكم بالدينونة التي بها تدينون تدانون، وبالكيل الذي به تكيلون يكال لكم، ولماذا تنظر القذى الذي في عين أخيك، وأما الخشبة التي في عينك فلا تفطن لها؟! أم كيف تقول لأخيك دعني أخرج القذى من عينك، وها الخشبة في عينك، يا مرآئي أخرج أولا الخشبة من عينك، وحينئذ تبصر جيدا أن تخرج القذى من عين أخيك.

لا تعطوا القدس للكلاب، ولا تطرحوا درركم قدام الخنازير، لئلا تدوسها بأرجلها وتلتفت فتمزقكم، اسألوا تعطوا، اطلبوا تمجدوا، اقرعوا يفتح لكم، لأن كل من يسأل يأخذ، ومن يطلب يجد، ومن يقرع يفتح له، أم أي إنسان منكم إذا سأله ابنه خبزا يعطيه حجرا، وإن سأله سمكة يعطيه حية، فإن كنتم وأنتم أشرارا تعرفون أن تعطوا أولادكم عطايا جيدة، فكم بالحري أبوكم الذي في السماوات يهب خيرات للذين يسألونه، فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم، افعلوا هكذا أنتم أيضا بهم، لأن هذا الناموس والأنبياء.

ادخلوا من الباب الضيق لأنه واسع الباب ورحب الطريق الذي يؤدي إلى الهلاك، وكثيرون هم الذين يدخلون منه، ما أضيق الباب وأكرب الطريق الذي يؤدي إلى الحياة، وقليلون هم الذين

وفي أناجيلهم أنه قال عليه السلام: لحقا أقول لكم أيها الناس والكتبة والأخبار، إن كثيرا من المشرق والمغرب يجيء يوم القيامة والجزاء، يتكئ مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب في ملكوت السماء، وإن كثيرا ممن يزعم أنه ابن لهم يُقصى عنهم مع الظلمة في النار، ثم يكونون مخلدين أبدا في البكاء وتحريق الأستار^(١).

وفي أناجيلهم: أن رجلا من الكتبة جاءه فقال: إني أحب أن أتبعك، وأكون حيث كنت معك، فقال عليه السلام: لثعالب الوحش مغار، ولطير السماء أوكار، وأنا فليس لي منزل ولا قرار أقر إذا قروا فيه، ولكل مأوى وليس لي مأوى آوي إليه^(٢).

يجدونه، احترزوا من الأنبياء الكتبة الذين بثياب الحملان ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة، من ثمارهم تعرفوهم، هو يجتنون من الشوك عبا، أو من الحسك تينا، هكذا كل شجرة جيدة تصنع أثمارا جيدة، وأما الشجرة الرديئة فتصنع أثمارا رديئة، لا تقدر شجرة جيدة أن تصنع أثمارا رديئة، ولا شجرة رديئة أن تصنع أثمارا جيدة، كل شجرة لا تصنع ثمرا جيدا تقطع وتلقى في النار، فإذا من ثمارهم تعرفوهم.

ليس كل من يقول يا رب يا رب يدخل ملكوت السموات، بل الذي يفعل إرادة أبي الذي في السموات. كثيرون سيقولون لي في ذلك اليوم: يا رب يا رب أليس باسمك تبنا، وباسمك أخرجنا شياطين، وباسمك صنعنا قوات كثيرة، فحينئذ أصرح لهم أي لم أعرفكم قط، اذهبوا عني يا فاعلي الإثم، فكل من يسمع أقوالي هذه ويعمل بها، أشبهه برجل عاقل بنى بيته على الصخر، فترل المطر وجاءت الأمطار، وهبت الرياح، ووقعت على ذلك البيت فلم يسقط، لأنه كان مؤسسا على الصخر، وكل من يسمع أقوالي هذه ولا يعمل بها، يشبه برجل جاهل بنى بيته على الرمل، فترل المطر وجاءت الأمطار وهبت الرياح وصدمت ذلك البيت فسقط، وكان سقوطه عظيما. فلما أكمل يسوع هذه الأقوال بهتت الجموع من تعليمه، لأنه كان يعلمهم كمن له سلطان، وليس كالكتبة. إنجيل متى الإصحاح الخامس/ ٢٠ ثم ٣٢ إلى آخر الإصحاح السابع.

(١) نص الإنجيل هكذا: وأقول لكم: إن كثيرين سيأتون غدا من المشرق والمغرب، ويتكئون مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب، في ملكوت السموات، وأما بنوا الملكوت فيطرحون إلى الظلمة الخارجية، هناك يكون البكاء وصرير الأسنان. إنجيل متى الإصحاح الثامن ١٢-١٣. لوقا ١٣/٢٧-٣٠.

(٢) نص الإنجيل هكذا: فقدم كاتب وقال: يا معلم اتبعك أينما تمضي. فقال يسوع للثعالب أوجرة، ولطيور السماء أوكار، وأما ابن الإنسان فليس له أين يسند رأسه. إنجيل متى الإصحاح الثامن/ ١٩

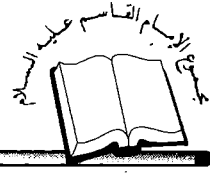
وفي أناجيلهم: أن رجلا من حوار ييه قال له: يا معلمي ائذن لي أذهب فأدفن أبي، فقال له: تعال اتبعني وكن معي وعلى أثري، واترك الأموات يدفنون موتاهم، ففيهم لدفنهم ما كفاهم^(١).

تم والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد خاتم النبيين، وعلى أهله الطيبين، وسلم عليهم أجمعين.



٢١. إنجيل لوقا ٩/٦٠ ٦١.

(١) نص الإنجيل هكذا: وقال له آخر من تلاميذه: يا سيد ائذن لي أن أمضي، وأدفن أبي، فقال له يسوع اتبعني ودع الموتى يدفنون موتاهم. إنجيل متى الإصحاح الثامن ٢١ — ٢٣. وإنجيل لوقا ٩/٥٧-٥٩.



کتاب المسترشد



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي لا تدركه الأبصار، ولا تحيط به الأقطار، الذي لم تهجم^(١) عليه العقول بفكرها، ولا الفكر بمحالتها^(٢) ولا الأبواب بتدبيرها، الذي لم ينفصل من المخلوقين فيكون منهم بعيداً، ولم يتصل بهم فيكون لهم مخالطاً.

إن سأل سائل ذو حيرة^(٣) عن قول الله عز وجل: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ٤]. وتوهم أن الله تبارك وتعالى ارتفع في مكان دون الأماكن!! وعاب من قال: إن الله بكل مكان، وقال: أَيْصَعْدُ من الله إلى الله!! إذ^(٤) قال إنه في السماء وفي الأرض.

فجوابنا في ذلك أن الله تبارك وتعالى في الأماكن كلها، مدبر لها حافظ قائم عليها، لم تحوّه ولم تحط به، ولا نقول يُصْعَدُ منه إليه، فنصّفه بالغاية والتحديد، وأنه سبحانه في مكان دون مكان، ولكننا نقول: إن الله تبارك وتعالى خلق ملائكته، وتعبدهم بما شاء، فكلف بعضهم نُقْلَةً^(٥) الأخبار من السماء إلى الأرض، ونُقْلَةً الأخبار من الأرض إلى السماء، وأنه خلق السماء فأسكنها ملائكته لعبادته^(٦) بعضهم ينسخ أعمال الآدميين، ووكّل بعضهم رقبيا وحافظا على الملائكة التي وُكِّلَتْ بنسخ أعمال الآدميين، وكذلك قالت الملائكة صلوات الله عليهم^(٧): ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤]. أي: ما وُكِّلُوا به من صنوف التعبد، وقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ٤]. معناه في الآية الأخرى، مثل قول إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَّهْدِيهِ﴾ ﴿١١﴾

(١) في (ب): لا. ولم تهجم أي: لم تنته إليه. قال أمير المؤمنين: هجم بهم العلم على حقائق الأمور، فباشروا روح اليقين.

(٢) في (ب) و (د): بمحالتها. والمحال: الشدة والكيد والتدبير.

(٣) في (ب): خيرة (مصحفة).

(٤) في (ب): أن.

(٥) الاسم من الانتقال.

(٦) سقط من (أ): لعبادته.

(٧) في (أ) و (ج): عليها.

[الصفات: ٧٧]. ولم يبرح الأرض في حال ذهابه إلى ربه، وقد كان الله معه.

وقد قال لكليمه موسى وأخيه^(١) هارون صلى الله عليهما: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَصَمُّ وَأَرْنَى﴾ [طه: ٣٨]. وذهب إبراهيم صلى الله عليه إلى ربه، في الحالة التي ربه معه فيها، وإنما معناه في ذهابه إلى ربه، توجهه إليه بعبادته، وتشاغله عما^(٢) سواه.

وكذلك توجيه الملائكة بصعود أعمال العباد إلى الموضع من السماء الذي^(٣) تعبدت به، ولتصعد بأعمال العباد إليه، وإنما توجهت بتلك العبادة إلى الله، كما ذهب إبراهيم إلى ربه، بمعنى توجهه بعبادته إليه.

ووجه آخر في الصعود، هو القبول^(٤) لذلك، لأنك تقول لا يصعد إلى الله هذا الكفر، ويقال: قد نسخت الملائكة أعمال الكافرين، وصعدت بها إلى الله، وهو لا يقبلها، ولا تصعد إليه أعمالهم، بمعنى لا يقبلها، وكذلك قال الله عز وجل: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ بمعنى إنما يقبل الله الكلام الطيب بالعمل الصالح.

فإن لُج^(٥) السائل بالشغب فقال^(٦) أيصعد من الله إلى الله؟!

قيل له لا.^(٧) ولكن يصعد الكلم الطيب من المكان الذي لا يخلو منه الله،^(٨) إلى السماء التي فيها الله.

(١) في (ب) و (د): ولأخيه.

(٢) في (أ) و (ج): عن. وفي (د): عمن.

(٣) في (ب) و (ج) و (د): التي.

(٤) أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة رضي الله عنه قوله: ﴿العمل الصالح يرفعه﴾ قال: لا يقبل قول إلا بعمل. وقال الحسن: بالعمل قبل الله. الدر المنثور المنشور: ٧: ١٠. وقال أبو حيان: وصعود الكلام إليه تعالى مجاز في الفاعل وفي المسمى إليه، لأنه تعالى ليس في جهة، ولأن الكلم ألفاظ لا توصف بالصعود، لأن الصعود يكون من الأجرام، وإنما الصعود يكون من الأجرام، وإنما ذلك كناية عن القبول. البحر المحيط ٣/٧: ٣٠. وقال ابن حجر العسقلاني: قال البيهقي: صعود الكلام الطيب، والصدقة الطيبة، عبارة عن القبول، وعروج الملائكة هو إلى منازلهم في السماء. فتح الباري (١٣/٥١٦).

(٥) في (ج): تمادى في الخصومة. والشغب: تهيج الشر.

(٦) في (أ): و. وفي (ج): وقال.

(٧) سقط من (ب): لا.

(٨) سقط من (أ) و (ج): لفظ (الله).

[معاني «في»]

والله على العرش استوى، وهو عنه غير غائب وهو في السماوات العلى، وفي الأرض ولم يغيب عنه نجوى، كذلك^(١) قال في كتابه: ﴿ءَأْمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ [الملك: ١٦]. فأجبر أنه في السماء، وكذلك قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ فِي الْأَرْضِ إِلَهُ﴾ [الزحرف: ٨٤]. وكذلك قال: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣].

و(في): لها معان تختلف في اللغة، ليس شيء في شيء^(٢) إلا وهو لا يخلو من أحد هذه المعاني التي نحن ذاكروها إن شاء الله.

- ١- إما أن تكون فيه، بمعنى قول القائل: الناس في عامهم هذا مخصبون.
- ٢- أو يكون الشيء في الشيء محوياً كاللبن في وعائه.
- ٣- أو يكون الشيء في الشيء كالحلي في حياته.
- ٤- ويكون الشيء في الشيء كالأبيض في بياضه.
- ٥- ويكون الشيء في الشيء كالعبد في سلطان مولاه.
- ٦- ويكون الشيء في الشيء كالمرباط في رباطه، والغازي في غزاته، والبابي في بنائه.

فاعرف هذه اللغات، كيف تتصرف في معانيها، وتتوجه في تصاريفها.

- ٧- وقد يكون أيضاً معنى^(٣) (في): إنما هو مع. وفي القرآن مثل ذلك قول الله سبحانه: ﴿أَدْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ [الأعراف: ٣٨]. فمعنى قوله: ﴿أَدْخُلُوا فِي أُمَمٍ﴾ أي مع أُمَم. وكذلك قال: ﴿الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ﴾ [الأحقاف: ١٨]، يعني: مع أُمَم. ﴿وَأَدْخَلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي

(١) في (أ) و(ج): وكذلك.

(٢) سقط من (أ): شيء في.

(٣) سقط من (ب): معنى.

عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿ [النمل: ١٤]. أي: مع عبادك الصالحين. وقال سبحانه: ﴿ فِي تَسْعِ آيَاتٍ ﴾ [النمل: ١٢] أي: مع تسع آيات. وقال: ﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا ﴾ [نوح: ١٦] بمعنى: معهن.

٨- ومعني آخر من تأويل (في): يكون تفسيره على ما قال الله تبارك: ﴿ وَلَا تُصَلِّبْنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ ﴾ [طه: ٧١] يعني: على جذوع النخل^(١). وقال: ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا ﴾ [الكهف: ٣٥]. يعني: عليها. وقال: ﴿ يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ ﴾ [طه: ١٢٨ الأحراب: ٢٦]. يعني: يمشون على قراهم.

٩- ومعني آخر من معاني (في): يكون تفسيره إلى. وذلك قوله عز وجل: ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾ [النساء: ٩٧]. يعني: إليها.

١٠- وقد يتجه تفسير (في): إلى معني آخر، قال الله سبحانه في كتابه: ﴿ وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٢]. أي: عن هذه^(٢) النعمة، وعن ذكر آياتي، فهو في الآخرة أعمى^(٣).

١١- وقد يتجه على معني آخر، في قول الله فيما^(٤) أخبر عن فرعون، وقوله لموسى عليه السلام: ﴿ وَلَيْسَتْ فِينَا مِنْ عُمَرِكَ سِنَّينَ ﴾ [الشعراء: ١] أي: عندنا، وقال: ﴿ إِنَّا لَنَرُّكَ فِينَا ضَعِيفًا ﴾ [هود: ٩١]. بمعنى^(٥): عندنا.

وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ [الحديد: ٤]. فالمعني في ذلك كله على المشاهدة والتدبير لا على أنه في شيء يحويه، ولا على أنه مع شيء ملازق له

(١) سقط من (ب): يعني على جذوع النخل.

(٢) سقط من (ب): هذه.

(٣) أخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة، عن ابن عباس: ﴿ومن كان﴾ في الدنيا ﴿أعمى﴾ عما يرى من قدرتي من خلق السماء والأرض والجبال والبحار والناس والدواب وأشباه هذا ﴿فهو﴾ عما وصفت له في الآخرة، ولم يره ﴿أعمى وأضل سبيلاً﴾ يقول: بغير حجة. الدر المنثور ٣١٧/٥.

(٤) في (أ) و (ج): قوله فيما.

(٥) في (ب) و (د): أي بمعنى.

ولا^(١) أنه على شيء، كما الانسان على السرير، وعلى السطح، وقد خلا منه ما هو أسفل من ذلك.

ومن ذلك قول الشاعر:

وصرنا خالين وليس معنا سوى رب البنية والمقام^(٢)

فمن أنكر ذلك وزعم أن ربه في مكان دون مكان! سئل في أي مكان هو؟!
فإن قال: على العرش.

قيل له: أو ليس العرش غير السماوات والأرض؟! فقلوه: نعم.

فيقال له^(٣): كيف قلت هو في السماء، وقد زعمت أنه على العرش، والعرش غير السماوات والأرض؟! وفي هذا ردٌ لقول الله سبحانه: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣].

وإن قالوا: إن العرش ليس في السماوات، ولكنه فوقها، عطلوا السماوات من العرش، وفي تعطيلهم^(٤) السماوات من العرش تعطيل ما قالوا هو العرش دون ما سواها.



(١) في (ب) و (د): ولا على.

(٢) لم أقف على قائله.

(٣) سقط من (أ) و (ج): له.

(٤) في (ب): تعطيلكم.

(الرد على من قال إن الله نفساً كنفس الإنسان)

إن سأل سائل ذو حيرة^(١) عن قول الله عز وجل: ﴿تَعَلَّمْ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمْ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦]. وعن قوله سبحانه: ﴿كُتِبَ عَلَيَّ نَفْسِيهِ الرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام: ١٢]. وتوهم أن الله عز وجل نفساً كنفس الإنسان، وأنها جزء الجسم، وأنها جوهرٌ يقيم الأعراض؟

قيل له: إن معنى قول الله سبحانه في كتابه: ﴿تَعَلَّمْ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمْ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٤]، أي: تعلم ما أعلم ولا أعلم الذي تعلم، وكذلك قال عز وجل: ﴿كُتِبَ عَلَيَّ نَفْسِيهِ الرَّحْمَةِ﴾، فالكاتب^(٢) هو المكتوب عليه، وهو الله عز وجل، الكاتب والمكتوب عليه.

وإن زعم أن النفس معنى غير ذاته، وزعم أنه شخص^(٣)،

سئل عما في النفس، أهى النفس أم غير النفس؟!

فإن زعم أنها غير النفس، زعم أن في ربه غير ربه، وإن زعم أن الذي في النفس هي النفس! زعم أنه لا معنى لقوله ﴿فِي نَفْسِي﴾!!

ويُسألون هل كانت النفس وفيها ذلك الذي هو غيرها؟!

فإن زعموا أنه لم يزل، جحدوا قول الله: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ [الواقعة: ٧٧]. وإن زعموا أنها كانت، وليس فيها ذلك الذي في النفس، وأن ذلك محدث، جحدوا أن يكون: كان عالماً لم يزل.

واعلم أن للنفس في لغة^(٤) العرب معاني، فمنها ما يجوز على الله تبارك وتعالى،

(١) في (ب): حيرة (تصحيح).

(٢) في (ب): فالكاتب. (تصحيح).

(٣) الشخص: سواد الإنسان وغيره تراه من بُعد.

(٤) قال البيهقي: ومعنى قول من قال: الله سبحانه، أنه نفس: أنه موجود ثابت غير متنف ولا معدوم، وكل موجود نفس، وكل معدوم ليس بنفس.

ومنها ما لا يجوز عليه.

فأما ما لا يجوز عليه: ^(١) فمعنى النفس التي هي الروح، وما ذكر الله تعالى من قوله: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧]. فهذه النفوس هي أجزاء الإنسان التي هي أرواحهم. وقد قيل في اللغة [في] ذكر هذه النفس: فاضت نفس فلان، يعنون: خروج روحه، ^(٢) وهذا المعنى عن الله عز وجل منفي.

وقال الله عز وجل في كتابه، يذكر النفس بغير هذا المعنى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [النساء: ١، الأعراف: ١٨٩، الزمر: ٦] يعني: من آدم عليه السلام، فسماه نفساً، ولم يرد به روحه، وقال: ﴿يَأْتِيَتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [آرْجِعِي] [الفجر: ٢٧-٢٨]. يعني: يا أيها الإنسان، ولم يرد النفس التي هي الروح فقط، وإنما أراد الحي الذي هو الإنسان، وكذلك قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [الدثر: ٣٨]. أي: كل إنسان بما كسب رهين، وقال: ﴿يَلْحَسِرَتِي عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٤٨]. يعني: أن يقول الإنسان وقال: ﴿النَّفْسُ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٢]. يريد: الإنسان. وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥، الأنبياء: ٣٥، العنكبوت: ٥٧]. يعني: أن كل إنسان ميّت.

والنفس في كلام العرب على وجوه:

فمنها نفس منفوسة بحسمة مروحة.

ومنها بحسمة غير مروحة. تعالى الله عن هذين علواً كبيراً.

ومنها نفس بمعنى إثبات الذات، كما نقول في الكلام: هذا نفس الأمر، نريد إثبات الأمر، لا أن له نفساً منفوسة، أو جسماً مروحاً، فعلى هذا المعنى يقال في الله سبحانه: إنه نفس. لا أن له نفساً منفوسة أو جسماً مروحاً. وقد قيل في قوله عز وجل: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾. أي: تعلم ما أكنه وأسرّه ولا أعلم لي بما تسترّه عني وتغيبه، ومثل هذا قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم (فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي). أي: حيث لا يعلم به أحد ولا يطلع عليه أحد. الأسماء والصفات/ ٢٨٦.

(١) سقط من (أ) و (ب) و (ج) و (د): فأما ما لا يجوز عليه.

(٢) في (ب) و (د): خرج.

والعرب قد تقول للشيء الذي لا روح^(١) له ولا شخص، هذا نفس كلامك، وهذا النور بنفسه.

وقال الشاعر:

قالت له النفس إني لا أرى طمعاً وإن مولاك لم يسلم ولم يصد
وقال آخر:

وهل نحن إلا أنفس مستعارة تمر بها الروحات والغدوات
يعني هل نحن إلا أناسي مستعارون، ولو أراد بذكر النفس معنى الروح لما^(٢) جاز
أن يسمى كله نفساً، لأنه بدنٌ ونفس.
وقال آخر:

وقد وَفَدَتْ إليك بذات نفسي قصائدُ يعترفن بما نشاء
يعني بقوله بذات نفسي، أي: بي كما أنا. كما قيل في اللغة: جئتكَ بنفسي، ولم
يريدوا بقولهم معنىً ثانياً، هو غير جئتكَ، لأنه إذا قيل: جئتكَ دل على الجائي تاماً، ولما
قال بنفسي لم يرد معنى ثانياً هو غير المعنى الذي هو جئتكَ.
وقال آخر:

وما لآم نفسي مثلها لي لائم^(٣)

قال الله عز وجل: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٥٣]. يعني: نحن وأنتم، وقال الله: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ [آل عمران: ٢٨]. فالحذر: هو: المحذر منه، يعني يحذركم

(١) في (أ) و (ج): له بنفسه وكذلك يقولون للشيء الذي لا روح له ولا شخص.

(٢) سقط من (أ): لما.

(٣) لم أقف على هذه الأبيات فيما لدي من كتب الأدب.

الله أي: يعذبكم، كما قال: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢]. وليس الكاتب غير المكتوب عليه.



(الرد على من زعم أن الله نور كالأنوار المخلوقة)

إن بعض الملحدين توهم^(١) أن الله عز وجل نور كالأنوار المنبسطة، وتوهم آخرون منهم أنه نور كالأنوار الكثيفة الساترة، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وقد رأينا مثل المعنيين اللذين توهموا من النور المنبسط، والنور الكثيف الساتر، فأما النور الكثيف الساتر، فالبدر إذا هو كَهَر^(٢)، وَكُثِفَ، ستر من السماء عن أبصارنا بقدر استدارته، ورأينا قرص الشمس كثيفاً ساتراً يستر الأبصار من السماء بقدر استدارته، فأما النور المنبسط، الذي تنفذه الأبصار فقد رأيناه،^(٣) من ذلك ضوء النهار، ونور القمر، وشعاع الشمس يدخل من الكوة، فلا يستر^(٤) أبصارنا لانبساطها، ولا يكون ذلك ساتراً لأبصارنا عما خلفه.

وأعلام العبودية في هذه الأنوار التي ذكرنا كلها بينة، وذلك^(٥) لأن النور الكثيف الساتر ضعيف لا يقدر على الزيادة في نفسه، ولا الانتقاص لها، ولا تقدر على الامتناع من العيون أن تدركها،^(٦) فالضعف لكل ما ذكرنا لازم، وكذلك الضعف بَيِّنٌ في الأنوار المنبسطة، إذ لم يحجب الأبصار عن نفذها ومجاوزتها إلى ما خلفها، فالضعف لكل ما ذكرنا لازم، والله في تعالى^(٧) عن هذه المعاني، أن يكون بشيء منها موصوفاً، لأنها مخلوقة، وكل ما أشبه المخلوق فهو مخلوق، وليس الخالق للشيء، كالمخلوق في جميع المعاني كلها.

واعلم أن النور له في الكتاب وفي^(٨) اللغة معانٍ، يجري على الله عز وجل بعضها ،

(١) في (ب) و (ج): زعم.

(٢) في (أ) و (ب) و (ج) و (د): قهر، والكهر: الارتفاع.

(٣) في (أ): رأينا.

(٤) في (ب) و (د): فلا تستره.

(٥) سقط من (ب) و (د): لأن.

(٦) كذا في جميع المخطوطات ولعلها (تدركه) لأن الضمير عائد على النور.

(٧) في (أ) و (ج): فتعالى.

(٨) سقط من (ب): في.

ولا يجري عليه بعضها، فالذي يجري عليه منها، هو ما قال الله في كتابه: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٢].

يعني: الله ينير لعباده^(١) دلائله التي يهتدون إليه بها، لأن يعرفوه بما أبان، ويعلمون أنه الحق بآياته المنيرة، وأن يميزوا بها بين الخالق وخلقه، والله نور الأنوار، وهو منير لما^(٢) نور من دلائله، فهو نورها لأنه أضاء لنا^(٣) الأشياء وأبائها، وجلا عنها ظلمة الشبهة، فأزال عنها الشكوك والريب، بتجليتها للعقول، أنه الحق المبين، وأنه نور كل شيء، وليس كمثل شيء. وكذلك^(٤) أمرنا أن نصفه، وبذلك دلنا على نفسه، من غير أن نجاهر الله فتدركه الأبصار، فاستنار لنا بتدبيره، من غير مشاهدة منّا له، ولا إحاطة به، ولا إدراك من حواسنا له، فهو نور السماوات والأرض، ونور من فيهما، بمعنى: ^(٥) الذي ذكرنا أن الحق من عنده، وأن العباد به استناروا، وبه استضاءوا، وبه أبصروا، إذ استضاء لهم سبحانه بنوره الذي عاينوا من خلق أنفسهم، وتدبيره في ملكوت السماوات والأرض.

ومن لطائف الآيات التي لا يكون معها ريب، ولا تدانيها الشكوك، ولا تعتربها الفترات^(٦)، ولا تكون معها الغفلات، فرأوا ربهم بتدبيره ونوره وعلاماته، لا بمجاهرة منهم له، ولا بالمشاهدة والملاقاة، تقدس الله عن ذلك، وجل جلالاً عظيماً. وكذلك الله نور السماوات والأرض ومن فيها، لأن عباده الذين هم سكان أرضه، استناروا وعلموه بما عاينوه من نوره، إذ دبر الأرض، وخلق فيها ما به أنار لهم، إنه الله سبحانه،

(١) أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات من طريق علي، [كذا في الدر المنثور. ولعله يقصد علياً آخر غير الإمام علي عليه السلام] عن ابن عباس: ﴿الله نور السماوات والأرض﴾، قال: هادي أهل السماوات وأهل الأرض، الدر المنثور المنشور ١٩٧/٦.

(٢) في (أ) و (ج): بما نوره. وفي (د): بمأنور.

(٣) في (ب): له.

(٤) في (ب) و (د): كذلك.

(٥) في (أ) و (ج): لمعني.

(٦) الفترة: الإنكسار والضعف.

فاستنار نوره بغير تحديد، وعرفوه من غير تَحْيُلٍ، ووجدوه معروفاً بغير^(١) تشبيه، بل عرفوا الله بعجيب آياته، وبأثر دلالاته.

ومعنى آخر في تأويل قوله نور^(٢)، قد علّم العالمين، أن الأشياء تُدرك بحقائقها، وتُعلّم بالاستيقان وإن كانت غائبة^(٣). فالله يعلم ويعرف ويميز^(٤) بين ما يدرك بالجمهرة، وبين ما لا يدرك بها، كالخشونة واللين، والحمرة والبياض، وما لا يدرك بالجمهرة، بالسمع والبصر والعقل [كـ]الرّئي^(٥) والظّمأ، والشيع والسغب^(٦)، وما أشبه ذلك مما غُيِبَ عن حواسنا، وإن كنا قد أدركناه، لعلمنا بما صرّفنا منه ربنا، فيما أخبرنا عما غاب عنا من ملكوته.

واعلموا أن الله سبحانه وصف الآية التي هي نور، مخبراً لعباده أن الله سبحانه لم يرد نفسه بقوله: ﴿كَمْشَكْوَةٌ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥]. ولم يمثل بالقنديل نفسه، ولا بالمصباح تعالى عن ذلك، وأي فضل في القنديل، ليس في النجم الذي هو الزهرة، فكيف يمثل نفسه بالقنديل، ويترك ما هو أئور من القنديل وأحسن، بل أي فضل^(٧) في القنديل ليس في دُرّ الجنان! كيف^(٨) يمثل نفسه بالقنديل؟! وهو يتعالى عن الزهرة ودُرّ الجنان!

بل كيف يضرب الله لنفسه أمثلاً مفضولة^(٩) دون الفاضلة، تعالى عن التمثيل والأشباه، وتقديس عن ذلك. لكن الله سبحانه نور السماوات والأرض بما أبان لهم عن نفسه، بخلقه لهم، وبما له فيهم من التدبير، الدّالّ عليه، فاستضاء عباد به إذ أضاء لهم

(١) في (أ): من غير.

(٢) في (أ) و (ج): من تأويل. وفي (ب) و (د): نورا.

(٣) سقط من (ب): وإن كانت غائبة.

(٤) في (أ) و (ب) و (د): ويميز ما بين.

(٥) في جميع المخطوطات: والرأي، وما أثبت اجتهاد مني.

(٦) السغب: الجوع.

(٧) في (ب) و (د): فضل أحسن في.

(٨) سقط من (ب): كيف.

(٩) في (ب): مثلاً مفضولاً.

نفسه بخلقه لهم، فلم يضل في مضلات الشبهة، من استضاء بربه، واستنار به، فبانت الأعلام الهادية، لمن استبان بها عن رها، فبان الله بها لمن استنار بها، وكان الله نوره إذ اهتدى به، وأحيا لنا القلوب بعد موتها بنوره، إذ أثار لها فاهتدينا بها^(١) إليه.

ومعنى آخر من معاني النور، وهو مما لا يجوز على الله، وهو ما ذكرنا من معنى الشمس الساترة، وشعاعها المنبسط الذي ليس بساتر. ومعنى من معاني النور، وهي النيران الكثيفة، وهي في معاني قرص الشمس والقمر^(٢). ومعنى من معاني النور، وهو الإيمان^(٣)، لأن الإيمان نور، وكذلك القرآن نور، وقد سمي الله القمر نوراً والشمس سراجاً، والإيمان نوراً، وقال: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الأحزاب: ٤٣، الحديد: ٩].

فهذه المعاني من الأنوار التي ذكرنا مميزة للعقول، إذا ما نظروا إليها بها، فأجروا على الله منها ما يجوز عليه، وما جرى على العباد منها، فعنه عز وجل نزهوا الله ولم ينسبوه^(٤) إليه.

وأما تأويل: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ﴾ [النور: ٣٢] فقد يجوز أن يكون عني بذلك القرآن^(٥) في غياهب^(٦) الوسوس نيراً مضيئاً، وبه ييطل كيد إبليس اللعين،

(١) في (ب) و (د): به.

(٢) أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يدبر الأمر فيهما نجومها وشمسها وقمرها. الدر المنثور ١٩٦/٦.

(٣) في (ب) و (د): هو.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والحاكم، وصححه عن أبي بن كعب: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، مَثَلُ نُورِهِ﴾. قال: هو المؤمن الذي جعل الإيمان والقرآن في صدره فيضرب الله مثله. الدر المنثور ١٩٧/٦.

(٤) في (ب) و (د): ينسب.

(٥) سقط من (ب): عني.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن الحسن رضي الله عنه: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ﴾. قال: مثل هذا القرآن في القلب ﴿كَمِشْكَاةٍ﴾. قال الكوة. الدر المنثور ١٩٩/٦.

(٦) الغيب جمع غيب وهو: الظلمة.

وتوهميه وخدعه، فالقرآن في هذه الأماكن الموحشة، كالمشكاة التي هي الكوة والمصباح في القنديل ينير^(١) لما حوله، ويضيء لمن دنا منه^(٢).

وقد يجوز أن يكون الله عني بقوله مثل نور النبي^(٣) صلى الله عليه كهذا المعنى^(٤) الذي وصفنا به القرآن، والمعنى: أن النبي صلى الله عليه أضاء لنفسه بنبوته ورسالة ربه، وأضاء لمن دنا منه أو سمع به في الأخبار.

وقد يتجه أن يكون الله أراد به قلب المؤمن أيضاً، والإيمان الذي فيه، فمثل قلب المؤمن وكون الإيمان فيه^(٥) مثل القنديل في المشكاة، فالإيمان يضيء للمؤمن عن كل ظلمة، كما أن القنديل يضيء في الكوة، وتضمحل به الغياهب المدلهمات^(٦) من الريب، والإيمان يتوقد ويضيء بالحكمة توقداً يظهر شعاع الحكمة، ونورها في كلامه وفعاله، وعلى جوارحه، وهو بعلمه بربه^(٧) علمه له نور على نور.

واعلم أنه قد يجوز أن يكون معنى قوله: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ [النور: ٣٥]. أي: نور مع نور، لأن كلامه نور مع عمله^(٨)، وعمله مع علمه، فهذا نور على نور، أي مع نور. ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥]. لا من يشاء غيره يهدي، ولو كانت البرية كلها لمن لا يريد هدايته ظهيراً لما اهتدى المرء أدنى الهداية، إلا أن يشاء الله.

(١) في (ب) و (د): نير.

(٢) في (ب): به.

(٣) أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن شمر بن عطية، قال: جاء ابن عباس رضي الله عنهما إلى كعب الأحبار فقال: حدثني عن قول الله ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ﴾. قال: مثل نور محمد صلى الله عليه وسلم. الدر المنثور ١٩٨/٦.

(٤) في (ج): كالمعنى. وفي (ب) و (ج) و (د): كهذا كالمعنى. وأشار في (أ): بنسخة أخرى، بما أثبتناه.

(٥) سقط من (ب) و (د): فيه.

(٦) المدلهمات: المظلمات.

(٧) في (ب) و (د): يريد (مصحفة).

(٨) أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس رضي الله عنهما، في حديث قال في آخره: ﴿نور على نور﴾. يعني: بذلك إيمان العبد وعمله. الدر المنثور ١٩٨/٦.

وقد يتجه أن يكون الله سبحانه شَبَّه نبيه صلى الله عليه وسلم، كما شبه القرآن والإيمان بالمعنى الذي وصفناه.

ومعنى قوله: ﴿زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ﴾ [النور: ٣٥]، فهذه شجرة منبتها في مكان تطلع^(١) الشمس عليه ولا تزول عنها حتى تغيب، وهي الشمس الضاحية، وهو أنضج لثمرها، تكاد أن^(٢) ترى في الزيتون التي هي ثمرها وجهك من ودكها^(٣) من نقائه وصفائه^(٤)، فإذا وَقَدَ القنديل من زيت هذه الزيتون، كان أنور للمصباح، وهذه أمثالٌ ضربها الله للناس لعلهم يتفكرون.

وقال بعضهم: إن معنى: ﴿زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾. أنه: محمد صلى الله عليه يَصلي لا للمشرق ولا للمغرب، وَلَكِنْ لِكَعْبَةِ اللَّهِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ^(٥).



(١) في (أ): مطلع.

(٢) سقط من (أ): أن.

(٣) الودك: الدسم. معروف.

(٤) أخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد، قال: الضوء إشراق الزيت. الدر المنثور ٢٠٢/٧.

(٥) أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في نهاية حديث: ﴿لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ قال: ليس بنصراني فيصلني نحو المشرق، ولا ييهودي فيصلني نحو المغرب.

(الرد على من أنكر من الجهمية^(١) أن يكون الله سبحانه شيئاً)

الحمد لله الذي علا على الخلائق، فلم يغب عنه خفيات الأمور، وكل شيء عنده بمقدار، المنشئ لما أنشأه^(٢)، فشيأه شيئاً كما شاء، وجعله متناهيًا محدودًا، آثار الصنعة له لازمة، وأعلام العبودية فيه بينة، فأنشأ ما أنشأ نحوين: أحدهما مُبتدأ لا من شيء.

والثاني منقول من شيء إلى شيء، ومُحوّل من حال إلى حال، ومن طبيعة إلى طبيعة، كالمضغة تقلب من نطفة إلى علقة، والعلقة حولت مضغة، ثم جسدها^(٣) لحماً وأنشأها إنساناً^(٤)، فصيره بشراً مخالفاً للبهائم، في الشكل والهيئة، احتجاجاً من الله على خلقه، بما أراه من آياته فيهم.

وأن الله تبارك وتعالى وسم المعاني بأن قال: هي شيء، لإخراجه لها من العدم إلى الوجود لا أنه^(٥) وصفها بهذه الصفة بمعنى، ولا فرق بينها وبين شيء، إذ قال لها: إنها أشياء، لأنه أخبرنا أنه خالق كل شيء، فكل شيء سواه هو^(٦) خلق شيء، وكل خلق شيء في شيء، فقد خلق النار والثلج، فالثلج شيء، والنار شيء، وليس أحدهما بالآخر شبيهاً في لون ولا طبيعة ولا فعل، وإنما تماثلا في الشيئية، وقد اختلفا في الصفات، وإنما سميت الأشياء بأن قيل لهذا: شيء وهذا شيء، لإثبات الأشياء بأنها موجودة، وأنها ليست بعدم، وقد قال الله في كتابه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]. ذلك دليل على أن الله شيء لا كالأشياء، إذ الأشياء تهلك، وهو المهلك لما يشاء منها، وقد قال الله في كتابه: ﴿قُلْ أُمِّي شَيْءٌ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١٩]. فأخبر أنه

(١) الجهمية: نسبة إلى جهم بن صفوان، تفردوا بأن لا فعل للعبد، بل هو كالشجرة، وفناء الجنة والنار، وأن الإيمان المعرفة.

(٢) في (ب) و (د): المشي ما شاء. وسقط من (ب): ما شاء.

(٣) في (ب) و (د): جسداً.

(٤) في (أ): إنشاء.

(٥) سقط من (ب) و (د): إلى الوجود. وفي (أ): الوجود لأنه.

(٦) سقط من (ب): هو.

شيء أكبر الأشياء، ولو قال قائل: أي^(١) الملائكة أفضل؟ لم يجوز أن يقال: بعض المؤمنين من الآدميين هو أفضل، لأن الآدميين^(٢) ليسوا ممن ذكر في المسألة.

كذلك قال: ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهْدَةً﴾. علمنا أنه أجرى على نفسه الذكر أنه شيء ليس كالأشياء.

فإن سأل من الجهمية سائل: فقال: هل الله شيء؟

قيل له: نعم. الله شيء لا يُشَبَّه بالأشياء، الأشياء مشيئة، وهو سبحانه شيء لا مُشَيِّئاً.

فإن قال: أنت شيء؟

قيل له: نعم. أنا شيء مُشَيِّئ لا أُنِي غير مُشَيِّئ، والله شيء لا مُشَيِّئ، بل الله مشيء الأشياء لا يشبهه ما شئاً. وليس في قولي: أنا شيء والله شيء تشبيه، لما فصلناه من معنى الشيء والمشيئ، وأن قولي أيضاً شيء اسم لازم للجميع، وجارٍ على كل معنى، وثابت على كل موجود مشيئاً، كان أو يكون، ولا يقضي بإيقاعه على المسمين - مفرداً - ائتلاف ولا اختلاف، وذلك أنك تقول: الفيل شيء، والذرة شيء، وهما غير مشتهين في قولك: هذا شيء وهذا شيء، وكذلك تقول: الإنسان شيء، والشيطان شيء، وهما لا يتمثالان، وقد أوقعت على كل واحد منهما أنه شيء، وكذلك تقول: آدم صلى الله عليه شيء، وربنا شيء، وهما غير متماثلين.

فإن قال: أليس آدم مخلوقاً والذرة مخلوقة؟!

قيل له: بلى.

فإن قال: هل يتمثالان في أنهما خلق لله؟

قيل له: نعم.

فإن قال: ما فرق ما بين شيء وشيء وخلق وخلق؟

(١) في (أ): أن (مصحفة)..

(٢) سقط من (ب)، و (د): هو أفضل، لأن الآدميين.

قيل له: إن الخلق اسم له خلاف، وخلافه خالق، ولو قال القائل: الخالق مخلوق كَذَبَ، ولو قال القائل: الخالق شيء لم يكذب، والخالق هو خلاف المخلوق، ولا يوجد لشيء خلاف إلا شيء مثله موجود، ولا شيء إلا موجود، ولا موجود لا يكون لا خلاف ولا يكون خلافاً.

فإن قال قائل: إن لا شيء خلاف شيء.

قيل له: قد أنبأناك أن الشيء خلاف شيء، ولا يكون شيء خلاف لا شيء، ولا يكون لا شيء له خلاف، ولا يجوز أن يقال: لا شيء اتفاق ولا اختلاف، لأن هذا عدم لا يتوهم.

فإن قالوا: لمَ أجزت أن تقول: شيء وشيء وهما لا يشتبهان؟
قيل: من قَبْلُ أُنِي تَبَتُّهُمَا وَنَفَيْتُ عَنْهُمَا الْعَدَمَ، وَأَخْرَجْتُهُمَا مِنَ التَّعْطِيلِ.
فإن قال: لم قلت لا شيء؟

قلت: لنفي إثباته، وقلت: لا شيء لإخراجه من الوجود، وليس قولي هذا شيء ولا شيء تشبيه ولا غير تشبيه، وقول القائل: هذا شيء، وهذا شيء لا يجب به تشبيه، لأن التشبيه لا يجوز إلا على ضد أو مثل.

واعلم أن الضد هو غير الخلاف، وبيان ذلك أن كل ضد خلاف، وليس كل خلاف ضداً، والضد هو المصَاد، والخلاف هو الغير الذي ليس بمصَاد، وذلك لأنك تقول: هذا خلاف الله، ولا تقول: هذا ضد الله.

فإن قال قائل: ما بالك إذا قلت: لا شيء لا يقع اتفاق ولا اختلاف؟

قيل له: من قبل أن لا شيء عدم والعدم^(١) ليس بموجود، ولا هو موهوم، ما هو فيكون له شبهة، والشيء إثباتٌ ووجودٌ وموهومٌ إذا قلت: شيء ما هو، وأي الأشياء هو؟ إلا رب العالمين، فإنه شيء خالق الأشياء، وليس كالأشياء. وإنما قلت: إنه هو شيء لأثبتته موجوداً، وقولي: شيء ليس فيه تشبيه، لأني إنما أشيئه بقولي: شيء، وقد

(١) في (ب) و (د): عدم العدم.

يشتبه قول شيء وشيء^(١)، ولا يشتبه المسمى، إلا أن أوقع عليه من أي الأشياء هو وما هو؟ فحينئذ يشتبه المسميان،^(٢) فأما شيء وشيء فليس فيه اشتباه المعاني، وإن استوى قول شيء وشيء.

وقد يقال: الخنزير شيء، والكلب شيء، والإنسان شيء، وليس [في] هذا الاسم، الذي هو إثبات الشيء^(٣) منهم مدح ولا تهجين، إذا كانت التسمية مبهمة مفردة في الذكر، ولذلك لم يتع به تشبيه إذا قلنا: إن الله شيء، والإنسان شيء.

فإن قال: فإذا سميت الله شيئاً فقد سميته إما لا مدحة له فيه.

قلت: إني إذا سميته شيئاً ذكرته سبحانه بكلام آخر أصله به، فيكون مديحاً، لقولنا: الله شيء واحد كريم، والله شيء واحد عزيز، والله شيء ليس كالأشياء، فيكون ذلك مدحاً، ولا يذكر العبد التقى ربه إلا وهو فيما ذكر من أسمائه مادح، فإذا سمى الله العبد بأنه شيء لم يفرد، حتى يقول: الله شيء لا كالأشياء، فيكون الكلام كله مقروناً بكلام آخر على ما ذكرنا، كان كله مديحاً، وقول القائل للشيء هذا شيء، كلام مرسل غير مقرون بما يتجلى به^(٤) المعنى، فليس بدم ولا مدح، لقولك عرفت شيئاً، ولا يكون المعروف عندك مذموماً ولا ممدوحاً، حتى تقرنه بكلام آخر، فتقول: عرفت شيئاً هو صالح، وعرفت شيئاً هو فاسد، فيكون هنالك الذم والمدح، فلا يدرك بقولك هذا شيء وهذا شيء ائتلاف ولا اختلاف، فلا يرسل القول على الله بأنه شيء إلا مقروناً بكلام آخر، فيقول: هو شيء ليس كالأشياء، فيكون قولك: هو شيء بالصلة المقرونة مديحاً، فكذاك يقول القائل: هذا الثوب شيء حسن أفضل من غيره، فيكون بما أجرى به الثوب مديحاً، وإذا كان مرسلًا لم يكن له مدحاً ولا ذماً.

(١) في (ب) و (د): شيء بشيء.

(٢) في (ب) و (د): المسميات.

(٣) في (ب) و (د): إثبات لشيء.

(٤) سقط من (ب) و (د): به.

(الرد على من أنكر أن يكون الله واحداً ليس بذِي أبعاد)

الحمد لله الذي عن شبه كل شيء تعالى، وشاهد كل ملاء وهو في السموات العلى، على العرش استوى، ولا يخفى عليه النجوى، وهو يرى ولا يُرى، سبحانه، فليس عليه شيء يخفى، وليس كمثلته شيء، وهو الواحد الصمد الباري المصور، وليس بصورة بل هو مصوّر الصورة، وهو السميع العليم، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [الأنعام: ١٩]. يخبر بوحدانته في أي كثير.

والواحد في اللغة له معان:

أحدها: البائن بالفضل والسؤدد.

ومعنى آخر يقول الناس: هذا شيء واحد ليس له نظير في الشبه.

ويقال: هذا-وهذا واحد يُراد أنهما متماثلان، وقد يقول المرء: قولي وقولك واحد، أي مثله، ويقال: لأقل قليل القلة هذا شيء واحد، يراد ثباته وتعطيل الثاني، بمعنى ليس له نظير ولا شبيه، بمعنى أنه ليس فيه اختلاف، وهذا معنى قولنا الله واحد ليس من عدد، ولا هو عدد، كما الانسان واحد عدد، كما أن الانسان أعضاء وكل عضو يقال إنه واحد، فإذا اجتمعت الأعضاء قيل واحد، فهو واحد عدد آحاد، وهو من عدد آحاد مثله، لأنك تقول: هذا إنسان واحد، وتقول الآخر واحد فصاعداً، فكل واحد منهما واحد من عدد، وليس الله سبحانه واحداً من عدد، على معنى ما ذكرنا من معاني الواحد من غيره.

وقد قالت العرب: إن فلاناً واحد قوم أي: سيدهم، وهو واحد القوم، وإن كان له الاتباع والعبيد والأموال.

ويقال: إن فلاناً واحد الناس. أي: ليس له نظير، يعنون في السؤدد والكرم.

واعلم أن الله واحد في الربوبية والعز والكبرياء، واحد بنفسه لا غيره، وهو واحد لا ثاني معه، ولا مثل له في صفة ولا ذات، ولا في قول ولا في فعل، ولا في معنى من المعاني كلها، ولا له مثل في صفة ولا في معنى شرف وفضل، ولا يزول عنه هذا المعنى الذي هو شرف في كل معنى، إذ لا شيء يشبهه، ولا هو شيء يشبه شيئاً، ولو جاز

أن يكون له مثل في معنى، وكان ذلك يكون شرفاً لجاز أن يكون مثل غيره بكل معنى، ويكون ذلك له شرفاً، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

ومعنى من معاني الواحد هو الأول الفرد، ذلك في الحساب والعدد بين، إذ ^(١) لا يكون العدد إلا به، لأنك تقول: واحدٌ واثنان، فالثاني بالواحد كان، ولولا الواحد الذي هو أول الثاني، ما كان الثاني قبل الأول، كان واحداً، أكثر ^(٢) العدد الذي لا يحصى، وهو المكثّر لكل معدود، العدد الواحد يستزيد وبه يُزاد، ولولا هو ما كانت الزيادة، وكل ما زاد الحساب فبالواحد ^(٣) زاد، والواحد هو المفرد لما سواه، وهو أقدم من كل ما به ازداد، وكثرة العدد تزداد به، وتنقص به، فالواحد الذي به يزداد العدد وهو مقيم لكثرتّه، وبه يكون النقصان، وبه استوى الحساب، وبه يقل الكثير، ويكثر القليل، ويفرق بين الكثير والقليل.

فكذلك يقال الله واحد: بمعنى أول الأشياء، وبه كان كل شيء، وهو مشيئها، ومدبرها، بنفسه لا غيره، ولا يتغير لتكثيرها ولا لتقليلها، ولا عند بطلانها، ولا يختلف سبحانه عند شيء من اختلافها، وهو سبحانه القائم بإنشائها، لا يتغير ولا يدخل في التغيير، بل التغيير داخل على ما أنشأ، ولم يزل الله قبل أن يكون الشيء شيئاً، ثم إنه أراد إنشاء ما أنشأ، فأنشأ ما أراد إنشاءه على ما شاء، واضطر المنشأ إلى التغيير والزوال، والخطوط ^(٤) والنقص والنماء.

والله سبحانه واحد في معناه، لا في معاني ما أنشأه ^(٥) وهو الواحد لا من عدد، ولا فيه عدد به تجزأ، وليس شيء يقال: إنه واحد في الحقيقة غير الله، وكل واحد سوى الله فهو ذو عدد مجزأ ومن عدد، وذلك أنك تقول للواحد من الخلق: إنه له فوق

(١) في (ب) و (د): ولا.

(٢) في (ب) و (د): أكثر من العدد.

(٣) في (ب): بالواحد.

(٤) الخطوط: الحذر من علو إلى أسفل.

(٥) في (ب) و (د): ما أنشأه الله وهو (زيادة).

وتحت وأمام^(١) وخلف وشمال ويمين، وكل واحد كما ذكرنا غير الآخر، فهذا غير واحد مما يضمه^(٢) اسم الواحد، وهذا الواحد هو العدد، ومن عدد كثير من اللون وغير ذلك، هو من عدد له أشباه، والله واحد ليس بشيء من هذه المعاني المنقوصة شبيهاً، لأنه ليس له نظير.

فإن قال قائل: لم لا يكون قولك واحد تشبيهاً، وقد قلت لغير الله واحداً؟!

قيل له: إنا لم نقل لغير الله واحد، بمعنى ما قلت إن الله واحد، وليس واحد كالله في ربوبيته ووحدانيته، وليس من هو واحد في الحقيقة ليس بجزء ولا باثنين سوى الله، وكل ما سوى الله فقد يقال واحد وهو أكثر من اثنين إذا جُدد على وجه ما فسرنا من الحدود التي تلزم الخلائق، وذلك لأن كل واحد مما سوى الله فمفسد، وهو أكثر من اثنين. وإن قيل: إنه واحد على ذكرنا، فليس^(٣) الله بواحد كمعنى الآحاد المعدودة، وإنما هو إله واحد، ليس له ند ولا له شبيهة، تعالى عما يقول المشبهون علواً كبيراً.

ومعنى من معاني الواحد إذا أرادوا به دفع الاختلاف وحذف الجميع، كما قال الكميت^(٤) بن زيد الأسدي:

فَضُمُّ قَوَاصِي الأَحْيَاءِ مِنْهُمْ فَقَدْ رَجَعُوا كَحَيِّ وَاحِدِنَا

فإن قال قائل: فإذا قلت: إن الواحد من الحساب في جميع العدد، فكذلك يقول

(١) سقط من (ب) و (د): وأمام.

(٢) سقط من (د): مما. وفي (ب): واحد بضم اسم.

(٣) في (ب) و (د): وليس.

(٤) الكميت بن زيد الأسدي شاعر الهاشميين من أهل الكوفة، اشتهر في العصر الأموي. وكان عالماً بآداب العرب ولغاتها وأخبارها وأنسابها، ثقة في علمه. ولد سنة ٦٠هـ، وتوفي سنة ١٢٠هـ. أشهر شعره الهاشميات ترجمت إلى الألمانية، يقال إن شعره أكثر من خمسة آلاف بيت. والبيت من قصيدة له تسمى المذهبة التي مطلعها:

تشير إليه أيدي المهتدين

لنا قمر السماء وكل نجم

هجي بما أهل اليمن تعصبا لمضر.

الله في كل شيء.

قيل له: إن الله تبارك وتعالى في كل شيء مدبره، لا محويٍّ ومع كل شيء رقيب لا يحاط به، وليس هو في شيء من الأشياء، بمعنى كون الشيء في الشيء ولا شيء مع الشيء، كما ^(١) الله في الأشياء، ومع الأشياء على غير الإحاطة، ولا يعزب الله فيها ولا هي تعزب عن الله، وذلك لأن كل ما كان في فعله لم يقطعه، فالعرب تقول: إنه في فعله، كذلك الأشياء فعل الله ولم يقطع تدبيره منها، فلذلك قلنا: إن الله بكل مكان، فهو في كل شيء ليس بغائب عن شيء، وقد حقق الله مقالتنا في كتابه بقوله: ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ [الأعراف: ٧]. وقوله: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦]. وكذلك: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ بِعُهُمْ...﴾ [الحاقة: ٧].

ألم تر إلى المرء يصبح صائماً ثم يقوم مصلياً وهو في ثغر^(٢)، فيقال: إن فلاناً في صلاته وصيامه ورباطه، ويقال له ذلك في حال أقل قليل كونه في أفعاله، وأفعاله أفعال مختلفات بعضها غير بعض، ليس فعل يشغله عن الآخر، وهو في الوقت الذي هو في هذا الفعل فاعل للفعل الآخر، وليس فعله له بجوار، ولا فعله أيضاً فيه محويٌّ، فالله ^(٣) أقرب من الأشياء من الشيء^(٤) إلى نفسه، وهو بكل شيء أنظر وألطف.

فإن مَجَنَّ^(٥) السائل من أهل التشبيه، وذكر الأكبال^(٦) والقيود، وقال: هل الله فيها.

قيل له تقدس الله وجل أن نذكره بكلام فيه تهجين^(٧)، ولا يجوز أن نذكر أن الله في شيء ذكره تصغيراً بالمذكور، من أجل أن الله أخذ علينا في ميثاق الكتاب أن لا

(١) في (ب): كما قال الله.

(٢) الثغر: جهة الحرب.

(٣) في (ب) و (د): والله.

(٤) سقط من (ب): الشيء.

(٥) المحون: ألا يبالى الإنسان ما صنع.

(٦) الأكبال: جمع كُبل. وهو: القيد.

(٧) التهجين: التقييح.

نذكره إلا بالأسماء الحسنى، ومن الأسماء الحسنى كل اسم لا يكون معناه عند السامع محتمل التهجين، وقول القائل: ربه في السلاسل والكيول تصغير بذكر الله وتهجين، تعالى الله عز وجل، وارتفع عن ذلك وعن أن نذكره به، لأن المذكور بهذا مذكور بالإحاطة والقلة، والله عن ذلك يتعالى، وإذا ذكر الرب بالاسم العام كان له تعظيماً، وإذا ذكر بالاسم الخاص كان له تهجيناً، ولا يعرف الرب من ذكره بهجته، وقد دللنا على معنى صحيح، إذ قلنا إن^(١) الله في الأشياء مبثوثة، وإن خص السائل ذكر شيء هو بالمذكور تصغير وتهجين، ويذكر ما يكون حواء وإحاطة لم يميز الجواب فيه بنعم!

فإن سأل السائل ما الله تبارك وتعالى إذا قلت: هو الواحد؟!

قلنا: معنا^(٢) أن الله واحد أي: لا واحد سواه، إلا وله شبيه^(٣)، والله واحد ليس له شبيه، وهو يقيم الأشياء، وهو القائم بها لا غيره قامت الأشياء، وليس الله بذي أعضاء، بعضها لبعض مؤيد ولا ممسك، بل الله واحد ليس سواه واحد في معناه، وليس واحد سوى الله إلا وقيامه بغيره، وذلك أن الحركة لا تقوم في وقتها إلا بمحرك، كذلك اللون لا يقوم إلا بملون، والطول لا يقوم إلا بمطوّل، لأن ما ذكرنا كلها أجزاء، وإنما يُقوّم بعضها بعضاً، ولا يكون الجميع إلا باتصال الأبعاد، ولما كان على الجميع الأجزاء، جاز أن يكون مع الجميع ثانٍ، وراز أن يقال: هذا كان غير هذا. كذلك لا يقوم شيء مما ذكرنا من الخلق إلا في زمان ومكان، والله القائم بنفسه لا تجري عليه الأزمنة، ولا تحويه الأمكنة^(٤).

واعلم أن العدد من الحساب أصله وجوب الغير، ولا يقع الغير إلا على اثنين فصاعداً، فإن كان الاثنان جنسين مختلفين، جاز أن يقال: هذا غير هذا، فإن كانا مؤتلفين قيل: هذا وهذا واحد، وهذا واحد وهذا واحد، وكان كل واحد منهما غير الآخر.

(١) سقط من (أ) و (ج): إن.

(٢) معنا: أي: مقصدنا الذي عيناه وقصدناه.

(٣) في (ب) و (د): تشبيه.

(٤) في (ب) و (د): الأماكن.

وقد يقال للمؤتلفين الذين هما واحد: إن أحدهما غير الآخر، كعملي غير عملك، وإذا كان عملهما ديناً قال: هذا وهذا واحدٌ، وكل ما ذكرنا يحتمل التضعيف والزيادة، ويحتمل التضعيف أضعافاً، وكل ما احتمل الزيادة لم يكمل أبداً، فقد يحتمل النقصان، وكل ما احتمل النقصان أمكن أن يبيد، وهو أبداً منقوصٌ من صفة الكامل، والله واحدٌ لا بهذا المعنى، ولكنه واحد في معناه الذي ليس يشبه^(١) معاني البشر ولا الحساب، وهو إسقاط الثاني، وليس ثانٍ مع الله، ولا واحد غيره في معناه كهو، وإثباته واحداً تعطيل الثاني، وفي تعطيل الثاني توحيد الأول، والواحد الباقي الذي ما سواه فان.



(١) سقط من (ب): الذي. وفي (أ) و (ج) و (د): لا يشبه.

(الرد على من زعم أن لله وجهاً كوجه الإنسان)

الحمد لله الذي كل شيء هالك إلا وجهه، الذي به قامت سماواته وأرضه، واستوى على عرشه، فلا شيء في استوائه يماثله، لأنه عن شبه كل شيء تعالى، وهو لكلنا شاهدٌ ولنا باري، وكلنا عليه لا يخفى سامعُ النجوى، والعالم بما في الضمير وأخفى.

اعلموا رحمكم الله أن الله تبارك وتعالى أوحى إلى نبيه محمد صلى الله عليه كلامه، لساناً عربياً مبيناً، أوجز البلاغات وأبلغه إيجازاً، وليس للأُميين^(١) في اللغة أن يتأولوا في الكتاب ما لا يدركه المتأولون من رباني^(٢) اللغة والكتاب، وقد علم رباني اللغة أن لها تصاريف المذاهب وفنون الجهات، وأنها ذات قيم^(٣) وأمواج وأطناب ولطائف ودقائق في بيان.

وإن فرقة من البدعية^(٤) استعجمت في كتاب الله، وسارعت في تأويله من غير فصاحة بالتأويل، ولا فهم في الترتيل، ولا آلة في العلم باللغات، فتأولت بالعجمة إذ تأولته، ولما سمعوا كلام الله وما فيه من قول المطعمين: ﴿إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٩]، وقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٢٥]، وقوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [النبي: ٢٧]، وبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧]. إن

- (١) قال قطرب: الأمية الغفلة، والجهالة، وأيضاً معناها: قلة المعرفة.
- (٢) الرباني: المتأله العارف بالله. قيل منسوب إلى الربان. وقيل إلى الرب، أي: الله تعالى، فالرباني كقولهم: إلهي، وزيادة النون فيه كزيادته في جسماني، قال علي عليه السلام: أنا رباني هذه الأمة. والجمع ربانيون، قال تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَانِيُّونَ﴾. ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾. والرَّبِّي: بمعنى: الرباني في قوله تعالى: ﴿رَبِّيونَ كَثِيرٌ﴾. وقيل الرباني: لفظ في الأصل سُرياني.
- (٣) القيم: جمع قامة، وأمواج جمع موج وهو: الإضطراب. وأطناب: جمع طنْب ومن معانيها: الطرائق. ولطائف: جمع لطيفة. واللطيف من الكلام ما غمض معناه وخفي. ودقائق: جمع دقيقة، والدقيق: الغامض. والمعنى الإجمالي: أن اللغة العربية نواح عديدة وأبعادا وغوامض، لا تفهم إلا للمتبحرين في علومها.

(٤) البدعية نسبة إلى البدعة. واستعجم: التبس.

لله تعالى عز عن ذلك وجهاً كوجه الإنسان.

ونحن سائلوهم وبالله نستعين، ماذا أراد الله بقوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (١٧) شيء منه دون شيء؟ أم هو الله تبارك وتعالى يبقى؟! لأنه ليس بذئ جوارح متفاوتة، فإن رجعوا إلى النظر، وتصفية الجواب، علموا أن الله أراد بقوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ﴾، يعني: يبقى ربك، وإن كان شيء غيره فإن، لأن الله ليس مبعوضاً يبقى وجهه دون أبعاضه، تعالى الله عن التبعض.

فإن تقحّم^(١) ذو حيرة غمرات الكفر، وزعم أن له أبعاضاً أحدها وجه!!

قيل له: أخبرنا عن تلك الأبعاض التي أحدها وجه تفنى دون الوجه؟!

فإن زعم أنها تفنى دون الوجه صرح بشركه؛ وإن زعم أن الأبعاض التي هي غير الوجه تبقى مع الوجه!

قيل له: من أين قلت إن كلها تبقى؟! وقد قال الله عز وجل في كتابه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾، والأبعاض التي هي غير الوجه هي شيء، وقد قال الله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾، ولن تجدوا حجة^(٢) تدفعون بها الفناء عن الأبعاض التي هي سوى الوجه، إلا أن ترجعوا إلى قولنا. وقد قال الله في كتابه: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْغَفُونَ﴾ (٣٩: الروم). وقوله: ﴿إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٩]، فليس على الأوهام الطالبة إليه للحق في تأويل هذا مؤنة، إذا نظرت بصافي عقلها استبان أن معنى قوله: ﴿تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ أي تريدون الله وثوابه، وقوله: ﴿إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ﴾ أي لله، وقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾.

وللوجه في القرآن معانٍ في اللغة.

قال بعض العرب:

(١) التقحّم: الرمي بالنفس فجأة بلا روية.

(٢) في (أ): تجدوا علينا حجة.

أعوذ بوجه من تعنو الوجوه له بالله ليس له شبيهه^(١)
ومعنى تعنو الوجوه، أي: تستأسر^(٢) النفوس، وكل امرؤ أسير يرى على أنه لله
مستأسر، وإنما أراد بوجهه ذاته، فلما أن قال: أعوذ بوجه من تعنو الوجوه له، ثم قال
بالله، علمنا أنه إنما استعاذ بالله في قوله: أعوذ بوجه من تعنو الوجوه له.
وقال آخر:

إني بوجه الله من شر البشر أعوذ من لم يُعِذِ اللهُ دَمَر^(٣)

وقال آخر:

إلهي لا ربَّ لنا غير وجهه وليس له من صاحب لا ولا ند^(٤)

دليل على أنه أراد بذكره وجه الله أي: الله، ولم يرد بذكره وجهه، إنه بعض دون
أبعض، لأن الله سبحانه ليس بذئ أبعاض.
قال ذو الرمة^(٥):

أقمتُ لها وجه المطي فما درى أجائرةً أعناقها أم قواصِدُ

(١) لم أقف عليه.

(٢) أخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله ﴿وعنت الوجوه﴾ [طه: ١١١]. قال:
استأسرت، صاروا أسارى كلهم. الدر المنثور المنثور ٦٠١/٥

(٣) لم أقف عليه.

(٤) لم أقف عليه.

(٥) ذو الرمة: غيلان بن عقبة بن نيس العدوي، من مضر شاعر من فحول الطبقة الثانية في عصره كان
شديد القصر دميما أكثر شعره تشبيب وبكاء أطلال. عشق مئة المنقرية واشتهر بها. ولد سنة ٧٧
هـ، وتوفي سنة ١١٧ هـ، بأصبهان، وقيل بالبادية، له ديوان شعر مطبوع في مجلد ضخيم. والبيت
من قصيدة له مطلعها:

ألا أيها الربع الذي غيّر البلى. أنظر ديوانه.

فجعل للمطي وجهاً، وليس ذلك الوجه على ما يعقل من وجه الإنسان.
وقال آخر:

أعوذ بوجه الله من شر معقلٍ إذا معقلٌ راح البقيع وهجراً^(١)
وهذا دليل على أنه استعاذ بالله.
وقال آخر:

وَتَطْلُبُ المعروف في كل وجهٍ تخطى إلى المعروف نحو ابن عامر^(٢)
ويقال في اللغة: أخبرنا بالخبر على وجهه، ولا يتوهم للخبر وجهٌ على ما يعقل من
وجوه البشر، وقال الله سبحانه: ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ﴾ [البقرة: ١٤٨]. أي لكل قبلة^(٣).
وقال آخر في تأويلها: ولكل ملة.

ويتأول بعض أهل العلم: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ نَنْظِمِسَ وُجُوهًا﴾ [النساء: ٤٧]. أي ملة
نمسخهم^(٤) يعني أهل الملل، وإنما صارت الملة وجهاً، لأن صاحبها يتوجه إلى الرب بها.
وقال الشاعر:

درست وجوههم فكلٌ آخذٌ غير الطريق وكلهم متحير^(٥)

(١) لم أقف عليه.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ﴾، يعني بذلك أهل الأديان
يقول: لكل قبلة يرضونها، ووجه الله حيث توجه المؤمنون. الدر المنثور/٣٥٧.

(٤) أخرج الطسني عن ابن عباس أن نافع الأزرق قال له: أخبرني عن قول الله عز وجل: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ
نَنْظِمِسَ وُجُوهًا﴾، قال: من قبل أن نمسخها على غير خلقتها. الدر المنثور/٥٥٥/٢. وهو في مسائل
نافع بن الأزرق لابن عباس (بتحقيقنا).

(٥) لم أقف عليه.

فهذا دليل على أن الله أراد بقوله: (من قبل أن نطمس وجوهاً) أي: ملأً.
وقال آخر:

أضحت وجوههم شتى فكلهم لوجهته فضلاً على الملل^(١)
وقال عباس^(٢) بن مرداس السلمي:

أكليب ممالك كل يوم ظالماً والظلم أنكد وجهه ملعون
وقال الله عز وجل: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١١٢]. أي من أخلص دينه لله^(٣) فجعل للدين وجهاً.
وقال الشاعر:

وأسلمت وجهي لمن أسلمت لأرض تحمل صخراً ثقالاً
وأسلمت وجهي لمن أسلمت له المنز تحمل عذباً زلالاً^(٤)

وفي ذلك دليل على أنه أراد بالوجه الدين، وقال الله سبحانه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ [الروم: ٤٣، ٣٠]. ولم يرد الوجه دون القلب وسائر الأبعاد، وإنما تأويل أقم وجهك، أي: أقم نفسك للدين، وتأويل أقم نفسك للدين إنما هو: بالدين، وقال الله سبحانه: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَءَ النَّهَارِ وَكُفِّرُوا ءَاخِرَهُ﴾ [آل عمران: ٧٢]. يعني: صدر النهار. وقال

(١) لم أقف عليه.

(٢) عباس بن مرداس بن أبي عامر السلمي من مضر، شاعر فارس، من سادات قومه، أدرك الجاهلية والإسلام، وأسلم قبيل فتح مكة، وكان من المؤلفة قلوبهم مات في خلافة عمر سنة ١٨هـ، جمع الدكتور مجي الحسبوري ما بقي من شعره في ديوان مطبوع. والبيت مطلع قصيدة مكونة من سبعة أبيات انظر ديوانه.

(٣) أخرج ابن جرير عن مجاهد (من أسلم وجهه لله) قال: أخلص دينه. الدر المنثور ١/٢٦٣.

(٤) البيتان لزيد بن عمرو بن نفيل. أبو سعيد أحد العشرة. أنظر المعارف لابن قتيبة/٥٩، والأغاني للأصفهاني ١٧/٣، وتفسير ابن جرير الطبري ١/٣٩٣، وإثبات الحق على الخلق/٥٣.

بعض أهل العلم: أول النهار^(١). فذكر الله للنهار وجهاً، ولم يرد به وجهاً من الوجوه التي أمر بغسلها عند الوضوء، وقد يجوز في اللغة القول بأن^(٢) هذا وجه المتاع، وهذا وجه القوم وفاضلهم، وهذا وجه الدار، وهذا وجه الكلام، هذا وجه العمل، معنى قولهم هذا وجه الكلام، أي: صدقه وبيانه، ووجه العمل أي: العمل به صواب. وقال الله تعالى: قال تعالى: ﴿ذَلِكَ أَذُنِي أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَدَةِ عَلَيَّ وَجْهًا﴾ [المائدة: ١٠٨] أي: يأتوا بها على صدقها^(٣).

وتأويل قول الله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ له معان:

منها ما أريد به وجه الله من العمل الطيب، والقول الحسن^(٤).

ومعنى آخر في: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾. إلا هو^(٥). ومن أراد هذا المعنى قرأ وجهه مرفوعاً، وله سوى هذا أيضاً،^(٦) من أراده قرأه مفتوحاً، والمعنى فيه: ثواب الله عز وجل.

وقال الله عز وجل في كتابه: قال تعالى: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة: ٦]. فمعنى هذا الوجه معنى واحد، وهو الوجه الذي في الناس، وذلك عن الله عز وجل منفي، وقوله: قال تعالى: ﴿فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]. دليل على أنه الله، لأن الشرقي والغربي بين المشرق والمغرب لا يكون جهتهم جميعاً تلقاء وجه الله، لأن وجهه: الذي هم مقابلون دون ما سواه، فبطل قولهم في تأويلهم: ﴿فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾.

(١) أخرج ابن جرير عن قتادة، والربيع، في قوله تعالى: ﴿وجه النهار﴾، قالوا: أول النهار. الدر المنثور ٢/٢٤٠.

(٢) في (أ) و (ج): القول بمثل هذا.

(٣) أخرج ابن جرير وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: ﴿ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها﴾، يقول: ذلك أخرى أن يصدقوا في شهادتهم. الدر المنثور ٣/٢٢٦.

(٤) أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن سفيان قال (كل شيء هالك إلا وجهه). قال: ما أريد به وجهه من الأعمال الصالحة. الدر المنثور ٦/٤٤٧. وفي تفسير الغريب للإمام زيد بن علي عليه السلام ٢/٢٤. وهو قول مجاهد. انظر تفسير سفيان الثوري ١٩٤.

(٥) انظر تفسير الإمام زيد بن علي ٢٤٤.

(٦) في (أ) و (ج): وله شواهد أيضاً.

وزعموا أن وجهتهم جميعاً تلقاء وجه الله، وبطل قولهم: (خلق آدم على صورة وجه الله) ^(١)، لأن الصورة وجه، وهي لا تواجه إلا ما كان تلقاءها، ومما يبطل به قولهم في

(١) في جميع المخطوطات: تؤده وجه الله. ولم أهتم فيها إلى معنى يتوافق مع السياق، ومعنى تؤده: في اللغة: التمثل والرزنة. والذي يبدو أنهما تصحفت من كلمة صورة، سيما والحديث المشار إليه ذكرت فيه الصورة.

الحديث أخرجه البخاري (فتح ٣/١١). ومسلم (٢٠١٧/٤ رقم ١١٥). في الصحيحين من حديث أبي هريرة بلفظ (خلق الله آدم على صورته). ومثل هذا موجود في التوراة، فقد جاء في القسم الأول من الفصل الخامس من سفر التكوين: (لما خلق الله آدم، خلقه على صورة الله). وهذا الحديث باطل مردود إن لم يمكن حمله على وجه صحيح. قال الحافظ ابن حجر (قوله: خلق الله آدم على صورته). تقدم بيانه في بدء الخلق، واختلف إلى ماذا يعود الضمير، فقيل: إلى آدم، أي: خلقه على صورته التي استمر عليها إلى أن أهبط، وإلى أن مات، دفعا لتوهم من يظن أنه لما كان في الجنة كان على صفة أخرى. أو ابتدأ خلقه كما وجد لم ينتقل — في النشأة كما ينتقل ولده من حالة إلى حالة. وقيل: للرد على الدهرية أنه لم يكن إنسان إلا من نطفة ولا تكون نطفة إنسان إلا من إنسان، ولا أول لذلك. فبين أنه خلق من أول الأمر على هذه الصورة. وقيل: للرد على الطبائعيين الزاعمين أن الإنسان قد يكون من فعل الطبع وتأثيره. وقيل للرد على القدرية الزاعمين أن الإنسان يخلق فعل نفسه. (قلت يريد أن القائلين بأن الإنسان مخير في فعله قدرية، وهم يعتقدون أن الإنسان مُسَيَّر لا مخير. وهذه عقيدة المجرة وقد أبطلها الإمام القاسم عليه السلام بكتاب الرد على المجرة، من هذا المجموع). ثم قال ابن حجر: وقيل إن لهذا الحديث سبباً حذف من هذه الرواية، وأن أوله قصة الذي ضرب عبده، فنهاه النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك، وقال له: الله خلق آدم على صورته. انتهى كلام ابن حجر فتح الباري (٣/١١).

قلت: وتلك القصة التي أشار إليها الحافظ مروية في مسند أحمد (٤٣٤/٢). ورواها البخاري بنحوه في الأدب المفرد (٧٣). وابن أبي عاصم في سننه (٢٢٨ — برقم (٥١٦) (٥٢١)). والبيهقي في الأسماء والصفات (٢٩١). بتحقيق الكوثري. وذكرها الحافظ ابن حجر نفسه في الفتح (١٣٩/٥). وهي بلفظ (لا تقولن قبح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك). فإن الله خلق آدم على صورته. أي: صورة المقول له قبح الله وجهك... ويؤكد هذا ما أخرجه مسلم في صحيحه (٢٠١٧/٤). من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: (إذا قاتل أحدكم فليتنق الوجه، فإن الله تعالى خلق آدم على صورته). تأمل!! وأما المشبهة: فإنهم يحملونه على معناه الظاهري، ويعتقدون أن الله وجهها وصورة، بل قد وضعوا في ذلك كتباً مثل: عقيدة أهل الإيمان في خلق آدم على صورة الرحمن. للتوحيدي.

زعمهم، أن الله على العرش دون ما سواه، وأن الملائكة يسبحون من حول العرش، فقد أحاط المسبحون بالمسيح، إذ هم حوله، ولا يكون توجيههم وتسبيحهم تلقاء وجه الله. وإن قالوا: إن جهتهم جميعاً، وإن الله هو^(١) أينما تولّوا، رجعوا إلى التوحيد الأول.



(١) سقط من (أ) و (ب) و (د) و (هـ): هو.

(الرد على من زعم أن الله تدركه الأبصار وتحيط به الأعين تعالى عن ذلك)

الحمد لله الذي يدرك الأبصار، ولا تدركه الأبصار^(١)، وهو الواحد المتكبر، العزيز القهار: قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. زعم قوم من أهل الجهل أن العباد غداً يعاينون ربهم جهرة، ينظرون إليه كما ينظر بعضهم بعضاً، محاطاً به محدوداً، وتأولوا قول الله عز وجل: قال تعالى: ﴿وَجُودُ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]. وقوله: قال تعالى: ﴿لَلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ ۖ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]. وقوله: قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَّحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]. وقوله: يخبر عن موسى عليه السلام: قال تعالى: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، ونحن مقرّون بالنظر من أولياء الله في جنته على غير تحديد ولا إحاطة، جل الله وعز وتعالى علواً كبيراً.

والنظر له في لغة العرب معانٍ:

(١) وعن أنس رضي الله عنه:

((أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِأَعْرَابِيٍّ وَهُوَ يَدْعُو فِي صَلَاتِهِ وَهُوَ يَقُولُ: ((يَا مَنْ لَا تَرَاهُ الْعَيْنُ، وَلَا تَخْلُطُهُ الظُّنُونُ، وَلَا يَصِفُهُ الْوَاصِفُونَ، وَلَا تَغَيِّرُهُ الْحَوَادِثُ وَلَا يَخْشَى الدَّوَاتِرَ، يَعْلَمُ مَنَاقِلَ الْجِبَالِ، وَمَكَايِلَ الْبَحَارِ، وَعَدَدَ قَطْرِ الْأَمْطَارِ، وَعَدَدَ وَرَقِ الْأَشْجَارِ، وَعَدَدَ مَا أَظْلَمَ عَلَيْهِ اللَّيْلُ وَأَشْرَقَ عَلَيْهِ النَّهَارُ، وَمَا تَوَارَى مِنْهُ سَمَاءٌ سَمَاءً وَلَا أَرْضٌ أَرْضاً، وَلَا بَحْرٌ مَا فِي قَعْرِهِ، وَلَا جَبَلٌ مَا فِي وَعْرِهِ، اجْعَلْ خَيْرَ عَمْرِي آخِرَهُ، وَخَيْرَ عَمَلِي خَوَاتِمَهُ، وَخَيْرَ أَيَّامِي يَوْمَ أَلْقَاكَ فِيهِ)).

فوكّل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالأعرابي رجلاً، فقال: إذا صلى فائتني به، فلمّا صلى أتاه، وقد كان أهديّ لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذَهَبٌ من بعض المعادن، فلمّا أتاه الأعرابي وهب له الذهب، وقال: تَمَنُّتُ يَا أَعْرَابِي؟ قال: من بني عامر بن صعصعة يا رسول الله، قال: هل تدري لم وهبت لك الذهب؟ قال: للرحم بيننا وبينك يا رسول الله، قال: إن للرحم حقاً، ولكن وهبت لك الذهب بحُسنِ ثنائِكَ على الله عزَّ وجلَّ)).

قال الحافظ الهيثمي في (مجمع الزوائد) في (١٥٨/١٠): رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن محمد أبو عبد الرحمن الأذرمي وهو ثقة.

(٢) في جميع المخطوطات: ﴿لَهُمُ الْحُسْنَىٰ﴾. والآية كما أثبت. وهو سهو من النساخ.

أحدها: أن يلاقي الشيء جهراً، ويحيط به بالعيان بإدراك وتحديد، فيقال نظر إليه، وغوّن وأدرك وأبصر وجوهر.

ومعنى آخر: من معاني النظر لا بالعيان من بصر البصر، ولكن ينظر إليه بأفعاله، ومن ذلك قول العرب: انظر إلى شرائع الدين ما أحسنها، انظر إلى كلام عبد الله ما أفصحه وأبينه، انظر إلى ما صنع الله بعباده، وانظر إلى الذين جابوا الصخر بالواد ماذا صاروا إليه، فتجيب العقول له قد^(١) نظرت إلى ذلك كله ورأيت، لا بعيان البصر.

ويقال: إنه قد نظر في لغة العرب وما ينظر فلان إلا إلى الله، ثم إلى محمد، ويقول: ما ينظر إلا إلى عبد الله، وعبد الله^(٢) غائب. ومن ذلك النظر إلى الشيء بأفعاله وآياته لا بروحه وشخصه، وتقول: رأيت نفس زيد حين خرجت لا تريد بذلك نظر العين للروح، ويقال: رأيت عقل زيد صحيحاً، ونظرت إلى عقله، فرأيت عقلاً حسناً.

والعقل روحاني لا يرى بالعيون، لأنه ليس بشبح^(٣) ولا لون ولا جسم، ويقال: أحسنت النظر وأسأت النظر.

ومن ذلك قول الشاعر:

لا يزال وإن كانت له سعة
إلى الذي راه لم يظفر به نظر^(٤)

ولذلك تقول: رأيت حلم زيد وعقل عبد الله، وإنما رأيت الحلم والعقل بأفعال لهما، مع أشياء كثيرة، مما يجوز في اللغة، كقولك انظر إلى شدة غضبه، وانظر إلى شدة فرحه، وانظر إلى همه وعداوته، وهذه كلها روحانيات خفيات لا تدرك بأنفسها وقد تدرك بأفعالها، ويقال: رأينا غضبه ورضاه وما أشبه ذلك.

وقال الله: قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ [الفجر: ٦]، والذي قيل له: ألم تر هو النبي صلى الله عليه، وإنما النبي بعد قرون قبلها عاد، فرأى كيف فعل

(١) في (ب): فقد.

(٢) سقط من (ب): وعبد الله.

(٣) الشبح: الشخص.

(٤) لم أقف على هذا البيت ولا قائله.

ربه سبحانه بعاد^(١)، ولم ير ذلك بعيان جهرة. وقال: قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ [الفرقان: ٤٥]. وقال إبراهيم الخليل صلى الله عليه: قال تعالى: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [البقرة: ٢٦٠]. وقد رأى كيف أحياه الله من نطفة، ولكنه أراد أن يريه الله كيف يحيي الموتى من وجه من الوجوه، الذي عاين من إحياء الله سبحانه الأجسام الميتة من النطف وغير النطف.

وكذلك سأل موسى صلى الله عليه ربه فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]. ومعناه ومعنى الخليل صلى الله عليهما في نفس النظر سواء، لأهما أرادا أن يعاينا بأبصارهما من معالم الله وآياته ما لم يزل الله يملك من العالم والآيات، إلا أن موسى صلى الله عليه عاص فيما سأل من قبل أنه^(٢) سأل الله آية ليست من آيات الدنيا، ولم يكن له أن يسأل تلك الآية. وسأل إبراهيم ربه آية من آيات الدنيا، فلذلك لم يكن في سؤال الله عاصياً، وإبراهيم وموسى في سؤالهما وقولهما لم^(٣) يسألاً ربهما أن يرياه جهرة لمعنى ما يرى البشر البشر، لأن ذلك شرك، ولم يكن إبراهيم وموسى صلى الله عليهما بمشركين، والله لا تدركه الأبصار، وقد علما^(٤) ذلك، وكان موسى أعلم بالله من أن يسأل ربه أن يعاينه جهرة، بل أراد: أن ينظر إليه بآية يحدثها له فيراه، ليست من آيات الدنيا، ثم يكون له آية مرتجحة لا يحتملها الناس لو شاهدوها في الدنيا، إلا أن يزداد في قوى حواسهم.

فقل لموسى: إن بنيتك لا تحتمل ما سألت، واعرف ذلك بهذا الجبل فإنه أعظم منك خلقاً، وأشد منك قوة، وأشمخ منك طولاً وعرضاً، انظر إليه كيف يعجز عن إدراك ما سألت مثله^(٥)، ولم يكن الجبل بذي عقل، والله تبارك وتعالى لا يتجلى إلا

(١) سقط من (أ) و (ج): فرأى كيف فعل ربه سبحانه بعاد.

(٢) في (ب): أن يسأل.

(٣) سقط من (ب): لم.

(٤) في (ب) و (د): علما. مصحفة.

(٥) أخرج عبد بن حميد عن مجاهد، قال: لن تراني ولكن انظر إلى الجبل، فإنه أكبر منه وأشد خلقاً، قال:

﴿فلما تجلى ربه للجبل﴾ فنظر إلى الجبل لا يتمالك، وأقبل الجبل يندك على أوله، فلما رأى موسى ما

بالتجلي الذي به يُدرك، ولن يُدرك من ربنا إلا جلالته وآياته وتدبيره وصرفه، فبذلك يتجلي الله، وذلك بأنه^(١) سبحانه ليس بشخص. أحدث في الجبل عقلاً يدرك به ما يتجلي له، فإن^(٢) الله تبارك وتعالى أحدث آية فتجلي الله للجبل وجعلها آية سماوية ولم تكن أرضية. وقال بعض العلماء^(٣) أبرز بعض العرش للجبل، رواه يوسف بن الأسباط^(٤)، عن الثوري، وذلك قوله: قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣]. فعرف الجبل ربه بتجلي الرب له بما أظهر له، فعظم الجبلُ الله فبلغ من تعظيم الجبل لله أن تقطع وساخ وذهب.^(٥) وإن الله جعل ذلك موعظة للقلوب القاسية لتلين، والقلوب الناكرة لتسترشد، ولئن^(٦) ترجع القلوب إلى ربها بشدة الفكر والتعظيم لله العظيم^(٧).

فقال لموسى: قال تعالى: ﴿لَنْ تَرَنِى﴾ [الأعراف: ١٤٣] من وجه ما سألت، لأن التجلي إنما يكون من وجه يُدرك من المتجلي. فتجلي^(٨) الأشخاص للأبصار، ولا تجلى لغير الأدوات من الأسماع والآذان والملامس، وقد تجلى الأصوات للأسماع، وإنما يتجلي المتجلي من وجه ما يُدرك به، فقد يقول السامع للكلام، قد تجلى لي هذا الكلام، ولا

يصنع الجبل خر موسى صعباً. الدر المنثور ٣: ٥٤٤.

(١) في (أ) و (ج): بأن الله.

(٢) في (ب): وإن.

(٣) في (أ) و (ج): الحكماء.

(٤) في جميع المخطوطات: يوسف بن الأسباط. وهو تصحيف. والصحيح ما أثبتته. قال ابن حجر: يوسف بن أسباط بن واصل الشيباني الكوفي نزل قرية حلب وأنطاكية حدث عن عامر بن شريح، وسفيان الثوري ... الخ. تهذيب التهذيب ٣٥٨/١١. والثوري هو: سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري أبو عبد الله الكوفي، من كبار المحدثين الثقات الأثبات معدود من ثقات محدثي الشيعة، ويسمى أمير المؤمنين في الحديث. ولد سنة (٩٧هـ). وتوفي بالبصرة سنة (١٦١هـ).

(٥) أخرج ابن أبي حاتم، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن سفيان في قوله: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾، قال: ساخ الجبل إلى الأرض حتى وقع في البحر، فهو يذهب بعد. الدر المنثور ٣/٥٤٦.

(٦) في (ب): ولا ترجع (مصحفة).

(٧) في (د): العليم.

(٨) فتجلي أي: فتجلي بحذف التاء للتخفيف، كما في قوله تعالى: ولا تفرقوا.

يراد به عيان البصر.

والله تعالى ليس بشخص فتجاهره الأبصار، ولا هو صوت فتوعيه الأسماع، ولا رائحة فتشمه المشام، ولا حار ولا بارد، ولا خشن ولا لين، فتذوقه اللهوات، ولا تلمسه الأيدي، لأنه سبحانه خلق الأسماع وما أدركت، والأبصار وما جاهرت، والمشام وما شمت، واللهوات وما ذاقت، والأيدي وما لمست، فهذه الخمس المدركات، والخمس المدركات^(١) كلها محدثات مخلوقات، والله سبحانه لا يشبه شيئاً منها ولا فيها شيء يشبه الله، وكذلك لا يتجلى الله من وجه ما تتجلى هي، لأنها مخلوقات، وإنما يتجلى من وجه ما يجوز من صفته، يتجلى بآياته وتدبيره على خلاف تجلي ما سواه، وقد تجلى الله سبحانه في كتابه بكلامه لنا في وحيه وآياته، فهذا معنى من معاني تجليه عز وجل.

وقد يقول القائل: أرى عقلك صحيحاً، ويقول: إني أحب أن أرى عقلك وأمتحنه بتدبيرك، فإن أحسن التدبير قال له صاحبه: قد رأيت عقلك حسناً.

وأما قول الله عز وجل: قال تعالى: ﴿وَجُورُهُ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾^(٢) إِلَى رَبِّهَا نَاضِرَةٌ ﴿الْقِيَامَةُ: ٢٢-٢٣﴾، فقد روى الناس عن سلفنا أنهم قالوا: هو النظر إلى ما يأتيهم من أمر الله^(٣). وقال بعضهم: هو الانتظار لثواب الله^(٤). ولا يرى الله أحد،^(٥) وكلا

(١) في (أ): المحدثات.

(٢) قال الإمام زيد بن علي عليهما السلام: إنما قوله: ﴿نَاضِرَةٌ﴾ إلى أمر رها ناظرة من النعيم والثواب. تفسير الغريب/٣٥٩.

وقد رواه عن علي وابن عباس الربيع بن حبيب في مسنده، وعزاه إلى مجاهد ومكحول وإبراهيم والزهري، وسعيد بن جبير وسعيد بن المسيب ص ٢٢٦، ٢٢٨، ورواه في مجمع البيان والإحتجاج للطبرسي عن علي عليه السلام.

(٣) أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير، عن أبي صالح رضي الله عنه في قوله: ﴿وَجُورُهُ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾، قال: حسنة: ﴿إلى رها ناظرة﴾، قال: تنتظر الثواب من رها.

وأخرج ابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه في قوله: ﴿إلى رها ناظرة﴾، قال: تنتظر منه الثواب. الدر المنثور ٣٦٠/٨. وهو في تفسير الإمام زيد في سورة القيامة.

(٤) أخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾، قال: أول

القولين جائز.

ولسنا ننكر أن يكون أولياء الله في الجنة يرون ربهم لا بتحديد ولا إدراك إحاطة، وكذلك كان معنى قول مجاهد في أن لا يرى الله أحدًا، أي: لا يراه أحد بتحديد ولا إحاطة، ولكن يراه أولياؤه وينظرون إليه، نظر مخلوقين إلى خالق، ينتظرون ثوابه، ويرون تدبيره، لا كنظر مخلوقين إلى مخلوق، لأنه ليس كالمخلوقين. ويجوز أن يقال: نظر إلى من ليس كالمخلوق كما ينظر إلى المخلوق، وفي الخلق ما لا يُرى وهو الروح والعقل، وما أشبههما، فلا يقال: إن شيئاً من ذلك يُرى كما ترى الأشخاص، فكيف يقال: إنه يرى الله كما يرى الشخص.

وإذا ابتعث الله أولياءه من الأحداث أرسل إليهم ملائكته ليبشرهم بالجنة وينادونهم: قال تعالى: ﴿أَنْ تِلْكُمْ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]. وذلك قبل أن يدخلوها وهم ينظرون إلى أن ينيلهم ما وعدهم وما به بشرهم، فوجوههم يومئذ ناضرة بهجة مشرقة حسنة ناعمة، تنظر إلى ربها بالحب له والرضى عنه والرغبة إليه، ينظرون ما يأتيهم منه ما بشرهم به الملائكة، وإن الله عز وجل ينظر إليهم نظر الخالق إلى المخلوق المطيع الحبيب، وينظرون إليه بالرغبة فيما لديه نظر مخلوقين محبين إلى خالقهم المحبوب عندهم المنعم عليهم، نظر معرفة، لا نظر تحديد وإحاطة، والله ينظر إليهم، وقد كان يراهم في الدنيا، إلا أن نظره هذا نظر ثواب ورحمة ووفاء بما وعدهم، والمزيد لهم من كل كرامة إذ أدخلهم الجنة، فلا يزالون ينظرون إليه في جنته بالرضى عنه، والاستزادة مما عنده من فوائد النعم، وتُحَف الكرامات، مع ما قال لهم عز وجل: قال تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾^(١) [ق: ٣٥]، أي

المصدقين أنه لا يراك أحد.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس أيضاً قال في الآية: أنا أول من يؤمن أنه لا يراك شيء من خلقك. الدر المنثور ٥٤٧/٣. وأما عن مجاهد فقد سبقت الرواية عنه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ إليها ربها ناظرة.

(١) وقد نقل عن أنس في تفسيرها قال: يتجلى لهم الرب عز وجل. الدر المنثور ٦٠٥/٨. وهو قول باطل، ومعناها ما أشار إليه الإمام. قال الإمام زيد بن علي عليه السلام في قوله تعالى ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾:

مزيد^(١) من رهم، لا تنقطع التحف والخيرات الحسان من رهم أبداً عنهم، وينظرون إلى رهم في الجنة بمقعدهم، وسأهم فيه من الإزدياد من نعيمهم والإحسان إليهم، وإنما يوصف الله سبحانه بنظر أوليائه إليه، بهذه المعاني التي ذكرنا ولا ينظر إلى الله أحد من أعدائه يوم القيامة بمعنى ما ينظر أولياؤه.

ويقال في اللغة: إنما ينظر العبد إلى سيده، وإنما ينظر إلى الله ثم إليك، يريدون بذلك ما يأتي من المنظور، وعلى هذا المعنى قول الناس:

وقال الله تبارك وتعالى يخبر عن أعدائه، إنه لا ينظر إليهم ولا يكلمهم^(٢) فيها وفي الحالة التي لا ينظر إليهم الله يراهم، وقوله: قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٧٤ آل عمران: ٧٧]، أي لا يسألهم، وقد كلمهم بما فيه حزنهم، وإن العالمين بالرب علم اليقين عاينوا بيقينهم^(٣) القيامة، وأبصروا وجوهاً مسودة، وقد علاها القتر والعبوس، جزاء بما كانوا يصنعون، فراعهم ما أبصروا بيقينهم من تلك المفضعات، فحذروا أن

إن الرجل يسكن في الجنة سبعين سنة قبل أن يتحول، ثم تأتيه امرأة فتضربه على منكبيه، وتنظر في وجهه، فخذها أضاء من المرأة! وإن أدن لؤلؤة عليها تضيء ما بين المشرق والمغرب فتسلم عليه، فيرد عليها السلام. ويسألها من أنت، فتقول أنا من المزيد... إلخ. تفسير الغريب/٣٠١. وأخرجه ابن مردويه عن أنس بن مالك باختلاف يسير. الدر المنثور ٦٠٧/٨.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه فسر لها بغرفة من لؤلؤة واحدة لها أربعة أبواب. وهو مروي عن علي عليه السلام.

وعن ابن عباس، والحسين، وعلقمة: أن الزيادة مضاعفة الحسنة إلى عشر أمثالها.

وعن الحسن ومجاهد أنها مغفرة من الله ورضوان.

وعن محمد بن كعب ما يزيدهم الله من الكرامة والثواب.

انظر الجامع الصحيح للإمام الربيع بن حبيب ٢٣٢/٣ ط مكتبة الاستقامة، وتفسير ابن جرير ١١/٧٥، ٧٦ ط. دار الباز. وتفسير الغريب للإمام زيد بن علي عليهما السلام.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن علقمة بن قيس قال: الزيادة العشر (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها). وهو مروي عن الحسن أيضاً. الدر المنثور ٣٦٠/٤.

(١) سقط من (ب): أي مزيد.

(٢) والآية: ﴿وَلَا يَكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران ٧٧].

(٣) في (ب): يقينهم.

يكونوا: من الذين قال الله: قال تعالى: ﴿وَجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠] و: قال تعالى: ﴿تَرَهَقَهَا قَتَرَةٌ﴾ [عبس: ٤١] ^(١) فلم يكذبوا على ربهم إذ سمعوه عز وجل يقول: قال تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْآبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، وهذه مدحة لله وحسن ثناء عليه وتعظيم له، فاستيقنوا أن الثناء والمدح عن الله غير حائل في الدنيا ولا في الآخرة، وأبصروا بيقينهم في القيامة إلى وجوه ابيضَّت، فهي ناضرة مستبشرة ضاحكة مسفرة، إلى ربها ناظرة في رُوح وجنات عالية، يخبرون فيها بصدقهم عن الله في القول والعمل له، والموافقة له في الأيام الخالية، فلذلك وضع القوم كلامهم من ربهم حيث وضع الرب، ولم يقولوا بغير ما قال الله لهم، وقالوا: كما قال لهم ربهم إلى ثواب ربها ناظرة، ولم يقولوا لربها مجاهرة.

وإنما الشيء إذا جُوهَرُ نُظِرَ إليه بالعيان لا بالوجه، لأن الوجه غير العين، ولو كان ما قالوا على ما ادعوا لقال الله في كتابه أَعْيُنٌ إلى ربها ناظرة، لأن الوجه لا يرى ولا يبصر، وإنما البصر للرؤية والعينين اللتين في الوجه، فهذه معانٍ لطيفة مفصلات في النظر.

وقد قال إبراهيم الخليل، لابنه إسماعيل، صلى الله عليهما: ﴿إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ [الصافات: ١٠٢]. وليس ذلك رؤية حسٍّ، ثم قال: انظر ما ذا ترى، ولم يرد إدراك العين ولا إحاطة البصر، في قوله: ما ذا ترى في الذبيح أن يسلم لربه نفسه، ويجود له بها، فرأى موافقة أبيه في طاعة ربه بما أمره، فأمكنه من ذبحه واستسلم لربه، وليس ذلك النظر بالعين ورؤيتها.

وكان مما احتج به القوم أن قالوا: إن موسى صلى الله عليه سأل ربه فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾، وقد بينا ما أراد موسى بقوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾، ولم يكن ذلك سؤالاً للنظر الذي هو رأي العين، بالإحاطة والتحديد جهرة، وقد رأينا الله عز وجل: ذكر في كتابه حدث موسى في قتله القبطي، وما أخبرنا سبحانه عن آدم صلى الله عليه في معصيته بأكل الشجرة، وسمعناه عز وجل يذكر في كتابه أحداث

(١) في جميع المخطوطات: عليها قتره.

أنبيائه مُعيّاً لأحداثهم، ولم يكن ما عاب من أحداثهم عند الله موبقاً ولا كبيراً، بل كانت أحداث أنبيائه صغائر، ولم تكن بكبائر، وكان الله عز وجل يأخذهم في عاجل الدنيا من أجل أحداثهم التي لم تكن بكبائر، حبس بعضهم في الظلمات في جوف الحوت^(١)، وبمعان ذكر الله عز وجل في كتابه وكيف صنع بيني إسرائيل، ولم ينجمهم من الله إلا النقلة عن صغائرهم والاستغفار بالإنيابة والندم، وقد سأل قوم موسى فقالوا: ﴿أَرْنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ [النساء: ١٥٣]، ليكون في ذلك مزدجر للآخرين، وليحذروا مصارع الذين سألوا رؤية الله جهرة فأخذهم الصاعقة، فزجر الله العباد عن السؤال عما يضاهاى ما سأل القوم نبيهم صلى الله عليه من رؤية الله جهرة^(٢).

فكيف يُتوهم أن يكون موسى صلى الله عليه وسلم، سأل ربه مسألة القوم الذين أخذوا بالنقم، لأجل تلك المسألة التي سألوا موسى أن يريهم الله جهرة، وقد علم موسى أن سؤالهم عن ذلك شرك، وقد نفى موسى قومه عن معاني الشرك كلها، ولم يكن صلى الله عليه عليه ليخالفهم إلى ما فُهاهم عنه، لأن مسألة القوم له كفر، ولا يجوز أن يُتوهم على موسى أن يسأل الله مسألة هي كفر، ولو كانت مسألة موسى على ما يتوهم المشبهون لتزلت به من العقوبة مثل ما نزل بغيره، ولغلظ الله عليهم تغليظاً يعلم العباد أنه أكبر من الصغائر، وفي تكفير الله عز وجل الذين قالوا: ﴿أَرْنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ إخراج مسألة موسى من معنى رؤية الجهرة، وإخراجه من جهل القوم بالله.

ويقال لهم: هل يدرك البصر إلا شخصاً أو لونا؟

فإن قالوا: لا.

قيل لهم: أخبرونا عن ربكم، أتقولون إنه لون؟!

فإن قالوا: نعم.

(١) يونس عليه السلام.

(٢) قال تعالى: ﴿أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ [البقرة: ١٠٨]. وقال تعالى

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرْنَا

اللَّهُ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٣].

قيل لهم: فمن أين قلتم ذلك وما بينتكم عليه؟! ولن تجدوا سبيلاً إلى إثبات اللون إلا من وجه الرواية، فيعارضون بأضداد رواياتهم، فإن جعلوا الرواية حجة لم يصح لهم دعوى ولا لنا، لأنهم رَوَوْا خلاف ما رَوَيْنَا ورَوَيْنَا خلاف ما رَوَوْا، ولا بد أن يكون أحدنا محققاً والآخر مبطلاً، وفي إنبطال قول أحدنا إبطال أحد الأثرين، وفي إبطال أحد الأثرين إخراج الأثر الشاذ من الحجة، لأن الشاذ من الأثر لا يكون مثل كتاب الله ولا سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، مع ما يدخل عليهم من التناقض في إثبات اللون لمعبودهم، من وجه ما ذكرنا من^(١) إيجاد العجز عليه وإلزام النَّصَب، لأن لون الحدقة غير لون اللسان، ولون اللسان غير لون الوجه، وفي الغير وجوب الاثنين فصاعداً، لأن اللسان غير العين، والعين مخالفة للسان، وكذلك كل جزء غير ما يليه، وهو مقصر عن صفة غيره.

فإن قالوا: ليس لوناً.

قيل لهم: كيف ترى العيون ما ليس يكون لوناً، والعيون لا ترى في العقول إلا ملوناً؟! ملوناً؟!

وإن لجأوا إلى أن يقولوا: إن الله يعطيهم حاسة سادسة في القيامة^(٢) بها يدركون رهم إدراكاً^(٣) الجهر، يُسألون عن الذي يدركون رهم به، أليس قد نال ثواباً لم ينل الجزء الذي كان في الدنيا له ناصباً عاملاً؟! فيكون الثواب لمن لم يطع، ولا ثواب إلا لمن أطاع^(٤).

(١) سقط من (ب) و (ج) و (د): من.

(٢) هو قول ضرار بن عمرو المعتزلي والمعتزلة لا تورده في طبقاتها، فله أقوال توافق المعتزلة وأخرى توافق الأشاعرة، منها نسبة الأفعال إلى الله. ولنا في إبطال دعواهم أن قوى وحواس الناس تتغير وتقوى يوم القيامة عما هي عليه في الدنيا قول الله سبحانه: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نَعِيدُهُ﴾. يعني أن الله سيعيدنا مثل ما كنا وكما بدأنا سبحانه وتعالى.

(٣) في (ب): إذا زال (مصفحة).

(٤) يعني: إذا أعطينا حاسة سادسة على حد زعمهم، فإنها هي التي سترى الله على زعمهم فتنال الثواب الذي هو الرؤية مع أنها لا تستحق ثواباً، لأنها لم تطع في الدنيا لأنها لم تخلق إلا في الآخرة مع أنه لا

ويقال لهم: كيف يسمى المطيع مدركاً وليس هو المعاین؟! وإنما المعاین هو السادس المحدث لهم في الآخرة.

وُسألون هل يجوز أن يعطوا سابعاً يدركون به لمسه أو ذوقه أو شمه، كما جوزتم السادسة التي بها تكون الرؤية، ليكون ذلك أتم لنعيمهم إذا لمسوا ما عاينوا وصافحوه وذاقوه وشموه؟! فإن جوزوا ذلك جعلوه منفصلاً بائناً بعيداً مبعضاً، وفي الانفصال والبينونة والبعض والبعد وجود العجز والنقص، والعاجز الناقص ليس بالكامل التام القوي القادر، وليس العاجز الناقص بإله، فتعالى الله عن العجز والنقص.

وقد أجمع المصلون معنا أن إلهنا عز وجل لا تدركه الأبصار إلا فرقة من الروافض ووافقتهم الحشوية فقالوا: إن النبي صلى الله عليه رأى ربه أبيض مجسم الشعر. ورووا من وجه آخر أنه رُوي في صورة الشاب المراهق مقصصاً^(١).

فعزم بعضهم أن هذه الرواية كانت بالقلب^(٢)، وزعم آخرون أنها كانت بعيان النظر^(٣). وقد رووا بخلاف ذلك: أن ثلاثاً من قال واحدة منهن فقد أعظم الفرية على

ثواب إلا لمن أطاع.

(١) في (ب): مفضضاً. روى الطبراني في الكبير (١٤٣/٢٥)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٤٤٧/٤٤٦)، وابن الجوزي في الموضوعات (١٢٥/١): (رأى ربه عز وجل في المنام في أحسن صورة، شاباً موفراً)، وبلفظ (رأيت ربي أجعد أمرد عليه حلة خضراء). ورووا عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه - وحاشاه - قال: (ولما أسري بي رأيت الرحمن تعالى في صورة شاب أمرد له نور يتلألأ، وقد نهيت عن وصفه لكم، فسألت ربي أن يكرمني برؤيته، وإذا هو كأنه عروس حين كشف عن حجابيه مستو على عرشه). اللأئي المصنوعة للسيوطي وإن كان قد وضعه السيوطي في الموضوعات لكن له أصل عندهم. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. وقد طعن في الحديث البخاري في تاريخه (٥٠٠/٦). وأحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، والنسائي (تاريخ بغداد ٣/٣١١). وابن حبان في الثقات (٢٤٥/٥). وابن حجر في تهذيب التهذيب (٩٥/١٠).

(٢) أخرج النسائي، عن أبي ذر، قال: رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ربه بقلبه ولم يره ببصره. الدر المنثور ٧/٦٤٩.

(٣) أخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى ربه بعينه، الدر المنثور ٧/٦٤٧. وعن ابن عباس: رآه بقلبه. مسلم ١/١٥٨ (٢٨٤) و (٢٨٥).

الله^(١)، ومن زعم أن محمداً رأى ربه، وفي هذا انتقاض الخبر، وإذا تناقض الشيء لم يكن بحجة، وأولاهما بحجة العقل أشبههما بكتاب الله.

ويقال لهم جميعاً: أخبرونا إذ زعمتم أن النبي صلى الله عليه حين رأى ربه، هل كان يقدر عقل النبي على^(٢) صفة ما رأى؟! فإن قالوا: نعم.

قيل: فكان يقدر أن يخيل ما عاين؟!.

فإن قالوا: نعم جوزوا القدرة على صفة الله وإحاطته والتفكير فيه، والله عز وجل يقول: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

وإن قالوا: لا يقدر على تخيله بقلبه.

قيل لهم: فكيف يدرك ما لا يتخيل ولا يحيط به العقل؟!، وهذا محال بين؛ لأن الإدراك أكثر من التخيل، وإذا بطل التخيل لم يصح الإدراك.

ويقال لهم: أخبرونا إذا جوزتم أن يكون النبي صلى الله عليه رآه، فما يشعركم لعله أسرَّ إلى بعض أصحابه صفة تحديد، فَوَرَّثَ ذلك صاحب علم التحديد من بعده

(١) أخرج البخاري عن مسروق، قال: قلت لعائشة رضي الله عنها يا أمتاه هل رأى محمد صلى الله عليه وسلم ربه؟ فقال: لقد قف شعري مما قلت: أين أنت من ثلاث من حدثكهن فقد كذب، الحديث بطوله ٤٩٢/٨ مع شرح الفتح.

وأخرج مسلم عن مسروق قال: كنت متكئاً عند عائشة فقالت: يا أبا عائشة ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية، قلت ما هن؟ قالت: من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية، وقال: وكنت متكئاً فجلست فقلت: يا أم المؤمنين، أنظريني ولا تعجلي، ألم يقل الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ﴾، ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾. فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إنما هو جبريل، لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين، رأيته منهبطاً من السماء ساداً عظم خلقه ما بين السماء إلى الأرض، فقالت: أو لم تسمع أن الله يقول: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ...﴾. صحيح مسلم ٨/٣ بشرح النووي.

(٢) سقط من (ب): على.

إلى يوم القيامة. فيكونوا لم يدركوه كما أدركه.

فإن قالوا: فقد يمكن أن يكون ذلك فقد عبدتم ما لا تعرفون.

ويقال لهم: أليس قد يمكن أن يكون وارثُ ذلك يصفه بصفة تحديد، ويخيله بقلبه على غير ما تخيله ذلك العالم بصفته، فقد عبدتم خلاف ما عبد النبي صلى الله عليه وآله وسلم؟!

فإن احتج القوم بقول الله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦]. كان جوابنا أن الذين يظنون، أي: يوقنون أنهم مبعوثون بعد الموت للثواب والعقاب.

وكذلك تأويل قوله: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ [الكهف: ١١٠]. وقوله: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾ [الفصل: ٨٥، العنكبوت: ٥]. أي من كان يؤمن بالبعث فإن وعد الله ووعيده للذين هما الجنة والنار لآت، وليس ذلك اللقاء رؤية، ولو كان لقاء رؤية لقال: من كان يرجو لقاء ربه فإن الله يُلاقى.

ويسألون عن الذين كفروا بلقاء ربه [هل يلقيه]^(١) فإن قالوا: نعم، لم يفرقوا بين الذين يظنون أنهم ملاقوا ربه في الآخرة، وبين الذين كفروا بلقاء ربه، لأن هؤلاء لا قوه.

وإذا زعموا أن اللقاء عندهم الرؤية، فما الفرق بين الولي والعدو، إذا كانا يلقيان ربهما واللقاء رؤية، والرؤية عندهم أفضل الثواب.

وإن زعموا أنهم لا مؤمنون ولا مصدقون بتكذيب الكافرين من لقاء ربه، جحدوا قول الله سبحانه: ﴿يَأْتِيهَا آلَافُ نَسْنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]. وقوله: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾

(١) أشار في (أ) و (ب) و (د) إلى بياض، ولعله ما أثبت بين المعكوفين. وفي (ب) و (د): من لقاء. وفي (ج): عن لقاء.

[التوبة: ٧٧]. فقد أخبر أنهم منافقون وأهم يلقونه، وإذا زعموا أن اللقاء رؤية، فالمنافق والنبي صلى الله عليه وآله وسلم يريانه بزعمهم، إذ كان اللقاء عندهم رؤية، فما فضل ثواب النبي صلى الله عليه وآله وسلم على عقاب المنافق؟!

بل لا فضل بينهما إذا اشتركا في أفضل الثواب وهو الرؤية، وفساد هذا المعنى بين، وذلك لأنهم تأولوا لقاء الله تحديداً بالإحاطة، وزعموا أيضاً أن النبيين عليهم السلام يشتهبون في لقاء الله الذي هو رؤيته، إلا أن يزعموا أن اللقاء غير الرؤية فيصيروا إلى قولنا.

وإن هم سألوا عن التأويل للقاء الله؟

قلنا لهم: إن الأعداء والأولياء كلهم ملاقوا ربه، ولقاءهم ابتعائهم^(١) من أجدائهم، ومصيرهم إلى معادهم يوم محشرهم،^(٢) ويوم إلى الله مرجعهم.

وتأويل ما سألوا عنه من قول الله سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، وذلك أن الله عز وجل لا ينالهم برحمته وهم عن ربه محجوبون، وترجمت^(٣) هذه الآية آية أخرى قوله: ﴿لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ٧٧]. أي: نظره إلى أوليائه برحمته، ولا يسمعهم كلاماً لهم فيه سرور ولا فرح، ولا ينظر إليهم أي: لا ينيلهم رحمة ولا يأتيهم بفرح.

وقد أجمع أهل الصلاة أن الله لا ينظر إلى أعدائه، وهو يراهم في الحالة التي لا ينظر إليهم فيها، وفي ذلك دليل أن أوليائه ينظر إليهم أي: يرحمهم، وهو يراهم وينظر إليهم برحمته، ونظره إلى أوليائه برحمته، وذلك نظره الذي كان لأوليائه ولم يكن لأعدائه، وكذلك ينظر أوليائه إليه لا بمعنى جهره وإحاطة منهم به، ولكن ينظرون إليه على خلاف التحديد والإحاطة، وقد قالت العرب: ما ننظر إلا إلى سيدنا.

(١) في (ب) و(ج): ابتعائهم.

(٢) في (ب) و(د): حشرهم.

(٣) ترجمت: أي: فسرت.

وأجمع المسلمون على الدعاء إلى الله أن قالوا: اللهم انظر إلينا، والدعاء على عدوهم أن قالوا: لا ينظر الله إليهم، وليس ذلك سؤالاً منهم له أن لا يراهم، وذلك أنهم يعلمون أن الله عز وجل يراهم، ولم يعلموا أن الله ينظر إليهم نظر رحمة ورضى، وقد علموا أن الله عز وجل يراهم ويرى كل شيء، وأن الأشياء كلها له جهرة، وإنما أراد المسلمون بدعائهم الله أن ينظر إليهم: أن يكرمهم ويجود برحمته عليهم.

واعلم أن الله عز وجل إذا مدح نفسه بمدحة لم يُزلها عن نفسه في آخرة ولا دنيا، كذلك قال الله سبحانه: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْآبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]. فالله لا يزيل مدائحه.

وزعم العمدة أن محمداً صلى الله عليه وعلى آله وسلم رأى^(١) ربه حين أسري به تكذيباً للقرآن، ورداً على الرحمن، واحتجوا بقول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۖ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ﴾ [النجم: ١٣-١٤]. فظنوا أنه رأى ربه، وإنما ذلك جبريل^(٢) صلى الله عليه، رآه نبي الله على خلقته التي عليها جبل، ولم يره النبي صلى الله عليهما على تلك الخلقة قط إلا مرتين، جعل الله ذلك آية بينه وكرامة شريفة عالية، وذلك قوله عز وجل: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ [النجم: ١٨].

(١) روى الخطيب البغدادي في تاريخه (١٥١/٨ - ١٥٢). وابن الجوزي في العلل المتناهية (٣٠/١). عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: (لما كنت ليلة أسري بي رأيت ربي في أحسن صورة). وأخرج الترمذي وحسنه والطبراني، وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات، عن ابن عباس في قول الله ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾. قال ابن عباس: قد رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ربه عز وجل. الدر المنثور ٦٤٧/٧.

(٢) أخرج أحمد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، في العظمة عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم ير جبريل في صورته إلا مرتين أما واحدة فإنه سأله أن يراه في صورته ففسد الأفق، وأما الثانية فإنه كان معه حيث صعد، فذلك قوله: ﴿وهو بالأفق الأعلى﴾، لقد رأى من آيات ربه الكبرى. قال: خلق جبريل. الدر المنثور ٦٤٣/٧. وأخرج مسلم، والبيهقي في الدلائل عن أبي هريرة في قوله ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾. قال: رأى جبريل عليه السلام. الدر المنثور ٦٤٩/٧.

[١٨]. فأين الله عز وجل من آياته؟! فكيف يتوهم أن النبي صلى الله عليه رأى الله، والله يقول: ﴿رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾، وليس الله سبحانه بالحواس مُدركاً.

وتوهموا أن تجلي الرب سبحانه للجبل هو أن بدى^(١) للجبل وبرز له بذاته، من غير أن يكون للجبل من المقام في طاعته، والمترلة الرفيعة، ما لموسى صلى الله عليه، مع ما اختص الله به موسى بكلامه تكليماً، واستخلاصه إياه بالرسالة، ثم سأل موسى ومسألته لله أن يراه بزعمهم ذلك، وكان ذلك منه دليلاً، ثم اختص الجبل الذي لم يكن الله كلمه تكليماً، ولا اصطفاه برسالته فبدى له بذاته وبرز له متجلياً، وخصه بكرامة لم يجعلها لجبريل ولا لميكائيل ولا للملائكة المقربين، ولا للمرسلين^(٢)، وقد قال الله عز وجل: إن أولياءه غداً ينظرون إليه في جواره، ليس ذلك النظر إحاطة ولا تحديداً، بل ينظرون إليه من غير^(٣) تحديد، وذلك النظر أفضل من دركهم.

والدرك دركان، فدرك هو المشاهدة والملاقة جهرية.

والدرك الثاني ما يرد على القلب، وقد أدرك المؤمنون في الدنيا ربهم وعرفوه بقلوبهم، فلذلك أطاعوه، وذلك لما أحبوه^(٤): ولهم في هذا الدرك سرور ولا نغيب^(٥)

(١) أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي في الرؤية عن ابن عباس ﴿فلما تجلى ربه للجبل﴾. قال: ما تجلى منه إلا قدر الخنصر. الدر المنثور ٥٤٥/٧. تعالى الله عن هذا علواً كبيراً!!

(٢) أخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿وخر موسى صعقاً﴾. قال: غشي عليه إلا أن روحه في جسده ﴿فلما أفاق قال﴾. لعظم ما رأى ﴿سبحانك﴾. تزيها لله من أن يراه ﴿تبت إليك﴾. رجعت عن الأمر الذي كنت عليه ﴿وأنا أول المؤمنين﴾. يقول: أول المصدقين الآن أنه لا يراك أحد. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس ﴿وأنا أول المؤمنين﴾. يقول: أنا أول من يؤمن أنه لا يراك شيء من خلقك. الدر المنثور ٥٤٧/٧.

(٣) سقط من (ب): غير.

(٤) سقط من (ج): لما. وفي (أ): وذلك ما أحبوه.

(٥) في (أ): ولا يغيب، وفي (ب): لا يغيب، الباء مهملة إلا أن الكمبيوتر لا يكتب الباء إلا معجمة، وكذلك بقية الحروف المعجمة. وفي (ج): ولا يغيب. وفي (د): لا يغيب، وما أثبت اجتهاد والله أعلم.

عليهم في السرور الذي نالوه من معرفة الدرك لله، والمؤمنون يتفاضلون في الدرك لله، وذلك بين فيما يرى منهم في اتصال السرور بالمعرفة، على حسب اتصال المعرفة بالقلب، وكلما ترقى العارف في معارج المعرفة ترقى في معارج السرور.

وقد ترى جمهور أمتنا ^(١) يعلمون أن الله عالم بعلمهم، أن الله عالم، دركاً به عرفوا الله، فهذا الدرك هو درك العلماء بالله، فإذا نزل بهم تفصيل معاني دقائق مسائل تدخل في الكلام في العلم، كان ^(٢) ذلك دركاً هو عند العالمين بالله، الذين هم في معاني درجات العارفين بالله، ^(٣) فإذا أخذوا في ذلك العلم وجدوا في ذلك سروراً.

فالناس لا يستوون في درك الله في الدنيا في تفاضلهم، وكذلك يتفاضلون غداً في إدراك الله، للمعنى الذي ليس هو تحديد الله، ^(٤) فيكون الله يعطيهم من ذلك العلم ما لا يخطر على قلب بشر في الدنيا، مما فيه السرور والتنعم للعالمين بالله في الدنيا، ما لا يعطي كثيراً من سواهم من العلماء الذي هم دونهم، وقد عرفنا درك المؤمنين في الدنيا كيف هو. وأما درك المؤمنين في المعاد، فإننا لا نعلم كيف هو، لأننا لم نره وهو في الآخرة ثواب، والثواب مؤجل، وكلما كان من ثواب الله في الجنة فلا يعلم كيف هو إلا الله، إلا أنا نعلم أن معنى الدرك له في الجنة ليس بتحديد ولا إحاطة، فاعرف معاني الدرك واعرف ^(٥) فضل الدرك الذي يكون في الآخرة، على فضل الدرك الذي يكون في الدنيا.

ولو أمد الله عز وجل الأبصار بالمعونة، حتى تدرك أقل قليل نقطة من القطر في مدلهم ليل عاتم ^(٦) تحت الأرض السفلى، من أبعد غايات السماوات العلى، ما أدركت

(١) في (أ) و (ج): أئمتنا.

(٢) في (ب) و (د): كان في ذلك دركاً (زيادة).

(٣) في (أ) و (ج): في المعاني درجات والعارفين بالله.

(٤) في جميع المخطوطات: تحديد لله. ولعل العبارة كما أثبت، أو: ليس هو تحديداً لله. أو بتحديد الله. والله أعلم.

(٥) سقط من (ب): إحاطة فاعرف معاني الدر واعرف.

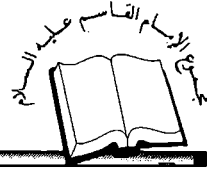
(٦) في (أ) و (ج): غائم.

الأبصارُ اللهُ، وكذلك لو أُمِدَّتِ الحوَّاسُ كلها بالمعونات حتى تدرك كل محسوس ما هجم^(١) منها شيء على الله سبحانه، تبارك وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

تم كتاب المسترشد والحمد لله كثيراً وصلى الله على سيدنا محمد النبي وأهله الطاهرين وسلم تسليماً.



(١) في (ب) و (ج): ما هجم عليه منها شيء على الله سبحانه.



البرء على العجبة



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المحسن إلى جميع خلقه، بما عمَّهم من فضله وإحسانه، الذي: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]. الذي خلق خلقه لعبادته، وقوَّاهم على طاعته، وجعل لهم السبيل إلى ما أمرهم به، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. وقال: ﴿وَمَا أَمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ [البينة: ٥]. وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]. وقال لموسي وهارون صلى الله عليهما: ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ [الشعرا: ٢٩]. فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٣-٤٤].

فزعمت القدرية الكاذبة على ربها، أن الله عز وجل عن قولهم: خلق أكثر خلقه ليعبدوا غيره، ويتخذوا الشركاء والأنداد، مع قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]. ومع قوله: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ [النساء: ١، الحج: ١، لقمان: ٢٣]. وقوله: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩، المائدة: ٩٢، النور: ٥٤، محمد: ٣٣، التغابن: ١٢]. وقوله: ﴿قُلْ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [يونس: ١٠٨]. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٣٩].

فزعموا أنه لم يُرد منهم أن يطيعوا رسله، وأن الله أمر بما لا يريد، ونهى عما يريد. وخلقهم كفارا، وقال الله: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٠١]. ومنعهم من الإيمان، وقال: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ﴾ [النساء: ٣٩]. وقال: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ [الإسراء: ٩٤، الكهف: ٥٥]. ومنعهم من الهدى، وأفكهم، وقال: ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥، التوبة: ٣٠، المنافقون: ٤]. وصرفهم عن دينه، وقال: ﴿أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ [غافر: ٦٩].

فافهموا - وفقكم الله - ما يتلى عليكم من كتاب الله، فإن الله يقول: ﴿وَشَفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧]. ويقول: ﴿كَتَبَ عَزِيزٌ﴾ [الأنعام: ١١] لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ

يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤١﴾ [فصلت: ٤١-٤٢]. ويقول: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الحاثية: ٦]. ويقول: ﴿اتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٥٥].

وقد بين الله للخلق، واحتج عليهم بما بين لهم في كتابه، وأمرهم بالتمسك بما في الكتاب، والافتداء بما عن نبيه^(١) جاءهم، فإنما هلك من كان قبلهم، بإعراضهم عن كتاب ربهم، والترك لمن مضى من أنبيائهم، من أهل الكتاب وغيرهم.

فاتقوا الله^(٢)، وانظروا لأنفسكم قبل نزول الموت، واعلموا أنه لا حجة لمن لم يحتج بقول الله^(٣)، فإن الله سبحانه يقول: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦]. فاسمعوا قول المفترية على الله. فمن قولهم: إنه لم يعمل أحد خيرا ولا شرا.. فرد الله عليهم مكذبا لهم: فقال: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالُهُمْ﴾ [محمد: ١]. وقال: ﴿كَفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ١٠٩]. وقال: ﴿وَقَوْمٌ نُّوحٌ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْعَىٰ﴾ [النجم: ٥٢]. وقال: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢]. وقال: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [غافر: ١٧]. وقال: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]. مع الآيات الكثيرة المحكمة الواضحة، من كتاب الله، تصديقا لما قلنا، وتكذيبا لما قالوا.

وإنما أنزل الله الكتاب لِيُتَمَسَّكَ بِهِ، قال لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿اتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [الأحزاب: ٢]. وقال: ﴿فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣-١٢٤]. وقال: ﴿اتَّبِعْ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٠٦]. ثم قال لجميع الأمة: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣]. فاتقوا الله ولا تقولوا على

(١) في (أ): نبهم. وفي (ج): بينة. (مصحفة).

(٢) سقط من (ج): الله.

(٣) في (أ): بكتاب. وكتب فوقها قول. وفي (ج): بقول كتاب الله.

الله إلا الحق، فقد بين لكم آثار من مضى من أسلافكم، وقص عليكم قصة من كان قبلكم، من المؤمنين والصالحين، ومن أوليائه المرسلين، وما أمركم من الاقتداء بهم، ورغبكم في مرافقتهم^(١)، وقد خبركم ما قد أصبح بمن خالفهم^(٢) وسلك عكس طريقهم، من قوم لوط، وأصحاب فرعون، فأخذهم الله بذنوبهم فقال: ﴿فَكَارَ أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٣٩]. وقال، سبحانه لنبيه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٨٢]. وقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۖ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْأَوَّلُونَ﴾ [الزمر: ١٧-١٨].

ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ ۚ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥].

فهذا ما أخبر الله عز وجل ذكره عن جميع عباده، كيف من ضل منهم، واهتدى من اهتدى منهم، ومن بعدما قد حكى الله من أنبيائه صلوات الله عليهم، وعلى آدم وحواء، قال الله: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١] ثم قال: ﴿أَلَمْ أَنهَكُمَا عَنْ تِلْكَمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢]، فاعترفا بذنوبهما، فقالا مقرين تائبين عن معصيتهما: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

ولم يقولوا: معصيتنا من الرحمن وإرادته.

والقدرية والمجبرة يقولون: معصيتنا بقضاء الله وإرادته، خلافا على أبي البشر عليه السلام.

وقال الله، عز وجل، يخبر عن موسى صلى الله عليه: ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ [القصص: ١٥]. ولم يقل: هذا من الله ومشيته. وقال يعقوب عليه السلام: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ﴾ [يوسف: ١٨]. والقدرية

(١) في (أ) و (ج): هم في مرافقتهم.

(٢) في جميع المخطوطات: خالفكم. والسياق يؤكد ما أثبت. فلعلها مصحفة.

تقول: إن الله سؤل لهم ذلك. وقال يوسف صلى الله عليه: ﴿ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾ [يوسف: ٩٦]. وقال يخبر عن يونس، عليه السلام: ﴿ فَتَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧]. والقدرية تزعم أن الظلم قضاء رب العالمين. وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضَلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنْ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّي ﴾ [سبا: ٥٠]. فجعل ضلالته من قبل نفسه، وهُداه من قبل ربه، موافقة لله، إذ يقول سبحانه: ﴿ إِنْ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۖ ﴾ [الليل: ١٢]. وقال: ﴿ الَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۖ ﴾ [الطارق: ١]. وقال: ﴿ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا ﴾ [النساء: ١٧٦]. أي لئلا تضلوا. وقال: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾ [فصلت: ١٢]. فكل ما كان من هدى فقد أضافه إلى نفسه، وكل ما كان من ضلال فقد أضافه إلى خلقه، والله أولى بما أضاف إلى نفسه، والعباد أولى بما أضاف إليهم، وكانوا هم المعتدين الظالمين، الجائرين المخالفين لقضائه وقدره، تبارك وتعالى.

فأقرت الأنبياء، صلوات الله عليهم بالإساءة والتقصير، فيما أغفلت وقصرت، وأضافت ذلك إلى أنفسهم، وإلى الشيطان، معرفة منهم بالله، أنهم لم يؤثروا في ذلك من ربه. وخالفت المجبرة والقدرية كتاب الله، ووافقت الشيطان، قلة معرفة منهم بعدل الله في خلقه، ورحمته لهم، وانتفائه من ظلمهم، في قوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٠].

فقد ذكرنا جملة مما احتج الله على القدرية الكاذبة على الله في كتابه، وعلى النبيين. وكيف يتوهم عاقل، أو ينطوي قلب مؤمن؟! أنه مصيب مع خلافه لقول الله وقول أنبيائه؟! إن من ظن ذلك لقد جهل جهلاً مبيناً، وضل ضلالاً بعيداً.

فرغموا من بعدما حضرنا ما ذكرنا، وما لم نذكر من حجج الله عليهم، وما قد رد الله من مقالهم، وأكذبهم ما لا يحصى، فرغموا أن الله خلق الخلق صنفين، وجعلهم جزأين، فجعل صنفاً يعبدونه، وصنفاً يعبدون الشيطان، وجعل من يعبد الشيطان أكثر من يعبد الله، فأكذبهم بقوله: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

ثم زعموا أن الله تبارك وتعالى، رضي بذلك وأراده وأحبّه، ^(١) وأنه لا يرضى أن يعبد من أَرْضَاهُ أن يكفر به، ^(٢) تكديبا بقول الله وردا عليه. إذ يقول: ﴿لَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]. ويقول: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]. فتعالى الأمر بالعدل والاحسان، أن يكون راضيا بالمنكر والعدوان، لأنه لا يريد الظلم ^(٣) لأنه عدل، ولا يريد الفساد لأنه مصلح، ولا يحب المنكر لأنه حكيم حاكم بالحق.

وقال سبحانه ردا على من زعم أن الله أراد الكفر والظلم، فقال سبحانه: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣١]. وقال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]. وقال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ...﴾ ^(٤) إلى قوله: أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ [النساء: ٢٧-٢٦]. فأخبر أنه يريد أن يبين لنا ويهدينا، وأن الشيطان يريد خلاف ذلك بنا. إذ كان سبحانه ناظرا رحيمًا بنا، وكان الشيطان عدوا لنا مبغضا، فلا يكون الناظر لنا يريد بنا عدوانا. وقال: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨]. وقال: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧]. وقال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]. في أي كثيرة، ولولا طول الكتاب ذكرها، وفيما ذكرنا كفاية. والحمد لله.

زعمت القدريّة: أن العباد ما شاءوا شيئا قط، ولا يريدون شيئا، والله هو المريد

(١) في (د): وأوجه.

(٢) كذا في جميع المخطوطات: وقد استشكل العبارة في (أ) وقال: كذا. والمعنى أن الله لا يرضى أن يعبد الذين قد رضي أن يكفروا به.

(٣) في (ب) و (د): الظلم ولا يشأوه.

(٤) تكملة الآية: ﴿ويتوب عليكم والله عليم حكيم، والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات﴾.

للظلم، والغرأة^(١) عليه، فرد الله عليهم بقوله: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]. و: ﴿مَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [الزمل: ١٩، الإنسان: ٢٩]. وقال: ﴿كَأَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ ۚ﴾ [في صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ ﴿٢٣﴾] [عبس: ١١-١٣]. وقال موسى، عليه السلام: ﴿لَوْ شِئْتُ لَتَّخَذْتُ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف: ٧٧]. وقال أهل الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ [الزمر: ٧٤]. فذكر الله المشيئة في غير موضع من الكتاب، وذكر أن العباد يريدون ويفعلون ويشاءون، تكذيباً لمن قال بخلاف ذلك.

فقد ذكرنا جملة من كتاب الله تبارك وتعالى، مما فيه رد عليهم، وحجة بلاغ لقوم عابدين.

[أُسْئَلَةُ إِلَى الْجِبْرِ]

ونحن سائلون بعد ذلك، وبالله نستعين، مع أن في المسألة آيات كثيرة مما قد دل الله العباد، وبين لهم أنهم يشاءون ويريدون، ويرضون ويحبون.

فأما المشيئة فقال: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠]. وقال: ﴿مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٥٧].

فأما الإرادة فقال: ﴿مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

وأما الرضى، فقال: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩].

وأما المحبة، فقال: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ [الحشر: ٩]. وفي ذلك آيات كثيرة مما لم نذكره.

ثم يقال لمن زعم أن الله خلق أكثر خلقه ليعبدوا غيره: ما حججتك وما برهانك على ما ادعيت من ذلك؟ أبكتاب الله ما قلت؟! أم بسنة؟ أم بقياس؟

(١) في جميع المخطوطات: والغراء. ويبدو أنها مصحفة. والغراء والاغراء اسمان لمعنى واحد.

فإن ادعا حجة من الكتاب سئل؟

فإن قال: قلت: يقول الله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

يقال له: إنا لم^(١) نسألك عما أجبت، وإنما سألناك عن قولك: خلق الله أكثر خلقه ليعبدوا غيره، فمن زعم أن الله خلق أكثر خلقه للكفر والمعصية، فلا يجد إلى ذلك سبيلا. مع أن لقوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾. تأويل عدل الله، وإنما ذرأ للجهنم من عصاه، وابتغى غير سبيله، فجعلهم ذرأ جهنم، جزاء بما كانوا يكسبون، ويعملون.

ثم يُسأل عن قوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]؟ فإن زعم أن ذلك خاص في المؤمنين! سئل عن الحجة في ذلك والدليل على ما قال؟ ثم يعارض، فيقال له: إذا زعمت أن ذلك خاص، ثم زعمتم أن قوله: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]. فإن كان خاصا إلى المؤمنين، والمؤمنون قد آمنوا، فما معنى قوله: آمنوا، وقد آمنوا؟! فلا يجدون وجه الآية أبدا^(٢) إلا قول الحق خاصا في المؤمنين، دون الكافرين، ولا يجدون فرقا في ذلك.

ثم يُسألون فيقال: أخبرونا عن إبليس، خلقه الله ليعبده؟ أو ليعبد من دونه؟.. فإن قالوا: خلقه ليعبده. تركوا قولهم. وإن قالوا: ليعبد من دونه، زعموا أنه أول من أشرك بنفسه، إذ جعل إبليس ليعبد من دونه ويشركه في عبادته، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

ثم يقال لهم: إن زعمتم أن الله خلق خلقه كفارا، وأمرهم بالإيمان، أفليس قد أمرهم أن ينتقلوا من خلقهم، وأن يصيروا إلى خلاف ما خلقهم عليه؟! فإن قالوا: نعم. قيل لهم: فلم لا يجوز أن يخلقهم سودا ويأمرهم أن يصيروا بيضا، كما خلقهم كفارا، وأمرهم بالإيمان؟! فلا بد من إجازة ذلك، أو يتركوا قولهم.

(١) في (أ): لا نسألك.

(٢) في (ب) و (د): الآية إذا.

ثم يُسألون أيضاً، فيقال لهم: إذا خلق الكفار كفاراً، أيجوز أن يكون الكفر فعل الكفار؟

فإن قالوا: نعم. قيل لهم: وكذلك يجوز أن يخلق الأبيض أبيض، ويكون البياض فعله، ويخلق الأسود أسود ويكون السواد فعله!!

وإن سألوكم فقالوا: إذا زعمت أن الله تبارك وتعالى، خلق العباد للإيمان، فلم يؤمنوا، لم لا يجوز أن يخلقهم للموت فلا يموتوا؟

فقل لهم: إنما أعني بقولي: إن الله خلقهم ليفعلوا الإيمان، ولم يخلقهم للموت ليفعلوا الموت، فهذا فرق ما سألتكم عنه.

فإن قالوا: خلقهم للإيمان فلا يؤمنون؟

قلنا: نعم. كما أمرهم بالإيمان فلم يؤمنوا.

فإن قالوا: فما أنكرتم من أن يخلقهم للإيمان كما خلقهم للموت؟

قيل لهم: من قبل: أن معنى قولي: خلقهم للموت، أريد أن الله خلقهم ليميتهم ويضطرهم إلى ذلك، فلو كان خلقهم للإيمان كما خلقهم للموت كانوا كلهم مؤمنين، كما كانوا كلهم يموتون، ولو كان ذلك كذلك، لم يجز أن يأمرهم بالإيمان، ولا ينهاهم عن المنكر والكفر، كما لا يجوز أن يأمرهم بالحياة، ولا ينهاهم عن الموت، ولا يجبرهم على شيء من ذلك، ولا يشبههم به. فمن هاهنا أنكرنا ما ذكرتم. ثم يقال لهم: إذا زعمتم أن الله خلق الناس كفاراً، فمن جاء بالكفر؟ من خلقه؟ أو من لم يخلقه؟!

فإن قالوا: من خلقه يقال لهم: فما معنى قوله: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ۖ تَبَكَّاءُ السَّمَوَاتِ يَتَّقَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَخُزُّ الْجِبَالِ هَذَا ۖ﴾ [أن دعوا للرحمن ولداً] ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مرم: ٨٩-٩٢]. وقوله: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا نُكْرًا﴾ [الكهف: ٧٤]. فهل يكون هذا على معنائكم وأصلكم ومذهبكم إلا كذباً؟! لأنكم زعمتم أن الله تبارك وتعالى، جاء به. وقال للكفار: أتم الذين جئتم به. فلو أردتم تصفون ربكم بالكذب كيف كنتم تقولون؟! وهل يجوز هذا عندكم؟! وفي عقولكم أن يكون للصادق أن يفعل شيئاً، ثم يقول لغيره: أنت فعلته!

ولو جاز أن يكون فاعل هذا صادقا، جاز أن يكون من فعل شيئا وجاء به، وقال: أنا جئت به أن يكون كاذبا، مع: أن الله تبارك وتعالى، قد عاب فاعل ذلك وذمه، فقال: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١١٢].

وإن زعم أن الكفر جاء به من لم يخلقه، ومن خلقه لم يجئ به خرج من المعقول، ولزمه أن يقول: إن من لم يخلق الموت هو الذي جاء به، ومن خلقه لم يجئ به، وهذا خروج من عقول الخلائق.

فإن سأل سائل عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩]. فقال: إذا كان قد أخبر أنه خلق لجهنم كثيرا من الجن والإنس، كيف يزعم أنه لخلقهم لعبادته؟ وإلا فبينوا ما تأويل الآية عندكم؟! فأول ما نجيبه أن نقول له: ينبغي أن تعلم أن كتاب الله لا يتناقض ولا يختلف، ولا يكذب بعضه بعضا، لأن الاختلاف لا يأتي من عند حكيم، وقد قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]. فإذا علمت أن ذلك كذلك، فقد وضح لك الأمر، أمر الآية من قبل أنه أخبرنا أن خلق الإنس والجن لعبادته، وقال في موضع آخر: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾. ثم أخبرك من هم فقال: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا...﴾ إلى آخر الآية [الأعراف: ١٧٩]. فينبغي لك إذا ورد عليك شيء من كتاب الله، مما ذهب عنك معناه، أن تسأل عنه العلماء، فإن الله عز وجل، يقول: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣، الأنبياء: ٧]. وقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ١٩]. وليس ينبغي لعاقل أن يدع ما علم لما جهل، وليس لك أن تشك في الواضح إذا ذهب عنك الخفي، فينبغي للعاقل أن يتمسك بالواضح من كتاب الله، وبالحكم من كلام الله، فإن في ذلك تبيانا وشفاء لمن طلب الحق وأراد. وقد رغب الخلق في التمسك بالحكم من كتابه، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامِنًا بِهِ﴾ [آل عمران: ٧].

وأنا مخبرك بتأويل الآية: قال بعض أهل العلم: إن معنى قوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩]. يريد الإعادة ولم يرد ابتدأهم للجهنم. ألا ترى أنهم كانوا في الدنيا يتمتعون ويأكلون!

ولكن لما علم تبارك وتعالى، أن أكثر عاقبة هذا الخلق يصيرون إلى جهنم بكفرهم، جاز على سعة الكلام ومجاز اللغة: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾. وإن كان إنما خلقهم في الابتداء لعبادته، وذلك جائز في اللغة. وقد قال نظير ما قلنا في كتابه في موسى، عليه السلام، قال: ﴿فَأَلْتَقِطَهُ عَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَرِثًا﴾ [القصاص: ٨]. وإن كانوا إنما التقطوه ليكون لهم قرة عين، وهكذا^(١) حكى الله عن امرأة فرعون، إذ قالت: ﴿قُرْتُ عَيْنَ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ [القصاص: ٩]. ومثل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]. لما كان عاقبة أمرهم إلى ذلك، وإن كانوا لا يأكلون في الدنيا إلا الأحبصة،^(٢) والفالوذجات، والأطعمة الطيبة.

وقد قال الشاعر ما يدل على ما قلنا من ذلك:

أموالنا لذوي الميراث نجتمعها ودورنا لخراب الدهر نبنينا
وللمنايا تربي كل مرضعة وللحتوف برى الأرواح باريها^(٣)

والوجه الثاني قال فيه بعض العلماء: إن معنى قوله: ﴿ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾: خلقنا، ومعنى خلقنا: على أن سنخلق، وليس على قد خلقناكم في الابتداء للجهنم، وإنما أراد

(١) في (ج): وهذا.

(٢) في (ب) و (د): وإن كانوا يأكلون الأحبصة. وفي (أ) و (ج): وإن كانوا لا يأكلون في الدنيا إلا حببصة. وما أثبت ملفق من الجميع. والله أعلم بالضواب. والخببصة: الحلوى المحبوسة. والفالوذج: يقال فيه: فالوذ، وفالوذق. ولا يقال فالوذج، قاله الجوهري. فارسي معرب. وهو نوع من الحلوى مصنوع من لب الخنطة.

(٣) البيتان من قصيدة للإمام علي عليه السلام. ديوان الإمام قافية الهاء.

به في القيامة، كما قال: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ﴾ [الأعراف: ٤٤].
على معنى سينادون، وكما قال: ﴿قَالَ الَّذِينَ أَسْتُضْعَفُونَ لِلَّذِينَ أَسْتَكْبَرُوا﴾ [سبأ: ٣٣].
إنما يريد الله بقوله سنخلقهم بمعنى الإعادة، وهو يوم القيامة في النشأة الأخرى، فهذا تأويل الآية.

وإنما يدخلون جنة بأعمالهم جزاء بما كانوا يكسبون، وجزاء بما كانوا يكفرون، وجزاء بما كانوا يعملون، قال الله عز وجل: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩].
يعني لا يفقهون بها، وقد كانوا يفقهون ما يقولون، ويصرون ما هو ألطف من الخردل، ويسمعون ما يريدون، ويستثقلون ما لا يريدون. فعلى هذا المعنى تأويل الآية، وكل آية تشبهها.

ومن سألك فقال: مَنْ خلق الشر؟!

فقل له: إن الشر على أمرين: شر هو أَلَمٌ وأذى وعذاب، وشر هو ظلم وجور وكذب وعيب.. فعن أي الشرين تسأل؟

فإن قال: عن الظلم والجور.

فقل: إن الظلم من أفعال الظالمين، والجور من الجائرين، والكذب من الكاذبين.

فإن قال لك فالجور مَنْ خلقه؟

فقل له: لم نقل إنه مخلوق، فتسألنا عن خالقه. فإن قال لك: فَلَمْ يَخْلُقْ الله الكذب، والجور؟!

فقل له: إن معنى خلقه: فعله، والله لم يفعل الجور والكذب والظلم، لأن الجور والكذب لا يفعله إلا كاذب جائر ظالم.

فإن قال: ما دليلك على أن الحمى والألم شر؟

فقل له: دليلي على ذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَنَبَلُوكُمْ بِالْأَسْرِ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٢٥]. وقوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾ [المعارج: ٢٠]. وقول القائل:

لم أزل البارحة في شر طويل، من حمى ووجع ضرس، أو أذن، أو بدن، على ما ^(١) قال المتوجع.

ثم يقال له: أخبرني عن الخير والشر، كله من الله؟!

فإن قال: نعم.

يقال له: وإذا كان الخير كله من الله، فهل كان من النبي صلى الله عليه وآله وسلم الخير أيضا؟

فإن قال: نعم. ترك قوله، وزعم أن النبي فعل خيرا، وفعل النبي غير فعل الله. فإن قال: لم يفعل النبي خيرا، فقد شك في الحق وكفره، وجحد محمدا صلى الله عليه وآله وسلم وجهله.

ثم يسأل عن إبليس، يقال: كان من إبليس شر قط؟

فإن قال: نعم. ترك قوله. وإن قال: لا. فقل له: فلا ينبغي لك أن تستعيز من شر إبليس، لأن من استعاذ من شره فهو أحق عابث، وإذا استعاذ من شرٍّ من لا شر له فقد جهل. هذا مع قول الله عز وجل: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْقَلْقَلِ ۝١﴾ [الفلق: ١] ^(٢) إلى آخر السورة.

ومن سأل عن ولد الزنا، من خلقه؟ فيقال: الله خلق ولد الزنا وولد الكافر، والناس أجمعين.

فإن قال: فأراد الله أن يخلقه؟ فيقال: نعم. فإن قال: فقد أراد الله الزنا؟! يقال: إن ولد الزنا غير الزنا، والله لم يغضب من ولد الزنا، وإنما غضب من الزنا، وكذلك لم ينه الزاني عن الولد، وإنما نهاه عن الزنا، فما نهى الله عنه فليس من الله، وما لم يرده فليس منه.

فإن قال: فيكون وكذا إذا لم يزن الزاني؟

يقال له: يكون الولد بأن يتزوج، فيكون الولد على غير الزنا.

(١) سقط من (أ) و (ج): ما.

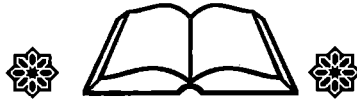
(٢) كذا في جميع المخطوطات. ولعلها ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ...﴾.

فإن قال: الولد الذي بعد الزنا كان يكون إلا من ^(١) الزنا؟ يقال له: قد أخبرناك أن الولد لم يكن من الزنا، وإنما كان لأن الله خلقه. فإن قال: فلو لم يكن الزاني، كان الله يخلقه؟! يقال: لا ندري بعد، الله كان يخلقه ولو لم يكن، كأن يتزوج.

فإن قال: أرأيتك إذا زعمت أن الله أراد أن يخلق ولد الزنا ولم يرد الزاني يزني، ^(٢) كيف يكون ذلك؟ يقال له: مثله ذلك: رجل اغتصب أرض رجل، فبذر فيها، وأراد الله أن ينبت، فالله هو أراد أن ينبت الزرع، ولم يرد الرجل أن يبذر في أرض غيره.

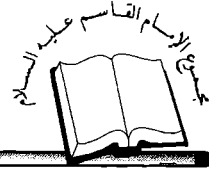
فإن قال: فما معنى هذا؟ يقال له: مثله ذلك: رجل زنى وسرق فأراد النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يقطعه وأن يجلد له ولم يرد أن يسرق ولا يزني، فإن كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يقطعه ولا يجلد حتى يسرق يزني، فكذلك لم يرد الزنا، وإن كان الولد لا يكون إلا بعد الزنا.

تم الكلام والحمد لله ولي الأنعام. وصلى الله على رسوله محمد وآله الكرام، وحسبي الله وحده وكفى، ونعم الوكيل.



(١) في (أ): إلا بعد الزنا.

(٣) يعني: ولم يرد الله أن يزني الزاني.



البريد علي الراافضة



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على كل حال^(١).

زعمت الرافضة أنه لم يكن قرن من القرون خلا، ولا أمة من الأمم الأولى، إلا وفيها وصي نبي، أو وصي وصي، حجة لله قائمة عليهم، وعالم بأحكامه^(٢) فيهم، مفروضة عليهم طاعته ومعرفته، ليس لأحد ممن معه في دهره حاله^(٣) ولا صفته، لا يهتدي إلى الله أبداً من ضلّه، ولا يعرف الله سبحانه أبداً من جهله.

فيسألون — ولا قوة إلا بالله — عن فترات الرسل في الأيام الماضية، وما لم يزل فيها لا ينكره منكر ولا يجهله من الأمم الخالية، هل خلت منها كلها فترة؟ وأمة منهم مستقلة أم مستكثرة؟! من أن يكون فيها إمام هادي؟ حجة لله على من معه من العباد، يعلم من حلال الله وحرامه، وجميع ما حكم الله به في العباد من أحكامه، ما يعلم من تقدمه وكان قبله، من كل ما حكم الله به ونزله؟

فإن^(٤) قالوا: لا تخلو فترة من الفترات مضت، ولا أمة من الأمم كلها التي خلت، من أن يكون فيها إمام هاد على العباد لله حجة، ليس بأحد معه إلى غيره من الخلق كلهم^(٥) حاجة مُحَوَّجة، في احتجاج بحق ولا تبين، ولا في حكم من أحكام الدين، من نذارة لغَيٍّ ولا ردى، ولا تبصرة لرشد ولا هدى، كما قالت الرافضة فلا حاجة إذاً بعد آدم، بأمة من الأمم، إلى أن يبعث الله فيهم نبيا، ولا يجدد لهم لرشده وحياء، يُعَلِّمهم في دين الله علما، ولا يحكم عليهم الله حكما، ومن كان من ذلك وفيه، ففضل لا فاقة بأحد إليه، لأنه لا يُبعث نبي في فترة، ولا أمة مستقلة ولا مستكثرة، إلا ووصيها فيها، كاف في الحجة عليها، مستغنى به عن التبصرة والتعريف، وما حملها الله من فرض أو تكليف، تامة به النعمة في الهدى من الله عليهم، لعلمه بجميع أحكام الله

(١) سقط من (أ) و (ج): الحمد لله على كل حال.

(٢) في (أ) و (ج): لأحكامه.

(٣) في (ب) و (د): حالته.

(٤) في (أ): فإذا.

(٥) في (ب) و (د): كلهم أجمعين.

سبحانه فيهم، وفيما قالوا به من هذا القول، الغنى عن كل نبي أو رسول، جاء عن الله بنذارة لجاهل من عباده أو تعليم، أو هداية لضال من خلقه أو تقويم.

وفي هذا من إكذاب كتاب الله ووحيه، وخلاف خبره تبارك وتعالى على لسان نبيه، ما لا خفاء به ولا فيه عن موحد ولا ملحد، ولا خصم لـ^(١) أو لم يلد، والله تبارك وتعالى يقول في إكذاب من قال بهذا القول عليه في كتابه، بما لا يأباه مكابر مرتاب وإن عظمت بليته في ارتيابه، قال الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ﴾ [الحجر: ١٠]. وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. وقال سبحانه: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [٢٦] وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ [فاطر: ٢٤-٢٥]. وقال سبحانه: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [فاطر: ٤]، مع ما ذكر لا شريك له مما يكثر، عن^(٢) أن نخصيه من تبعيته في الماضين للرسول والنذر، وما لم يزل يجده من نعمه من ذلك في البشر، لا يذكر سبحانه في ذلك كله وصيا، ولا مما ذكرت الروافض في ذلك كله شيا، ولو كان الهدى يصاب بغير كتب الله ورسله، لعرف الله في ذلك بمنته^(٣) وفضله، ولذكر حجته على عباده، وما دلهم عليه به من رشاده، كما قال سبحانه فيما أنعم به من وحيه، وَمَنْ بِهِ مِنْ أَمْرِهِ وَهْيِهِ: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [٥٧] [يونس: ٥٧]. وقال سبحانه: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]. مع ما يكثر في هذا ومثله، من ذكر نعم الله فيه وفضله، وكما قال سبحانه لرسوله، صلى الله عليه وعلى أهله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ

(١) اللد: الشديد الخصوبة.

(٢) سقط من (أ) و (ب) و (د): عن.

(٣) في (أ) و (ج): بمنته.

يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٦٤﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وكما قال سبحانه: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٦٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿١٦٦﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦]. فذكر سبحانه منته على عباده، برسوله وكتابه. وما ذكر في ذلك مما تقول الرافضة — بحمد الله — قليلا ولا كثيرا، ولا أنه جعل غير رسوله كما جعله سراجا منيرا، فنحمد الله على ما أفرد به رسوله صلى الله عليه وعلى أهله من التقدمة والتبيين، إلى الدلالة به لعباده على كل رشد أودين، فهدى به في أيام حياته، وقبل نزول حمامه^(١) ووفاته، خلقا كثيرا من خلقه، ودلهم سبحانه على سبيل حقه، وهو بينهم سوي حي، يترل عليه — وهم معه أحياء — الوحي، بيان^(٢) ما التبس عليهم، وبما من الله به من بعث رسوله فيهم، وقد أكمل لهم سبحانه قبل وفاته الدين، وأبان لهم به^(٣) صلى الله عليه وعلى أهله التبيين، بأنور دليل، وأقوم سبيل، وأبلغ حجة في هدى وتبصير، وأهدى هداية تكون بنذارة أو تذكير.

وفيهما ما يقول سبحانه: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦٧﴾﴾ [آل عمران: ١٠١]. وكما قال سبحانه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴿١٦٨﴾﴾ [المائدة: ٣]، خبرا منه سبحانه عن أنه قد بين لهم دينهم كله جميعا تبينا، ومن ذلك ما يقول سبحانه: ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلَّغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٦٩﴾﴾ [الأنعام: ١٤٩]. وقوله سبحانه: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١٧٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٩]. ويقول: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا آرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَعَبَدُوا

(١) الحمام: الموت.

(٢) سقط من (أ) و (ج): الوحي. وفي (أ): بيان.

(٣) سقط من (أ) و (ج): به.

رَبِّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ
 اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ
 الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ
 عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ
 الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ [الحج: ٧٧-٧٨]. فجعلهم جميعا برحمته وفضله، وإكرامه
 لأبائهم من أوليائه ورسله، شهداء على خلقه وعباده، وأمناء في أرضه وبلاده.

وجعلهم سبحانه أئمة شهداء كما جعلهم، وفضلهم من ولادة إبراهيم وإسماعيل
 عليهما السلام. بما فضلهم، فبفعلهم للخيرات، وعملهم للصالحات، في كل ما حكم به
 عليهم من فرضه، وعدهم ما وعدهم من الإستخلاف لهم في أرضه، وما وعدهم في
 ذلك من مواعيده، وتكفل لهم به في الشكر عليه من مزيده.

وأخبر سبحانه بأصدق الخبر عن فسق من كفر منهم نعمة فيه، ولم يؤد من شكره
 به ما يجب لله عليه، فقال سبحانه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
 وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا
 يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ
 ﴿٥٥﴾﴾ [النور: ٥٥].

فمن لم يفعل من الإيمان ما فعلوا، ويعمل من الصالحات كما عملوا، فلم يجعل الله
 له (١) إيمانا ولا إسلاما، فكيف يجعله الله في الهدى إماما؟! وإنما جعل الله الإمام من
 هدى بأمره، وعرف بالجهاد في الله مكان صبره، كما قال الله لرسوله، صلى الله عليه
 وعلى آله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ
 وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٤﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا
 صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [السجدة: ٢٣-٢٤].

(١) سقط من (أ): له.

فكيف^(١) يكون بالله موقنا أو معتصما، أو عند الله مؤمنا أو مسلما، من يشبه الله بصورة آدم، وبما فيه من صور الشعر واللحم والدم؟ وأولئك فأصحاب هشام بن سالم^(٢).

أو كيف يكون كذلك من قال بقول ابن الحكم،^(٣) وهو يقول: إن الله نور من

(١) في (ب) و (د): وكيف.

(٢) هشام بن سالم الجواليقي الجعفي العلاف، عدّه الإمامية تارة من أصحاب الصادق وأخرى من أصحاب الكاظم.

كان يُتهم بالتجسيم، ذكر ذلك عنه غير واحد من كُتّاب الفرق كالشهرستاني وغيره، بل ذكره بذلك أصحابه الإمامية، فقد روى الطوسي في رجال الكشي عن عبد الملك بن هشام الحنط، قال: قلت لأبي الحسن الرضا عليه السلام أسألك جعلني الله فداك؟ قال: سل يا جيلي عما ذا تسألني؟ فقلت: جعلت فداك زعم هشام بن سالم أن الله عز وجل صورة، وإن آدم خلق على مثال الرب، ويصف هذا ويصف هذا وأوميت إلى جانبي وشعر رأسي، وزعم يونس مولى آل يقطين وهشام بن الحكم: أن الله شيء لا كالأشياء، بئنة منه وهو بائن من الأشياء.

وزعموا أن إثبات الشيء أن يقال: جسم فهو جسم لا كالأجسام، شيء لا كالأشياء، ثابت موجود غير مفقود ولا معدوم، خارج من الحدين حد الإبطال وحد التشبيه، فبأي القولين أقول؟ قال: فقال عليه السلام: أراد هذا الإثبات، وهذا شبه ربه تعالى بمخلوق، تعالى الله الذي ليس له شبه ولا عدل ولا مثل ولا نظير، ولا هو بصفة المخلوقين، لا تقل بمثل ما قال هشام بن سالم... إلخ. إختيار معرفة الرجال ٥٦٧/٢ (٥٠٣).

(٣) هشام بن الحكم الشيباني بالولاء الكوفي أبو محمد: متكلم مناظر، كان شيخ الإمامية في وقته ولد بالكوفة ونشأ بواسط وسكن بغداد، وانقطع إلى يحيى بن خالد اليرمكي، فكان القيم بمجالس كلامه ونظره وصنف كتبا عدة منها الإمامة، والرد على هشام الجواليقي، والرد على شيطان الطاق، وغيرها. وتوفي بالكوفة سنة (١٩٠هـ) تقريبا، وكان يقول بالتجسيم روى ذلك عنه كُتّاب الفرق والملل والنحل، حتى أصحابه الإمامية رَوَوْا ذلك عنه، قال الطوسي: عن أبي محمد الحجال، عن بعض أصحابنا، عن الرضا عليه السلام، قال: ذكر الرضا عليه السلام العباسي، فقال: هو من غلمان أبي الحارث — يعني — يونس بن عبد الرحمن، وأبو الحارث من غلمان هشام، وهشام من غلمان أبي شاعر الديصاني، وأبو شاعر زنديق.

وعلق المحقق على قول الأصل: وهشام من غلمان أبي شاعر الديصاني بقوله: وحكى السيد جمال الدين بن طاووس رحمه الله تعالى أيضا عن كتاب أحمد بن أبي عبد الله الرقي، أنه قال: هشام بن

الحكم مولى بني شيان، كوفي تحول من الكوفة إلى بغداد، وكنيته أبو محمد، وفي كتاب سعد له كتاب، وكان من غلمان أبي شاذان الزنديق، وهو جسمي ردي. (اختيار معرفة الرجال ٥٦١/٢) (٤٩٧).

وفي أصول الكافي في باب النهي عن الجسم والصورة ١٠٤/١. عن علي بن أبي حمزة قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: سمعت هشام بن الحكم يروي عنكم أن الله جسم صمدي نوري، معرفته ضرورة بمن بها على من يشاء من خلقه. فقال سبحانه. من لا يعلم أحد كيف هو إلا هو، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، لا يحد ولا يحس ولا يجس، ولا تدركه الحواس، ولا يحيط به شيء، ولا جسم ولا صورة، ولا تخطيط ولا تحديد.

روى الكليني بسنده عن الحسن بن عبد الرحمن الحماني قال: (قلت لأبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام: إن هشام بن الحكم زعم أن الله جسم ليس كمثله شيء، عليم سميع بصير قادر متكلم ناطق، والكلام والقدرة والعلم يجري مجرى واحد، ليس شيء منها مخلوقاً. فقال: قاتله الله، أما علم أن الجسم محدود والكلام غير المتكلم معاذ الله، وأبرأ إلى الله من هذا القول لا جسم ولا صورة...). الكافي ١٠٦/١.

وروى الكليني أيضاً بسنده عن محمد بن الفرج الرهمي قال: (كتبت إلى أبي الحسن عليه السلام أسأل عما قال هشام بن الحكم في الجسم، وهشام بن سالم في الصورة، فكتب: دع عنك حيرة الخيران واستعد بالله من الشيطان، ليس القول ما قال الهشامان). الكافي ١٠٥/١. والصدوق في التوحيد/٩٧، والأماشي/٢٢٨.

وعن محمد بن حكيم قال: (وصفت لأبي إبراهيم عليه السلام قول هشام بن سالم الجواليقي، وحكى له قول هشام بن الحكم: أنه مجسم، فقال: إن الله لا يشبه شيء). الكافي ١٠٦/١، والصدوق في التوحيد/٩٧، وتنقيح المقال ٢٩٤/٣.

وعن يونس بن ظبيان قال: (دخلت على أبي عبد الله عليه السلام فقلت: إن هشام بن الحكم يقول قولاً عظيماً، إلا أنني أختصر لك منه أحرفاً، فزعم أن الله جسم لأن الأشياء شيان جسم وفعل، والجسم فلا يجوز أن يكون الصانع بمعنى الفعل، ويجوز أن يكون بمعنى الفاعل. فقال أبو عبد الله عليه السلام: ويحه أما علم أن الجسم محدود متناه والصورة محدودة ومتناهية؟!). الكافي ١٠٦/١، والصدوق في التوحيد/٩٩.

وعن أبي علي بن راشد، عن أبي جعفر الثاني عليه السلام قال: قلت: (جعلت فداك قد اختلف أصحابنا فأصلي خلف أصحاب هشام بن الحكم؟ فقال: يا أبا علي عليك بعلي بن حديد. قلت: فأخذ بقوله؟ فقال: نعم. فلقيت علي بن حديد فقلت له: نصلي خلف أصحاب هشام بن الحكم؟ قال: لا). رجال الكشي/٢٧٩، وصححه السيد بحر العلوم في الفوائد الرجالية ٤٠٣/١، ٤٠٤.

الأنوار، وإنه سبحانه حبة مسدسة المقدار، وإنه يُعلم بالحركات ويُعقل، وتحف به الأماكن وينتقل، وتبدو له البدوات، وتخلو منه السماوات. لأنهم يزعمون أنه على العرش دون ما سواه، وأنه لا يبصر ما حجب^(١) عنه الحجب ولا يراه، ويدنو لما يدنو له من الأشياء المشاهدة، وينأى عما نأى عنه بالمباعدة، فما نأى عنه فليس له شهيد، وما قرب منها إليه فهو منه غير بعيد.

والله سبحانه يقول فيما وصف نفسه لعباده، وما تعرّف إليهم به من الصفات في كتابه: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحاقة: ٦]. وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُم يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧]. وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]. وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ٣]. أفما في هذا بيان قاتلهم الله أن يؤفكون!!

وروى الكشي بسنده عن أحمد بن محمد، عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: (أما كان لكم في أبي الحسن عظة؟ ما ترى حال هشام بن الحكم فهو الذي صنع بأبي الحسن ما صنع، وقال لهم وأخبرهم، أترى الله أن يغفر له ما ركب منا؟!). رجال الكشي/٢٧٨، تنقيح المقال ٢٩٨/٣.

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني: (هشام بن الحكم أبو محمد الشيباني من أهل الكوفة، سكن بغداد وكان من كبار الرافضة ومشاهيرهم، وكان مجسما يزعم أن ربه طوله سعة أشبار بشر نفسه، ويزعم أن علم الله محدث، ذكر ذلك ابن حزم. وقال ابن قتيبة في مختلف الحديث: كان من الغلاة، ويقول بالجير الشديد، ويبالغ في ذلك، ويُجَوِّزُ المحال الذي لا يتردد في بطلانه ذو عقل..). لسان الميزان ١٩٤/٦.

الطويل ولا عرضا غير العريض. وقالك ليس ذهابه في جهة الطول أزيد على ذهابه في جهة العرض، وزعم أيضا أنه نور ساطع يتألأ كالسبيكة الصافية من الفضة، وكالؤلؤة المستديرة من جميع جوانبها، وزعم أيضا أنه ذو لون وطعم ورائحة ومجسة، وأن لونه هو طعمه، وطعمه هو رائحته، ورائحته هو مجسته، ولم يثبت لونا وطعما هما غير نفسه، بل زعم أنه هو اللون وهو الطعم. ثم قال: قد كان الله ولا مكان، ثم خلق المكان بأن تحرك فحث مكانه بحركته فصار فيه، ومكانه هو العرش. وحكى بعضهم عن هشام أنه قال في معبوده أنه سبعة أشبار بشر نفسه). الفرق بين الفرق ٦٥ - ٦٨.

(١) في (ب) و (د): ما حجبته.

مع ما بيّن في غير هذا من بُعدِه عن شَبّه الأشياء، من النور وغيره من كل ظلمة وضياء، من ذلك قوله سبحانه: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]. وقوله سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. وقوله جل جلاله، عن أن يحويه قول أو يناله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤]، والكفو: فهو المثل والند. فلو كان كما قال هشام وأصحابه نورا وجسما، أو كان كما قال ابن الحكم لحما أو دما، لكانت أكفأؤه عددا، وأمثاله سبحانه أشثاتا^(١) بددا، لأن الأنوار في نورها متكافية، والأجسام في جسميتها متساوية، وكذلك تكافؤ اللحم والدم، كتكافؤ الجسمية كلها في الجسم، ولو كان كما قال أصحاب النور نورا محسوسا، لكانت الظلمة له ضدا ملموسا، ولو كان بينهما كذلك لوقع بينهما ما يقع بين^(٢) الأضداد، من التغالب والتنافي والفساد، فسبحان من ليس له ند يكافيه، ولا ضد من الأضداد ينافيه، ﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢].

وما قالت به الرافضة من هذا فقد تعلم^(٣) أن كثيرا منها لم يقصد فيه لما قصد، أو يعتقد من الشرك بالله في قوله به ما اعتقد، ألا وإن ما قالوا به في الله، أشرك الشرك بالله، فنعوذ بالله من الشرك بربوبيته، والجهل لما تفرد به من وحدانيته.

هذا إلى^(٤) ما أتوا به من الضلال بقولهم في الوصية، وما أعظموا على الله وعلى رسوله في ذلك من الدعوى والفرية، التي ليس لهم بها في العقول حجة ولا برهان، ولم يترل بها من الله وحي ولا فرقان.

وما قالت به الرافضة في^(٥) الأوصياء من هذه المقالة فهو قول فرقة كافرة من أهل

(١) في (ب) و (د): أشياء.

(٢) في (ب) و (د): من.

(٣) في (ب): علمت.

(٤) سقط من (ب) و (د): إلى.

(٥) في (أ) و (د): من.

الهند يقال لهم البرهمية، ^(١) تزعم أنها بإمامة آدم من كل رسول وهدى مكثفية، وأن من ادعى بعده نبوة أو رسالة، فقد ادعى دعوة كاذبة ضالة، وأنه أوصى بنبوته إلى شيث، وأن شيثا أوصى إلى وصي ^(٢) من ولده، ثم يقودون وصيته بالأوصياء إليهم، ولا أدري لعلهم يزعمون أن وصيته اليوم فيهم.

ولو كان الهدى في كل فترة كاملا موجودا، ولم يكن إمام الهدى في كل أمة مفقودا، لما جاز أن يقال لفترة من الفترات فترة، ولا كانت للجاهلية في أمة من الأمم قهرة، وقد ذكر الله لا شريك له أنه لم يرسل محمدا عليه السلام إذ أرسله، ولم يرسل من أرسل من الرسل قبله، إلا في أمة ضالة غير مهتدية في دينها لحظها، ولا مستحقة على الله بإصابة رشد ^(٣) لحفظها، ولكن رحمة ^(٤) منه سبحانه لها وإن ضلت، وإحسانا منه إليها في تعليمها إذ جهلت، كما قال الله سبحانه: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣]، فأخبر أنهم كانوا ضالين غير مهتدين. ولو كان فيهم حينئذ وصي وأوصياء، لكان فيهم يومئذ لله ولي وأولياء، ولما جاز مع ذلك، لو كان كذلك، أن يقال لهم: أمة واحدة، لأنهم فرق متضادة، لا تجمعهم في الهدى كلمة، ولكنهم في الضلال أمة.

وكما قال سبحانه في بعثته لمحمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ﴿وَمَا كُنْتَ

(١) البراهمة نسبة إلى هندي يدعى (برهم) وهم طوائف ثلاث: فطائفة تقول: يقدم العالم، وتعترف بمدير له قديم، إلا أنها تعتقد أن الإنسان غير مكلف بسوى المعرفة.

وطائفة تقول: يحدث العالم، وتعترف بوجود صانع حكيم، ولكنها تنكر الرسل والكتب السماوية وترى أن لا واسطة بين الله تعالى وخلقه غير العقل.

وطائفة ثالثة تقول: يحدث العالم ووجود الخالق، ولكنها تؤمن بأن مدبرات العالم: الأفلاك السبعة (البروج الاثنا عشر) ولا تزال هذه النحلة الباطلة قائمة في الهند يعتنقها الكثيرون من أبنائها.

ذكر بعض كتاب الملل والنحل أن من عقائدهم أنهم لا يأكلون البقر وأنهم يغتسلون ببولها. فلعلهم فرقة من الهندوس عباد البقر.

(٢) في (أ) و (د): أوصى مَنْ وَلَدَهُ.

(٣) في (ب): رشدًا.

(٤) في (ب) و (ج): برحمة.

بِجَانِبِ الظُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّنْ نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٦﴾ [القصص: ٤٦]. فما ذكر سبحانه أنه كان فيهم يوم بعثته له إليهم، ومنته بالهدى فيه عليهم، مهتد واحد منهم بهداه، ولا قائم بما هو الهدى من تقواه، لا رسول ولا نبي، ولا إمام ولا وصي، حتى مَن تبارك وتعالى عليهم، بيعثته لمحمد عليه السلام إليهم، فأقام لهم به منار الهدى وأعلامها^(١)، ونهج لهم سبل الحجج بأنوار أحكامها، فبين به من ذلك كله ما كان دَرَسَ^(٢) وهلك خفتا، وأحى به صلى الله عليه وعلى آله ما كان مواتا، توحُّدا منه سبحانه بالمنة فيه على خلقه، وإفرادا لرسوله صلى الله عليه وعلى آله بالدلالة على حقه، فلم يبق من هدى المحجوجين من العباد، باقية بها إليهم حاجة من رشاد، يكون بها لهم في دنياهم صلاح، ولا لهم فيها عند الله فلاح، إلا وقد جاء بها كتاب الله سبحانه منيرة مستقرة، وكرر - لا إله إلا هو - بها فيه بعد تذكرة تذكرة، إحسانا إليهم ورحمة، وتذكرة لهم وعصمة، ومظاهرة للنعمة فيهم وإسباغا، واحتجاجا بكتابه عليهم وإبلاغا، كما قال سبحانه: ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٨]. وقال سبحانه: ﴿ هَذَا بَصَائِرُ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٣].

فأين ذكر الرافضة في هذا وأمرها من ذكر الله وأمره، وما بين سبحانه من إكذابهم فيما قالوا بخبره؟! فالله سبحانه يخبر أن كلهم كان ضالًا فهداه، وجاهلا بالهدى حتى علمه الله بمنة إياه، كما قال سبحانه لبني آدم: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨]. وقال سبحانه لرسوله: ﴿ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١١٣]. وقال سبحانه: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي

(١) في (أ) و (ب) و (ج): وأعلامه، فبين.

(٢) درس الشيء: عفى أثره.

ضَلَّلَ مُبِينٍ ﴿٢﴾ [الجمعة: ٢].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَن هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَن حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [النحل: ٣٦].

ولا يُهْدَى أحدٌ^(١) أبداً إلا من ضلال، ولا يهتدي من تركه الله في جهالة من الجاهل، والله سبحانه يخبر أنهم كلهم كانوا في ضلال وعمى، لقد كانوا جميعاً جهلة بدينه لا علماء.

والرافضة تزعم أن قد كانت فيهم يومئذ الأوصياء، وأنها قد كانت تعلم من الدين حينئذ ما كانت تعلمه الأنبياء، ومن كان لبعض علم الهدى وارثاً، وكان هدى الأنبياء عليهم السلام له^(٢) تراثاً، كان برياً من الضلال، وغير معدود في الجاهل، وإذا كان ذلك، في الأوصياء كذلك، وكانوا يزعمون أنهم إنما أخذوا هذا عن الكتاب وقبَلُوهُ، وادعوا فيما قالوا به منه حكم الكتاب وتنحلوه،^(٣) كان فيه للكتاب من التهجين، ما يلحد فيه كل لعين، شأنه تعطيل كل دين، وتلبيس كل برهان مبين. لأن ما قالوا به من هذا فمن القول المتناقض المستحيل، إذ وصفوا بعضهم بالهدى مع^(٤) وصفهم لكلهم بالتضليل، لأن في أن يكون كلهم عمياً، دليل على أن لا يكون أحد منهم مهتدياً ولا وصياً،^(٥) وفي أن لا يكون منهم وصي ولا مهتدي،^(٦) خبر عن أن كلهم ضال ردي، وهذا فهو التناقض بعينه، وما لا يحتاج كثير إلى تبينه، والله الحمد في ذلك كله قبل غيره، وبالله نستعين على ما أوجب بالهدى من إجلاله^(٧) وتكبيره.

(١) سقط من (ب) و (د): أحد.

(٢) في (أ): وكان علم. وسقط من (ب) و (د): له.

(٣) التنحل: الإدعاء.

(٤) في (ب) و (د): بالهدى ووصفوا كلهم.

(٥) في (ب) و (د): مهتدياً بالأوصياء.

(٦) في (ب) و (د): مهتد.

(٧) في (ب): جلاله.

ومما يسأل عنه الرافضة إن شاء الله فيما يقولون به من الأوصياء، أن يقال لهم: حدثونا عن النبي صلى الله عليه وآله، أكان وصيا لمن كان قبله من الأنبياء؟

فإن قالوا: نعم. قد كان لمن قبله وصيا. كان أمرهم في المكابرة جليا، ولم يخرجهم ذلك من كر المسألة إليهم، وتوكيد الحجة بما في المكابرة عليهم.

فيقال لهم: حدثونا عن الوصي الذي أوصى إلى النبي عليه السلام بالوصية أمن أهل اللسان العربي؟^(١) كان؟ أم من أهل اللسان العجمي؟

فإن قالوا: إن من أوصى إليه، صلوات الله ورضوانه [عليه]، كان يومئذ وصيا عربيا، زعموا أن الوصي حينئذ كان أميا، لأن كل عربي كان حينئذ بغير شك أميا، لأن الله لم يترل عليهم يومئذ قرآنا، ولم يفصل لهم حينئذ بوحى فرقانا، ولم يكن يومئذ أحد من العرب رسولا نبيا، يجوز أن يكون له أحد وصيا، لأنه معلوم عند كل أحد من الأمم غير مجهول، أنه لم يكن في العرب بعد عيسى صلى الله عليه رسول، ولا مدع يومئذ وإن أبطل، يدعي أن يكون نبيا قد أرسل.

فإن قالوا: فإن الوصي الذي أوصى إلى النبي صلى الله عليه كان أعجميا.

قيل: أو ليس قد كان يُعَلِّمُه علمه وكان عليه السلام في علمه^(٢) به مقتديا؟!

فإذا قالوا: بلى. قيل^(٣) فإن الله تعالى يقول في ذلك بخلاف ما يقولونه، ويخبر أنه لم يُعَلِّمُه يومئذ بشر عربي ولا عجمي يعلمونه ولا يجهلونه، قال الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانُ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [النحل: ١٠٣]. فأخبر أن معلمه صلى الله عليه وآله غير أمي بأنه علمه بلسان عربي مبين. ولو كان الأمر كما تقول الرافضة في الإمامة والوصية، لما خلا النبي عليه السلام فيما نسبت إلى عربية أو أعجمية، من أن يكون قبل نبوته وبعثته، وما وهبه الله بالرسالة من نعمته، لم ير وصيا ولم يصل إليه،

(١) في (ب) و (د): العربية.

(٢) في (ب) و (د): به في علمه مقتديا.

(٣) في (أ): قيل لهم. وسقط من (ب): قيل.

ولم يعرفه ولم يستدل عليه، فيكونوا هم اليوم أهدي منه يومئذ في معرفة وصيهم سبيلا، أو يكون الله أقام لهم في معرفة الأوصياء ولم يُقم له دليلا، أو يزعمون أن قد لقي وصيَّ وصيَّ عيسى صلى الله عليه وآله،^(١) وكان مهتديا يومئذ بهداه، من قبل مجيء رسالة الله إليه، وقبل تنزيله سبحانه لوحه عليه، فيزعمون أن قد كان يومئذ مهتديا غير ضال، وبريا قبل نبوته من جهل الجهال، وعالما بجميع الإيمان، فيكذبوا بذلك آيا من الفرقان، منها قوله سبحانه: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ [البقرة: ١٥٠]. وقوله سبحانه في آية أخرى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ لِّوَشَاءِ اللَّهِ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦]. فهو صلى الله عليه وآله وعلى آله لم يكن يدري ما الإيمان حتى أُدري، ولا يعلم عليه السلام ما الهدى حتى علّم وهُدي، وبعض أئمتهم عندهم فقد علم ما الهدى والإيمان وهو وليد طفل، ورسول الله صلى الله عليه وآله لم يكن يعلمه حتى علّمه الله إياه وهو رجل كهل.

فأي شناعة أشنع، أو وحشة أفظع، من هذا ومثله، وما يلحق فيه بأهله، من مزيلة كل حق، ومخالفة كل صدق؟! فإن هم أبوا ما وصفنا لتفاحشه، ولما يدخله من شنائع أواحشه^(٢)، فزعموا أنه لم يكن في الأمم، لا في العرب منها ولا في العجم، قبل بعثة النبي محمد عليه السلام، وصي يُعلم يومئذ ولا إمام، ظل^(٣) رسول الله صلى الله عليه وآله عليه بجهله، ولا أصاب الهدى يومئذ من قبّله، حتى آتاه الله هداه وأرشده، وبصره سبيل الهدى وقصده، كما فعل بأبيه إبراهيم صلى الله عليه وآله عليه فيما آتاه قبله من رشده، ودله عليه من الهدى وقصده، إذ يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ

(١) سقط من (ب) و (د): ورآه.

(٢) في (ب) و (د): أو حشه.

(٣) في (ب): ولا وصي قبل. وفي (د): ولا إمام قبل. مصحفة.

وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ [الأنبياء: ٥١]. ويقول فيه عند تلمسه ليقين المعرفة لرب العالمين: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٥٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٥٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُنْقِضُ إِلَيَّ بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٧٦-٧٩]. فقرر به^(١) صلوات الله عليه قرار اليقين، في معرفة رب العالمين، حين برئ عنده من مذموم الأفول والزوال، وتصرف اختلاف التغيير والأحوال، وما لا يكون من^(٢) ذلك إلا في الأمثال المتعادلة، وأشباه الصنع المتماثلة، التي جل الله سبحانه أن يكون بشيء^(٣) منها مثيلاً، أو يكون جل جلاله لشيء منها عديلاً.

وفي مثل ذلك ما يقول سبحانه لمحمد صلى الله عليه: مع إفضائه من يقين المعرفة إلى ما أفضى إليه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٣﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣]. فهو عليه السلام يخبر أنه أول - أئمة وقرنه، ومن كان معه من أهل أيامه وزمنه، بالله لا شريك له - إسلاماً وإيماناً، [ومعرفة بالله وإيقاناً]^(٤).

والله يخبر أن قد أرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين، ولو كان معهما صلى الله عليهما يومئذ وصي المرسلين، لكان إسلام الوصي وإيمانه قبل إسلام إبراهيم ومحمد وإيمانهما، ويقين الوصي بالله وزعلمه قبل علمهما بالله وإيقانهما،

(١) في (أ): فقرر به.

(٢) سقط من (ب) و (د): من.

(٣) في (ب) و (د): لشيء.

(٤) أشار في (أ): إلى بياض، وترك في (ب) و (ج) فراغاً يسع ثلاث كلمات أو أربع. قد تكون (ومعرفة بالله وإيقاناً) كما أثبت بين المعكوفين، والله أعلم.

ولما جاز أن يقول محمد صلى الله عليه: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ فيما قد سبقه غيره من معه^(١) إليه، وإبراهيم صلى الله عليه يطلب يومئذ المؤمنين، ويلتمس حينئذ بالله جاهداً اليقين، بحيلة كل محتال بفكره، ويخاف الضلال عن الله مع^(٢) نظره، ويقول: ﴿لَنْ يَهْدِيَ رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾، ويقول للكواكب: ﴿هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ﴾، ومعه وصي أيامه ودهره، لا يخطر على باله ولا نظره، فلا يقع على شيء مما يحيل^(٣) بفكره.

والرافضة اليوم تزعم أنها قد تعلم أنه قد كان معه، وصي يلزمه أن يعرفه بعينه، ويعلمه ما يلزمها^(٤) اليوم من معرفة الوصي، وما تدعي فيه من باطل الدعاوي، فهي عند أنفسها تعلم من الأوصياء في دين الله، ما لم يكن يعلمه منهم خليل الله، وتهدى من الرشد فيه، ما لم يهد الله خليله إليه. إلا أن تزعم أنه لم يكن مع إبراهيم وفي^(٥) أمته وصي يهديها، فيكون في ذلك بطلان ما في أيديها، وما يلزمها من هذا في إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما، فقد يلزمها في كثير من رسل الله معهما، صلى الله على رسله وأنبيائه، وزادهم الله فيما خصهم من كرامته واصطفائه.

وإمامهم — اليوم فيما يزعمون، وكما في إفكهم يقولون — يدري ما كان رسول الله دارياً، ويدعو إلى ما كان إليه داعياً، ودعوته^(٦) صلى الله عليه وآله كانت إلى الخير والهدى، وتبين ما كان يُبين عليه السلام من الغي والردى، وإنذار من أدبر عن الله يومئذ وأعرض، وإعلام العباد بما حكم الله يومئذ وفرض.

(١) في (أ): ممن كان معه.

(٢) في (أ) و (ج): محتال بكفره. مصحفة. وفي (ب) و (د): بفكره بخلاف. مصحفة. وفي (ب) و (د): من نظره.

(٣) في (د): تحيّل.

(٤) في (ب) و (د): ما يلزمه.

(٥) في (ب) و (د): من.

(٦) في (ب) و (د): دعوته.

فهذه صفة رسول الله صلى الله عليه وآله وعلمه وفعله ونعته^(١)، وقد يزعمون أن للإمام أحواله كلها^(٢) لا رسالته، فأين صفة أئمتهم وأحوالهم من صفة النبي صلى الله عليه وآله وعلى آله وأحواله؟ وأين^(٣) ما نرى من أفعال أئمتهم قديما وحديثا فيما وصفنا كله من أفعاله؟! لا أين، وإن كابدوا!!! وأقروا بخلاف ذلك أو لم يقرؤا، أولا يعلم أنه إذا كان وصيهم غير نذير، ولا مذكر بما أمر الله به من التذكير، ولم يكن إلى ما دعا إليه الرسول عليه السلام داعيا، كان عند من يؤمن بالله واليوم الآخر من الهدى بريا قاصيا، وإذا لم يكن بما كان به رسول الله صلى الله عليه وآله وعلى آله وعلى من خالفه محتجا، لم يكن منهجه عند من يؤمن بالله واليوم الآخر لرسول الله عليه السلام منهجا.

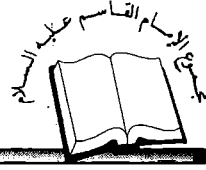
تم كتاب الرد على الرافضة والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد النبي وعلى آله وسلم تسليما كثيرا.



(١) في (ب) و (د): وبعته.

(٢) في (أ) و (ج): كلها ورسالته.

(٣) في (ب) و (د): ولين. مصحفة.



المرء على الروافض من أهل الغلو



بسم الله الرحمن الرحيم (١)

افترق من ادعا التشيع على ثلاثة عشر صنفاً، منهم اثنا عشر في النار وهم الروافض.

١- صنف من الروافض يقال لهم: السحابية، (٢) وهم يزعمون أن علياً حي لم يموت [ولا يموت] حتى يسوق العرب والعجم بعصاه، وهم يزعمون أن علياً في السحاب.

٢- وصنف آخر يقال لهم الكيسانية (٣): وهم أصحاب محمد بن الحنفية، (٤)

(١) في (ب) و (د): الرد على أهل الغلو من أصحاب الروافض.

(٢) السحابية: نسبة إلى السحاب لقولهم: إن علياً في السحاب، وإن البرق سيفه والرعد صوته. حتى قال

فيهم الشاعر: برئت من الخوارج لست منهم ومن قول الروافض وابن داب

ومن قوم إذا ذكروا علياً يردون السلام على السحاب

الخور ١/٢٠٦.

ورواه الحلبي في سيرته ٣/٣٦٩، والإمام يحيى بن حمزة في التصفية/٤٢٢، قال (كان له صلى الله عليه وسلم عمامة تسمى (السحاب) كساها علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، فكان ربما طلع عليه علي كرم الله وجهه فيقول صلى الله عليه وسلم: أناكم علي في السحاب. يعني عمامته التي وهبها له صلى الله عليه وسلم).

(٣) الكيسانية: نسبة إلى كيسان قيل: إنه لقب للمختار بن عبيد الثقفي لقبه به محمد بن الحنفية لكيسه، ولما عرف من قيامه ومذهبه فيهم. فرق الشيعة للنوختي ٧٤-٤٨.

وقيل نسبة إلى كيسان أبي عمرة وهو من الموالي، وكان له غلو في علي عليه السلام، وكان من أقوى أعوان المختار. العقد الثمين/١٤. للإمام عبد الله بن حمزة.

قال أحد شعرائهم، قيل: إنه كثير عزة — وكان كيسانياً —:

ألا إن الأئمة من قریش	ولاة الحق أربعة سواء
علي والثلاثة من بنیه	هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط إيمان وبر	وسبط غيبتة كربلاء
وسبط لا يذوق الموت حتى	يقود الخيل يقدمها اللواء
تغيب لا يرى فيهم زمانا	برضوى عنده غسل وماء

(٤) محمد بن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي أبو القاسم المعروف بابن الحنفية. أحد الأبطال الشجعان

ويزعمون أنه لم يموت ولا يموت حتى يملأها عدلا كما ملئت جورا.

٣- وصنف آخر يقال لهم: الرُّوندية^(١).

٤- (وصنف آخر يقال لهم: الموصية)،^(٢) قادوا الوصية إلى جعفر^(٣) بن محمد، وزعموا أن الوصية انتهت إليه وهم الروافض.

وافترقوا من عند جعفر، وزعموا أن الوصية وراثه يرث ابن عن أب.

٥- ثم افترقت منهم طائفة يزعمون أن جعفر أوصى إلى ابنه إسماعيل،^(٤) وإسماعيل مات قبل جعفر، وزعموا أنه لم يموت، وذلك الذي دفنه جعفر بجذع نخلة، وغيبه جعفر تقيه عليه، وقادوا الوصية إلى ولده، وهم يقال لهم: المباركية،^(٥) يصومون قبل رمضان بيومين، ويفطرون قبل الفطر بيومين، ويزعمون أن الشهر من غيبوبة الهلال إلى غيبوبته.

الأشداء في صدر الإسلام أخو الحسن والحسين عليهم السلام غير أن أمهما فاطمة الزهراء عليها السلام، وأمه خولة بنت جعفر الحنفية ينسب إليها تميزا له عنهما، شارك أباه في جميع حروبه ومعاركه ولد بالمدينة سنة (٢١هـ) وتوفي بها سنة (٨١هـ) وقيل خرج إلى الطائف هاربا من ابن الزبير فمات هناك وأخباره طويلة. وللخطيب علي بن الحسين الهاشمي النجفي كتاب (محمد بن الحنفية) في سيرته. مطبوع.

(١) الروندية: نسبة إلى عبد الله بن الخرب الكنادي الكوفي الروندي. العالم المشهور المتوفي سنة (٢٩٨) وقيل سنة (٣٠١) وهي القائلة بأن عبد الله بن محمد بن الحنفية أوصى إلى محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب.

(٢) سقط من (أ) و (ج): ما بين القوسين. الموصية: نسبة إلى الوصية.

(٣) جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي، أبو عبد الله الصادق إمام من أئمة المسلمين، وعلم من أعلام الإسلام، ولد سنة ٨٠هـ وتوفي سنة ١٤٨هـ روى عن أبيه، وعن محمد بن المنكدر، وعبد الله بن أبي رافع، وعطاء، وعروة، وجده لأمه القاسم بن محمد، ونافع، والزهري وغيرهم، وعنه ابنه موسى وشعبة والسفيانان، ومالك وأبو حنيفة، وابن جريح وخلق كثير، جمع الحفاظ بن عقدة من روى عنه في كتاب قبلوا أربعة آلاف رجل.

(٤) إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر الهاشمي القرشي إليه تنسب فرقة الإسماعيلية وذي القائلة بإمامته بعد أبيه جعفر. كان رجلا صالحا وكان أكبر إخوته وكان أبوه شديد المحبة له والبر به، مات في حياة أبيه بالعريض وحمل على رقاب الرجال إلى المدينة ودفن بالقيع سنة (١٣٣هـ).

(٥) المباركية: نسبة إلى عظيم من عظمائهم يسمى المبارك. العقد الثمين/٤٥، الحور العين/٢١٦.

٦- وصنف آخر يقال لهم: الفطحية، ^(١) منهم زرارة، ^(٢) وحمران، ^(٣) وبكير، ^(٤)

(١) الفطحية: سموا فطحية لأن عبد الله بن جعفر كان أفتح الرأس، وأفتح القدم، أي عريضهما، وقيل: إنما نسبوا إلى رجل من رؤسائهم يسمى عبد الله بن أفتح. العقد الثمين/٤٥٥، الحور العين/٢١٨. رجال الكشي ٥٢٤/٢. إلا أنهما قالوا: عبد الله بن فطيح.

(٢) زرارة: بن أعين بن سنسن الشيباني يعده الإمامية تارة من أصحاب الباقر، وأخرى من أصحاب الصادق، وثالثة من أصحاب الكاظم. اسمه عبد ربه ويكنى أبا الحسن وزرارة لقّب به. معدود من فقهاءهم ومتكلميهم له كتاب في الاستطاعة والجبر مات سنة (١٥٠هـ).

(٣) حمران بن أعين الشيباني أخور زرارة. معدود من أصحاب الباقر، وقيل: الصادق، أحد متكلمي الإمامية. ضعفه جماعة منهم.

(٤) بكير بن أعين الشيباني أخور زرارة وحمران، أبو الجهم عد من أصحاب الباقر، وقيل: الصادق، مات في حياة الإمام الصادق لم يوثق نصا من رجال الجرح والتعديل الإمامية وإنما استفيد توثيقه من قرآن آخر، كما قال المامقاني في توضيح المقال عند ترجمته.

وآل أعين كلهم متهمون في دينهم، روى الكشي عن حنان بن سدير قال: (كنت أنا ومعى رجل أريد أن أسأل أبا عبد الله عليه السلام عما قالت اليهود والنصارى والمجوس الذين أشركوا، هو مما شاء الله أن يقولوا؟ قال: فقال لي: إن ذا من مسائل آل أعين ليس من ديني ولا دين آبائي. قال: قلت: ما معى مسألة غير هذه). رجال الكشي/١٥٣، وتنقيح المقال ٤٤٤/١.

وروى الكشي أيضا عن عبد الرحمن القصير قال: (قال لي أبو عبد الله عليه السلام: ائت زرارة وبريدا فقل لهما ما هذه البدعة التي ابتدعتها أما علمتما أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: كل بدعة ضلالة؟ قلت له: إني أخاف منهما فأرسل معي ليثا المرادي فأتينا زرارة فقلنا له ما قال أبو عبد الله عليه السلام، فقال: والله لقد أعطاني الاستطاعة وما شعر، فأما يريد فقال: والله لا أرجع عنها أبدا). رجال الكشي/١٤٨، وتنقيح المقال ٤٤٤/١.

وروى الكشي أيضا أن الإمام الصادق سأل أحد شيعته بقوله: متى عهدك بزرارة؟ قال: ما رأيته منذ أيام، قال- أي الإمام الصادق - لا تبالي وإن مرض فلا تعده وإن مات فلا تشهد جنازته. قال - أي السائل - زرارة؟ متعجبا مما قال. قال - أي الصادق - نعم زرارة. زرارة شر من اليهود والنصارى ومن قال: إن الله ثالث ثلاثة. رجال الكشي/١٦٠، وتنقيح المقال ٤٤٣/١.

وروى الكشي أيضا بسنده عن زياد بن أبي الحلال قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: (إن زرارة روى عنك في الاستطاعة شيئا فقبلناه منه وصدقناه وقد أحببت أن أعرضه عليك، فقال: هاته، فقلت: يزعم أنه سألك عن قول الله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مِنْ اسْتِطَاعٍ إِلَيْهِ

ومحمد بن مسلم،^(١) وعمار الساباطي، ..

سبيلاً؟ فقلت: من ملك زاداً وراحلة. فقال: كل من ملك زاداً وراحلة فهو مستطيع للحج وإن لم يحج؟ فقلت: نعم. فقال: ليس هكذا سألني ولا هكذا قلت، كذب علي والله، كذب علي والله، كذب علي والله، لعن الله زرارَةَ، لعن الله زرارَةَ، لعن الله زرارَةَ، إنما قال لي: من كان له زاد وراحلة فهو مستطيع للحج؟ قلت: قد وجب عليه. قال: فمستطيع هو؟ فقلت: لا حتى يؤذن له. قلت: فأخبر زرارَةَ بذلك؟ قال: نعم. قال زياد: فقدمت الكوفة فلقيت زرارَةَ فأخبرته بما قال أبو عبد الله وسكت عن لعنه، قال - أي زرارَةَ - أما أنه قد أعطاني الاستطاعة من حيث لا يعلم وصاحبكم هذا ليس له بصر بكلام الرجال). رجال الكشي/١٤٧، وتنقيح المقال ١/٤٤٣، والخوئي في معجم رجال الحديث ١٤١/٧.

وروى الكشي أيضاً عن مسمع بن كروين قال: سمع أبا عبد الله عليه السلام يقول: (لعن الله بريداً ولعن الله زرارَةَ). رجال الكشي/١٤٨، والخوئي ٢٤٣/٧.

وروى الكشي أيضاً عن إسماعيل بن عبد الخالق، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ذُكر عنده بنو أعين، فقال: (والله ما يريد بنو أعين إلا أن يكونوا على غلب). رجال الكشي/١٣٤.

وروى الكشي أيضاً عن ميسر قال: (كنا عند أبي عبد الله عليه السلام فمرّت جارية في جانب الدار على عنقها قمقم قد نكسته، قال: فقال أبو عبد الله عليه السلام: فما ذنبني إن الله قد نكس قلب زرارَةَ كما نكست هذه الجارية القمقم). رجال الكشي/١٦٠، وتنقيح المقال ١/٤٤٤.

وروى الكشي أيضاً عن أبي مسكان قال: (سمعت زرارَةَ يقولك رحم الله أبا جعفر وأما جعفر فإن في قلبي عليه لفته، فقلت له: وما حمل زرارَةَ على هذا؟ قال: حمل علي هذا أن أبا عبد الله أخرج مخازيه). رجال الكشي/١٤٤، وتنقيح المقال ١/٤٤٤.

وروى الكشي أيضاً بإسناده إلى ليث الراوي قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: (لا يموت زرارَةَ إلا تائها). رجال الكشي/١٤٩، وتنقيح المقال ١/٤٤٣.

(١) محمد بن مسلم بن رباح أبو جعفر الأوقص الطحان، عد من أصحاب الباقر، وقيل: الصادق. وقيل: الكاظم مات سنة (١٥٠هـ) عن نحو سبعين سنة، وردت أخبار عن الصادق بذمه ولعنه هو وزرارَةَ بن أعين. له كتاب الأربعمئة مسألة في الحلال والحرام.

عن عامر بن عبد الله بن جذاعة قال: (قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إن امرأتني تقول بقول زرارَةَ ومحمد بن مسلم في الاستطاعة وترى رأيهما؟ فقال: ما للنسا وللرأي والقول لها، إنهما ليسا بشيء في ولاية. قال: فبحثت إلى امرأتني فحدثتها، فراجعت عن ذلك القول). اختيار معرفة الرجال ١/٣٩٣ (٢٨٢).

وعن أبي الصباح قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: (يا أبا الصباح هلك المتربسون في

(١) معاوية بن عمار، (٢) وكانوا يزعمون أن جعفرا أوصى إلى عبد الله (٣) ابنه، وهو الإمام من بعده، ثم أوصى عبد الله إلى موسى (٤).

٧- وصنف آخر من الروافض (٥) يقال لهم: المفضلية (٦)، زعموا أن موسى وصي جعفر وهو الإمام من بعده.

٨- وصنف آخر يقال لهم: السبئية، (٧) زعموا أن جعفر أوصى إلى محمد (٨) ابنه،

أديانهم، منهم زرارة، وبريد، ومحمد بن مسلم، وإسماعيل الجعفي، وذكر آخر لم أحفظ). اختيار معرفة الرجال ٣٩٤/١ (٢٨٣).

وعن مفضل بن عمر قال: (سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: لعن الله محمد بن مسلم كان يقول: إن الله لا يعلم الشيء حتى يكون). اختيار معرفة الرجال ٣٩٤/١ (٢٨٤).

(١) عمار بن موسى أبو اليقظان الساباطي. عد من أصحاب الصادق، وأخرى من أصحاب الكاظم، قال في الفهرست: عمار بن موسى الساباطي وكان فطحيا له كتاب كبير جيد، وكذلك قال عنه الكشي وغيره. ضعفه جماعة من الإمامية.

(٢) معاوية بن عمار أبو معاوية بن خباب بن عبد الله البجلي الرهي أبو القاسم الكوفي من أصحاب الصادق له كتب منها الحج وكتاب يوم وليلة وكتاب الزكاة. مات سنة (١٥٠هـ) ضعفه وقدح فيه جماعة.

(٣) عبد الله بن جعفر الصادق أكبر إخوته بعد أخيه إسماعيل. خرج مع الإمام زيد بن علي عليه السلام. (٤) موسى الكاظم بن جعفر الصادق أبو الحسن سابع الأئمة الاثني عشر عند الإمامية ولد سنة (١٢٨هـ) في الأبواء قرب المدينة، كان من سادات بني هاشم، ومن أعيد أهل زمانه، وأحد كبار العلماء الأجداد، حبسه هارون الرشيد في البصرة سنة واحدة ثم نقله إلى بغداد فتوفي فيها سجيناً مسموماً، وقيل قتل سنة (١٨٣هـ).

(٥) سقط من (ب) و (د): من الروافض.

(٦) المفضلية: نسبة إلى رئيس لهم كان صيرفيا يسمى المفضل. الحور العين/٢٢٢. انظر رجال الكشي ٢/ ٦١٢ — ٦١٥.

(٧) السبئية، لعلها نسبة إلى عمار الساباطي، أحد رؤوسهم.

ويقال: السمطية نسبة إلى يحيى بن أبي سمط. ويقال الشمطية نسبة إلى يحيى بن أبي سمط، ولا يعدو أن يكون الاسم مصحفاً.

(٨) محمد بن جعفر الصادق يكنى أبا جعفر، كان فاضلاً مقدماً في أهله، خرج بالمدينة وبويع بإمرة المؤمنين يوم الجمعة لثلاث خلون من شهر ربيع الآخر سنة مائتين، وكان على مذهب الزيدية. قيل

وهو الإمام من بعده، وهو مفقود.

٩- وصنف آخر يقال لهم: الخطابية^(١): زعموا أن الإمامة انتقلت من جعفر إلى الخطاب، والخطاب خليفة جعفر ووصيه، وجعفر غائب حتى يرجع.

١٠- وصنف آخر من الروافض من أصحاب موسى، وقفوا على موسى وزعموا أن موسى حي لم يموت، ولا يموت حتى يملأها عدلا كما ملئت جورا، ويقال لهم الواقفة^(٢) والمطورية.

١١- وصنف آخر منهم يقال لهم القطعية^(٣)، وهم أصحاب علي بن موسى^(٤).

كتب رجل كتابا في أيام أبي السرايا يسب فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وجميع أهل البيت، وكان محمد بن جعفر معتزلا العمل السياسي الجهادي لم يدخل في شيء منه. فجاءه الطالبيون فقرأوه عليه فلم يرد عليهم جوابا حتى دخل بيته، فخرج عليهم وقد لبس الدرع، وتقلد السيف، ودعا إلى نفسه وتسمى بالخلافة وهو يتمثل:

لم أكن من جناتها علم الله وإني بحرّها اليوم صالي

شكى ذات يوم على مالك بن أنس عالم المدينة ما هم فيه وما يلقون فقال: اصبر حتى يجيء تأويل هذه الآية ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾. وكان في أيام هارون وحاصره جيش هارون حتى تفرق عنه أصحابه فاضطر لأخذ الأمان لأصحابه من هارون. ومات بخراسان أيام المأمون.

قيل: عندما خرجت جنازته دخل المأمون بين عمودي السرير فحمله حتى وضعه في لحده، وقال: هذه رحم محفوة منذ مائتي سنة، وقضى دينه وكان عليه نحو ثلاثين ألف دينار.

(١) الخطابية: نسبة إلى أبي الخطاب محمد بن أبي زينب، مولى لبني أسد. الحور العين/٢٢٠. كان يدعي أن الصادق عليه السلام جعله قيما ووصيه من بعده، وأنه علمه اسم الله الأعظم، ثم ترقى إلى أن ادعى النبوة، ثم ادعى الرسالة، ثم ادعى أنه من الملائكة، وأنه رسول الله إلى أهل الأرض والحجة عليهم.

(٢) الواقفة: سموا بذلك لوقوفهم على موسى بن جعفر، وسموا بالمطورية لأن رجلا منهم ناظر يونس بن عبد الرحمن، وهو من القطعية، فقال له يونس: لأنتم أنتم من الكلاب المطورة. أي: المبتلة بالمطر. العقد الثمين/٤٦، والحور العين/٢١٩.

(٣) القطعية: سموا بذلك لقطعهم بموت موسى بن جعفر.

(٤) في جميع المخطوطات علي بن محمد ولعله سهو من النساخ والأصح علي بن موسى الرضا.

علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق ولد بالمدينة سنة (١٥٣هـ) وقيل غير ذلك، ثامن

١٢- وصنف آخر منهم يقال لهم البشرية، ^(١) وهم من أصحاب علي بن محمد أيضا يزعمون أنا إذا عرفنا إمام زماننا فليس علينا شيء من الأعمال لا صلاة ولا صوم، ولا زكاة ولا حج، ولا شيء من الفرائض، حتى يظهر حكم صاحبنا، لأننا في الفترة، وقد غيّرت وبُذلت الأحكام والفرائض، فليس علينا من هذا شيء إلى يوم القيامة.

وكل من قال بجعفر من الروافض يزعم أن الإمام يُخلق عالما، وطبعه العلم، والعلم مطبوع فيه، ويزعمون أن الإمام يعلم الغيب، ويعلم ما في تخوم الأرضين السابعة السفلى، وما في السماوات السابعة العليا، وما في البر والبحر، والليل والنهار ^(٢) عنده

الأئمة الاثني عشر عند الإمامية من أجلاء أهل البيت وفضلائهم، أحبه المأمون العباسي فعهد إليه بالخلافة من بعده، وزوجه ابنته، وضرب اسمه على الدينار والدرهم، وغير من أجله الزي العباسي الذي هو السواد، فجعله أخضر، وكان هذا شعار أهل البيت، وتوفي سنة (٢٠٣هـ) بطوس. قيل: سمه المأمون، ودفنه إلى جانب أبيه الرشيد.

(١) البشرية: نسبة إلى محمد بن بشير، كان صاحب شعبذة ومخاريق. ادعا أن موسى بن جعفر كان ظاهرا بين الخلق يروونه جميعا، يترأى لأهل النور بالنور، ولأهل الكدورة بالكدورة في مثل خلقهم، بالإنسانية والبشرية اللحمانية، ثم حُجب الخلق جميعا عن إدراكه. رجال الكشي ٢/٧٧٥.

(٢) بؤب الكليبي في كتابه الكافي بابا مستقلا تحت عنوان ((إن الأئمة عليهم السلام يعلمون علم ما كان وما يكون وإنه لا يخفى عليهم الشيء)).

ونقل عن الإمام جعفر الصادق أنه قال: إني أعلم ما في السماوات والأرض، وأعلم ما في الجنة وما في النار، وأعلم ما كان وما يكون. الأصول من الكافي كتاب الحجة ١/٢٦١.

ونقل عن الإمام الباقر أنه قال: لا يكون والله عالم جاهلا أبدا، عالما بشيء جاهلا بشيء، ثم قال: الله أجل وأعز وأكرم من أن يفرض طاعة عبد يحجب عنه علم سمائه وأرضه، ثم قال: لا يحجب ذلك عنه. المصدر السابق ١/٢٦٢.

وعن سالم بن قبيصة قال: شهدت علي بن الحسين عليه السلام يقول: أنا أول من خلق الله وآخر من يهلكها (كذا)، فقلت: يا بن رسول الله وما آية ذلك؟ قال: آية ذلك أن أرد الشمس من مغربها إلى مشرقها ومن مشرقها إلى مغربها، ففعل له: افعل ذلك، ففعل. دلائل الإمامة ٨٤/ ٨٥.

وأن الأئمة يعلمون متى يموتون، وأنهم يموتون باختيار منهم. الأصول من الكافي ١/٢٥٨.

وأن الأئمة لو ستر عليهم لأخبروا كل امرئ بما له وما عليه. المصدر السابق ١/٢٦٤.

وعند الأئمة علم لا يحتمله ملك مقرب ولا نبي مرسل. المصدر السابق ١/٤٠٢.

مجرى واحدا. فسبحان الله!! وما هذه إلا صفات^(١) رب العالمين!!

فكيف يُخلقون علماء، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يُخلق عالما، ولم يكن طبعه العلم، ولم يعلم إلا بعد تَعْلُم، ولم يَعْرِف حتى عُرِف! وكيف وقد حَدَّث بعض أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله عن آبائه^(٢) قال: قال: رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (أنا عبد مخلوق مريبوب لم أكن نبيا فنبئت، ولم أكن رسولا

وأن الإمام لا يخفى عليه كلام أحد من الناس ولا طير ولا بهيمة ولا شيء فيه روح. قرب الإنسان للحميري/١٤٦ طبعة مكتبة نينوى طهران.

وعن المفضل بن عمر قال: قلت لأبي عبد الله: جعلت فداك ما لإبليس من السلطان؟ قال: ما يوسوس في قلوب الناس، قلت: ما لملك الموت؟ قال: يقبض أرواح الناس. قلت: وهما سلطان على من في المشرق والمغرب؟ قال: نعم. قلت: فما لك أنت جعلت فداك من السلطان؟ قال: أعلم ما في المشرق والمغرب وما في السماوات والأرض وما في البر والبحر وعدب ما فيهن، وذلك لا لإبليس ولا لملك الموت. دلائل الإمامة/١٢٤.

وعن يزيد بن عبد الملك قال: كان لي صديق وكان يكثر الرد على من قال إنهم يعلمون الغيب. قال: فدخلت على أبي عبد الله فأخبرته بأمره، فقال: قل له إني والله لأعلم ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما دونهما. دلائل الإمامة/١٢٦.

وعن إبراهيم بن منصور، قال: رأيت الحسن بن علي وقد خرج مع قوم يستسقون، فقال للناس: أيما أحب إليكم المطر أم البرد أم اللؤلؤ؟ فقالوا: يا بن رسول الله ما أحببت، فقال: على أن لا يأخذ أحد منكم لذنيه شيئا بالثلاثة، قال: ورأيناه يأخذ الكواكب من السماء ثم يرسلها فتطير كما تطير العصافير إلى مواضعها. دلائل الإمامة/٦٤.

وعن محمد بن راشد عن أبيه.... في حديث طويل قال في آخره: قال يعني الصادق: إنكم معاشر أهل الحديث تركتم العلم. فقلت له: يرحمك الله أنت إمام هذا الزمان؟ قال: نعم والله إني إمام هذا الزمان. فقلت: علامة ودليل. فقال: سألني عما بدا لك أخبرك به إن شاء الله. فقلت: إن أخا لي مات في هذه المقبرة فأمر أن يحيا. فقال لي: وما أنت أهل لذلك، ولكن أخوك ما كان اسمه؟ فقلت: أحمد. فقال: يا أحمد، قم بإذن الله تعالى، وإذن جعفر بن محمد، فقام والله ويقول: يا أخي اتبعه، وحلفني بالطلاق والعناق ألا أخبر أحدا.

الخرائج والجرائح ٧٤٢/٢، مدينة المعاجز: ٩٩/٤٠٩.

(١) في (ب) و (ج): وما هذه إلا صفة. وفي (ب) و (د): وما هذه الصفة إلا صفة.

(٢) في (ب) و (د): آبائهم.

فأرسلت، ولم أكن عالماً فَعُلِّمْتُ، فلا تقولوا في فوق طولي^(١).

وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧]. فسماه ضالًّا ثم هداه، ولم تكن ضلالة رسول الله صلى الله عليه وآله ضلالة شرك، ولا كضلالة قريش، ولا كضلالة اليهود والنصارى، غير أنه كان ضالًّا^(٢) عن الشرائع، أي جاهلاً بالشرائع حتى بصره الله وهداه وعرفه، ولم يجهل رسول الله صلى الله عليه وآله عليه وآله رب العالمين.

أما بلغك قول الله سبحانه لنبيه: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]؟! وهل تكون الزيادة إلا من نقصان، فما لم يكن لرسول الله صلى الله عليه وآله عليه، فلا يكون لأحد من خلق الله، وكل عالم بعد جهل يُعلم، ولا بد أن يقع اسم الجهل على كل خلقه، كيلاً يُشَبَّه أحدٌ من خلقه به؛ لأن الله لم يجهل ولم يتعلم. ولم يزل عالماً، وكل خلقه بعد جهل تعلموا، والله سبحانه لم يجهل ولم يتعلم. ولو كان على ما قالت الروافض بأن الأئمة علماء غير متعلمين، ولا يجوز الجهل في وقت من الأوقات على أحد من الأئمة، فسبحان الله أفليس قد شبهتموه^(٣) برب العالمين، إذ لم يجهل صاحبكم ولم يتعلم، أو ليس قد شبهتموه بالله بقولكم، إذ^(٤) زعمتم أنه يعلم الغيب، ويعلم أعمال العباد (ومواضعهم، وكل رجل باسمه ونسبه، ويعلم ما تلفظونه، ويعلم ما في قلوب العباد)^(٥)، فسبحان الله عما يقولون! وهل هذه إلا صفة رب العالمين؟!

(١) لم أقف على هذا الحديث بهذا اللفظ، ووقفت على حديث طويل عنه صلى الله عليه وآله وسلم في آخره: (لا تطروني كما أطري ابن مريم، وإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله). أخرجه البخاري رقم (٣١٨٩) أحمد بن حنبل رقم (١٤٩، ١٥٩، ٣١٣، ٣٦٨)، والدارمي برقم (٢٦٦٥)، وأبو داود ١٠١ برقم (١٠٤)، وفي بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث ٢/٨٨٣ (٩٥٢): (لا ترفعوني فوق حقي، إن الله اتخذني عبداً، قبل أن يتخذني نبياً). والطبراني في الكبير ٢٢٨/٣. (٢٨٨٩)، بلفظ: (اتخذني رسولاً).

(٢) في (أ) و (ج): ضلال.

(٣) في (أ) و (ج): شبهوه.

(٤) في (ب): إن. وسقط من (أ) و (ج).

(٥) سقط من (أ): ما بين القوسين.

وتأولوا قول الله سبحانه في كتابه — لقوله —: ﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة: ١٠٠] فيزعمون أن الله ورسوله والأئمة يرون أعمال العباد، فسبحان الله! كيف يرى ما غاب عنه، وإنما قال الله سبحانه: ﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ إنما عني تبارك وتعالى أي: فسيري المؤمنون والأنبياء في الآخرة أعمالكم إذا ظهر الغيب، وانكشف الستر، وكان فريق في الجنة، وفريق في السعير، واستبان للخلق^(١) المطيع من العاصي، والكافر من المؤمن، والصالح من الطالح، فكم من مستور عليه يُجرَّ إلى عذاب أليم، وكان عند الناس على خلاف ذلك في دار الدنيا.

ولو رأى أحد ممن وصفت الروافض، من الأنبياء والأئمة، من غير أن يُخبر لم يكونوا يموتون بالسم، ولم يكونوا ليأكلوا السم،^(٢) فيعينوا على أنفسهم بالقتل، وقد قال تبارك وتعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ [النساء: ٢٩]. أو ليس من أكل شيئا من السم وهو يعلم أن فيه نفسه، فقد أعان على قتلها؟ فإن زعموا أنه^(٣) أكل السم من الخوف. يقال لهم: من أي شيء يخاف؟ فإن زعموا أنه إنما يخاف من القتل. فقل^(٤) لهم: أو ليس قتله بالسم^(٥) فلا يأكل حتى يقتل مظلوما، خير له من أن يقتل نفسه وهو معين عليها.

وكيف يعلم وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَىٰ مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ﴾ [الأحقاف: ٩]. يعني من حوادث الدنيا، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَمِنَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَىٰ النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ خَبَرٌ نَّعْلَمُهُمْ ﴾ [التوبة: ١٠٠]. فكيف^(٦) يرى أعمال العباد؟! هذا كتاب الله يكذب قولكم. ولو كان

(١) في (ب): الخلق.

(٢) يشير إلى سم جعدة بنت الأشعث لزوجها الإمام الحسن، وسم المأمون للرضا وغيرهما.

(٣) في (ب) و (د): أثم أكلوا من الخوف. وفي (ج): أثم أكلوا السم من الخوف.

(٤) في (ب) و (د): فقل.

(٥) في (أ) و (ج): في السم.

(٦) في (ب) و (د): وكيف يرى أفعال.

الأمر على ما وصفتهم، لم يقل تبارك وتعالى بخلاف قولكم، لقوله: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ وقد قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٢٩]. فهل أصحابكم إلا من الأنفس، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونٍ أَمْهَلَتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٣]. فقد جمعت هذه الآية جميع ولد آدم، لأن كل ولد آدم خرجوا من بطون النساء، كل نبي وغيره، وقد أخبرنا أنهم لم يعلموا شيئا حتى علموا، وقد قال - تصديق ما قلنا في محكم كتابه -: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلَكْتُبُ وَلَا الْإِيمَنُ﴾ [الشورى: ٥٢]. [وجميع دعواكم مُكذَّب له كتابُ الله، فيا سبحان الله ما أعظم ما تقولون! وهل الشرك إلا دون ما تزعمون.

فإن زعموا أنهم^(١) يجهلون تأويل كتاب الله، والنظر فيه، ويحتجون علينا بشيء، وتأويله خلاف ما يظنون^(٢).

يقال لهم: كيف ذلك؟

فإن زعموا أنه ليس لأحد ينظر في تأويل كتاب الله، ولا يحتج به إلا الأئمة.

يقال لهم: أخبرونا عن القرآن كله ليس لأحد ينظر في كتاب الله، ولا يحتج به إلا الأئمة، ولا يتدبر إلا هم؟

فإن قالوا: نعم.

فقل لهم: فلم يتعلم الناس كتاب الله وهم لا يتدبرونه^(٣)؟ وكيف وقد أكذب^(٤) الله قولكم بقوله تبارك وتعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]. أَفَتَرَى هذا قول^(٥) الله للأئمة؟!

(١) في (أ) و (ج): بأهم.

(٢) في (ب) و (د): تظنون.

(٣) في (أ) و (ج): لا يتدبرون فيه.

(٤) في (ج): كذَّب.

(٥) في (ج): قال.

فإن قالوا: نعم.

فقل: أفلا ترون^(١) أن الله قد عاب أئمتكم إذ تركوا تدبر كتاب الله، وعابهم فقال: ﴿أْمَرَعَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾!

فإن قالوا: ليس هذا في الأئمة، وإنما هذا في العوام^(٢): أن ينظروا في كتاب الله ويتدبرون فيه^(٣).

يقال لهم: أفلا ترون أن الله ألزم العباد النظر في كتابه، وقد^(٤) قال تبارك وتعالى: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٠١]. أو ليس عابهم لما تركوا النظر في كتابه، ومعرفة ما أمرهم به، ونهاهم عنه، ومعرفة الأولياء من الأعداء، فلما تركوه عابهم بذلك! وقد قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فيما رويتم وروينا: (أيها الناس خلقت فيكم الثقلين فتمسكوا بهما لا تضلوا بعدي أبدا كتاب الله وعترتي أهل بيتي)^(٥). وقد قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم:

(١) في (ج): تُرى.

(٢) في (أ) و (ج): هذا للعوام. وفي (د): هو في العوام.

(٣) سقط من (أ) و (ج): ويتدبرون فيه.

(٤) سقط من (ب) و (د): وقد.

(٥) هذا الحديث ورد بألفاظ متفاوتة فمن أخرج فيه لفظ (وعترتي) الإمام زيد بن علي في المسند/ ١٠٤، والإمام الرضى في الصحيفة/ ٤٦٤، والخافظ محمد بن سليمان الكوفي في مناقبه/ ١٦٧ رقم (٦٤٦)، والإمام أبو طالب في الأمالي/ ١٧٩، والمرشد بالله في الأمالي/ ١٥٢، والدولابي في الذرية الطاهرة/ ١٦٦ رقم (٢٢٨) والبرار ٨٩/٣ رقم (٨٦٤) عن علي.

وأخرجه مسلم ١٥/ (بشرح النووي) ١٩٩، والترمذي ٦٢٢/٥ رقم (٣٧٨٨)، وابن خزيمة ٦٢/٤ رقم (٢٣٥٧)، والطحاوي في مشكل الآثار ٣٦٨/٤ — ٣٦٩، وابن أبي شبة في المصنف ٤١٨/٧، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٣٦٩/٥ (تهذيبه)، والطبري في ذخائر العقبى/ ١٦، البيهقي في السنن الكبرى ٣٠/٧، والطبراني في الكبير ١٦٦/٥ رقم (٤١٦٩)، والنسائي في الخصائص ١٥٠ رقم (٢٧٦)، والدارمي ٤٣١/٢، وابن المغازلي في المناقب ٢٣٤، ٢٣٦، وأحمد في المسند ٣٦٧/٤، وابن الأثير في أسد الغابة ١٢/٢، والحاكم في المستدرک ١٤٨/٣، وصححه وأقره الذهبي عن زيد بن أرقم.

وأخرجه عبد بن حميد ١٠٧ — ١٠٨ في (المنتخب)، وأحمد ١٨٢/٥ و ١٨٩، والطبراني في الكبير ١٦٦/٥،

(أيها الناس قد كُذِبَ على الأنبياء الذين كانوا من قبلي، وسيكذب علي من بعدي، فما أتاكم فاعرضوه على كتاب الله، فإن وافق كتاب الله فهو مني، وإن لم يوافق كتاب الله فليس مني) ^(١) فكيف يدعوننا ^(٢) رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم،

وأورده السيوطي في الجامع الصغير ١٥٧ رقم (٢٦٣١)، ورمز له بالتحسين، وهو في كثر العمال ١٨٦/١ رقم (٩٤٥)، وعزاه إلى ابن حميد وابن الأنباري عن زيد بن ثابت. وأخرجه أبو يعلى في المسند ١٩٧/٢ و ٣٧٦، وابن أبي شيبه في المصنف ١٧٧/٧، والطبراني في الصغير ١٣١/١ و ١٣٥ و ٢٢٦، وأحمد في المسند ١٧/٢، ٢٦/٦، وهو في كثر العمال ١٨٥/١ رقم (٩٤٣)، وعزاه إلى البارودي ورقم (٩٤٤)، وعزاه إلى ابن أبي شيبه، وابن سعد، وأبي يعلى. عن أبي سعيد الخدري. وأخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه ٤٤٢/٨، وهو في الكثر ١٦٨/١، وعزاه إلى الطبراني في الكبير عن حذيفة بن أسيد.

وأخرجه الترمذي في السنن ٦٢١/٥ رقم (٣٧٨٦)، وذكره في كثر العمال ١١٧/١، رقم (٩٥١)، وعزاه إلى ابن أبي شيبه، والخطيب في المتفق والمفترق عن جابر بن عبد الله. والكنجي في كفاية الطالب ١١، وابن سعد في الطبقات ٨/٤، ورواه في العقد الفريد ٩٥٨/٢، و ٣٤٦. وفي تذكرة الخواص ٣٣٢ ورواه نور الدين الحلبي في إنسان العيون ٣٠٨/٣، والعريزي في السراج المنير شرح الجامع الصغير ٣٢١/١، وابن الصباغ في الفصول المهمة ٢٤، وشهاب الدين الخفاجي في نسيج الرياض ٤١٠/٣، والثعلبي في الكشف والبيان عن تفسير آية الاعتصام، وآية (أيها الثقلان). والرازي في تفسير آية الاعتصام ١٨/٣ وهو في تفسير النظام النيسابوري ٢٥٧/١، ٩٤/٤، وفي تفسير ابن كثير الدمشقي ٤٨٥/٣، و ١١٣/٤، ورواه في البداية والنهاية في ضمن حديث الغدير وابن الأثير في النهاية الجزء الأول، والسيوطي في الدر المنثور ١٥٥، وذكره في لسان العرب في مادة عترة ومادة ثقل وحبل، والشيرازي في القاموس في مادة ثقل، والزبيدي في تاج العروس في مادة ثقل أيضا. وشرح نهج البلاغة ١٣٠/٦ في معنى العترة، ومدارج النبوة لعبد الحق الدهلوي/٢٥٠، والمناقب المرتضوية لمحمد صالح الترمذي الكشفي/٩٦، ٩٧، ١٠٠، ٤٧٢، ومفتاح كنوز السنة ٤٤٨/٢، ومصابيح السنة للبغوي ٢٠٥/٢، ٢٠٦. والصواعق المحرقة/٧٥، ٨٧، ٩٠، ٩٦، ١٣٦، وإسعاف الراغبين في هامش نور الأبصار/١١٠. وينابيع المودة/١٨، ٢٥.

(١) رواه الإمام زيد بن علي في الرسالة المدنية/٨ والإمام الهادي في كتاب القياس/١٣٢، وفي تثبيت الإمامة/٥٢، والديلمي في البرهان، والإمام أحمد بن سليمان في حقائق المعرفة/٢٦٣، والشرقي في المصابيح/٨٩، والرازي في المحصول ٣٠٠/٤. وأبو الحسين البصري في المعتمد ٥٥٠/٢، والعجلوني في كشف الخفاء ٥٦٥/٢ (١٥٢٢) والطبراني في الكبير ٩٧/٢ (١٤٢٩). بلفظ: (ليكثر علي الكذابة، فما حدثتم به عني، فاعرضوه على كتاب الله عز وجل، فما وافق كتاب الله فخذوه، وما خالف

ويأمرنا بشيء ليس لنا فيه النظر؟ لقوله: (اعرضوه على كتاب الله) ^(١).

وقوله صلى الله عليه وعلى آله: (تمسكوا بالثقلين) ^(٢) فإن كان الإمساك بالقرآن

كتاب الله فردوه. ، والشافعي في الرسالة/٢٢٤. بلفظ: (ما جاءكم عني، فاعرضوه على كتاب الله، فما وافقه فأنا قلته، وما خالفه فلم أقله). وابن معين في تاريخه ٤٤٦/٣. بلفظ: (ما جاءكم عني فاعرضوه على كتاب الله). والآمدي في الإحكام ٧٦/٢. والصاغانى في الموضوعات/١٠. والمهيمن في مجمع الزوائد ١٧٠/١. وقال رواه الطبراني، والرازي في الحصول ٩١/٣. والسيوطي في الجامع الصغير ٧٤/١ (١١٥١). بلفظ: (أعرضوا حديثي على كتاب الله، فإن وافقه فهو مني، وأنا قلته). وروى الخطيب البغدادي عنه صلى الله عليه وآله وسلم: (سيأتيكم عني أحاديث مختلفة، مما جاء موافقا لكتاب الله وسنته فهو مني، وما جاءكم مخالفا لكتاب الله وسنتي فليس مني). وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: (ما حدثكم عني مما تعرفونه فخذوه وما حدثكم عني مما تنكرونه فلا تأخذوا به، فإنني لا أقول المنكر، ولست من أهله). الكفاية في علم الرواية/٤٣١. وروى نحوه في معاني الأخبار: ٣٠/٣٩.

وفي كثر العمال (اعرضوا حديثي على كتاب الله، فإن وافقه فهو مني وأنا قلته). ورواه القاضي بن عبد الجبار في فضيلة الاعتزال، وطبقات المعتزلة بلفظ! سيأتيكم عني حديث مختلف، فما وافق كتاب الله فهو مني، وما كان مخالفاً لذلك فليس مني). الاعتصام ٢٢/١. وروى الكليني عنه صلى الله عليه وآله وسلم: (إن على كل حق حقيقة وعلى كل صواب نوراً، فما وافق كتاب الله فخذوه، وما خالف كتاب الله فدعوه). الكافي: ٦٩/٩. ويؤكد معنى الحديث ما أخرجه مسلم في صحيحه رقم (٨): عنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يكون في آخر الزمان دجالون كذابون يأتونكم منن الأحاديث بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم فإياكم وإياهم لا يضلونكم ولا يفتنونكم).

وأخرجه أحمد باختلاف يسير برقم (٨٢٤١).

وقد ضعف حديث العرض أغلب الحديثين من أهل السنة، وتضعيفهم غير مقبول، وترك العرض على الكتاب هو الذي أوقعهم في مزالق خطيرة في العقيدة والشريعة، فحكموا السنة على القرآن، ومن ثم قبلوا كثيراً من الأحاديث التي تقتضي تشبيه الله بخلقه، أو تمس قدسية الأنبياء أو نحو ذلك مما يخالف مقتضى العقول وثواب العقيدة، ومقاصد الإسلام، إضافة إلى قوله تعالى: ﴿وما اختلافكم فيه من شيء فحكمه إلى الله﴾. أي: إلى كتابه. لأنه المحفوظ من التحريف والزيادة والنقصان، ﴿إننا نحن نزلنا الذكر وإننا له لحافظون﴾.

(١) في (ج): فيكف كان يدعوننا.

(٢) سبق تخريجه.

هو القراءة، فقد قرأه جميع أهل الأهواء، فهم ممن حفظ وصية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وتمسكوا بكتاب الله.

فإن زعموا أنه لا يكون التمسك إلا النظر فيه، والقيام بما فيه، والعمل به، فقد أطلقوا للخلق ينظرون^(١) فيه، ويعرفون الحق من الباطل، وقد وجدنا كتاب الله مكذبا لجميع دعواكم^(٢).

ثم قالت الروافض: إن الإمامة وراثية يرث ابن عن أب، وتأولوا كتاب الله، وزعموا أن^(٣) أولى الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله.

فإن كان الأمر على ما وصفت الروافض، أفليس الابن أولى بالأب من الأخ، وأحق بالوراثة؟ وأقرب رحما؟ لأن الابن من الأب، والأخ ليس من الأب، أفليس على مذهب قولكم: أن الحسن بن الحسن أولى بأبيه من الحسين؟! أو ليس لا يرث الحسين مع الحسن بن الحسن؟! لقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنْ أَمْرُؤَا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ﴾ [النساء: ١٧٦]. أو ليس إذا كان الولد قطع ميراث الأخ والعم؟! أو ليس الحسن بن الحسن قطع ميراث الحسين بن علي من الحسن؟! إذا كانت الإمامة على ما وصفتكم من الوراثة.

فإن زعموا أن حسيناً أولى برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأقعد من حسن بن حسن.

يقال لهم: أو ليس قد خرج الأمر من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى علي بن أبي طالب بعد موته؟ وخرج من علي إلى الحسن، وكان يجب على الحسين طاعة حسن، والأمر للحسن دون الحسين، ويخرج من الحسن إلى الحسن، أو ليس ابن الحسن أولى بالحسن من حسين؟

(١) سبق تخرجه.

(٢) في (ب) و (د): أن ينظروا فيه ويعرفوا.

(٣) في (أ): مكذبا لدعواكم.

(٤) في (ب) و (د): بأن.

فإن زعموا: أن الحسن والحسين هما مشتركان في هذا الأمر، وورثا عليا جميعا، فقد تركوا قولهم، ودعواهم بالوصية، إذا كانا مشتركين في هذا الأمر، فمن قام به فهو صاحبه.

فإن زعموا أنه ليس للحسين أن يقوم في وقت حسن، فقد قطعوا الأمر من الحسين في زمان الحسن، لأن طاعة حسن واجبة على حسين، وقد حاز الأمر الحسن دون الحسين، وورثه ابنه^(١) الحسن بن الحسن.

فإن^(٢) قالوا: لا يرث حسن بن حسن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم — وحسين قائم؛ لأن الحسين أقعد برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فمن كان أقرب برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (وأقعد فهو أولى برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم) عليه وآله وسلم لقوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥، الأحزاب: ٦]. وإنما هذه الآية يعني بها أرحام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وحسين أقرب رحما برسول الله عليه السلام من حسن بن حسن.

يقال لهم: قد بطلت دعواكم في صاحبكم، لأنه ليس في جميع آل أبي طالب أبعد رحما من صاحبكم، لا يلحق برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا بثمانية آباء، وصاحبكم التاسع، وفي ولد فاطمة من هو أقرب برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منه، من ليس بينه وبين النبي إلا أربعة آباء، أوليس هذا أقرب رحما، وأقرب قرابة برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، (من الذي زعمتم، فليس لصاحبكم مع هذا أمر ولا نهي؛ لأن هذا أقرب قرابة برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم).^(٣) وأقعد، فهذا أبطل لدعواكم.

فإن زعمت الروافض أن الحسن بن الحسن كان صبيا، وحسين بالغ، ولا يكون إمام المسلمين إلا بالغاً، فصدقتم. يقال لهم أخبرونا عن صاحبكم علي بن موسى حين

(١) سقط من (ب) و (د): ابنه.

(٢) سقط من (أ) و (ج): فإن

(٣) سقط من (أ) و (ج): ما بين القوسين.

(٤) سقط من (أ) و (ج): ما بين القوسين.

مات، أليس كان ابنه ابن أربع سنين أو ثلاث؟ وابن محمد ^(١) حين مات كان ابنه ^(٢) صغيراً؟ فلم ^(٣) نصبتم الأطفال إذا لم يجز لطفل أن يكون إمام المسلمين؟! هذا يبطل دعواكم، ويدخلكم ^(٤) فيما عبتُم!!

وزعمتم أنه لا يصلح حسن بن حسن أن يكون إماماً لأنه طفل صغير، ثم نصبتم الأطفال، وزعمتم أنهم أئمة، وهما أصغر سناً من حسن بن حسن وكيف - ويحكم - يكون طفل إمام المسلمين؟! وليس في سنة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله، ولا حكم الإسلام أن يصلى خلف طفل، ولا تؤكل ذبيحته، ولا تقبل شهادته، ولا يجوز بيعه ولا شراؤه ولا نكاحه، ولا يؤمن على ماله، فمن لم يؤمن على هذه الأشياء، ولا تأمنه على ألف درهم أو أقل أو أكثر، فكيف يأمنه الله على أحكام دينه، ودماء عبادته، وفروجهم؟! وقيمه مقام الأنبياء؟! لقوله تبارك وتعالى: ﴿حُجَّةٌ بَلَّغَةٌ﴾ ^(٥). فلا تكون الحجة لله في أرضه إلا عند بلوغه.

وقوله تبارك وتعالى في الأطفال ^(٦) اليتامى ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: ٦]. فإيا عجباً ممن لم يأمنه الله على ماله

(١) محمد الجواد بن علي الرضا الهاشمي القرشي، أبو جعفر ولد سنة (١٩٥هـ) بالمدينة قبل وفاة أبيه، قيل: بأربع سنوات، وقيل: بسبع، تاسع الأئمة الاثني عشر عند الإمامية كان رفيع القدر كأسلافه، ذكياً طليق اللسان قوي البديهة، كفله المأمون بعد وفاة أبيه ورباه وزوجه ابنته أم الفضل، وتوفي ببغداد سنة (٢٢٠هـ).

(٢) علي الهادي بن محمد الجواد، أبو الحسن العسكري عاشر الأئمة الاثني عشر عند الإمامية، وأحد الأتقياء الصالحاء، ولد بالمدينة سنة (٢١٢هـ) فعمره يوم وفاة أبيه (٨) سنوات. وشي به إلى المستوكل فاستقدمه إلى بغداد وأنزله في سامراء، وكانت تسمى مدينة العسكر فنسب إليها، توفي بسامراء ودفن بها سنة (٢٣٤هـ).

(٣) سقط من (ب): فلم.

(٤) في (أ) و (ج): ودخولكم.

(٥) الآية الكريمة هكذا: ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ [الأنعام/١٤٩]. ولعلها اشتبهت بقوله تعالى: ﴿حُجَّةٌ بَلَّغَةٌ﴾ [القمر/٥].

(٦) في (ب) و (د): أطفال.

إلا عند بلوغه فكيف يأمنه على خلافته؟!

وقد رويتم وروينا أن جعفر بن أبي طالب جلس بين يدي النجاشي فقرأ آية من الإنجيل ففهمها جعفر فضحك، فغضب النجاشي! فقال: يا جعفر أبكتاب الله ههنا؟! والله إن الله أنزل على موسى في التوراة، وعلى داود في الزبور، وعلى عيسى في الإنجيل، وعلى نبيك في القرآن (أن^(١)) إذا ولي الخلائق الأطفال نزلت عليهم من السماء لعنة، أو أفرغت عليهم من السماء لعنة^(٢) فكيف - وَيَحْكُمُ - يكون الطفل إمام المسلمين.

وإن زعمت الروافض بأن يحيى بن زكريا كان صبيا وكان نبيا!

يقال لهم: أحكمُ الأنبياء وحكمُ الأئمة واحد؟

فإن قالوا: نعم.

يقال لهم: فَمِمَّ بان الأنبياء من غيرهم؟ إلا أن الأنبياء أعطوا ما لم يُعط غيرهم من الأئمة، وأعطى الأئمة ما بانوا به من سواهم من الخلائق. مع أن يحيى بن زكريا لم يُرسل إلى أحد من خلق الله، وكان نبيا ولم يكن مرسلا، ولم يل أحكام الأئمة، وكانت الأحكام إلى غيره - إلى زكريا - مع أن يحيى دعاء زكريا إذ قال: ﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴾ [مرم: ٥]. وقال: ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٩]. وقال: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ [آل عمران: ٣٨]. فوهب الله يحيى إجابة لزكرياء، وكان في وقت يحيى الحجة زكرياء.

فإن زعمت الروافض أن عيسى بن مريم تكلم في المهدي صبيا.

يقال لهم: أفترعمون أن عيسى بن مريم، وصاحبكم شيء واحد؟! ألا ترى أن الله يُعَجِّبُ به خلقه، وأخبرهم بقدرته إذ قال: ﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾

(١) في (ب) و (د): وأنه.

(٢) لم أقف على هذه القصة. وفيها إشكال، وهو ذكر النجاشي لتزول ما ذكر في القرآن. من أين

عمله؟! وأيضا أين هو؟!

[آل عمران: ٤٦]. وقال تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ [المؤمنون: ٥٠]. لأنه لم يكن في ولد آدم خلقاً^(١) مثله، خلق من غير أب، ولم يقل: إن صاحبكم^(٢) آية منه مع أنه يستين^(٣) من صاحبكم للناس خلاف ما استبان من عيسى ويحيى وهما نبيان، فتحتجون علينا بحجة الأنبياء، وتساوون أصحابكم بالأنبياء، ونرى^(٤) أفاعيلهم خلاف أفاعيل الأنبياء، إذ أخذوا التقيّة من المخلوقين ديناً، وهذا يحيى بن زكرياء لم يخف غير الله، ولم يُدار في دينه، استبقاء على بدنه، حتى قتل صلى الله عليه، ومع أن يحيى لم يلبس اللّين، ولم يأكل الطيب، وكان باكياً آثار الدموع بخديه، حتى مضى إلى الله، صلى الله عليه وسلم.

وهذا عيسى بن مريم تكلم في المهد صبيّاً، لم يحبس كلامه تقيّة على نفسه، وكان يخلق من الطين كهيئة الطير بإذن الله، فينفخ فيه فيكون طائراً بإذن الله، وكان يريئ الأكمه والأبرص بإذن الله، وكان يحيي الموتى بإذن الله، وكان ينبئهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم، لم يتق أحداً من خلق الله ولم يراقبه، وكانوا يقولون: ساحر مجنون كذاب كاهن. فلم يسعه كتمان ما جعل الله فيه بما عاين من تكذيب الخلق له، مع أن فعل عيسى بان من فعل صاحبكم.

وليس كل الأنبياء ولّوا حكم الأمة، وإنما كان بعضهم نبي نفسه، وبعضهم نبي أهله، وبعضهم نبي بيته، وبعضهم نبي قرابته، وبعضهم نبي قومه. وليس حكم الأنبياء كحكم غيرهم ممن دونهم، مع أنه قد مضت سنة بني إسرائيل، وهذه سنة محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

(١) سقط من (ب) و (ج): خلقاً.

(٢) في (ب) و (د): وأمه وآية.

(٣) في (ب) و (د): مع أنه سيين. وهذا كما ترى إثبات. والذي في (أ) و (ج): مع أنه لم يستين، نفي. فالمعنى على النفي رغم أن كلمة (خلاف) ثابتة في جميع النسخ إلا أني أرى أنها زائدة مع النفي، فيصبح المعنى: ولم يستين من صاحبكم للناس ما استبان من عيسى. ليصح التفريق بينهما. أما مع الإثبات كما في (ب) و (د): فالمعنى كذلك أيضاً. والله أعلم بالصواب.

(٤) في (ب) و (د): وترى.

فإن زعموا أن السنة لم تزل من لدن آدم إلى يومنا هذا، فقد كذبوا كتاب الله، لقول الله تبارك وتعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٦]. وقد حرم الله على بني إسرائيل الصيد يوم السبت، وأحل لنا، وقد حرم الله عليهم الشحم وأحل لنا، لقول الله سبحانه: ﴿وَأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٦]. أفلا ترى أن عيسى حلل لأمة الذي حرم موسى على أمة.

فإن زعموا واحتجوا بقول الله: ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٧]. ثم قال: ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٥٥] أي: بالدعوة؛ لأن دعوة الأنبياء واحدة؛ لأن كلهم دعوا إلى طاعة الله ونهوا عن معصيته، غير أن في الشرائع لكل أمة شريعة، وأجل لأمة ما حُرِّمَ على غيرها، محنة من الله وامتحاناً، مع أن الأئمة من آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم الصفوة بعد الصفوة، لذلك ورث حسين الإمامة، لأنه كان خير أهل زمانه، مع ما كان فيه من الدلائل في نفسه، والآثار من نبيه، وإجماع الأمة على أنه خير أهل زمانه، وهو وأخوه (سيدا شباب أهل الجنة)، ^(١) فهل يكون لأحد أن يتقدم على من هو خير منه؟! فالإمامة لا تكون إلا لخير أهل الأرض، يستين للناس فضله وزهده وعلمه، وإنما الإمامة نُقِلَتْ من صفوة وخيرة، ولم تزل كذلك من لدن آدم، تنقل من صفوة إلى صفوة.

ولو أن النبوة والإمامة كانت وراثية لم تخرج (من اليمن إلى غيرها، إذ كان هود نبياً، كان يحيز ^(٢) الأمر في ولده، فلم يخرج) الأمر منه ^(٣) إلى غيره، لكن ^(٤) إنما هي صفوة

(١) رواه الإمام الهادي في العدل والتوحيد/٦٩. مرسلًا، وأبو عبد الله العلوي في الجامع الكافي، ورواه الإمام أحمد بن سليمان في حقائق المعرفة/٢٣٣، وابن عساكر في ترجمة الحسن/٧٨. والحاكم ٣/١٨٢، برقم (٤٧٧٨) و (٤٧٧٩) و (٤٧٨٠)، والبيهقي في السنن الكبرى ٥/١٤٩، برقم (٨٥٢٧)، وأبو يعلى ٢/٣٩٥، برقم (١١٦٩)، والطبراني في الكبير ٣/٣٥، برقم (٢٥٩٨) و (٢٥٩٩)، والترمذي برقم (٣٧٠١) و (٣٧١٤)، وابن ماجه برقم (١١٥)، وأحمد برقم (٥٦٨) و (١٠٥٧٦) و (١١١٦٦) و (١١١٩٢) و (١١٣٥١) و (٢٢٢٤٠) و (٢٢٢٤١).

(٢) في نسخة: يصير. أشار إليها في: (ب) و (د).

(٣) سقط من (أ) و (ج): ما بين القوسين سهواً. وفي نسخة: منهم إلى غيرهم. أشار إليها في: (ب) و (د).

بعد صفوة، كذلك يصطفي الله من كل قوم خيرهم، فاصطفى من اليمن هودا وصالحا وشعيباً^(١).

فإن زعم زاعم أن هودا وصالحا وشعيبا من ولد إبراهيم. يقال لهم: ألا ترون أن الله قص علينا خيرهم، ثم قال في كتابه، عن قول صالح لقومه: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آيَاتَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٤]. هذا من قبل إبراهيم.

ثم اصطفى الله من الأعاجم إبراهيم خليله، فجرت النبوة والخلافة والإمامة في ولده، ثم جرت من ولده في ولد إسحاق، ثم اصطفى من ولد إسحاق يعقوب، ثم اصطفى من ولد يعقوب يوسف، ثم اصطفى من ولد إسحاق أيوب، وهو من غير ولد يعقوب، ثم جرت الصفوة في ولد يعقوب، حتى انتهت الصفوة إلى موسى بن عمران، ولم يكن موسى من يوسف، ثم جرت الصفوة في يوشع بن نون، وكان يوشع خير أهل زمانه، ثم جرت الصفوة في ولد هارون، وإنما تنتقل الصفوة من بطن إلى بطن من بني إسرائيل حتى انتهت الصفوة إلى عيسى بن مريم.

ثم جرت الإمامة والزعامة فيمن تبع عيسى بن مريم، حتى انتهت كرامة نبوة الله إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وعلى جميع النبيين، فانتقلت من ولد إسحاق إلى ولد إسماعيل، وجرى الأمر والصفوة في ولد إسماعيل، إذ صار الأمر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وجرى الأمر في ولد النبي صلى الله عليه وآله وسلم الصفوة بعد الصفوة.

[صفة الإمام]

وإنما الصفوة^(٢) لا تكون إلا في أحير أهل زمانه، وأكثرهم اجتهادا، وأكثرهم

(١) في (ب) و (د): ولكن.

(٢) في (أ) و (ج): وشعيبا وإبراهيم. وهو سهو من الناسخ.

(٣) سقط من (أ) و (ب) و (ج): وإنما الصفوة.

تعبداً، وأطوعهم الله، وأعرفهم بحلال الله وحرامه، وأقومهم بحق الله، وأزهدهم في الدنيا، وأرغبهم في الآخرة، وأشوقهم للقاء الله.

فهذه صفة الإمام. فمن استبان منه هذه الخصال فقد وجبت طاعته على الخلائق.

فتفهموا وانظروا هل كان بيننا وبينكم اختلاف في علي بن أبي طالب؟! ثم من بعده في الحسن بن علي؟! أو هل اختلفنا من بعده في الحسين بن علي؟! أو هل اختلفنا في محمد بن علي^(١)؟! أو هل ظهر منهم رغبة في الدنيا، أو طلب أموال الناس؟ أو هل بخلوا بما عندهم؟ أو هل اتخذوا القصور والمراكب والخدم والأتباع؟ أليس قد مضوا إلى الله على البصيرة؟! الله على البصيرة!

فلو أردنا أن نجحد الحق لجحدناهم من بعد الحسين بن علي، فصيرناه في أهل بيت النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم عامة، ولكن اتبعنا الحق حيث أمرنا الله باتباعهم، وأقررنا بالفضل لمن جعل الله فيه الفضل، فلم نر فيهم من طلب الأخماس من التجارة، ولا من صانع، ولا من زارع، ولا من حمال يحمل على رأسه، ولم يستأثر بما جعل الله لأهل بيت نبيهم على أهل بيت نبيهم صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ففي دون هذا التفهم.

فإن زعمت الروافض أن ذا في صاحبنا بما وصفتهم من الدلائل^(٢) الإمامة والزهد والفضل.

يقال لهم: مالنا لا نرى ما تصفون؟

فإن قالوا: إنه في دار تقية.

فيقال لهم: أفتظهر منكم معصية الله على التقية؟ فإن قالوا: نعم.

يقال لهم: فهل ظهر من أحد من الأنبياء أو الأئمة أو الدعاة إلى الله مثل علي والحسن والحسين، أو علي بن الحسين،^(٣) ...

(١) يريد الباقر. رغم أن الزيدية لا تعده عليه السلام من الأئمة الذين قاموا وجاهدوا.

(٢) في (ب): لا دليل. مصحفة. وفي (د): من دلائل.

(٣) هو علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي عليه السلام أبو الحسن زين العابدين، ولد

أو محمد^(١) بن علي، أو غيرهم ممن دعا إلى الله، الذين لم نختلف فيهم إذ كانوا أئمة؟ وجعل الله فيهم ذلك، أو هل طلبوا ما ليس لهم من أموال الناس غيرهم؟ أو هل أظهروا المعصية بالتقية؟ استبقاء على أنفسهم وخافة^(٢) على دمائهم؟ أو ليس صبروا على أمر الله؟ وقاموا بحق الله، حتى قُتل بعضهم، ونُشر بعضهم، وأُحرق بعضهم، وأُغلي بعضهم في القدور، ودُفن بعضهم أحياء، وغُرّق بعضهم في البحار، وسُمّر بعضهم بالمسامير، وعُذبوا بألوان العذاب؟! فما كان يمنعهم أن يظهروا التقية فينجوا من أعداء الله، إذا^(٣) كانت التقية من المخلوقين ديناً على ما وصفتم؟! وقد قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ [هود: ١٠٩]. وهل الركون إليه إلا الاتباع له على ما يريد، وتصديقه من^(٤) وجهة ما يقول، وسكناه معه في داره على غير منابذة، وهو على غير الدعاء إلى الله وطلب الجهاد، وقد قال الله تبارك وتعالى يُصَبِّرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا يَصِيبُهُمْ فِيهِ سَبْحَانَهُ: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قَتَلَ مَعَهُ رِثِيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا

سنة ٣٨هـ وتوفي سنة ٩٤هـ، ركن من أركان الدين، وإمام من أئمة المسلمين، وهو أشهر من أن يترجم له. وقد وضع في ترجمته وسيرته كتب.

(١) محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي، أبو جعفر الباقر، من أكابر أئمة أهل البيت عليهم السلام، ولد سنة ٥٩هـ في حياة جده، وتوفي سنة ١١٤هـ وقيل: ١١٨هـ روى عن أبيه، وعن أبي سعيد وجابر وأبي الطفيل وعدة من الصحابة، وعنه أولاده وأخوه زيد وعبد الله بن الحسن وخلائق.

وفيه روى جابر عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: (إنك ستعيش حتى تدرك رجلاً من أولادي اسمه اسمي يبقر العلم بقرا، فإذا رأيته فأقرأه مني السلام) فلما دخل محمد بن علي على جابر وسأله عن نسبه فأخبره قام إليه فاعتنقه وقال له: (جداً يقرأ عليك السلام)، رواه الهيثمي في المجمع ٢٢/١، وأخرجه ابن عساكر في تاريخه ٤١/٥١، وهو في الوافي بالوفيات ١٠٢/٤، والذهبي في سير أعلام النبلاء ٢٤١/٤، وقال: وأقرأه جده الحسين السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله. والكليني في أصول الكافي ٤٦٩/١، ٤٧٠، والكشي في رجاله ٢٧ ٢٨.

(٢) في (ب) و (د): مخافة.

(٣) في (أ) و (ج): إذ.

(٤) في (ب) و (د): في.

أَسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿٤١﴾ [آل عمران: ١٤٦]. وقال: ﴿يَحْكُمُ بِهَا
الْكَافِرُونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّيْنِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ
كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَخَشَوُا اللَّهَ وَلا تَبْتَاعُوا
بِغَايَتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [المائدة: ٤٤]. ثم قال: ﴿وَإِنِّي فَاتَّقُونَ ﴿٤٢﴾ وَلَا تَلْسُؤُوا الْحَقَّ
بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [البقرة: ٤١-٤٢]. وقال تبارك
وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ
لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة: ١٥٩-
١٦٠]. فكيف يجوز لأحد من الأئمة يكتم الحق، ويظهر من نفسه خلاف ما يعلم؟ أو
ليس من رأى فعله من المستضعفين اقتدى به، لما يعاينون من ظاهر فعله، فهم مصيبون
إذ غاب عن المستضعفين الناصر؛ إذا اقتدى بالإمام.

فإن قلتم: نعم. فقد وجب لمن خالفكم الإيمان. وإن قلتم: إن الذي رأيتم من
الإمام هو التقية، والذي أخبركم خلاف الحق، والحق ما تقولون، وإنما كتمتم الحق
تقية منكم، أليس تدعون^(١) إلى أن نصدقكم على ما قلتم ونكذبه فيما قال لنا؟ فأنتم
إذن أولى بالصدق منه، وأنتم أئمة إذ تأمرونا أن نقندي بما تقولون، وترك ما قال.

فإن زعمتم أنه على الحق، وقد رأى الناس خلاف ما تقولون، ورووا منه خلاف
ما تنسبون، وسمعوا منه خلاف ما تدعون، فافتدوا به إذ زعمتم بأنه^(٢) إمام افترضت
طاعته! أو ليس يجب على الناس أن يطيعوه فيما يأمرهم، ويمتنعوا عما ينهاهم، ثم
تكلفون الناس أن يتبعوا قولكم، ويتركوا قوله، فأنتم إذا الذين افترض الله طاعتكم،
وأنتم الصادقون ليس هو!

ثم زعمتم أنه إمام مفترض الطاعة، أليس على مذهب قولكم هو إمام هدى وإمام
ضلالة، إذ هداكم وأضل غيركم آخرين،^(٣) حين أفتاكم بالحق، وأفتى غيركم بالباطل،

(١) في (ب) و (د): تدعوننا.

(٢) في (ب): أنه.

(٣) في (ب): وآخرين. ولعلها مقلوبة والصواب. وأضل آخرين غيركم.

وعلمكم حكم الله، وعلم غيركم خلاف حكم الله؟ وكيف وقد قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَخُصَّمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]. أفترى جميع الحكمين سواء، حكم ما أخبرك، وحكم ما أخبر غيرك؟ هما جميعا من حكم الله، وهما حكمان متضادان، إلا أن تقولوا: إنه حجة على بعض دون بعض، لناس مخصوصين، وليس حجة على الآخرين.

[الحجة الغائية]

فإن زعمتم أنه حجة على الكل، فالواجب عليه أن يهديهم أجمعين، ويدلهم ويصبرهم، ويعرفهم بنفسه.

وكيف يكون حجة يحجب نفسه من الناس، ولا يبين لهم؟! أرأيتم إذا وقفوا بين يدي الله بم يحتج عليهم؟ أما دعاهم فعصوه؟ أم بما بين لهم فخالقوه؟ أو بما حجبهم نفسه فجهلوه؟ فكيف تثبت له عليهم حجة، ولم تبلغهم حججه، ولم يعرفوا اسمه، ولم يعرف نفسه.

فإن زعمتم بأن له أن يكتم، لأن الله قال في محكم كتابه: ﴿رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ [غافر: ٢٦]. وهو قال لهم: ﴿رَجُلٌ﴾ ولم يكن الرجل بحجة، لأن الحجج فيما مضى أنبياء وأوصياء الأنبياء، وهذا رجل مؤمن أتى الله عليه، ولم يكن بني ولا حجة.

فإن زعموا أن صاحبنا يكتم كما كتّم المؤمن.

يقال لهم: أو ليس زعمتم أن صاحبكم حجة، وهل للمؤمنين أن يبينوا^(١) ما بين الحجج، يسع المؤمن أن يكتم، ولا يسع الحجة أن يكتم؟! مع أن مؤمن آل فرعون كتّم الإيمان قبل أن يبين الله لخلقه، فلما بين الله لخلقه لم يسعه الكتمان بعد البيان، مع أنه كان في عبدة الأوثان، وفي دار من يدعي الربوبية من دون الله، ويحدد رب

(١) في (أ) و (ج): يثبتوا. مصحفة.

العالمين، وصاحبكم في دار الإقرار والمعرفة، وتصديق النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فإن جهلوا الأحكام والشرائع، فليس لأحد أن يكتسب العلم من طالبه بعد بيان الأنبياء، وليس الحجة حجة إلا من احتج على خلق الله، ولم يُلْبَس دين الله.

فإن زعموا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كتم حين ظهر.

يقال لهم: ومتى كتم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ أوليس قال الله لنبيه: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾﴾ [المدثر: ١-٢]. وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو مستند إلى الكعبة، والناس يومئذ مشركون جهال، عبدة أوثان، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]. لم يتق أحدا من خلقه، فاحتمل^(١) الأذى، وصدع بأمر الله، وقام بحق الله، واحتج على خلق الله، وصبر على ما أصابه، حتى أبلغ صلى الله عليه وآله وسلم السامع والعاصي، والخاص والعام، والأبيض والأسود، فمرة يرمون ساقيه، وأخرى يرمونه، ويتشاورون في قتله، فثبتت حجته على الخلق.

فإن زعمتم أن الأئمة يقومون مقام الأنبياء، فالواجب عليهم أن يحملوا الأذى كما احتمله الأنبياء.

[صفة الإمام]

ولا يكون حجة إلا داعيا إلى الله مجتهدا، زاهدا فيما في أيديكم، عالما بحلال الله وحرامه، أقوم خلق الله، وأبصره بدينه، وأرفه بالرعية، وأقومه لدين الله، أمين الله في أرضه، صادق اللسان، سخي النفس، راغبا فيما عند الله، زاهدا في الدنيا، مشتاقا إلى لقاء الله.

فإن زعموا: أن هذا في صاحبهم.

يقال لهم: أوليس إظهار التقية استبقاء على نفسه من الموت، ورغبة في دار الدنيا، على أن يُترك فيها، ولا يُفطن له فيقتل؟ فليس هذا الزهد، ولا الرغبة، إذ أظهر من

(١) في (ب) و (د): واحتمل.

نفسه خلاف ما يعلم من الحق. فسبحان الله ما أئين تكذيب دعواكم! وأبطل قولكم! وعبث ما أنتم فيه! إذ نرى فيكم ضعفاء فقراء محاويج، من شيخ ضعيف، أو أرملة ضعيفة، أو يتيم طفل، أو مديون مغموم، أو غريب محتاج إلى النكاح، أو فقير محتاج لا حيلة له، ولا مييت عنده، وزعمتم أنه يعرف مكانكم، ويرى أفاعيلكم، ويعلم حالكم^(١)، أو ليس عليه أن يغيّر حالكم، ويفرّج على مغمومكم، ويقضي عن مديونكم؟! إذ زعمتم أنه قام مقام النبيين.

وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]. فكان صلى الله عليه وآله وسلم يعطي ضعفاء أمته حتى يستأثرهم على نفسه وعياله، وقد

(١) عن إبراهيم بن مهزم قال: خرجت من عند أبي عبد الله ليلة ممسيا فأتيت منزلي بالمدينة وكانت أمني معي فوقع بيني وبينها كلام فأغلظت عليها فلما كان من الغد صليت الغداة وأتيت أبا عبد الله فقال مبتدئا: يا بن مهزم مالك وللوالدة أغلظت لها البارحة....

دلائل الإمامة/١١٥، بصائر الدرجات: ٣/٢٦٣، مناقب ابن شهر آشوب ٤/٢٢١، إثبات الهداة ٣/ ١٠٢ (٨٨).

ونقل عن أبي الحسن الرضا أنه كان جالسا وعنده إسحاق بن عمار، فدخل عليه رجل من الشيعة، فقال له: يا فلان، جدد التوبة وأحدث العبادة، فإنه لم يبق من عمرك إلا شهر، قال إسحاق: فقلت في نفسي: واعجابه كأنه يخبرنا أنه يعلم آجال الشيعة أو قال: آجالنا، قال: فالتفت إليّ مغضبا — لأنه عرف ما اختلج في صدره — وقال: يا إسحاق وما تنكر من ذلك... يا إسحاق أما إنه يتشت أهل بيتك تشتتا قبيحا، ويفلس عيالك إفلاسا شديدا. رجال الكشي/٣٤٨ ترجمة إسحاق بن عمار.

وعن أبي كهمس قال: كنت بالمدينة نازلا في دار بها وصيفة تعجبي، فانصرفنا ليلة ممشنا فاستفتحت السباب ففتحت لي ورددت يدي إلى ثديها فقبضت عليهما، فلما كان من الغد دخلت على أبي عبد الله فقال: يا أبا كهمس تب إلى الله عز وجل مما صنعت البارحة. دلائل الإمامة/١١٥.

وعن أبي بصير قال: كنت عند أبي عبد الله ذات يوم جالسا إذ قال: يا أبا محمد هل تعرف إمامك؟ قلت: إي والله الذي لا إله إلا هو وأنت هو ووضعت يدي على ركبته أو فخذيه، فقال: صدقت، قد عرفت فاستمسك به. قلت: أريد أن تعطيني علامة الإمام؟ قال: يا أبا محمد ليس بعد المعرفة علامة. قلت: ازداد إيمانا ويقينا، قال: يا أبا محمد ترجع إلى الكوفة وقد ولد لك عيسى ومن بعد عيسى محمد ومن بعدهما ابتنان، واعلم أن ابنك مكتوبان عندنا في الصحيفة الجامعة مع أسماء شيعتنا وأسماء آبائهم وأمهاتهم وأجدادهم وأنسابهم وما يلدون إلى يوم القيامة، وأخرجها فإذا هي صفراء مدرجة. كشف الغمة في معرفة الأئمة للإربلي ٤٠٢/٢.

قال الله تبارك وتعالى في أهل بيته صلى الله عليه وعليهم وسلم: ﴿وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨] ^(١). فلم يخلوا بطعامهم على الأسير، وهو كافر، واستأثروا على أنفسهم. فكيف كان ينبغي لصاحبكم أن يستأثر بالمال على المستضعفين الفقراء من أصحابه؟ وقد قال الله سبحانه في أهل بيت نبيه صلى الله عليه وعليهم: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩، التغابن: ١٦] ^(٢). وقد قال في المؤمنين: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، فقد وصف المؤمنين بالرحمة بعضهم لبعض،

(١) رواه ابن الأثير في أسد الغاية ٥٣٠/٥ في ترجمة فضة النوبة، والواحدي في أسباب النزول/٣٣١، والمحجب الطبري في الرياض ٢٢٧/٢، والذخائر/١٠٢، والسيوطي في الدر عند تفسير الآية ٢٩٩/٦، والشبلنجي في نور الأبصار/١٠٢، والحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل ٣٩٤/٢ (١٠٤٢) ١٠٦٦، والصدوق في أماليه المجلس ٤٤ حديث رقم (١١)، والكوفي في المناقب ١٧٧/١ (١٠٣) و (١٠٤) و (١٠٥)، والثعلبي في تفسيره عند تفسير السورة، وابن البطريق في خصائص الوحي المبين/١٠٠ عن الثعلبي، وفي العمدة ١٨٠ برقم (٥٧٠)، والخوارزمي في المناقب/١٨٨ في الفصل: (١٧)، وابن حجر في الإصابة في ترجمة فضة ٣٨٧/٤، والحري في تفسيره ٣٢٦/٣٦٩، وابن المغازلي في المناقب/٢٧٢ برقم (٣٢٠)، والزنجشيري في الكشف عند تفسير السورة ١٦٩/٤، وابن الجوزي في تذكرة الخواص/٢٨١، وأبو حيان في البحر المحيط ٣٩٥/٨، والقرطبي في تفسيره ١٩/١٩، والبغوي في معالم التنزيل ١٥٩/٧، والكنجي الشافعي في كفاية الطالب/٢٠١، ٣٤٥، في قصة مطولة، ثم قال: هكذا رواه الحافظ أبو عبد الله الحميدي في فوائده، وما رويناه إلا من هذا الوجه، ورواه الحاكم أبو عبد الله في مناقب فاطمة، ورواه ابن جرير الطبري أطول من هذا في سبب نزول هل أتى. والقندوزي في ينابيع المودة ١٠٨/٢، وفيات الكوفي في تفسيره ٥١٩/٢ (٦٧٦) و (٦٧٧) و (٦٧٨) و (٦٧٩) و (٦٨٠).

(٢) نزلت الآية في علي وفاطمة عليهما السلام. أخرج الحاكم الحسكاني بسنده إلى أبي هريرة قال: إن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فشكا إليه الجوع، فبعث إلى بيوت أزواجه فقلن: ما عندنا إلا الماء!! فقال صلى الله عليه وآله وسلم: من لهذا الليلة؟ فقال علي: أنا يا رسول الله. فأتى فاطمة فأعلمها، فقالت: ما عندنا إلا قوت الصبية، ولكننا نؤثر به ضيفنا!! فقال علي: نومي الصبية، وأنا أطفي السراج للضيف. ففعلت وعشوا الضيف، فلما أصبح أنزل الله فيهم هذه الآية: ﴿وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾. الآية. شواهد التنزيل عند تفسير الآية برقم (٩٩٢). وأخرجه الطوسي في أماليه ١/١٨٨. وأخرج نحوه الكوفي في المناقب ٥٥٤/٢.

فكيف يسع حجة الله، إذ كان حجة على ما وصفتم أن يستغل الألو، ويأخذ خمس أموالكم، ويؤكل في كل بلاد لقبض الأموال، ولا يُفرج على أحد من خلق الله، ولا يقسمها في الفقراء والمساكين؟! فلم يُر منه صفة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم إذ قال الله سبحانه: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]. ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَأَوْفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]. ولم يُر منه صفة المؤمنين من أصحاب النبي عليه السلام إذ قال الله فيهم: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ [الفتح: ٢٩]. ﴿وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الحشر: ٤].^(١)

فلا يرى فيه أن يفرج على أحد من فقراء المؤمنين إن ظلم أو قتل، ولم يُر فيه النَّصَبُ حرباً لأعداء الله، ولا يسير فيما يسخط الأعداء، ولم ير قط^(٢) إلا طلب أخذ الأموال من غير أن يقسمها في المستضعفين! فكيف يسعنا أن نقول فيه: هو حجة، وليس يرى فيه صفة الحجج؟!

وأما قولكم: إنه يعلم ما نفع، ويعلم ما بسرائرنا، ونحن نرى فيكم شراب الخمر، ونرى فيكم الزنا واللواط، وأخذ أموال الناس، وظلم العباد، والتقاطع والجفاء، والمسير بغير ما أمر الله والقتل! وزعمتم بأنه يعلم منكم هذه الخصال، إذ زعمتم أنه يرى أفاعيل العباد، وهو يتولاكم على هذه الخصال، التي فيكم، فإن كان يتولاكم على هذا فليس من الله في شيء، لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ [هود: ١١٣]. وقوله: ﴿فَأَعْرَضَ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [النجم: ٢٩]. وقوله: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَن حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢]. وقال تبارك وتعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣، التحريم: ٩].

(١) دمج آيتين على أنها آية للتشابه بينهما وآية الحشر هكذا: ﴿الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾. وهي في جميع المخطوطات. ولعلها سهو من النساخ.

(٢) سقط من (ب) و (د): قط.

وقال لنبه صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوَةِ وَالْعَشيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٢٨]. فقد أمره الله سبحانه أن لا يتولى أصحاب الدنيا، ويصبر على الذين يريدون الآخرة، فلم نر من صاحبكم إلا طلب الدنيا، مجتهدا للمكاثرة، وإن كان وصفهم من الأشياء ما ليس فيه!

وزعمتم أنه يرى أفاعيل العباد وأعمالهم، وهو شاهد عليهم، وليس فيه الذي وصفتم بأنه يرى أفاعيل العباد! فإن كان يرى أفاعيلكم فليس له أن يتولاكم، ولا يأخذ منكم شيئا من عرض الدنيا، وإن كان لا يرى منكم ما وصفتم فيه فقد كفرتم وعبدتموه من دون الله، وهل هذه إلا صفة رب العالمين؟! أيرى ما غاب عنه، ويسمع من غير أن يُسمع، وأن يعلم ما في قلوبكم من غير أن يُخبر؟! فتعالى الله رب العالمين، عما يقولون علوا كبيرا، ما أعظم افتراءكم على الله إذ شاركتكم في فعله أحدا من خلقه، وكيف يكون ذلك كما زعمتم؟! وهو يقول: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ﴾ ثم قال: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (١) إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢) [الجن: ٢٦-٢٧]. يعني سبحانه: بالوحي. لقوله: ﴿يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ (٣). فقد أخبر بأن لا يعلم الغيب إلا الله (٤) ومن ارتضى من رسول، يوحى إليه بخبر ما يريد، فإذا مضى رسول الله انقطع الخبر والوحي، وحجب عن الخلق أمر الوحي، وعلم الحادثات سوى علم ما جاءت به الأنبياء، وبعلم الأنبياء يشهدون، فكيف يعلم أحد الغيب من غير وحي الله جل جلاله؟ عن أن يحويه قول أو يناله.

فإن زعمتم أن في الأرض اليوم من يُوحى إليه، فقد زعمتم أنه نبي، لأنه لا يكون الوحي إلا إلى النبي، وإنما سمي نبيا لأنه نبا عن الله، فمن أنبا عن الله فهو نبي، فويلكم متى آمنتم بالله وقد كذبتكم كتاب الله؟! لقوله: ﴿خَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

(١) سقط من (أ) و (ج): يعني سبحانه: بالوحي. لقوله: ﴿يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾. وأضاف في (ب) و (د): بعد قوله (رصدًا) الأولى، الوحي.

(٢) سقط من (أ) و (ج): الله. وفي نسخة بدل (الله)، كلمة (هو). أشار إليها في (ب) و (د).

فكيف يكون محمد خاتم النبيين، وقد نصبتم الأنبياء من بعده؟!
ويقال للروافض: أخبرونا عن أعراب البادية والمستضعفين، والذين لا يعلمون
لصاحبكم اسما ولا نسبا هل لصاحبكم عليهم حجة؟
فإن قالوا: نعم.

يقال لهم: هل بلغتهم^(١) منه الحجة، فيكون حجة عليهم؟
ويقال للروافض: هل لصاحبكم أن يتبع أثر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم،
ويكون تابعا لرسول الله عليه السلام لا مخالفا له؟
فإن قالوا: نعم هو تابع لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.
يقال لهم: هل رأيتم فيه ما رأيتم في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من
الزهد وغير ذلك؟

فإن قالوا: نعم. يقال لهم: فهل رأيناه فرَجَ على أحد منكم أو غير حاله؟ وقد
رأينا منه أفاعيل لا يجوز أن تكون في نبي، ولا في مؤمن، ونستحي أن نصفه في
كتابنا؟.

ويقال للروافض: هل يكون حجة لله إلا بالغا؟ كما أن الله لم يبعث محمدا إلا في
وقت بلوغه! وكيف يجوز أن يكون حجة لله طفلا، وقد قال الله: ﴿حُجَّةً بَلِّغَةً﴾^(٢)
فكيف يكون صبي في ثلاث أو أربع حجة؟! ونحن في أمة محمد، وسنتنا سنة الإسلام،
وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٦]. فمن
شرائع محمد أن لا يُصلى خلف طفل، ولا تجوز شهادته، ولا تؤكل ذبيحته، ولا يجوز
شراؤه ولا بيعه ولا نكاحه، فكيف يجوز أن يكون إمام المسلمين طفلا صغيرا؟!

فإن زعمتم أنه صاحب الأمر في حال طفوليته، فإذا بلغ كان حجة.
يقال لهم: أفلا ترون أنه قد خلت الأرض من حجة؟! ولو جاز أن تخلو الأرض

(١) في (ج): بلغتم. مصحفة.

(٢) الآية هكذا ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ [الأنعام/١٤٩]. ولعلها اشتبهت بقوله تعالى: ﴿حِكْمَةً
بَالِغَةً﴾ [القمر/٥].

طرفة عين لجاز أن تخلو ألف عام!!!

ويقال للروافض: أخبرونا عن أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وعليهم
مشركون أو كفار أو مسلمون؟

فإن زعمتم أنهم مسلمون. يقال: فقد أجمع أهل بيت رسول الله صلى الله عليه
وعليهم وسلم وعلمائهم بأنكم على غير طريقة الإسلام.

فإن زعموا بأنهم قد يعلمون الحق، ويجحدون حسدا منهم.

يقال لهم: فنحن نرى منهم أنهم إذا استبان لهم من أحد منهم الفضل والزهد
والعلم انقادوا له، وأقروا بفضله، ونزلوا عند حكمه، فكيف حسدوا صاحبكم، ولم
يحسدوا ذاك؟! فلو كان الأمر على ما وصفتم أنه لا يمنعهم من الإقرار إلا الحسد لكانوا
لايقرون لأحد!! وكل واحد منهم يجر إلى نفسه، ولا يقر بفضل صاحبه. ولكن
كذبت عليهم، لأننا قد رأينا قولهم يصدقه كتاب الله، وقولكم يكذبه كتاب الله، وهم
أولى بالصدق منكم، ونحن نرى منهم من الزهد مالا نرى من غيرهم، فهم أعرف
بأهل بيتهم منكم، وهم أعرف بعضهم لبعض منك يا مدعي ما ادعيت بالباطل، وتريد
أن نقبل باطلك بغير بيان ولا برهان، ونكذب أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله!!

أليس ينبغي لصاحبكم أن يتبع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ويقتدي
بفعله؟! إذ كان حجة كما زعمتم. وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي
رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١]. أو ليس
ينبغي لصاحبكم أن ييدي نصيحته لأهل بيته قبل العوام، كما أمره الله تعالى فقال:
﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]. فجمع رسول الله صلى الله عليه
وآله وسلم أربعين رجلا من بني عبد المطلب، وعبد مناف، ورجالا من بني مخزوم فيهم
أبو جهل بن هشام، والوليد بن المغيرة، وفي القوم أبو بكر، ومن بني أمية عثمان،
وصخر بن حرب أبو سفيان فأنذرهم بعلم ما أوحى إليه وأخبرهم بما أوحى الله إليه^(١)

(١) سقط من (أ): وأخبرهم بما أوحى الله إليه.

وأبدي لهم نصيحته، ودعاهم إلى نصرته، فأجابه مَنْ أجابه، وخالفه من خالفه،^(١) لم يخف منهم التكذيب، ولا الجحد ولا^(٢) الحيود، وكان حجة لمن اتبعه، وحجة على من عصاه، أفليس يجب على صاحبكم أن يبين لأهل بيته كما بيّن رسول الله صلى الله عليه وآله لقربائه؟

فإن قالوا: يخاف أن لا يقبلوا منه، ويكذبوه ويحسدوه.

يقال لهم: - وَيَلْكُمَ ما أعظم افتراءكم على أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله، أفترأهم أشر ممن وصفنا من قريش الذين بلغهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟! وتزعمون أن أخيار آل محمد وزهادهم، مثل زيد^(٣) بن علي بن الحسين بن علي، وعمر^(٤) بن علي بن الحسين بن علي، وعلي^(٥) بن علي بن الحسين، وحسين^(٦) بن

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٥٤٧) و (٢٥٤٨). ومسلم برقم (٣٠٣) و (٤٣٤٧).

(٢) سقط من (أ) و (ج) و (د): لا. والحيود: العدول.

(٣) زيد: هو الإمام الأعظم زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أبو الحسين، إمام المسلمين، وعلم آل البيت عليهم السلام، ولد سنة ٧٥هـ على أصح الأقوال في المدينة، روى عن أبيه، وأخيه الباقر، وأبان بن عثمان وآخرين، وعنه ابنه حسين وعيسى، والصادق، وأبو خالد، والزهرى، والأعمش، وشعبة، وخلق، استشهد في ٢٥ من شهر محرم سنة ١٢٢هـ في الكوفة، وهو أشهر من أن يترجم له في هذه الحالة، وفي سيرته واستشهاده كتب كثيرة.

(٤) عمر الأشرف بن علي زين العابدين. أخو الإمام زيد لأمه، وأسن منه. ويكنى أبا علي، وقيل: أبا حفص.

وكان من أفاضل الناس وأخيارهم. لقب بالأشرف بالنسبة إلى عمر الأطراف. عم أبيه، وذلك لما ناله من شرف وفضيلة ولادة الزهراء، كان أشرف من ذلك، وسمي عمه عمر الأطراف، لأن فضيلته من طرف واحد، وهو طرف أبيه علي عليه السلام، تولى صدقات النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وصدقات جده علي عليه السلام، قال الحسين بن زيد: رأيت عمي عمر يشترط على من ابتاع صدقات علي، أن يثلم في الخائط كذا وكذا، لا يمنع من دخله أن يأكل. سفينة البحار ٢/٢٧٣. وهذا يدل على سخائه ونبله، وسمو إنسانيته. توفي عن خمس وستين سنة.

(٥) علي بن علي زين العابدين يلقب بالأصغر.

(٦) الحسين الأثرم بن الحسن السبط بن علي. هكذا ذكر بعض النسابين ولم يزيدوا على ذلك.

علي بن حسن^(١)، والحسن^(٢) بن الحسن، وعبد الله^(٣) بن الحسن بن الحسن، الذي روت الأمة فيه ماروت، وقال [الباقر] محمد بن علي بن الحسين: ((يكون هذا خير أهل زمانه، يقتله شر أهل زمانه، لقاتله مثل ثلث عذاب أهل النار، ويموت قاتله قبل دخول الحرم))^(٤) فلما قام أبو جعفر^(٥)، قال عبد الصمد^(٦) بن علي: سمعتم ما روى ابن أخي، والله ما له قاتل غيره.

(١) سقط من (ب) و (د): وحسين بن علي بن حسن. وفي (ب) و (د): زاد (الحسن بن الحسن، والحسين بن الحسن) فأما الحسين بن الحسن فليس له وجود. وأما الحسين بن الحسن فهو الأثرم، فمعروف غير أنه ليس مشهوراً.

(٢) الحسن المثنى بن الحسن السبط، يكنى أبا محمد.

أمه خولة بنت منظور بن زيان الذياني بن ذبيان. وكانت تحت محمد بن طلحة بن عبد الله فقتل عنها يوم الجمل، ولها منه أولاد، فتزوجها الحسن بن علي. لم تحدد المصادر التاريخية مولده.

كان كبير الطالبيين وشيخهم في عهده، وكان وصي أبيه وولي صدقة جده أمير المؤمنين علي عليه السلام، إمامته ووفاته بالمدينة، كان أهل العراق يكتبونه ويدعونه للقيام فها به عبد الملك بن مروان، زوجته عمه الحسين بابنته فاطمة، وشهد معه كربلاء وأنخن بالجراح ولكنه نجا، وعند خروج عبد الرحمن بن الأشعث على عبد الملك بن مروان وعامله على العراق الحجاج دعا إلى الحسن وبايعه، فلما قتل ابن الأشعث توارى الحسن حتى دس إليه سليمان بن الملك السم فتوفي سنة (٩٣ هـ) تقريباً عن (٥٣ هـ).

(٣) أبو محمد، لقب بالكامل لكمال خصاله، وحيد خلالة، ولد سنة (٧٠ هـ) للهجرة، وسجنه المنصور العباسي، في مطبق الهاشمية، حتى توفي في السجن سنة (١٤٥ هـ) للهجرة، وأخباره طويلة، سألها في كتاب إن شاء الله.

(٤) لم أقف على هذه الرواية.

(٥) عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، أبو جعفر المنصور ولد سنة (٩٥ هـ) ثاني خلفاء بني العباس ولي الخلافة بعد أخيه السفاح سنة (١٣٦ هـ)، أمه سرية تدعى سلامة كان سفاحاً مجرمًا قتل أعلام بيت النبوة. توفي سنة (١٥٨ هـ) عن (٦٣ هـ) تولى الخلافة (٢٢) سنة. توفي ببئر ليمون من أرض مكة محرماً بالحج، ودفن بالحجون.

(٦) عبد الصمد بن علي بن عبد الله بن عباس. ولد سنة (١٠٤ هـ). أمير عباسي وهو عم المنصور. وكان عامله على مكة والطائف سنة (١٤٧ هـ) ثم ولي المدينة، ثم عزله سنة (١٦٣ هـ). حبسه إلى سنة (١٦٦ هـ). وأخرجه وولاه دمشق، ثم عزله وعمي في آخر عمره. توفي سنة (١٨٥ هـ).

ومثل الحسن^(١) بن الحسن بن الحسن، ومثل علي^(٢) سيد العباد بن الحسن بن الحسن بن الحسن، ومثل الحسين^(٣) بن علي، ومثل محمد بن عبد الله النفس الزكية^(٤)،

(١) الحسن بن الحسن بن الحسن بن علي المثلث.

أمه فاطمة بنت الحسين، ولد سنة (٧٧هـ). كان متألهاً، فاضلاً، ورعاً. ولما حبس أخوه عبد الله - آلى ألا يدهن، ولا يكتحل، ولا يلبس ليناً، ولا يأكل طيباً، ما دام عبد الله في السجن، فكان أبو جعفر المنصور، يسأل عنه، فيقول: ما فعل الحاد؟ حبس بالهاشمية، وتوفي بها سنة (١٤٥هـ). وهو ابن (٦٨) سنة.

(٢) علي بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن علي ويكنى أبا الحسن، ويقال له: علي الخير، وعلي العابد، وكان يقال له ولزوجه زينب بنت عبد الله بن الحسن الزوج الصالح. أمه أم عبد الله بنت عامر بن عبد الله بن بشر بن عامر بن ملاعب الأسنه، كان عابداً زاهداً تقياً مستجاب الدعوة.

حبسه المنصور مع بني هاشم في مطبق مظلم فلم يكونوا يميزون أوقات الصلوات إلا بأجزاء يقرأها علي بن الحسن. توفي وهو ساجد سنة (١٤٦هـ) عن (٤٥) سنة.

(٣) الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن علي الفخري. أمه زينب بنت عبد الله بن الحسن الكامل، وكان يعرف أبوه وأمّه زينب بالزوج الصالح، لعبادهما. ولد سنة (١٢٨هـ).

خرج بالمدينة سنة (١٦٩هـ). وبإيعه فضلاء أهل البيت وغيرهم، ثم خرج إلى مكة، ومعه زهاء (٣٠٠) رجل، فلما صاروا (بفتح) - المسمى اليوم: بالشهداء بمكة أو الزاهر قرب التنعيم - لقيتهم جيوش موسى الهادي العباسي، يوم التروية فاقتتلوا حتى قتل عن (٤١) سنة، وأخذ رأسه وحمل إلى موسى الهادي، ودفن بدنه بفتح.

(٤) محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب، النفس الزكية.

أبو عبد الله، وقيل: أبو القاسم، وكان يسمى المهدي. وأمّه هند بنت أبي عبيدة بن عبد الله بن زعدة بن الأسود بن عبد المطلب بن أسد بن عبد العزى بن قصي. ولد سنة (١٠٠هـ).

كان متناهِياً في العلم، متقدماً في الفقه والحديث، وكان شجاعاً فارساً خطيباً بارعاً، وهو أول من ظهر من آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فخطوب بأمير المؤمنين. ظهر في المدينة في شهر جماد الآخرة، سنة (١٤٥هـ). وخرج علي أبي جعفر المنصور، الذي كان قد بايعه، وأرسل إليه أبو جعفر عيسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس في جيش كثيف، فقاتل حتى استشهد في شهر رمضان، من سنة (١٤٥هـ). فكانت مدة قيامه شهرين وأياماً. ولما استشهد وحز رأسه، وأنفذ إلى أبي جعفر، استوهبت جثته أخته زينب من عيسى، واستأذنته في

الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله، وروى ذلك جعفر بن محمد قال: ((هذا النفس الزكية يقتل بالثنية^(١) بالمدينة، ويبلغ دمه حجر الزيت^(٢))).

دفنه، فأذن لها في ذلك، فدفن. وقد زرته أنا — عبد الكريم جدبان — سنة (١٤١٠ هـ) تقريبا في المدينة المنورة في حارة تسمى حارة الزكي، نسبة إليه، قرب البقيع، وكان عليه بناء مثل غرفة، وليس له باب، وتسلفنا إليه وقبره مرتفع شبرا، فأصلحنا ما تهدم من قبره الشريف، وفي السنة الثانية زرناه فلم نجد قبره، فأخبرنا أنه جُرف بالجرفات، وصار طريقاً، ونقل إلى البقيع.

(١) في (أ) و (ج): بالنية.

(٢) النفس الزكية. قال أبو الفرج الأصفهاني: وكان علماء آل أبي طالب يرون فيه أنه النفس الزكية، وأنه المقتول بأحجار الزيت.

روى المنصور بالله، والحسن بن بدر الدين: أن النفس الزكية، يقتل فيسيل دمه إلى أحجار الزيت، لقاتله ثلث عذاب أهل جهنم. الشافي ١/١٩٨. وأنوار اليقين ١٢٥.

وروى المنصور أيضا عن العقيقي الشريف الحسيني صاحب كتاب الأنساب، قال: كتب إلي حماد بخبرني عن يحيى عن حماد بن يعلا، عن عمر قال: كنت مع محمد بن عبد الله في منزله، فذكرنا النفس الزكية، فخرجنا حتى انتهينا إلى أحجار الزيت، فقال: هاهنا يا أبا حفص تقتل النفس الزكية، قال: ثم قال: والله لوددت أنما قد قتلت، وإن كنت أنا هو. ومروا بنا علي بن الحسين فقال ما يقيمك يا أبا عبد الله هاهنا؟ قال: ذكر النفس الزكية. فقال: ابن عمك كذا وكذا. فقال: علي بن الحسين: أنهما نفسان، نفس تقتل بالحرم، ونفس هاهنا. الشافي ١/١٩٩. ورواه الأمير الحسين في ينابيع النصيحة ٤١٤. وقال أبو طالب: ويسمى النفس الزكية، لورود الرواية بأن النفس الزكية يقتل عند أحجار الزيت. الإفادة ٧٣. والحدائق الوردية ١٥٤. ومآثر الإبرار ٩٥.

وروى ابن جرير الطبري، وابن الأثير، أن محمد بن عبد الله النفس الزكية قال لعبد الله بن عامر الأسلمي: تغشانا سحابة فإن أمطرتنا ظفرنا، وإن تجازتنا إليهم، نظر إلى دمي عند أحجار الزيت. قال: فوالله لقد أظلتنا سحابة فلم تمطرنا، وتجاوزتنا إلى عيسى وأصحابه، فظفروا وقتلوا محمداً، ورأيت دمه عند أحجار الزيت. إلى أن قال ابن الأثير: وكان يلقب المهدي، والنفس الزكية. تاريخ الطبري ٧/٥٩٦، الكامل ١٢/٥.

وقال: المسعودي: وكان يدعى بالنفس الزكية. مروج الذهب ٣/٣٠٦.

وروى الشيخ أبو القاسم البستي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: يقتل من ولدي عند أحجار الزيت رجل اسمه اسمي، واسم أبيه اسم أبي، وإنه النفس الزكية. ينابيع النصيحة ٤١٤. حقائق المعرفة ٢٤٢. بزيادة: على قاتله ثلث عذاب أهل النار.

وعن علي عليه السلام أنه قال: النفس الزكية من ولد الحسن. ينابيع النصيحة ٤١٥.

وعن محمد بن عبد الله النفس الزكية أنه قال: آية قتل النفس الزكية أن يسيل الدم حتى يدخل بيت

ومثل إبراهيم^(١) بن عبد الله بن الحسن، ومثل يحيى^(٢) وإدريس^(٣) وسليمان^(٤)

عاتكة. قال: فكانوا يعجبون كيف يسيل الدم حتى يدخل بيت عاتكة!!؟

فكان يوماً مطيراً فسال الدم حتى دخل بيت عاتكة. ينابيع النصيحة/٤١٥. مقاتل الطالبين/٢٧٢. وروى أبو الفرج الاصفهاني بسنده عن مسلم بن بشار، قال: كنت مع محمد بن عبد الله عند غنائم خشرم فقال لي: هاهنا تقتل النفس الزكية. قال: فقتل هناك. مقاتل الطالبين/٢٤٩. وقال ابن عنبه: ثم خرج فقاتل حتى قتل بأحجار الزيت، وكان ذلك مصداق تلقينه بالنفس الزكية، لأنه روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: تقتل بأحجار الزيت من ولدي نفس زكية. عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب/١٠٥.

(١) إبراهيم بن عبد الله الكامل، أخو محمد النفس الزكية.

أبو الحسن، أمه أم أخيه محمد، هند بنت أبي عبيدة، ولد سنة (٩٧هـ)، خرج بالبصرة بعد مقتل أخيه النفس الزكية، وبايعه كبار العلماء في عصره، وخلق كثير، وسير الجموع إلى الأهواز، وفارس، وواسط، وكانت بينه وبين جيوش العباسيين وقائع كثيرة هائلة، قتل في إحداها، وحز رأسه وجيء به إلى أبي جعفر المنصور، ودفن بدنه الزكي بباهرا، سنة (١٤٥هـ)، وكان شاعراً عالماً بأبناء العرب، وأيامهم، وأشعارهم.

(٢) يحيى بن عبد الله الكامل، أخو النفس الزكية.

أبو الحسن، وقيل أبو عبد الله.

أمه قرية بنت عبد الله بن أبي عبيدة، وهي بنت أخي هند، بنت أبي عبيدة، أم أخيه محمد. لم تحدد المصادر التاريخية، مولده ولا مبلغ عمره.

كان فارساً شجاعاً، له مقامات مشهورة في موقعة فخ، مع الحسين بن علي الفخي، استتر بعد وقعة فخ، ودعا إلى نفسه، وبايعه خلق وجماعة من أكابر علماء عصره، وطاف البلدان يدعو إلى الثورة، فوصل ديلمان وبلاد الترك، وخافه هارون فأمنه مع أصحابه، ثم سُمِّه في الحبس، بعد نقض الأمان، وقيل: خنق، وقيل: وجد ميتاً بين اسطواناتين في قصر القرار، بعد خرابه أيام فتنة الأمين، قيل: استشهد سنة (١٧٥هـ)، وقيل: (١٨٠هـ).

(٣) إدريس بن عبد الله الكامل، أخو النفس الزكية.

أمه عاتكة بنت عبد الملك بن الحارث بن خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة المخزومي.

مؤسس دولة الأدارسة في المغرب، وإليه نسبتها.

كان مع الإمام الحسين الفخي، ثم هرب إلى مصر ثم إلى المغرب، ونزل بمدينة ويلي، (على مقربة من مكناس، وهي اليوم مدينة قصر فرعون).

ثم دعا البربر وأقام دولة إسلامية، ثم بعث هارون الرشيد من سُمِّه في قصة معروفة. سنة (١٧٧هـ). وللمزيد من أخبارهم يرجع إلى الحقائق الوردية، والإفادة، ومقاتل الطالبين.

(٤) سليمان بن عبد الله الكامل. أخو النفس الزكية.

وجعفر^(١) وموسى^(٢) بني عبد الله بن الحسن بن الحسن، ومثل يحيى بن زيد^(٣) وعيسى

أمه عاتكة بنت عبد الملك، أم أخيه إدريس. قتل في وقعة فخ مع الإمام الحسين الفخري، وهو جد السليمانيين، أصحاب الدولة في تلمسان، فقد خرج ولده محمد إلى إفريقية، ونزل تلمسان، فكانت له وللبعض بنيه إمارة وإمارة ما حولها، قال ابن حزم: وهم أي أحفاده بالمغرب كثير جداً. جبهة أنساب العرب/٤٢.

(١) جعفر بن عبد الله الكامل، أخو النفس الزكية. لم أقف له على خير.

(٢) موسى بن عبد الله الكامل. أخو النفس الزكية.

أمه هند بنت أبي عبيدة أم أخيه محمد. وكنيته أبو الحسن، ولقبه الجون لسواد لونه، كانت أمه ترقصه وهو صغير. وتقول: إنك إن تكون جوناً أفرعا يوشك أن تسودهم وتبرعا

كان شاعراً، ضربه المنصور ألف سوط، وأرسله إلى الحجاز ليأتي بخبر أخويه، محمد وإبراهيم، فهرب إلى مكة، فلما قتل أخوه حج المهدي العباسي، في تلك السنة، فقال له في الطواف قاتل، أيها الأمير لي الأمان وأدلك على موسى الجون بن عبد الله، فقال المهدي لك الأمان إن دلتني عليه، فقال: الله أكبر، أنا موسى بن عبد الله. فقال المهدي من يعرفك ممن حولك من الطالبيين؟

فقال: هذا الحسن بن زيد، وهذا موسى بن جعفر، وهذا الحسين بن عبد الله بن العباس بن علي، فقالوا جميعاً: صدق. هذا موسى بن عبد الله بن الحسن، فخلى سبيله، وعاش إلى أيام الرشيد، ودخل عليه ذات يوم، فلما قام من عنده عثر بطرف البساط فسقط، فضحك الرشيد، فالتفت موسى إليه وقال: يا أمير المؤمنين إنه ضعف صوم، لاضعف سكر. ومات بسوق ب بغداد، سنة (١٨٠هـ). تقريباً.

(٣) يحيى بن زيد بن علي، أبو عبد الله. وقيل: أبو طالب.

أمه ربيعة بنت عبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب. ولد سنة (٩٨هـ). أحد الأبطال الشجعان، ثار مع أبيه على بني أمية، ولما قتل أبوه وصلب، انصرف إلى بلخ، ودعا إلى الثورة من جديد، وكان أبوه قد سأله قبل موته بلحظات فقال: يا يحيى ما أنت صانع؟ قال: أقاتلهم وأجاهدهم. قال: نعم جاهدكم فوالله إنك لعلى الحق، وإنهم لعلى الباطل، وإن قتلاك في الجنة، وقتلهم في النار. وكان يردد:

يا ابن زيد أليس قد قال زيد من أحب الحياة عاش ذليلاً

كن كزيد فأنت مهجة زيد تتخذ في الجنان ظل ظليلاً

وخاض مع جيش بني أمية معارك طاحنة، فقتل في إحداها بالجوزجان بسهم أصاب جبهته، كما أصاب أباه سنة (١٢٥هـ). عن (٢٨). سنة.

وحيز رأسه وجعل إلى الوليد بن يزيد، وصلب جسده، بالجوزجان، ثم دفن هنالك وقبره مشهور مزوراً، وقد أعيد بناؤه أخيراً بتوجيهات من مرشد الثورة الإسلامية في إيران السيد علي الخامنئي.

بن زيد، ^(١) ومحمد، ^(٢) والحسين، ^(٣) ابني زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي

(١) عيسى بن زيد بن علي. أبو يحيى. ويلقب بمؤتم الأشبال.. ولد سنة (١٢١هـ). في الوقت الذي أشخص فيه أبوه إلى هشام بالشام، وكانت أم عيسى معه في طريقه، فترل ديرا للنصارى، ووافق نزوله إياه ليلة الميلاد، وضربها المخاض هنالك، فولدته له تلك الليلة، وسماه أبوه عيسى باسم المسيح عيسى بن مريم.. خرج عيسى مع محمد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن، والحسين الفخري، وأوصى محمد أصحابه إن هو قتل أن يكون الأمر بعده لأخيه إبراهيم، فإن أصيب إبراهيم، فالأمر لعيسى بن زيد، ولم يجد الناصر الناصح فاختفى، وظل يتنقل في زي الجمالين، والعيون ترصده، وتبحث عنه، إلى أن توفي سنة (١٦٨هـ). وقيل: (١٦٦هـ). مسموماً، وقد كان يعد العدة للخروج، توفي وعمره (٤٥) سنة، وعندما بلغ الهادي العباسي موته سجد على الأرض طويلاً، فرحاً بموته.

(٢) محمد بن زيد بن علي.

أم ولد سندية، ويكنى أبا جعفر. وكان في غاية الفضل، ونهاية النبل، وما يروي عنه بعض المؤرخين من أنه كان يميل إلى العباسيين ضد النفس الزكية، فرواية ينبغي التثبت فيها، ويحكى من نبه أنه عُرض على المنصور جوهر فاخر وهو بمكة، فعرفه وقال: هذا جوهر كان لهشام بن عبد الملك الأموي، وقد بلغني أنه عند محمد ابنه، ولم يبق منهم غيره.

ثم قال للربيع: إذا كان غداً وصليت بالناس في المسجد الحرام، فأغلق الأبواب كلها، ووكل بها ثقاتك ثم افتح باباً واحداً، وقف عليه، ولا تخرج إلا من تعرفه.

ففعّل الربيع ذلك، وعرف محمد بن هشام أنه هو المطلوب فتحير، وأقبل محمد بن زيد بن علي بن الحسين عليه السلام، فراه متحيراً وهو لا يعرفه، فقال له: يا هذا أراك متحيراً فمن أنت؟ قال: ولي الأمان؟ قال: ولك الأمان في ذمتي حتى أخلصك.

قال: أنا محمد بن هشام بن عبد الملك، فمن أنت؟ قال: محمد بن زيد بن علي. فقال: عند الله احتسب نفسي إذن. فقال: لا بأس عليك، فإنك لست بقاتل زيد ولا في قتلك درك بثأره. الآن خلاصك أولى مني بإسلامك، ولكن تعذري في مكروه أتناولك به وقبيح أخاطبك به يكون فيه خلاصك؟ قال: أنت وذلك. فطرح رداءه على رأسه ووجهه، وتبّيه وأقبل يجره، فلما أقبل على الربيع لطمه لطمات، وقال: يا أبا الفضل إن الخبيث جمال من أهل الكوفة، أكراني جماله، ذاهباً وراجعاً، وقد هرب مني في هذا الوقت، وأكرى بعض قواد الخراسانية، ولي عليه بذلك بينة، فضم إلي حرسيين. فمضيا معه فلما بعد عن المسجد، قال له: يا خبيث تؤدي إلي حقي؟ قال: نعم يا ابن رسول الله، فقال للحرسيين: انطلقا عنه. ثم أطلقه فقبل محمد بن هشام رأسه، وقال: بأبي أنت وأمي، الله يعلم حيث يجعل رسالته. ثم أخرج جوهرأ له قدر دفعه إليه، وقال: تُشرفني بقبول هذا؟ فقال: إنا أهل بيت لا نقبل على المعروف ثمناً، وقد تركت لك أعظم من هذا، دم زيد بن علي، فانصرف راشداً، ووار شخلصك حتى يرجع هذا الرجل فإنه يجد في طلبك. عمدة الطالب/ ٢٩٩.

(٣) الحسين بن زيد بن علي.

طالب، ومثل أحمد^(١) بن عيسى بن زيد، ومثل عبد الله^(٢) بن موسى بن عبد الله،

الملقب بذي الدمة، وذو العبرة، لكثرة بكائه، ويكنى أبا عبد الله. أمه أم ولد، كان من الأتقياء الصالحين، خرج مع محمد بن عبد الله النفس الزكية، قال أبو جعفر المنصور، لما بلغه خروج الحسين وعيسى ابني زيد: عجباً لهما قد خرجا علي، وقد قتلنا قاتل أبيهما كما قتله، وصلبناه كما صلبه، وأحرقناه كما أحرقه. قال يحيى بن زيد: قالت أُمِّي لأبي: ما أكثر بكاءك؟! فقال: وهل ترك السهمان والنار سروراً يمنعني من البكاء!! يعني السهمين اللذين قتل بهما أبوه زيد وأخوه يحيى، والنار التي أحرق بها الإمام زيد عليه السلام. توفي سنة (١٣٥هـ). وقيل: (١٤٠هـ).

(١) أحمد بن عيسى بن زيد بن علي، أبو عبد الله. ولد سنة (١٥٧هـ). وقيل: (١٥٨هـ)، جبل من جبال العلم، وبحر من الفقه، زاهد عابد، إمام من أئمة أهل البيت عليهم السلام. أمه عاتكة بنت الفضل بن عبد الرحمن بن العباس بن الحارث الهاشمية. أتى به وبأخيه زيد حاضراً صاحب عيسى بن زيد إلى الهادي العباسي، بعد موت عيسى، فعاش في كنف الهادي حتى مات، ثم كان عند الرشيد إلى أن كبر وخرج فأخذ وحبس، فخلص من السجن واختفى إلى أن مات بالبصرة سنة (٢٥٣هـ). وقيل: غير ذلك، توفي وقد جاوز الثمانين وعمي.

(٢) عبد الله بن موسى بن عبد الله الكامل، أمه أم سلمة بنت طلحة بن عبد الرحمن بن أبي بكر، وكان في أيام المأمون متوارياً، فكتب إليه بعد وفاة الرضا، يدعوهُ إلى الظهور ليجعله مكانه، ويبيع له، فأجابه عبد الله بن موسى برسالة طويلة منها:

((فبأي شيء تغري؟ ما فعلته بأبي الحسن صلوات الله عليه بالعنب الذي أطعمته إياه فقتلته. والله ما يقعدني عن ذلك خوف من الموت، ولا كراهة له، ولكن لا أجد لي فسحة في تسليطك على نفسي، ولولا ذلك لأتيتك حتى تريحي من هذه الدنيا الكدرة، هبني لا تثر لي عندك! وعند آبائك المستحلين لدمائنا، الآخذين حقنا، الذين جاهدوا في أمرنا فحذرناهم، وكنت ألطف حيلة منهم بما استعملته من الرضى بنا والتستر بمحبتنا، تحتل واحداً فواحداً منا، ولكني كنت امرأ حُب إلي الجهاد، كما حُب إلي كل امرئ بغيته، فشجذت سيفي، وركبت سنانِي على رمحي، واستفهرت فرسي، لم أدر أي العدو أشد ضرراً على الإسلام، فعلمت أن كتاب الله يجمع كل شيء، فقرأته فإذا فيه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ، وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلَظَةً﴾. فما أدرى من يلينا منهم، فأعدت السنظر، فوجدته يقول: ﴿لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ، أَوْ أَبْنَاءَهُمْ، أَوْ إِخْوَانَهُمْ، أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾. فعلمت أن علياً أبداً بما قرب مني، وتدبرت فإذا أنت أضر على الإسلام والمسلمين، من كل عدو لهم، لأن الكفار خرجوا منه وخالفوه فحذروهم الناس وقاتلوهم، وأنت دخلت فيه ظاهراً، فأمسك الناس وطفقت تنقض عراه عروة عروة، فأنت

صاحب سويقة، ومثل القاسم^(١) بن إبراهيم، ومثل محمد^(٢) بن إبراهيم، ومثل الحسن^(٣) بن إبراهيم، ومثل أحمد بن إبراهيم، ومثل علي بن إبراهيم، ومثل جعفر^(٤) بن عبد الله.

فلو وصفتهم لك لطال عليك المجلس، الذين^(٥) كانوا أزهد الخلق، وأعلم الخلق، وكانوا فرجاً للمستضعفين من عباد الله، الذين كانت وجوههم كصفائح الفضة، مُلْسٌ يُسُّ من خوف الله، صُفْرُ الألوان من سهر الليل، قد انحنت أصلابهم من العبادة، باكية أعيانهم من خوف الله، وشفقة من عذاب الله. لم يستحلوا مثل ما استحل غيرهم من قبض أموال الناس، ولا يستأثرون بشيء من فيء المسلمين، مثل ما استأثر غيرهم، أحدهم إذا وصل المؤمن وصله بمائة ألف فما دونها من صميم أموالهم، وخرجوا من أموالهم زهداً في الدنيا، ورغبة لما عند الله.

أفترون أن جميع هؤلاء، وجميع أهل بيتهم كانوا أجهل للحق، وأشد حسداً، وأشد بغياً، وأشد إنكاراً من أبي جهل بن هشام، ومن الوليد بن المغيرة، ومن أبي لهب، وأبي سفيان، ومن معاوية بن أبي سفيان، ومن قريش، الذين كان جمعهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنذرهم، وأبدى لهم النصيحة كما أمره الله سبحانه وتعالى لقرابته؟! أفليس كان يجب على صاحبكم أن يبدي نصيحته لأهل بيته وهم مسلمون أخيار؟! كما أبدى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نصيحته لبني عبد مناف، ونفر من بني مخزوم، وزهرة، لأنهم كانوا أحواله؟

أفتري هؤلاء أهل بيت النبي الذين سميناهم في كتابنا، ومن لم نسّم في كتابنا،

أشد أعداء الإسلام ضرراً عليه).

ولم يزل متوارياً إلى أن مات في أيام المتوكل سنة (٢٤٧هـ).

(١) القاسم بن إبراهيم (صاحب هذا الكتاب).

(٢) محمد بن إبراهيم (أخو القاسم بن إبراهيم، سبق الحديث عنه).

(٣) الحسن بن إبراهيم، وأحمد ذكرهما بعض النساين عند ذكر أبيهما، أما علي بن إبراهيم فلم أقف عليه.

(٤) جعفر بن عبد الله، لم أقف له على ذكر.

(٥) سقط من (أ): الذين.

أجحدُ من قريش هؤلاء الذين جمعهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، الذين وصفنا في كتابنا مالا تنكرهم الأمة؟! فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أبدى نصيحته لهم أول الخلق. فكيف تزعمون أن صاحبكم يبدي لكم الحق، ويكتمه عن أهل بيته! عظم فراؤكم على أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ووصفتهم فعل صاحبكم مضاداً لكتاب الله، وفعل رسوله^(١). ومن خالف رسول الله، فقد خرج من حيز^(٢) رسول الله صلى الله عليه وآله، لقول الله تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]. فأمر الله بصلة الأرحام، ونهى عن قطيعة الأرحام. أفتررون أن صاحبكم وصلكم وقطع رحمه؟! وأي قطيعة أعظم من أن يكتم دين الله، والحق الذي به يُتقرب إلى الله، ودينه الذي به يُعبد الله، فكتم أرحامه فهلكوا بزعمكم، حتى استوجبوا النار لتركهم الحق، فأبي قطيعة أعظم من هذا وقد أمر الله أن توصل؟!.

ولكن كذبتهم وغيرتم وأظهرتم الباطل، فلما أنكر عليكم أهل بيت نبيكم، رويتم فيهم ما رويتم كذبا وهتانا، وخلاف كتاب الله؛ لأن يُصدَّق باطلكم في زماننا هذا.

فإن زعمتم أنه يبين لنا ويكتم غيرنا، لأنه يعلم منا أنا لا نذيع سره، لما أعطاه الله من علم الغيب، وتأولتم كتاب الله على غير تأويله، وزعمتم أنهم المتوسمون، لقوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥]. وقد عرف منا صاحبنا النصيحة ما لم يعرف من غيرنا، وأخبرنا بما نحتاج إليه، وعرفنا نفسه لما علم منا النصيحة والكتمان عليه، وأنا لا نذيع سره، وقد كتمكم إذ علم منكم غير ما علم منا.

يقال لهم: أو ليس قد كذبتهم قولكم، وجهلتم صاحبكم؟! إذ زعمتم أنه علم منكم أنكم لا تذيعون سره، أو ليس قد ادعيتهم وقتلتم للناس واحتججتم على من خالفكم، ووصفتهم فيه ما لم يدَّعه هو لنفسه، مثل علم الغيب، ومثل قولكم يرانا في

(١) في (ب): رسول الله.

(٢) في (أ) و (ج): خير. مصحفة.

كل بلاد، ويرى حالنا وأعمالنا وأفاعيلنا، ويسمع كلامنا، ويخبرنا أننا نرجع إلى الدنيا بعد موتنا،^(١) وأشباه هذا مما لو وصفناه لكثير وطال؟!

(١) الرجعة عند الإمامية تعني: رجوع النبي صلى الله عليه وآله والأئمة إلى دار الدنيا للإنتقام من أعدائهم وظالميهـم.

والقول بالرجعة مما أجمعت عليه الإمامية في جميع الأعصار قال المجلسي بعد سرد الأخبار الكثيرة عن الرجعة:

إعلم يا أخي أي لا أظنك ترتاب بعد ما مهدت وأوضح لك بالقول في الرجعة التي أجمعت عليها الشيعة في جميع الأعصار، واشتهرت بينهم كالشمس في رابعات النهار.... وكيف يشك مؤمن بأحقية الأئمة الأطهار فيما تواترت عنهم من مائتي حديث صريح رواها نيف وأربعون من الثقات العظام والعلماء الأعلام في أزيد من خمسين من مؤلفاتهم. بحار الأنوار ٢٢٥/١٣ الطبعة الأولى.

روى الجزائري أن المفضل بن عمر روى عن جعفر أنه قال في آخر حديث طويل بعد صلب أبي بكر وعمر... قال المفضل: يا سيدي هذا آخر عذابهما؟ قال: هيهات يا مفضل والله ليردن وليحضرن السيد الأكبر محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والصدیق الأعظم أمير المؤمنين، وفاطمة والحسن، والحسين، والأئمة عليهم السلام، وكل من محض الإيمان محضا، وكل من محض الكفر محضا، وليقتصن منهما بجميع المظالم ثم يأمر بهما فيقتلان في كل يوم ليلة ألف قتلة ويردان إلى أشد العذاب. الأنوار النعمانية ٨٦/٢ - ٨٧.

وإن أول من يرجع إلى الدنيا الحسين بن علي عليه السلام فيملك حتى يقع حاجباه على عينيه من الكبر. بحار الأنوار ٢١١/١٣، البرهان ٤٠٧/٢، الصافي ٩٥٩/١، إثبات الهداة للعالمی ١٠٢/٧. ويرجع معه سبعون رجلا من أصحابه الذين قتلوا معه. تفسير العياشي ١٨١/٢، وفي رواية يرجع معه خمسة وسبعون ألفا من الرجال ويملك الدنيا كلها بعد وفاة المهدي ثلاث مائة سنة وتسع سنين. الأنوار النعمانية ٩٨/٢ - ٩٩.

ويرجع معه يزيد بن معاوية وأصحابه ليأخذ ثأرهم منهم. تفسير العياشي ٢٨٢/٢، البرهان ٤٠٨/٢، الصافي ٢٥٩/١ عند تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾، بحار الأنوار ٢١٩/١٣. والأئمة الاثني عشر كلهم يرجعون إلى الدنيا في زمن القائم مع جماعتهم. الصافي ٣٤٧/١. وأنه لم يبعث الله نبيا ولا رسولا إلا ردهم جميعا إلى الدنيا حتى يقاتلوا بين يدي علي بن أبي طالب عليه السلام. نور الثقلين ٣٥٩/١، بحار الأنوار ٢١٠/١٣.

وليس أحد من المؤمنين قُتل إلا سيرجع حتى يموت، ولا أحد من المؤمنين مات إلا سيرجع حتى يقتل. بحار الأنوار ٢١٠/١٣.

ولو قام قائمنا (المهدي) ردت الحميراء (عائشة) حتى يجلبدها الحد، وحتى ينتقم لابنة محمد صلى الله

فيا سبحان الله! أو ليس يكفي دون ما وصفنا لمن وهب الله له أدنى فهم، واستقر في قلبه أدنى إيمان، أن يعرف اختلاف قولكم، وتكذيب دعواكم، وعيوب ما أنتم فيه من^(١) باطلكم، ولكن الله يهدي لدينه من يشاء.

زعمتم [أنه] يخبركم لمعرفته بقبولكم، ويحكم غيركم لمعرفته ببحودهم، فسبحان الله ما أئين هذا الفعل أنه مضاد لفعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ إذ زعمتم أن صاحبكم يقوم مقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ويهدي بهدي رسول الله عليه السلام، ويفعل أفاعيل رسول الله صلى الله عليه وآله، أفهكذا كان فعل رسول الله عليه السلام أن يحكم بعضا، ويخبر بعضا؟! أو أخبر الجميع؟ قبله من قبله، وعصاه من عصاه.

فإن زعمتم أنه أخبر بعضا وكنتم بعضا، فقد عظم فراؤكم على رسول الله صلى الله عليه وآله، وزعمتم بأنه لم ينصح العباد إذ نصح قوما دون قوم، وزعمتم بأنه لم يبلغ رسالات الله إلا قوما دون قوم، ويلكم كيف وقد قال الله لنبيه أن يبلغ الناس لقوله: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]. ولقوله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٥]، فوعده أن يحفظه بمن كان يحذره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم^(٢)، فأبلغ الثقلين الجن والإنس عامة كافرهم ومؤمنهم، فقبل من قبل، وعصى من عصى، فكان حجة لمن قبل، وحجة على من عصى، وكذلك أهله^(٣) وبدون هذا يكتفي المؤمن.

وأول من حاز الوصية! وادعا علم آدم قوم يقال لهم الإبراهيمية، وجعلوا الوصية وراثته من أب عن أب، وهم من الهند، وهم سادات البلاد، وزعموا أن آدم أوصى إلى

عليه وآله فاطمة عليها السلام منها، قيل: ولم يجلدها؟ قال: لفريتها على أم إبراهيم. تفسير الصافي سورة الأنبياء ١٠٨/٢.

(١) في (أ) و (ج): فيه وباطلكم.

(٢) في (أ): ويخلي أهله فأبلغ... ولعلها زيادة.

(٣) في المخطوطات: من عصى وعلى أهله. وبدون ولعلها مصحفة، والصواب ما أثبت والله أعلم.

شيث، وشيث أوصى إلى ابنه، وقادوا الوصية إلى أنفسهم، وزعموا أن الوصية فيهم اليوم، وزعموا أن كل نبي ادعا النبوة من بعد شيث مدع كاذب ؛ لأنه لا^(١) يخرنا بعلم آدم.

وقالوا: إن الله علّم آدم الأسماء، والعلم كله، فدفع كل رجل إلى وصيه العلم كاملا، ثم ادعوا بأن العلم الذي نزل من السماء فيهم كاملا، وأبطلوا كل نبي بعثه الله من ولد آدم.

ثم قاد الوصية قوم من اليهود، وزعموا أن الوصية انتهت إلى ولد داود، فجعلوا الوصية في ولد داود، وجعلوها وراثه، وزعموا أنه يرث ابن عن أب، وهم بالعراق يقال لهم: رأس الجالوت،^(٢) يدفعون إليه خمس أموالهم، وعن الذكر البكر من الولد والمواشي والدواب، وإذا ذُبِح ثور حُمِلَ إليه درهم قفلة،^(٣) وثُلث وثمان كبده، وإذا تزوج أعطاه أربعة دراهم قفلة، وإذا بنى أحدهم دارا أعطاه مثل ذلك، وإذا تزوج لا يقدر أن يطلق إلا بأمره، أو أمر وكيله، فإذا طلقها أخذ منه أربعة دراهم قفلة، وعليه أن يربي أولاد الزنا من اليهود، ومن لا يعرف له أب حتى يكبر، فإذا كبر كان مولاه إن شاء أعتقه، وإن شاء باعه، وهم الذين يحملونه إذا خرج من منزله لا يتركونه بمشي، ويقولون: إن اليهود فيهم،^(٤) فإن أيديهم أطول من أيدي الناس، وأنه يبلغ الركبتين، إذا استوى قائما، كذبا وزورا، واسمهم: رأس الجالوت. ويزعمون أن موسى وهارون سيرجعون إلى الدنيا، فتكون لهم الدولة على المسلمين. وكل نبي بعثه الله في بني إسرائيل من غير هؤلاء ونسلهم كذبوه وقتلوه، وقالوا: بأنه لو كان نبيا لكان من

(١) في (أ) و (ج): كاذب لا يخرنا. وفي (ب): كاذب لأنه يخرنا. وفي (د): لأنه لم يخرنا. ولفقت النص من الجمع، والله أعلم.

(٢) الجالوتية: فرقة من اليهود ينتسبون إلى زعيمهم رأس الجالوت وهو (الكهنوت = رئيس اليهود) كالجاثليق (كاثوليك = رئيس النصارى) يدعون أن معبودهم أبيض الرأس واللحية، وأن الله ملك الأرض يوسف بن يعقوب وهم وارثوه والناس ممالك لهم.

(٣) القفلة: أعطاك إنسانا شيئا مرة، يقال: أعطاه ألفا قفلة. وقال ابن دريد: ودهرم قفلة، أي: وزن. لسان العرب. وهو درهم تقيل وزن ثمان وأربعين شعيرة من الفضة الخالصة.

(٤) في (أ) و (ب) و (د): فيهم. مصحفة.

ولد هؤلاء ونسلهم، الذين قادوا فيهم الوصية، فقال الله سبحانه تصديق ما قلنا: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧] فقد ارتكبت هذه الأمة ما ارتكبت بنوا إسرائيل القذة بالقذة، ^(١) والحدو بالحدو ^(٢) كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فراحم الله عبدا تفهم ونظر لنفسه قبل لقاء الله، ونظر في سنة الماضين، وما ارتكبوا من البدع والضلالة، وما جحدوا من الحق والبيان، وحذر أن يكون كأحدهم.

[صفة الإمام]

وإنما صفة الإمام: الحسن في مذهبه، الزاهد في الدنيا، العالم في نفسه، بالمؤمنين رؤوف رحيم، يأخذ على يد الظالم، وينصر المظلوم، ويفرج عن الضعيف، ويكون لليتيم كالأب الرحيم، وللأرملة كالزوج العطوف، يعادي القريب في ذات الله، ويوالي البعيد في ذات الله، لا يخل بشيء مما عنده مما تحتاج إليه الأمة، من أتاه من مسترشد أرشده، ومن أتاه متعلما علمه، يدعو الناس مجتهدا إلى طاعة الله، ويصبرهم عيوب ما فيه غيهم، ويرغبهم فيما عند الله، لا يحتجب عن من طلبه، فهو من نفسه في تعب من شدة الإجتهد، والناس منه في أدب، فمثله كمثل الماء الذي هو حياة كل شيء حياته تمضي، وعلمه يبقى، يصدق فعله قوله، يغرف ^(٣) منه الخاص والعام، لا ينكر فضله من خالفه، ولا يحدد علمه من خالطه، كتاب الله شاهد له ومصدق له، وفعله

(١) أخرجه أحمد برقم (١٦٥١٢). ورواه القرطبي في الجامع لأحكام القرآن في تفسير قوله تعالى: ﴿اجعل لنا إلهًا﴾. والسيوطي في الدر المنثور في تفسير قوله تعالى: ﴿الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾. وهو في مختصر تفسير ابن كثير، في تفسير قوله تعالى: ﴿لتركن طبقا عن طبقا﴾. وقوله تعالى: ﴿فسيبين ورهبانا﴾.

(٢) أخرجه الترمذي برقم (٢٥٦٥).

(٣) في (ب) و (د): يعرف.

مصدق لدعواه، وشواهد في كتاب الله، والدليل عليه كتاب الله، يقول الله تبارك وتعالى لنبيه صلى الله عليه وآله: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨] من الدعاة من أهل بيتي^(١).

أليس وصف لنا رب العالمين، بأن حجته داع إليه، كما بدأ برسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾. فقال رب العالمين: إن الحجج هم الدعاة، فمن رأيتم من أهل بيت نبيكم دعا إلى الله علانية غير مكتتم إلا ما قلنا، فإن أنكرتم لم تنكره الأمة، الذين قالوا بخلاف قولنا وقولكم، فلنا عليكم البيان من غير أهل مقاتلتنا ومقاتلكم، بأن قوما من أهل بيت النبي مخصوصين، بأنهم دعوا إلى الله، وجاهدوا في سبيل الله، وقتلوا وقتلوا، ومضوا إلى الله على سبيل جدهم محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وعلي، والحسن، والحسين، الذين جاهدوا في الله حق جهاده حتى أتاهم اليقين.

وقال الله تبارك وتعالى في الأئمة من أهل بيته: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٣٥]^(٢) وقال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]^(٣) فيما^(١) يكونون

(٢) قل هذه سبيلي نزلت في أهل البيت.

عن زيد بن علي عليهم السلام قال: قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قول الله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ من أهل بيتي، لا يزال الرجل بعد الرجل يدعو إلى ما أدعو إليه.

وعن أبي جعفر الباقر عليهما السلام في هذه الآية قال: لا نالني شفاعة جدي إن لم تكن هذه الآية نزلت في علي خاصة.

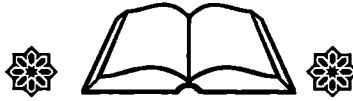
أخرج الروايتين فوات الكوفي في تفسيره ٢٠٣/٢٠١ برقم (٢٦٤)، (٢٦٥)، (٢٦٥)، و (٢٦٦) و (٢٦٧) و (٢٦٨)، ورواه الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل، عند تفسير الآية، ورواه المجلسي في بحار الأنوار ٥٢/٣٦.

(٢) لم أقف للآية على تخريج فيما لدي من مصادر.

(٣) وكذلك جعلناكم. عن جعفر بن محمد الصادق قال في الآية: نحن أمة الوسط، ونحن شهداء الله على خلقه، وحجته في أرضه.

شهداء عليهم، بما دعوا الأمة فخالقوهم وعصوهم؟! أو بما لم يدعواهم وجلسوا في بيوتهم؟! أفترى بما يشهدون عليهم يوم القيامة، بكتماهم الحق وجلوسهم في منازلهم، وإظهارهم التقية، أو في إظهارهم الحق ودعائهم إلى الله، وبيان الحق؟ فأيهم أحق، وأولى أن يكون شاهدا في كل زمان، من أظهر وبيّن ودعا، أو من كتم؟! وأوفى شواهدنا في كتاب الله من دلائل الإمام، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠] فهل شك أحد من خلق الله في زيد بن علي؟ ومن قام مقامه من أهل بيت نبئته، ومن مضى من أهل بيته من الأئمة، أنهم أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، وجاهدوا في الله حق جهاده، علانية غير سر، فيا ويحكم أليس هذه دلائل من كتاب الله؟! ينبغي للعاقل أن يكتفي بها إن شاء الله.

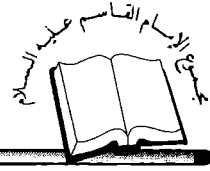
تم الرد على الروافض، وصلى الله على رسوله سيدنا محمد النبي وآله وسلم.



وروى الحسكاني في شواهد التنزيل عند تفسير الآية نحوه ٩٣/١ ٩٥ (١٣٠) و (١٣١) و (١٣٢).
عن أبي جعفر الباقر عليهما السلام قال في الآية: منا شهيد على كل زمان: علي بن أبي طالب في زمان، والحسن في زمان، والحسين في زمان، وكل من يدعو منا إلى أمر الله تعالى.

أخرج الروایتين فرات الكوفي في تفسيره ٦٢/١ رقم (٢٦) و (٢٧).

(١) في المخطوطات: فيما. والصواب ما أثبت.



العدل والتوحيد



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على ما أسبغ علينا من نعمه، ومن علينا من إحسانه وكرمه، وبين لنا من الهدى، وأنقذنا من الضلالة والردى، بإقامة حججه، وتواتر رسله، صلوات الله عليهم، ومحكم آياته، وتفصيل بيناته، رحمة لعباده، ودعاء لهم إلى ثوابه، وإخراجاً لهم من عقابه: ﴿لَقَدْ كَانَ لِنَاسٍ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ﴾ [النساء: ١٦٥]. و ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤١].

[عقائد يجب الإيمان بها]

أما بعد: فإن الذي يجب على العبد أن يكون عاملاً بطاعة الله، التي لا يقبل الله عز وجل غيرها من طاعته إلا بأدائها، ولا يكون مؤمناً حتى يفعلها.

أن يؤمن بالله وحده لا شريك له، ولا يتخذ معه إلهاً، ولا من دونه رباً ولا ولياً، وأن يؤمن بملائكة الله وكتبه ورسله، والبعث بعد الموت، وبالْحِسَابِ والجنة والنار، وبالجزاء بالأعمال، وأن الآخرة هي دار القرار، لا ينقطع ثوابها، ولا يبطل عقابها، ولا يموت فيها أهلها، وهم في جزائهم خالدون. ويؤمن بوعده الله جل ثناؤه ووعيده، وأخباره، وكل ما جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم، مما أمر به ونهى عنه صلوات الله عليه من العمل بالمفروض بطاعة الله، والإجتناب لمعاصي الله، والولاية لأولياءه، والمعاداة لأعدائه، والرضى بقضاء الله، والتسليم لأمر الله. فإذا فعل ذلك كان مؤمناً، مسلماً محسناً، من المتقين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

[التوحيد]

ولا يكون العبد مؤمناً حتى يعلم أنه مخلوق مرزوق، وأنه ذليل مقهور، وأن له خالقاً قديماً، عزيزاً حكيمًا، ليس كمثله شيء في وجهه من الوجوه، ولا معنى من المعاني، وأن ما سواه من الأشياء كلها من عرشه، وملائكته، ورسله، وسمواته، وأرضه،

وما فيهن وما بينهن وما تحتهن، مما أخرج الله جل ثناؤه، من تمكين العباد وأفعالهم، لم يجعل لأحد عليه قدرة ولا استطاعة، ولا عند أحد منهم معرفة في شيء من بدو ذلك وإنشائه، ومن أعمل منهم فكره ليلبغ معرفة شيء من ذلك بقي حسيراً، منقطعاً مبهوراً، ولا جعل إلى أحد في شيء منه سبيلاً، ولا جعل لأحد فيه محمدة ولا ذماً، لأنه جل ثناؤه لم يستعن على إنشاء ما أنشأ بأحد، ولم يشاركه في ملكه أحد، ولم يؤامر في تدبيره أحداً، فهو الواحد الأحد، الذي لا من شيء كان، ولا من شيء خلق ما كان.

فهو الدائم بلا أمد، الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣].
وجميع ما أدركته ببصرك ووهمك، ووقع عليه شيء من حواسك، أو كيفته بتقديرك، أو حددته بتمثيلك، أو شبهته بتشبيهك، أو وقت له وقتاً، أو حددت له حداً، أو عرفت له أولاً، أو وصفت له آخراً، فهو محدث مخلوق، والله تبارك وتعالى خالق الأشياء، لا من شيء خلقها، ولا على مثال صورها، بل أنشأها وابتدأها، فديرها بأحكم تدبير، وقدرها بأحسن تقدير.

فهو جل ثناؤه، لا يشبه الخلق ولا يشبهه الخلق، لأنه الخالق الذي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. لم يخص بذلك شيئاً دون شيء، بل عم الأشياء كلها، ما كان منها وما يكون، فلا شبه له ولا عدل، لا الضياء ولا الأنوار، ولا الظلمات ولا النار. وذلك أن النور والظلمة مخلوقان محدثان، يوجدان ويعدمان، ويقبلان ويديران، ويذهبان ويجيئان، ويوصفان ويحدان. والخالق جل ثناؤه ليس كذلك، لأن الخالق جل وعز قدم لم يزل، والمخلوق لم يكن، فآثار الصنعة في المخلوق بينة، وأعلام التدبير قائمة، والعجز فيه ظاهر، والحاجة له لازمة، والآفات به نازلة، فأنت تراه مرة مثلاً، ومرة آفلاً زائلاً.

فلما كانت هذه صفة كل مخلوق، ولم يجز أن تضاف صفة المخلوق إلى الخالق عز وجهه، لأن الخالق لا يكون في صفة المخلوق، تبارك وتعالى الخالق أن يكون له شبه البشر، هو الحامد نفسه قبل أن يحمده أحد من خلقه. فقال تبارك وتعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا

بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ [الأنعام: ١]. يقول جل ثناؤه إن الكفار عبدوا إلهاً غير الله، فقالوا هو ضياء ونور، ومن جنسه النار والنور، وجعلوا معه إلهاً آخر، فقالوا: هو ظلمة ومن جنسه كل ظلمة. فعدلوا بالله جل ثناؤه حين شبهوه بالأنوار، وجعلوا معه آلهة من الظلمات، فأكذبهم الله جل ثناؤه إذ قال: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾. تكذيباً لهم إذ شبهوه وعدلوا به، وأكذب جل ثناؤه الذين شبهوه بالإنس من اليهود وغيرهم من المشركين، جهلاً به وجرأةً عليه، فقال جل ثناؤه مع ما بين لهم في عقولهم من وحدانيته، ونفى شبه الخلق عندما يرون من أدلته وأعلامه، التي تدعوهم إلى معرفته وتوحيده، من خلق السماوات والأرض، وما فيهما وما بينهما، ومن أنفسهم لو أحسنوا النظر، وأعملوا في ذلك الفكر، فقال جل ثناؤه: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَكُنْ لَهُ يُولَدٌ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ١-٤]. وقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾. وقال: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧].

كذلك الله عز وجل شاهد كل نجوى، عالم السر وأخفى، قريب لا بمجاورة، بعيد لا بمفارقة، شاهد كل غائب، آخذ بناصية كل دابة، وعليه رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها، أقرب إلينا من حبل الوريد، وخائل بيننا وبين قلوبنا^(١) لا بتحديد، وهو مع قربه منا مدبر السماوات العلى، وشاهد الأرضين السفلى، وعليم بما فيهن وما بينهن وما تحت الثرى، وهو على العرش استوى، وهو مع كل نجوى، وهو في ذلك لا كشيء من الأشياء.

[أسباب وعمل التشبيه]

ولقد ضل قوم ممن ينتحل الإسلام من المشبهة الملحدين، الذين شبهوا الله عز ذكره بخلقه، وزعموا أنه على صورة الإنسان،^(٢) وأنه جسم محدود، وشبح مشهود،

(١) في (أ) و (ج): قولنا.

(٢) إشارة إلى ما رواه عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: لا تقبح الوجه فإن آدم خلق على

واعتلوا بآيات من الكتاب متشابهات، حرفوها بالتأويل، ونقضوا بها التزليل، كما حرّف من كان قبلهم من اليهود والنصارى كلام الله عن مواضعه، وبأحاديث افتعلها الضلال، من بغاة الإسلام، فحملها عنهم الجهال. فيها الإلحاد والكفر بالله، وأحاديث لم يعرفوا حسن تأويلها، ^(١) ولم يُعنوا بتصحيحها، ^(٢) فضلوا وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل.

[الرؤية]

فكأنما تأولوا قول الله عز وجل: ﴿وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ﴾ ^(٣) إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴿٢٢﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]. فقالوا: إِنَّ اللَّهَ عز وجل يُرَى بِالْأَبْصَارِ فِي الْآخِرَةِ، وَيُنْظَرُ إِلَيْهِ جَهْرَةً، خلافاً لقول الله جل ثناؤه: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْآبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]. ^(٤) جهلاً بمعاني الآية وتأويلها.

صورة الرحمن.

أخرجه الطبراني في الكبير ٣٤٠/١٢ (١٣٥٨)، وابن أبي عاصم في السنة/٢٢٩. تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. سبحانه رب العزة عما يصفون.

(١) للإطلاع على تلك الأحاديث يمكن الرجوع إلى البحث الذي وضعته في ذلك بعنوان: الصلة بين عقائد الوهابية والتوراة اليهودية.

(٢) لما لم يعرضوها على القرآن.

(٣) عن أنس رضي الله عنه:

((أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِأَعْرَابِيٍّ وَهُوَ يَدْعُو فِي صَلَاتِهِ وَهُوَ يَقُولُ:

((يَا مَنْ لَا تَرَاهُ الْعُيُونُ، وَلَا تَخَالُطُهُ الظُّنُونُ، وَلَا يَصِفُهُ الْوَاصِفُونَ، وَلَا تَغْيِرُهُ الْخَوَادِثُ وَلَا يَحْشَى الدَّوَائِرُ، يَعْلَمُ مَثَاقِيلَ الْجِبَالِ، وَمَكَائِلَ الْبِحَارِ، وَعَدَدَ قَطْرِ الْأَمْطَارِ، وَعَدَدَ رِقِّ الْأَشْجَارِ، وَعَدَدَ مَا أَظْلَمَ عَلَيْهِ اللَّيْلُ وَأَشْرَقَ عَلَيْهِ النَّهَارُ، وَمَا تَوَارَى مِنْهُ سَمَاءٌ سَمَاءً وَلَا أَرْضٌ أَرْضاً، وَلَا بَحْرٌ مَا فِي قَعْرِهِ، وَلَا جَبَلٌ مَا فِي وَعْرِهِ، اجْعَلْ خَيْرَ عَمْرِي آخِرَةً، وَخَيْرَ عَمَلِي خَوَاتِمَةً، وَخَيْرَ أَيَّامِي يَوْمَ أَلْقَاكَ فِيهِ.

فَوَكَّلِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِالْأَعْرَابِيِّ رَجُلًا، فَقَالَ: إِذَا صَلَّى فَاتْنِي بِهِ، فَلَمَّا صَلَّى أَنَاهُ، وَقَدْ كَانَ أَهْدِي لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ذَهَبٌ مِنْ بَعْضِ الْمَعَادِنِ، فَلَمَّا أَنَاهُ الْأَعْرَابِيُّ وَهَبَ لَهُ الذَّهَبَ، وَقَالَ: تَمَنِّ أَنْتَ يَا أَعْرَابِي؟ قَالَ: مِنْ بَنِي عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: هَلْ تَدْرِي لِمَ وَهَبْتَ لَكَ الذَّهَبَ؟ قَالَ: لِلرَّحِمِ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: إِنَّ لِلرَّحِمِ حَقًّا، وَلَكِنْ

فأما أهل العلم والإيمان، ففسروها على غير ما قال أهل التشبيه المنافقون، فقالوا: ﴿وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾ يقول: مشرقة حسنة، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ يقول: منتظرة ثوابه وكرامته ورحمته، ^(١) وما يأتيهم من خيره وفوائده. وهكذا ذلك في لغات العرب. وبلغناها ولسانها نزل القرآن، يقولون: إذا جاء الخصب بعد الجذب: قد نظر الله جل ثناؤه إلى خلقه، ونظر لعباده. يريدون أنه أتاها بالفرج والرخاء. ليس يعنون أنه كان لا يراهم ثم صار يراهم.

وقال الله جل ذكره وهو يذكر أهل النار: ﴿لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [آل عمران: ٧٧]. تأويل ذلك: أنهم لا

وهبت لك الذهب بحسن ثنائك على الله عز وجل).

قال الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد (١٥٨/١٠): رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن محمد أبو عبد الرحمن الأذرمي وهو ثقة.

وأخرج ابن أبي حاتم، والعقيلي، وابن عدي، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قوله ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾. قال: لو أن الإنس والجن والشياطين والملائكة منذ خلقوا إلى أن فنوا صُفُّوا صفا واحدا ما أحاطوا بالله.

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ قال: لا يحيط بها أحد بالله.

وأخرج عبد بن حميد، وأبو الشيخ، عن قتادة ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ قال: هو أجل من ذلك وأعظم أن تدركه الأبصار.

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وهو يدرك الأبصار﴾ يقول: لا يراه شيء وهو يرى الخلائق. الدر المنثور ٣/٣٣٥.

(٦) قال بعضهم إن (إلى) اسم وليست حرف جر، وهي مفرد آلا وهي النعم، قال الله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. فعلى هذا يكون معنى الآية: نعمة ربها منتظرة.

أخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، عن أبي صالح رضي الله عنه في قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ قال: تنتظر الثواب من ربها. وأخرج ابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه في قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ قال: تنتظر منه الثواب. الدر المنثور ٨/٣٦٠.

وهو المروي عن علي والحسن وسعيد بن جبير والضحاك. رواه الطوسي في مجمع البيان ٦/١٢٨.

يرجون من الله جل ثناؤه ثواباً، ولا يفعل بهم^(١) خيراً، وأهل الجنة ينظر الله إليهم وينظرون إلى الله جل ثناؤه، ومعنى ذلك أنهم يرجون من الله خيراً، ويأتيهم منه خير ويفعله بهم، وليس معنى ذلك أنهم ينظرون إليه جبهة بالأبصار، عز ذو الجلال والإكرام، وكيف يروونه بالأبصار، وهو لا محدود ولا ذو أقطار، كذلك جل ثناؤه لا تدركه الأبصار، ومن أدركته الأبصار فقد أحاطت به الأقطار، ومن أحاطت به الأقطار، كان محتاجاً إلى الأماكن، وكانت محيطة به، والمحيط أكبر من المحيط به وأقهر بالإحاطة، فكل من قال إنه ينظر إليه جل ثناؤه على غير ما وصفنا من انتظار ثوابه وكرامته، فقد زعم أنه يدرك الخالق، ومحال أن يدرك المخلوق الخالق جل ثناؤه بشيء من الحواس، لأنه خارج من معنى كل محسوس وحاس، فكذلك نفى الموحدون عن الله جل ثناؤه درك الأبصار، وإحاطة الأقطار، وحجب الأعتار، فتعالى الله عن صفة المخلوقين، علواً كبيراً لا إله إلا هو رب العالمين.

[شبه المشبهة]

وتأولت أيضاً المشبهة قول الله تبارك وتعالى: ﴿ خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص: ٦٢]. وقوله: ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيلَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ [الزمر: ٦٧]. وقوله: ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر: ٢٢]. وقوله: ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٤]. وقوله: ﴿ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [الحج: ٦١، لقمان: ٢٨، المجادلة: ١]. وقوله: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ [آل عمران: ٢٨، ٣٠]. وقوله: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [القصص: ٨٨]. ففسروا ذلك على ما توهموا من أنفسهم، وبأنه عز وجل عندهم في ذلك كله على معنى المخلوقين، وصفاتهم في هيئاتهم وأفعالهم، فكفروا بالله العظيم، وعبدوا غير الله الكريم.

وتأويل ذلك كله عند أهل الإيمان والتوحيد: أن الله عز وجل ليس كمثله شيء،

(١) في (ب): لهم.

فأما قوله تبارك وتعالى: ﴿خَلَقْتُ يَدَيَّ﴾ [ص: ٦٢]. يعني: بقدرتي وعلمي. يريد أني على ذلك قادر وبه عالم، توليت ذلك بنفسي لا شريك لي في تدبيري وصنعي، لا أن قدرتي وعلمي ونفسي غيري، بل أنا الواحد الذي لا شيء مثلي. وقد بين معنى هذه الآية في آية أخرى، فقال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]. وقال جل ذكره: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]. يريد إذا كوناً شيئاً كان. وقال تبارك وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا عَمَلَاتٍ أَيْدِينَآ أَنْعَمْنَا لَهُمْ لَهَا مَلِكُونَ﴾ [يس: ٧١]. يقول: مما عملت أنا بنفسي.

وقال جل ثناؤه: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٥٨]، وتأويل ذلك عند أهل العلم: بل نعمتاه مبسوطتان على خلقه، نعمة الدنيا ونعمة الآخرة.

وقيل في تأويله: بل رزقاه^(١) مبسوطان على خلقه، رزق موسع، ورزق مضيق، ﴿يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾. أي: يفعل من^(٢) ذلك ما هو أصلح لعباده. كذلك قال جل ثناؤه: ﴿بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك: ١]. يعني: له الملك. وكذلك تقول العرب: الملك بيد فلان. وقد قبض فلان الملك والأرض. وذلك في قبضته وبيمينه. يعنون: في قدرته وملكه. كذلك السماوات والأرض وما بينهما وما في قبضة الله وبيمينه. يعني: في قدرته وملكوته وسلطانه، اليوم ويوم القيامة وفي كل وقت. كما قال جل ثناؤه: ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الانفطار: ١]. فالأمر يومئذ واليوم بيده. وقال تبارك وتعالى لمن عصاه وهو يساق إلى النار: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠]. و ﴿بِمَا كَسَبَتْ يَدَاكَ﴾^(٣). يريد: بما كسبت أنت بقولك وفعلك، ليس يعني: يده دون بدنه وجوارحه.

وقال جل ثناؤه لنبيه، صلوات الله عليه وعلى أهله: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٢٤]. يعني: ما ملكتم أتمتم، وتقول العرب: أسلم فلان على يدي فلان. يريدون:

(١) في (أ) و (ج): نعمتاه مبسوطتان.

(٢) في (أ) و (ج): يفعل لذلك.

(٣) لا يوجد آية كما ذكر الإمام فعله اشتبهت عليه بقوله ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٢٣٠].

بقوله وأمره. ويقولون:

بيد الله أمرنا والفتاء^(١)

.....

يريدون: بالله عمرنا والفتاء. ويقولون: نواصينا بيد الله، ونحن في قبضة الله. يريدون في هذا كله: أننا في قدرته وملكه، ليس يذهبون إلى يد كيد الإنسان أو غيره من الخلق.

ومعنى قوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]. يقولون: جاء الله جل ثناؤه بآياته العظام في مشاهد القيامة، وجاء بتلك الزلازل والأهوال، وجاء بالملائكة الكرام، فتجلت الظلم، وانكشفت عن المرتابين البهيم، وبداهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون. وليس قوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾. أنه جاء من مكان، ولا أنه زائل ولا حائل،^(٢) أو منتقل من مكان إلى مكان، أو جاء من مكان إلى مكان، تبارك الله وتعالى عن ذلك. بل هو شاهد كل مكان، ولا يحويه مكان، وهو عالم كل نجوى، وحاضر كل ملأ.

كذلك قوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠]. كما قال جل ثناؤه: ﴿مَّا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ [س: ٤٩]. وكذلك قال جل ثناؤه: ﴿فَأَتَى اللَّهَ بُنْيَانُهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ﴾ [النحل: ٢٦]. وقال: ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ [الحشر: ٢]. يعني بذلك كله: أنه أتاهم بعذابه وأمره. ليس أنه أتاهم بنفسه زائلاً، وكان في مكان فكان عنه منتقلاً. وكذلك يقول القائل للرجل إذا جاء بأمر عجيب: لقد أتى فلان أمراً عجيباً. يريدون: أنه فعل شيئاً أعجبه. فذلك تأويل الحجيء من الله جل ثناؤه. لا هو بالانتقال ولا بالزوال، لأن الزائل مدبر محتاج، لولا حاجته إلى الزوال لم يزل. فلذلك نفى الموحدون عن الله جل ثناؤه الزوال والانتقال.

(١) لم أقف على هذا البيت.

(٢) في (ب) و (د): أو حائل.

[القرآن كلام الله مخلوق]

وقوله: ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٤]. فذهبت المشبهة إلى أن الله تعالى عما قالوا علواً كبيراً: تكلم بلسان وشفيتين، وخرج الكلام منه كما خرج الكلام من المخلوقين، فكفروا بالله العظيم حين ذهبوا إلى هذه الصفة.

ومعنى كلامه جل ثناؤه لموسى صلوات الله عليه عند أهل الإيمان والعلم: أنه أنشأ كلاماً خلقه كما شاء، فسمعه موسى صلى الله عليه وفهمه، وكل مسموع من الله جل ثناؤه فهو مخلوق. لأنه غير الخالق له وإنما ناداه الله جل ثناؤه، فقال: ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [القصص: ٣٠]. والنداء غير المنادي، والمنادي بذلك هو الله جل ثناؤه، والنداء غير الله، وما كان غير الله مما يعجز عنه الخلاق فمخلوق، لأنه لم يكن ثم كان بالله وحده لا شريك له.

وكذلك عيسى صلوات الله عليه كلمة الله بروحه، وهو مخلوق كما قال الله في قوله: ﴿ إِنِّ مِثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩]. وكذلك قرآن الله وكتب الله كلها، قال الله جل ثناؤه: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ [الزخرف: ٣]. يريد: خلقناه. كما قال: ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [الزمر: ٦]. يقول: خلق منها زوجها. وقال جل ثناؤه: ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ ﴾ [الأنبياء: ٢]. وقال تبارك وتعالى: ﴿ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهِذَا الْحَدِيثِ ﴾ [القلم: ٤٤]. وقال سبحانه: ﴿ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ [طه: ٩٩]. فكل محدث من الله جل ثناؤه فمخلوق، لأنه لم يكن فكان بالله وحده لا شريك له، فالله أول لم يزل ولا يزول.

وأما قوله: ﴿ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾^(١). فمعنى ذلك: أنه لا تخفى عليه الأصوات ولا اللهوات، ولا غيرها من الأعيان، أين ما كانت وحيث كانت، في ظلمات الأرض

(١) وهما في حق الله بمعنى عالم. والدليل على ذلك قوله سبحانه: ﴿ أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَا لَا نَسْمَعُ سُرْمَهُمْ وَنَجْوَهِمْ ﴾ [التوبة/ ٧٨]، والسر: ما انطوت عليه الضمائر قال تعالى: ﴿ فَأَسْرِ يَوْسُفَ فِي نَفْسِهِ ﴾ والضمير لا يُسمع بل يُعلم، وقوله ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ ﴾ أي: علمت.

والبر والبحر. ليس يعني: أنه سميع بصير بجوارح أو بشيء سواه، فيكون محدوداً، أو يكون معه غيره موجوداً، تعالى الله عن ذلك.

وأما قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٢٨]. وقوله: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٧]. فإنما يعني: إياه لا غيره. يقول: كل شيء هالك إلا هو. وقوله: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ ليس يعني بذلك: وجهاً في جسد، ولا جسداً إذا وجهه، تعالى الله عن هذه الصفات، التي هي في المخلوقين موجودات.

وأما قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨، ٣٠]. يريد: يحذركم الله إياه لا غيره. وقوله تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦]. يريد: تعلم أنت ما أعلم ولا أعلم أنا ما تعلم إلا ما علمتني. ليس يعني: أن له نفساً غيره بها يقوم. تعالى عن ذلك. وقد يقول القائل: هذا نفس الحق، ونفس الطريق، وكذلك: هذا وجه الكلام، ووجه الحق، يريدون بذلك كله: هو الحق، وهذا هو الكلام، وهذا هو الطريق. ليس يذهبون إلى شيء غير ذلك. فتعالى الله عن صفات المخلوقين علواً كبيراً، هو الذي لا كفؤ له ولا نظير له، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

فكل من وصف الله جل ثناؤه بهيئات خلقه، أو شبهه بشيء من صناعه، أو توهمه صورة أو جسماً، أو شبحاً، ^(١) أو أنه في مكان دون مكان، أو أن الأقطار تحويه، أو أن الحجب تستره، أو أن الأبصار تدركه، أو ^(٢) أنه لم يخلق كلامه وكتبه، والقرآن وغيره من كلامه وأحكامه، أو أنه كشيء مما خلق، أو أن شيئاً من خلقه يدركه، مما كان أو يكون، بجارحة أو حاسة، فقد نفاه وكفر به وأشرك به. فافهموا ذلك، وفقنا الله وإياكم لإصابة الحق، وبلوغ الصدق.

(١) الشيخ: الشخص.

(٢) في (أ) و (ج): وأنه.

[العدل]

وعلى العبد: إذا وحّد الله جل ثناؤه، وعرف أنه ليس كمثله شيء، أن يتّقيه في سره وعلايته، ويرجوه ويخافه، ويعلم أنه عدل كريم، رحيم حكيم، لا يكلف عباده إلا ما يطيقون، ولا يسألهم إلا ما يجدون، ولا يجازيهم إلا بما يكسبون ويعملون. وهكذا جل ثناؤه قال، يدل بذلك على رحمته لنا: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، و ﴿...إِلَّا مَا آتَيْنَاهَا﴾ [الطلاق: ٧]. وقال: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]. فلم يكلف الرحيم الكريم أحداً من عباده ما لا يستطيع، بل كلفهم دون ما يطيقون، ولم يكلفهم كل ما يطيقون. وعذرهم عند ما فعل بهم من الآفات التي أصابهم بها، ووضع عنهم الفرض فيها، فقال لا شريك له: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ﴾ [النور: الفتح: ١٧٦١]. لأنهم لا يقدرّون أن يؤدّوا ما فرض الله عليهم، ولم يقل جل ثناؤه: ليس على الكافر حرج، ولا على الزاني حرج، ولا على السارق حرج. وذلك أنه لم يفعل ذلك بهم، ولم يدخلهم فيه، ولم يقض ذلك ولم يقدره، لأنه جور وباطل، والله جل ثناؤه لا يقضي جوراً ولا باطلاً ولا فجوراً، لأن المعاصي كلها باطل وفجور، والله تعالى أن يكون لها قاضياً ومقدراً، بل هو كما وصف نفسه، جل ثناؤه إذ يقول: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِّلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧]. بل قضاؤه فيها كلّها النهي عنها، والحكم على أهلها بالعقوبة والنكال في الدنيا والآخرة، إلا أن يتوبوا فإنه يقبل التوبة ويعفو عن السيئات.

أليس قال جل ثناؤه في الصيام: ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].^(١) فوضع عن المرضى الصيام، لأنهم لا يقدرّون عليه، ووضعه عن المسافرين وإن كان يقدر عليه، يخبرهم أنه إنما يفعل ذلك لأنه يريد بهم اليسر، ولا يريد بهم العسر، ووضع عنه الصلاة قائماً إذا لم يقدر على القيام، وأباح له أن يصلي جالساً، وإن لم يقدر على الصلاة

(١) في المخطوطات: ﴿وإن كنتم مرضى أو...﴾ والآية كما أثبت.

جالساً، صلى مضطجعاً أو مستقبلاً، فإن لم يقدر على ذلك بشيء من جوارحه فلا شيء عليه. فعل ذلك رحمة ونعمة ونظراً لعباده.

ومن لم يكن له مال فلا زكاة عليه، وإن كان ذا مال - فحال^(١) عليه الحول - وهو مائتا درهم فعليه خمسة دراهم، فإن نقص من مائتي درهم شيء،^(٢) قلّ أو كثر فلا شيء عليه فيها، وكل أمر لا يستطيعه العبد فهو عنه موضوع، وكلف مما يستطيع اليسير. يريد الله جل ثناؤه بذلك التخفيف عن^(٣) عباده تصديقاً لقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]. وقال جل ثناؤه: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]. يقول: من ضيق.

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٦٤]. فلم يؤت أحدٌ من قبل الله تبارك وتعالى في دينه، وإنما يؤتّى العبد من نفسه بسوء نظره، وإيثار هواه وشهوته، ومن قبل الشيطان عدوه، يوسوس في صدره ويزين له سوء عمله، ويتبعه فيضله ويرديه، ويهديه إلى عذاب السعير.

وقال الله جل ثناؤه يحذر عباده الشيطان: ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٣]. وقال تبارك وتعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ [البقرة: ٢٦٥]. وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]. أعاذنا الله وإياكم من ذلك.

وعلى العبد أن يعلم أنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم الكريم الحليم، وأن الله جل ثناؤه عالم ما العباد عاملون، وإلى ما هم صائرون، وأنه أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً، وأنه لم يُجبر أحداً على معصية، ولم يُخل بين أحد وبين الطاعة، فالعباد العاملون والله جل ثناؤه العالم بأعمالهم، والحافظ لأفعالهم، والمحصي لأسرارهم وآثارهم، وهو بما يعملون خبير.

(١) في (ب) و (د): وحال.

(٢) في المخطوطات: شيئاً. لعلها مصحفة.

(٣) في المخطوطات: من. ولعلها كما أثبت.

[الهدى والضلال]

وعلى العبد أن يعلم أن الله جل ثناؤه يضل من يشاء ويهدي من يشاء، وأنه لا يضل أحداً حتى يبين لهم ما يتقون، فإذا بين لهم ما يتقون، وما يأتون وما يذرون، فأعرضوا عن الهدى، وصاروا إلى الضلالة والردى، أضلهم بأعمالهم الخبيثة حتى ضلوا، كذلك قال جل ثناؤه: ﴿ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ﴾ [إبراهيم: ٢٧]. وقال سبحانه: ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾ [النساء: ٢٦-٢٧]. وقال تبارك وتعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف: ٥]. وقال جل ثناؤه: ﴿ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ [النساء: ١٥٥].

وقد يجوز أيضاً أن يكون معنى يضل: أن سَمَّاهم ضاللاً، وشهد عليهم بالضلال ووصفهم به، من غير أن يدخلهم في الضلالة ويقسره عليهم، فإن رجعوا عن الضلالة وتابوا، وصاروا إلى الهدى، سَمَّاهم مهتدين، وأزال عنهم اسم الضلال والفسق. ولم يتبدئ ربنا جل ثناؤه أحداً بالضلالة من عباده، ولا وصف بها أحداً من قبل أن يستحقها، وكيف يتبدئ أحداً من عباده بالضلالة؟! كما قال القديرون الكافرون الكاذبون على الله. والله جل ثناؤه ينهى عباده عنها، ويحذرهم إياها. ويقول: ﴿ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا ﴾ [النساء: ١٧٦]. يعني لئلا تضلوا. وقال جل ثناؤه: ﴿ أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ آيَاتُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [إبراهيم: ١]. وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١]. ولو ابتدأهم بالضلالة كان قد غيّر ما بهم من النعمة قبل أن يغيروا، سبحانه هو^(١) أرحم الراحمين، وخير الناصرين. يريد بذلك وصف نفسه.

وأَمَّن^(٢) الخلق أن يكون لهم ظالماً، أو يغير ما عملوا مجازياً، فقال جل ثناؤه: ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ [النساء: ١٢٣].

(١) في (ب) و (د): سبحانه وهو.

(٢) في (أ) و (ج): وأمر مصحفة.

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۗ﴾ [الإسراء: ١٥] وقال تبارك وتعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۖ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۖ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]. وقال عز ذكره: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۚ﴾ [الذاريات: ٥٦]. فللعادة خلقهم، وبطاعته أمرهم، ومن ظلمه آمنهم، وبنعمته ابتدأهم، بما جعل لهم من العقول والأسماع والأبصار، وسائر الجوارح والقوى، التي بها يصلون إلى أخذ ما أمرهم به، وترك ما نهاهم عنه، ثم ابتدأهم جل ثناؤه بالنعمة في دينهم، بأن بين لهم ما يأتون وما يذرون، ثم أمرهم بما يطيقون. أراد بذلك إكرامهم، ومن المهالك إخراجهم، بين ذلك بقوله في الإنسان: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ۚ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۚ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ۚ﴾ [البلد: ٨-١٠]. هما: الطريقان، الخير والشر فيما سمعنا. يقول الله سبحانه: بينا له الطريقين، ليسلك طريق الخير ويجتنب طريق الشر. وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ ۚ﴾ [النجم: ٢٣]. وقال عز وجل: ﴿إِنْ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۚ﴾ [الليل: ١٢]. وقال جل ثناؤه: ﴿الَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۚ﴾ [الأعلى: ٣]. وقال تبارك وتعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ ۚ﴾ [الحل: ٩]. وقال سبحانه: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ۚ﴾ [فصلت: ١٧]. وقال لنبيه صلوات الله عليه وعلى آله: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنْ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ۚ﴾ [سبا: ٥٠]. فأمر نبيه صلى الله عليه وآله أن ينسب ضلاله^(١) إن كان منه إلى نفسه، والهدى إلى ربه تبارك وتعالى، وقد علم الله جل ثناؤه أن لا يكون من نبيه ضلالة أبداً، وأن لا يكون منه إلا الهدى، وإنما أمر بذلك تأديباً لخلقهم، وأن ينسبوا ضلاتهم إلى أنفسهم، ويترهوا منها رهم، وأن

(١) أي: وعلى الله بيان الطريق المستقيم، كقوله ﴿إِنْ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ ومن السبيل طريق جائر أي: عادل عن الحق، فعلى الله بيان الطريقين وآخر الآية ﴿ولو شاء لهداكم أجمعين﴾ يعني: لو شاء مشيئة جبر وقسر وإلحاء لهداكم الطريق المستقيم. ولكنه أمر تحييراً ونهى تحذيراً لئتم التكليف. وعلى الناس الاختيار فمن عمل صلاحاً فلنفسه ومن أساء فعليها.

(٢) في (ب) و (د): ضلالة إن كانت.

ينسبوا هداهم إلى ربهم الذي به اهتدوا، وبعونه وتوفيقه رشدوا.

[القلعة قبل الفعل]

والقديرون المفترون يكرهون أن ينسبوا الضلالة إلى أنفسهم والفواحش، ولا يقرون أن الله جل ثناؤه ابتدأ عباده باهدى ولا بالتقوى، قبل أن يصيروا إلى هدى أو تقوى، خلافاً لقوله، ورداً لتزييله، وإبطالاً لنعمه، وهو يقول جل ثناؤه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٠]. يأمرهم بالتقوى إذ^(١) كانوا لها مستطيعين، فلو لم يكن لهم عليها استطاعة لما أمرهم بها، ولو كانت استطاعة لغيرها لم يجز أن يقول: ﴿آتَقُوا مَا آلَهُ اسْتَطَعْتُمْ﴾، إذ كانت الإستطاعة لغير التقوى. وقال جل ثناؤه: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ [الأعراف: ١٧١]. ﴿يَلِيحَيُّ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢]. فقد أمرهم أن يأخذوا لأن الأخذ فعلهم، والأمر والقوة فعل ربهم، فلم يأمرهم جل ثناؤه أن يأخذوا، حتى قواهم على ذلك قبل أن يأخذوا.

وكذلك قال في الصيام: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ﴾ [البقرة: ١٨٤]. يعني: على الذين يطيقون الصيام ولا يصومون فدية، ونحو ذلك مما في القرآن. وذلك كله دليل على أن القوة قبل الفعل، إذ كان الفعل لا يكون إلا بالقوة، وكلما كان بشيء يكون، أو به يقوم، فالذي يكون الشيء أو يقوم به فهو قبله، كذلك الأشياء كلها بالله جل ثناؤه كانت وبه قامت، وهو قبلها. فكذلك القوة فينا قبل فعلنا، إذ كان فعلنا لا يكون ولا يقوم ولا يتم إلا بها، وكذلك يقول الناس: بقوة الله فعلنا. لا كما تقول القدرية المشبهون: إن الله جل ثناؤه لم يبتدئ العباد بالقوة! فأنعم عليهم بها قبل فعلهم! ولكنها كانت منه مع فعلهم.

ففيما وضعناه دليل وبرهان، أن القوة من الله جل ثناؤه في عباده قبل فعلهم، إذ كان بطاعته لهم أمراً، وعن معصيته لهم ناهياً، نعمة أنعم بها الله عليهم، وأحسن بها

(١) في (ب) و (د): إذا.

إليهم. والقوة عندنا على الأعمال هي الصحة والسلامة من الآفات في النفس والجوارح، وكل ما يوصل^(١) به إلى الأفاعيل، إذ كانت الصحة والسلامة تثبت الفرض، وإذا زالت زال الفرض، ذلك موجود في العقول، وفي أحكام الله جل ثناؤه، وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وفي إجماع الأمة. لا يعرفون غير ذلك، ولا يدينون إلا بذلك.

فليتق الله عبده، وليعلم أن الله جل ذكره يتدبّر العباد بالنعم والبيان، ولا يتدبّرهم بالضلال والطغيان، صدّق ذلك قوله لا شريك له: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٨]. وقال جل ثناؤه: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٢].

(١) في (أ) و (ج): يوصف. تصحيف.

[المعاصي فعل الإنسان وتزيين الشيطان]

فمن أحسن فليحمد الله جل ثناؤه، إذ أمره بالخير وأعانه عليه، ومن أساء فليذم نفسه فهي أولى بالذم، ^(١) وليضف المعصية ^(٢) إذ كانت منه إلى نفسه الأمانة بالسوء، وإلى الشيطان إذ كان بها آمراً ولها مزيئاً، كما أضافها الله جل ثناؤه إليه، ^(٣) وأضافها الأنبياء صلوات الله عليهم والصالحون حين عصوا الله إلى أنفسهم، قال آدم وحواء صلوات الله عليهما حين عصيا في أكل الشجرة: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]. فأخبر سبحانه أن الشيطان دلاًهما بغرور، ثم حذر أولادهما من بعدهما إغداراً إليهم، وتفضلاً عليهم، فقال: ﴿يَلْبِسْ عَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧].

وقال موسى صلوات الله عليه حين قتل النفس: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [النقص: ١٥]. وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي

(١) روي أن الحاج بن يوسف كتب إلى أربعة من العلماء وهم: الحسن بن أبي الحسن البصري، وواصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، وعامر الشعبي رحمهم الله يسألهم عن القضاء والقدر يعني بمعنى الخلق لأفعال العباد؟

فأجابه أحدهم: لا أعرف فيه إلا ما قاله أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه وهو قوله عليه السلام: (أتظن أن الذي هناك دهاك، إنما دهاك أسفلك وأعلأك، وربك بري من ذاك).

وأجابه الثاني فقال: لا أعرف فيه إلا ما قاله أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب رضي الله عنه وهو قوله عليه السلام: (أتظن أن الذي فسح لك الطريق، لزم عليك المضيق).

وأجابه الثالث فقال: لا أعرف إلا ما قاله علي عليه السلام وهو قوله كرم الله وجهه: (إذا كانت المعصية حتماً، كانت العقوبة ظلاماً).

وأجابه الرابع فقال: لا أعرف فيه إلا ما قاله علي عليه السلام وهو قوله كرم الله وجهه: (ما حمدت الله عليه فهو منه، وما استغفرت الله منه فهو منك). فلما بلغ ذلك الحاج بن يوسف قال: قاتلهم الله لقد أخذوها من عين صافية. يتابع النصيحة/ ١٥٧ ١٥٨.

(٢) في (أ) و (ج): إن. وفي (ب): إذا. تصحيف.

(٣) أي إلى الشيطان.

فَعَفَّرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَفْوَورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ [القصص: ١٦].

وقال يونس صلوات الله عليه وهو في بطن الحوت تائباً من ظلمه لنفسه، ومقرأً بذنبه: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٢]. وقال غيرهم من الأنبياء صلوات الله عليهم نحو ذلك، وقال الصالحون نحو ذلك عند زلتهم. فنقول كما قال أنبياءه ورسله صلوات الله عليهم، وكما قال الصالحون من عباده، فنضيف المعاصي إلى أنفسنا، وإلى الشيطان عدونا، كما أمرنا ربنا، ولا نقول كما قال القديرون المفترون: أن الله جل ثناؤه قدّر المعاصي على عباده، ليعملوا بها وأدخلهم فيها، وأرادها منهم وقلّبتهم فيها كما تقلب الحجارة، وشاءها لهم وقضاها عليهم حتماً، لا يقدرّون على تركها. وأنه في قولهم يغضب مما قضى، ويستخط مما أراد، ويعيب ما قدّر، ويعذب طفلاً بجرم والده، وأنه يحمد العباد ويذمهم بما لم يفعلوا، ويجزيهم بما صنع بهم، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً^(١).

هذا مع زعمهم أن أفعال العباد كلها طاعتها ومعصيتها صنعه وخلقه، هو تولى خلقها وإحداثها، خلافاً لقول الله تعالى: ﴿جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الواقعة: ٢٤]. ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزحرف: ٦١]. وقوله لأهل المعاصي: ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٢]. و﴿سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ٩، المجادلة: ١٥، المنافقون: ٢]. و﴿أَنْتُمْ تُخْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦، التحريم: ٧]. فكفروا بالله كفراً لم يكفر به أحد من العالمين، لعظيم فريتهم على ربهم جل ثناؤه، ورميهم إياه بجميع جرمهم، تعالى الله عن إفكهم علواً كبيراً! وتقدس وجل ثناؤه!! أليس في كتابه، وفي حجة عقول خلقه، عدله عليهم وإحسانه، وبرأته من ظلمهم؟! إذ قال جل ثناؤه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

فوالله لو لم يترل على عباده إلا هذه الآية في عدله لكان فيها البيان والنور، وهي

(١) سقط من (ب): ويجزيهم بما صنع بهم تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً هذا.

آية محكمة مجملة^(١) تأتي على جميع الأمر بالطاعة، والنهي عن المعصية.

وفي أمر الله جل ثناؤه عباده بالطاعة، دليل لمن كان له عقل أن الله جل ثناؤه أرادها وشاءها وأحبها، إذ كان بها أمراً وعليها حامداً، ولأهلها موالياً، ولهم ميثباً. وفي نهي عن المعصية دليل أنه لم يردها ولم يشأها ولم يحبها، إذ كان عنها ناهياً، وعليها ذاماً، ومن أهلها بريئاً، ولهم معاقباً.

فلا هو أرادها جل ثناؤه، ولا هو عز وجل غصبي مغلوباً، ولكنه الحليم تأتي بخلقه وأمهله وحلم عنهم، ولم يعجل عليهم بالانتقام منهم، ليرجعوا فيتوبوا، فاغثروا بحلمه عنهم، حتى افتروا عليه، فزعموا أنه أمر بما لا يريد، ونهى عما يريد، وأن رسله صلوات الله عليهم خالفوه فيما أراد،^(٢) وأن إبليس عليه غضب الله وافقه فيما أراد. وذلك أنهم زعموا أنه أراد الكفر من كثير من عباده، وأرسل إليهم رسله يدعوهم إلى الإيمان وهو خلاف ما أراد من الكفر، وأن إبليس دعاهم إلى الكفر وهو ما أراد منهم، فكان إبليس في قولهم - لله جل ثناؤه فيما أراد - موافقاً،^(٣) وكان رسول الله صلى

(١) أي: عامة.

(٢) في (ب) و (د): أردوا. والصحيح ما أثبت: وإنما تصحفت.

(٣) عن الحسن: إذا كان يوم القيامة دعي إبليس وقيل له: ما حملك أن لا تسجد لآدم؟! فيقول: يا رب أنت حلت بي بيني وبين ذلك! فيقول: كذبت. فيقول: إن لي شهوداً. فينادي أين القدرية؟ شهود إبليس، وخصماء الرحمن، فيقوم طوائف من هذه الأمة، فيخرج من أفواههم دخان أسود، فتطبق وجوههم، فتسود لذلك، وذلك قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وَجُوهَهُمْ مَسْوَدَةٌ﴾. رواه أبو طالب في شرح البالغ المدرك/ ١٠٠، والأمير الحسين في ينابيع النصيحة/ ١٦٣.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: إذا كان يوم القيامة أمر الله منادياً ينادي أين خصماء الله؟ فيقومون مسودّة وجوههم، مزرقة عيونهم، مائلا شفاههم، يسيل لعابهم، يقذرهم من رآهم، فيقولون: والله يا ربنا ما عبدنا من دونك شمساً ولا قمراً ولا حجراً ولا وثناً. قال ابن عباس رضي الله عنهما: لقد أتاهم الشرك من حيث لا يعلمون، ثم تلا ابن عباس ﴿يَوْمَ يَبْعَثُ اللَّهُ جَمِيعاً﴾ فيحلفون له كما يحلفون لكم، ويحسبون أنهم على شيء ألا أنهم هم الكاذبون. هم والله القديرون. ثلاث مرات. الدر المنثور ٦٨٦/٧.

وعن ابن عمر: إذا كان يوم القيامة نادى مناد أين خصماء الله عز وجل؟ فتقوم القدرية. أخرجه أبو القاسم الجرجاني في تاريخه ٣٣٦/١ (٦١٨)، والدارقطني في العلل ٧٠/٢ (١٥٠)، وابن الجوزي في

الله عليه فيما أراد من ذلك مخالفاً، (تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً)^(١).

[الطاعة والمعصية فعل العبد]

والدليل على أن ما فعلوا من طاعة الله ومعصيته فعلهم، وأن الله جل ثناؤه لم يخلق ذلك، إقبال الله تبارك وتعالى عليهم بالموعظة، والمدح والذم والمخاطبة، والوعد والوعيد، وهو قوله جل ثناؤه: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الانشقاق: ٢٠]. وقوله: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النساء: ٣٩]. ولو كان هو الفاعل لأفعالهم الخالق لها، لم يخاطبهم ولم يعظهم، ولم يلمهم على ما كان منهم من تقصير، ولم يمدحهم على ما كان منهم من جميل وحسن، كما لم يخاطب المرضى فيقول: لم

للمتاهية ٢١٩/١، والجويني في جنة المراتب ٤٢/١.

ولله در القائل:

المحبرون يجادلون بباطل وخلاف ما يجدون في القرآن
كل مقالته الإله أظلي وأراد ما قد كان عنه هائي
أيقول ربك للخلائق أسلموا جهداً ويجرهم على العصيان
إن صح ذا فتعوذوا من ربكم وذروا تعوذكم من الشيطان

ولمزيد من الإطلاع على العلاقة الوثيقة بين القدرية المخرجة وبين زعيمهم الشيطان الرجيم يرجع إلى كتاب رسالة إبليس إلى إخوانه المناجيس للحاكم الجسمي البيهقي وهو مطبوع متداول. وأخرج السمان في أماليه عن الحسن: قدم رجل من فارس على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: رأيتهم ينكحون أمهاتهم وبناتهم وأخواتهم!! فإذا قيل: لم تفعلون؟! قالوا: قضاء الله وقدره. فقال صلى الله عليه وآله وسلم: أما إنه سيكون قوم من أمي يقولون مثل ذلك. ورواه الأمير الحسين في ينابيع النصيحة/١٦٤، والزمخشري في الفائق.

ولقد أبطل مذهبه الإمام الهادي حفيد الإمام القاسم عليهما السلام بكلمتين وذلك عندما سأله السنقي: ما تقول يا سيدنا في المعاصي؟ فقال الإمام: ومن العاصي؟ فسكت فلامه أصحابه. فقال: ويحكم إن قلت: الله، كفرت. وإن قلت: العبد، تركت مذهبي. ثم تاب وتابع الإمام الهادي عليه السلام.

(١) سقط ما بين القوسين من (أ) و (ج): سهواً.

مرضتم؟ ولم يخاطبهم على خلقهم فيقول: لِمَ طُلْتُمْ؟ وَلِمَ قَصُرْتُمْ؟ وكما لم يمدح ويحمد الشمس والقمر والنجوم والرياح والسحاب في مجراهن ومسيرهن. وإنما لم يمدحهن، ويحمدهن لأنه جل ثناؤه هو الفاعل ذلك بهن، وهو مصرفهن ومجريهن وهو منشؤه. وكان في ذلك دليل أنه لم يخاطب هؤلاء وخاطب الآخرين،^(١) فعلمنا أنه خاطب من يغفل، ويفهم ويكسب، وإنما خاطبهم إذ هم مخيرون، وترك مخاطبة الآخرين إذ هم غير مخيرين ولا مختارين، فهذه الحجة، وهذا الدليل على فعله من فعل خلقه.

والدليل على أن المعاصي ليست بقضائه ولا بقدره، ما أنزل في كتابه من ذكر قضائه بالحق، وأمره بالعدل، وتعبده عبادة بالرضى بقضائه وقدره، وإجماع الأمة كلها على أن جميع المعاصي والفواحش جورٌ وباطل وظلم، وأن الله جل ثناؤه لم يقض الجور والباطل، ولم يكن منه الظلم، وأنهم مُسَلِّمون لقضاء الله، منقادون لأمر الله، فإذا نزلت بهم الحوادث من الأسقام والموت والجذب والمصائب من الله جل ثناؤه، قالوا هذا بقضاء الله، رضينا وسلمنا، ولا يسخطه منهم أحد، ولا ينكره منكر، وإن سخطه منهم ساخط، كان عندهم من الكافرين، وإذا ظهرت منهم الفواحش وانتهكت فيهم المحارم، كانوا لها كارهين، وعلى أهلها ساخطين، ولهم معاقبين، يتبرأون منهم ويلعنونهم، ويذمونهم وأعمالهم. ففي ذلك دليل أن ذلك ليس فعله. وقضاء الله لا يكون جوراً ولا فاحشاً، ولا قبيحاً ولا باطلاً ولا ظلماً، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. وقد وصفنا حجج الله في عدله، وما بين من ذلك لخلق.

[شبه القدرية]

فإن اعتلت القدرية السفهاء ببعض الآيات المتشابهات، نحو قوله جل ثناؤه: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النحل: ٩٣، فاطر: ٨]. وقوله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]. ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥]. ونحو ذلك من متشابه الآيات، وتأولوها على غير تأويلها، فإن كَسَرَ مقاتلهم يسير، والحجة عليهم

(١) يعني: الشمس والقمر... الخ.

بينه. وذلك أن الله عز وجل أخبر أن الشيطان وجنوده من الجن والإنس يضلون، وإنما^(١) إضلالهم للعبد إنما هو من طريق الصد عن الطاعة، بالغرور والكذب والخداع والتزيين للقبيح الذي قبحه الله، والتقبيح لما زين الله وحسنه، فذلك معنى إضلال الشيطان وأوليائه. والله جل ثناؤه يضل لا من طريق أولئك، لأنه تعالى عن الكذب والصد، وإنما معنى إضلاله جل ثناؤه للعباد الذين يضلون عن سبيله، عند كثير من أهل العلم: التسمية لهم بالضلالة، والشهادة عليهم بها. كما يقال: فلان كَفَرُ فلاناً، وفلان عدلُ فلاناً، وفلان جورُ فلاناً. يريدون: أنه سماه بذلك، لما هو عليه من ذلك، فكذلك يقال أضلَّ الله الفاسقين، وطبع على قلوب الكافرين، معنى ذلك عند كثير من أهل العلم: أنه شهد عليهم بسوء أفعالهم، ونسبهم إلى أفعالهم، مسمىً لهم بذلك، وحاكماً عليهم به كذلك، لما كان منهم، فذلك تأويل الآيات المتشابهات في هذا المعنى، عند من وصفنا من أهل العلم.

فعلى العبد أن يتقي الله، وينظر لنفسه، وأن لا يقبل ما تأولته القدرية المجبرة، مما لا يجوز على الله جل ثناؤه في الشاء، وأدنى ما عليه أن يحسن الظن بربه، ويأمنه على نفسه ودمه، ويعلم أنه أنظرُ له من جميع خلقه، وليرجع إلى المحكمات من الآيات، التي وصف الله جل ثناؤه فيها نفسه - جل وجهه - بالعدل والإحسان، والرحمة بخلقه، والغنى عنهم، والأمر بالطاعة، والنهي عن المعصية، فيعمل بتلك الآيات ويكون عليها، ويؤمن بالمتشابهات، ولا يظن أنها وإن جهل تأويلها وحُرِّفت عن تفسيرها أنها تنقض المحكمات، فإن كتاب الله (لا ينقض بعضه بعضاً، ولا يخالف بعضه بعضاً، وقد قال)^(٢) الله عز وجل: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]. فنفي أن يكون في كتابه اختلاف.

فليتق الله عبداً ولنظر لنفسه، وليحذر هذه الطائفة من القدرية والمجبرة، فإنهم كفار بالله، لا كفر أعظم من كفرهم، لما وصفنا من فريتهم على الله جل ثناؤه، في كتابنا هذا. لأنهم شهدوا لجميع الكفار أن الله أدخلهم في الكفر شاعوا أو أبوا، فشهدوا

(١) في (ب) و (د): وإنما.

(٢) سقط ما في القوسين من (أ) و (ج): سنهوا.

للفساق وجميع العصاة، أنهم إنما أثوا في ذلك كله من ربهم، ولذلك^(١) (هم مجوس هذه الأمة)^(٢).

[المرجئة]

وليحذر العبد أيضاً هذه الطائفة من المرجئة فإن قولهم من شر قول وأخبطه، وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (صنفان من أمتي لعنوا على لسان سبعين نبياً القدرية والمرجئة، قيل: من القدرية والمرجئة يا رسول الله؟ فقال: أما

(١) في (ب) و (د): ولذلك.

(٢) وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، من طريق عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس، أنه قيل له: قد تُكَلِّمُ في القدر، فقال: أوفعلوها؟ والله ما نزلت هذه الآية إلا فيهم: ﴿ذوقوا مس سقر، إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾ أولئك أشرار هذه الأمة، فلا تعودوا مرضاهم ولا تصلوا على موتاهم، إن رأيت أحداً منهم فقأت عينيه بأصبعي هاتين. الدر المنثور ٦٨٣/٧.

وأخرج ابن عساكر من طريق البخاري بن عبيد، عن أبيه، عن أبي هريرة، قال: "قال رجل يا رسول الله: ما العاديات ضبيحا؟ فأعرض عنه ثم رجع إليه من الغد فقال: ما الموريات قدحا؟ فأعرض عنه، ثم رجع إليه الثالثة فقال: ما المغيرات صبحا؟ فرفع العمامة والقلنسوة عن رأسه. محضرته فوجده مقرعا رأسه فقال: لو وجدتك حالقا رأسك لوضعت الذي فيه عينك. ففرغ المأ من قوله، فقالوا يا نبي الله ولم؟ قال: إنه سيكون أناس من أمتي يضربون القرآن بعضه ببعض ليبطلوه، ويتبعون ما تشابه ويزعمون أن لهم في أمر ربهم سيلا، ولكل دين مجوس، وهم مجوس أمتي وكلاب النار" فكانه يقول: هم القدرية. الدر المنثور ٦٠٤/٦.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: القدرية مجوس هذه الأمة إن مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم. الحاكم في المستدرک ١٥٩/١ (٢٨٦)، وأبو داود ٢٢٢/٤ (٤٦٩١)، والبيهقي ١٠/٢٠٣ (٢٠٠٥٨)، والطبراني في مسند الشاميين ٣٢٢/١ (٥٦٦)، وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٧/٥٢ (٢٩٦)، وابن عدي في الضعفاء ١٣٧/٢ (٣٣٦)، ٢١١/٣ (٧٠٩)، وفي الكامل ٣١٣/٦ (١٧٩٩)، والخطيب في تاريخه ١١٣/١٤ (٧٤٥٣)، ورواه ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث/٧٧.

وبلفظ: القدرية مجوس أمتي. البخاري في التاريخ الكبير ٣٤١/١٢ (٢٦٨١)، والصغير ٢٧١/٢ (٢٥٦٧)، وابن حجر في اللسان ٣٣٢/٢ (١٣٦٥)، ٨٥/٤ (١١٥)، ٢٢٢/٦ (٧٨٤)، ٢٥٦/ (٩٠٣)، وابن عدي في الضعفاء ٢٠٧/٢ (٣٩٤)، والكامل ٧٧/٧ (١٩٩٩)، والعقيلي في الضعفاء ٣/٩٨ (١٠٧٢)، والدارقطني في العلل ٢٨٩/٨ (١٥٧٦)، ورواه الخطيب في الكفاية في علم الرواية/١٢٠، وذكره ابن الأثير في النهاية ٢٢٩/٤.

القدرية فالذين يعملون بالمعاصي ويقولون: هي من عند الله وهو قَدَّرها علينا، وأما المرجئة فهم الذين يقولون: الإيمان قولٌ بلا عمل^(١).

فهذان قولان فيهما ذهاب الإسلام كله، ووقوع كل معصية، وذلك أن القدرية زعمت أن الله جل ثناؤه أدخل العباد في المعاصي، وحملهم عليها وقدرها عليهم وخلقها فيهم، فهم لا يمتنعون منها ولا يستطيعون تركها.

وأما المرجئة فرخصوا في المعاصي وأطمعوا أهلها في الجنة بلا رجوع ولا توبة، وشككوا الخلق في وعيد الله، وزعموا أن كل من ركب كبيرةً من معاصي الله فهو

(١) قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ما بعث الله نبياً قط إلا وفي أمته قدرية ومرجئة يشوشون عليه أمر أمته، وإن الله قد لعن القدرية والمرجئة على لسان سبعين نبياً.

أخرجه الطبراني في مسند الساميين ٢٢٤/١ (٤٠٠)، وفي المعجم الكبير ١١٧/٢٠ (٢٣٢)، وابن حجر في لسان الميزان ٣٨١/٤ (١١٤٦)، ٢٧٦/٦ (٩٦٩)، وابن عدي في الكامل ٢٢٨/٦ (١٧٧٣)، وابن حبان في المجروحين ٣٦٢/١ (٤٧٨)، والخطيب البغدادي في تاريخه ٣١٩/١٤ (٧٦٣٩)، وأبو القاسم الجرجاني في تاريخه بلفظ قريب موقوف على ابن عمر ٣٣٦/١ (٦١٨)، وغيرهم كثير. وأخرجه بلفظ: صنفان من أمتي لا تنالهم شفاعتي القدرية والمرجئة قلت يا رسول الله ما المرجئة؟ قال: قوم يزعمون أن الإيمان قول بلا عمل. ابن حبان في المجروحين ٣٣٦/١ (٤٢٣)، ١١٢/٢ (٦٩٠)، وابن فلاتة في الوضع في الحديث ٢٥٧/١، والكناني في التنزيه ٣١١/١، والجويني في جنة المراتب ١/٤٧. وغيرهم.

وبلفظ: صنفان من أمتي ليس لهما في الإسلام نصيب.

الترمذي في السنن ٤٥٤/٤ (٢١٤٩)، وابن ماجه ٢٤/١ (٦٢)، ٢٨/١ (٧٣)، والطبراني في الكبير ٨/٢٨١ (٨٠٧٩)، ٢٦٢/١١ (١١٦٨٢)، والأوسط ٣٧٢/٢ (١٦٤٨)، وعبد بن حميد في المنتخب ٢٠١ (٥٧٩)، والمزي في تهذيب الكمال ١٠٤/١٦ (٣٥٥٣)، ١٥٥/٢١ (٤١٤٣)، ورواه ابن حجر في تهذيب التهذيب ٢٥١/٤ (٥٠٣)، والذهبي في التذكرة ١٢٠/٣ (١٠٣٢)، وابن عدي في الكامل ٢٨٨/١ (١٢٦)، وابن معين في تاريخه ٣٨٥/٤ (٤٩٠٦)، وابن حبان في المجروحين ٣٣٦/١ (٤٢٣)، والعقيلي في الضعفاء ١٢٣/٢ (٢٠٦)، والبغدادي في تاريخه ٣٦٧/٥ (٢٨٩٣)، والجرجاني في تاريخه ٥٠٢/١ (١٠٢٠)، والدارقطني في العلل ٢٨١/١ (٧٢)، وابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث ٧٧، والبخاري في الكبير ١٣٣/٤ (٢٢٢٣).

مؤمن كامل الإيمان عند الله، بعد أن يكون مقرأً بالتوحيد،^(١) وأن جميع أعمال المؤمنين من الصلاة والزكاة والصيام والحج وغير ذلك ليس من الإيمان، ولا من دين الله، مع أشياء كثيرة تقبح من قولهم، فكان في قولهم انتهاك حرمان الله سبحانه، وتعدي حدوده، وقتل أوليائه، وخفر ذمته، واستخفاف بحقه، والنساذ في أرضه، والعمل بالظلم في عبادته وبلاده، فهذان قولان مما أهلك العباد والبلادَ بهما، فنعوذ بالله منهما، ونبرأ إلى الله من أهلهما، ونسأله فرجاً عاجلاً، إنه قريب مجيب.

[فرائض الله ونواهيه]

فإذا أقرَّ العبد بما وصفنا من توحيد الله وعدله وعرفه، فعليه بعد ذلك أن يؤدي ما افترض الله عليه^(٢) من الصلاة والزكاة والصوم والحج، إذا كان كذلك مطيقاً، والجهاد في سبيله لجميع أعدائه من الكافرين والفاسقين، إذا أمكنه ذلك واحتيج فيه إليه، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إذا لزمه ذلك بنفسه، ومع غيره إذا أمكنه ذلك، ويؤدي ما

(١) أخرجه الخطيب عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (شفاعتي لأهل الذنوب من أمتي)، قال أبو الدرداء: وإن زنى وإن سرق!! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: نعم، وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبي الدرداء!!! تاريخ بغداد ٤١٦/١. وأخرج البخاري عنه صلى الله عليه وآله: (أسعد الناس شفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله، خالصاً من قلبه) ١٩٣/١. وأخرج البخاري أيضاً: (وشفاعتي لمن شهد أن لا إله إلا الله مخلصاً يصدق قلبه لسانه، ولسانه قلبه) ٣٠٧/٢، وأخرجه أحمد ٥١٨/٢، والبخاري في التاريخ الكبير ١١١/٤، وابن حبان في الموارد ٦٤٥، والحاكم ٧٠/١. وأخرج أحمد ٢٨/٦ في آخر حديث (فأنا أشهدكم أن شفاعتي لمن لا يشرك بالله من أمتي). وأخرجه الترمذي ٤٧/٤، والطيالسي ٢٢٩/٢، وابن خزيمة ٢٦٤، ٢٦٥، وغيرهم. وأخرج ابن ماجة في آخر حديث عن الشفاعة قال: (هي لكل مسلم) السنن ١٤٤٤/٢، والآجري في الشريعة ٣٤٣، والحاكم ١٤/١. وفي لفظ للحاكم ٦٧/١ (هي لمن مات لا يشرك بالله شيئاً) وأحمد ٢٣٢/٥. ورووا عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: (شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي). أخرجه أحمد ٢١٣/٣، وأبو داود ١٠٦/٥، والبخاري في التاريخ الكبير ١٢٦/٢، وابن خزيمة ٢٧١، والحاكم ٦٩/١.

(٢) في (ب) و (د): يؤدي إلى الله ما افترض من....

افترض الله جل ثناؤه عليه من شرائع دينه.

وعليه أن يتجنب ما نهى الله عنه من معاصيه كلها من الكفر كله، وقتل النفس التي -حرم الله بغير الحق، وأخذ أموال الناس مسلميهم ومعهديهم بغير حقها، والظلم لهم، والعدوان عليهم، وأكل أموال اليتامى ظلماً، وأكل الربا، والسرقه، والزنا، وقذف الحصنات والمحصنين، وشرّب الخمر، وإتيان الذكران من العالمين، والفرار من الزحف في المواطن التي لا ينبغي له الفرار فيها، إذا كان في ذلك اصطلام^(١) المسلمين، وهلاكهم، وعقوق الوالدين المسلمين، وإن كانا عاصيين صاحبهما^(٢) معروفًا، وكل معصية يعلمها الله بمعصية، وكل ما عليه أن يعلم أنه لله معصية فلا يعملها ولا يقربه، فإن الله تبارك وتعالى قد نهى عن الذنوب كلها، كبيرها وصغيرها، كبيرها فيه الوعيد، وصغيرها هو موهوب لمن اجتنب الكبير، وذلك قول الله: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

فليتق الله عبداً ولا يقدم على معصية ربه وهو يعلمها، ولا يعتقدها متأولاً ولا متديناً بها،^(٣) وقد جعل الله له السبيل إلى معرفتها وتركها، وليكن أبداً متحرزاً متحفظاً، وبأمر ربه متيقظاً، فإن الله عز وجل وصف المتقين، من عباده المؤمنين، فقال جل ثناؤه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]. ولم يقل فإذا هم مصرون، ثم أخبر تبارك وتعالى عن إخوان الشيطان فقال جل ثناؤه: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٢]. فالمؤمن أبداً متيقظ متحفظ، راجٍ خائف، يرجو الله لما هو عليه من الإحسان، ولما يكون منه من ذلك رجاء لا قنوط فيه، ويخافه على الإساءة الموبقة إن فعلها خوفاً لا طمع فيه، إلا بتوبة منها، فالخوف والرجاء لا يفارقانه، بذلك وصف الله جل ثناؤه المؤمنين من عباده، فقال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ

(١) الاصطلام: الاستئصال.

(٢) في (أ)، (ج): صاحبهما.

(٣) سقط من (ب): بها.

وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴿[الإسراء: ٥٧]﴾. وهكذا صفة المؤمنين، وليس أحد يقدر أن يؤدي كلما استحق الله جل ثناؤه من عباده من شكر نعمه، وإحسانه بالكمال والتمام حتى لا يُبقي مما يحق له جل ثناؤه عليه شيئاً إلا أداه. هيهات!! فكيف وهو يقول تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤، النحل: ١٨]. فكيف يؤدي شكر ما لا يحصى؟! ولم يفترض جل ثناؤه على خلقه ذلك، ولا يسأل كلما له عليهم، مما يستحق لديهم، لعلمه بضعفهم، وأن في بغض ذلك استفراغ جهدهم، وما تعجز عنه أنفسهم، وأنهم لا يقدرُونَ على ذلك، ويقصرون عن بلوغ ذلك، فتبارك الله جل ثناؤه عن الاستقصاء عليهم. ولم يسألهم كل ماله عليهم، وغفر لهم صغير ذنوبهم كله، إذا اجتنبوا كبيره، رحمة بهم ونظراً لهم.

فأما من رجا الرحمة وهو مقيم على الكبيرة، فقد وضع الرجاء في غير موضعه، واغتر بربه، واستهزأ بنفسه، وخدعه وغرّه من لا دين له، إلا أن يتوب فيُغفر له بالتوبة.

فأما الإقامة على الكبائر فلا. بل قد وصف الله جل ثناؤه الراجين لرحمته، وكيف وضعوا الرجاء موضعه، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨]. فهكذا يكون الرجاء. وذلك أن الجنة والنار طريقان، فطريق الجنة طاعة الله المجردة من الكبائر من معاصي الله، وطريق النار معصية الله، وإن لم تكن مجردة من بعض طاعات الله، لأننا قد نجد العبد يؤمن بكتاب الله^(١)، ويكفر ببعضه فلا يكون مؤمناً، ولا بما آمن به منه من النار ناجياً، يصدق ذلك قول الله عز وجل: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥]. فلم يُسمُوا بما آمنوا به مؤمنين، بل سُمُوا بما كفروا به منه كُله كافرين.

وعلى هذه الطريق في من لم يكفر به من الفاسقين، أهل الكبائر العاصين، فمن

(١) في (أ) و (ب) و (د): بكتاب الله كله، ويكفر... لعلها زيادة من النسخ.

كان على المعصية الكبيرة مقيماً فهو على طريق النار. فكيف يرجو البلوغ إلى الجنة، وهو يسلك ذلك الطريق. كرجل توجه إلى طريق خراسان فسلكه وهو يقول أنا أرجو أن أبلغ الشام، وهو على طريق خراسان. وذلك ما لا يكون إلا أن يتحول^(١) طريق الشام. فهذا مثل من وضع الرجاء في غير موضعه.

فإن اعتل معتل بقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]. فأطمع من فعل فعلاً دون الشرك من الكبائر في المغفرة بهذه الآية.

قيل له: إن الله عز وجل قد قال في موضع آخر من كتابه، لنبه صلوات الله عليه وآله: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]. ففي هذه الآية إطماع لجميع المؤمنين والمشرئين وغيرهم، وليست تلك الآية بأوضح في الغفران^(٢) من هذه الآية، فيطمع للمشرئين فيها.

فإن قال قائل لا أطمع^(٣) للمشرئين لإجماع المسلمين، بطل الاعتلال بالآية. وقيل له: إن الأمة لم تجمع إلا من قبل خبر الله. وكذلك أثبتنا نحن وعيد الله على الفاسقين من قبل خبر الله بقوله: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [النساء: ١٤]. ونحو ذلك من الآيات. فكل من مات على معاصي الله مصراً غير تائب إلى الله، فهو من أهل وعيد الله وعقابه.

ومعنى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أنه يغفر للمجتنبين الصغير،^(٤) إذ أخرج الكبير من أن يكون مغفوراً بقوله: ﴿مَا

(١) في (ب): إلا يتحول طرق.

(٢) في (ب) و (د): في القرآن.

(٣) في (ب): فإن قال قائل لا أطمع لهم فيها بآية أخرى قيل له كذلك لا أطمع ولأهل الكبائر، كما لا يطمع الذين كفروا في آية أخرى. فإن قال لا أطمع للمشرئين. وكذلك في (د): إلا أنه قال للذين أشركوا الآية أخرى. والظاهر أن الزيادة زيادة سهو.

(٤) في (ب): للمجتنبين الكبائر وهو أيضاً دون الشرك وإن كان صغيراً، فوقع الاستثناء على ذلك الغير.

لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعَ يُطَاعُ ﴿[غافر: ١٨]﴾. وبغير ذلك من الوعيد، ويبين أنه يعد بالمغفرة الصغير قوله: ﴿أَنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخِلَآ كَرِيمًا﴾ ﴿[النساء: ٣١]﴾. وقد يُغفر الكبير لمن تاب منه، فيكون قوله: ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾. أي: لمن تاب من الكبائر.

[مِوَالَةِ الْمُؤْمِنِينَ]

وعلى العبد أن يوالي أولياء الله حيث كانوا وأين كانوا، أحياءهم وأمواتهم وذكرورهم وإنائهم. ويكون أحبهم إليه وأكرمهم عليه، أفضلهم عنده، وأتقاهم لربه، وأكثرهم طاعة له.

والمؤمنون هم الذين وصفهم الله جل ثناؤه في كتابه، وبين أحكامهم في سنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ﴿[الأنفال: ٢]﴾. وقال جل ثناؤه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِأَعْمَالِهِمْ لَفِئُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾﴾ ﴿[المؤمنون: ١-٥]﴾. فوصفهم بأعمالهم الصالحة حتى قال جل ثناؤه: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧﴾﴾ ﴿[المؤمنون: ١٠-١١]﴾. وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾﴾ ﴿[الحجرات: ١٥]﴾. فقد دخل في هذه الصفة كل طاعة، لأن الجهاد في سبيل الله يأتي على كل طاعة، فمن أطاع الله في أداء فرائضه، واجتناب محارمه، فهو مجاهد بنفسه لربه، في إتباع أمره، وترك هوى نفسه، فلا جهاد أفضل من مجاهدة النفس، ليردها من هواها فيما يريدها، ومن مجاهدة

الشیطان عدو الرحمن. فمن عمل ذلك فهو مؤمن، لأنّ الإيمان طاعة لله.

وللمؤمنین يقول الله جل ثناؤه: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ لَهُمْ مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٧]. وقال جل ثناؤه: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [٤٧]. ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣-٤٤]. فهذا ما وصفهم الله به في كتابه، وحكم لهم فيه، وفي سنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم. وبالولاية لهم ثبوت عدالتهم وشهادتهم، وحسن الظن بهم، والنصيحة لهم، والإحسان إليهم، والثناء عليهم.



[معاداة الكافرين]

وعلى العبد أن يعادي أعداء الله الكافرين، أين كانوا وحيث كانوا، أحياءهم وأمواتهم، وذكورهم وإناثهم، وقد وصفهم الله جل ثناؤه وبين أحكامهم كلهم، أهل الكتابين والمجوس والصابئين، وغيرهم من المشركين والملحدين، والمصرين والمرتدين والمنافقين، فأمر بقتل بعضهم، وترك قتل بعضهم، وأخذ الجزية، وترك نكاح نسائهم، وترك أكل ذبائحهم.

وأما - غيرهم من أهل الأديان، من العرب والعجم، والمرتدين عن الإسلام إلى هذه الأديان المنصوصات من الكفر، أو إلى الإلحاد، أو إلى صفة الله بالتشبيه له بخلقه، والإفتراء عليه بالتظليم له في عبادته، بأن كلفهم ما لا يطيقون، وعذب أطفالهم بما لا يكسبون، إذ خرجوا مما عليه الأمة مجتمعون من سنة نبيهم صلوات الله عليه وعلى آله، إذا أجمعوا أن الخارج منها كافر، فهؤلاء كلهم يستتابون من كفرهم - فإن تابوا وإلا قتلوا، لا يُقبل منهم غير ذلك، ولا تؤكل ذبائحهم، ولا تنكح نسائهم إن كن كفاراً، ويفرق بينهم وبين نسائهم إذا أسلمن، من حرائرهن وإمائهن، ولا يرثون، ويرث المؤمنون أموالهم.

هذا حكم المرتدين منهم، وبهذا حكم الله جل ثناؤه في جميع الكافرين، ما خلا من كان منهم له عهد من رسلهم، ودخل بأمان إلى المسلمين في دارهم، أو كان بينه وبينهم صلح وعقد، فهؤلاء يوفى لهم بعهدهم، ولا ينقض شيء من عهدهم.

[معاداة الفاسقين]

وعلى العبد أن يعادي أعداء الله الفاسقين، الذين أقروا ثم فسقوا، من كانوا وحيث كانوا، أحياءهم وأمواتهم، وذكورهم وإناثهم، الذي يسعون في الأرض فساداً، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل، ويركبون كبائر الإثم والفواحش، أولئك لهم اللعنة

ولهم سوء الدار، ولنلعنهم كما لعنهم الله^(١) ونترأ منهم، من كانوا وحيث كانوا، من قريب أو بعيد. وهكذا قال تبارك وتعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُقْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]. فكل من أتى كبيرة من الكبائر، أو ترك شيئاً من الفرائض المنصوصة، على الإستحلال لذلك فهو كافر مرتد، حكمه حكم المرتدين. ومن فعل شيئاً من ذلك إتباعاً لهواه، وإيثاراً لشهواته، كان فاسقاً فاجراً ما قام على خطيئته، فإن مات عليها غير تائب منها، كان من أهل النار، خالداً فيها وبئس المصير. يُبَيِّن ذلك قولُ الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ [١٣] وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الانفطار: ١٣-١٦]. ومن لم يَغِبْ من النار فليس منها بخارج، ومن لزمه الفسق والفجور من كان فهو من أهل النار، إلا أن يتوب، لقول الله جل ثناؤه: ﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٥]. وقوله: ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [١٧].

[الفاسق]

ومن أتى كبيرة فهو فاجر فاسق. يُبَيِّن ذلك قولُ الله جل ثناؤه: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٤]. وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٢٣]. فإذا كان قاذف المحصنة فاسقاً ملعوناً، فالزاني بالمحصنة أعظم جرماً، والسارق، وقاتل النفس، بغير الحق، وأكل أموال اليتامى ظلماً، وغير ذلك من كبائر الذنوب. وكذلك من فعل ذنباً من الكبائر فهو فاسق في إجماع الأمة.

(١) في (أ): الدار ولنلعنهم ونترأ منهم. وفي (ج): الدار، ويلعنهم الله ويتراً منهم.

والفاسق - لله جل ثناؤه - عدوٌّ، حكمُ الله فيه^(١) ما أنزل من حدوده. من قتله إذا قتل ظلماً، أو أفسد في الأرض بغياً، وقطع يده إذا كان سارقاً. وجلده إذا زنا، وإن زنا وهو محصن قتل بالحجارة رجماً، وإذا قذف المؤمنين والمؤمنات جلد الحدِّ، وغير ذلك^(٢) من النكال، لما يكون منه من الفعال، ﴿ذَلِكَ لَهُ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣].^(٣) مع ما نهى الله عز وجل عنه من ولايته، وأمر به من جرح عدالته، وإبطال شهادته، وسوء الظن به، والحجر عليه في ماله إذا أنفق في معاصي ربه، حتى يُؤنس رشدُه، وغير ذلك من الأحكام عليه، من سوء الثناء، وإلزامه القبيحة من الأسماء، فليس هو من المؤمنين في أسمائهم، ولا رضي أفعالهم، لمجانبة المؤمنين في أعمالهم وطيبهم. ولا من الكافرين ولا يسمى بأسمائهم،^(٤) لمخالفته الكافرين في جحدهم، وفريتهم على رهم، واستحلالهم لما حرم الله عليهم. ولا هو من المنافقين لاستمرار المنافقين الكفر في قلوبهم، ولكنه فاسق. ذلك اسمه، وعليه حكمه.

وقد بين الله جل ثناؤه أن الفاسق اسم من أسماء الذنوب، لقوله: ﴿يَتَسَّ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيْمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ٥]. ومن لم يتب من فسقه وظلمه، فهو من أهل النار ليس بخارج منها، ولكنه وإن كان في النار فليس عذابه كعذاب الكافر، بل الكافر أشد عذاباً.

فلا يغتر مغتر، ولا يتكل متكلاً، على قول من يقول - من الكاذبين على الله وعلى رسوله، صلوات الله عليه وعلى أهله - أن قوماً يخرجون من النار بعد ما يدخلوها، يعذبون بقدر ذنوبهم^(٥). هيهات ألبى الله جل ثناؤه ذلك!! وذلك أن الآخرة دار جزاء،

(١) سقط من (ب): فيه.

(٢) في (ب) و (د): الجلد. وفي جميع المخطوطات: وعير ذلك لما يكون من النكال. إلا أنه أشار في (أ) إلى زيادة (لما يكون)، وهو الوجه.

(٣) الآية هكذا ﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ...﴾ [المائدة: ٣٣].

(٤) في (أ) و (ج): وطيبهم. ولعلها مصحفة.

(٥) أخرج مسلم عن أبي سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أما أهل النار الذين هم أهلها، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ولكن أناس أصابتهم النار بذنوبهم أو قال: بخطاياهم فأما هم الله إمامة حتى إذا كانوا فحماً أذن بالشفاعة فجاء بهم ضباط فبثوا على أثمار الجنة، ثم قيل: يا أهل

والدنيا دار عمل وبلوى، فمن خرج من دار البلوى إلى دار الجزاء، على طاعة أو معصية، فهو صائر إلى ما أعد الله له خالداً فيها أبداً.

فإنَّ الله في أنفسكم بادرُوا وجدوا، وتوبوا قبل أن تحجبوا عن التوبة. ومع ذلك فإنَّ^(١) الأمة مجمعة على أن أهل الوعيد من أهل النار.

قال^(٢) بعض الناس: إنما عني بالوعيد المستحلين، وتواعد به المذنبين، ليزجرهم عن أعمال الفاسقين.

فقل لهم: أفيجوز على أحكم الحاكمين، أن يوعد بعقوبة الكافرين، من ليس منهم من المذنبين، وهو يعلم أنه لا يوقع بهم ذلك يوم الدين؟!!

فهل يكون من الكذب، والهزل من القول؟! إلا ما وصفهم به أرحم الراحمين، إذ كان يوعد قوماً بعقوبة قوم آخرين، لم يكونوا لمثل أعمالهم التي أوجب الله لهم العقوبة عليها عاملين.

وقال بعضهم: إن قوماً يخرجون من النار بعد ما يدخلونها.

فقل لهم إذا اجتمعتم أنتم وأهل الحق على الدخول، ثم خالفتموهم في الخروج، فالحق ما اجتمعتم عليه من الدخول، والباطل ما ادعيتموه - بلا إجماع ولا حجة - من الخروج. والأمة مجمعة على أن من أتى كبيرة، أو ترك طاعة فريضة كالصلاة والزكاة والصيام، من أهل الملة فهو فاسق. (فكلهم قد أقر^(٣) بأنه فاسق)^(٤) (وهي مختلفة في غير ذلك من أسمائه.

فقال بعضهم: هو مشرك فاسق منافق. وقال بعضهم: هو فاسق كافر.

الجنة أفيضوا عليهم، فينبئون نبات الجنة تكون في حميل السيل. أخرجه مسلم ١/١٧٢، وابن ماجة ٢/١٤٤١، وأحمد ٣/٧٨، وابن خزيمة ٢٧٣، ٢٨٠، والدارمي ٢/٣٣١، وأبو عوانة ١/١٨٦، وغيرهم.

(١) في (أ) و (ج): إن.

(٢) في (ب) و (د): فقال.

(٣) في (ب): أقرؤا.

(٤) سقط ما بين القوسين من (أ).

وقال بعضهم: فاسق منافق. فكلهم قد أقر بأنه فاسق^(١) واختلفوا في غير ذلك من أسمائه. فالحق ما أجمعوا عليه من تسميتهم إياه بالفسق، والباطل ما اختلفوا فيه. ففي إجماعهم الحجة والبرهان، نسأل الله التسديد والتوفيق، لما يحب ويرضى.

والأسماء في الدين والأحكام، عند ذي الجلال والإكرام، ليس لأحد من المخلوقين أن يضع اسماً وحكماً على أحد من العالمين، فيما هم به مأمورون وعنه منهون، فمن استحل شيئاً من ذلك برأيه، عن غير كتاب الله جل ثناؤه، وسنة رسوله الله صلى الله عليه وآله وسلم، فهو من الضالين إذ كان عند الله كبيراً. لأن الحكم في ذلك كله لرب العالمين، لقوله جل ثناؤه: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وعلى العبد أن يتجنب^(٢) الفاسقين، والمعونة لهم على فسقهم، والمجالسة لهم على لهوهم ومعاصيهم، وعليه أن يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، لأن على كل مؤمن إذا رأى منكراً مما يجوز أن يغيره هو، أن يغيره بكل ما يقدر عليه ويحل له، وإن كان مما لا يجوز أن يغيره (إلا لإجماع المؤمنين بالتعاون، فعليهم وعليه أن يغيروا)^(٣) بكل إمكانهم، بالسيف إن لم يجر إلا بالسيف، وبما دون السيف إذا اكتفى به، وأدى ذلك النهي باللسان. فإن لم يمكنه ذلك لتعبه لتخوفه^(٤) الهلاك أو تقيّة، فإنكار ذلك بالقلب، والعزم على التغيير إذا أمكن الأمر. ولا يُترك صاحب المنكر حتى يتوب منه، أو يقام فيه حكم رب العالمين، ويُدارى أهل المنكر، ويوعظون بأرق الوجوه، فإن أبوا إلا المقام على المنكر، فإن قدر على إزالتهم عنه فلا يُؤخر ذلك، وإن لم يُقدر على إزالتهم جوبوا بمجانبة جميلة، وقُطعت الولاية عنهم، ولا يُدعى لهم بخير حتى يتوبوا إلى ربهم، إنه ﴿يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الشورى: ٢٥].

(١) سقط ما بين القوسين من: (ج).

(٢) في (ب): يتقي.

(٣) سقط ما بين القوسين من (أ) و (ج).

(٤) في (ب) و (د): بخوفه.

[التوبة]

وعلى العبد أن يتقي الله في سر أمره وعلا نيته، ويستغفر الله ويتوب إلى الله من ذنوبه، فإنه يقبل التوبة عن عباده، بذلك وصف نفسه جل ثناؤه، فقال: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]. ثم دعا عباده إلى التوبة، ثم أخبرهم أنه يقبلها، فقال: ﴿أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠]. وقال: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

فمن تاب إلى الله قَبْلَ توبته، وإن كانت ذنوبه عدد الرمل، ^(١) وأكثر من ذلك، لأنه كريم، وهو بعباده رؤوف رحيم، يقبل التوبة ويقل العثرة، ويقبل المَعْدرة، ويغفر الخطيئة، إذا صحت من العبد التوبة. وقال جل ثناؤه: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [يونس: ٣١] يُضْعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا ﴿٣٢﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠]. ومن تاب من ذنبه، قَبْلَ اللَّهِ توبته وأحبه، كذلك قال جل ثناؤه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. يعني: المتطهرين من الذنوب. فمن أحبه الله لم يعذبه، وكان من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وكان من أهل الجنة لا شك فيه. وكذلك أخبر تبارك وتعالى عن ملائكته: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْحَجِيمِ﴾ [الأنعام: ٦١] رَبَّنَا وَادْخُلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ

(١) يشير إلى حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من قال أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه، ثلاثا غفر الله وإن كان عليه من الذنوب مثل رمل عالج. أخرجه محمد بن منصور المراتي في الذكر ٢٤٢ (٢٧٣)، والترمذي ٤٣٨/٥ (٣٣٩٧)، ورمل عالج هو: الصحراء الشرقية في الجزيرة العربية.

وَذَرَّيْتَهُمْ ﴿[غافر: ٧-٨]﴾. والله جل ثناؤه لا يخلف الميعاد.

[التوبة من حقوق الله]

فالتوبة لها وجوه وتفسير، فكل ذنب بين الله وبين عباده وإيمانه نحو الزنا، وشرب الخمر، وإتيان الذكران بعضهم بعضاً، وإتيان النساء بعضهن بعضاً، واستماع محارم اللغو واللغو والعكوف عليها، وقول الزور، وقذف أهل الإحصان من الرجال والنساء بالرفث والخناء والفجور، والكذب، والمرح، والخيلاء، والكبرياء، والرياء، والعجب، وعقوق الوالدين، وقطيعة الرحم، والنظر إلى ما لا يحل من العورات، وغيرها، والفرار من الزحف لا ينحرف إلى قتال ولا يتحيز إلى فئة، والكذب،^(١) والغيبة، والنميمة، وما أشبه ذلك من الذنوب، ومعادة أولياء الله، وموالات أعداء الله، فالتوبة من ذلك كله بالندم على ما مضى، والإستغفار بالقلب واللسان بلا إصرار، والعزم أن لا يعود إلى شيء من ذلك أبداً، قليلاً كان أو كثيراً.

[التوبة من حقوق المخلوقين]

وأحب إلينا أن ينظر إلى ما كان أذىً لمسلم أو معاهد، فيستحله ويعتذر إليه منه ويرضيه، وكل ذنب كان بين العبد وبين الناس مسلمهم ومعاهدهم، من سرقة، أو ربا في أموالهم، أو أخذ مال بغير حق في جناية، أو غضب، أو إدخال ضرر عليهم في الأبدان كالقتل، والجراحات كالضرب الشديد، (كان إذا قدر على ذلك وكان له مال)^(٢) فإن لم يكن مال جعله ديناً عليه، وعزم على أن يرده إلى أهله إذا قدر عليه، أو على ذريتهم إن كان أهله ماتوا. ويندم على أخذه وحبسه، ويستغفر الله، ويعطي من

(١) تكرر ذكر الكذب.

(٢) يعني: فيتحلل من كل ذلك حالاً إن كان له مال. وسقط من (أ) ما بين القوسين.

نفسه أن لا يعود إلى مثل ذلك أبداً، ولا تجزيه التوبة من الأخذ حتى يرد إذ^(١) كان حابساً، وإن استوهبه منهم ووهبوه له بطيبة أنفس^(٢) منهم، كان ذلك له^(٣) حلالاً، بعد الإقرار لهم على أجمل الوجوه. وإن صالحوه وأخذوا بعضاً وتركوا بعضاً، على غير اقتسار لهم كان ذلك جائزاً.

وإن لم يعرف أصحاب المال الذي أخذ منهم المال وأيس أن يعرفهم، أو يعرف ورثتهم، تصدق بمقدار ما أخذ منهم على المساكين، فإن جاءوا بعد ذلك إليه أخبرهم أنه قد تصدق بذلك عنهم، فإن رضوا لم يكن عليه شيء، وإن أرادوا حقهم رده عليهم، إذا قدر عليه، وكانت صدقته له. وإن كان محتاجاً إليه فأنفقه على نفسه، وجعله ديناً عليه لأهله، فإن تاب قبل القدرة على أدائه إليهم من غصبه المال، وإنفاقه إياه على نفسه، كانت توبته مقبولة عند الله جل ثناؤه، وكان المال له لازماً حتى يعينه الله على قضائه.

وإن كان الذي أخذ أموالهم غائباً في بعض البلدان، فلم يقدر على الخروج إليهم به لعله مرض، أو علة حائلة بينه وبين ذلك، أوصى أن يبعث به إليهم، لأن عليه أن يوصل إليهم حقوقهم حيث كانوا، ويستحلهم من أخذه وإنفاقه وغصبه، ثم لاشيء لهم عليه بعد ذلك. وتوبته مقبولة فيما بينه وبين الله جل ثناؤه.

وإن لم يكن يَدْرِ كم المال الذي أخذ من أموال الناس، متفرقهم ومجتمعهم ونسي، وكثر ذلك عليه، فليتحجر ما لكل واحد على قدر مبلغ علمه ورأيه، ويحتط لنفسه، ويزيد على نفسه حتى يكون الغالب عليه في حكمه^(٤) ورأيه، أن قد استغرق جميع حقوقهم، وأدى إليهم أموالهم وزاد، فإن النفقة له في ذلك. فإن زاد كان له أجره، وإن نقص قليلاً لم يضره، بعد أن يتعمد الوفاء. وذلك كله توبته إلى الله جل ثناؤه مما كان منه في ذلك، من أخذ وحبس عن أهله، وهو غنده بندم واستغفار، وعزم على أن لا

(١) في (ب) و (ج): إذا.

(٢) في (ب): بطيبة نفس منهم.

(٣) في (ب): كله.

(٤) في (ب) و (د): الغالب على علمه ورأيه.

يعود إلى مثل ذلك أبداً.

فإن كان صار إليه مال من ناحية ظالمٍ غاصب، وهو به عالم بسبب معونة له في ظلمه، ودخول معه في غضبه، وأخذ ذلك هبة منه، وهو يعلم أن ذلك ظلم وغصب لغيره، فالتوبة مما أخذ من ذلك أن يخرج من عنده، فيرده على أهله المغصوبين إياه، ولا يحل له أن يرد شيئاً من ذلك إلى الغاصب، لأنه ليس له.

وإن كان أنفق له وليس عنده شيء منه، كان ضامناً لرده - إذا أمكنه - على أهله، ويتوب إلى الله جل ثناؤه من إنفاقه.

وأما ما كان من الربا فالتوبة منه ما وصفنا من الندم والإستغفار،^(١) ويُخرج كل فضلٍ فوق رأس ماله، فيرده على ما وصفنا من رده على أهله إن عرفهم، وإلا فعلى ما وصفنا من رده، لكل ما لزمه رده.

[التوبة من القتل والجراحات]

وأما ما كان من قتل فلا توبة لقاتل المؤمن حتى يندم على القتل، ويستغفر الله منه، ويعزم على أن لا يعود إلى قتل أحد أبداً ظلماً، ويُمكن أولياء المقتول المؤمن من نفسه صابراً محتسباً، يقول لهم: إنه قتل صاحبهم ظلماً وعمداً وعدواناً. فإن فعل ذلك فهو تائب لا شيء عليه من إثم القتل، فإن قتلوه تائباً - بحق هو لهم - فلا تبعة لهم عليه، ولا للمقتول لديه حق، وإن عفوا عنه فلهم أن يعفوا عنه، لأن الحق بعد المقتول لأولياء المقتول. ويعوض الله جل ثناؤه المقتول إذا كان مؤمناً صابراً. ألم تسمع إلى قوله جل ذكره كيف يقول: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيٍّ سُلْطٰنًا﴾ [الإسراء: ٣٣]. فقد سلط الله جل ثناؤه أولياء المقتول على القاتل، إن شاءوا قتلوه، وإن شاءوا عفوا وأخذوا الدية.

وإن تاب فيما بينه وبين الله، ولم يُمكن أولياء المقتول من نفسه، لم يسعه ذلك ولم

(١) في (ب) و (د): والاستغفار منه.

تقبل توبته، فإن لم يعرف أولياء المقتول عزم القاتل على أن يُمكن من نفسه أولياء المقتول متى عرفهم. يصنعون به ما لهم عليه من القتل، أو الدية والعفو، ولا يدفع نفسه إلى سلطان، ولا إلى غيره، ولا يدفع نفسه إلا إلى أولياء المقتول.

وإن لم يتب إلى ربه جل ثناؤه، ويُمكن أولياء المقتول من نفسه، كان كما قال الله جل ثناؤه: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

وأما ما كان من جراحات سوى القتل، مما يجب فيه القصاص، فإنه يتوب إلى الله جل ثناؤه - منها بالندم عليها، والعزم على أن لا يعود، ويُمكن من نفسه - بعد التوبة إلى الله جل ثناؤه من فعله به، وإن اقتصر منه فلا شيء عليه، وإن عفا عنه فذلك إليه، وإن كانت جراحات قد برأ منها أصحابها، ولم يكن أمكنهم القصاص من نفسه، فلم يعلم مقدارها لبرء فلا قصاص عليه فيها، لأنه لا يعلم قدر ذلك، وعليه أرش الجراحات يقيمه عدل، يتوخى في ذلك الصواب، فيدفع ذلك إلى أصحاب الجراحات:

فإن لم يعرف أصحابها، دفع ذلك^(١) إلى ورثتهم الذين يقومون بذلك.

وإن كان لا يعرف أصحاب الحقوق، دفع ذلك القدر إلى المساكين، إذا قدر على ذلك.

وما كان من الجراحات مما لا قصاص فيه مما يكون فيه حكومة عدل، دفع إلى من صنع به ذلك إن كانوا أحياء، وإن كانوا أمواتاً دفع ذلك إلى ورثتهم، فإن لم يعرفهم ولا ورثتهم دفع ذلك إلى المساكين، إذا قدر على ذلك.

ويفعل في كفارة الخطأ كما أمره الله جل ثناؤه في كتابه، وكذلك في كفارة الظهار، فمن لم يقدر على شيء من ذلك، فالتوبة منه على ما أمر الله جل ثناؤه.

وأما ما كان من ضرب^(٢) مما لا يكون القصاص فيه، فالتوبة فيه والإستغفار والندم، وأن لا يعود إلى مثله أبداً، ويُرضي أصحابها إن عرفهم ويتحللهم.

(١) سقط من (ب) و (د): ذلك.

(٢) في (ب) و (د): من ضرب أو ظلم.

وأما ما كان من ظلم الناس نحو اغتياي وتجنس، أو سوء ظن بمؤمن، أو سعاية إلى ظالم، أو كذب عليه، فالتوبة إلى الله جل ثناؤه من ذلك، ويتحلل ذلك من أصحابه^(١) الذين فعل بهم، فإنه أحسن وأفضل، ويكون ذلك على أجل الوجوه. فإن لم يمكنه التحلل، ولم يفعله بعد أن يتوب إلى الله جل ثناؤه، رجونا أن لا يضره ذلك.

وكذلك إن أساء إلى ممالكه في تقصير في مطعم أو ملبس، مما لا يحل له أن يفعله بهم، أو عاقبهم عقوبة أسرف فيها، أو شتمهم بما لا يحل له، فليتب إلى الله جل ثناؤه من ذلك كله، وليتحلل من ممالكه.

وإن استدان رجل مالاً ينفقه على نفسه وعلى عياله، بالقصد^(٢) كما أمره الله جل ثناؤه، وكان عزمه أن يرده إذا أيسر، وأمكنه فمات قبل أن يؤديه، وليس له مال، ولم يترك وفاءً، فلا شيء عليه فيما بينه وبين الله جل ثناؤه وبين صاحب الدين، لأن الله العدل، الذي ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، و ﴿...إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ [الطلاق: ٦].

فإن أخذ ديناً ونسي أن ليس عليه لأحد شيء، فلا شيء عليه عندنا، إذا لم يكن نسيانه ذلك من تشاغله بمعصية ربه.

فإن أخذ ديناً فلم يرده إلى أصحابه، حتى ماتوا. فليؤده إلى ورثتهم، فإن لم يعرف لهم ورثة وانقطعت آثارهم، وانقطع ذكرهم، فليتصدق به على المساكين، وقد سلم من الإثم إذ^(٣) تاب من حبسه، وقد كان يقدر على أدائه.

فإن استقرض مالاً فأنفقه فيما يحل له ويحرم عليه، وكان من عزمه أن لا يؤديه إلى أهله (فهو فاسق، وتوبته في ذلك الاستغفار والندم، ورده على أهله)^(٤) إن كان يقدر

(١) في (ب) و (د): أصحابها.

(٢) يعني: بالإقتصاد.

(٣) في (أ) و (ب) و (ج): إذا.

(٤) سقط ما بين القوسين في: (ب) و (د).

عليه، وإن كان معسراً عزم على أدائه إليهم إذا قدر عليه، وأشهد لهم بذلك على نفسه، إن أرادوا ذلك منه، فإن ماتوا ولم يكن لهم ورثة تصدق به عنهم، وإن كان محتاجاً أنفقه على نفسه وعياله، كما يتصدق به على غيرهم هذا إذا كان ضامناً له.

وإن كان أخذ أموال الناس من طريق الدين، وكان شأنه أن لا يقضي ولا يؤدي، وجحد ذلك، ثم مات على ذلك، فأقام أصحاب الدين من بعد موته على ورثته البينة، أو عرف ذلك الورثة، فعليهم أن يؤدوه إلى أهله، والميت من أهل النار، ولا ينجيه من ذلك أداء ورثته عنه، لأنه اعتزم^(١) على أنه لا يؤديه، ومات غير تائب مصراً على أخذ أموال الناس ظلماً وعدواناً فهو من الفاسقين. وإن لم يكن لهم بينة، وعرف الورثة أن المال الذي خلف الميت إنما هو أموال الناس، وعرفوا ما عليه من الدين، لم يحل لهم ما أخذوا، لأنهم أخذوا ما ليس لهم من حقوق الناس. والسنة الماضية أنه لاشيء لوارث حتى يُقضى الدين، فإن لم يقضوه ولم يمكنهم وهم يعرفونه، كانوا من أهل النار، إذا^(٢) ماتوا على ذلك مصرين ظالمين.

[الأيمان والتوبة منها والكفارة]

فإن كان رجل حلف بأيمان بالله وهو كاذب متعمد للكذب، من غير إكراه أو تخوُّف، فقد فسق إذا بلغت يمينه كبيرة، وتوبته من ذلك أن يستغفر الله من ذلك ويندم على ما كان منه، ولا يعود إلى مثل ذلك أبداً، وليس عليه كفارة.

وإن كان حلف بما فيه كفارة ثم حنث فعليه كفارة لكل يمين.

والأيمان أربع فيميتان يُكفران، وهو قول القائل: والله لأفعلن كذا وكذا، فلا يفعل.

وقوله: والله لا أفعل كذا وكذا، ففعل.

واليمينان اللتان لا يُكفران قول القائل: والله ما فعلت كذا وكذا وقد فعل.

(١) في (ب): اجترم.

(٢) في (ب): أو.

وقوله: [والله] لقد فعلت كذا وكذا، وما فعل.

وكفارة اليمين إذا حنث، إطعام عشرة مساكين من أوسط ما يأكل هو وأهله، أو كسوتهم ثوباً ثوباً، أو تحرير رقبة. فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام. فمن لم يقدر على إطعامهم، وغير ذلك من الكفارة، فليصم عن كل يمين ثلاثة أيام، ويستغفر الله من تضييعه ولا يعد^(١).

فإن أدركه الموت ولم يُكفّر عن يمينه من إطعام، أو كسوة، ولم يقدر على ذلك، فليوص أن يُطعم عنه المساكين من ماله، لكفارة أيمانه إن كان له مال، فإن لم يكن له مال فلا شيء عليه، لأن الله جل ثناؤه قد عذر من لم يجد.

وإن كان يعرف الأيمان التي عليه كم هي فليكفّر عددها، وإن كان عددها لا يقف عليه فليتوخّ قدراً من ذلك، يكون الغالب عنده أنه قد استغرقها وزاد. ثم نرجو أن^(٢) لا يضره زاد أو نقص، إذا لم يتعمد ذلك. وكذلك يوصي بمثل ذلك، إذا لم يمكنه قضاء ذلك.

[التوبة من ترك الصلاة وسائر العبادات]

وإن كان ضيع صلاة، أو صياماً، أو حجاً، أو زكاة، بعد ما وجب ذلك عليه، بالتواني والاستخفاف، متعمداً لذلك، فعليه أن يتوب إلى الله جل ثناؤه من ذلك، ويقضي ما فاته من الصلوات^(٣) إن كان يعرف عددها، ومن الصيام أيضاً كذلك، وإن كان لا يعرف كم هو فليتحر الصواب جهده، ويزيد حتى يستغرق ذلك، ثم نرجو أن لا يضره نقص أو زاد، إذا لم يتعمد ذلك، ويقضي تلك الصلوات في أي أوقات النهار أو الليل شاء، فإذا^(٤) حلت له أوقات صلوات يومه الذي هو فيه صلاها في أوقاتها، ثم عاد فيقضي ما عليه حتى يفرغ منها، لا يتشاغل بغيرها.

(١) في (ب): ولا يعود. وفي (د): فلا يعود.

(٢) في (أ): أنه.

(٣) في (أ) و (ج) و (د): الصلاة.

(٤) في (ب) و (د): فإن.

[الصلاة]

وإن كان ترك صلاة متعمداً فلم يقضها نسياناً جاز ذلك (منه)، ثم ذكرها فليقضها وحدها أيضاً، وإن كان لها ذاكرة فتركها متعمداً ^(١) حتى مضت لها أشهر أو سنوات، فليقضها ولْيُتَّبَ مما صنع.

وقد قال بعض العلماء يجزئ قضاؤها وحدها ويتوب من تأخيرها، وقال بعضهم أَسْلَمَ له قضاء ما بعدها من الصلوات، وذلك أنه لا صلاة لمن ضيَّع صلاة حتى يقضي ما ضيَّع.

[الصوم]

وإن كان ترك صياماً من شهر رمضان كله حتى حضر رمضان آخر، فعليه أن يصوم هذا الذي حضر، ويعتزم على صيام ما فاتته، فيصوم من بعد ذلك ويتوب مما ضيَّع.

[الزكاة]

وإن كان ضيَّع زكاة حتى أدركه الموت، فليتب مما ضيَّع ويُخرج ما عليه منها، فيؤديه إلى المساكين، إن كان له مال، ويوصي بذلك إن لم يمكنه الأداء، لأنها دين عليه لأهلها الذين سماهم الله جل ثناؤه، في أي صنف منهم وضعت أجزت عنه، وإن لم يكن له مال ومات فلا شيء عليه بعد أن يتوب.

[الحج]

وإن كان ترك الحج وهو يقدر عليه حتى أدركه الموت، فليتب إلى الله جل ثناؤه

(١) سقط ما بين القوسين في: (ب).

من تفريطه، وليعزم على الحج، وليحج إن قدر عليه، وإن^(١) لم أوصى أن يُحج عنه، فقد قال بعض العلماء ذلك. وقال بعضهم لا يحج عن أحد كما لا يصلي عن أحد، ولا يصام عن أحد، لأن تلك حقوق الله جل ثناؤه، أمر عباده أن يتولوها بأنفسهم، فإن لم يقدرُوا عليها عذرهم ولم يكلفهم غير هذا.

وأما ما كان من حقوق الناس فيما بينهم في أبدانهم، وأمواهم، فعليهم أن يخرج بعضهم إلى بعض منها، ويعطي عنه إذا قدرُوا عليها.

وإن أوصى أن يحج عنه فحسن عندنا وهو أحوط.

وعلى المرتدين من الإسلام إذا تابوا — مع^(٢) ما ذكرنا — من الظلم للناس في أبدانهم وأمواهم ومن^(٣) الديون قبل ارتدادهم وفي ارتدادهم، ثم أسلموا أن يتوبوا إلى الله جل ثناؤه من ذلك كله، ويؤدوا الحقوق إلى أهلها كما يفعل المقررون، لأن حكمهم في ذلك غير أحكام أهل الحرب، لأنه لا قصاص بين أهل الإسلام وأهل الحرب^(٤).

فعلى العبد مما وصفنا من هذه الذنوب التوبة النصوح، وقد جعل الله جل ثناؤه لهم إليها السبيل.

التوبة النصوح هي الندم على ما كان من الذنوب، وتركها والإستغفار منها وترك الإصرار عليها، والعزم على أن لا يعود أبداً إليها، فتلک التوبة المقبولة، يقبلها التواب الرحيم.

فرحم الله عبداً اتقى الله في نفسه، وتطهر بالتوبة قبل الموت والفوت، ولم تغره الحياة الدنيا، ولم يغره بالله الغرور.

وليبادر بالتوبة قبل أن يسألها فلا يحاب إليها، قال جل ثناؤه: ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ

(١) في (ب): وإن يوصي. وفي (د): وإن أوصى.

(٢) في (ب) و (د): من.

(٣) في (أ): من الذنوب، وفي (ب) و (د): ومن الذنوب. وفي (ج): من الديون. وما أثبت إجتهد مي، والله أعلم.

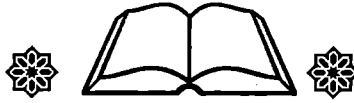
(٤) في (أ) و (ج): بينهم وبين أهل الإسلام.

عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَاءَ بِجَهَلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْكُفْرَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ [النساء: ١٧-١٨]. والتوبة قائمة مبذولة مقبولة، من حيث يواقع العبد الذنب إلى قبل حضور أجله بطرفة عين، أو أقل.

وحضور الموت هو معاينة ملك الموت والملائكة صلوات الله عليهم، أو بسبب من أعلام الموت العظيم المهل، ^(١) الذي يشاهده العبد في تلك الحالات، لا يعلمه أحد من البشر غيره، أو ذهاب ^(٢) عقله، فحينئذ لا تقبل توبته، ولا عند نزول العذاب إذا نزل بأهل المعاصي، ولا عند الحواجب من آيات الله المانعة من الرجوع إلى أحكام الدنيا، والله - جل ثناؤه - بهذا كله وأوقاته أعلم وأحكم تبارك وتعالى.

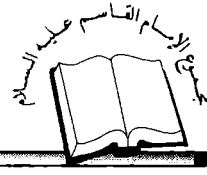
وعلى العبد أن يكون أبداً مستعداً تائباً. نسأل الله أن يبارك لنا ولكم في الموت إذا نزل بنا، وفي العرض على ربنا جل ثناؤه، ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّخَصَّرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ ﴿آل عمران: ٣٠﴾.

تم الكتاب والحمد لله رب الأرباب، وصلواته على المصطفى من خير نصاب، محمد النبي وأهله الطاهرين الأطياب، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

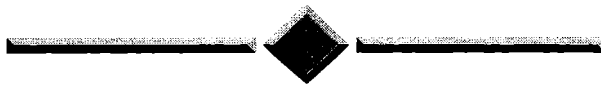


(١) في كل المخطوطات بياض بين أعلام..... والذي. إلا أنه أشار في (د): إلى ما أثبت في نسخة، وهو الراجح.

(٢) معطوف على: أو بسبب.



أصول العدل والتوحيد



بسم الله الرحمن الرحيم

اعلم يا أخي علمك الله الخير والهدى، وجنبك جميع المكاره والردى، أن الله خلق جميع عباده العقلاء المكلفين لعبادته، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ ﴿٥٧﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٧].

والعبادة تنقسم على ثلاثة أوجه:

أولها: معرفة الله.

والثاني: معرفة ما يرضيه وما يسخطه.

والوجه الثالث: اتباع ما يرضيه، واجتناب ما يسخطه.

وهذه الوجوه كلها فهي كمال العبادة، وجميع العبادات غير خارجة منها، فمعرفة الله عبادة كاملة لمن ضاق عليه الوقت. وهي منفصلة من العبادة الثانية، لمن تراخت به الأيام إلى وصول التعبد، وهو الأمر والنهي الذي فيه رضى المعبود وسخطه. ثم العمل بما يرضيه واجتناب ما يسخطه عبادة ثالثة منفصلة من الوجهين الأولين، لمن تراخى به الوقت إلى استماع كيفية العبادة على لسان الرسول الذي جاءت الشريعة على يديه. فهذه ثلاث عبادات من ثلاث حجج، احتج بها المعبود على العباد، وهي: العقل، والكتاب، والرسول. فجاءت حجة العقل بمعرفة المعبود، وجاءت حجة الكتاب بمعرفة التعبد، وجاء الرسول بمعرفة العبادة. والعقل أصل الحجتين الآخريتين، لا هما عرفا به ولم يعرف بهما، فافهم ذلك.

ثم الإجماع من بعد ذلك حجة رابعة مشتملة على جميع الحجج الثلاث، وعائدة إليها.

ثم اعلم أن لكل حجة من هذه الحجج أصلا وفرعا، والفرع مردود إلى أصله، لأن الأصول محكمة على الفروع، فأصل المعقول ما أجمع عليه العقلاء ولم يختلفوا فيه، والفرع ما اختلفوا فيه ولم يجمعوا عليه. وإنما وقع الاختلاف في ذلك لاختلاف النظر،

والتمييز فيما يوجب النظر، والإستدلال بالدليل الحاضر المعلوم، على المدلول عليه الغائب المجهول. فعلى قدر نظر الناظر واستدلالة يكون دركه لحقيقة^(١) المنظور فيه، والمستدل عليه، فكان^(٢) الإجماع من العقلاء على ما أجمعوا عليه أصلاً وحجة محكّمة على الفرع الذي وقع الاختلاف فيه.

وأصل الكتاب فهو المحكم الذي لا اختلاف فيه، الذي لا يخرج تأويله مخالفاً لتزييله. وفرعه المتشابه من ذلك فمردود إلى أصله الذي لا اختلاف فيه بين أهل التأويل.

وأصل السنة التي جاءت على لسان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ما وقع عليه الإجماع بين أهل القبلة، والفرع ما اختلفوا فيه عن الرسول. فكل ما وقع فيه الاختلاف من أخبار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فهو مردود إلى أصل الكتاب والعقل والإجماع.

وقد أنكرت الحشوية من أهل القبلة رد المتشابه إلى المحكم، وزعموا أن الكتاب لا يحكم بعضه على بعض، وأن لكل آية منه ثابتة واجب حكمها بوجوب تزييلها وتأويلها، ولذلك ما^(٣) وقعوا في التشبيه، وجادلوا عليه، لما سمعوا من متشابه الكتاب، فلم يحكموا عليه الآيات التي جاءت بنفي التشبيه.

فاعلم ذلك، فإن هذه جملة من معرفة المعبود والتعبد والعبادة، ومعرفة الحجج التي وجب التعبد على جميع المكلفين.

ثم نعود إلى تفسير هذه الجملة وشرحها، وتبيين عللها وما تكمل به المعارف من تقسيمها، فأول ما نذكره من ذلك معرفة الله عز وجل، وهي عقلية منقسمة على وجهين: وهي إثبات ونفي، فالإثبات هو اليقين بالله والإقرار به، والنفي هو نفي التشبيه عنه تعالى وهو التوحيد.

(١) في (د): بحقيقة.

(٢) في (أ) و (ج): وكان.

(٣) ما: زائدة لتحسين الكلام، وكثيراً ما ترد في كلام الإمام القاسم.

وهو ينقسم على ثلاثة أوجه:

أولها: الفرق بين ذات الخالق وذات المخلوق، حتى ينفي^(١) عنه ما يليق بالمخلوقين في كل معنى من المعاني، صغيرها وكبيرها، وجليلها ودقيقها، حتى لا يخطر في قلبك في التشبيه خاطر شك ولا توهيم ولا ارتياب، حتى توحّد الله سبحانه باعتقادك وقولك^(٢) وفعلك. فإن خطرت على قلبك في التشبيه خاطرة شك، فلم تنف عن قلبك بالتوحيد خاطرها، وثُمّط باليقين البتّ والعلم المثبت حاضرها، فقد خرجت من التوحيد إلى الشرك، ومن اليقين إلى الشك، لأنه ليس بين التوحيد والشرك، وبين اليقين والشك، منزلة ثالثة. فمن خرج من التوحيد فإلى الشرك مخرجه، ومن فارق اليقين ففي الشك موقعه.

والوجه الثاني: فهو الفرق بين الصفتين، حتى لا تصف^(٣) القلدم بصفة من صفات المحدثين.

والوجه الثالث: فهو الفرق بين الفعلين، حتى لا يُشَبَّه فعل القديم بفعل المخلوقين، فمن شَبَّه بين الصفتين، ومثَّل بين الفعلين، فقد جمع بين الذاتين وخرج إلى الشك والشرك بالله، وبرىء من التوحيد والإيمان بالله، وصار حكمه في ذلك حكم من أشرك، اعتقد ذلك وامترى فشك^(٤). فهذه جملة التوحيد المضيقَة التي لا يُعذر — من^(٥) اعتقادها، والنظر في معرفتها، عند كمال الحجة — أحد من العبيد، فمن مُكِّن بعد بلوغه وكمال عقله، وقتاً يكمل فيه معرفة العدل ويمكنه، فتعدى^(٦) إلى الوقت الثاني وهو جاهل بهذه الجملة، فقد خرج من حد النجاة، ووقع في بحور الهلكات، حتى يستأنف التوبة، ويقلع عن الجهل والغفلة، بالنظر في معرفة هذه الجملة التي لمعرفتها

(١) في (ب) و (د): تنفى.

(٢) في (ب) و (د): باعتقادك وقوله فإن...

(٣) في (ب) و (د): لا يصف.

(٤) في (أ): وشك.

(٥) في (ب) و (د): عن.

(٦) في (أ) و (ج): العدل تمكنه. وسقط من (ب): ويمكنه فتعدى.

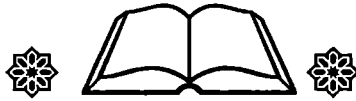
خلق الله الخلق، وهي ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ آلَتِي فَطَرَا النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

والدين القيم: فهو المستقيم الواصب، الثابت الدائم المتصل، وذلك قوله: ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾ [النحل: ٤٣]. يريد منصباً مُتَعَبِّاً. وهو التوحيد والخلصانية، التي لا تزول عن قلوب المتعبدين العارفين بالله المخلصين، بزوال سائر الشريعات التي تزول بزوال الاستطاعات، والعلل المانعات، عن القيام بالفروض الشرعيات.

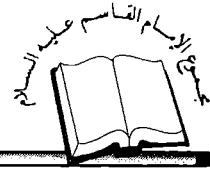
ثم اعلم أن هذه الجملة هي أصل التوحيد، فكل ما ورد من الشرح والكلام فهو مردود إلى هذا الأصل، الذي أجمع عليه أهل القبلة، فما ورد عليك من فروع الكلام والشرح، يؤكد^(١) لك أصول دينك اعتقده، ودنت الله به، وما ورد عليك مما ينقض الأصل تركته واعتزلته، فإن بذلك صَحَّتْ المقالة لأهل الفرقة الناجية.

فالواجب على الطالب لنجاته حراسة الأصول من النقض لها بالتفسير، حتى لا ينقضها بالتفسير طول عمره مضطرباً في عمارة التوحيد، برد الفرع إلى أصله حتى لا يضيف إلى معبوده، شيئاً من صفات خلقه وعبيده، في كل فعل منه وذات، وفي كل صفة من الصفات، حتى تزه القلوب والضمائر، وخواطر الأوهام والسرائر، فإن دقيق ذلك كله كجليله، والكثير من ذلك كقليله، فافهمه وتدبره تجده كذلك إن شاء الله.

تم ذلك بعون الله تعالى، وصلى الله على محمد النبي الأمي وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً.



(١) في (ب) و (د): يؤيد.



جواب مسأله لرجلين من أهل طبرستان



بسم الله الرحمن الرحيم

قال الحسين^(١) بن القاسم: سألت أبي رحمة الله عليه، لرجلين من أهل طبرستان، وهما عبيد الله بن سهل^(٢)، وهشام بن المثنى، عن توحيد الله ومعرفته، وما اختلف فيه المختلفون من صفته؟

فقال رضي الله عنه: اكتب: سألتما أعانكما الله وهداكما، ونفعكما بما بصركما من الهدى وأراكما، عن توحيد الله ومعرفته، وما اختلف فيه المختلفون من صفته.

فتوحيد الله والمعرفة به وتيقنه، الذي لا يسع أحدا من المكلفين جهل شيء منه، جهل^(٣) قليله في توحيد الله كجهل كثيره، وأصغر ما يجهل منه في الشرك بالله عند الله ككبيره، ومن جهل من ذلك شيئا واحدا، لم يكن بالله موقنا ولا له مؤحدا، أن يعلم أن الله واحد أحد، ليس له ند من الأشياء ولا ضد، لأن الند لما يآده مكاف، والضد لما يضآده مناف، وليس من الأشياء كلها ما يكافيه، ولا يضآده جل جلاله فينافيه، فليس هو جل ذكره كشيء، وهو الأول قبل كل بدي، لم يلد سبحانه فيكون ولده له مثلا، ولم يولد فيكون والده له بديا وأصلا، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝﴾ [الإخلاص: ١-٤]، والكفو: فهو النظير والمثل والشبيه والند، ولبعده سبحانه من^(٤) شبه الأشياء ومماثلتها، ولتعالیه عن مشابهة جزئية الأشياء وكلّيتها، لم تدركه ولا تدركه أبدا عين ولا بصر، ولا يحيط به من الناظرين عيان ولا نظر، كما قال سبحانه: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ۝﴾ [الأنعام: ١٠٣]. وقال جل جلاله، عن أن يحويه قول أو يناله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝﴾ [الشورى: ١١]، وقال سبحانه: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ۝﴾ [البقرة: ٢٥٥] والحي القيوم، فهو الذي يبقى سرمدًا ويدوم،

(١) في (ب) و (د): الحسن.

(٢) في (ب) و (د): سهيل. ولم أقف على ترجمته ولا صاحبه هشام بن المثنى.

(٣) سقط من (أ) و (ج): جهل.

(٤) في (ب) و (د): عن.

وليس شيء من الأشياء يبقى فلا يفنى، ولا يصح له أبدا هذا الذكر والمعنى، إلا الله في البقاء والدوام، كما قال سبحانه: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ۝﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧]. و ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨]، ولكفى دليلا ببقائه وفناء كل ما سواه على تعاليه عن مشاهة الأشياء لقوم يعقلون.

وكيف يشبه الباقي الفاني؟! في معنى ما كان من المعاني، فمن توهم الله جل ثناؤه أجزاء وأعضاء، أو أبعاضا يصل بعضها بعضا، أو اعتقد أنه يرى، أو رؤي قط فيما خلا، بعين أو بصر أو رؤية أو نظر، أو أنه يدرك بحاسة من حواس البشر، أو وصفه سبحانه بكف أو بنان، أو بقم أو لهوات^(١) أولسان، فقد شبهه بما خلقه جل ثناؤه من الانسان، وبري واصفه بذلك من المعرفة له والايقان، وقال في الله من ذلك بالزور والبهتان، وخالف كلما نزل الله في ذلك من النور^(٢) والفرقان، فهو لرب العالمين من أجهل الجاهلين، وهو بالله جل ثناؤه من المشركين، وبما اعتقد في ذلك من أهلك الهالكين، فهذه صفته تبارك وتعالى في الإثنية والذات، وهي صفة واحدة ليست فيه جل ثناؤه بمختلفة ولا ذات أشتات، ولو كانت فيه مختلفة غير واحدة، لكان اثنين وأكثر في الذكر والعدة. وإنما صفته سبحانه هو^(٣) وأنه كذلك في التوراة^(٤)، قال تعالى لموسى عليه السلام عند المناجاة: (إني أنا الله إلهك، وإله آبائك إبراهيم وإسحاق ويعقوب).^(٥) وكذلك قال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ۝﴾ ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ

(١) في (ب) و (د): بلهوات.

(٢) في (ب): في ذلك كله من الفرقان. وفي (د): في كله من الفرقان. وسقط من (أ): من.

(٣) يعني أن الصفات هي الذات وليست الصفات أمورا زائدة على الذات.

(٤) في (ب) و (د): التوراة والإنجيل. (زيادة سهو).

(٥) نص التوراة هكذا: (أنا إله أبيك إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب). سفر الخروج ٧/١. وسفر

الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١١﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ
الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢﴾ ﴿
[الحشر: ٢٢-٢٤]. فوصف نفسه تبارك وتعالى في أول الآيات بأنه هو، ثم ذكر سبحانه
ملكه وخلقه وقدس ما ليس له فيه نظير ولا مثيل ولا كفؤ، فمن وصفه جل ثناؤه بغير
ما وصف به نفسه من العلم والقدس والحكمة، وما ذكر جل جلاله من العز والرفعة
والرحمة، فقد خرج صاغرا بصفته، من العلم بالله ومعرفته.

والسنة التي ذكر الله أنها لا تأخذه، ولا تعرض له جل جلاله، هي قليل النوم
ويسيره، لا النوم نفسه وكثيره، فنفى سبحانه عن نفسه من قليل مشاهدة خلقه مانفى
تبارك وتعالى عن نفسه من كثيرها، تعاليا عن صغير مماثلة خلقه وكبيرها، لأن ذلك
كله في التشبيه له سواء، يثبت به كله أن له نظيرا في التشبيه وكفؤا.

ومن معرفة الله والايمان به، الايمان بجميع رسله وكتبه، ومن أنكر آية من تنزيله،
أو جحد رسولا واحدا من رسله، خرج بذلك من التوحيد والايقان، وزال عنه - لما
أنكر من ذلك - اسم الايمان، لأنه من أنكر آية من آيات الله، أو رسولا واحدا من
رسل الله، كمن أنكر صنع السماء والأرض من الله، ونسب ما كان من آية أو علم أو
دلالة إلى غير الله، لأنه إذا زعم أنما جاء به رسول من رسل الله من أعلامه ودلائله، أو
أن^(١) آية من آيات كتب الله وتنزيله، ليست من الله ولا عن الله^(٢)، تبكت وزعم أن ذلك
من غير الله.

ومن أضاف شيئا من صنع الله في أرضه وسماؤه، أو في سوى ذلك كله من خلقه
وإنشائه، إلى غير الله فقد ألد وكفر، وجحد وأنكر، وفي ذلك ما يقول الله سبحانه:
﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ
وَيَقُولُوا نَحْنُ نُبَيِّنُ بَعْضُ وَنَكْفُرُ بَعْضُ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا
﴿١﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ
آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ

(١) سقط من (أ): أن.

(٢) سقط من (أ) و (ج): عن الله.

وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٥٢﴾ [النساء: ١٥٠-١٥٢]. فمن فَرَّقَ من ذلك بين ما جمع الله وألف، خرج بتفريقه ذلك مما أقر به من توحيد الله وعَرَفَ، وكان منكرا بذلك كله، بإنكاره لما أنكر من أمله.

[مرجع أهل الديانات]

وقد سأل عن هذا بعينه، وما قلت به من تبينه، نصراني، كان يغشائي، من قبِط أهل مصر يقال له سلمون، وكان ربما اجتمع عندي هو والمتكلمون، وكان هو يزعم في عيسى بخلاف ما تزعم النسطورية واليعقوبية والروم، لأن أولاء كلهم يزعمون أن عيسى عليه السلام^(١) ابن وإله، ومنهم من يقول: إنه الله. وفي ذلك ما يقول سبحانه: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧، ٧٢]. وكان هذا النصراني الذي ذكرنا يقول: إن عيسى عليه السلام عبد مربوب، وصنع مخلوق، وإن من لم يقل من النصارى بقوله، وينسب عيسى صلى الله عليه إلى الخلق والعبودية، فليس بنصراني، وهو مشرك خارج من النصرانية.

فسأل يوما - وهو عندي - جماعة من الموحدين، وفيهم حفص الفرد البصري وكان من المتكلمين، فقال: يا هؤلاء أخبروني فقد زعمتم أنكم تنصفون، وأنكم لا تقولون إلا بما تعرفون، من أين زعمتم أن من أنكر محمدا أو جحده، ولم يقر بما كان من النبوة عنده، منكر لله جاحد؟ والله فغير محمد معبود ومحمد عابد؟ وإنكار واحد ليس بإنكار اثنين، لأن الشيء الواحد ليس بشيئين! فقد سألت منكم كثيرا عن هذه المسألة، فأجابوا فيها بجوابات مختلفة غير مقنعة،^(٢) وكيف أكون لك منكرا بإنكاري لغيرك؟ وهل تراه يصح في فكرك؟ أن أكون بإنكاري لمحمد لله منكرا وأنا به مقر، وله موحّد مُجَلِّ معظّم مكبّر؟

(١) سقط من (ب) و (د): عليه السلام.

(٢) في (ب) و (د): متفقة.

فأجابوه فلم يقنع بجوابهم، ولم يستمع لمقالتهم.

وكان مما أجبته به في مسألته، وما كان فيها من مقالته، أن قلت: أخبرني يا هذا إذ^(١) أنكرت محمدا وما جاء به من رسالاته، أليس قد زعمت أن ما كان معه من آيات الله ودلالاته،^(٢) وما كان يُري الناس من الأعاجيب، وينبئهم به من السر والغيب، ليس كله من الله، ولا شيء منه بصنع الله، وأضفت ذلك كله إلى غير الله؟!

فقال: بلى. لاشك ولا امتراء.

فقلت: أفلا ترى أنك^(٣) لو أنكرت أن تكون السماء والأرض من الله والله خلقا صنعا^(٤)، مفتطرا بدعا، كنت بإنكارك^(٥) ذلك لله منكرا، وإن كنت بالله عند نفسك مقرا!! فكان في هذا الجواب - بحمد الله - ما حجّه وقطعه، وكفاه في الاحتجاج عليه وكفه عن التشنيع ومنعه، ولم يتكلم بعده - علمتُ - في مسألته بكلمة واحدة، وأمست في مسألته عن الاكثار والشغب والملادة^(٦).

ومن الدلائل^(٧) على ما ذكرنا، وقلنا به في ذلك وفسرنا، قول الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَمَثَلٌ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا ۖ﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُ مَا أُنْزِلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَنْفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ۖ﴾ [الإسراء: ١٠١-١٠٢]. يقول صلى الله عليه: لقد علمت ما افتطر وجعل، وخلق وأنزل، ما جئتكم به من الآيات والدلالات، إلا من خلق وجعل وافتطر الأرضين والسموات. فلما أزال فرعون صنعهن وخلقهن عن الله ونسبهن إلى السحر، ازداد بذلك شركا

(١) في (أ) و(ج): إن. وفي (د): إذا.

(٢) في (أ) و(ج): ودلالته.

(٣) سقط من (أ): أنك.

(٤) في (ب) و(د): والله صنعا خلقا.

(٥) في (ب) و(د): وكنت لله بإنكار ذلك منكرا.

(٦) الملادة: اللجاجة والمجادلة.

(٧) في (ب) و(د): الدليل.

وكفرا إلى ما كان فيه من الشرك والكفر، وكذلك لو لم ينكر، إلا آية واحدة مما بُصِّرَ وأُري من آيات الله لكان بإنكارها مشركا، صاغرا راغما^(١)، ليس له بالله معرفة ولا إيقان، ولا بعد إنكاره لها توحيد ولا إيمان.

ومن توحيد^(٢) الله ومعرفته، وما هو أهله من حكمته، أن تعلم^(٣) أنه لم يُكلف ولا يكلف أبدا،^(٤) من عبده عبدا، ما لا يتسع له ولا يمكنه، ولا يأمره بما لا يستحسنه، ولا يريد^(٥) أبدا منه، ما ينهيه تعالى عنه، ولا يزجره أبدا فينهيه، عما يريد من الأمور ويشاء، لما في ذلك كله^(٦) من خلاف الحكمة والرحمة، وما لا يجوز أبدا أن يوصف به من الصفات المستقبحة المذمومة،^(٧) التي لا يلحق بالله جل ثناؤه منها صفة، ولا تحملها من المعارف بالله سبحانه معرفة، لما يزول بها من الأسماء الحسنى، والأمثال الكريمة العلى، والله جل ذكره من ذلك كله ما طاب وزكى، ومن قال في الله بخلاف ذلك فقد قال شركا، كما قال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف: ١٨٠]. ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [الحل: ٦٠]. وقال: ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٠]. و﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

ومن الإيمان بالله بعد التوحيد لله إثبات الوعد والوعيد، فمن أنكرهما ولم يكن مثبتا لهما ضلالة وتأويلا خرج بذلك من التوحيد، وكان بإنكاره لهما متعديا ضالا، وعميا جاهلا، وإن هو أنكر شيئا من آيات تنزيلهما كان بالله مشركا، ومن توحيد الله خارجا وله تاركا.

وكذلك كل من أنكر فريضة من فرائض الله كلها تنزيلا، فإن كان إنكاره لها

(١) في (ب) و (د): عما. مصحفة.

(٢) في (أ) و (ج): ومن معرفة الله ورحمته.

(٣) في (أ) و (ج): يعلم.

(٤) في (أ): أبدا أحدا من عبده.

(٥) في (ب) و (د): ولا يريده. مصحفة.

(٦) سقط من (أ) و (ج): كله.

(٧) في (ب): الذميمة.

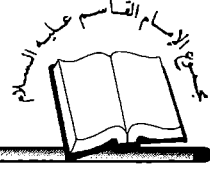
عماية وتأويلا، كان إنكاره لذلك فسقا وخرجا، وكان جهله بذلك له من الايمان مُخرجاً، وكل فريضة فرضها الله تزيلا على عبد من عبيده، فعليه من معرفتها والإقرار بها ماعليه من الإقرار بمعرفة الله وتوحيده، إذا^(١) لزمته حجتها، وحضره وقتها، فإن كان بتزيلا جاهلاً وله منكرا، كان جهله بها منه لله شركا وكفرا، وإن كان منكرا لتأويلها، مقرا بتزيلا، كان بإنكاره فيها للتأويل فاسقا فاجرا، ولم يكن مع إقراره فيها بالتزييل بالله ملشركا ولا به كافرا.

فهذه جوامع الايمان الواجبة اللازمة، المشتبهة في حكم الله المتفقة المتلائمة، التي لا تختلف جملتها، ولا يسع مكلفاً جهلها، والحمد لله كثيرا، وصلواته على سيدنا محمد وآله الطيبين الذين طهرهم من الرجس تطهيرا.

تمت المسألة بعون الله وتوفيقه.



(١) في (ب) و (د): إذ.



فصول فی التوحید



الأصول الخمسة

بسم الله الرحمن الرحيم

روى علي بن عامر، ^(١) قال: قال القاسم بن إبراهيم صلوات الله عليه: من لم يعلم من دين الإسلام ^(٢) خمسة من الأصول، فهو ضالٌّ جهول. أولهن: أن الله سبحانه إله واحدٌ ليس كمثل شيء، بل هو خالق كل شيء، يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار وهو اللطيف الخبير.

والثاني من الأصول: أن الله سبحانه عدلٌ غير جائر، لا يكلف نفساً إلا وسعها، ولا يعذبها إلا بذنبها، لم يمنع أحداً من طاعته بل أمره بها، ولم يدخل أحداً في معصيته بل نهاه عنها.

والثالث من الأصول: أن الله سبحانه صادق الوعد والوعد، يجزي بمثل ذرة خيراً، ويجزي بمثل ذرة شراً، من صبره إلى الثواب فهو فيه أبداً خالد ^(٣) مخلد، كخلود من صبره إلى العذاب الذي لا ينفد.

والرابع: من الأصول أن القرآن المجيد فصل محكم، وصراط مستقيم لا خلاف فيه ولا اختلاف، وأن سنة رسول الله صلى الله عليه ما كان لها ذكر في القرآن ومعنى.

والخامس من الأصول: أن القلب بالأموال في التجارات والمكاسب في وقت ما تعطل فيه الأحكام، وينتهب ما جعل الله للأرامل والأيتام، والمكافيف والزُماء، وسائر الضفعا، ليس ^(٤) من الحل والإطلاق كمثلته في ^(٥) وقت ولادة العدل والإحسان،

(١) لم أقف على ترجمته.

(٢) في (أ): يعرف من الإسلام. وفي (ب) و (ج): يعلم في دين الإسلام.

(٣) في (ب): خالداً مخلد.

(٤) في (ب): ليس هو من الحل والإحلاق.

(٥) في (ب): في مثل وقت.

والقائمين بحدود الرحمن^(١).

فجميع هذه الأصول الخمسة لا يسع أحداً من المكلفين جهلها، بل تجب عليهم معرفتها.

تم كتاب الخمسة الأصول والحمد لله كثيراً.



(١) أي: أن ذلك يشمل جميع وجوه الكسب، واختلاف الكاسبين، ولو كانوا بعيدين عن أعوان الطغاة المعطلين للأحكام، وذلك لأن تشابك أمور المعاش والإقتصاد تجعل أي كسب في مثل هذه الظروف لا يمكن أن ينجو من التلوث. تمثل هذه الظلامات، وفي هذا الحكم حث على العمل لتغيير الجائر من الأوضاع، تطهيرا للكسب والمأكّل، وإراحة للضمير.

[فروض الله على المكلفين]

قال القاسم بن إبراهيم، صلوات الله عليه:

سألتكم، يا ولدي، وفقكم الله للرشاد، عن أمهات فروض الله على من كلفهن من العباد، وأحببتكم أن تعلموا من جملهن، أصولا كافية في تفسير كلهن، بقول جزم مختصر، قريب المأخذ والمدكر، ليس فيه حيرة ولا تخاؤل، ولا تكثر منه الأقوال.

فأول - يا بني - فرض الله على خلقه، ومقدمات أمهات فرضه، الإيقان لله بوحدانيته، والإقرار له بربوبيته، لأن من أقر الله بالربوبية عرف أنه لله عبد، ومن أيقن له بوحدانيته علم أنه ليس له والد ولا ولد، وبرئ عنه من مكافأة الأنداد، وعز وجل ثناؤه عن مناوأة الأضداد، [لأنه] لا يكون من معه ند أو ضد، ومن له في الأوهام والد أو ولد، أحدا أبدا^(١)، وصمدا فردا.

وكيف يكون عند من توهم ذلك فيه سبحانه واحدا، وقد توهم معه أبا وابنا أو ندا أو ضدًا، ومن شبه الله بشيء من خلقه، فقد خرج من المعرفة بالله وحقه، وجعل لله ندا مماثلا، وكفيا ونظيرا معادلا، في كل ما يشبهه به فيه من أوصاف الخلق في معنى واحد أو في كل معنى، لأن في تشبيهه له سبحانه، بمعنى واحد من الخلق، إبطال الوحدانية، ومفارقة الأزلية، ومن جورَّ الله في حكمه فقد أشرك به، إذ شبهه بالجائرين، وخرج بتجويره له في حكمه من توحيد الله رب العالمين، وكان بفريته على الله في ذلك من المشركين، حكمه حكمهم، واسمه اسمهم، لأنه أشرك بين الله وبين الجائرين في الجور، ومثله سبحانه بهم فيما مثل فيه بينه وبينهم من الأمور.

وكذلك كل تمثيل أو تشبيه قيل به فيما بين الله وبين خلقه فهو شرك بالله صريح، ومعنى شرك صاحبه به فهو شرك في اللسان صحيح، لأنه أشرك بين الله وغيره، قال به في ذات الله أو تجويره.

(١) في (أ) و (ب): والد وولد، أحدا أبدا، فردا صمدا.

وكل^(١) من وصف الله بهيئات خلقه، أو شبهه بشيء من صفاتهم، أو توهمه صورة ما كان من الصور^(٢)، أو جسما ما كان من الأجسام، أو شبها، أو أنه في مكان دون مكان، أو أن الأقطار تحويه، أو أن الحجب تستره، أو أن الأبصار تدركه. من جميع خلائقه أو شيء منها، أو أن شيئا من خلائقه يدرك شيئا مما خلق، وذراً وبرا، أو مما كان^(٣) أبد الأبد، فقد نفاه وكفر به وأشرك، وعبد غيره.

فافهموا، وفقنا الله - وكل مؤمن - لإصابة الحق وبلوغ الصدق، إنه قريب مجيب.



(١) في (ج): فكل.

(٢) في (ب) و (ج): الأصوار.

(٣) في (ب): مما خلق أبد.

[فصل في التوحيد والعدل]

بسم الله الرحمن الرحيم

من عجز إدراك الحواس بارئها ثبت له التوحيد، وباستحقاق التوحيد ثبت العدل، لأن المتفرد بالوحدانية لا يجور، لوجود الجور فيمن ليس بواحد، ولما ثبت العدل وجب الوعد للمطيع، والوعيد على العاصي، ولما صح الوعد والوعيد وجب التحاجز بين المتظالمين، وهو بالرسول الأمر الناهي، بما آتاه الله، بعد استحقاقه للرسالة منه بالطاعة، والاتصال به ^(١)، فأظهر عليه علامة الاتصال بالمعجزات والدلالات، فرقا بين المتصل والمنقطع عن الله، ليصح صدق خبر رسوله عنه، وكما لم يجز في العقل مشافهة الباري، وخطابه لخلقه، خاطبهم منهم بهم ^(٢)، بجنسهم ومثلهم، إذ ليس في فطرهم غير ذلك.

تم والحمد لله كثيراً.



(١) هذه النظرية القائلة بأن النبوة وغيرها من المقامات الدينية جزاء على الأعمال، قال بها جماعة من

العلماء، مستدلين بقوله تعالى: ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا﴾، وغيرها.

(٢) سقط من (ب) و (د): بهم.

[فصل في التوحيد والعدل]

إن سأل سائل فقال: ما مذهبك؟ فقل: أنا قاسمي المذهب في القول بالتوحيد والعدل، ونفي الجور والتشبيه عن الله، ورأي السيف في القريب والبعيد، إذا عاند بعد الإنذار والبيان، فاطمي المقال موالة العترة والقول بإمامة سبطي الأئمة سيدي شباب أهل الجنة، وفي إثبات الدعوة وإيجاب البيعة لمن قام بالحق من ولديهما عليهما السلام، إذا كان عالماً بالحق عاملاً بأحكامه، داعياً إلى سبيل ربه، ناصراً لأهله، وعلوي السيرة في موالة الأولياء ومنازمة الأعداء، والصبر على البلوى، والغمض على القذى، مع شهر السيف على من ينكث البيعة، ويحرف عن الدين، ويخرج عن إمام المسلمين، فهذا مذهبي وديني، فمن أبي أنكر، ومن أحب أقر، فأنا لا أبالي بإنكار منكر و[لا]^(١) أباهي بإقرار مقرر، لأنني أرى^(٢) الحق لا يستوحش من الوحدة، ولا يبالي عمن أعرض وتولى. والسلام.



(١) في المخطوطات الوحيدة: منكر أباهي.

(٢) في المخطوطات الوحيدة: مقرر لأرى الحق.

[أصول الدين]

قال القاسم بن إبراهيم عليه السلام أصول الدين ثمانية عشر أصلاً:

أولها: التوحيد.

٢- والعدل.

٣- وتصديق الوعد.

٤- والوعيد.

٥- والنبوة.

٦- والإمامة.

٧- والولاء.

٨- والبراء.

٩- والصلاة.

١٠- والزكاة.

١١- والصوم.

١٢- والحج.

١٣- والجهاد.

١٤- والأمر بالمعروف.

١٥- والنهي عن المنكر.

١٦- وبر الوالدين.

١٧- وصلة القرابة.

١٨- وأن تحب للناس ما تحب لنفسك، وتكره لهم ما تكره لنفسك، فجملة ذلك ثمانية عشر أصلاً.

ثم اعلم أن لكل أصل من ذلك حقيقة، فحقيقة التوحيد: نفي جميع صفات التشبيه

عنه، وحقيقة العدل: نفي الفاقة، وحقيقة تصديق الوعد والوعيد: الخلود، وحقيقة النبوة: المعجزات، وحقيقة الإمامة: الأربع الخصال، القرابة من رسول الله صلى الله عليه، والعلم البارع، والزهد، والشجاعة، وحقيقة الولاء والبراء: الحب في الله والبغض في الله، وحقيقة الصلاة: المحافظة على أوقاتها والمواظبة لها. والخمس من الطهارة، وهي طهارة القلب، وطهارة البدن، وطهارة اللباس، وطهارة الماء، وطهارة المصلى.

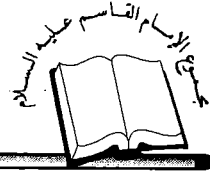
والست الخصال:

أولها: الأذان، والافتتاح، والتكبيرة، والقراءة، والتسبيح، والتسليم.

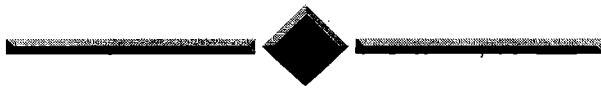
وحقيقة الزكاة: أخذها من حقها وصرفها في أهلها، وحقيقة الصيام: اجتناب الرفث، ومجالسة أهل البغي، وحقيقة الجهاد: بذل المال والمهجة، وأن لا يولي دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة، وحقيقة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: قول النبي صلوات الله عليه: (من غابت عليه شمس نهاره ولم يأمر بمعروف ولم ينه عن منكر فقد تبوأ مقعده من النار)، ^(١) وحقيقة بر الوالدين: قول الله عز وجل: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وحقيقة صلة القرابة: التفقد لهم والاطلاع لأحوالهم، فمن كان منهم مؤمنا كان عليك أن تؤدي ما في رقتك من حقه، لأن حقه فرض عند الله، وذلك قول الله سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٢١]، ومن كان منهم عاصيا وعظته، لقول الله سبحانه: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، وتحب للناس ما تحب لنفسك، وتكره لهم ما تكره لها، وهذا بحر عميق، غرق فيه بشر كثير.



(١) لم أقف على هذا الحديث.



تفسير العرش والكورسي



صفة العرش والكرسي وتفسيرهما

سماع علي بن محمد بن عبد الله عن الحسن بن القاسم رضي الله عنه.
بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على كل حال

قال علي بن محمد: حدثني الحسن بن القاسم، عن الحسين بن القاسم رضوان الله عليه، قال: سألت أبي رحمه الله وأرضاه، عن تأويل ما ذكر الله سبحانه، من كرسيه وعرشه؟

فقال: سألت يا بني فَهَمَّكَ الله فاعلم وافهم، وليكن أول ما تعلم فيما سألت عنه وتنفهم، أن يخرج في ذلك كله من علمك وفهمك، كل خاطرة خَطَرَتْ بقلبك، أو وقعت في وهمك، لله فيها بمعنى من معاني خلقه كلها تشبيه أو تمثيل، أو لشيء^(١) مما صنع الله كله بالله تسوية أو تعديل، كبير ذلك كصغيره، وقليله كله^(٢) ككثيره.

فهذا يا بني هو الأصل في توحيد الله المقدم الأول، والمقول الصادق على الله وفي الله الصحيح المتقبل، الذي لا يقول بغيره في الله ولا على الله إلا كل مفتر أفاك، يلزمه في قوله بذلك على الله اسم الجهل بالله والإشراك، وفي توَهُم كل مُتَوَهُم لذلك على الله^(٣) الخروج مما نزل الله في توحيده من كل تنزيل،^(٤) نزل الله سبحانه في القرآن أو في التوراة أو في الزبور أو في الإنجيل.

وتأويل ما سألت يا بني عنه ومعناه، فأئين بيان - بحمد الله - لمن فَهَمَهُ الله إياه، وإنما تلبس ذلك وأظلم على من لَبَسَ فيه على نفسه، فأسلمه الله تبارك وتعالى فيه - صاغرا - إلى حيرته ولُبسه، وسبيل فهمه وعلمه منير مضي، لا يجْهله - بِمَنْ الله - من

(١) في (ب) و (د): أو بشيء مما خلق الله وصنع كله.

(٢) سقط من (ب): كله.

(٣) سقط من (ب): الله.

(٤) في (ب): تنزيله نزل. مصحفة.

خلق الله زَكِيًّا ولا رضى.

فمن ذلك وفيه، ومن الدلائل عليه، قول الله جل جلاله، عن أن يحويه قول أو يناله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. وقوله سبحانه: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]. وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. فنفى سبحانه عن نفسه قليل النوم من السنة نفيه للكثير، تَبَرُّيًا منه وتعاليا عن مشابهة الأشياء كلها في معنى من معانيها كبير أو صغير. والحي: فهو الذي لا يغيره أبد ولا دهر، والقيوم: فهو الدائم الذي لا يُلَمُّ به تبدل ولا تغير^(١). وكذلك قال لرسوله، ^(٢) صلى الله عليه وعلى آله ^(٣): ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾﴾ [الإخلاص: ١-٢] ^(٤). ثم قال في آخر السورة: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ [الإخلاص: ٤]. والصمد فهو الذي ليس من ورائه مصمود ولا معمد، ^(٥) وليس بعده في جلال ولا كبرياء بعد. والأحد: فهو الواحد الذي ليس بشيئين اثنين، جزأين كانا أو غير جزأين، ولا يُتوهم أبداً سبحانه بمعنيين متغايرين، أحدهما في الجزئية غير الآخر، فيوصفان بالتباين والتغاير.

فلا يخلو كل واحد من الجزأين من أن يكون قادرا على حاله، ^(٦) أو عاجزا عن مبلغ قوة الجزء الآخر في قدرته ومثاله، فإن كان الجزء عاجزا لم يكن ربا ولا قويا، وإن كان قادرا قَدَرَتَهُ كان له في الربوبية مساويا، فكانا جميعا ربين اثنين، وإلهين متساويين، وكان في ذلك الخروج من وصف الله بالوحدانية، ومما وصف به نفسه جل

(١) في (ب): تبديل ولا تغيير.

(٢) في (ب): لرسول الله.

(٣) في جميع المخطوطات: آله وسلم. ولعل (وسلم) زيادة.

(٤) في (أ) و (ج): أكمل ﴿لم يلد ولم يولد﴾.

(٥) في (أ) و (ب) و (ج) و (د) و (هـ): معتمد.

(٦) في (ب) و (د): حياله.

جلاله من التفرد بالربوبية، فلم يكن في قولهم إنها واحدا، وعاد في وصفهم^(١) كثيرا عددا.

ومن دلائل الهدى والحق، في بُعد ربنا من مشابهة الخلق، ما يقول الله سبحانه: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]. وكيف يكون لمن كان أولا آخرًا ظاهرًا باطنًا من الأشياء شبيه أو نظير؟! أو يعتقد^(٢) ذلك في من كان كذلك أبدا عقل صحيح أو ضمير؟!

وأول الأشياء أبدا غير آخرها، وباطن الأشياء فغير ظاهرها، فكفى بما قال سبحانه في ذلك^(٣) بيانا ودليلا، على أن لا يكون شيء من الأشياء كلها له شبيهها ولا مثيلا.

وفيما من ذلك أبانه، يقول سبحانه: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [١١] ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [١٢] ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [١٣] [الحشر: ٢٢-٢٤]. فدل سبحانه على نفسه بأنه هو، وأنه لا نظير له ولا كفو.

وكذلك قال من رسله كل من قد^(٤) عرفه، عندما سئل عنه فوصفه، أو دلَّ من جهله عليه ليعرفه، فقال إبراهيم عليه السلام خليله، لمن كان من قومه يجهله، ولمن كان يلحد فيه ويجادله، يا قوم: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ٧٩]. وقال صلى الله عليه لقومه، عندما منَّ الله عليه به من معرفته وعلمه: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ [١٤] ﴿أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ﴾ [١٥] ﴿فَانْتَهُم عَدُوٌّ لِّيَ إِلَّا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [١٦] ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [١٧] ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ [١٨] ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [١٩] ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ [٢٠]

(١) في (أ): صفتهم.

(٢) في (ب): ويعتقد.

(٣) سقط من (أ) و (ج): في ذلك.

(٤) سقط من (أ): قد.

﴿٢٠﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٢١﴾ [الشعراء: ٧٥-٨٢] ﴿٢٢﴾

وكذلك قال نوح من قبله، صلى الله عليه وعلى جميع رسله: يا قوم ﴿٢٣﴾ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿٢٤﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿٢٥﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴿٢٧﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿٢٨﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿٢٩﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿٣٠﴾ لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٣١﴾ [نوح: ١٣-٢٠]. ومثل هذا قوله صلى الله عليه في تعريفه لله مَنْ جَهِلَهُ فَكَثِيرٌ، في أقله - والحمد لله - لمن أيقن بالله هداية جليلة وتبصير^(١).

وفي مثل ذلك ما يقول موسى، لفرعون إذ طغى وثعامى، إذ قال: ﴿٣٢﴾ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ ﴿٣٣﴾ [طه: ٤٩]. فقال صلى الله عليه: ﴿٣٤﴾ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٣٥﴾ [طه: ٥٠]. وكذلك قال عليه السلام، عندما دار بينه وبين فرعون في الله الكلام، إذ يقول فرعون: ﴿٣٦﴾ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ [الشعراء: ٢٣-٢٥]. فقال لهم إذا قالوا مقالته، وسألوه عليه السلام مسألته: ﴿٤٠﴾ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٤١﴾ [الشعراء: ٢٦]. فقال فرعون لهم، عند جواب موسى إياهم: ﴿٤٢﴾ إِنْ رَسُولُكُمْ الَّذِي أَرْسَلَ إِلَيْكُم لَمَجْنُونٌ ﴿٤٣﴾ [الشعراء: ٢٧]. فقال موسى لهم جميعا: ﴿٤٤﴾ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٤٥﴾ [الشعراء: ٢٨]. فدلهم في ذلك كله، على الله بصنعه وفعله، ليس منهم من يدل على الله سبحانه بنعت ولا بحلية، ولا يصفه جل ثناؤه بصورة ولا هيئة، ولو كان كما قال الضالون العمون، الذين لا يعقلون ولا يعلمون، على ما ذكروا من صورة آدم، لكانت الصورة من لحم ودم، وَلَوْصَفَهُ^(٢) العارفون به وسموه، بالصورة والهيئة وحلوه.

وفي مثل ذلك من وصفه بصنعه وخلقه، وصدق القول عليه فيه وحقه، ما يقول

(١) في (ج): وتبصرة.

(٢) في (ب) و (د): ولو وصفه. مصحفة.

رسل الله صلى الله عليه وآله وسلم إليها، للأمم التي أرسلها الله إليها، إذ شكوا في الله وتحيروا، ولم يصبوا من الله ما بَصَرُوا: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ٦]. فما دل الله جل ثناؤه على نفسه، ولا دل عليه العارفون به، بحلية ولا صورة، ولا بهيئة منعوتة ولا مذكورة، ولكن دل سبحانه على نفسه ودلت رسله عليه بخلقه وفطرته، وبما يُرى^(١) في ذلك من أثر جلاله وكبريائه وقدرته.

فَمَنْ لم يكتف بذلك في المعرفة بالله فلا كُفِّي، ومن لم يشتف ببيان الله فيه فلا شُفِّي، ففيما بين الله من آياته في ذلك ما يقول سبحانه للمؤمنين والذين لا يعلمون، إذ قالوا: ﴿لَوْ لَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَنَزَّلُ عَلَيْنَا آيَةً كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ١١٨]. فنسأل الله أن ينفعنا ببيانه، وبما نَزَّل من فرقانه.

ومن البيان في ذلك والنور، قول داود عليه السلام في الزبور: (سبحان الله القدوس الأعلى، ورتلوا أسمائه الحسنی العلی، مُصْطَفِي إِسْرَائِيلَ الْفَعَالِ لما يريد من الأشياء، في ا لبحار والأرض والسماء، الذي أنشأ برحمته السحاب، وجعل البرق والرياح الهوآب، وغرَّق فرعون وجنوده في البحر، وأظهر ما أظهر من عجيب آياته بأرض مصر، وقتل ملوك الجبابرة ملك الموراسر وملك نيسان، وكل من كان من عتاة ملوك بني كنعان، وأعطى إسرائيل أرضهم عطية، وهبها لهم هبة هنية)^(٢).

(١) في (ب) و (د): نراه.

(٢) نص الزبور هكذا: هَلَلُوا. سبحوا اسم الرب، سبحوا يا عبيد الرب، الواقفين في بيت الرب، في ديار بيت إلهنا، سبحوا الرب لأن الرب صالح، رَتَمُوا لاسمِهِ لأن ذاك حلَّوْ، لأن الرب قد اختار يعقوب لذاته، وإسرائيل لخاصته، لأني أنا قد عرفت أن الرب عظيم، وربنا فوق جميع الآلهة، كل ما شاء الرب صنع في السماوات وفي الأرض، وفي البحار وفي كل اللجج، المصعد السحاب من أقاصي الأرض، الصانع بروقا للمطر، المخرج الريح من خزائنه، الذي ضرب أبكار مصر من الناس إلى البهائم، أرسل آيات وعجائب في وسطك يا مصر على فرعون وعلى كل عبيده، الذي ضرب أمما كثيرة وقتل ملوكا أعزاء، سيحون ملك الأموريين، وعوج ملك باشان وكل ممالك كنعان، وأعطى أرضهم ميراثا، ميراثا لإسرائيل شعبه. المزمور المائة والخامس والثلاثون. من زبور داوود. ما يسمى بالمزامير.

وما في نفى التشبيه عن الله بخلقه^(١) في الإنجيل، فكثير بحمد الله غير قليل، ولولا كراهتنا للتكثير في^(٢) الكتاب والتطويل، لذكرنا إن شاء الله بعض ما فُسر في ذلك من الأقاويل.

ثم قوله سبحانه فيما فسر المفسرون من التوراة الذي لا كقول، والذي هو أصدق الصدق^(٣) وأفضل الفضول، إذ قال لموسى صلى الله عليه، إذ ناجاه في مصيره إليه: (يا موسى إني أنا الله)،^(٤) مرتين اثنتين، زيادة من الله له في التعريف والتبيين، (إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسحاق ويعقوب)،^(٥) تعريفا له من وحدانيته وإلهيته بما ليس في شيء منه شرك لمربوب.

فهل تسمع لله سبحانه أو لأحد من رسله من قول، في وصف الله تعالى بعرض أو طول؟! بل وصف نفسه جل ثناؤه، ووصفه رسله وأنبيأؤه، بالوحدانية والقدرة والجلال، لا بحسن^(٦) صورة ولا هيئة ولا حلية ولا جمال.

والصورة يا بني فلا تكون أبداً إلا من صانع مُصَوِّر، وما في الصورة من أثر التقدير والتدبير فلا يكون إلا من مُدَبِّرٍ مُقَدِّرٍ، فسبحان البارئ المصور الذي ليس بِمَبْرُوءٍ ولا مَصَوَّرٍ، والمُقَدِّرُ المُدَبِّرُ الذي ليس بِمُقَدَّرٍ ولا مُدَبَّرٍ!! وتعالى^(٧) الله رب العالمين، وأكرم الأكرمين، عن أن يوصف بصور الآدميين، أو مشاهمة^(٨) شيء من المخلوقين، وكيف يكون الخالق في شيء كخلقه، والمخلوق في شيء ما كان كخالقه؟! فهذا يا بني ما لا يصح في الألباب، على إله الآلهة ورب الأزباب.

(١) في (أ) و (ج): لخلقه.

(٢) في (ب): في هذا الكتاب.

(٣) سقط من (أ): الصدق.

(٤) في القرآن الكريم أيضاً: ﴿يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ﴾ [النمل/٧]. و﴿يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ [القصص/٣٠].

(٥) وفي القرآن أيضاً وصية يعقوب لابنيه إذ سألهم: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [البقرة/١٣١].

(٦) في (ب) و (د): لا بحسن في صورة.

(٧) سقط من (أ) و (ج): وتعالى.

(٨) في (أ) و (ج): بصور أو يشابهه.

فهل تعرّف الله قط تبارك وتعالى، إلى أحد من خلقه بحلية من الحلى، كلا لن يوجد ذلك من الله أبداً، ولن يعرف الله من عرفه إلا أحداً واحداً، غير ذي نواحٍ وأطراف، ولا مختلف في الأوصاف، بل تدل أوصافه كلها على واحد أحد، غير معروف بصورة ولا حلية ولا عدد، ليس له ند يساويه، ولا ضد يناويه، يُستدل عليه تبارك وتعالى وعلى جلاله، بدلائل لا يحصيها غيره من صنعه وفعاله، فهل يعنى ويصم عما يُرى، إلا من لا يسمع بقلب ولا يرى، فنحمد الله على ما من به في ذلك من الهدى، وعلى ما بصر برحمته في ذلك من ضلال أهل الهلكة والردى.

[معنى العرش والكرسي]

وبعد فافهم نفعي الله ونفعك، بما أسمعني من البيان وأسمعك، مسألتك عن تأويل ما ذكر الله من كرسيه وعرشه، فما تأويل ذلك عند من يؤمن بالله إلا كتأويل قبضته وبطشه، وما ذلك كله، وفرع ذلك وأصله، إلا ملكه واقتهاره، وسلطانه واقتداره، الذي لا شرك لأحد معه فيه، ولا ملك ولا سلطان لسواه عليه!

ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وتأويل يؤده: هو يثقله، فهو لا يثقله حفظ ما هو من السماوات والأرض مالك^(١) له.

وكذلك تأويل: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ ١٢ ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ﴾ ١٣ [البروج: ١٢-١٣]. و ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى﴾ [الدخان: ١٦]. وليس يتوهم في كبرها، طول ولا عرض في ذرعها ولا قدرها، ولا يتوهم أن القبضه والبطش^(٢) من الله على ما يعرف من الآدميين بينان ولا كف، وكذلك لا يتوهم أن الكرسي والعرش ذو قوائم ووسط وطرف، ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾

(١) سقط من (ب): مالك.

(٢) في (د): البسط. مصحفة.

[هود:٧]. تأويل ذلك: وكان ملكه على الماء، كما كان عرشه الذي هو ملكه بعد خلقه للسماء على السماء.

وكذلك ذكر أن كرسيه قد^(١) وسع السماوات والأرض كلها، ولم يذكر أنه جعل الكرسي موضعاً لها، بل ذكر أنها كلها فيه، ولم يذكر أنه هو فيها، وكان ذلك من الدلالة على أن^(٢) الحفظ والملك هو الكرسي بعينه، لا ما يتوهم^(٣) من عمي عن تريل الله في ذلك وتبيينه، وإنما ذكر الله الكرسي والعرش دلالة للعباد بذكرهما، على ما ذكرنا - إن شاء الله - من أمرهما.

وإنما فهم الله جل ثناؤه عباده، وأبان لهم في كثير مما نزل الله من آياته رشاده، بما^(٤) ضرب لهم في ذلك من الأمثال، وذكر برحمته من شبه ومثال، وأمثال الأشياء ومثلها، وفروع الأشياء وأصولها، فليست بالأشياء أنفسها، ولا بأعيان ما مثل بها، ولكنها أشباه ونظائر يستدل عليها، من فكر بعون الله فيها.

وفيما ذكر الله سبحانه من ضربه للأمثال، وما فيها للمؤمنين من الهدى والاستدلال، ما يقول سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]. ولا يهتدي لذلك إلا من اتقى^(٥)، كما قال تبارك وتعالى: ﴿الْمَرْءُ عَلَى مَا يَنْتَهِى﴾ [البقرة: ١-٢]. فليس يرتاب - والحمد لله - في الكتاب، أحد من أهل التقى والألباب، فالحمد لله رب العالمين كثيرا،^(٦) على ما نور لأهل التقى بكتابه من

(١) سقط من (ب) و (د): قد.

(٢) سقط من (ب): أن.

(٣) في (ج): لا يتوهم.

(٤) في (ب) و (د): آيات رشاده. وفي (أ) و (ج) و (هـ): مما ضرب.

(٥) في جميع المخطوطات: اتقاه. ولعلها مصحفة والصواب ما أثبت.

(٦) سقط من (أ) و (ج): كثيرا.

الهدى تنويراً.

وفيما ضرب سبحانه للناس من الأمثال، فيما نزل سبحانه من القرآن، ما يقول تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٢٧: الزمر). ويقول سبحانه: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (٤٣: العنكبوت). وكذلك فقد يُجَوِّزُ الفكر في الكرسي والعرش، وما ذكره الله له من القبضة والبطش، فنفي^(١) عنه جل جلاله في قليل ذلك وكثيره، مشابهة كبير خلقه وصغيره، كما نفى عنه فيما ذكر من صفاته لنفسه، مشابهة جن الخلق وإنسه، كما قال سبحانه: ﴿خَيْرٌ بَصِيرٌ﴾ (الشورى: ٢٧)، ولا يمثل في ذلك من خلقه بالمختبرين المبصرين، وقيل: كبير وقدير^(٢) ولا يشبهه بكبير الأشياء في الطول والعرض ولا بالمقتدرين، وكما قال سبحانه: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (٥٢: الواقعة: ٧٤، ٩٦، الحاقة: ٥٢). وقال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾. ولا يشبه في العظم، بعظم جثة ولا جسم، ولا يمثل في الرحمة^(٣) أرحم الراحمين، بمن كان رحيماً من الآدميين، ومتى ما^(٤) توهم ذلك متوهم واعتقده في الله، فهو - صاغراً - من المنكرين لله.

وكذلك صفات الله وأسماءه كلها الحسنى، فتعالى فيها كلها عن شبه الخلق في كل

معنى.

وكذلك قبضته وبطشه، وكرسيه وعرشه، فلا يتوهم عرشه وكرسيه^(٥) ذا قوائم وأركان، ولا يتوهم قبضته وبطشه يكف ذات بنان، ومتى ما توهم^(٦) ذلك متوهم أو اعتقده في الله، فهو مشرك لاشك بالله، وبريء من توحيد الله ومعرفته، إذ أشرك غيره

(١) في (ب) و (د): فينفي.

(٢) في (أ): كبير قدير.

(٣) في (ب): رحمة.

(٤) في (ب) و (د): ومتى وهم ذلك متوهم أو اعتقده.

(٥) في (ب) و (د): كرسية وعرشه.

(٦) في (أ) و (ج): ومن توهم.

في صفته.

وتأويل الكرسي والعرش لرب العالمين، فغير تأويليهما في الآدميين، لأن تأويلهما في بني آدم، وفيما يحاط به لهم فيهما من العلم، إنما هو مقعد الملك، وآلة من آلات الملك، يُحمل للملك أو يوضع، له^(١) دعائم ثمانية أو أربع. والكرسي والعرش لله فإنما هما^(٢) ملك الله وسلطانه، وتمكن الله من الأشياء واستمكانه، وقدرة الله سبحانه وملكه منها لما لم يكن كقدرته وملكه لما قد كان، وذلك فما لا يصف^(٣) به - من قال صدقاً - إلا الله الرحمن، وكل من اعتقد التشبيه لله بشيء في وهمه، فقد برئ من الإيمان بالله وحكمه، وزال عنه اسم التوحيد، وكان منه أبعد بعيد، لا تحل له ذبيحة، ولا موالاة ولا مناكحة.

وفي العرش وما ذكرنا من أمره، وما قلنا به فيه من التأويل عند ذكره، وأنه هو القدرة لله والملك، الذي ليس فيه لغير الله شرك، ما يقول الله لا شريك له: ﴿فَتَعَلَّى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦]. ويقول سبحانه لرسوله، صلى الله عليه وعلى آله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩]، وتأويل - إن شاء الله - ذلك الصحيح المستقيم، إذ^(٤) هو العرش العظيم الكريم، فإنما هو كرم ملك الله وعظمه، لا طول العرش ولا عرضه ولا ضخمه، وما في عظمه لو كان كما قالوا وطوله وعرضه، ما يكون به وإن عظم واتسع أعظم ولا أوسع من سماء الله وأرضه، ولو كان ذلك، كما قالوا كذلك، لكان عظمه في الإكبار والإجلال، دون عظم السماء والأرض والحيال.

وإني لأحسب - والله أعلم - أن الهدهد حين أنبأ، بعظم عرش ملكة سبأ، ما أراد بالعرش وذكره، إلا عظم ملكها وكبر قدره، ألا تسمع قوله: ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ

(١) في (أ) و (ج): بما له دعائم.

(٢) في (أ): هو.

(٣) في (أ): فيما لا يصف. وفي (ب) و (د): فما لا يوصف.

(٤) في (ب): أنه.

يَقِين ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ [النمل: ٢٢-٢٣]. فذكر ملكها لهم ومأوتيت وهو ما أعطيت من كل شيء ثم قال: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾، وهذا إن كان إياه أراد كما قلنا فهو الإكبار لها والتعظيم، وإلا فما عظم عرشها أوسريها، من التعظيم لها أولاً مرها، ومن^(١) الكبر لقدرها.

وقوله سبحانه: ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ [غافر: ١٥، البروج: ١٥]. فتأويله: ذو الملك لا يتوهم ذلك كرسي منصوب، لقوائمه في جوانبه ثقوب. ومثل ما ذكرنا في العرش من التمثيل للعباد بما يعرفون، لا على ما يعلمون من خواص أحوالهم ويوقنون، مما جل تبارك وتعالى عن مماثلتهم فيه، أو أن يقع شيء من حقائق صفاتهم به عليه، ما يقول سبحانه: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ [الزمر: ٧٥]. وذلك فمقام الحكم في يوم القيامة والبعث وموقف الجزاء، ثُمَّ مِنَ اللَّهِ وَالْقَضَاءِ، بدائم السخطة منه والارتضاء.

وفي ذلك أيضاً ومثله، من موقف حكمه وفصله، ما يقول سبحانه: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ﴾ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ [الحاقة: ١٧-١٨]. وذلك فيوم العرض للعباد على المليك، العلي الذي علا وتقدس عن مشاركة كل شريك، يمثل ذلك سبحانه لهم بما قد رأوا، وعرفوا وأبصروا، من ملوك الدنيا إذا عرضوا، فحكموا وقضوا، كيف تنصب لهم يوم ذلك عروشهم وكراسيهم، للقضاء في أهل مملكتهم ومن تحت أيديهم.

وكل ما أمكن في العرش والكرسي من التمثيل، فقد يمكن - والحمد لله - في حملة العرش مثله من التأويل، وكذلك فقد يكون ذكر الله العرش وحملة من التمثيل، في موقف الحكم والقضاء والتفصيل، على ما قد رأوا من ملوك الدنيا^(٢) وعرفوا، لا على ما قال الجاهلون بالله ووصفوا. وكما جاز ذكر العرش للقضاء والفصل، فقد يجوز مثله فيما ذكر للعرش من الحمل، ولا تقبل العقول، أن الله محمول، كما يُعرف

(١) في (ب) و (د): أو من.

(٢) في (ب) و (د): الدنيا في الدنيا.

مَنْ حَمَلَ شَيْءًا عَلَى سُرِيرٍ أَوْ عَرْشٍ أَوْ كُرْسِيٍّ!! وَمَنْ قَالَ بِذَلِكَ وَاعْتَقَدَهُ^(١) فَهُوَ بِاللَّهِ مِنَ الْجَاهِلِينَ، وَعَنِ الْمَعْرِفَةِ لِلَّهِ مِنَ الضَّالِّينَ.

وكيف يُتوهم مَنْ رَفَعَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ، وَأَمْسَكَهَا وَأَقَامَهَا فِي الْأَهْوِيَةِ بِغَيْرِ عُلُقٍ^(٢) وَلَا سَنْدٍ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٤١]. وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ [الرعد: ٢]، ثُمَّ قَالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ ﴿تَرَوْنَهَا﴾، يَعْنِي سُبْحَانَهُ تَعَايَنُهَا وَتَبْصُرُهَا، غَيْرَ مَعْمُودَةٍ مِنْ تَحْتِهَا بِعَمَدٍ، وَلَوْ كَانَتْ كَذَلِكَ لَرَأَى ذَلِكَ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ كُلِّ أَحَدٍ، فَكَيْفَ يَكُونُ مَنْ حَمَلَهَا سُبْحَانَهُ مَحْمُولًا، أَوْ يَكُونُ ذَلِكَ عَلَيْهِ فِي الْقَوْلِ مَقْبُولًا؟!

وما ذَكَرَ^(٣) سُبْحَانَهُ مِنَ الْعَرْشِ وَالْكُرْسِيِّ، وَبُعْدَهُ فِي ذِكْرِهِمَا مِنْ مِشَاهِدَةٍ كُلِّ شَيْءٍ، إِلَّا كَمَا^(٤) ذَكَرَ سُبْحَانَهُ مِنْ إِمْسَاكِهِ وَإِقَامَتِهِ، لَمَّا ذَكَرَ مِنْ أَرْضِهِ وَسَمَوَاتِهِ، لَا يَتَوَهَّمُ إِمْسَاكُهُ لَذَلِكَ بَيْنَانٍ وَلَا كِفَ قَابِضَةٍ، تَقْدَسُ فِي ذَلِكَ عَنْ كُلِّ صِفَةٍ مُحَدَّثَةٍ عَارِضَةٍ، وَلَثَنَ لَمْ يَتَأَوَّلُوا الْعَرْشَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، إِلَّا عَلَى مَا رَأَوْا مِنْ عُرُوشِ الْآدَمِيِّينَ، مَا لَهُمْ أَنْ يَتَأَوَّلُوا رَفَعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا عَلَى مِثَالِ مَا يَعْرِفُونَ، مِنَ الْآدَمِيِّينَ وَيَتَوَهَّمُونَ.

وكذلك يلزمهم أَنْ يَتَوَهَّمُوا صَنَعَ اللَّهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ لِمَا صَنَعَ، كَصَنَعَ مَنْ خَلَقَ اللَّهُ مِنَ الْآدَمِيِّينَ وَابْتَدَعَ، فَيُشَبِّهُونَ اللَّهَ تَعَالَى بِالْخَلْقِ، وَيَقُولُونَ عَلَيْهِ بِغَيْرِ الصَّدَقِ، فَيَبِينُ بِإِذْنِ اللَّهِ أَمْرَهُمْ، وَيُظْهِرُ بِاللَّهِ كُفْرَهُمْ، وَلَا يَخْفَى شُرُكُهُمْ وَلَا يَسْتَتِرُ، وَلَا يَتَوَارَى عِنْدَ مَنْ عَرَفَ اللَّهَ وَلَا يَسْتَسِرُّ، فَتُسْتَجِيرُ بِاللَّهِ مِنَ الْعَمَى وَالضَّلَالَةِ، وَمِنَ الْحَيْرَةِ عَنِ اللَّهِ وَالْجَهَالَةِ.

وما الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي التَّمَثِيلِ مِنْ عَرْشِهِ وَحَمَلِهِ، إِلَّا كَمَا ذَكَرَ اللَّهُ مِنْ حَبْلِهِ، إِذْ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وَ﴿ضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الدَّلِيلَ أَتَيْنَا مَا تُخَفُّوْنَ إِلَّا بِحَبْلِ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٢]،

(١) في (ب) و (د): أَوْ اعْتَقَدَهُ.

(٢) الْعُلُقُ: الْحَبَالُ.

(٣) في (ب) و (د): ذَكَرَهُ.

(٤) في (أ) و (ج) و (د): لَا كَمَا. وفي (ب): شَيْءٌ كَمَا.

فهل يُتوهم ذلك حبلٌ مسد، ^(١) أو حبلًا من سواه يحصد ^(٢).

ومثل ذلك قوله سبحانه: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة: ٢٥٦]. فهل يتوهم أو يرى، أن ذلك عروة من العرى، التي تكون من شعر، أو ليف أو لحاء من شجر، قد أمر ^(٣) ذلك وعقد، بما يعرف له من المرّة والعقد، فلا يتوهم ذلك - والحمد لله - ولا يراه، أحد من خلق الله رأيانه ولا علمناه.

و[ما] ما ذكر الله من العرش والكرسي وحُمّاله، إلا مثلٌ ضربه الله من أمثاله، فرحم الله عبداً فهمَ عن الله وحَقّه، فنفى عنه شبه جميع خلقه، ولئن لزم الكرسي والعرش أن يكونا كالكراسي والأسرة المنصوبة، ليلزم مثل ذلك في تأويل رفيع الدرجات فتكون الدرجات عتبة بعد عتبة، وذلك فما لا يتوهمه ^(٤) صحيح سوي، ولا ضعيف في العلم ولا قوي. وما ما يسمع من هذا ومثله إلا أمثال مضروبة، فهي والله المستعان في قلوب الجاهلين بالله محرفة مقلوبة، فهم فيها - والحمد لله - لا يعقلون ولا يعلمون، كما قال الله سبحانه: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وفي ذكر التمثيل والأمثال، ما يقول الله ذو العزة والتعال: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَآتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٢٦]. فذكر الإتيان وليس يُتوهم إتيان الله إتيان محي، ولا يُتوهم ما ذكر ^(٥) من البنيان [أنه] بنيان مبني، ولا يُتوهم السقف الذي ذكره الله سقفا مرفوعا، ولا قواعد بنيانهم التي هي أساسه ^(٦) أساسا موضوعا، من حجر، ولاطين ولا مدر، ولكنه مثل وتمثيل

(١) المسد: الليف.

(٢) في (أ) و (ب) و (ج): محصد.

(٣) في (ب) و (د): في الشعر. واللحاء: قشر الشجر. وأمر: شد. يقال: أمرٌ بغيره، إذا شده.

(٤) في (أ) و (ج): فما لا يتوهم. وفي (ب): فلا يتوهم. وفي (د): فلا يتوهم. ولفقت النص من الجميع.

(٥) في (ب) و (د): ما ذكر الله من.

(٦) سقط من (أ) و (ج): أساسه.

صديق، مثله العزيز الصادق^(١) الخالق، الذي أصدق الأقوال أقواله، وأصح^(٢) الأمثال أمثاله. وكذلك فقد يمكن ما قلنا وفسرنا، في الكرسي والعرش على ما مثلنا وذكرنا.

ولفي التمثيل لهم بما^(٣) يعرفون من الأمثال، ما يقول في كتابه ذو الكبرياء والجلال: ﴿حَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]. فلا يتوهم ختم بخاتم ولاطين، ولا يتأوله كذلك من يفرق بين لبس وتبيين.

ومثل ذلك قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ [الأنعام: ٢٥]. ولا يتوهم أحد وإن جهل وجفا، الأكنة أغطية وغلفا.

وكذلك قوله، جل جلاله: ﴿وَآخَفَضْ لَهُمَا جَنَاحَ الدَّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤]، و ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ [القصص: ٣٢]، فهل يتوهم الجناح في ذلك كله كجناح طائر، إلا كل أحق من السامعين عم حائر. وما في هذا ومثله من الأمثال، فيكثر عن أن نذكره في مقال، فنعود بالله من العمى والخيبة، ونستمتع بما وهبه من الهدى والبصيرة، فإننا في دهر عم تمكن فيه الجهلة العمون، فقالوا على الله تبارك وتعالى بما لا يعلمون، وخرجوا بمقاتلهم^(٤) في الله من حقيقة توحيد الله وهم لا يشعرون.

فإن قال قائل: فما وجه التسمية، في الحمل للعرش لعدة ﴿ثَمْنِيَّةٌ﴾ [الحاقة: ١٧]، وما تأويل ﴿فَوْقَهُمْ﴾؟

قيل: أما فوقهم، فهو على^(٥) الحُمال ورؤوسهم، وأما ثمانية فإنني أحسب - والله أعلم - أن أكرم ما كان يعرف الأولون عندهم من العروش^(٦) والكراسي، التي كانت تتخذ فيما خلا لملوك الأمم في الزمان الماضي، ما كان من العروش ذا ثماني قوائم في

(١) سقط من (أ) و (ج): الصادق.

(٢) في (ب) و (د): وأصلح.

(٣) في (د): ما. وسقط من (ب).

(٤) في (ب) و (د): بمقاتلهم.

(٥) في (ب) و (د): أعلا.

(٦) في (ب) و (د): أن كان أكرم ما كان يعرف الأوان عندهم من العرش.

كل ركن منه قائمتان، فتلك قوائم حينئذ ثمان، قائمتان في كل طرف من الطرفين، وقائمتان في كل جانب من الجانبين.

ولما كان - عند الأولين حمل ثمانية حُمَال، عرش^(١) كل ملك ذي قدرة في المملكة والجلال، أكبر في التعظيم والإجلال، عند الحُمَال وعند غيرهم من أهل المملكة، ومن وصل إليه ذلك من الجبايرة المتملكة، أن يكون عرش الملك محمولا على الرؤوس، وكان ذلك أجل للملك^(٢) في النفوس - كانت كل قائمة من قوائم عرش الملك إذا حمل العرش محمولة على رأس حامل واحد، فتلك^(٣) - يا بني هداي الله وإياك - حينئذ ثمانية سواء في العدد، فهذا والله أعلم عندي^(٤) وجه التسمية، لما سُمي في الحمل للعرش من الثمانية.

وإنما ضرب الله للعباد الأمثال بما يعرفون من الأشياء، على قدر ما قد رأوا منها في الدنيا، التي لم يروا قط شيئا إلا فيها، ففهمهم^(٥) الأمثال بها وعليها، وبالله - لا شريك له - نستعين على ما أبان وبيّن من قصص آياته وأحاديثها، وقدم دلائله وحديثها.

ومن ذلك يا بني الأمثال التي مثلها، وفصلها تبارك وتعالى في كتابه ونزلها، ما يقول سبحانه: ﴿وَالْتَفَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ [القيامة: ٢٩]. لا يتوهم الساق ساق رجل، أحد ممن له أدنى عقل.

وقال سبحانه: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ [المدثر: ٨]، ولا يتوهم أحد ذلك كالناقور المنقور.

وكذلك قوله جل ذكره: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ [الكهف: ٩٩، يس: ٥١، الزمر: ٦٨، ق: ٢٠].

(١) في (ب): عرش ملك. وفي (ج): عرش كل مملكة.

(٢) في (ب) و (د): للملوك.

(٣) في (ب): فذلك. مصحفة.

(٤) سقط من (ج) و (د): عندي.

(٥) في (أ): نفهمهم. وفي (ب): فهمهم.

ولا يتوهم بوقا ولا قرنا من القرون، إلا كل مختل^(١) من الناس مجنون.

ومثل ذلك قوله: ﴿عَلَى شَفَا جُرْفٍ﴾ [التوبة: ١٠٩]، ولا يتوهمه^(٢) جرفا من الجرفة، إلا من لم يهبه الله في ذلك شيئا من الهدى والمعرفة، وإنما الجرف من الأرض المعروف، جانب الوادي أو ما كان من الأرض له حروف.

وفي مثل ذلك من الأمثال، ما تقوله قريش للرسول عليه السلام: ﴿قَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِيَّ آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥]. ولا يتوهم الأكنة أعطية ولا لبسا، ولا يتوهم الوقر صمما ولا ما ذكره الله من بكم الكفار خرسا، إذ يقول سبحانه: ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨]. ولا الحجاب سترا مضروبا، ولا بنيانا من الأبنية منصوبا.

وفيما ضرب الله من الأمثال ما يقول سبحانه: ﴿أَمَرَ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]. ولا يتوهم ذلك أقفالا من حديد، إلا كل أخرق^(٣) أحمق بليد.

وما في هذا من الأمثال والبيان، فيما جعل الله للعرب من اللسان، فيكثر عن الاستقصاء، والتعديد له والاحصاء، لا يلتبس^(٤) - والله محمود - على من يعقل وإن لُبِسَ وُعْطِيَ، ولا يخفى مخرجه وبيانه إلا على^(٥) مَنْ ضَلَّ وِعَمِيَ، فنعوذ بالله من العمى والضلال، عما ضرب الله - برحمته - لنا من الأمثال. فيكم من جاهل حائر قد عمي!! يرى أنه في^(٦) جهله قد هُدي، أو سامري يقول لامساس، لا يعرف البيان ولا الالتباس، كالبهائم الغافلة المهملة، التي لا تفرق بين هادية من الأمور ولا مضلة، فهم كما قال الله سبحانه لقوم يعقلون: ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلَّ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

(١) في (أ) و (ب) و (د): مختبل.

(٢) في (ب): يتوهم.

(٣) الأخرق: الجاهل.

(٤) في (ب): إلا تلبس.

(٥) سقط من (ب): على.

(٦) في (ج): من جهله.

قلت: فما تأويل: ﴿حَافِينَ﴾ [الزمر: ٧٥]؟!

فقال: ما حَافُونَ في التأويل إلا كالكرسي والعرش وحملته في التمثيل، والملائكة - يا بني - فحَافُونَ يومئذ بمقام الحكم والتفصيل، كما قد عرف أهل الدنيا، أن الملك منهم إذا حكم وقضى، أحف بعرشه الذي هو الكرسي يوم يحكم ويقضي، من يختار من أهل مملكته ويرتضي، فمثل سبحانه لهم مقام حكمه وفصله، بما قد^(١) عرفوا في الدنيا من مثله، وليس يتوهم من يعقل العرش والكرسي سريرا محمولا، ولا منبرا منصوبا معمولا.

ومثل ذلك مما يعرف الناس من الأمثال في أمورهم، قوله سبحانه: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنعام: ٣١]، فذكر سبحانه ما ذكر في هذا الذكر من الأوزار والحمل، ولايتوهم ذلك من له أدنى عقل، حملا كحمل الأحمال، على ما يعرف من ظهور الجمال، ولا كعبء محمول، ولا كور^(٢) منقول، وإنما هو مثل من الأمثال معقول، تعرفه الأبواب والعقول، وقد علم الناس أن كل عبء أو وزر، إنما يحمل على عنق أو ظهر.

وكذلك قوله سبحانه: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩]، ولايتوهم السرادق^(٣) كما يعرف في الدنيا من السرادقات، ذوات الأوتاد والأطناب والرواقات،^(٤) إلا جاهل عمي، أحمق بهمي.

وكذلك لايتوهم قول الله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]، فلا يتوهم أحد له لب أن ما ذكر الله من ذلك منهم وفيهم، على أن لله يدا ذات بنان مصافحة للمبايع رسوله،^(٥) صلى الله عليه وآله.

(١) سقط من (أ) و (ج): قد.

(٢) الكور: الرُّخْلُ.

(٣) السرادق: ما أحاط بالبناء.

(٤) الرواق: فسطاط أو سقف في مقدم البيت.

(٥) في (ب) و (د): لمبايع رسول الله.

ولا يُتوهم قوله سبحانه: ﴿قَاتِلْهُمْ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٣٠، المنافقون: ٤]. على ما يعرف من المقاتلة، التي تكون بين المقتلين^(١) عند المواجهة والمصالحة.

ولا يتوهم قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ [التوبة: ١١١]. ولا قوله: ﴿فَاسْتَبَشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾ [التوبة: ١١١]، ولا ما جرى في البيع والشراء^(٢) من هذا ومثله، على ما يعرف من المتبايعين، والمشتريين والبائعين، في^(٣) معاني المبايعة، والشراء والمساومة، كيف^(٤) يكون ذلك وما اشترى سبحانه منهم من أنفسهم وأموالهم، فهو له تبارك وتعالى لا لهم، فهل يعرف أن مشتريا يشتري ما هو له؟! إلا الله - بكرمه - جل جلاله!!

وكذلك لا يتوهم قوله سبحانه لنوح صلى الله عليه: ﴿وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا﴾ [هود: ٣٧]. ولا قوله: ﴿خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ [يس: ٧١]. على أن الله تبارك وتعالى أعيناً. ولا أيدياً كثيرة، ولا كما تعرف الأعين كبيرة ولا صغيرة، وأيادي ذوي^(٥) الأيدي كلهم من الآدميين طويلة أو قصيرة، ولا يعرف الناس الأعين والأيدي إلا ما كان كبيراً، ولا أن شيئاً من الأيدي يكون أبداً^(٦) إلا طويلاً أو قصيراً، ولا يعرف الناس أجمعون، فيما رأوا ولا فيما يصفون، أن شيئاً من ذلك، يكون أبداً إلا كذلك، ولكنها أمثال مثلها تبارك وتعالى لعباده بما يعرفون، ليس في شيء منها تشبيه لله، بما يقول الجهلة بالله ويصفون.

والإحفاف يا بني فهو الإحاطة، والإحاطة فهي الإحداق^(٧) والإدارة، وفي إحاطة

(١) في (ب) و (د): المقتاتين.

(٢) في (ب) و (د): في الشراء والبيع.

(٣) في (د): من. وسقط من (ب).

(٤) في (ب) و (د): فكيف.

(٥) في (ب) و (د): دون. مصحفة.

(٦) سقط من (ب): يكون أبداً.

(٧) الإحداق: الاستدارة.

الله بالأشياء كلها، من أواخر الأشياء وأوائلها، ما يقول سبحانه: ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّخِيطٌ﴾ [فصلت: ٥٤]. ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ [البروج: ٢٠]. والمُحِيط من الأشياء بما يحيط به، فهو المحفُّ المحدق بجميعه، المدير بكل ناحية من نواحيه، من جوانبه كلها ومن خلفه ومن بين يديه، ولا يتوهم إحاطة الله - تعالى ذكره - بالأشياء كذلك، والعرش والكرسي وحمله والإحفاف به فمثل ذلك، ولا يتوهم^(١) كما يعاين ويرى، من أمور أهل هذه الدنيا، وإنما إحاطة الله بالأشياء قدرته عليها،^(٢) وسلطانه جل ثناؤه فيها، لا يتوهم ذلك من الله العزيز الخلاق، كما تُعرف به الأشياء من الإحفاف والإحداق، الذي يكون من الأشياء، ويرى من أهل هذه الدنيا، تقدس الله وتعالى، عن^(٣) أن يكون شيء له مثالا.

وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]. فلا يتوهم في ذلك كلامه، من قرّر في قلبه توحيده وإعظامه، ككلام^(٤) الإنسان، بشفتين ولسان، ولا يتوهم - تجليه للجبل كتجلي ما نرى، من تجلي أهل هذه الدنيا، إلا من لم يكن به تباركت أسماؤه وتعالى عارفا، ولا له بما وصف به نفسه من الوحدانية واصفا، ولا يتوهم مجيئه غائب، ولا كمجيء ماش ولا راكب - إلا من لم يكن مؤمنا، ولا بوحدانيته ولا بربوبيته موقنا.

وكذلك فينبغي لمن علم أو جهل، أن يتوهم الكرسي والعرش والإحفاف والحمل، على خلاف ما يعرف من الأشياء كلها، لفرق ما بين الأشياء وجاعلها، في كل صفة ومعنى من معانيها، وكلما يعرفه عارف فيها. وبذلك - والله محمود - بأن توحيده، ووجب على العباد تمجيده، ومن التبس عليه ذلك التبس عليه التوحيد، ولم

(١) في (ب) و (د): لا يتوهم.

(٢) سقط من (أ) و (ج): عليها.

(٣) في (أ) و (ج): من.

(٤) في (أ) و (ج): كلام.

يصح منه لله جل جلاله^(١) تمجيد، وكان بالله سبحانه جاهلا، وفي ادعائه لتوحيد الله مبطلا.

ومما ضرب الله سبحانه في كتابه من الأمثال، قوله سبحانه: ﴿وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَقَا حُقْرَةٍ مِّنَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ولا يعرف أحد الحفرة، إلا محفورة منقورة، وقد جاز في ذلك ما نزل الله سبحانه من المثل، وقد يجوز مثل ذلك في الكرسي والعرش والإحفاف والحمل، لا يأتى ذلك - إن شاء الله - ولا يحمله، من يعرف لسان العرب ولا من يعقله، وقد تُدعا من الحفرة شفا، وما كان منها ولها حرفا، وعليها من فمها^(٢) مشرفا، فهل كان من المؤمنين الأتقياء البررة؟! أحد على فم ما ذكرنا من هذه الحفرة!!!

وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوهُ مِنْ دُونِهِ إِنَّهَا لَئِنَّا إِذَا شَطَطًا﴾ [الكهف: ١٤]. ولا يتوهم - والحمد لله شيئا^(٣) من ذلك كله عقدا ولأربطا، مربوطة ولا معقودة، مقصرة ولا ممدودة، ولا يتوهم منها رباطا واحدا، - إلا من لم يهبه الله في ذلك هداية ولا رشدا، وما من هذا في القرآن، وفيما للعرب من اللسان، فيكثر عن أن نذكره كله، والحمد لله لا شريك له، ولولا كراهتنا للتكثير^(٤) والتطويل، لذكرنا بعض ما قالت العرب في ذلك من الأقاويل، وسنذكر إن شاء الله بعض ما نزل الله سبحانه في ذلك تزيلا، وبعض ما قالت العرب في الجاهلية والإسلام تمثيلا.

فمن أمثال الله سبحانه في ذلك البينة النيرة، وأقواله جل ثناؤه المَقْوِيَّة فيه للعلم والبصيرة، قوله: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الأحزاب: ٤٣، الحديد: ٩]. وليس يتوهم الظلمات ليلا أسود ولا مثله، إلا من لا عقل له، ولا يتوهم ما ذكر الله من النور شمسا ولا قمرا، إلا من لم يجعل الله له لبا ولا فكرا.

(١) في (ب) و (د): ذكره.

(٢) في (ب) و (د): فيها.

(٣) سقط من (أ): شيئا.

(٤) في (ج): للكثرة.

ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]. ولا يتوهم الروح كأرواح البشر، إلا من لم يعمر الله قلبه بضياء ولا بصر.

ومما ضرب الله من الأمثال، وما يفهم بها وفيها من المقال، قوله سبحانه: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]. فدعا تبارك وتعالى ذلك كله حرثا وسمّاه، ولم يرد بذلك سبحانه الحرث الذي نعرفه نحن ونراه، من حرث الأرض الذي لا يكون حرثا عند من لا يعقل سواه، وقد عرفنا بمن الله ما أراد بذلك^(١) وعناه.

وكذلك الكرسي والعرش والحمل فقد علمنا، أنه ليس يشبهه بما يفنى، وأن الله في ذلك كله الأسماء الحسنى، والمباينة للخلق من المشابهة له في كل معنى.

ومن الأمثال أيضا التي لا تخفى، إلا على من جهل من الناس وجفا، قوله سبحانه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥]. وإنما معنى الميزان: معنى القضاء^(٢) والفصل، وما حكم به بين عباده من العدل.

ومثل ذلك يقول أرحم الراحمين، وأحكم الحاكمين: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقَسِطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تَظْلِمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]. ولا يتوهم الموازين ذات كفف، ولا الوزن^(٣) وزنا بالأيدي والأكف، إلا كل بائر، عم جائر، وكلما ذكر الله من ذلك^(٤) فبين والحمد لله معروف، لا يعنى عنه ولا يعتسف العلم فيه إلا عسوف^(٥).

ومن الأمثال التي لم تزل تمثلها العرب حديثا وقديما، لا يجهل ما تريد بها إلا من كان من معرفة لسانها عديما، قول زهير بن أبي سلمى، في الجاهلية الجهلاء:

(١) في (أ): من ذلك.

(٢) سقط من (أ) و (ج): وإنما معنى الميزان. وفي (ب) و (د): معنى للقضاء.

(٣) في (ب): والوزن.

(٤) في (أ) و (ج): ذكرنا الله من هذا من ذلك. مصحفة.

(٥) في (ج): ولا يعتسف. والعسوف: المائل عن العدل.

..... ما عضي الدهر إلا زاذني كرم^(١)

ولا يتوهم العض إلا لما كان فما.

وقالت الخنساء:

تعرّقي الدهر نَحْشا وحزا وأوجعي الدهر قرعا وغمزا^(٢)

ولم ترد خنساء أنه ينهش بفم ولا ناب، ولا يتوهم ذلك أحد من الحمقاء فضلا عن ذوي الألباب، ولا يتوهم الحز ولا الغمز بكف ذات أصابع، ولا القرع بقرع من مقارع.

وقالت هند بنت عتبة^(٣) ترثي أبها:

وكان لنا جبلا راسيا طويل المزاد كثير العشب^(٤)

وقال بعض الشعراء بعد الإسلام:

معن بن زائدة الذي زيدت به شرفا على شرف بنو شيبان

جبل تلوذ به نزار كلها صعب الذرى متمنع الأركان^(٥)

وقد عُلم أنه ليس أحد من الرجال، بجبل مما يعرف من الجبال، ولما جعلوه جبلا وصفوه بما يمكن من صفة الجبل في العشب والمرعى، وتمنّع الأركان وصعوبة الذرى، وجاز ذلك كله عندهم في المثل، وكذلك فقد يمكن مثل ذلك في العرش وما ذكر من الحملة له والحمد.

وفي ضرب الأمثال، وما يجوز منها في المقال، ما يقول امرؤ القيس بن حجر:

أُميمة إن الدهر في وثباته أصاب جيادا نابه ومخالبه^(٦)

(١) لم أقف عليه في ديوانه.

(٢) هذا البيت مطلع قصيدة للخنساء. انظر ديوانها.

(٣) في (ب) و (د): وقد قالت.

(٤) لم أقف عليه.

(٥) أقف عليهما ولا على قائلهما.

وليس أحد عقل أو لم يعقل من الناس، يتوهم أن الدهر ذو مخالب ولا أنياب ولا أضراس.

وقال ابن ميادة:

فإن يك ظني صادقى وهو صادقى بعيس يكن بالمشرفى عتابها
ويحتلبوها أم سقبين لاقحاً عنيفا بأيدي الخالين احتلابها^(١)
يريد بقوله الحرب، وقد علم أن كل حرب ليست تلقح بسقبين ولا سقب،
ولا بذات در ولا حلب. والسقب فهو ولدها إذا كان صغيراً، والحلب فهو لبنها قليلاً
كان أو كثيراً، وقد علم أن هذا كله لا يتوهم فيها ولا عليها، وقد جاز أن ينسب كما
ترى في الأمثال إليها.
وكذلك قال النميري:

وحرب قد حلبناها صراها وحرب قد حلبناها عللاً
إذا لبست عوان الحرب جُللاً كشفنا عن مشاعرنا الجلالاً^(٢)
والمشاعر: هي القوائم. والصرا: هو جمع اللبن في الضرع حينين، والعلال: فهو
حلب^(٣) اللبن في كل حين.
وقد قال زهير في الحرب:

فتعرككم عرك الرجا بثفالها وتلقح كشافاً ثم تحمل فتتم
فتنتج لكم غلمان أشأم كله كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم^(٤)

(١) لم أقف عليه.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) في (أ): حلاب.

(٥) البيتان من معلقة زهير إحدى المعلقات السبع.

وقد علم أن الحرب لا تلقح ولا تنام، ^(١) ولا تنتج ولا ترضع ولا تفتطم، وقد جاز ما قال ^(٢) كله في الأمثال، وكان القول به عند العرب من أصح المقال.

وفي مثل ذلك من المثل، بما يقول:

وهم حملوا المئين فلم تؤدهم ^(٣)

ولا يُعرف الحمل، المحمول ^(٤) إلا كما يحمل الحملون.

وقال زهير أيضا:

وما إن بيتهم إن عد بيت فطال السمك واتسع البناء

فأما أسفه فعلا قديما على الأحساب. إذ رفع النماء ^(٥)

ولم يرد بيتهم بيتا من مدر ولا شعر، ولا بأسه أسا من صخر ولا حجر.

وقال ابن ميادة:

لنا قبة في المجد خضراء صخمة تبذ القباب ذات موج وساحل

لنا راية فوق السماء كأها زبيبة وكر رُوِّت فوق حامل ^(٦)

وليس يتوهم ما ذكر من القبة قبة ^(٧) ذوات عوارض مشبكة، ^(٨) ولا أنها قبة

مصبوغة بخضرة ولا ملككة ^(٩). فيا ويل من شبه الله جل ثناؤه، وتباركت بقدسه ^(١٠)

(١) في (ب) و (د): تنم.

(٢) في (أ) و (ج): ما كان كله.

(٣) في (أ): الميان فلم يأدهم جمالاتها. وفي (ج): فلم يأدهم حالتها. وفي (د): حملوا المئين فلم تؤدهم حالتها.

(٤) في (ب) و (د): لحمول.

(٥) لم أقف عليه.

(٦) لم أقف عليه.

(٧) في (ب) و (د): فيه. مصحفة.

(٨) في (ب) و (د): مسيلة. مصحفة.

(٩) في (ب) و (د): بملككة.

أسماءه، في ذاته ومعرفته، أو في شيء من صفته، من كرسي أو عرش، أو أخذ^(٢) أو بطش، بخلقه المفتطر المجعول، من محمول أو غير محمول، وجل الله سبحانه عن أن يقع عليه بذلك قول، أو تعتقد مشاهدته في شيء من ذلك كله العقول.

وقد قال أيضا ابن ميادة:

هم الهامة العليا والذروة التي تقصر عنها سطوة المتناول^(٣)

وقد علم أن هذا مثل لا يجهله إلا كل عمي جاهل.

وسألت: أبي رحمة الله عليه عن تأويل ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ١]. و ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٣]. و ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨] ؟

فقال: تأويل ذلك كله مجيء آيات الله وحكمه، وإتيان أمر الله من رحمته أو نقمه^(٤).

ومثل ذلك في المجيء قوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ﴾ [الأعراف: ٥٢]. وفي الإتيان قوله: ﴿فَأَتَى اللَّهَ بُنْيَانُهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ﴾ [النحل: ٢٦]. ولا يتوهم مجيء الله وإتيانه،^(٥) جل جلاله وتعالى شأنه، مجيئا من مكان إلى مكان، ولا إتيان رؤية ولا عيان، ومن قال ذلك أو ظنه فثبته في نفسه، خرج بذلك صاغرا من توحيد ربه، والحمد لله رب العالمين كثيرا، وصلى الله على محمد وأهله وسلم تسليما.

وسألت: عن تأويل قول الله جل جلاله: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الفرقان: ٥٩، السجدة: ٤]. ما وجه

(١) في (ب) و (د): بالقدس.

(٢) سقط من (أ): أخذ.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) في (ب) و (د): في رحمته. وفي جميع المخطوطات: أو نقمته. وما أثبت اجتهد لأنه أوفق لكلام الإمام، أو أن تكون العبارة هكذا: آيات الله وحكمته، وإتيان أمر الله من رحمته ونقمته.

(٥) في (ب): وآياته. مصحفة.

استوى؟ وما معناه^(١)؟

فقال: تأويله: ملكه للأشياء وارتفاعه عليها واعتلاه،^(٢) كما يقول القائل: استوى فلان على ملك فلان فاستوى،^(٣) يريد ملك ما كان يملك فلان كله سواء.

وكذلك يقول إذا ملك ملكه قعد على عرش فلان وجلس، وليس يريد^(٤) أن عرشه مقعد له ولا مجلس، وقد يكون العرش لكل شيء سقفه وأعلاه، كما جعل الله أعلا ما خلق من السماوات منتهاه، فأى هذا كله قال به^(٥) في مثل استوى على العرش قائل، لم يخط في تأويله به قائل ولا متأول.

فأما ما يذهب إليه الجاهل، من أن العرش لله مقعد وحامل، تحيط به أقطاره، وتحويه أقداره،^(٦) فلا يجوز في الأبواب، تأويله على رب الأرباب، ومن تأول ذلك في الله، فهو من الجاهلين بالله، فنعوذ بالله من الجهل به وبجلاله، ومن القول بذلك فيه وأمثاله، وحسبنا الله لا إله إلا هو عليه توكلنا وهو رب العرش العظيم.

وإذا كان العرش كما قال الله مربوبا وكان الله له ربا مبتدعا، لم يخل من أن يكون لله خلقا وصنعا، وإذا كان ذلك كذلك، وعلى ما يقول الجهلة في ذلك، كان الله قبله، وكان الله إذا لم يكن العرش قديما ولا عرش له، فدخل عليهم في ذلك ما أخزاهم، وبيّن جهلهم فيه وعماهم، وأظهر كذبهم فيه وافتراهم، وقلة رشدهم فيه وهداهم. والحمد لله رب العالمين على ما بيّن من عماية العمين، وتولى من هداية المهتدين.

وفي مثل ذلك من الأمثال، وما يراد به غيره من المقال، ما يقول الأول:

(١) في (ب) و (د): ومعناه.

(٢) في المخطوطات: واعتلاؤه. ولعلها كما أثبت، لتوافق السجعة التي قبلها في قوله: (وما معناه).

(٣) في (أ) و (ج): واستوى.

(٤) في (ب): تريد أن عرشه مقعد له ومجلس.

(٥) في (أ) و (ب) و (ج) و (د): قال به ثم استوى.

(٦) في (ب) و (د): وتحتويه اقتداره.

وإنّا لتستحلي المنايا نفوسنا وتترك أخرى مَرَّةً ما^(١)
وقد يعلم^(٢) أن المنايا لا تستحلي ولا تُستمر، وأن النفوس لا تحلو في ذوق ولا
تَمِرّ.
وقوله:

وشَيَّب رأسي قبل حين مشيه رعود المنايا فوقه وبروقها^(٣)
وقد يعلم أن المنايا لا ترعد ولا تبرق، ولا يتوهم ذلك إلا كل أحرق وأحرق، وأن
الرعود والبروق إنما تكون بالسحاب، إلا أن مقاله في ذلك مَثَلٌ يجوز في التبيين
والإعراب.
وكذلك قوله:

لنا نبعة كانت تقينا فروعها فقد ذهبت إلا قليلا عروقتها^(٤)
والنبعة شجرة صلبة يمانية، يعمل من قضبانها هذه القسي العربية، وقد علم كل
صحيح العقل ذي سمع، أنه لم يُرد بقوله هذا نبعة من شجر النبع.
ومثل ذلك قول الحطيئة في آل لَأَيٍّ من طيء وهو يمدحهم:

هل لي ذنب بأن أعيت معاولكم من آل لأَيٍّ صفاةً أصلها راسي^(٥)
ولا يتوهم أحد أنها صفاة من الصفيّ، إلا كل جلف من الناس جافي، ولا
يتوهم^(٦) معاولهم من حديد، إلا كل أحق من الخلق بليد، وقد علم من نور الله قلبه،

(١) لم أقف عليه.

(٢) في (ب) و (د): لا تذوقها.

(٣) في (أ): علم.

(٤) لم أقف عليه.

(٥) لم أقف عليه.

(٦) ورد هذا البيت في ديوان الحطيئة، بلفظ: ما كان ذنبي. من قصيدة مكونة من تسعة عشر بيتا، انظر ديوانه.

(٧) في (ب) و (د): فلا.

وعرف الله ربه، أن العرش والكرسي ليسا مما ذهب إليه المشبهون لله بما صنع، وبعض ما خلق من خلقه وابتدع، سبحانه وتعالى عن ذلك، وعن أن يكون كذلك، وهل يمكن في وهم أو حقيقة حق، أن يكون الخالق أبدا كشيء من الخلق؟! أولم يسمع من توهم ذلك أو ظنه، قاتله الله ما أضل وهمه وظنه، قول الله العليم الخبير: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. وقوله سبحانه: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإحلاص: ٤]. والكفو فهو المثل والنظير، فتعالى من لا نظير له ولا مثل، ^(١) ولا كفو له ولا عدل، الذي كل موجود سواه فخلقه وصنعه، والله فخالق ذلك كله ومبتدعه، كبيره في صنع الله أكصغيره، وأوله في أنه صنع الله كأخيره، لا ينكر ذلك ولا يجمله، إلا من جهل الله جل جلاله.

وقد قال العمارة والجاهلون، الذين لا يفهمون ولا يعقلون: إن الله خلق آدم على صورة نفسه ^(٢)، وإنه يضحك حتى تبدو نواجذه ^(٣). ونواخذ الإنسان أنيابه التي جنب ^(٤) أضراسه، فشبهوه في ذلك وغيره - تعالى قدسُه - بالناس، وزعموا أن علمه وإدراكه لما علم وأدرك إنما هو بالحواس، فقالوا: إن علمه ودركه لما يرى ويبصر إنما هو بالبصر، وإن سمعه لما يسمع كما يُعقل من سمع البشر، ومن قال بذلك في الله، فقد

(١) في (أ) و (ب) و (د): من لا مثل له ولا نظير. وفي (ج): لا مثل ولا نظير. وما أثبت اجتهاد: مني لأنه أوفق للكلام الإمام.

(٢) أخرج حديث: إن الله خلق آدم على صورته. البخاري (فتح ٣/١١)، ومسلم ٢٠١٧/٤ (١١٥)، وأحمد في مسنده ٤٣٤/٢، والبخاري في الأدب المفرد/٧٣، وابن أبي عاصم في السنة/٢٢٨ (٥١٦) و (٥٢١)، والبيهقي في الأسماء والصفات/٢٩١، وذكره ابن حجر في فتح الباري ١٨٣/٥.

(٣) حديث: إن الله ضحك حتى بدت نواجذه. تعالى الله سبحانه عن ذلك، أخرجه أبو عوانة في المسند ١/١٣٩. بل روى أبو عوانة أن الله ضحك حتى بدت لهواته وأضراسه. المسند ١/١٣٩، وابن منده في الإيمان/٨٠٤.

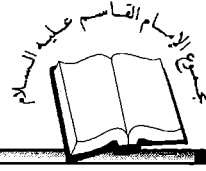
ورؤوا: لن نعدم من رب يضحك خيرا. أخرجه ابن ماجة ١/٦٤ (١٨١)، والطبراني في الكبير ١٩/٢٠٧، ٢٠٨، وأحمد في المسند ١١/٤. ولفظ الحديث: ضحك ربنا من قنوط عباده وقرب غيره. قلت: يا رسول الله أويضحك الرب؟! قال: نعم. قلت: لن نعدم من رب يضحك خيرا. تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا!!!

(٤) في (أ) و (ج): التي إلى جنب.

برئ من المعرفة بالله، فنحمد الله على ما هدانا له من معرفته، وأبان بالبرهان النير من فرق ما بين صفات الخلق وصفته، ونستعين بالله في ذلك على واجب شكره، ونعوذ به فيه من الضلال عن أمره^(١). والحمد لله.



(١) في (ب) و (د): عنه أمره، وصلى الله على محمد النبي وأهله وسلم تسليماً. ثم الكتاب، بعون الله الملك الغلاب. ويليهِ هذان البيتان. والحمد لله وحده، وصلواته على رسوله، سيدنا محمد وآله.



فهرسة الجزء الأول



الفهرس

٣	* مقدمة التحقيق
٨	ترجمة المؤلف
٨	أبوه:
١٠	أمه:
١٠	ولادته:
١١	صفته:
١١	أولاده:
١٣	مشائحه
١٣	تلامذته
١٥	البيعة الأولى سنة (١٩٩هـ):
١٨	مآسي أهل البيت
٢١	اللقاء التاريخي لأهل البيت
٢١	البيعة الثانية سنة (٢٢٠هـ):
٢٤	جهاد الإمام
٢٧	علم الإمام
٢٧	مرحلة التلقي:
٢٨	علم الإمام بلغة العرب
٣١	فصاحة الإمام وبلاغته
٣١	شاعرية الإمام
٤٢	زهد الإمام
٤٣	ورع الإمام
٤٦	مرحلة العطاء
٤٦	الفلسفة اليونانية والفلاسفة

٤٧.....	وقفة مع العمل والعصر:
٥٠.....	طريقة الإمام القاسم في تناول قضايا الرسالة:
٥٥.....	الملاحظة.....
٥٩.....	الزندقة وابن المقفع الزنديق.....
٦٤.....	العقيدة وهدم الإسلام ومبادئه الثابتة.....
٦٩.....	النصرانية والنصارى.....
٧٤.....	محتوى الرسالة ومنهج المؤلف.....
٧٦.....	منهج في مجادلة الخصوم.....
٧٨.....	النصارى واليهود أيضا.....
٧٩.....	المشبهة.....
٨٦.....	الكرامية.....
٨٨.....	منهج الإمام القاسم في الرد على المشبهة.....
٩٢.....	الرافضة.....
٩٥.....	المعتزلة.....
٩٦.....	الإمامة.....
١٠٠.....	التوحيد.....
١٠١.....	ليس كمثله شيء.....
١٠٥.....	العدل.....
١٠٥.....	المجبرة القدرية.....
١٠٦.....	نحن مجبورون في هذا.....
١٠٨.....	هنا إرادتنا حرة.....
١٠٩.....	معنى يُضِل من يشاء ويهدي من يشاء.....
١١٢.....	المرجئة.....
١١٦.....	الإيمان والعمل.....
١٢٠.....	الشفاعة.....

١٢٣.....	حِكْمٌ وآداب وأخلاق
١٢٧.....	رؤى علمية
١٢٧.....	كروية الأرض وحركتها وجاذبيتها
١٢٧.....	المطر من بخار البحار
١٢٨.....	عناصر الأشياء
١٢٨.....	العقل
١٢٩.....	التفكير شرط لفهم الدين
١٣٠.....	الإسلام
١٣٠.....	تشويه الحكام للإسلام
١٣٠.....	الملوك وراء نشأة المذاهب
١٣٠.....	الجهاد والثورة
١٣١.....	الصلاة
١٣٢.....	مثل العالم والمتعلم
١٣٢.....	مثل علماء السوء
١٣٣.....	نظرة إلى القرآن
١٣٣.....	القرآن كتاب حياة
١٣٦.....	[تحريف الطغاة للقرآن]
١٣٦.....	[مصحف علي عليه السلام]
١٣٨.....	نظرة إلى السنة
١٣٨.....	نظرة إلى أهل البيت
١٣٩.....	نظرة إلى الحجة
١٤٠.....	نهاية المطاف
١٤٢.....	قالوا في الإمام القاسم:
١٥٤.....	مشائخ الإمام القاسم
١٥٥.....	* الكتاب

١٥٥.....	إثبات نسبة الكتب إلى الإمام القاسم.....
١٥٥.....	أولاً: الأسانيد.....
١٥٨.....	تداول الأفكار والمصطلحات في عصره.....
١٥٩.....	النقل من كتبه.....
١٥٩.....	ذكرُ العلماء لكتب الإمام.....
١٦٣.....	المسائل المنثورة.....
١٦٤.....	الكتب والرسائل الموجودة والمفقودة.....
١٦٤.....	الموجود منها:.....
١٦٥.....	المفقود:.....
١٦٨.....	أسلوب التأليف.....
١٦٨.....	كيفية إيصال الفكرة:.....
١٦٩.....	فكرة التأليف.....
١٦٩.....	أهمية الكتب والرسائل.....
١٦٩.....	الأولى: نقاء الفكرة!.....
١٧٠.....	الثانية: تناول مواضيع ساخنة:.....
١٧٠.....	الثالثة: أصالة الحجة:.....
١٧١.....	* التحقيق.....
١٧١.....	كيف كانت البداية.....
١٧١.....	مراحل الإعداد:.....
١٧٢.....	مراحل التحقيق.....
١٧٢.....	منهج التحقيق.....
١٧٢.....	تصحيح النص.....
١٧٣.....	ضبط النص.....
١٧٣.....	توزيع النص.....
١٧٤.....	ترتيب الكتب.....

التعليقات.....	١٧٤
المخطوطات المعتمدة.....	١٧٥
نماذج من المخطوطات:.....	١٧٨
كلمة أخيرة:.....	١٨٩
* الدليل الكبير.....	١٩١
[وسائل المعرفة].....	١٩٥
[تفصيل طرق المعرفة].....	١٩٩
[دلالة الآيات الكونية على وجود الله].....	٢٠٣
[حكمة خلق الجبال].....	٢١٣
[استدلال إبراهيم عليه السلام على الله].....	٢١٩
[استدلال نوح عليه السلام على الله].....	٢٢٣
[استدلال يوسف عليه السلام على الله].....	٢٢٤
[استدلال موسى وهارون عليهما السلام على الله].....	٢٢٥
[استدلال محمد صلى الله عليه وآله وسلم على الله].....	٢٢٧
[تتره الله عن شبه الخلق].....	٢٣٠
[الايمان قول وعمل واعتقاد].....	٢٣٢
[أول الواجبات معرفة الله].....	٢٣٦
[الاصغاء لحديث القرآن].....	٢٤٠
[صفات المؤمن].....	٢٤١
[اعرف الحق تعرف أهله].....	٢٤٤
[أئمة الجور من أسباب الضلال].....	٢٤٦
[الجهل المركب].....	٢٥٢
* الدليل الصغير.....	٢٥٧
[التفكير طريق المعرفة بالله].....	٢٦٠
[استدلال إبراهيم على وجود الله].....	٢٦٢

- ٢٦٧..... [استدلال موسى على وجود الله]
- ٢٧٠..... [عظة بليغة]
- ٢٧٣..... [التوكل على الله]
- ٢٧٥..... [قوى النفس]
- ٢٧٦..... [الدلائل على الله]
- ٢٨٠..... [الله خالق الكون]
- ٢٩١..... * مناظرة مع ملحد
- ٢٩٣..... [مدخل إلى المناظرة]
- ٢٩٤..... [إثبات وجود الصانع وحدوث العالم]
- ٢٩٧..... [نظرية الهوى والصورة وحدوث الأشياء من بعضها]
- ٢٩٩..... [نظرية الكمون والظهور]
- ٣٠٣..... [علة وجود الأشياء وفسادها]
- ٣٠٤..... [توحيد الخالق]
- ٣٠٧..... [حكمة خلق العالم]
- ٣١٣..... [إرسال الرسل وحكمة التشريع]
- ٣١٥..... [الحكمة من الموت والبعث]
- ٣١٩..... * الرد على الزنديق ابن المقفع
- ٣٢٢..... [الرد على ماني]
- ٣٢٧..... [الرد على بن المقفع]
- ٣٥٣..... [التفكير فريضة إسلامية]
- ٣٥٥..... [إسلام السلاطين]
- ٣٨٧..... * الرد على النصارى
- ٣٨٩..... [مشاهة الفروع للأصول]
- ٣٩٠..... [عيسى بشر]
- ٣٩٤..... [مصادر عقائد النصارى]

- [أدب الحوار] ٤٠٣
- [مذاهب النصارى المتفق عليها] ٤٠٣
- [مذاهب النصارى المختلفة] ٤٠٥
- [المذهب الجامع للنصارى] ٤١٥
- [نقض مذاهب النصارى] ٤١٧
- [قواعد للحوار] ٤٢٠
- [وصايا المسيح عليه السلام] ٤٣١
- * كتاب المسترشد ٤٤٣
- [معاني ((في))] ٤٤٧
- (الرد على من قال إن الله نفساً كنفس الإنسان) ٤٥١
- (الرد على من زعم أن الله نور كالأنوار المخلوقة) ٤٥٥
- (الرد على من أنكر من الجهمية أن يكون الله سبحانه شيئاً) ٤٦١
- (الرد على من أنكر أن يكون الله واحداً ليس بذي أبعاد) ٤٦٥
- (الرد على من زعم أن الله وجهها كوجه الإنسان) ٤٧١
- (الرد على من زعم أن الله تدركه الأبصار وتحيط به الأعين تعالى عن ذلك) ٤٧٩
- * الرد على المجبرة ٤٩٧
- [أسئلة إلى المجبرة] ٥٠٤
- * الرد على الرافضة ٥١٣
- * الرد على الروافض من أهل الغلو ٥٣١
- [صفة الإمام] ٥٥٣
- [الحجة الغائبة] ٥٥٧
- [صفة الإمام] ٥٥٨
- [صفة الإمام] ٥٧٨
- * العدل والتوحيد ٥٨١
- [عقائد يجب الإيمان بها] ٥٨٣

٥٨٣.....	[التوحيد]
٥٨٥.....	[أسباب وعلل التشبيه]
٥٨٦.....	[الرؤية]
٥٨٨.....	[شبه المشبهة]
٥٩١.....	[القرآن كلام الله مخلوق]
٥٩٣.....	[العدل]
٥٩٥.....	[الهدى والضلال]
٥٩٧.....	[القدرة قبل الفعل]
٥٩٩.....	[المعاصي فعل الإنسان وتزيين الشيطان]
٦٠٧.....	[فرائض الله ونواهيه]
٦١١.....	[موالاة المؤمنين]
٦١٣.....	[معاداة الكافرين]
٦١٣.....	[معاداة الفاسقين]
٦١٤.....	[الفاسق]
٦١٨.....	[التوبة]
٦١٩.....	[التوبة من حقوق الله]
٦١٩.....	[التوبة من حقوق المخلوقين]
٦٢١.....	[التوبة من القتل والجراحات]
٦٢٤.....	[الإيمان والتوبة منها والكفارة]
٦٢٥.....	[التوبة من ترك الصلاة وسائر العبادات]
٦٢٦.....	[الصلاة]
٦٢٦.....	[الصوم]
٦٢٦.....	[الزكاة]
٦٢٦.....	[الحج]
٦٢٩.....	* أصول

٦٢٩.....	العدل والتوحيد
٦٣٥.....	جواب مسألة لرجلين من أهل طبرستان
٦٤٠.....	[مرجع أهل الديانات]
٦٤٥.....	* فصول في التوحيد
٦٤٧.....	الأصول الخمسة
٦٤٩.....	[فروض الله على المكلفين]
٦٥١.....	[فصل في التوحيد والعدل]
٦٥٢.....	[فصل في التوحيد والعدل]
٦٥٣.....	[أصول الدين]
٦٥٥.....	* تفسير العرش والكرسي
٦٥٧.....	صفة العرش والكرسي وتفسيرهما
٦٦٣.....	[معنى العرش والكرسي]
٦٨٧.....	* فهرسة المواضيع

